

عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٦

الطفولة والمراهقة

- النمو الجسدي في مرحلتى الطفولة
- النمو النفسي من الطفل الى الراشد
- الانفصال عن العالم
- والرحيل الى الاعماق
- النمو الروحي والخلقي
- والتنشئة الاجتماعية

الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق

الأفراد تحت إدارة واحدة . وتضحي هذه المهمة أكثر تعقيدا كلما ازداد حجم القوى العاملة التي تعمل في منظمة واحدة أو في مكان واحد. ومن ثم يضحي التوازن حتمي وضروري في تطوير أساليب الإدارة في مجال إدارة الطاقات البشرية عن طريق سياسات تخطيطية تمهد المسيرة نحو تعاون جماعي ، ومساهمة فعالة لضمان تحقيق أهداف المنظمة من خلال تحقيق حاجات الفرد وتطلعاته في المستقبل .

عمق اهتمامه أو مقدار ولائه للمنظمة التي يعمل بها .

والثاني يتمثل في التنبؤ أو في تفسير ما يطرأ على سلوك الإنسان أو تصرفاته أو اتجاهاته من تقيز أو تقلب في المستقبل .

وإزاء هذه الحقائق تضحي المهمة شاقة في إدارة الإنسان العامل . وتزداد هذه المهمة صعوبة إذا اجتمع هذا الإنسان مع غيره من



الطفولة والمراهقة

تقديم

زاد الاهتمام في السنوات الأخيرة ، وبخاصة منذ الستينات ، بدراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ازدياداً كبيراً تمثل في كثرة الكتابات التي تتناول المشكلات المتعلقة بنمو الطفل ، والتغيرات التي تطرأ على تكوينه الجسمي ، وتطور حياته العقلية والانفعالية ، وعمليات التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعي ، التي يخضع لها الاطفال في مختلف المجتمعات والثقافات . وتعتمد هذه الكتابات في الاغلب على الملاحظة المباشرة الطويلة ، التي تعتبر هي الاداة الرئيسية في البحوث العقلية والتجريبية ، وقد امكن من طريق هذه الوسيلة التعرف على كثير من التفاصيل والدقائق عن حياة الطفل في سنى حياته المبكرة ، وفي مرحلة المراهقة الخطيرة التي كثيرا ما يكون لها آثار عميقة وبعيدة المدى في حياته وتكوين شخصيته وقدرته على التلاؤم مع المجتمع الذي يعيش فيه ، والتواءم مع ثقافة ذلك المجتمع وعاداته وتقاليده وقيمه ، وتقبل الاوضاع السائدة فيه او التمرد عليه . ولكن على الرغم من كثرة هذه الكتابات التي تتناول جوانب كثيرة من المشكلة فلا تزال هناك نواح كثيرة في حاجة الى مزيد من الدراسة والبحث . ومع ذلك فانه يمكن القول بوجه عام ان الطفولة والمراهقة قد وجدتا منذ بداية القرن العشرين ، وبالذات منذ الستينات ،

من عناية العلماء في مختلف التخصصات ما لم تجده من قبل ، وإن كان هذا لا يعنى انصراف الكتاب والعلماء والفلاسفة والادباء تماما عن الكتابة في الموضوع قبل القرن العشرين ، اذ الواقع ان حياة الطفل بالذات كثيرا ما كانت تثير خيال الكتاب والادباء الذين عالجوها في بعض قصصهم ورواياتهم ، وقدموا لنا صورا دقيقة لما كان يعانيه الاطفال ، وبخاصة في القرن التاسع عشر ، نتيجة للتصنيع والثورة الصناعية ، وما أحدثته من تغيرات في حياة المجتمع في الغرب .

والواقع ان الظروف والامور الاجتماعية والاقتصادية التي سادت المجتمع الانساني عموما ، والمجتمعات الغربية بوجه خاص ، والتغيرات الهائلة التي طرأت على بناء هذه المجتمعات بعد الثورة الصناعية ، كانت من اهم اسباب زيادة الاهتمام بدراسة مشكلات الطفولة دراسة علمية ، والعمل على تشخيص هذه المشكلات ، ومحاولة ايجاد حلول لها . ذلك ان الانتقال من الحياة التي تعتمد في المحل الاول على الزراعة وعلى الانشطة المتعلقة بها ، الى الاعتماد على الصناعة وما يرتبط بها من زيادة التخصص والمهارة وتقسيم العمل ، والتغيرات السكانية نتيجة لجذب المراكز الصناعية والحضرية لليد العاملة من المناطق الريفية ، وانفصال العامل بالتالي عن عائلته الكبيرة ، وما نجم عن ذلك من تداخل البناء العائلي التقليدي ، وظهور الاسر الصغيرة او العائلات النواة - كما يسميها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا - التي أصبحت تؤلف الشكل الرئيسي للتنظيم العائلي في المجتمعات الصناعية والمتقدمة عموما ، كل هذا كانت له آثار عميقة على تنشئة الطفل وعلى تغيير النظرة الى الطفولة والمعاملة التي يلقاها الاطفال ، كما كان وراء ذلك الاهتمام الطبيعى والعميق بدراسة مشكلات الطفولة ووضع الطفل ثم المراهق في المجتمع الحديث .

فالمعروف مثلا ان الامور الاقتصادية في المجتمع الصناعى الحديث تستلزم خروج الرجل والمرأة على السواء للعمل . وقد ترتب على ذلك ظهور امور كثيرة كان لها اثرها في حياة الطفل ونوع الرعاية التي يلقاها ، اذ ان انصراف الام - ولو جزئيا - عن حياة البيت ورعاية الاطفال كان يتطلب ضرورة ايجاد من يحل محلها للقيام بهذه الوظيفة سواء كان ذلك عن طريق الاعتماد على اشخاص آخرين او على مؤسسات متخصصة ، وهي كلها بدائل لم تكن العائلة التقليدية الكبيرة تعرفها ، اذ كان الطفل ينشأ بين أفرادها العديدين في وسط صحي يوفر له ما يحتاج اليه من حسن الرعاية والعناية والاهتمام . بل ان هذه الظروف الاقتصادية ذاتها ، واستقلال المرأة اقتصاديا وعدم اعتمادها في حياتها على الرجل كما كان عليه الحال في المجتمع التقليدي ، أدت بالضرورة الى اكتمال دور الاب في حيات الاسرة الحديثة ، بحيث لم يعد يؤدي نفس الوظيفة القديمة - او على الاقل لم يعد هو المركز الرئيسى الذى تدور حوله حياة الاسرة ، وأصبح عدم وجود الاب في المجتمع الصناعى الحديث ظاهرة مألوفة ، بحيث تجد من بعض علماء الاجتماع من يتكلم الآن عما يسمى بالمجتمع الذى لا يعرف نظام الابوة او المجتمع بدون آباء fatherless society ، وهو تعبير يكشف عن كثير من المخاطر والمشكلات التي يعاني منها المجتمع الحديث ، وهى مشكلات تتراوح بين انفصال الزوجين الى الطلاق الى ظهور العلاقات الجنسية

خارج الزواج وانجاب اطفال لا يعرفون لهم آباء شرعيين . ومحصلة هذا كله قلة الرعاية التي يجدها الاطفال في الاسرة ، وزيادة الانحرافات السلوكية بينهم وبخاصة بين المراهقين ، وان كانت هناك بنير شك أسباب وعوامل أخرى لهذا السلوك الانحرافى ، الى جانب قلة الاهتمام بالاطفال داخل الاسرة . ولكن الذى يهمننا هو انصراف الاسرة عن بذل العناية اللازمة للاطفال ، وظهور مؤسسات متخصصة للقيام بهذه المهمة ، وما ارتبط بهذا كله من مشاكل تعترض حياة الطفل وأساليب تربيته كانت كلها من أهم الأسباب التي دفعت الى زيادة الاهتمام بدراسة هذه المشكلات ، أو الى اعتبار الطفولة والمراهقة كمشكلة من المشاكل التي يجب على المتخصصين في العلوم الاجتماعية والسلوكية ان يعطوها ما تستحقه من جهد وعناية .

وليس المقصود بذلك ان الاهتمام بمشكلات الطفولة والمراهقة لم يظهر الا في القرن العشرين؛ اذ الواقع ان حياة الطفل والمراهق كانت تثير دائما قدرا من الاهتمام ، وكل ما نقصده هو ان القرن العشرين شهد تغيرا كبيرا في نوع الاهتمام نتيجة لتلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية . ولقد تجلى ذلك في النظريات الكثيرة والآراء الجديدة المتضاربة التي ظهرت بكثرة منذ بداية هذا القرن وهي نظريات وآراء نجد عرضا لها في الدراسات التي يقدمها لنا الاساتذة الدكتور سيد خيرى والدكتور سيد غنيم والدكتور عبد الرحمن عيسوى ، والتي يعالجون فيها نواحي هامة في التطور الفيزيقي والعقلي والانفعالي لدى الطفل والمراهق . ولقد كان لعلم النفس والتحليل النفسى اكبر الفضل في القاء كثير من الاضواء على هذه الجوانب . ولقد دفعت كتابات فرويد وبياجيه Piaget الدراسات السيكولوجية والسيكوتحليلية في هذا المجال دفعة قوية . بل ان كثيرا من العلماء عكفوا ليس على دراسة الطفولة والمراهقة كمرحلة قائمة بذاتها أو كوحدة متميزة بل على دراسة فترة صغيرة محدودة من هذه المرحلة بقصد التعمق في أسرارها . فقد زاد الاهتمام مثلا بدراسة التطور العقلي لدى الطفل خلال الشهور الستة الاولى من حياته ، واعتمد هؤلاء العلماء في ذلك على ألعاب الطفل باعتبارها تعبيرا رمزيا عن تجاربه وتخیلاته وأحواله الانفعالية . وربما كانت ميلاني كلاين Melanie Klein وهي من تلميذات فرويد - من أهم من عمل في هذا المجال بقصد الكشف عن التطورات التي يمر بها الطفل في هذه المرحلة المبكرة من حياته ، ثم عمل نيكوت Winnicott وهو طبيب اطفال ومحلل نفسي - بعد ذلك على تطوير أفكار ميلاني كلاين ، وآرائها وأساليبها وطرائقها ، بحيث استطاع ان يتغلغل في عقل الطفل في شهره السادس ، وذلك على أساس ان هذه المرحلة المبكرة لها أهميتها القصوى في تكوين الطفل ونموه وتطوره العقلي والجسماني على السواء . فسن الستة شهور تعتبر هي « المرحلة الحاسمة التي يبدأ فيها المخ باستخدام الخلايا العصبية الاضافية التي يحصل عليها في اثناء نموه والتي رفعت الانسان فوق مرتبة باقي الرئيسيات ، وتصبح حاسة اللمس والمناولة الوسيلة المفضلة لادراك العالم الخارجى . . . وفي تلك المرحلة فقط يبدأ الطفل في ادراك حقيقة وجود عالم خارجي ، وبالتالي عالم داخلي ايضا وهو (الأنا) . اما قبل تلك المرحلة فان معظم المليارين

من الخلايا العصبية للمخ لم تكن قد استخدمت بعد في مجالات التجربة والذاكرة والمنطق . . . » وهكذا . (انظر موسوعة الهدف ٢٠٠٠ ، صفحة ١٤٧٤ من الترجمة العربية) . وبصرف النظر عن الأهمية العلمية والعملية لمثل هذه المعلومات ، فالمهم هنا هو ان الاهتمام بالطفل وبحياته وتطوره بلغ درجة عالية جدا ، بحيث أصبحت مرحلة الطفولة تقسم الى مراحل فرعية قصيرة وصغيرة تتوفر على دراسة كل منها فريقي من العلماء بغية التوصل الى مزيد من المعلومات والتفاصيل الدقيقة ، التي قد يمكن الاستعانة بها في تحديد نوع التربية والطريقة السليمة لمعاملة الطفل ، وتنشئته اجتماعيا في المجتمع والثقافة اللتين ينتمي اليهما .



ولقد أسهم علماء الاجتماع بنصيب وافر في دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ، وان كانت معظم دراستهم تدور بطبيعة الحال حول موضوع التنشئة الاجتماعية ، وبخاصة دور العائلة في هذه العملية المعقدة ، والدور الذي يلعبه الوالدان بالذات في تربية الطفل ، او على الاصح في تطويعه وتشكيله لنمط الحياة في المجتمع الحديث ، وللقيم والقواعد التي تحكم سلوك أعضائه . كذلك اهتم البعض منهم بدراسة العلاقة بين نمو شخصية الطفل او المراهق ، واختلاف الادوار التي يضطلع بها ، والاضاع التي قد تؤدي الى انحرافات السلوك لدى كل منهما . والملاحظ هنا على العموم ان معظم الكتابات السوسولوجية التي تعالج هذه المسائل متأثرة الى حد كبير بنظريات علم النفس والتحليل النفسي ، وان كان ثمة اتجاه قوى الان الى دراسة التنشئة الاجتماعية على انها عملية تفاعل اجتماعي بكل معاني الكلمة ، اذ يتفاعل فيها الاطفال مع البالغين في العائلة وفي المجتمع ككل وفي كل مناشط الحياة . فهي ليست مجرد عملية تلقين او توجيه وتدريب من البالغين للاطفال الذين كانوا يعتبرون مجرد صفحة بيضاء يمكن للآباء ان يسطروا عليها تعاليمهم وتوجيهاتهم التي يتقبلها الاطفال ويستوعبونها ويمثلونها ، وبحيث تصبغ شخصياتهم بصبغة معينة محددة . ومع التسليم بان عملية التنشئة تهدف في آخر الامر الى تنمية قوى الطفل وملكاته العقلية ، وتعمل على تلاؤمه مع المجتمع وتوجيه طاقته واستغلالها الى ابعد حد ممكن ، وتنمية خلقه وارادته وشخصيته عموما ، وتعريفه كيف يتقبل عادات المجتمع وانماطه السلوكية وأوامره وقوانينه ، فان علماء الاجتماع الان يرون ان هذه العملية لا يمكن ان تؤدي الى ان يفقد الفرد شخصيته وفرديته ، على الاقل لان كل طفل يولد مختلفا عن غيره من الناحية الفيزيائية ، كما يمر بتجارب وخبرات تختلف تماما عن تلك التي يتعرض لها غيره من الاطفال . فكان المسألة - في نظر هؤلاء العلماء - ليست مجرد عملية صب الاطفال في قالب جامد ، وانما للطفل دوره الايجابي الذي يقوم به في عملية التنشئة ، وهو دور يجب ان يدرس عن طريق مقابله بدور البالغين والكبار .

وعلى أية حال فإنه يمكن القول أن علماء الاجتماع في مجموعهم يحرصون في كتاباتهم حول هذا الموضوع على إبراز أثر الظروف والأوضاع الاجتماعية على سلوك الطفل والمراهق ، وتأثيرهما بأعضاء المجتمع الآخرين ، وتأثيرهما فيهم . ومن هنا كنا نجد معظم الكتابات السوسولوجية تعالج موضوعات مثل أثر العائلة في الطفل ، وأثر المدرسة والعوامل المؤثرة في سلوكهم كالعنف والتسامح في التربية ، وذلك إلى جانب البحوث « التجريبية » التي تعتمد على ملاحظة الأطفال الذين يخضعون لنوع معين من التنشئة كما هو الحال بالنسبة للتنشئة في مؤسسات معينة أو في مستعمرات خاصة ، لها نظمها وقواعدها وقوانينها وفلسفاتها المتعلقة بالتربية وهكذا . وقد أدت هذه الدراسات كلها آخر الأمر إلى ظهور سوسولوجيا التربية أو علم الاجتماع التربوي ، الذي يحتل في الوقت الراهن مكانة هامة بين فروع علم الاجتماع ، وإن لم يحظ بالاهتمام الكافي في جامعاتنا وبين علمائنا ودارسينا .



وأخيراً فقد أفلح علماء الأنثروبولوجيا في إتياد مجالات جديدة وطريقة في دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة وذلك حين بذلوا كثير من الجهد والاهتمام في التطور الاجتماعي للفرد في المجتمعات التقليدية التي كانت تعرف عموماً باسم المجتمعات (البدائية) وهي تسمية آخذة الآن في الاختفاء نظراً لما تحمله من مدلولات تقويمية . ولقد اتجهت الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية عدة اتجاهات ربما كان أهمها الاتجاه الذي يعني بدراسة المراحل الاجتماعية التي يمكن التمييز بينها ضمن دورة الحياة بالنسبة للفرد ، وبخاصة في المجتمعات القبلية التي يعتمد تنظيمها الاجتماعي على عامل السن اعتماداً مباشراً ، بحيث يتوزع جميع أعضاء المجتمع في فئات متميزة كل التمايز ، وبحيث تضم كل فئة منها الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة عمومية واحدة ، ويحتلون بفضل عامل السن مرتبة اجتماعية معينة ، ويمارسون معاً نوعاً محدداً من النشاط الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو الحربي أو الديني يتفق مع عمر أفرادها ، ومع قدراتهم الفيزيائية وخبراتهم في شئون الحياة والمجتمع . ويعرف هذا النظام في الكتابات الأنثروبولوجية باسم نظام طبقات العمر ، على اعتبار أن السن هو العامل الرئيسي أو حتى العامل الوحيد في التفاضل أو التفاوت الاجتماعي ، وبصرف النظر عن الاختلافات والفوارق الأخرى مثل تفاوت الثروة أو غير ذلك . وتعتبر الطفولة والمراهقة في مثل هذه المجتمعات مرحلة عمرية واجتماعية واحدة ، تتميز بارتباط الطفل والمراهق ارتباطاً شديداً بمجتمع النساء ، بحيث لا يسمح لأى منهما في الأغلب بالاختلاط بالرجال البالغين إلا بقدر وحساب ، كما أن الطفل أو المراهق ينتقل إلى مرحلة الشباب والبلوغ التي يمارس أصحابها مهمة الحرب والبطولة والإغارات إلا بعد أن يمر بطقوس وشعائر خاصة تختبر فيها قدراته الجسمية على تحمل المشاق والصمود للصعوبات والقدرة على الحرب ، وهي الشعائر المعروفة في الكتابات الأنثروبولوجية باسم

التكريس التي تتميز بما فيها من قسوة وعنف . فبمقتضى هذه الشعائر ينتقل الفرد رسمياً من مرحلة الطفولة والمراهقة الى مرحلة الشباب والرجولة المبكرة ، كما يدخل اجتماعياً الى مجتمع الرجال وينفصل عن مجتمع النساء ، ويعتبر لأول مرة عضواً كاملاً في المجتمع ككل . وهذا معناه ان مرحلة الطفولة والمراهقة ليست مجرد حالة فيزيقية او فسيولوجية ، وانما هي في المحل الأول مرتبة اجتماعية خاصة اذا عرفنا ان هذه (المرحلة) تضم افراداً تتراوح أعمارهم بين سن الولادة ، وسن الخامسة عشرة او أكثر ما دام هؤلاء الافراد لم يتم تكريسهم . ومن هذه الناحية يعتبرون - بصرف النظر عن أعمارهم الفيزيكية التي تقدر بعدد السنين - أقراناً وزملاء في الطبقة ، ويعاملون معاملة واحدة متشابهة ، ويحتلون مكانة اجتماعية مجدداً مع بعض التمييزات الطفيفة داخل الطبقة لا تؤثر في خصائص النظام كنظام . (انظر في ذلك كله مقالنا عن : « نظام طبقات العمر » - مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ١٩٦٣) .

والاتجاه الرئيسي الثاني الذي اتجهت اليه بحوث الانثروبولوجيين في دراسة الطفولة والمراهقة ، وافلحوا في الاسهام فيه اسهاماً وافرا هو الدراسات المقارنة التي تعنى بمقارنة العادات والتقاليد المتبعة في معاملة الطفل او المراهق في مختلف الشعوب والثقافات ، وكذلك مقارنة الطقوس المرتبطة بذلك ، واختلاف نظرة المجتمع الى كل منهما ، والمتاعب او المشكلات التي يقابلها كل منهما مع الاهتمام بإبراز العلاقة بين المقومات الثقافية وتلك المشكلات .

وربما كانت كتابات عالمة امريكية مارجريت ميد هي أشهر هذه الاسهامات وان لم تكن أكثرها عمقا أو أشدها دلالة . فكتابات ميد - كما يقول إيفانز بريتشارد بحق - كتابات « أنثوية بمعنى الكلمة » فيها « كثير من الجدل والاستطراد اللذين يبلغان حد الثثرة » ، كما انها تنزع الى « تصوير الأشياء في صورة زاهية خلابة » . ولعل أفضل مثال لذلك هو كتابها الشهير عن « البلوغ في مجتمع ساموا Coming of Age in Samoa » الذي ظهر أول مرة عام ١٩٢٩ وأعيد نشره عشرات المرات ، وفيه تقارن بين متاعب المراهقة لدى الفتيان في هذا المجتمع (البدائي) وفي المجتمع الأمريكي المتقدم الحديث . ويلخص إيفانز بريتشارد الكتاب بقوله - وأنا أنقل هنا عن ترجمتي العربية لكتابه عن « الانثروبولوجيا الاجتماعية » - « الكتاب يهدف في أساسه الى ان يبين ان مشكلات المراهقة - وبخاصة عند الفتيات - التي تعتبر ظاهرة عامة أساسية في الحياة الأمريكية لا توجد في ساموا ، وان ظهورها يلزم نوعاً معيناً من البيئة الاجتماعية ، بمعنى أنها لا تنشأ عن الطبيعة ، وانما تنجم عن القيود التي تفرضها الحضارة الحديثة . وعلى ذلك تشرع الدكتورة ميد في دراسة الاختلافات القائمة بين الظروف التي تصاحب مراهقة الفتاة في كلا المجتمعين . وقد اضطرها ذلك الى ذكر كل ما تعرفه عن الوضع الاجتماعي العام للفتاة الساموية . فهي تتكلم مثلاً عن طريقة تنشئتها ونوع الطفولة التي تمر بها والمكانة التي تشغلها في حياة الأسرة والقرية والمجتمع المحلي الكبير ،

الطفولة والمراهقة

كما تتكلم عن علاقاتها الجنسية المتنوعة مع مختلف الشبان . ولكنها تحرص أشد الحرص اثناء ذلك كله على ان تربط هذه المسائل بمشكلة البحث الأساسية لكي تبين مدى تأثير الظروف الاجتماعية في تشكيل شخصية الفتاة المراهقة ، ونوع رد الفعل الذي يصدر عن هذه الشخصية ازاء التغيرات الفسيولوجية التي يحدثها البلوغ .

والنتيجة التي تنتهي اليها مارجریت ميد من هذه الدراسات هي انه لا توجد فوارق بين الفتاة الأمريكية والفتاة الساموية في عملية المراهقة ذاتها ، وانما تكمن الفوارق والاختلافات في الاستجابة لها . فالمراهقة في ساموا تطور رتيب منظم للميسول والاهتمامات ومختلف انواع النشاط ، ولا ينجم عنها أى اجهاد أو كرب أو أزمات ، وبذلك تكون عقول الفتيات بمنأى عن الأهواء المختلفة المتضاربة والصراعات المتعارضة المتباينة ، فلا تراودها التأملات الفلسفية أو المطالب الجامحة التي يصعب تحقيقها . والواقع ان الفتاة هناك لا تطمح في أكثر من أن تعيش لأطول مدة ممكنة قبل زواجها مع أكبر عدد ممكن من العشاق والمحبين ، ثم تتزوج من بعد ذلك في نفس قريتها لتعيش مع أهلها واقاربها وتنجب عددا كبيرا من الاطفال .

وعلى العكس من ذلك تماما تعاني الفتاة الأمريكية المراهقة كثيرا من الارهاصات والتوتر والاجهاد بسبب اختلاف بيئتها الاجتماعية . فماهى اذن الفوارق البارزة الهامة بين الحالتين ؟ تعتقد الدكتورة ميد ان أهم الفوارق يرجع الى انعدام الوجدانات الشخصية والقيم المتصارعة في ساموا . فالفتاة الساموية لا تهتم لانسان معين أو لشيء معين اهتماما بالغاً شديد العمق ، كما انها لا تبنى آمالاً عريضة على أية علاقة واحدة بالذات . وقد يكون ذلك راجعاً الى ان الفتاة لا تنشأ هناك في محيط العائلة الضيق المحصورة ، وانما تجد نفسها تتحرك منذ الصغر في محيط الأقارب الواسع الرحب ، حيث تتوزع السلطة والمحبة بين عدد كبير من الاشخاص ، ولا تنحصران في افراد العائلة وحدهم . ولكن الأهم من ذلك هو أن الثقافة السائدة في ساموا ثقافة متجانسة الى حد بعيد . فهم جميعاً يتبعون نفس معايير السلوك ، ويعتقدون نفس المعتقدات الدينية ، ويخضعون لنفس القانون الخلقى . وعلى ذلك فليس هناك أى مجال للمفاضلة أو الاختيار مما يقلل فرص النضال والاحتكاك بالآخرين ، ومما يساعد الفتاة المراهقة على تجنب الصراع الداخلي الذي يدور في النفس عادة اثناء عملية الاختيار بين القيم المختلفة ، وما يترتب على ذلك الصراع من سوء التوافق ومن العصابات . اما الفتاة الأمريكية المراهقة فانها على العكس من ذلك تجابه في بيئتها الاجتماعية انواعاً عديدة من القيم الاجتماعية المتنافرة ، مما يضطرها الى المفاضلة والى الاختيار . والاختيار هو مقدمة الصراع والنضال (الطبعة الاولى من الترجمة العربية — منشأة المعارف ١٩٥٨ — صفحات ١٤٣ — ١٤٥) .

والاساس القوى الذي تقوم عليه كل هذه البحوث الحقلية العديدة التي يضطلع بها علماء الانثروبولوجيا ويقومون بها في مجتمعات محددة ومعينة بالذات لدراسة عملية التنشئة الاجتماعية

والثقافية ، والتعرف على أساليب التربية والمشكلات التي يواجهها الطفل والمراهق ، ويعتمدون في ذلك على الاتصال المباشر والمعيشة لفترة طويلة من الزمن تتجاوز السنة الكاملة في معظم الأحيان مع استخدام أسلوب الملاحظة المباشرة . فكتابات هؤلاء الباحثين وتقاريرهم هي التي تزود غيرهم من العلماء من أصحاب النظريات بالمعلومات الأساسية التي يقيمون عليها نظرياتهم ويصوغون أفكارهم وآراءهم العامة حول المشكلة . . ولذا كانت هذه البحوث والتقارير الحقيقية تحتل مكانة خاصة لدى المهتمين بالموضوع .



كل هذه الدراسات والبحوث والنظريات والآراء المتضاربة تدل على الأهمية البالغة التي تحظى بها الآن مشكلات الطفولة والمراهقة في مجال العلوم الاجتماعية من ناحية ، كما تعكس من الناحية الأخرى مدى الاهتمام العام ، وبخاصة بين الآباء ، بالتعرف على خير الوسائل التي يمكن اتباعها في تنشئة الأطفال والمراهقين ، بحيث يتحقق الهدف من التنشئة ، وهو تنمية مدارك الأطفال والمراهقين وقواهم وملكاتهم ، مع الحرص على تحقيق تلائمهم مع قيم المجتمع وتقاليدهم . ومن هنا كان السؤال الملح الذي يواجه العلماء والآباء على السواء الآن هو كيف نعامل الأطفال ؟ وما هو الغرض من التربية ؟ وكيف يمكن تحقيق الشخصية السوية ؟ هذه كلها أسئلة لم تكن تتردد في الأغلب - على الأقل بنفس هذه الدرجة من الإلحاح - في الماضي . إذ أنه على الرغم من كل ما يقال عن الثورة الصناعية والتغيرات التي أحدثتها في المجتمع فقد كانت هناك في القرن التاسع عشر أوضاع محددة ترسم لكل شخص مكانته ومركزه ودوره وطريقة سلوكه ، سواء ضمن الجماعة التي ينتسب إليها عمريا ، أو مع الأجيال السابقة واللاحقة عليه . ولقد كانت العلاقات بين الآباء والإبناء بالذات تتصف بالجدية والصراحة التي قد تخفي وراءها كثيرا من الاهتمام والحب الأبوي ، وإن لم يكن الأب يهتم بإظهار ذلك الحب أو التعبير عن عواطفه نحو أولاده ، ويعتبر ذلك نوعا من التذليل والافساد . ولذا كانت وظيفة التنشئة تنحصر في تشكيل الطفل وتطويعه بحيث يتلاءم مع تلك الأوضاع القائمة . ورغم كل ما يؤخذ على هذه الطريقة من جمود وصرامة فلقد أفلحت - كما يقول درايتزل Hans Peter Dreitzel في أن تنجب رجالا ونساء لعبوا دورا هاما في تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا . كذلك فإنها رغم كل ما يؤخذ عليها كانت تخفي وراءها كثيرا من الاهتمام الحقيقي والحب والتماسك العائلي بحيث كان الطفل يشعر بكثير من الاطمئنان والارتياح والاحساس بالأمن ، وهي كلها عناصر يفتقر إليها كثير من الأسر الحديثة في المجتمعات المتقدمة والصناعية . وهذا لا يعني بطبيعة الحال أنه لم تكن هناك حالات من الانحراف في السلوك ، إذ لكل عصر ولكل مجتمع أسبابه وأوضاعه التي تدفع إلى انحراف بعض أعضائه .

هذه الصرامة في المعاملة يقابلها الآن التسامح والحرية الزائدة التي يلقاها الأطفال والتي تدفع

الطفولة والمراهقة

الكثيرين الى التساؤل الناجم عن الحيرة عن أى الاسلوبين فى التربية هو الصحيح والمجدى ، أو على الأقل الأكثر جدوى ؟ وأين هو الحد الفاصل بين الصرامة الزائدة والحرية الزائدة والذي يمكن أن يؤدي الى خلق الطفل السوى ؟ ومثل هذه التساؤلات تبين لنا أن موقف الآباء من أطفالهم قد تغير تغيراً جذرياً ، وأن الآباء لم يعودوا يأخذون أطفالهم على أنهم مجرد مسألة مسلم بها أو تحصيل حاصل ، وإنما على أنهم مشكلة تستحق التفكير والاهتمام . ويقول آخر لم تعد الأم أو الأب الذى يفشل أحد أطفاله في حياته يكتفي بأن يندب حظّه العس ويشفق على نفسه من سلوك طفله ، بل أصبح بدلاً من ذلك يميل الى التعرف على أسباب انحراف الطفل أو فشله ، وقد يرد ذلك في كثير من الأحيان الى نوع المعاملة التي لقيها الطفل . والموقف الصعب الذي يجد البالغون والأطفال على السواء أنفسهم فيه الآن هو كيف يمكن التوفيق أو الاختيار بين الأفكار التقليدية التي نشأت والبالغون يميلون الى فرضها ويؤمنون بجداوها ، وبين النظريات والاتجاهات الحديثة التي تعطي للطفل مكانة واعتباراً لم يكن يتمتع بهما في الماضي ؟ والمعروف أن التنشئة الاجتماعية هي بالضرورة - ومهما يقل عن الاتجاهات التقدمية فيها - عملية فيها جانب كبير (رجعي) أو (محافظ) أن صح هذا التعبير لأنها - وإن كانت تهدف الى خلق الشخصية السوية - فإنها تهدف في الوقت ذاته الى المحافظة على البناء الاجتماعي والثقافي التقليدي حتى يمكن ضمان استمرارية الحياة الاجتماعية عن طريق نقل التراث الاجتماعي والثقافي الى الأجيال التالية . والمعادلة الصعبة هي في إيجاد وسيلة للتوفيق بين هذين الاتجاهين لضمان الاستمرار مع التجديد ، بحيث يمكن أعداد الطفل لعصر يختلف في مفاهيمه واتجاهاته وقيمه ونظراته الى الحياة عن العصر الذي يعيش فيه الآباء . أن الوصول الى حل هذه المعادلة الصعبة هو في الأغلب الوسيلة الفعالة لضمان عدم تمرد الشباب والأجيال التالية ، وهي المشكلة التي تعاني منها المجتمعات الحديثة . ويعرض لنا الاستاذ الدكتور جواد رضا في دراسته عدداً من اللوحات التي تكشف لنا عن كثير من هذه الأمور .

ألا أن المشاهدة على العموم أن معظم الدراسات التي تعالج هذه المسائل تؤكد موقف الآباء الأكثر تسامحاً إزاء الأطفال ، ويعتبرون ذلك موقفاً صحيحاً يقوم على التقدير الصحيح والفهم الصائب لمشكلات الطفولة والمراهقة . كما يكشف عن استعداد الآباء لمراجعة أنفسهم ومواقفهم من أطفالهم . وهذا هو ما كنا نقصد إليه حين قلنا أن الاتجاه يزيد الآن نحو عدم اعتبار الأطفال عنصراً سلبياً في عملية التنشئة ، أو أنهم يستجيبون دائماً للمؤثرات الخارجية التي ترد إليهم من البالغين والكبار ، وأن الكبار أنفسهم ليسوا دائماً عوامل ثابتة في بيئة الطفل الاجتماعية ، ولكنهم خليقون بأن يتغيروا تحت تأثير التحدي الصادر من أطفالهم . ومن الغريب أنه حتى عهد قريب جداً لم تكن معظم بحوث التنشئة الاجتماعية تعتبر الأطفال « كائنات سيكولوجية واجتماعية وتاريخية في ذاتهم » على ما يقول درائزل ، ولم تكن تعتبر الطفولة تصوراً أو مفهوماً متميزاً في ذاته ، وأنه لم يساعد على ظهور هذا المفهوم إلا إنشاء المدارس الحديثة بعد التغيرات الواضحة التي طرأت على بناء المجتمع الحديث . كذلك من الغريب أن نجد أنه رغم كل الاهتمام الذي يبديه المجتمع الحديث

بالأطفال والمراهقين ولعمليات التنشئة فان هذا المجتمع الحديث نفسه يخلق جوا غير ملائم تماما للأطفال بوجه عام ، لدرجة أن الكثيرين من الكتاب يتشككون فيما اذا كانت هذه المرونة او هذا التسامح ازاء الاطفال ناجم حقيقة عن فهم مشاكل الطفولة والرغبة في العمل على حلها ، والايان بضرورة الاهتمام بمتطلباتها ، أو أنه ناجم عن الشعور بالعجز واليأس والاستسلام للاوضاع الراهنة التي لا يجد الآباء والعلماء لها حلا بعد أن فقدت المؤسسات والنظم الاجتماعية التقليدية ، وبخاصة الاسرة ، دورها ووظيفتها في تنشئة الاطفال ، وبعد أن أصبحت المدرسة ذاتها تعاني الكثير من المشكلات ، نظرا لأن المدارس في العادة توجه التلاميذ نحو سياسة تربوية محددة ومرسومة ، بدلا من أن تعمل على الكشف عن القدرات الخاصة بكل طفل وتوجيهها الوجهة الصحيحة للافادة منهم . ان هذا التشكك وما يتعلق به من تساؤلات كثيرة وما يدور حوله من آراء خليق بأن يجد من علمائنا ومفكرينا ما يستحقه من عناية ودراسة واهتمام ، حتى يمكن ان نتجنب في أساليب ووسائل تنشئة الاطفال والمراهقين في مجتمعاتنا كثيرا من المشكلات التي يعاني منها الآباء والابناء في المجتمعات الغربية الأكثر تقدما .

سَيِّد خَيْرِي

النمو الجسدي في مرحلتى الطفولة

من الطريف أن نجد أن الاهتمام بدراسة الاطفال وخبراتهم وسلوكهم يعتبر مركز جذب لأشخاص عديدين غير أولئك الذين يرتبطون ارتباطا طبيعيا وثيقا بتربية الطفل ، وأهم هؤلاء جميعا الآباء والأمهات، فهم الذين، بحكم حبهم لاطفالهم،، يميلون للملاحظة في ولع واهتمام عاطفى ، ويتتبعون تطور شخصياتهم ، ويلمحون معالم التغير في كل ظاهرة من ظواهر حياتهم ، يشاركون في ذلك كل مهتم بعملية التربية والتنشئة لهؤلاء الاطفال كالمدرسين والمدرسات والمربين والمربيات، وغير هؤلاء كثيرون . الا أن هذا الاهتمام الشديد كثيرا ما يجعل ملاحظاتهم ونتائج تتبعهم لما يطرأ على هذه الشخصيات من تغير يشوبها كثير من التحيز والاتجاه الى جانب واحد في أحكامهم لما يلاحظونه ، فغالبية الآباء يلاحظون كل ما يؤيد امتياز اطفالهم عقليا ، ويتذكرون في ذلك كل حادثة صغيرة مرت أمام أعينهم تفسر في هذا الاتجاه ، بل وينحون في تفسيراتهم هذا المنحى ، ولهذا فان الاعتماد على تقارير الآباء والأمهات وذاكرتهم المتعلقة بمراحل النمو التى مر عليها اطفالهم ينبغى لدارس نمو الطفل أن يأخذها بحذر شديد ، وان يجمع ملاحظاته من مصادر

متعددة حتى يستطيع المقابلة بين مختلف الملاحظات والذكريات ويخرج بأكبر قدر من الصحة فيما يتعلق بهذه التغيرات .

أما المتخصصون العلميون ، فانهم يهتمون كذلك بدراسة الاطفال في فروع كثيرة مختلفة من فروع المعرفة العلمية ، فانهم بالرغم من أن موضوع دراستهم غالبا ما تكون مشتركة موحدة تنحصر في نمو الطفل وتطوره الا أن كلا منهم ينظر الى هذا النمو من وجهة نظر خاصة ترتبط بناحية تخصصه ، وهذه النظرات المختلفة في تجمعها تعطي الصورة المتكاملة عن عملية النمو في شخصية الطفل جسميا ونفسيا من مرحلة ما قبل الميلاد حتى مرحلة النضج التي يستقر فيها النمو ، بل ويذهب الكثيرون الا أن دراسة النمو لا تتوقف عند مرحلة معينة ، فدراسة المسنين مرتع خصيب في الوقت الحالي للفحوص العلمية الشيقة .

ولعل أهم هؤلاء العلماء اتصالا بموضوع النمو هو التخصص في علم النفس الارتقائي ،
أو سيكولوجية التطور Developmental Psychology أو علم نفس الطفل كما يسمى عادة Child Psychology وبالرغم من أن الدراسة العلمية لهذا التخصص تنصب على متابعة نمو الطفل وتطوره ، الا أنه يستمد خبراته وبياناته التي تخدم أغراضه هذه من فروع مختلفة من فروع المعرفة ، ويبدو ذلك طبيعيا اذا تتبعنا المجموعة الهائلة والمتنوعة من العوامل الداخلية والخارجية التي تحدد وتؤثر في عملية النمو .

فبعض هذه المحددات نستمدتها من علم الوراثة العضوية والوظيفية ، وبعضها الآخر نستمدتها من علم الطب عندما تتعرض للخصائص المرضية والعوامل المؤثرة على صحة الطفل ونموه الجسمي والوظيفي ، ويدخل في ذلك علم وظائف الاعضاء Physiology والتشريح Anatomy وعلم الحياة Biology وأكثر اتصالا من ذلك فروع علم النفس المختلفة كعلم النفس التجريبي Experimental Psychology وعلم النفس المرضي Psychopathology والصحة النفسية Mental Hygiene والتوجيه التعليمي Educational Guidance وغير ذلك من العلوم المرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم النفس كعلم الاجتماع Sociology والانثروبولوجي Anthropology وبوجه خاص التربية .

فدراستنا الحالية لنمو الطفل لا يمكن أن تخلو من التعرض لحقائق مختلفة من هذه العلوم التي ذكرناها وغيرها بالقدر الذي يحتاج اليه توضيح معالم هذه الدراسة .

وهذه الفروع المختلفة المرتبطة بدراسة النمو تلقى ضوءا هاما على ما يحدث للطفل في مراحل طفولته المختلفة وقد رأينا أن نبدا بمرحلة ما قبل الولادة . فحتى عهد حديث كانت دراسة النمو تبدأ من ميلاد الطفل ، أما اليوم فانه من المعترف به أن هناك مظاهر كثيرة على جانب كبير من الأهمية تؤثر في النمو بعد الميلاد تتم قبل الولادة ولهذا فان تحديد دراستنا في السنوات التي تلي الميلاد تكون بمثابة مشاهدة رواية تمثيلية من منتصفها أو بعد مرور عدد من فصولها . فاذا بدأنا دراستنا من يوم الميلاد أصبح ما تم قبل ذلك مجهولا لنا تماما ، بالضبط كما يحدث في حضور الرواية من منتصفها عندما تغيب عنا أشياء كثيرة عن خلفيات الشخصيات التي تقوم

٩.٢

النمو الجسمي في مرحلة الطفولة

بالأدوار المختلفة ، وأنه ليصعب علينا أن نتتبع نموذج النمو والتطور للطفل إلا إذا عرفنا الكثير عنه قبل الميلاد . فلهذا أصبحت دراسة نمو الطفل تبدأ منذ الحمل وتمتد حتى نهاية مرحلة النضج . ولهذا فإن دراسة نمو الطفل ينبغي أن تبدأ من مرحلة ما قبل الميلاد لما لهذا المرحلة من أهمية في توضيح مظاهر ومفاهيم كثيرة في عملية النمو ، علاوة على مساعدة ذلك على إيضاح ما يزود به الطفل عند ولادته من إمكانيات جسمية وعقلية يتضمنها مفهوم النمو أو التطور ، وقد رأينا قبل عرض مراحل النمو المختلفة للطفل أن من واجبنا أن نوضح ما نعنيه بمصطلح النمو ، ونعرفه تعريفاً إجرائياً واضحاً ، ثم نعرض أهم الطرق العلمية لدراسة هذه النمو .

ولما كانت عملية النمو خلاصة لتفاعل النضج الطبيعي Maturation مع عوامل التدريب والتعليم Learning من البيئة وجدنا من اللازم أيضاً توضيح هذا التفاعل بشيء من التفصيل قبل عرض المراحل المختلفة لهذا النمو .

وبالرغم من تداخل هذه المراحل المتدرجة تداخلاً كبيراً نظراً لطبيعتها ونظراً لأن النمو في ذاته عملية متكاملة فإن الدراسة العلمية للنمو تتطلب تقسيمه إلى مراحل متميزة ، ونوضح المعالم الرئيسية لكل مرحلة من هذه المراحل .

ولعل أنسب تقسيم لمرحلة الطفولة ينحصر في التمييز بين أربعة مراحل مختلفة :

١ - مرحلة ما قبل الميلاد

ب - مرحلة الرضاعة

ج - مرحلة الحضانه

د - مرحلة الطفولة : المبكرة والمتأخرة

ويمكننا أن نحدد هذه المراحل الأربع بأعمار تقريبية متدرجة فنقول أن مرحلة ما قبل الميلاد تتم خلال الشهور التسعة التي يتم فيها نمو الجنين في بطن أمه منذ تلقيح البويضة حتى وقت الميلاد . أما مرحلة الرضاعة فتبدأ من الميلاد حتى نهاية السنة الأولى تقريباً . وأما مرحلة الحضانه فتتمد من السنة الثانية حتى نهاية السنة الثالثة . وأما مرحلة الطفولة فتنتهي بمرحلة المراهقة ويمكن أن نحددها بين الثالثة والثانية عشرة تقريباً ، وهناك اختلافات كثيرة وخاصة حول المراحل التي تسبق الطفولة الأولى (المبكرة) التي تبدأ من الثالثة .

والمرحلة الأولى تستمر حوالي ٩ شهور أو ٢٨٠ يوماً ، وبالرغم من صغر مدتها إلا أن النمو فيها يتم بغاية السرعة ، وأهم مظهر لهذا النمو هو المظهر الفسيولوجي الذي يتكون خلاله التركيب الجسمي ، أما المرحلة الثانية فهي التي تتضمن انتقال الرضيع إلى بيئة مخالفة تماماً للبيئة التي نشأ فيها وتعتبر مرحلة ركود في نمو الطفل الرضيع ، ووظيفتها أحداث عملية التوافق مع جسم الأم الخارجى ، وتستمر فيها عملية النمو وراكدة حتى تتم عملية التوافق هذه . ووظيفة مرحلة الحضانه تدرج الطفل من الاعتماد على غيره في قضاء لوازم حياته إلى أن يصل

الى القدرة على التحكم في عضلات جسمه ، فيستطيع ان يأكل بنفسه ويلبس ويتكلم ويلعب ، وتعتبر مرحلة الطفولة امتدادا لذلك ، فالطفل الذى تعلم التحكم في عضلاته يتعلم هنا السيطرة على بيئته كما يتعلم كيف يتوافق توافقا اجتماعيا ، وهذا يبدأ في سن السادسة تقريبا ، ولهذا يفضل الكثيرون تقسيم هذه الفترة الى فترتين الطفولة الاولى وتنتهى عند السادسة والطفولة المتأخرة وتبدأ بدخول المدرسة . وهاتان المرحلتان هما اللتان يتعلق بهما بحثنا هذا (١) .



المقصود من النمو :

هناك لفظان يستخدمان بمعنى واحد غالبا ، وهما النمو Growth والتطور Development ونرى منذ البداية التفريق بينهما بالرغم من انه يصعب الفصل بينهما ، فهما يحدثان معا ودائما ولا يمكن ان يحدث احدهما في غياب الآخر . والنمو يقصد به التغيرات الكمية في اجزاء ووظائف الكائن الحى كزيادة في الحجم والتركيب وزيادة الوزن وزيادة حجم الجمجمة والتغير في وزن الاعضاء الداخلة في بنية جسمه ووزن وحجم المخ ، وقد ينتج عن ذلك زيادة في قدرة الطفل على التذكر او التفكير او الاستدلال او التعلم او الادراك ، فالطفل ينمو بهذه الصورة عقليا وجسيميا .

واما التطور فنقصد به هنا التغير النوعى ، ويمكن ان نعرفه بأنه التتابع المستمر المرتب المتسق من التغيرات والتحولات التى تؤدي في نهايتها الى هدف النضج ، ويقصد باستمرار هذا التتابع في هذا المجال ان التغيرات تسير في اتجاه واحد وهو الاتجاه الى الامام لا الى الخلف ، كما ان تعريفا كهذا يفترض ان هناك دائما علاقة بين كل مرحلة والمرحلة او المراحل التى قبلها ، وبالإضافة الى ذلك فان التتابع لا يحدث عن مجرد اضافة بحيث يصبح طول القامة زائدا عن طولها الاصلى ببضعة سنتيمترات ، او يصبح حجم المخ اكبر من حجمه الاصلى بقدر من السنتيمترات المكعبة ، ولكن المفروض في التطور ما يحدث من تفاعل ، فهو عملية معقدة متكاملة بين مختلف التركيبات والوظائف ، ولهذا فان كل تغير يعتمد على المراحل السابقة وبالتالي يؤثر على المراحل المقبلة . فالنمو اذن عملية ديناميكية تفاعلية متكاملة ، وينتهى النمو بطبيعة الحال بمرحلة النضج الذى يصل فيه التغير التركيبى نهاية مراحل ، وتستطيع الاعضاء المختلفة القيام بوظائفها على الوجه الاكمل بالمستوى الذى تتيحه له خصائص الطفل وقدراته وامكانياته الجسمية والنفسية ، وبالرغم من ان كل مرحلة من مراحل النمو تقرب الشخص من مرحلة النضج الا انها في حد ذاتها تعتبر فترة كاملة تعطى دليلا على مدى مطابقة سرعة نمو الفرد بالسرعة الطبيعية واقتراب قدرات الشخص وامكانياته الجسمية والعقلية من المعدل او المتوسط المفروض الوصول اليه في هذا السن المعين في تلك البيئة التى يعيش فيها ، فالسن الاولى التى تظهر للطفل تعتبر دليلا على دخوله مرحلة مميزة من مراحل النمو فهى تدل على الأقل على انه

(١) الارقام بين القوسين تدل على رقم المرجع في قائمة المراجع في نهاية البحث .

النمو الجسمى في مرحلة الطفولة

لم يتأخر في عملية التسنين وأن هذه العملية تسير بتقدم طبيعى في حالات وأنه متأخر او متقدم في حالات أخرى .

أن الكائن الحى دائما في تغير مستمر جسميا وعقليا منذ يوم ولادته (او قبله) حتى يوم وفاته ، وهذه التغيرات تمر في مراحل مختلفة فقد تكون في بدايتها في أحد الأعمار ، وقد تبلغ اقصاها في أعمار أخرى ، وقد تصل الى نهايتها في أعمار ثالثة .

وهذه التغيرات المختلفة تؤثر على النمو بأساليب مختلفة ويمكن تقسيمها الى أربعة أنواع رئيسية :

١ - **التغير في الحجم** : ففى كل عام كلما ينمو الطفل فان ارتفاع قامته ووزنه ومحيط جسمه يزداد عادة ، كما أن الأعضاء الداخلية والتركيبات الحشوية تنمو في الحجم لتواجه المطالب المتزايدة للجسم . وليس هذا قاصرا على المظاهر الجسمية بل يلاحظ كذلك في الوظائف العقلية كالمحصول اللغوى وقدراته العقلية المختلفة .

٢ - **التغير في النسب** : لا يمكننا أن نعتبر الطفل رجلا صغيرا كما كان يظن سابقا ، فان أبعاد جسمه تتغير مع زيادة النمو ، فنسبة حجم الجمجمة والبطن والساقين بالنسبة الى حجم الجسم كلها لا تستمر ثابتة أثناء عملية النمو بل تتغير من مرحلة الى أخرى ، وكما ذكرنا في التغير في الحجم فاننا نلاحظ هذا أيضا في الوظائف والعمليات العقلية ، وهذا ما يميز كل مرحلة عن غيرها من مراحل النمو ، فنسبة الخيال والعدوان والانانية مثلا تزداد في مراحل خاصة وتقل في غيرها بالنسبة لسلوك الطفل .

٣ - **اختفاء بعض المعالم العضوية** : كشعر الجسم الرفيع الذى يكسو الجلد في الرضيع ، وشعر الرأس الناعم والأسنان اللبنية وبعض الأفعال المنعكسة والمناغاة والصراخ وغير ذلك تعتبر من المظاهر الجسمية التى تختفى لعدم الحاجة اليها كلما ازداد الطفل نموا ، ويتبع ذلك اختفاء بعض المظاهر العقلية والانفعالية كحب التملك والأثرة والزهو بالانتصار وجمع الأشياء والمنافسة وغير ذلك وكلها مظاهر لا تثبت مع الطفل بعد ظهورها في مرحلة من مراحل النمو .

٤ - **ظهور بعض المعالم العضوية الجديدة** : وذلك لأن بعض المعالم العضوية أو العقلية قد تظهر نتيجة لعملية التعلم ، كما أن عملية النضج Maturatim تدفع ببعض المؤشرات للظهور كظهور الأسنان الثابتة والمعلم الجنسية الأولية والثانوية ، وفي العمليات العقلية يمكننا أن نذكر حب الاستطلاع والمعرفة والدافع الجنسي والتأمل والتفكير الدينى وغير ذلك .

وبوجه عام نقول أن عملية النمو تتضمن عمليتين متضادتين ، أولاهما ينتج عنها إضافة أجزاء ومميزات جديدة ، والثانية تتضمن اختفاء وازوال بعض المعالم القديمة ، وبطبيعة الحال فان عملية الإضافة تزداد أثرا في الأعمار الصغرى وتبدو أكثر وضوحا ، فهى تساعد على التكوين وملاءمة الصغير للمطالب المتزايدة للحياة المقبلة بينما تزداد عملية الحذف كلما ازداد النمو ودخل الطفل في مراحل جديدة ، ولكن هذا لا يمنع من وجود العمليتين دائما في عملية النمو .

كما أن بعض هذه العمليات تتأخر في وظيفتها وتسير جنباً لجنب في تأدية وظيفة واحدة ، كما يظهر ذلك في تغير الحجم ونسب وأبعاد الجسم وازدياد الوزن فانه يكون نتيجة عادة لنمو في العضلات والعظام ، وكما يحدث ذلك التأخر في المظاهر البدنية يبدو أيضاً في المظاهر النفسية والعقلية كما يحدث نمو في الذاكرة وفي مستوى الذكاء والقدرة على الاستدلال تبعاً لازدياد نمو الطفل .

ان النمو سواء كان جسيمياً أو عقلياً لا يسير بطريقة منتظمة فهو يبلغ أقصى سرعة خلال الأشهر التسعة الأولى قبل الميلاد (أثناء الحمل) ، حيث ينمو الجنين من خلية ميكروسكوبية الى طفل يزن ٧ أرطال في المتوسط و ٢٠ بوصة في طول القامة .

وبوجه عام فان النمو تزداد سرعته بدرجة ملحوظة خلال السنوات الأولى من حياة الطفل ، ويبدو ذلك واضحاً اذا قارنا بين الطفل الوليد والطفل الذي يصل عمره الى ثلاث سنوات ، فمثلاً في هذه المدة تجد أن النمو يكون ملحوظاً وواضحاً حتى للوالدين اللذين يقضيان مع الطفل طول الوقت ، وهذا الاسراع في النمو الجسمي يصحبه اسراع في النمو العقلي كذلك ، واما في المرحلة التالية التي تبدأ في سن الثالثة وتنتهي في سن السادسة فان النمو فيها يسير بسرعة كذلك ، ولكن هذه السرعة لن تصل الى السرعة السابقة ، وزيادة عن ذلك فان سرعة النمو تبطئ أكثر بعد السادسة تدريجياً حتى مرحلة البلوغ ، فالطفل ينمو في هذه المرحلة الا أن نموه هذا لا يقاس بالنمو الذي يحدث في السنوات الثلاث الأولى .

وهذا النمو بوجه عام قد لا يلحظه الطفل نفسه ، بل هذا ما يحدث عادة حيث لا ينتبه الطفل لما يحدث بجسمه من تغير الا اذانه به اليه غيره أو سمع تعليقاً عليه ، أما الاطفال الأكبر سناً فانهم يكونون أكثر وعياً لما يحدث في أجسامهم من تغيرات وخاصة في المراحل التي تحدث تغيرات وظيفية كمرحلة المراهقة .

ان معرفتنا للنموذج الذي يتبعه النمو البشري يمكننا أولاً أن نعرف ما تتوقعه من اطفالنا في السنوات المختلفة ، فدراسة النمو وملاحظته يؤدي الى تفهم طبيعة المرحلة وما يحدث فيها من نمو جسمي وعقلي ، وعن طريق التنبؤ مادام الطفل ينمو بأسلوب عادي بوجه عام يستطيع المربي أن يعرف من قبل ما سيحدث له جسيمياً وعقلياً فيعد العدة لاستقبال هذا التغير المنتظر . وبذلك لا نطلب من طفلنا أكثر مما يستطيع آداءه جسيمياً أو عقلياً ، ولنضرب مثلاً على ذلك أن استخدام القلم والقبض عليه بأصابع اليد بطريقة يسهل معها توجيه الوجهة التي يريدها الطفل تتطلب أن يكون الطفل قد مر بمرحلة معينة يستطيع معها التحكم في أطراف الأصابع وأحداث التأخر بين ثني وتحريك أصابع اليد المختلفة ، وقد تجبر الطفل على هذه العملية قبل أوانها ، ونطالبه بالتحكم فيها ونتهمه بالتأخر اذا لم يستطع إتقانها ، وبالمثل فان ما يحدث من اجبار الطفل أحياناً على التحكم في عمليات النظافة في التبول والتبرز قبل المرحلة العادية

النمو الجسمى فى مرحلة الطفولة

الطبيعية فيه اشعار للطفل بعدم كفاءته للقيام بما كان يجب عليه القيام به مما يسبب له مشكلات انفعالية فى المستقبل ، والطفل فى هذه المرحلة ينظر الى أوامر وتوجيهات والديه على أنها الأوامر الطبيعية للطفل العادى فى نفس سنه وبذلك يحرم الطفل دائما من الحوافز والمشجعات التى تعينه على تحقيق ثمراته نموه. وقد يؤدى هذا به الى مقاومة دائمة لكل من يقلل من شأن قدراته وامكاناته الطبيعية .

والقيمة التشخيصية الأخرى لدراسة مراحل النمو ومعدلاته تنحصر فى وضع معايير المعدلات التى يصل اليها الطفل العادى فى مرحلة من المراحل ، فنحن نعلم مثلا أن التسنين الاول يبدأ عند الطفل العادى فى مرحلة معينة ، وأن المشى أو الحبو يبدأ فى المتوسط فى سن متوسط محدد ، فإذا تأخر الطفل فى عملية من عمليات النمو عما يحدث عادة فى الطفل العادى كان هذا نذيرا بتأخر جسمى أو عقلى لدى الطفل ، واستوجب هذا عناية خاصة منا بالطفل ، ومن الطبيعى أن هذا المعدل بالرغم من أنه عام إلا أنه يتغير نسبيا بين الجنسين ، كما يتغير فى كل جنس منهما من مكان الى آخر ، فنعلم مثلا أن مرحلة المراهقة تبدأ فى بعض المناطق مبكرة عن غيرها ، ذلك لأن المعروف أن النمو دالة للسن أى أن (ن = (د س) وليس معنى ذلك أنه يتوقف على السن وحده بل يتوقف على عوامل وراثية وبيئية كثيرة يمكن تحديدها الى حد كبير كالمرض والتغذية والعوامل النفسية وغير ذلك ، فإذا حدث لدى الطفل ما قد أدى الى تأخر نموه فى مرحلة معينة كانت مهمتنا بعد ذلك مهمة تشخيصية ، حيث يضع الشخص أمام عينيه جميع العوامل المحتملة ، وبطريق الحذف يستطيع أن يحدد نفسه فى عدد من العوامل القليلة ، وبالرغم من أن هذه العملية التشخيصية تبدو سهلة هينة إلا أنها فى حقيقتها عملية شاقة ، حيث لا تتوفر لدى الاخصائى النفسى عادة المعلومات الكافية التى تساعد على رسم الصورة الكاملة ، ويصبح واجبه اولاً تحديد الناقص ثم كيف يملأ هذه الفراغات الناقصة ، وفى بعض الأحيان لا يساعده التقدم العلمى الحالى لاكتشاف هذه الفجوات ، ويكون السبيل الوحيد الى ذلك هو استخدام البحث العلمى ، وقد يتطرق هذا البحث العلمى الى فروع كثيرة غير علم النفس كالطب والتربية والانثروبولوجى والاجتماع مثلا ، فمن علم الانثروبولوجيا عرفنا الكثير عن أثر نموذج التدريب فى الطفولة على سرعة النمو وطبيعته ، وقد أمدنا علم الاجتماع بحقائق كثيرة عن العلاقة بين حجم الأسرة والعلاقات العائلية وخاصة بين الاخوة مما يؤثر على النمو نفسه ، ولما كانت التغيرات الجسمية والنفسية التى تحدث خلال فترات النمو ترتبط ارتباطا وثيقا بالتغيرات العضوية والوظيفية كان من اللازم دائما أن نلجأ الى الطب وعلم وظائف الاعضاء فى بحوثنا عن النمو ومسببات سرعته ، أما التربية فهى التى تتيح الفرصة لعامل النضج الوظيفى والعضوى لأن يسير فى مجراه الطبيعى ، ويمكننا أن نقبس هنا المعايير الشائعة الاستخدام وهى توضيح الامكانيات التى يستطيع الطفل فى كل مرحلة القيام بها .

أولا - مرحلة الحضانة Infancy والطفولة الاولى Early Childhood (من الميلاد حتى ٦ سنوات) •

- القدرة على المشي
- القدرة على تناول المأكولات الصلبة
- القدرة على الكلام
- القدرة على التحكم في التخلص من فضلات الجسم
- ادراك الفروق الجنسية
- احراز الاستقرار الفسيولوجي
- تكوين المفاهيم البسيطة عن الحقائق الاجتماعية
- القدرة على ادراك علاقته انفعاليا بوالديه واخوته وباقي أفراد مجتمعه .
- القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ وظهور ما يمكن ان نطلق عليه الضمير .

ثانيا - الطفولة المتأخرة (٦-١٢ سنة) Late Childhood

- اكتساب المهارات اللازمة للالعاب العادية
- بناء اتجاهات عامة نحو نفسه باعتباره كائنا ناميا
- تعلم التصرف مع زملائه من نفس عمره .
- ادراك دوره كشخص مذكر أو مؤنث .
- تنمية المهارات الاساسية للقراءة والكتابة والحساب .
- تنمية المفاهيم اللازمة للحياة اليومية .
- تنمية الضمير الاخلاقي وادراك مجموعة القيم الاساسية .
- تحقيق الاستقلال الذاتي .
- تكوين اتجاهات نحو الجماعات والمؤسسات الاجتماعية (٢) .

وقد ذكرنا ان هذه المعايير بغض النظر عن الفروق البيئية والفردية البسيطة نسبيا فهي واحدة وثابتة لجميع الاطفال في كل سن ، وبهذا نستطيع ان نكتشف الانحراف في كل طفل عن هذا المعيار، والبحث بالطرق العلمية عن الجوانب التي أدت الى هذا الانحراف ، ونعمل على علاجه سواء من الناحية الجسمية أو الانفعالية أو الاجتماعية . وينبغي أن ندرك أن هذه المظاهر المختلفة في كل مرحلة مرتبطة متشابكة بحيث لا يتسنى لنا أن نمزج مظاهر النمو العضوى أو الجسمى عن الانفعالى أو الاجتماعى ، ولنضرب مثلا بسيطا على ذلك : لنفرض أن الطفل كان

النمو الجسمي في مرحلة الطفولة

حجمه في سن معين زائدا عن المعدل بحيث يبدو أكبر من سنه فان مجرد كبر حجم جسمه هذا يجعله يعاني من مشكلات كثيرة انفعالية واجتماعية فهو لا يستطيع أن يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين في سنه لانهم يعتبرونه أكبر منهم ، ويجد هو نفسه حرجا في اللعب معهم ، كما أنه لا يستطيع أن يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين يناسبونه في الحجم ، ذلك لانهم سيكونون أكبر سنا ولهم ما يناسب هذا السن الكبير من القدرات والميول والاهتمامات ، وهذه بطبيعة الحال لابد وأن تختلف عن خصائصه النفسية والاجتماعية ، مما قد يدفع به الى الميل للعزلة وتجنب الآخرين ، والسبب هنا مشكلة جسمية غاية في البساطة كما تبدو .



الدراسة العلمية للنمو :

ان بداية الاهتمام بدراسة الطفل لم تأت من اهتمام علماء النفس بالطفل نفسه بل من اهتمامهم بطريقة تربيته ومعاملته المعاملة المناسبة لسنه وتتبع ما يظهر عليه من تقدم أو تأخر لجعل طرق تربيته تتمشى مع ما يظهر عليه من هذه المظاهر .

ومن أول المصلحين التربويين كان Johnn Amos Comenius الذي عاش في القرن السابع عشر والذي كان ينادى دائما بدراسة الطفل كما هو لا على اعتبار أنه رجل صغير وقد كتب كتابين أولهما المدرسة في مرحلة الحضنة « الذي نشر في سنة ١٦٢٨ School of Infancy الذي وصف فيه نمو الطفل حتى السادسة من عمره .

وبعد كومنيس ظهر اتجاهان مختلفان في دراسة الطفل : الاتجاه الأول كان متميزا بالمعالجات الفلسفية للتربية ، بينما كان الثاني مباشرا في دراسة الطفل عن طريق الملاحظة . ويمثل الاتجاه الأول لوك Loke في انجلترا وروسو Rousseau في فرنسا ، وبستالوزي Pestalozzi في سويسرا ، وهربارت وفروبل في ألمانيا . وقد كان الاتجاه الثاني أكثر فائدة في دراسة النمو ، ولعل أول خيط في هذا الاتجاه ظهر في سنة ١٧٧٤ وتمثل في مذكرات بستالوزي عن طفلة في سن الثالثة والنصف ، وبعد ذلك في ملاحظات تأيد مان Tidemann التي دونها عن أطفاله ، كما كانت ملاحظات Millicent Skinn التي ظهرت سنة ١٩٠٠ عن نمو طفلة ابنة أختها خلال السنة الأولى من عمرها طريقة للغاية .

وببداية الدراسة العلمية للطفل التي قام بها Stanley Hall في جامعة كلارك Clark في سنة ١٨٩١ اتجهت الدراسات بعد ذلك الاتجاه العلمي ، واتخذت الاسلوب العلمي المبني على الملاحظة الدقيقة المضبوطة ضبطا علميا ، واصبح الاهتمام الاساسي هو دراسة الطفل ذاته في أعمارهِ المختلفة وفي مواقفهِ المتباينة .

ومن ذلك يتضح أن دراسة وتتبع نمو الطفل قد اتخذت أهدافا متعددة ، فبينما كانت الدراسة في أولها تهدف الى النهوض بأساليب تربية الطفل انصرف التركيز الى الاهتمام بالطفل

قبل مرحلة المدرسة بهدف الوصول بتدريبه على العمليات الجسمية والعضوية البسيطة الى اقصى ما تتيحه وسائل التدريب ، ثم تركزت الدراسة بعد ذلك في معرفة الامكانيات الطبيعية (الفطرية) التي يزود بها الطفل في مراحله الاولى بحكم فطرته وطبيعته ، حتى يمكن معرفة ما يمكننا بعد ذلك اكسابه من مهارات والى اى حد نسير معه في عملية التدريب . كما ان من بين الاهداف الرئيسية التي اتخذتها دراسة الاطفال الصغار اكتشاف مدى صدق بعض النظريات السيكلوجية التي ظهرت في هذا الوقت كنظريات Watson المتعلقة بالانفعالات الفطرية الثلاثة ، او باكتساب الانفعالات عن طريق الاشتراط ، وغير ذلك من الجوانب العقلية من شخصية الطفل ، كثبات معامل الذكاء والعلاقة بين ذكاء الطفل وذكاء والديه ، والعلاقة بين ذكائه ومهنة الوالد وهكذا (٣) .



طرق دراسة نمو الطفل :

مما سبق يتضح ان دراسة نمو الطفل تنحصر في :

١ - **الملاحظة الحالية لسلوك طفل معين** في مرحلة معينة ، وقد تتسع هذه الطريقة فتتضمن ملاحظة عدة اطفال في نفس المرحلة من العمر ، والخروج بسلوك متوسط تتميز به هذه المرحلة سواء كان ذلك في الجوانب الحسية الحركية ام في النواحي الوظيفية العقلية ام في النواحي الانفعالية .

٢- **استرجاع نتائج ملاحظات سابقة Retrospective Reports** لطفل معين ، والحصول من هذه التقارير على مميزات كل مرحلة مر عليها الطفل .

٣ - **الاستجابات التي يحصل عليها الباحث من استبيان يملأه الوالد او الوالدة او الاخوة** او الافراد الذين يحتكون بالطفل غالبا كالمربية او احدى القريبات .

وسواء استخدم الباحث وسيلة او غيرها من هذه الوسائل فان دراسته لا بد ان تكون واحدة من نوعين :

١ - **الدراسة المستعرضة Cross-Sectional** حيث يضم الباحث عدة دراسات تخصص كل منها في جانب معين من جوانب الشخصية ونخرج من هذه الدراسات بمميزات مرحلة من المراحل ، تضم الجوانب الجسمية - الحركية والجوانب الوظيفية والنمو الانفعالي ومختلف مظاهر النمو ، ويتكرر ذلك في كل مرحلة ، وبذلك يخرج الباحث بصور متتابعة لشخصية الطفل ، والمهم في هذه البحوث ان تكون العينات التي تدرس عينات ممثلة تمثيلا احصائيا صادقا لاجتماع الدراسة ، وجميع نتائج هذه الدراسات التي اجريت على عينات مختلفة يمكننا ان نتخلص من الآثار البيئية بقدر الامكان في المجتمع الواحد .

النمو الجسمي في مرحلة الطفولة

وبالرغم من المزايا العديدة لهذا النوع من الدراسات ، واتباعها المنهج العلمي السليم بقدر الامكان الا أن لها مثالب لا يمكن أن نغفلها ، فهي لا تعطينا الا صورة تقريبية للنمو وتتابعه، ولا يمكن أن نصل بها الى صورة دقيقة للنمو في بيئة محددة ، فاذا أردنا أن ندرس النمو الذي يطرا على سن الرابعة عشرة مثلا فلا بد أن تتضمن العينات الأولاد والبنات في أماكن مختلفة قد يختلف فيها النمو الجنسي والعضوي مع ما يتبع ذلك من تغيرات نفسية ، والنتائج التي نحصل عليها في هذه الحالة لا تنطبق على نتائج دراسة النمو لهذه المرحلة في مكان معين ولجنس معين فهي لا تأخذ في اعتبارها الاختلافات البيئية التي تحدث خلال حياة الفرد الواحد من مرحلة لمرحلة أخرى .

كما أنها لا تدلنا على سرعة التغير في مهارة معينة من مهارات الشخصية ، ولتأخذ مثلا مهارة استخدام اطراف الاصابع وتطور هذه المهارة من الميلاد حتى نهاية السنة السادسة فان الدراسة المستعرضة لا تصل في تفاصيلها والدقة في دراستها الى تتبع مظهر دقيق من مظاهر التغير ، كما أن هذه الدراسة لا تدلنا على الوقت الذي يزداد فيه تطور هذه المهارة والفترة التي تبطيء فيها .

ب - الدراسة الطولية Longitudenal وتتضمن هذه الدراسة فحص مجموعة من الاطفال عدة فحوص في فترات مختلفة متتابعة هي اقسام فترة الدراسة التي يخططها الباحث لنفسه قبل بحثه ، وهذه الدراسة اذا توخى الدقة كانت حريصة على الحصول على نفس افراد العينة من الاطفال خلال نموهم ، ولكن الباحث كثيرا ما تضطره ظروف بحثه الى التنازل عن هذا الاشتراط فيأخذ عينات مختلفة في المراحل المختلفة في نفس الوقت الذي يجري فيه البحث مفترضا في ذلك افتراضا فيه مغالطة كبيرة وهي أن العينات المختلفة تعادل في خصائصها نفس العينة الاولى عندما تصل الى نفس سنها ونفس مرحلة العمر التي تمر بها الآن ، وبذلك يتغلب الباحث على عامل الوقت الطويل الذي كان يمكن أن تستغرقه الدراسة الطولية لو سارت كما يجب ، وتضمنت الدراسة نفس العينة في مختلف أعمارها ، وفي هذه الحالة تستغرق الدراسة عشرات السنوات ، وعلاوة على ذلك فان الباحث لا يضمن بقاء افراد العينة تحت سيطرته وملاحظته المضبوطة دون تغير حتى في حالتهم الدافعية وتقبلهم لوضعهم موضع الدراسة طول هذه الفترة .

ولكن هذه الدراسة بالرغم من الصعوبات الإنفة تساعد الباحث على دراسة التغير في ظاهرة أو وظيفة معينة مهما كانت دقتها خلال فترة النمو ، ولهذا فنحن نفضلها ونستخدمها في هذا البحث ، ويعتقد كثير من الباحثين النفسيين أن هذه الطريقة هي المسؤلة عن وجود فجوات في معرفتنا عن النمو في الوظائف المختلفة في مختلف المراحل ، لان الباحث عادة لا يستطيع أن يتتبع النمو خلال كل فترة صغيرة من فترات النمو بل يأخذ دراسته في قفزات زمنية لا بد أن يفصل بينها فترات مهما كانت صغيرة ، هي التي تخرج عن الدراسة ، وتظل هذه الفترة مجهولة مع ما قد يصاحبها من تغيرات قد تكون حاسمة في دراسات معينة .

وبالرغم من أن هاتين الطريقتين هما الطريقتان الرئيسيتان في دراسة النمو فإن كلا منهما قد تتخذ الاساليب العلمية المناسبة للدراسة ، ومن بين هذه الاساليب العلمية : التجريب عن طريق التحكم في العوامل المؤثرة ، وثبتت بعض العوامل وتغير غيرها ، وطريقة التجريب على الحيوان على أساس ما بين نمو الطفل الأدمى والطفل الحيوان من عوامل متشابهة ، أو الدراسة المقارنة بين الإنسان والحيوان في مرحلة معينة من مراحل النمو ، كما يتبع بعض الدارسين طريقة عزل فرد أو أفراد من العينة للتخلص من بعض العوامل البيئية والاجتماعية ، وهذه تتبع بدرجة أكثر مع الحيوان لصعوبة تطبيقها على الإنسان . ومهما كان أسلوب الدراسة فيجب ألا نسقط من اعتبارنا الفروق الواسعة بين تغير الإنسان والحيوان خلال انتقالهما من مرحلة إلى أخرى ، وما قد يتخلل هذا التغير من اختلاف في النضج العضوي والبيولوجي ، وفرص التدريب خلال الحياة وهذا الموضوع هو الذي سنعالجه في النقطة الآتية :



النضج والتدريب Maturation and Learning (training)

قد نستنتج مما ذكر عن الأهمية الكبرى للنضج، الذي يتضمن ظهور نماذج سلوكية على الطفل مهما كان أسلوب التدريب الذي يلقاه من البيئة، أن واجب الوالدين لا يزيد عن انتظار حدوث عملية النضج كي تتم في مجراها الطبيعي دون أن نتدخل في استعجالها أو تحويلها ، والواقع يختلف عن ذلك كثيرا فالعوامل البيئية والتدريب الذي يتلقاه الطفل الصغير من بيئته يلعب دورا هاما في عملية النمو فالعمليتان تسيران معا ، ولكن يمكن تمييز أحدهما عن الأخرى ، وعلى المربي فعلا أن يميز بين هاتين العمليتين ، فزراع النبات لابد أن يميز ما إذا كان سبب رداءة النبات راجعا إلى ضعف في البلده أو قلة الرعاية وسوء الظروف البيئية حتى يستطيع تحسين الناتج في المستقبل . ولا يكفي الآن أن نسلم بأن العمليتين تتفاعلان في عملية النمو بحيث نستطيع أن نرجع كل مظهر من مظاهر النمو إليهما معا ، ولكن الأهم من ذلك أن نحدد طبيعة عملهما وإلى أي حد يؤثر كل منهما في نمو الطفل .

ويجدر بنا بادئ ذي بدء أن نبين أن عملهما لا يكون على صورة الاضافة بل التفاعل التام ، بمعنى أننا لا نستطيع أن نقول أن النمو = النضج + التدريب ولكن الأصح أن نقول أن النمو = النضج × التدريب ، وذلك لأنه إذا انعدم أحد الاثرين فإن الناتج ينعدم تماما ويختفى النمو .

فالطفل الرضيع يكون لديه الطاقة الطبيعية لأن يحبو على الأرض في وقت معين ، ولكن عملية الحبو في هذا الوقت لن تتم بنجاح إلا أن وجد الطفل أمامه فسحة من أرض وكانت لديه حرية الحركة في وقت من أوقاته نموه ، والطفل تكون لديه القابلية في وقت معين لينطق ببعض حروف ويستخدم حنجرته في اظهار الاصوات ، ولكنه يحتاج في هذا الوقت إلى عملية التشجيع

النمو الجسمى فى مرحلة الطفولة

والتدريب من المحيطين به حتى تتم عملية الكلام والتحدث بطريقة سلسلة وفى تيارها الطبيعى .
ويمكننا أن نلخص هنا القواعد التى يتم عليها التفاعل بين العمليتين فيما يلى :

(١) ان التدريب الذى يلقاه الطفل من البيئة التى تحيط به هى الوسط الذى تعمل فيه الامكانيات الطبيعية التى يزود بها الطفل والتى تنضج لديه فى سن معين .

(٢) كلما كانت الظروف المادية التى تحيط بعملية التدريب مناسبة أسرع النمو وكانت نتائجه أكثر ضبطا واتقانا .

(٣) بالرغم من ان عملية النضج تتم طبيعيا فان عوامل التدريب قد تعطل من اثر هذه العملية .

ولكن هذا التعطيل غالبا ما يكون محدودا لاثار وكامنا ، بحيث اذا أعطيناه الظروف المناسبة عادت سرعة عملية النضج الى طبيعتها ، بل قد تعوض الفترة التى أدت الى تعطيلها من عدم اتاحة الظروف المناسبة .

ولقد لخص جيزيل Gesell هذه القواعد فى جملة واحدة حيث يقول (٤) :

« ان النمو الداخلى هبة من الطبيعة ، فنحن يتسنى لنا أن نوجهه ولكننا لا نستطيع أن نخلقه . كما أننا لا نستطيع أن نمنعه بأية قوة بيئية » . ومعنى هذا ان عملية التدريب وما تحدثه من توافق إنما هى محدودة بالخصائص الذاتية والداخلية للكائن الحى الذى ينمو . وينبغى مراعاة هذا فنيا فى عمليات التربية والتدريب والتوجيه التعليمى ، حيث أن قدرا كبيرا من الانسداد لطبيعة الطفل تحدث عندما ندفع بالطفل دفعا لعملية لم يستعد لها ولا تناسب خصائص نموه وامكاناته النفسية فى هذه المرحلة التى يمر بها ، وهذا ما أوضحه جيزيل فى تجاربه العديدة على الاطفال العاديين والتوائم . والقدرات الجسمية الحركية تخضع لهذا التفاعل بين النضج والتدريب ، فبالرغم من أن الاطفال فى بعض البلاد كانوا يقيدون فى حركاتهم برباط محكم اثناء فترات حياتهم الاولى الا أنهم يلحقون بغيرهم من الاطفال الآخرين عندما تترك لهم فرصة الحركة العادية .

واذا قلنا ان التدريب يتيح للامكانيات الطبيعية الفرصة لأن تعمل فى اعلى حدودها فاننا نفترض عادة وجود حد اعلى لكل وظيفة من وظائف النمو يمكن أن تصل اليه ، ولكن هذا افتراض فقط . ولكننا لابد وأن نعترف بأن التدريب له اثره الفعال فى نتائج عوامل النضج ، فالاطفال الذين يربون فى مؤسسات فى سنواتهم الاولى يظهر تأخرهم عندما تحل مرحلة انطلاق القدرة على الكلام حيث يبدو تأخرهم فى هذه المهارة عن الاطفال العاديين بدرجة ملحوظة الى أن يسير تفاعلهم الاجتماعى سيرا عازيا فتتحسن قدرتهم على التعبير والانطلاق اللغوى والى أن يستردوا امكانياتهم الطبيعية فى ذلك .

ولعل النقطة الأساسية فى عملية التفاعل بين التدريب والنمو تنحصر فى عملية التوقيت ، فالتدريب لا يجرى اذا بذل فى مرحلة سابقة على مراحل النضج . فالامكانيات الفسيولوجية

ينبغي أن تكون معدة قبل أن تظهر القدرة العقلية ، ومعنى هذا أنه بالرغم من أن الوظيفة والتكوين الجبلي يعملان جنباً لجنب وفي تفاعل تام إلا أن التكوين الجبلي ينبغي أن يسبب الوظيفة ، وهذا ينطبق على المهارات الحركية ، والمهارات العقلية والسلوك الجنسي على حد سواء . فالأطفال الصغار لا يمكن أن يكتسبوا مهارة مبينة على فعل منعكس شرطى إلا إذا كانت مرحلة النضج في الجهاز العصبي مهية لذلك مهما أكسبناهم من تدريب ، وقدر الرضيع على قبض الأشياء بيديه لا يجدى معها التدريب قبل أن يكون هو معدا لذلك .

ولعل الصعوبة تنحصر في تحديد السن المناسب تماماً بوجه عام في جميع الأطفال في سر معينة لكي يجرى التدريب معهم ، وذلك لسببين : السبب الأول هو أننا لم نستطع حتى الآن الوصول إلى تحديد علمي للسن الذي يتم فيه نضج الوظائف الجسمية والعقلية وذلك لوجود الاختلافات الواسعة والفروق الفردية والبيئية بين الأطفال ، وثانياً بسبب الأفكار غير الصحيحة التي سادت تربية الطفل فترة من الزمن والتي لازالت مؤثرة على المربين ، ومؤداها أن كل طفل ينبغي أن يكون قادراً على التعلم إذا دخل المدرسة أو اتاحت له فرصة التدريب المثمر . والواقع أن هذا يتوقف على أمور ثلاثة :

(١) اهتمام الطفل بالتعليم واحراز التقدم مهما كان صغيراً .

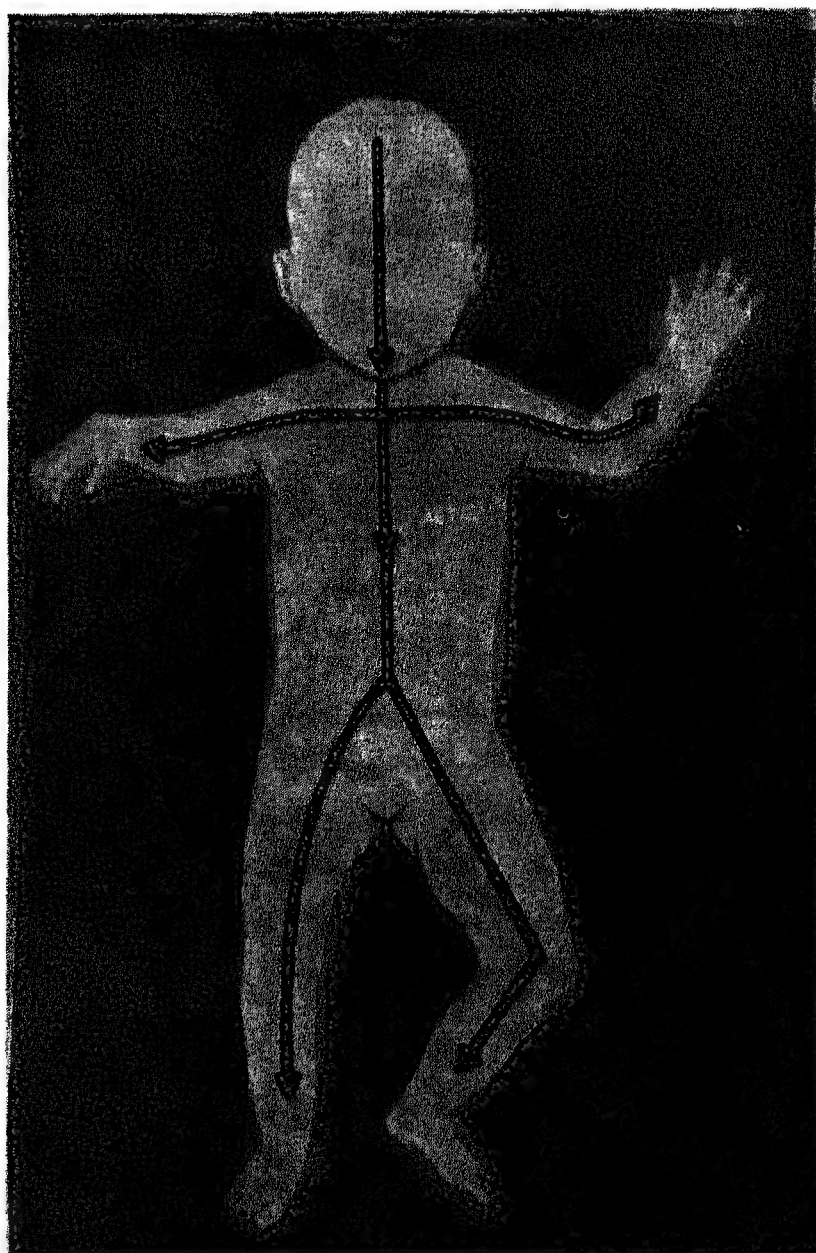
(٢) مدى بقاء هذا الاهتمام ودوامه لدى الطفل .

(٣) مدى التقدم الذي يحرز نتيجة للتدريب والتعلم ، وهذه العوامل ينبغي أن تكون متوفرة جميعاً عندما تحل مرحلة الوصول إلى النضج في المهارة التي يقوم المربي بتدريبها لدى الطفل .

وبالرغم من الأثر الواضح لتفاعل التدريب مع النضج فإن النمو عادة يتخذ نموذجاً عاماً في تقدمه مع وجود الفروق الفردية التي أوضحناها . والمراحل التي يمر بها النمو في جميع الأطفال لا تختلف كثيراً من طفل إلى طفل في بيئة معينة . ويكون أثر هذا التفاعل في حدود السياق الذي تشترك فيه جميع الأطفال في معاملة . فالنمو مثلاً ينتقل من الخصائص العامة إلى الخاصة ، فالدراسات العلمية قد أوضحت أن الطفل الصغير يتعلم أولاً الكلمات العامة قبل الكلمات الخاصة ، والجنين قبل الولادة مثلاً يحرك جسمه كله أولاً قبل أن يستطيع أن يحدث استجابات محددة ، وحتى في الجانب الانفعالي : فإن انفعالات الطفل الصغير تبدأ عامة ثم تتميز بعد ذلك إلى انفعالات محددة وهكذا . كما أن النمو يبدأ بالأجزاء القريبة أولاً ثم يتدرج إلى الأجزاء البعيدة وهذا ما يطلق عليه Propimodistal Law ويمكن أن نطلق عليه القانون التقاربي أي يبدأ مثلاً من المحور المركزى للجسم إلى الأطراف البعيدة ، وينطبق هذا على النمو قبل الميلاد حيث ينمو الرأس والجذع قبل أن تظهر مبادئ الأطراف وحتى في الناحية الوظيفية فإن الطفل يستخدم ذراعيه جيداً قبل أن يستخدم يديه ، ويستخدم يديه قبل أن يستخدم أصابعه وسيطر على حركاتها .

٦١٥

النمو الجسمي في مرحلة الطفولة



شكل (١) قوانين اتجاه النمو ، مأخوذة من (١٧)

ولعل ظهور الأسنان دليل آخر على ثبوت نمط التتابع والسياق في النمو لدى الاطفال فبوجه عام تظهر الأسنان السفلى قبل العليا والقواطع قبل الاضراس وبوجه عام نستطيع أن نقول أن الاسنان التي تظهر أولا للطفل هي أولى الاسنان التي تستبدل بأسنان دائمة وهكذا وهذا ما يجعلنا نستطيع أن نرتب التطور السلوكي في مراحل عامة على النحو الآتي :

من ٤ أسابيع الى ١٦ أسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته الحركية .

من ١٦ الى ٢٨ أسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته التي تحمل رأسه وتحرك ذراعه ، وهذا ما يجعله يبدأ في محاولة الوصول الى الأشياء البعيدة عن جسمه .

من ٢٨ الى ٤٠ أسبوعا يسيطر على جذعه ويديه ، وهذا يمكنه من الجلوس والقبض والانتقال وتداول الأشياء بيديه .

من ٤٠ الى ٥٢ أسبوعا تمتد سيطرته الى ساقيه وقدميه والى أصابعه . كما انه يستطيع أن يقف ، وخلال السنة الرابعة يسأل أسئلة كثيرة ، وبدأ في التعميمات وتكوين بعض المفاهيم المبسطة - أما في الحياة اليومية المنزلية ففي هذه المرحلة يبدأ في الاعتماد على نفسه ويزيد هذا الاعتماد حتى نهاية السنة السادسة حين يبدأ بالتعامل مع بيئته حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة كما سبق ايضاحه .

ونظرا لأن هذا البحث يتعلق بالنمو والجسمي لمرحلتى الطفولة فان التركيز سيكون على مرحلة الطفولة المبكرة التي تنحصر بين السادسة والثانية عشرة ومع هذا فلا يمكننا أن نتجاهل المراحل السابقة وهي ما قبل الميلاد ومرحلة الرضاعة والحضانة بالقدر الذي نوضح به تأثير هذه المراحل على مرحلتى الطفولة . الا أن دراستنا ستكون طويلة فنتبع مظاهر معينة منذ الولادة حتى نهاية الطفولة دون تقسيم لهذه المراحل في هذا التتبع ولكننا سنفرد جزءا خاصا موجزا عن مرحلة ما قبل الميلاد نظرا لتمييزها وارتباط مظاهرها ارتباطا يضطرنا الى دراستها كوحدة متكاملة .



مرحلة ما قبل الميلاد *

منذ القدم تداولت أفكار أغلبها خرافية عن تأثير خبرات الأم على تطور الجنين في بطنها، فنواحي الشدوذ الجسمي والعقلي في الطفل كانت تعزى لتأثير دم الأم ، ولكن الآن بعد أن أوضح العلماء أن دم الطفل ودم الأم لا يختلطان، واتضح أن دم الجنين انما يتكون من الاوكسجين

* المعايير الخاصة بالنمو المذكورة في هذا البحث مستمدة من

HURLOCK, E.B. : Child development M.C. Graw-Hill Book Company

والماء والمواد الغذائية التي تمتص الى دم الجنين عن طريق تركيب يشبه المصفاة تعدل الرأى السابق . وقد اتخذت دراسة الجنين أساليب متعددة يمكن تلخيصها في :

- (١) التقارير التي تقدمها الأم عن تحركات الجنين .
- (٢) صوت ضربات الجنين والحركات التي يمكن تتبعها بأدوات تتصل ببطن الأم .
- (٣) الملاحظة المباشرة لأجنة أخرجت عن طريق العمليات الجراحية من بطون أمهاتهم .
- (٤) دراسات الأجنة في الحيوان .

ولسنا بصدد توضيح لعملية الوراثة في هذا المجال لشرح التكوين الكروموزومي للجنين بما فيه من مورثات ، كما لا تعنينا أيضا الأساليب الموضوعية والعلمية لتحديد جنس الجنين قبل الولادة ، ولكن الذي يعنينا ما يتصل بما يكون عليه الجنين عند ولادته مباشرة . فبمجرد أن تلقح البويضة بالحيوان المنوي الذكرى يبدأ النمو ويتطور من خلية واحدة الى طفل قد يصل تكوينه الى ٢٠٠ بليون خلية من أنواع مختلفة ، يتم هذا كله خلال تسعة أشهر في المعتاد ، ويظهر التغير من خلية مفردة ليس لها قدرة في ذاتها الى طفل يتكون من عظام وعضلات وجلد وأعضاء داخلية وجهاز عصبي مستعد للعمل حتى قبل الميلاد . وتدل البحوث على أن النمو لا يتخذ فقط صورة ظهور أعضاء جديدة بل قيام الجسم بوظائف جديدة كذلك بحيث يبدو النشاط على الجنين متخذا صورة مختلفة .

وقد وجد أن بعض الأجنة تكون نشطة خلال ٧٥٪ من وقتها ، بينما نجد أن بعضها الآخر لا يملأ نشاطها أكثر من ٥٠٪ من وقتها . وبعض الأجنة تدير رأسها ، وقد بينت الدراسات أن الحركة في كل أجزاء الجسم تحدث في أوقات محددة يمكن التنبؤ بها على قدر من الدقة ، وقد تبين أنه حتى في حالة الأطفال الذين يولدون عن طريق عملية جراحية فإن الحركة تسير تبعاً لنفس النمط وهي تشبه حركة الدودة بالانقباض والازدح والساقين . ويمكن تقسيم حركة الوليد الى نوعين .

- (١) نشاط عام يتضمن جزءا كبيرا من الجسم .

(٢) أفعال منعكسة أكثر تحديدا ، وحركة الوليد تتوقف على عوامل كثيرة فبعد الولادة مباشرة تقل الحركات في الدقائق الخمسة الأولى ثم تزداد تدريجيا حتى الدقائق الثلاثين الأولى . وقد وجد أن الأطفال الذين كانت حركاتهم زائدة وهم في بطون أمهاتهم يكتسبون بعض المهارات الحركية في وقت أسرع بعد ميلادهم عن الأطفال الذين كانت حركاتهم قليلة ، وعلى العكس بالنسبة للتوافق مع البيئة الخارجية فالأجنة الكثير والحركة يجدون صعوبة أكثر من الأجنة قليلة الحركة في توافقهم مع بيئتهم ، وهناك دراسات عديدة تدور حول أثر طريقة الولادة على نمو الطفل الجسمي والعقلي بعد ذلك ولكن أغلبها غير مؤكد ، اللهم إلا إذا كانت الولادة العسرة قد أحدثت فعلا تلفا في دماغ الطفل نتيجة استخدام الأدوات الميكانيكية في اخراج الطفل . فقد وجد وايل وديفر Wile, S. and R. Davis أن الأطفال الذين يولدون

بمساعداً ميكانيكية تظهر عليهم زيادة الحركة عن المعتاد وعدم الاستقرار ، ثم في كبرهم يجدون صعوبة في النطق وفي تركيز الانتباه أكثر من غيرهم ممن يولدون بالطرق العادية ، إلا أنه لا يؤكد أن هذه النتائج المتأخرة تعزى حتماً إلى أسلوب الولادة ، وبوجه عام فإن مشكلة تلف الدماغ أثناء الولادة ليست شائعة لدرجة تستحق معها معالجة نظرية خاصة . فنسبة من يولدون بتلف في أدمغتهم لا تتعدى ٧٠ ٪ من الأطفال الأحياء .

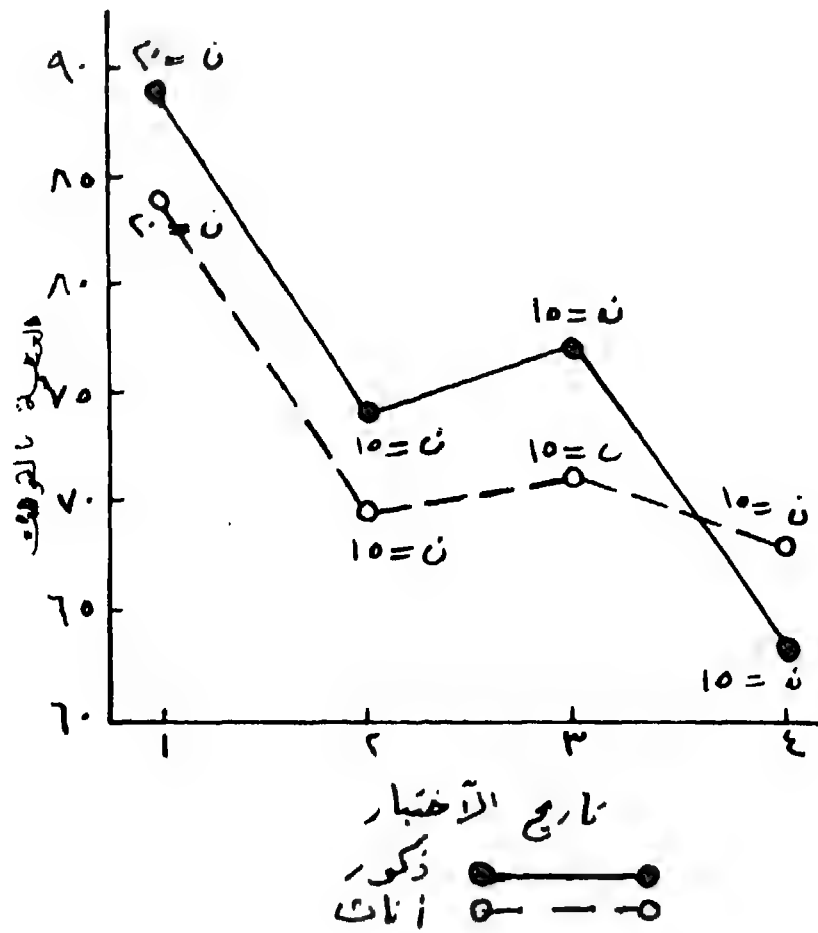
ومن المهم أن نشير هنا إلى أن نوع تغذية الأم وكمية ما تتناوله من غذاء يؤثر في حجم المولود ، فهناك علاقة بين حجم المولود وكمية البروتين الذي تتناوله الأم أثناء الحمل كما ظهر لدى كثير من الباحثين ، كما أن ميريديث Meredith يشير إلى أن المولود الأول يكون أصغر حجماً من المواليد بعد ذلك (٥) .

أما عن نشاطه فإن حركاته تكون عشوائية سواء كانت حركات كلية أو جزئية ، فإذا استثير أى جزء من الجسم في النوع الأول من الحركات فإن الجسم يتحول كله كجزء واحد ، وقد يكون أكثر شدة في الجزء المستثار . والحركة في هذه الحالة تكون غير متناسقة ويكون أكثر أجزاء الجسم نشاطاً هو الجذع والساقان ، وهناك فروق فردية بين الأطفال حديثي الولادة في كمية هذه الحركة . أما النوع الثانى فيتمثل في حركات خاصة كالتركيز البصرى على الضوء ، والحركات التلقائية للعينين ، والحركات المنتظمة للقدم ، والتثاؤب ، وتحريك ورفع الرأس ، والحركات العشوائية لليدين والساقين ، ومد الذراعين والقدمين .

وعند الميلاد تكون أعضاء الحس مستعدة للعمل ، إلا أن بعض هذه الأعضاء تكون أكثر اكتمالاً ونشاطاً من غيرها ، فحاسة الشم والدوق والاحساسات الجلدية (كاللمس والضغط والالام والحرارة) كما أن الاحساسات العضوية (كالجوع والعطش) كل هذه تكون أكثر استعداداً للعمل قبل غيرها (مثل النظر والسمع) التى تتأخر قليلاً ، كما أن الاحساس بالالام يزداد بسرعة بعد الميلاد بسرعات مختلفة في مواضع مختلفة من الجسم ، فعتبة الالام تكون أقل في الرأس عنها في الأطراف ، وهناك فروق فردية أيضاً لدى الأطفال حديثي الولادة للاحساس بالالام كما يتضح من شكل (٢) .

تلك باختصار أهم المظاهر التى تهمنى في دراسة هذه المرحلة التى تقودنا بعد ذلك إلى دراسة الطفولة بمراحلها ، ولن نقسم الدراسة تبعاً لهذه المراحل ، متبعين في ذلك الطريقة العرضية بل نفضل في هذه المعالجة الطريقة الطولية ، فسنتناول المظاهر والمهارات التى تظهر على الطفل واحدة واحدة متتبعين تطورها منذ ولادته حتى نهاية طفولته ، مبيينين السنة التى يظهر فيها كل تغير حتى تتضح معالم التطور الذى يحدث في هذه الامكانات كل على حدة وستدخل في هذه الدراسة مرحلتا الرضاعة والحضانة ، دون الحاجة إلى فصلها وتمييزها وسنطلق على هذه المراحل معاً الطفولة المتقدمة والمتأخرة مندمجتين ، فتمتد الدراسة في هذا الجزء لتشمل حياة الطفل من الميلاد حتى نهاية السنة الثانية عشرة .

النمو الجسمي في مرحلة الطفولة



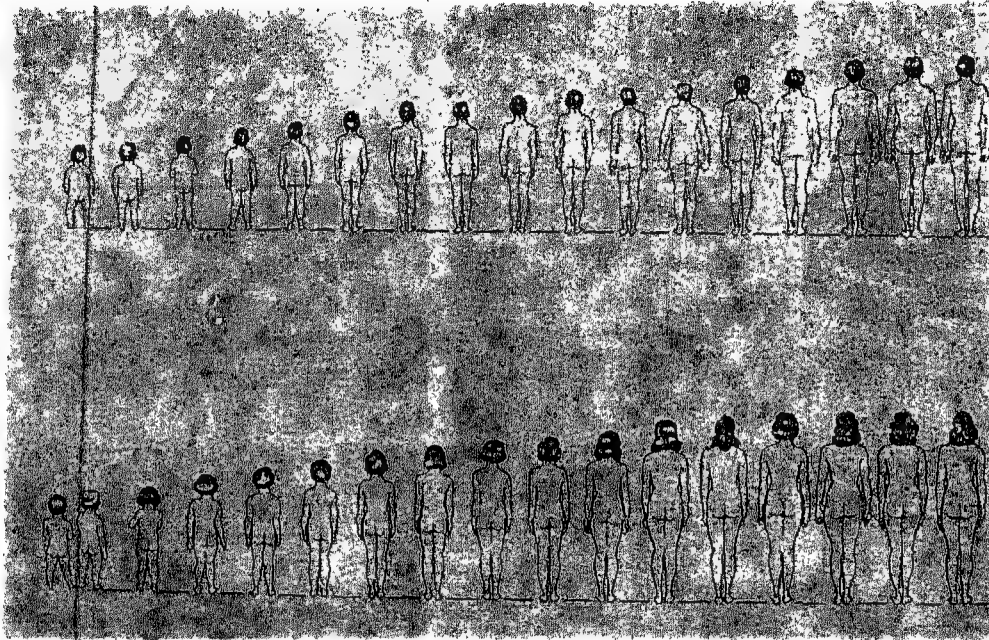
شكل (٢) الفرق الفردية في مقاييس الارتفاع عند الرضع الذكور والإناث مأخوذ من (١٩)

(الطفولة المتقدمة والمتأخرة)

دورات النمو : ينمو الطفل عادة في دورات ولا ينمو بانتظام ، فالطفل مثلاً يزداد وزنه عدداً ثابتاً من الأرباط شهرياً ، أو يزداد طوله عدداً من البوصات بانتظام في كل فترة . ولقد بينت دراسة النمو أن هناك أربع دورات للنمو اثنتان منها تتميزان بنمو بطيء والاثنتان الأخرتان تتميزان بنمو أسرع من ولادة الطفل حتى استقرار نموه في نهاية مرحلة النضج . وتتم منها مرحلتان حتى نهاية الطفولة المتأخرة . فمن وقت ميلاد الطفل إلى نهاية السنة الثانية تزداد سرعة النمو، يلي ذلك فترة من النمو البطيء تتم في نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة حوالي السنة الثانية عشرة .

وينطبق هذا على النمو بوجه عام كما ينطبق على الأعضاء الخاصة وأجزاء الجسم المختلفة ، فالنمو بها يتم على دورات منتظمة وثابتة كذلك .

فلكل عضو أو جزء من الجسم فترة خاصة من النمو السريع أو البطيء ، وكل منها يصل إلى حجمه الناضج في وقت خاص به وهذه الظاهرة يطلق عليها « النمو المنفصل Asynchronous growth » وبالرغم من أن هناك معامل ارتباط موجب بين نماذج النمو في الأعضاء المختلفة أو في العظام فإن في كل مجال من مجالات جسم الطفل تباين كبير في سرعة وبطء النمو



شكل (٣) مميزات الفروق الجنسية في النمو الجسمي مأخوذة من (٧) ويتضح في الشكل دورات النمو في الجنسين

النمو الجسمى فى مرحلة الطفولة

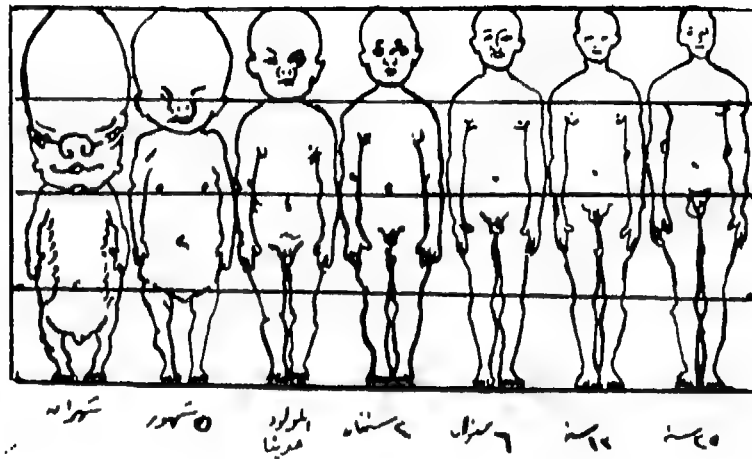
فى اية مرحلة من مراحل الطفولة . ويبدو هذا بوضوح اكثر فى مرحلة المراهقة كما يتضح من شكل (٤) .

ولقد اوضحت منحنيات النمو المتعلقة بطول القامة والوزن أنه اذا استثنيا السنة الاولى من العمر فان نمو الوزن يسير بسرعة اكبر من نمو الطول كما يتضح من شكل (٥) . وفى المراحل الأخيرة من الطفولة (الطفولة المتأخرة) فان الاطراف تنمو أسرع من الجذع ، لدرجة أن الطفل فى هذه المرحلة يبدو وكأنه لا يتكون الا من يدين ورجلين .

وتبدو قاعدة النمو المنفصل أيضا فى الوجه، حيث ينمو الجزء الأسفل أسرع مما ينمو الأعلى ، وخاصة بين سن الخامسة والثامنة من عمر الطفل . كما بينت بحوث دجنز Duggins التى نشرها سنة ١٩٥٠ أن شعر الرأس يزداد حجمه بانتظام خلال السنوات الثلاث الاولى من عمر الطفل ، ثم يسير النمو بدرجة ابطأ بعد ذلك (٦) .

كما أن هذه القاعدة تنطبق أيضا على العضلات والعظام والرئتين ، حيث تزداد نموا حتى مرحلة النضج بما يقرب عشرين مرة عن حجمها الاصلى ، بينما نجد أن العينين وحجم المخ وبعض الاعضاء الاخرى التى تكون اكثر نضجا فى وقت الميلاد لا تزيد كثيرا عن حجمها خلال مراحل النمو .

وبالاضافة الى قاعدة النمو المنفصل نجد قاعدة أخرى تسير فى اتجاه عكسى وهى قاعدة « اتجاه النمو » Developmental Direction فهناك اتجاه عام لنمو الوظائف والاعضاء المختلفة ، ففى جميع اجزاء الجسم نجد أن التغيرات فى اجزاء الجسم لها قاعدة معينة أيضا ، فالتغيرات فى نسب الجسم تكون طفيفة خلال الاشهر الستة الاولى من حياة الطفل ، ومن



شكل (٤) تطور ابعاد الجسم من الميلاد حتى النضج مأخوذة من (١١) ويتضح فيه ببطء نمو حجم الرأس وسرعة نمو الاطراف

هذا الوقت حتى نهاية النضج نجد أن حجم الرأس ينمو ببطء والاطراف تنمو بسرعة والجذع ينمو بسرعة متوسطة كما أن المخ وملامح الوجه تنضج وتصل الى نهاية تغيرها في الحجم قبل ان تصل باقى الاعضاء وأجزاء الجذع والاطراف الى هذه المرحلة من نهاية النمو .

ولنتناول الآن نمو أجزاء الجسم ومعاله بشئ من التفصيل واحدة واحدة من وقت الميلاد حتى نهاية الطفولة المتأخرة دون ان نهتم بالتقسيمات الداخلية في هذه الفترة حتى تتضح وحدة النمو وتكاملها في هذه الفترة التى تعتبر وحدة أساسية في حياة الانسان ونفصلها فيما يلى :

أ - حجم الجسم وطول القامة والوزن .

ب - نسب الرأس والوجه .

ج - نسب الجذع .

د - نسب الذراعين والساقين .

هـ - العظام والعضلات .

و - الاسنان .

ز - الجهاز العصبى .

أ (١) حجم الجسم : طول القامة والوزن

يتحكم فى نمو حجم الجسم الهرمون الخاص بالنمو Growth Hormone الذى يفرز من الفص الداخلى للغدة النخامية . فاذا كان افراز هذا الهرمون بدرجة معتدلة وفي الوقت المناسب فان حجم الجسم ينمو بدرجة معتدلة ويصبح الجسم عاديا مناسباً لمرحلة النمو التى يمر بها الطفل ، أما اذا قل افراز هذه الغدة من المعتاد فان نمو حجم الجسم يتوقف قبل ان يصل الى نهايته المعتادة ولا يصل الطفل الى الحجم الذى تؤهله له امكانياته الوراثية ، أما اذا زاد افراز هذا الهرمون فان النمو يزداد عن طبيعته . ولا يتوقف حجم الجسم على هذا الافراز وحده بل يتعلق كذلك بافرازات غدد اخرى كالفدة الدرقية وغيرها .

أما فيما يتعلق بطول القامة فانه بالرغم من الاختلافات الواسعة التى توجد بين طول قامة الاطفال فى مرحلة معينة فان هناك نموذجات تشابه فيه جميع اطفال المرحلة الواحدة . ويمكننا أن نضع هذا النموذج فى صورة معدلات نيعطينا صورة واضحة للنمو العادى للطفل العادى . فالمولود فى وقت ولادته يبلغ بين ١٩ ، ٢٠ بوصة (نصف متر تقريبا) فى طول القامة ، وأثناء السنتين الاوليين تزداد سرعة نمو طول القامة حتى يصل فى الشهر الرابع الى ٢٣ بوصة أو ٢٤ بوصة (٦٠ سم تقريبا) وعندما يصل الطفل الى الشهر الثامن يصل

النمو الجسدى فى مرحلتى الطفولة

طول القامة الى ٢٦ أو ٢٨ بوصة (٦٥ - ٧٠ سم) . وعند تمام السنة الاولى يرتفع الطول الى ٢٨ - ٣٠ بوصة (٧٥ سم تقريبا) . وفي نهاية السنتين يصل طول القامة الى ٣٢ - ٣٤ بوصة (٨٥ سم تقريبا) . حتى يصل الى سن الخامسة يرتفع طول القامة الى ضعف ماكان عليه وقت الميلاد (متر تقريبا) ومن ذلك الوقت حتى مرحلة المراهقة نجد ان طول القامة يزداد ببطء بمعدل ٣ بوصات فى كل سنة . ومن الطبيعى ان يختلف طول القامة فى البنين عنه فى البنات ، فبما ان مرحلة المراهقة تبدأ فى البنين متأخرة عنها فى البنات قليلا (قد يكون الفرق ستة اشهر) فان طول قامة الولد غالبا ما تقل بوصة أو نصف بوصة عن البنت العادية ، كما ان هذه المعايير لابد وأن تختلف باختلاف البيئات ، فقد تنخفض قليلا فى البيئات العربية عنها فى البيئة الامريكية التى أجريت فيها هذه البحوث ، فالمنحنى المرسوم فى شكل (٥) يمثلان تدرج الوزن والطول لاحد الاطفال الامريكيين .

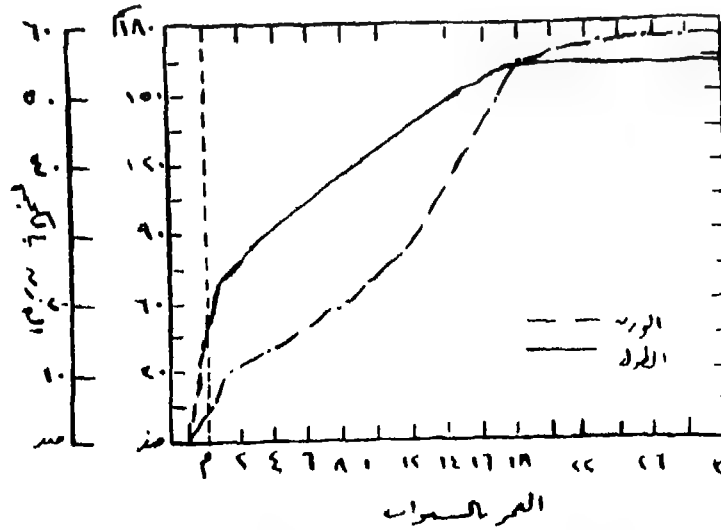
والتنبؤ بطول قامة الطفل يمكن احرازه بقدر لابس به من الدقة اليوم باستخدام الاشعة السينية لطول العظام ، وبالإضافة الى ذلك فان قامة الطفل تميل دائما لان تزداد زيادة مرتبطة بطول قامة الوالدين ، وبذلك نجد ان طول قامة الوالدين تصلح فى التنبؤ بطول قامة الطفل . وقد وجد بايلى Bayley أن معامل الارتباط بين طول قامة الطفل وطول قامة والديه يزداد كلما نما الطفل وازداد عمره ، وهذا يزيد من قيمة التنبؤ مع ازدياد مرحلة نمو الطفل (٧) .

اما عن الوزن فان وزن المولود عند الميلاد يتراوح بين ٦ و ٨ أرطال (مايعادل ٣ او ٣ ١/٢ كيلو جرامات تقريبا) ، وقد يقل الوزن كثيرا عن ذلك فى حالة بعض الاطفال ، فقد يصل الى نصف ذلك بينما قد يصل البعض الى ضعف ذلك ، ولكن هذا الاختلاف فى وزن الاطفال قد يسير بنفس النظام بعد ذلك . ففي نهاية الشهر الخامس نجد ان الرضيع العادى لا ينحصر نموه فى تعويض الوزن الناقص اثناء الميلاد بل يستطيع ان يضيف عليه بقدر اضافى من النمو ، ففي نهاية الشهر الرابع نجد ان وزن الرضيع العادى يعادل ضعف وزنه عند الميلاد . وفى نهاية العام الاول نجد ان الوزن قد بلغ ثلاثة اضعاف هذا الوزن عند الولادة . وفى خلال العام الثانى والثالث نجد انه يكتسب من ٣ الى ٥ أرطال سنويا ، الا ان الوزن بعد السنة الثالثة يتزايد ببطء نسبيا الى ان يبلغ الطفل بداية المراهقة ، ففي نهاية السنة الخامسة ينبغى ان يصل وزن الطفل الى خمسة اضعاف وزنه عند الميلاد ، وفى بداية المراهقة او عند نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة يتراوح الوزن بين ٨٠ و ٩٠ رطلا (مايقرب من ٤٠ كيلو جراما) .

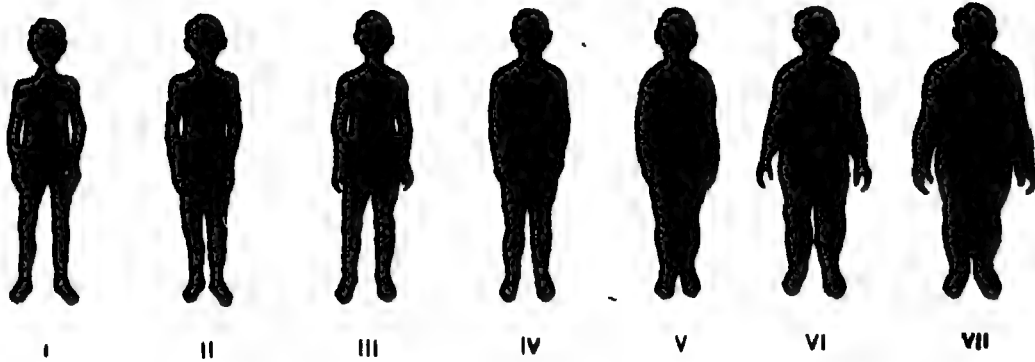
يزداد وزن البنت قليلا عند بداية المراهقة أو نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، حيث تزن فى المتوسط ٨٨ رطلا بينما يقل الولد العادى أقل من ذلك بثلاثة أرطال تقريبا .

والمعايير التي توضع لكل طفل في أية مرحلة تتوقف الى حد كبير على البنيان الجسمي Body built ويمكن تقسيم هذا البنيان الجسمي الى ثلاثة انواع :

- ١ - النوع المكتنز Endomorph ويتميز بجسم زائد السمنة .
- ٢ - النوع المفتول Mesomorph ويتميز بجسم ثقيل ومتين .
- ٣ - النوع الدقيق Ectomorph ويتميز بجسم طويل ملتف ذي عضلات ملتفة رفيعة نسبيا وعظام طويلة ورفيعة .



شكل (٥) منحني نمو طول القامة والوزن . مأخوذة من (١٨)



شكل (٦) انواع البنيان الجسمي مدرجة (I) النوع الدقيق جدا (II) النوع الدقيق (III) النوع الدقيق نوعا (IV) النوع المفتول نوعا (V) النوع المكتنز نوعا (VI) النوع المكتنز (VII) النوع المكتنز جدا الرسم مأخوذ من (١) .

النمو الجسمي في مرحلة الطفولة

وازدیاد الوزن اثناء النمو لا يتوقف على ازیاد نسبة الدهن فی الانسجة بل يتوقف أيضا على ازیاد حجم العظام و انسجة العضلات . اما فی مرحلة الحضانة فان الازدیاد فی الوزن يرجع أساسا الى ازیاد الانسجة الدهنية ، نظر الازدیاد كمية الدهن فی اللبن الذي يعتبر الوجبة الأساسية فی هذا السن ، وكلما نما الطفل وتقدم فی مراحل نموه فان وزنه يرجع الى نسبة العظام والعضلات اكثر من الانسجة الدهنية . وفي المراحل المتأخرة من الطفولة تقل أهمية الانسجة الدهنية عن ذلك حتى تصبح مسئولة عما يقرب من ٢١ الى ٢٩٪ من الوزن الكلي للطفل (٨) .

ب - نسب الرأس والوجه :

ينمو حجم الرأس بسرعة أقل نسبيا من باقي الجسم منذ ولادة المولود . فعند الميلاد نجد أن طول الرأس يبلغ ٢٢٪ من طول الجسم كله ، فاذا بقيت النسبة كما هي لأصبح طول الرأس فی نهاية النضج ما يقرب من ١٦ بوصة بدلا من ٨ أو ٩ بوصات كما هي فی الواقع . فمن وقت الولادة الى نهاية النضج نجد أن طول الرأس يبلغ ضعف ما كان عليه عند الميلاد بينما يبلغ طول القامة ما يقرب من ثلاثة أمثال ما كان عليه ، واذا رجعنا الى مساحة الرأس وقت الميلاد وجدنا أن المساحة الكلية للرأس تبلغ ٢١٪ من المساحة الكلية للجسم ، بينما تصل نفس النسبة الى ١٣٪ بعد خمس سنوات و ١٠٪ عند نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، واذا فحصنا أبعاد الرأس وجدنا أن مؤخرة الرأس تكون أكبر حجما من الجزء الوجهي من الرأس وتكون النسبة بين عرض الرأس وطوله أكبر منها فی الاطفال عن الكبار ، فعرض الرأس يكون قد وصل الى نهاية نموه عندما يصل الى الثالثة من عمره ، ولكنه يستمر فی الزيادة فی الطول حتى بعد نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة .

والنموذج الذي تتبعه زیادة الرأس طولا وعرضا لا يختلف فی البنات عنه فی الاولاد ، ولو أن رأس الولد يكون عادة أكبر حجما قليلا من رأس البنت فی جميع مراحل النمو تقريبا .

ولنتناول الآن نسبة الوجه بشيء من التوضيح : نلاحظ أن الجزء الاسفل من الرأس اثناء فترة الحضانة ومرحلة الطفولة الاولى يكون صغيرا وناقص النمو ، ويرجع ذلك أساسا الى صغر أسنان الطفل الصغير ، وتزداد نسبة الهيكل الوجهي الى الجزء الخلفي من الرأس من بداية الولادة حتى نهاية السنة الثامنة ، وفي هذه السن يختفي مظهر الطفولة الاولى نتيجة لذلك ، حيث تحل مرحلة نمو سريع بين سن الخامسة والثامنة وخاصة بين الاولاد أكثر من أي وقت آخر . ولولا حدوث هذا التغير فی نسبة الوجه لأصبحت العين فی منتصف الوجه .

وبانتقال الطفل من مرحلة الرضاعة الى مرحلة الاسنان الدائمة تزداد المواءمة بين الفكين العلوي والسفلي ، وتصبح أسنان الفكين أكثر انطباقا ، وهذا يؤثر بطبيعة الحال على شكل الوجه فی الطفل ، وسوء المواءمة بين الفكين قد ينتج من عدم انتظام فی نمو الفكين أو الاختلاف بين حجم الاسنان العليا والسفلي ، أو عن طريق مص الاصابع وخاصة قبل سن الخامسة ، أو التنفس عن طريق الفم أو الضغط على الدقن وخاصة فی النوم على الوجه أو عض اللسان فی مراحل الرضاعة .

وقد يؤثر سوء الموازنة بين الفكين على طريق المضغ عند الصغير وبذلك يؤثر على عملية الهضم، وبالرغم من أن هذا المظهر قد يتحسن مع تقدم النمو إلا أن العلاج التصحيحي قد يكون لازماً في مثل هذه الحالات حتى تنمو لدى الطفل معالم صحيحة للوجه مع وجود الاسنان والدقن في نسبها المعتادة، وخطوطها المعتدلة.

ويتقدم النمو تحدث تغيرات في معالم الوجه وشكله، فمنذ البداية تكون مقدمة الوجه كبيرة مستديرة وبارزة، ثم تصبح مسطحة تدريجياً، وتقل في الحجم بالنسبة إلى باقي الوجه حتى يصل الطفل إلى الخامسة من عمره، وتبلغ العينان حجمهما الأقصى كلما اقترب الطفل من نهاية مرحلة طفولته المتأخرة، وتتباعد العينان بعضهما عن بعض، كما أن الشفتين الرفيعتين تزدادان امتلاءً حتى تصلان إلى شكلهما الثابت عندما ينضج الطفل جنسياً.

ولعل الأنف هو العضو الذي يبدو في الطفولة أقل تناسبا عن باقي أجزاء الوجه، فهو يكون في البداية صغيراً وأكثر انبساطاً وتسطحاً على الوجه، ومن سن الخامسة إلى العاشرة ينمو بسرعة أكبر من أي جزء آخر بالوجه، وينتج عن ذلك أن الأنف هو أول أجزاء الوجه التي تصل إلى نهاية نموها، وهذا يحدث في حوالي الرابعة عشرة.

ونلاحظ أنه كلما نمت أعضاء الوجه وقربت من نهاية نضجها يزداد الوجه تحديداً وتثبت ملامح الوجه مع تقدم النمو (١٠٩). (راجع شكل (٤) في هذا البحث).

(ج) نسب الجذع

أن زيادة وزن الطفل أثناء نموه تؤدي طبيعياً إلى صعوبة اتزان الجسم ويجب العمل على تخفيفها قبل أن يتعلم الجلوس أو الوقوف أو المشي، فكلما كبر الطفل فإن التغيرات في نسب الجسم اللازمة لحصوله على الاتزان المناسب تتحقق عن طريق استطالة الجذع والساقين والرقبة، وإذا وصل الطفل إلى سن السادسة فإن طول جذعه وعرضه يصل إلى ما يقرب من ضعف طوله وعرضه عند الميلاد، ومنذ ذلك الحين حتى البلوغ فإن طول الجذع يزداد بما يقرب من ٥٠٪ مما كان عليه، ورقبة الطفل في مرحلة الرضاعة تكاد لا توجد، حيث يستند رأسه تقريباً على كتفيه، وبالتدريج في مرحلة الطفولة الأولى تظهر له رقبة قصيرة ممثلة تتصل بكتفيه المنحدرين. وحوالي سن الخامسة تبدأ القبة في الاستطالة وتبدو أكثر استدارة، بينما يأخذ الكتفان في أن يكونا أكثر عرضاً وأكثر ثباتاً، وكلما انخفض الكتفان مع استطالة الرقبة فإن وزن الطفل يزداد تناسقاً وتوزعاً على أنحاء جسمه.

كما أن شكل الجذع أيضاً تحدث به تغيرات سريعة، ففي السنة الأولى يكون جسم الطفل أكثر سمكاً من أي مرحلة أخرى ويرجع ذلك إلى الزيادة الكبيرة في المحيط العرضي عن الطول. وحتى سن الرابعة أو الخامسة يكون شكل الجذع شبيهاً بالكيس حيث لا يتميز فيه خط الوسط بشكل ظاهر، كما يكون الكتفان منحدرين ويكون الصدر مستديراً ويكون البطن بارزاً مستديراً، ومنذ ذلك الحين حتى نهاية مرحلة الطفولة يحدث نقص تدريجي في كثافة وامتلاء

الجلدع ، ويتجه الجسم لأن يأخذ الشكل المخروطى أو الاسطوانى المنبسط المنسق الذى يتميز فيه الوسط عن باقى الجسم . وفى هذا الشكل المخروطى فان الاكتاف تأخذ الشكل المستطيل المستعرض وخاصة عند الاولاد ، كما أن شكل البطن ينسط ويقل امتلاؤه واستدارته وبروزه، ويصبح خط الوسط ظاهرا بشكل واضح، كما أن الحوض يصبح أكثر عرضا واقل استقامة .

وبطبيعة الحال فان شكل الجلدع عند الكبار البالغين يتأثر كثيرا بالسن الذى تنضج فيه المظاهر الجنسية. فقام الذكر الذى يتصف بعرض فى الكتفين وضيق فى المقعدين يظهر فى الاولاد العاديين، والبنات اللواتى تبدو لهن اكتاف عريضة هن اللواتى يتأخر نضجهن ، وبوجه عام فانه بدون اعتبار للسن الذى يتم فيه النضج فاننا نلاحظ أن الشكل العام للجلدع عند البنت يختلف عن الشكل العام لدى الولد ، فالاجزاء التى يتميز النمو فيها فى الولد غالبا ما يقل النمو فيها عند البنت ، وتعتبر هذه المميزات فى كل جنس دليلا على أن النمو عند كل منهما لم يتخذ مجراه الطبيعى ، وقد يحتاج الى العلاج الذى يعيد لكل فرد من الجنسين الشكل المميز لجنسه ، وهذه الفروق بين الجنسين تختلف مرحلة ظهورها بشكل مميز باختلاف البيئة ، فهى عند الشرقيين تختلف الى حد ما عنها عند الغربيين وقد تقل أو تظهر بشكل أوضح فى بيئة عن غيرها (١١) .

(د) نسب الذراعين والساقين

ان التغيرات التى تطرأ على نسب الذراعين والساقين اثناء مراحل العمر المختلفة هى التى تعطى الجسم صورة الجسم البشرى وتبعده عن الصورة الحيوانية . فعند الميلاد يكون ساقا الوليد قصيرين بشكل ظاهر بالنسبة لابعاد اجزاء الجسم المختلفة ، كما أن الذراعين يكونان زائدى الطول ، وتكون اليدين والساقان صغيرين نسبيا . فنحن اذا تصورنا انطباق نفس الوليد على الشخص البالغ فان ساقى الشخص البالغ تبلغان من القصر حدا يجعل مقعديه فى مستوى يعادل مستوى الركبتين أو اعلى قليلا ، وهذا ما يوضح ضرورة اختلاف السرعة التى تنمو بها الاجزاء المختلفة من الجسم .

فالذراعان والساقان تنموان بمقدار ٦٠ الى ٧٥ ٪ من وقت الميلاد الى ان يصل الطفل الى سنتين من العمر ، وعندما يبلغ الطفل سن الثامنة فان الذراعين يزداد طولهما بمقدار ٥٠ ٪ على طولهما فى سن الثانية . ونظرا الى قلة سمك الذراعين عادة لدى الطفل بالنسبة لجذعه فان النمو فى عضلاتهما فى الشخص العادى لا يكون ملحوظا ، ويكون للذراعين عادة شكل اسطوانى عام فى هذه المرحلة . وبعد سن الثامنة ينمو الذراعان نموا بطيئا فى معدله بالنسبة لطولهما ، بينما نموها فى السمك يزداد بشكل أوضح نظرا لزيادة عضلات الذراع فى السمك والامتلاء .

اما الساقان عند المولود حديثا فتكونان قصيرتين متجهتين بطريقة تجعل بطن القدمين يتجهان كل منهما للآخر . وكلما نما الساقان ازدادا انبساطا واستقامة ، فعندما يصل الطفل الى سن السادسة ينبغي أن يكون الساقان والركبتان مستقيمتين لا اعوجاج فيهما ولا تقوس ،

وخلال السنتين الأوليين في حياة الطفل تنمو الساقان بمعدل ٤٠٪ من طولهما الأصلي ، وعندما يصل الى سن الثامنة يزداد طول الساقين بمعدل ٥٠٪ من طولهما الأصلي عندما كان في سن الثانية ، ومعنى هذا أن الساقين ينمون بمعدل أبطأ من نمو الذراعين في بداية مرحلة الطفولة . وإذا طبقنا ما ذكر عن الذراعين فإن الساقين تبدوان رفيعتين وأسطوانيتين حتى نهاية سن الطفولة ، وفي الوقت نفسه عندما تبسط سرعة نمو طول الساقين نجد أن الزيادة تتم في النمو العضلي لهما وينتج عن ذلك تغير ملحوظ في شكلهما . ونلاحظ أن الاطفال الذين يكون نموهم مبكرا عن الاطفال العاديين يميلون لأن يكون لهم ساقان قصيران مختلفان عند تمام نضجهما ، بينما نلاحظ أن الاطفال الذين يتأخر نموهم عن المعتاد عادة ما يكون لهم ساقان طويلان أسطوانيان .

وإذا تعرضنا لليدين والقدمين وجدنا أنهما لدى الطفل الرضيع ينمون في الحجم كما ينمون أيضا في الناحية العضلية قبل أن يتم استخدامهما، فخلال الطفولة الأولى والطفولة المتوسطة (المرحلة المتوسطة بين سنوات نهاية مرحلة الطفولة الأولى وبداية مرحلة الطفولة المتأخرة) نجد أن الاصابع تكون قصيرة بسبب النمو البطيء للعظام ثم يزداد نموها بعد ذلك حتى يصل الى حجمها العادي بعد نهاية الطفولة المتأخرة (حوالى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة) وهذا يحدث أيضا في القدمين واليدين على حد سواء في وقت واحد ، ويلاحظ أن الاولاد عادة تكون اقدامهم أكبر من اقدم البنات ، وتصل الى نهاية نموها متأخرة عن البنات، ومن الطريف أن نعرف بأن البحوث قد دلت على وجود معامل ارتباط موجب بين حجم القدم وطول قامة الفرد (١١) .

(هـ) العظام والعضلات

ينحصر نمو العظام في ازدياد حجمها وفي عددها وفي تكوينها ، وهذه المظاهر كلها تتبع نفس السياق الذى سبق أن أوضحناه في ازدياد حجم الطفل ، ومعنى هذا أن النمو تزداد سرعته خلال السنة الأولى من العمر ، ثم تبطئ هذه السرعة نسبيا بعد ذلك حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة (راجع شكل (٤) من هذا البحث) .

ففى الشهور الأولى بعد الميلاد تكون أنسجة العظام هشة واسفنجية التركيب ، كما أنه تنشأ للوليد غضاريف أو أغشية سميكة في الأماكن التى تظهر فيها العظام بعد ذلك ، وتكون عظام الوليد محتوية على مقدار أكبر من الماء والموارد الشبيهة بالبروتين ، كما تحتوى على كميات أقل من المحتويات المعدنية عن عظام الشخص الكبير البالغ . كما نجد أن هناك تدفقا أكبر للدم وكمية من الأوعية الدموية وذلك لتزويد الطفل بالمواد اللازمة للنمو وتكون الاغطية الخارجية للطفل سميكة بالقدر الذى يمنع به حدوث الكسور المركبة . وفى ذلك الوقت نفسه تكون العظمة ضعيفة الالتحام ببعضها وعلى عكس ذلك كثيرا ما توجد فجوات بين نهايات العظام .

ويكون نمو العظام كما ذكرنا في الطول من أطرافها حيث تتحول مواضع الالتحام بين العظام بعضها ببعض الى مناطق عظمية مع تقدم النمو . ومع وصول الطفل الى نهاية الطفولة

النمو الجسمى فى مرحلة الطفولة

المتأخرة وبداية المراهقة تتوقف العظام عن النمو. أما نمو العظام فى العرض فينتج عن إضافة أنسجة عظيمة الى حافتها الخارجية فيتضخم السمك وتزداد العظام متانة . وازدياد المتانة والصعوبة لا يحدث الا بعد الميلاد ، ويتدرج من الجزء المتقدم من السنة الاولى حتى نهاية الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة ، وينتج ذلك من تدخل عنصرى الكالسيوم والفسفور وبعض الأملاح المعدنية فى تركيب العظام كلما تقدم النمو .

أما ما يتعلق بالعضلات فانها تلعب دورا فعلا فى تنظيم نمو الاعضاء الاساسية للجسم كالقلب واعضاء الجهاز الهضمى والغدد ، كما أنها المسئولة الاساسية عن قوة الجسم وتأثر النشاط. وفى وقت الميلاد تكون الألياف العضلية فى حالة غير ناضجة ، وهذا ما يجعل الوليد ضعيف القوة وقليل النشاط ، وبالرغم من أن لا تنشأ أنسجة عضلية جديدة بعد الميلاد فان الأنسجة الموجودة منذ الميلاد تتغير فى الحجم والشكل والتركيب ، كما تزداد طولاً وعرضاً وسمكاً وينتج عن ذلك زيادة فى وزنها .

فى الشخص العادى نجد أن وزن العضلات يزداد من وقت الميلاد الى نهاية النضج ما يقرب من ٤٠ مرة . وحتى سن الخامسة فان نمو العضلات يتم بنفس نسبة زيادة وزن الجسم عامة ، ومن الخامسة حتى السادسة تزداد سرعة نمو العضلات وفى هذا الوقت تبلغ زيادة وزن الجسم عموماً ١٥ ٪ تقريباً من وزن العضلات فقط . أما بعد هذه المرحلة فان نمو العضلات يصبح بطيئاً نسبياً، ولكن يتبعها مرحلة تتميز بسرعة النمو ، كما أنه مما يلاحظ كذلك أن العضلات فى الطفولة المبكرة تكون محتوية على قدر كبير من الماء وقدر قليل من الاجسام الصلبة والبروتينات أكثر مما يتوفر فى عضلات الشخص البالغ نسبياً . وبالإضافة الى ذلك فانها تكون أكثر رقة وأقل متانة فى اتصالها بالعظام ويصل سمكها عند تمام النضج الى ما يقرب من خمسة أمثال سمكها عند الميلاد . كما أن تكوينها يتحول من ٧٢ ٪ من الماء و ٢٨ ٪ مواد صلبة الى ٦٦ ٪ من الماء و ٣٤ ٪ مواد صلبة فى البالغ وينتج عن ذلك أن العضلات تصبح أكثر صلابة وثباتاً ، فنجد أن الطفل تتولد لديه تدريجياً الدوافع القوية للقيام بالنشاط العضلى . وقد يدفعه ، وهذا ما يحدث كثيراً ، الى التحفز وعدم الاستقرار فى الحالات التى يجد نفسه فيها عديم النشاط .

وكأى وظائف عضوية أخرى نجد أن هناك فروقا فردية واسعة فى القدرة العضلية لدى الاطفال ، فالافراد الذين يمتلكون العضلات العريضة السمكة يكتسبون قوة عضلية فائقة كما أن ذوى العضلات الصغيرة يبدون قدراً احسن من التأثر فى أوجه النشاط العضلى وبينما نجد أن بعض الاطفال تتعب عضلاتهم بسرعة نجد أن البعض الآخر لهم عضلات لها قدرة كبيرة على التحمل والمشقة .

وتتوقف حالة عضلات الطفل جزئياً على امكاناته الوراثية وجزئياً على حالته الصحية فى الوقت الراهن وبوجه عام ، ومدى استخدامه لعضلاته ، فحتى فى الطفل الواحد نجد اختلافات فى حالة العضلات ، فهى بعد حالة المرض مثلاً غير حالتها قبله ، حيث نجده بعد حالة المرض

سريع الاجهاد والتعب . وبالرغم من أن الفروق بين نمو العضلات في الجنسين لا تكون ظاهرة بالقدرة الكافي في الطفولة فانها تبدأ في الظهور بعد ذلك حيث تصبح عضلات الذكر اكبر واقيى من عضلات الانثى منذ المراهقة (١٢) .

(٩) الاسنان :

ينمو للطفل نوعان من الاسنان : اللبنية والدائمة ، وهذان النوعان يختلفان من نواح كثيرة .

(١) هناك عشرون فقط من الاسنان اللبنية ، بينما الاسنان الدائمة عددها اثنان وثلاثون .

(٢) يكون حجم الاسنان اللبنية اصغر من الاسنان الدائمة .

(٣) تكون الاسنان الدائمة افضل جودة ونوعا من الاسنان اللبنية ، ولذلك تكون اكثر استدامة ، وتبدأ عملية ظهور الاسنان منذ الشهر الثالث بعد الميلاد وتستمر هذه العملية فترة طويلة حيث تصل اسنان العقل الى نهاية حجمها من سن الواحدة وعشرين الى الخامسة وعشرين ، ويكون ظهور الاسنان اللبنية مصحوبا بالام قد تسبب للرضيع فقدا للشهية وقد تجعله قليل الاستقرار ظاهر العصبية ، بينما الاسنان الدائمة قد تبرز من اللثة دون أن تصاحبها أية آلام .

وفي المعتاد تظهر اولى الاسنان اللبنية بين الشهر السادس والثامن ولكن سن الظهور هذا يختلف من طفل لآخر ويتوقف على الصحة والاستعدادات الوراثية والتغذية قبل وبعد الميلاد . كما أن للجنسية والجنس وبعض العوامل الاخرى اثرها في ذلك . وقد اتضح من الملاحظات العلمية أن الطفل العادى عندما يصل الى الشهر التاسع تكون ثلاثة من الاسنان اللبنية قد ظهرت له ، كما اتضح أيضا أن الاناث كقاعدة عامة يظهر السن الاول لديهن قبل الذكور ، ولكن بين الشهر التاسع والسنة الثانية فان الذكور يسبقون الاناث في ذلك .

اما ما يتعلق بالاسنان الدائمة فان الطفل العادى عندما يصل الى سن السادسة يكون لديه سن واحد أو اثنان ، ويزداد عددها الى ١٠ أو ١١ سنا عند الثامنة ، ثم من ١٤ الى ١٦ سنا في سن العاشرة ، وفي الثانية عشرة قد تصل الى ٢٤ أو ٢٦ سنا ثم الى ٢٨ سنا حوالى سن الثالثة عشرة ، اما الاسنان الاربعة الاخيرة فهي اضراس العقل التى تظهر بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين وقد لا تظهر اطلاقا .

وقد تظهر حالات تسوس الاسنان حتى قبل أن يكتمل نمو الاسنان الدائمة ، وهذه الظاهرة تظهر بنوع خاص أثناء النمو السريع للطفل حيث تكون مطالب التغذية اكثر الحاحا ، وتكون أغذية الطفل من اصناف ينقصها التنوع المتزن ولذا تظهر كثيرا في مرحلة المراهقة .

والمرحلة التى تفصل بين ازالة الاسنان اللبنية وظهور الاسنان الدائمة تمثل فترة تظهر فيها صعوبات في نطق بعض الحروف ، حيث يوجد عادة فراغ في مقدمة الفكين يسبب صعوبة في نطق بعض الحروف ويظهر ذلك من حديث الطفل ، ولهذا فان معظم الاطفال يتعجلون ظهور الاسنان

النمو الجسمى فى مرحلتى الطفولة

الدائمة علاوة على ما يحدثه ظهور الاسنان الدائمة من آثار نفسية على الطفل ، فهى دليل على اتجاه النمو نحو الاكتمال (١٣) .

(ز) الجهاز العصبى

ان نمو الجهاز العصبى يكون سريعا قبل الميلاد خلال السنوات الثلاث أو الاربعة الاولى . وينحصر نمو الجهاز العصبى فى فترة ما قبل الميلاد فى ازدياد عدد وحجم الخلايا العصبية بينما ينحصر النمو بعد ذلك فى تطور ونضج الخلايا التى لم تكن قد نضجت بعد عند الميلاد . وبعد سن الثالثة أو الرابعة يسير نمو الجهاز العصبى بسرعة بطيئة نسبيا .

أما ما يتعلق بنمو المخ فان دراسته دراسة مباشرة تصبح مستحيلة ، ولكن يمكن دراسته بطريقة غير مباشرة ، وتكون الدراسة تقديرية وليست دقيقة ، ويتم ذلك عن طريق فحص مخ الافراد بعد الممات أو عن طريق قياس أبعاد الجمجمة فى حالة الحياة .

وتدل هذه الدراسات على أن نمو المخ يكون سريعا جدا من الميلاد الى نهاية السنة الرابعة ، وتبطىء سرعة نموه بين الرابعة والثامنة من العمر ، ثم يستمر النمو أكثر بطئا حتى حوالى سن السادسة عشرة أى بعد مرحلة الطفولة المتأخرة بكثير ، وعند ذلك يكون حجم المخ قد وصل الى نهايته ، ونظرا لأن عظام الجمجمة تكون مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا غير وثيق عن طريق الأغشية خلال الشهور القليلة الاولى من الحياة فان فراغا كبيرا فى حجم الجمجمة يترك لنمو المخ .

ومن حيث وزن المخ فان وزن المخ يبلغ فى المتوسط ٣٥٠ جراما ، بينما يتراوح وزن مخ البالغ الكبير من ١٢٦٠ - ١٤٠٠ جراما ، ولعل النمو السريع فى حجم المخ خلال السنوات الاولى من الحياة هو أحد الأسباب التى تؤدى الى اعطاء الجمجمة وزنها الثقيل نسبيا وحجمها غير المتناسب .

ومهما كانت العلاقة بين نمو الاجزاء المختلفة من المخ والنمو العقلى للطفل فان ملاحظة سلوك الاطفال تدل على انهم يكونون قادرين على التذكر وترابط المعانى بين الاشياء والاشخاص ، وعلى القيام ببعض الاشكال البسيطة من الاستدلال . وكلما ارتقى النمو سنة بعد سنة تزداد هذه القدرات العقلية تطورا واكتمالا . وليس المجال فى هذا البحث متعلقا بربط النمو الجسمى بالنمو العقلى فهو موضوع آخر يخرج عن نطاق هذا البحث (١٤) .



عرضنا فى الجزء السابق بعضاً من أهم مظاهر النمو الجسمى فى الطفل من وقت ميلاده حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة وقد رأينا (كما سبق ايضاحه) أن نورد النمو فى هذه الفترة التى يمكن تقسيمها الى عدة فترات واحدة واحدة فى كل مظهر من مظاهر النمو الجسمى حتى يسهل تتبعه وملاحظة سياق التطور دون قطع الدراسة بطريقة مصطنعة الى أجزاء تحدها هذه المراحل التفصيلية .

وبهنا الآن بعد أن أوضحنا هذا النمو الجسمي في هذه الفترة أن ننتقل من الجانب البنائي Structural الى الجانب الوظيفي Functional فنتبع النمو الحركي عارضين في هذا النمو ما يحدث من تطور في أهم المهارات الحركية التي تظهر لدى الطفل خلال هذه الفترة . ويمكن تلخيص أهمية النشاط الحركي في الجوانب الآتية :

(١) أن الصحة الجيدة التي تعتبر حيوية بالنسبة لنمو الطفل وسعادته تتوقف جزئيا على تدريبه على المهارات الحركية ، فإذا كان تناسبه الحركي ضعيفا كان أدائه غالبا أقل من زملائه ، ولا يشعر الطفل بارتياح يذكر في قيامه بالنشاط الحركي ، ويقل بذلك دافعه للاشتراك فيه .

(٢) أن النشاط الحركي يخلص الطفل عادة من الطاقة الزائدة التي يزود بها ويجعله مقبلا على النشاط الذي يزيد من قوة عضلاته ويحسن صحته بوجه عام .

(٣) يعتبر النشاط الحركي أسلوبا من أساليب التغيير والترويح على الطفل ، فنشاط الطفل في اللعب بأدوات اللعب في الصغر يساعده على تركيز انتباهه واستخدام وظائفه العقلية ، ومن ثم يساعد على أحداث التغيير والمتعة في حياته .

(٤) كما أن النشاط الحركي يعطى الطفل فرصة للتفاعل الاجتماعي ، فالنشاط الحركي في الاطفال عادة لا يتم حينما يكون الطفل منفردا بل يؤدي الى الاتصال بغيره والتعامل معه .

(٥) يساعد النشاط الحركي الطفل على تنمية مفهوم الذات عنده ، فنجاح ادائه ايا كان يزيد من مشاعره بالأمن تجاه البيئة التي يتفاعل معها .

وسنتناول فيما يلي النمو الحركي في الاجزاء الآتية من الجسم :

(أ) منطقة الرأس .

(ب) الجذع .

(ج) الأطراف .

(أ) منطقة الرأس .

تبدأ في هذه المنطقة بتأخر العين الذي يكون ضعيفا خلال الساعات الاولى من الميلاد ، ولكن ذلك يتحسن بسرعة ، لدرجة أن الوليد العادي في نهاية الشهر الرابع يكون قادرا على أغلب الحركات اللازمة في عينيه ، فهو في نهاية الشهر الثاني يستطيع أن يركز عينه على شيء ثابت وبعد شهر يستطيع أن يتبع عادة شيئا متحركا . ولكن التناسق اللازم في حركة العين لا يكتمل عادة بشكل يمكنه من القراءة دون اجهاد للعين قبل أن يصل الطفل الى سن السادسة .

ومن الملاحظ أن انعكاسات الابتسام استجابة للمثيرات اللمسية والحركية تظهر على الوليد من نهاية الاسبوع الاول من حياته ، اما الابتسامة (الاجتماعية) لشخص أو استجابة لابتسامة

أخرى لا تحدث حتى الشهر الثالث من العمر . ويرى بعض الباحثين أن هذه الظاهرة تعتبر أولى الاستجابات الاجتماعية للطفل .

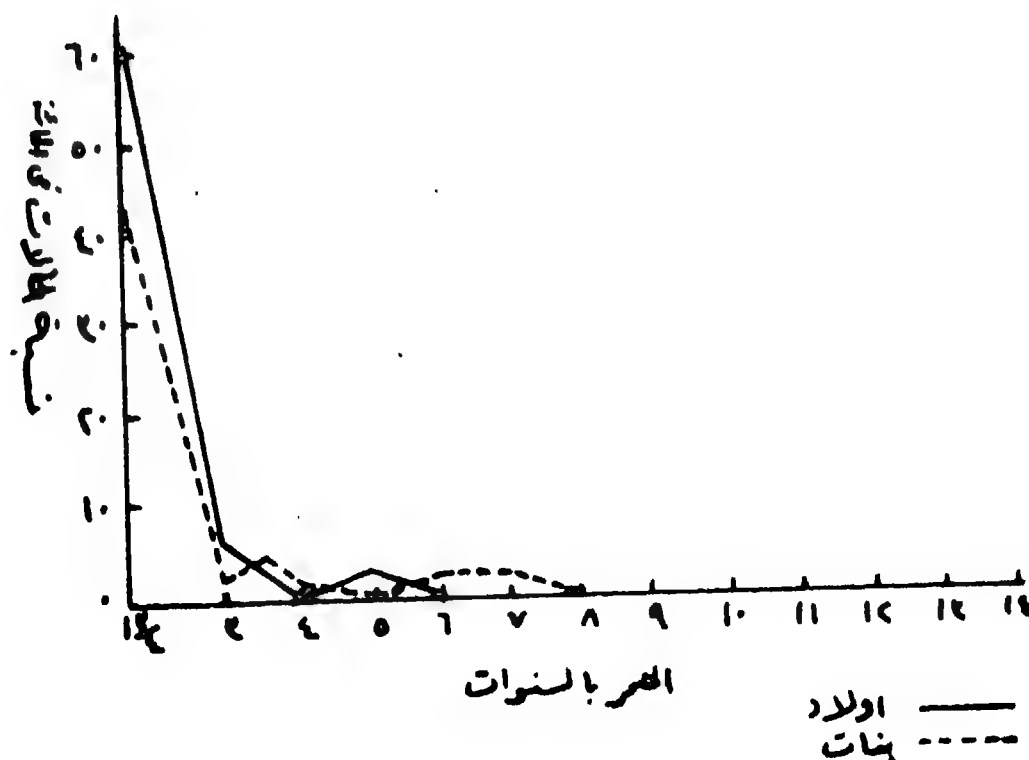
كما نلاحظ أيضا أن أغلب الأطفال الذين ولدوا حديثا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم للحظات قصيرة ، فالوليد في الشهر الأول قد يحتفظ برأسه أفقية مستقيمة مع جسمه إذا حمل أفقيا ، وبعد شهرين يستطيع أن يرفع رأسه مائلة على الأفقى بحوالى ٣٠ درجة وكلما تقدمت الشهور يستطيع أن يرتفع برأسه وصدره أثناء نومه . ثم يستطيع بعد ذلك أن يدير رأسه بإدارة كتفيه واستخدام عضلات الجزء الأعلى من الجذع ، ولكنه لا يستطيع أن يحتفظ برأسه راسية عندما يجلس دون مساعدة إلا عند نهاية الشهر السادس ، وبتقدمه في العمر تطول المدة التى يستطيع فيها الاحتفاظ برأسه على هذا الوضع (١٥) .

(ب) الجذع

أن دوران الجسم من جانب لآخر أثناء النوم لا يتوفر للطفل المولود ، ولكن عندما ينتهى الشهر الثانى فإن الوليد يستطيع أن يتنقل من النوم على جانبه إلى أن يصير نائما على ظهره وفى نهاية الشهر السادس يستطيع الرضيع أن يدير جسمه دورة كاملة . وقد لا يتم له ذلك دفعة واحدة ، بل يتم على مراحل ، وفى دوراته عادة يبدأ بمنطقة الرأس ثم الاكتاف ثم الجزء الأسفل من الجسم ، وعن طريق الدفع بالساقين يستطيع الرضيع أن يدير كل جسمه .

ويصبح جذعه تحت سيطرته قبل أن يتمكن من الجلوس بنفسه فهو عندما يصل إلى الأسبوع العشرين يستطيع أن يجلس بمساعدة محتفظا بجسمه معتدلا . وبين الشهر التاسع والعاشر فإن الوليد العادى يستطيع الجلوس دون مساعدة لدقائق معدودة ، وفى بداية تعلمه الجلوس يميل بجسمه قليلا إلى الامام ليحتفظ بتوازنه ، كما أن ذراعيه يكونان ممتدين على جانبيه جسمه وكما يكون ساقاه مقوسين بقدميه متقابلين ليعطيه هذا الوضع حيزا كبيرا للاتزان .

ومن بين عضلات منطقة الجذع تكون أعضاء الإخراج وتأخر قدرة الطفل للسيطرة عليها وذلك لحاجتها إلى عضلات دقيقة ، فالتحكم فى الإخراج معناه كف العمليات التى كانت بطبيعتها لا إرادية . وهذا التحكم لن يتم إلا إذا أصبحت عضلاته قوية ومتأخرة ، حتى يستطيع أن يمنع بذلك الفضلات التى تعمل على الخروج من الجسم . وبالرغم من أن هناك فروقا فردية بين الأطفال فى القدرة على هذا التحكم إلا أن هذا يبدأ عادة عندما يتم الرضيع شهره السادس بينما التحكم فى المثانة قد يتأخر حتى الشهر الخامس عشر أو السادس عشر حتى السنتين أو السنتين والنصف ، مع حدوث هفوات فى حالة مرض الطفل أو إجهاده أو قلقه الانفعالى . أما الامتناع عن التبول ليلا فإنه يحتاج إلى سنة أخرى من النمو . وبوجه عام فإن الطفل عند دخوله المدرسة ينبغي أن يكون قد اكتسب عادة التحكم فى البول حتى فى حالات الإجهاد والقلق الانفعالى والاستثارة (١٦) .



شكل (٧) نمو عادات النظافة في الطفل (التحكم في التبول) مأخوذة من (١)

(ج) الأطراف

من أول ما يظهر في أشكال الحركات المتأخرة في الذراعين ينحصر في الحركات الدفاعية . وتبدو هذه من الأيام الأولى من الحياة . وتكون في بداية الأمر حركات ضعيفة التأزر والتنسيق ولكنها في نهاية الأسبوع الثاني بعد الولادة تكتسب قدراً كبيراً من التأزر - أما الوصول إلى الأشياء والقبض على الأشياء ، ما عدا في الحالات التي تلمس اليد الشيء صدفة ، فإنها تحتاج إلى قدر من التأزر بين العين واليد . حيث يجب أن تعمل العينان معاً ، ويرتبط عملهما بحركة اليدين . وفي المراحل الأولى من التأزر بين العين واليد ينظر إلى الشيء الذي أمامه دون أن يصل بيديه إليه . وخلال الشهر الرابع يبدأ بالقبض على الأشياء ولكن بشكل بطيء وغير منتظم ، ويتحسن ذلك بعد شهرين . وبعد عدة شهور يستطيع الرضيع الوصول إلى الشيء بيديه والقبض عليه ثم يحوله مباشرة إلى فمه .

وفي انعكاس القبض على الأشياء Grasping Reflex الذي يظهر عند الميلاد أو بعد ذلك بقليل يقوم الإبهام والأصابع مقام الخطاف ، ويتم ذلك قبل أن يستخدم الرضيع يده لأغراض أخرى وفي هذه الحالة فإن الإبهام يعمل في اتجاه مخالف للأصابع ، ومعنى هذا أنه يعمل كوحدة منفصلة .

النمو الجسمى فى مرحلتى الطفولة

وانفصال الابهام عن باقى الاصابع يتم عادة بين الشهر الثالث والرابع ، اما اخذ الاشياء فانه يتأخر حتى الشهر الثامن أو التاسع . كما أن القدرة على القبض على أكثر من شيء واحد أو اخذها معا يظهر فى شهور متأخرة . فالطفل العادى فى الشهر الخامس ينبغي أن يكون قادرا على أن يقبض على شيء يقدم له ، بينما فى الشهر السابع يستطيع أن يقبض على شيئين ، وفى الشهر العاشر على ثلاثة أشياء (١٧) .

ولنبدا الآن بالنمو الحركى فى الساقين والقدمين : نلاحظ ان الحركات اللازمة للمشى تبدأ عند الميلاد أو حتى قبل ذلك . فالطفل المولود حديثا يقوم بحركات بقدمية تشبه الركلات أو تشبه الخطو ، وكنتيجة لامتداد الساق والركلات فان الوليد يتعلم التأزر بين عضلات ساقيه وجذعه ، ثم يتعلم بعد ذلك احراز الاتزان بين أجزاء جسمه ، وهذا كله أساسى لعملية المشى ولا يمكن تحقيقه فى فترة زمنية بسيطة ، وكثير من الرضع يكون لديهم استعداد للمشى بين الشهر التاسع والخامس عشر ، فعظام وعضلات وأعصاب الساق والجذع تكون معدة لذلك ، ولكن الرضيع يلزمه الاستشارة والمعاونة من الكبار قبل أن يستطيع المشى .

ونشاهد أن الرضيع فى نهاية الأسبوع الثانى يستطيع عن طريق حركات ساقيه أن يحرك جسمه عن موضعه ، كما أن أول مظهر للانتقال يتم فى الرضيع عن طريق الرفس ثم الحبو الذى يبدأ فى حوالى الشهر الرابع ، ويصل الى قمة اتقانه بين الشهرين السابع والتاسع . وبعض الرضع لا يمرون فى هذه المراحل وينتقلون مباشرة الى المشى ، بينما نجد الآخرين يقعون فى مرحلة من هذه المراحل فترة قد لا تطول ثم ينتقلون الى المشى .

وفى المراحل المتقدمة من الحركة التى تسبق المشى نجد أن الرضيع يقوم بحركات زائدة فى انحاء جسمه ، وبالتدريب ينتقل التأزر من الرأس حتى منطقة الساقين ، ويظهر التأزر جيدا ومتقنا فى مرحلة الزحف ، ويتقدم هذه المهارات تزداد سرعة الطفل فى الانتقال .

ويسبق المشى عادة القدرة على الوقوف ويحدث غالبا أن الوقوف مع المساعدة يسير جنبا لجنب مع الزحف ، والسن المعتاد للوقوف مع المساعدة لمدة دقيقة واحدة هو اربعون اسبوعا حتى خمسين اسبوعا . ولكى يحافظ الرضيع على توازنه فانه يقف متباعد الساقين وأصابع القدم متجهة للخارج والركبتان متقاربتان ، ويتجه الرأس والجزء العلوى من الجسم الى الامام ، وبالتدرج يقلل الرضيع من الضغط الذى يبذله على من يساعده فى الوقوف الى أن يستطيع الوقوف بمفرده تماما .

ويستطيع بعض الصغار المشى بمجرد وقوفهم بينما يتأخر البعض الآخر قندرا من الوقت حتى يكتسب الثقة فى نفسه ليخطو الخطوة الاولى . ويحدث المشى التدريجى بمساعدة عادة مع الوقوف فى وقت واحد . وفى دراسة لأحد الاطفال وجد أن فترة ٢٥ يوما قد مرت بين الوقوف بمفرده واتخاذ الخطوة الاولى فى المشى .

وفي كل انواع الانتقال نجد ان الرضيع يحتفظ براسه معتدلا حتى يكتشف طريقه ، وفي المشى يكون الجسم معتدلا وتكون الحركة عن طريق تحريك الساقين وحدهما ، وكمساعدة لاحتفاظه بتوازنه فان ذراعى الرضيع تتجهان للخارج ، وتتجه القدمان للخارج ، وتتصلب الساقان ، وتتجه العينان الى الامام دون اهتمام بالنظر الى الارض ، وكثيرا ما يتسبب عن هذا وقوع الصغير اثناء المشى لقيام ما تحت قدميه عن نظره ولصعوبة اتزانه في البداية ولقيامه بحركات زائدة لا تفيده في عملية التحرك .

وينمو الصغير يحدث تغيران في عملية المشى :

(١) يتناقص ارتفاع مركز ثقل الساقين

(ب) وتتم بذلك سهولة في الخطو . فبعد ان كانت الساقان ترتفعان الى اعلى مما يجب في بداية المشى ، وبعد ان كان يبذل جهدا وطاقة كبيرين في نقل قدميه وتتابع الحركة فيها يقل الجهد تدريجيا وتزداد الخطوة اتساعا ويقل ارتفاع الساقين ويتم ذلك حوالى السنة الثانية او الثالثة من العمر (١٨) .



اكتساب المهارات في الطفولة

بعد ان يكتسب الطفل القدرة على التحكم في حركاته الكبيرة يبدأ في تنمية مهاراته ، ويقصد بذلك مجموعة التآزرات الدقيقة التى تلعب العضلات فيها دورا هاما . ويمكننا ان نصف المهارة بتعابير خاصة بها مثل « آلية وسريعة ودقيقة ومرنة » وينبغى ان ننظر الى المهارة على انها عمل مفرد دقيق ، فكل مهارة مهما صغرت « حتى كتابة حرف من الحروف الهجائية هو سلسلة من مئات عمليات التوافق في خلايا الجهاز العصبى ، وتصبح الحركة المعتمدة على اية مهارة عملية معقدة للغاية تتضمن عمليات من التكامل والتمايز في الحركات الدقيقة ومراحل متتابعة من المحاولات وحذف الاخطاء . وتنقسم المهارات الحركية الى نوعين مختلفين :

(١) المهارات العضلية الكبيرة Gross Mucular Skills وهذه مثل الجرى والقفز والرفع والتسلق .

(٢) المهارات العضلية الدقيقة Fine Muscular Skills مثل الكتابة والعزف على الادوات الموسيقية الصغيرة ، او القيام بالاعمال الدقيقة التى تتطلب مهارة في الاداء .

ومن خصائص المهارات ان تعلمها يؤدى الى « العادات الحركية » فالنشاط الذى يتكرر حدوثه بسهولة وارتياح يؤدى هذا التكرار الى اكتساب العادات التى تسهل من ادائه وتتابع الحركات فيه وتقليل الانتباه عند القيام به ، فتكرار الصغير لعملية الخطو والمشي يسهل من اداء حركاته وتتابعها بعد ذلك ، ويصبح المشى عادة حركية لا تحتاج الى تركيز الانتباه عند الطفل الكبير كما كانت تحتاج عند الطفل الصغير .

والمهارات لا يكفى مجرد النضج Maturation فى ارتقائها بالرغم من أن الاساس فى القيام بها فسيولوجى الطبيعة ، اذ يتطلب نضج الاعصاب والعضلات ومناطق المخ المتصلة بعمليات هذه المهارات ، والتحكم فى أوجه النشاط الارادى المتآزر .

فبالإضافة الى النضج فان المهارات تتطلب تدريباً ، ولكن الاهم فى التدريب هو كميته ونوعه ودقته ، فبالرغم أن المهارة تكتسب وتزداد إتقاناً مع تكرار المرات المتتالية ، الا أن نوع التدريب لهذه المهارات له أكبر الأثر فى إتقانها وسهولة أداء حركاتها بعد ذلك ، وكما سبق أن أوضحنا فى الجزء الخاص بالنضج والتدريب فان أهمية التدريب وما ينتجه من محصول وقيمة لا يحصل عليها الطفل الا اذا جاء فى الوقت المناسب الذى يرتبط ارتباطاً مباشراً بمرحلة النضج الخاصة بالعمليات التى تتضمنها المهارة المطلوبة . ويمكننا أن نفصل ذلك فنوضح العوامل التى يتوقف عليها إتقان الطفل لمهارة معينة :

١ - التدريب فى السن المناسب .

٢ - التوجيه والإرشاد بدلاً من ترك الطفل ليعتمد على المحاولة والخطأ فى اثناء العمليات اللازمة ، وقد يحدث الإرشاد حتمياً عن طريق تقليد الطفل لحركات أحد والديه ، وحتى فى هذه الحالة يحتاج الطفل الى توجيهه ليحدث التقليد بأسلوب متقن بعيد عن الخطأ .

٣ - الدافع لإتقان المهارة وقد ينتج الدافع عن طريق تحقيق الطفل للهدف الذى يصرف من أجله الوقت والجهد . فالطفل الصغير حين يبدل جهده فى عملية المشى عند تعلمها ، ويجد أنه قد حقق بذلك أحراراً الانتقال من مكانه والوصول الى الأشياء التى لم يكن يستطيع الوصول إليها فى وضعه الثابت فان ما يصاحب ذلك من ارتياح نفسى ومشاعر الانتصار تساعد الصغير على مواصلة بذل الجهد وتكرار العمليات اللازمة التى تؤدى الى الوصول الى الهدف .



وبعد ، فتلك عجالة عن تتبع النمو خلال مرحلتى الطفولة ، وقد قدمنا لها بمرحلة ما قبل الميلاد ، وأدمجنا بها الفترات القصيرة التى بها يبدأ نمو الطفل ، وبذلك جعلنا الدراسة تتضمن الطفل من وقت ميلاده الى نهاية طفولته ، أى خلال ما يقرب من اثني عشر عاماً . وقد تتبعنا خلال هذه الفترة النمو الجسمى والنمو الحركى ، وحاولنا بقدر الامكان بيان الاعمار التى تظهر فيها مراحل التغير فى كل جزء من الاجزاء الهامة من جسم الطفل ، وفى كل مظهر من مظاهر نموه وكل مهارة حركية يكتسبها .

الراجع

- (1) Hurlockb, E. : **Child development.** Mc Craw-Hill., 1964.
- (2) Havighurst, R. T. : **Leisure and life-style., Amer. J. Sociology,** 1959.
- (3) Shinn, M. W. : **The biography of a baby.** New York : Macmillan, 1900.
- (4) Geseell, A.: **Maturation and the patterning of behavior.** in C. Murchisorn (Ed). **A handbook of child Psychology.** Worecester : Clark University press., 1933.
- (5) Meredith, H. V.: **Adiscriptive concept of physical development.,** In D. R. Harris (Ed.) **The concept of development : an issue in the study of human behavior.** Minneapolis : University of Minnesota press, 1957.
- (6) Duggins, O. H., and M. Trotter: **Age changes in head hair from birth to maturity.** **Amer. J. phys. Anthropol.,** 1950.
- (7) BAYLEY, N. : **Some Psychological correlates of somatic androgyny.** **Child Developm.,** 1951.
- (8) Garn, S. M.: **Fat thickness and growth process during infancy** **Num. Biol.,** 1948.
- (9) Allen, I.: **Facial growth in children five to eight years of age.** **Hum. Biol.,** 1948.
- (10) Meredith, H. V.: **A time series Analysis of growth in nose hight during childhood.** **Child Developm.,** 1958.
- (11) Thompson, H. : **Physical growth.** In L. carmichael (Ed.) **Manual of Child Psychology,** New York : Wiley 1954.
- (12) Walker, R. N.: **Body build and behavior in young children,** **child developm.** 1962.
- (13) Massler, M., and B. S. Savara : **Natal and neonatal teeth.** **J. Pediat.,** 1950.
- (14) Fiavell. J. H. : **The developmental Psychology of Jean piaget.** Princeton : van Nostrand, 1963.
- (15) Breckenridge, M. E., and E. L. Vincent : **Child Developsment philadelphia saunders,** 1960.
- (16) Spits, R. A. : **Purposing grasping.** **Personality,** 1951.
- (17) E. L. Vincent, and P. C. Narvin : **Human psychological development,** Ronald, 1961.
- (18) Carmichael L. : **Manual of child psychology,** 1954.
- (19) Lipsitt, L. P. and N. Levy : **Electrotactual threshold in the child Developm,** 1959.

سَيِّد مُحَمَّد غَنِيم

النمو النفسي من الطفل إلى الراشد

مقدمة

يلقى علم نفس الطفل اهتماما كبيرا من جمهرة المشتغلين بعلم النفس . وقد يكون مرجع هذا الاهتمام هو الطفل ذاته ، نظرا لما للطفولة من جاذبية شديدة نحسها نحن الكبار تجاه الاطفال . وليس من شك أن غالبية الآباء في الأزمنة القديمة كانوا يحبون أبناءهم ويهتمون بتربيتهم ، كما نحبهم نحن اليوم ونهتم بتربيتهم ، مع اختلاف وجهات النظر الى الطفل والطفولة . لقد أشار فيليب أريس في استعراضه « للطفولة عبر القرون » (١٩٦٢) الى أن اطفال القرون الوسطى كانوا ابتداء من سن الثالثة أو الرابعة وما بعدها يشاركون في كثير من أنشطة الكبار . ولم تكن للاطفال شخصياتهم المستقلة كأطفال . وقد تطلب الامر مرور مئات السنين في الأزمنة الحديثة ، قبل أن تتغير نظرتنا الى الاطفال عامة باعتبار أن لهم شخصياتهم المتميزة عن شخصيات الراشدين . وقد سار المجتمع الحديث خطواته واضحة في فصل عالم الاطفال عن عالم الكبار .

والاهتمام الكبير بعلم نفس الطفل أمر تلمية ضرورة فهم الطفل الذي نتعامل معه . فقد أصبح لزاما على الآباء والمربين أن يفهموا الاطفال من أجل أن يتوافقوا معهم ومع مشكلاتهم التي يواجهونها ، وأن يساعدوهم على حل هذه المشكلات بما يهيئ المجال أمام نمو نفسي سليم . فمن خلال الدراسة المنظمة لعملية النمو النفسي والاجتماعي للطفل يمكن ان نقف على ما هو عادي وما هو شاذ في سن معينة ، وأن نعرف الكثير من جوانب شخصيته ، وأن نوجهه التوجيه السليم الذي يتوافق مع مرحلة نموه والظروف التي يعيش فيها . وقد يكون هذا الاتجاه من نتاج الأفكار الحديثة ، اذ لم تكن ثمة حاجة قديما ، لفهم الطفل ولا حتى معرفة خصائص المرحلة النمائية التي يمر بها ، كما كانت تسود علاقته بالكبار بعض الافكار التي اثرت في نظرتهم اليه واسلوب معاملتهم معه ، فهو مثلا يرى ولا يسمع ، ومن ثم لسنا في حاجة لمعرفة ما يجري في عقله من افكار أو ما يتكون لديه من ميول واتجاهات . ولقد حدث تغير ملحوظ في تفكيرنا عندما بدانا ننظر الى التربية كشيء ضروري بالنسبة للطفل ، وكان هذا التغير نتيجة لما طرا على العالم من تغير اجتماعي ومن ثورة صناعية ، وما نجم عن ذلك من تغير في اقتصاديات هذا العالم ، والادوار الوظيفية المعقدة التي ظهرت والتي لا يمكن اكتسابها عن طريق التقليد أو النموذج على نحو ما كانت تسير عليه التربية القديمة .

واذا كان النظام التربوي القديم يتسم بالشدّة والصرامة في معاملة الطفل ، الا ان عقلاء المفكرين والمربين سرعان ما ادركوا اهمية الدافعية وأن « الحصان الذي يقاد الى الماء قسرا لا يشرب بالضرورة حتى لو ضرب » ، كما ادركوا اهمية الفروق الفردية بين الاطفال في النواحي الجسمية والعقلية والانفعالية وفي الشخصية . ومن هنا ظهرت الحاجة الماسة الى ضرورة ادخال تعديلات على مناهج الدراسة كي تتلاءم ومستويات نضج الطفل . واذا كان الالتحاق بالمدارس الى عهد قريب قاصرا على طبقات معينة يمكنها الانفاق على العملية التعليمية ، فقد أصبح اليوم عاما واجباريا . واذا كان الوقت الذي يقضيه الطفل في المدرسة قليلا في البداية ، فقد أصبح في الغالبية العظمى من أنظمة التعليم في العالم اليوم ، يمثل جانبا كبيرا من ساعات نهار الطفل ، هذا بالإضافة الى انشغاله بعد عودته من المدرسة ، بالكثير من الواجبات المدرسية . وقد تطلب هذا الامر وجود قدر كبير من المهارات والقدرات لمواجهة هذه الواجبات ، مما دعا المدرسين الى الاستعانة بعلماء نفس الطفل للاجابة على كثير من المشكلات التي تواجههم في العملية التعليمية .

غير أن المشكلات التي تواجه المدرسين ليست شيئا بالقياس لتلك التي تواجه الآباء في تربيتهم للأبناء ، فحين يصبح الآباء أكثر تعلما وثقفا وادراكا ووعيا ، فانهم يبدأون في إثارة الكثير من الشكوك حول الرغبة في الالتجاء الى أسلوب التربية أو النظام الذي تربوا هم أنفسهم عليه . فربما كانت هناك الرغبة الشعورية أو اللاشعورية في أن يكون أسلوب تربيتهما لابنائنا افضل بكثير من أسلوب تربية آبائنا لنا . ومن ثم أصبح أسلوب « التعقل والفهم » هو الأسلوب السائد اليوم ، أما الالتجاء الى توقيع العقاب والضرب ، فانه - اذا حدث - يكون للذنب وقع

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

فيه الطفل ، أو يكون نتيجة احساس شخص بالفشل . والواقع أن معظم الاسر اليوم تتخذ أسلوب الفهم والتعقل في معالجة مشكلات أبنائها ، كما تميزت الكثير من المفاهيم والافكار عن الطفل . فهو اليوم يرى ويسمع ، بل ويؤثر الى حد ما في قرارات الأسرة ، وخاصة اذا ما حفزناه الى القيام بمثل هذه المشاركة . والحقيقة أن هذا التغير هو نتيجة لرغبتنا في أن نصبح أكثر ديمقراطية في أسلوب معاملتنا مع الآخرين . ففي المجتمعات الأكثر تقليدية ، تقاس قيمة الفرد الى حد كبير بمركزه ووضع في البناء الاجتماعي . ولما كانت مثل هذه المجتمعات متجهة نحو الكبار ونحو سيطرة الرجال ، فإن مركز الطفل والمرأة كان فيها وضعاً وضعياً ومقبولاً أو مهملًا ، ونادراً ما كانت تسمع آراؤهم كأفراد .

وثمة سبب آخر للاهتمام الموجه نحو دراسة علم نفس الطفل في السنوات الأخيرة
يتلخص في الرغبة في فهم انفسنا كراشدين . فآخذ الاساليب الهامة لفهم الذات أو اكتشافها
يمكن في دراستنا لسيكولوجية الطفل . فمن خلال دراستنا للطفل ، يمكن أن نعثر على بعض
المفاتيح لمعرفة غموض انفسنا ومعرفة من نحن . اننا جميعاً ندرك أننا الآن وبالتأكيد أكثر مما كنا
عليه في طفولتنا ، وأن اكتشافنا للآحداث والخبرات التي مرت بطفولتنا من شأنه أن يملأ
الفراغ القائم بين انفسنا في الطفولة وانفسنا اليوم . فنحن ندرس تقارير هذه الأحداث
والخبرات التي مرت بنا في الطفولة ، بحثاً عن انفسنا ، وعن تفسيرات لنجاحنا أو فشلنا ،
وعن نواحي الكف والإعاقة التي تعرضنا لها ، واثراً في سلوكنا وقدراتنا وإمكاناتنا . وكما
يقول كونجر وموسن وكيجان أن دراسة سيكولوجية الطفولة تزودنا بالاساس الذي لا بد
منه لكى نفهم سلوك الراشدين فهما أكثر دقة . فالبيانات الاكلينيكية المستمدة من تواريخ
الحالات الخاصة بالمجرمين والمرضى في العيادات والمستشفيات العقلية تكشف لنا عن أن سوء
التوافق الشخصى والاجتماعى الذى يشيع بين الكبار يعود بصفة دائمة تقريباً الى الخبرات التي
يقيمها الفرد في حياته المبكرة . ولقد كان لسيجموند فرويد ، أبى التحليل النفسى ،
الفضل في أن أظهر بقوة ما لآحداث الطفولة من أهمية ، كما استطاع بتحليلاته النفاذة للمرضى
الذين كان يعمل معهم أن يوضح صدق قول الشاعر « الطفل أبو الرجل » (الترجمة العربية
١٩٧٠) .

• • •

● المجالات والطرق والنظريات :

وبهنا الآن أن نلقى نظرة على مجالات دراسة الطفل وتطورها ، والطرق التي استخدمت في هذا المجال بما يسمح لنا بالقاء المزيد من الضوء على النظريات التي عالجت النمو النفسى للفرد في طفولته ورشدته . .

ولنبدا الآن بمجال دراسة الطفل :

ارتبطت دراسة الطفل - كمجال من مجالات الاهتمام - بغيرها من المجالات الكبرى . اذ تمتد أصولها القديمة الى الفلسفة والتربية والتاريخ الطبيعى ، كما ترتبط حديثاً بمصادر

كثيرة مثل علم النفس التجريبي وعلم النفس الاكلينيكي والطب النفسي والفسولوجيا وطب الاطفال وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا واللغويات . ورغم اختلاط أصوله ، فمن الممكن النظر اليه باعتباره مجالا شبه مستقل . ومع ذلك فحدوده لاتزال غير محددة ، كما ان اهدافه واهتماماته متنوعة . ومن الممكن ان نشير الى ثلاثة مجالات ينقسم كل منها الى قسمين ، تعتبر بمثابة اطار لجميع الوان النشاط التى تجرى في هذا الميدان .

فالدراسة قد تتجه أولا : اما الى ناحية البحث او الى ناحية التطبيق ، أى اما الى الكشف عن كيف يعمل الطفل ، وكيف ينمو ، او الى القيام بعمل اشياء للطفل ومن اجل الطفل . ومجالات التطبيق المتصلة بالطفل كثيرة ومتعددة تتجلى في مجالات العيادات النفسية ، وعيادات الطب النفسي ، وفي التوجيه المدرسي ، ومحاكم الاحداث وفي برامج توجيه الآباء والابناء .

وقد تتجه الدراسة ثانيا : اما الى الطفل العادى او الى الطفل الشاذ . اعنى اما الى النمو الذى يسير سيره الطبيعي او الى النمو الذى يشذ عن الطريق العادى او الطبيعي .

وقد يتجه مجال الاهتمام ثالثا : اما الى الطفل نفسه وما يجرى به داخليا من عمليات عقلية ونفسية وما يعتريه من انفعالات ، او الى البيئة المحيطة به وكيف تؤثر في سلوكه ونموه من خلال عملية التطبيع الاجتماعى التى نأخذ بها الطفل منذ وقت مبكر في عملية نموه .

ومع ذلك ، وبصرف النظر عن ناحية الاهتمام ، فان الهدف هو معرفة شئ او الكشف عن شئ يتصل بالطفل . ولقد تعددت النواحي التى يركز الباحثون عليها دراستهم للاطفال . فالبعض يهتم بالاطفال كأطفال ، أى باعتبارهم مجموعة فرعية مستقلة عن الكبار ، وبالطرق المميزة التى يسلك بها الاطفال جميعا او الاطفال فى سن معينة او الاطفال من نوع خاص او الاطفال الذين يعيشون تحت ظروف بيئية معينة على نحو ما يتضح فى دراسات وودكوك (١٩٤١) ، وبابير وميرفي (١٩٤٢) وكذلك فى دراسات جيزل المستعرضة التى اجراها على اعمار خاصة .

اما البعض الآخر فقد ركز الاهتمام على كيف يتغير الطفل اكثر مما ركزه على كيف يسلك فى وقت معين . وهذا الاهتمام بالتغيرات النمائية قد يتركز على التغيرات الجسمية ، او على النمو العقلى أو على النمو الانفعالى أو على النمو عامة . والامثلة فى هذا الصدد لا حصر لها ويكفى الرجوع الى ما كتبه اليراييت هرلوك وشارلوت بهلر وأرنولد جيزل وجان بياجيه وجوردون البورت وغيرهم كثيرون .

وثمة جماعة ثالثة ركزت اهتمامها على عملية النمو ذاتها مستقلة الى حد كبير أو صغير عن الشئ النامى ، طفلا كان أم حيوانا أم حضارة . وهذا الاتجاه يتضح على وجه الخصوص فى كتاب هاينز فرنر حيث تساءل فى مقدمة كتابه « علم النفس المقارن للنمو العقلى » عن ما هو علم النفس النمائى وما مشكلاته ؟ ورد على ذلك بقوله : ان مفهوم علم النفس النمائى يتضح تماما اذا فهمنا انه يعنى العلم الذى يختص بدراسة نمو الحياة العقلية والذى يتخذ منهاجا محددًا ، ونعنى به منهج ملاحظة الظواهر السيكولوجية من وجهة نظر نمائية .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

وهناك جماعة رابعة تهتم بدراسة اطفال مفردين ، وكيف يؤدون وظائفهم ، وكيف ينمون وذلك اما بقصد التشخيص الاكلينيكي ، اوبقصد البحث في نواحي الشخصية أو نمو الشخصية ودينامياتها على نحو ما يتضح في دراسات ميرفى عن المهارات والمصادر التي يستعملونها مع البيئة .

وأخيرا يمكن أن نشير الى الدراسات التي تجرى بطريقة عرضية على الاطفال والتي يستخدم فيها الاطفال كموضوعات للدراسة التجريبية ، لا لان الباحث يهتم بمعرفة شىء عن الاطفال ، ولكن لأن الاطفال هم الاشخاص الذين في متناول يده ، ويمكنه ان يجرى عليهم أبحاثه وتجاربهم باعتبارهم عينات للجنس البشرى عامة. ومن أهم دراسات هذا النوع تلك التي تتصل بأبحاث التعليم ، سواء أجريت في المعمل أو في الفصل ، والتي تحاول أن تحدد الظروف الخارجية للتعليم ، والتي يمكن فيها أن يستخدم الكبار أو الفيران مكان الاطفال . ومع ذلك يمكن القول انه حتى في هذا النوع من الدراسات التي لا نخبرنا بشىء عن الاطفال من حيث هم كذلك ، فقد يكون لها أهمية تطبيقية بالنسبة للمدرسين أو للآباء .

وهكذا يتبين لنا أن دراسة الطفل تمثل لنا أشياء كثيرة مختلفة يمكن أن يقوم بها اناس كثيرون مختلفون .



● طرق البحث في دراسة النمو

ليس الهدف هنا تقديم عرض تفصيلي لمناهج البحث ، بقدر الإشارة الى بعض الطرق الاساسية والافكار المنهجية التي ظهرت كأدوات خاصة في دراسة النمو . وقد وصلت الينا هذه الادوات من مجالات متعددة ، ومن وجهات نظر مختلفة في دراسة الطفل . ولذا يحسن النظر اليها في ضوء المشكلات والفروض التي أوجدتها، اعنى في ضوء نظرة تاريخية تربط فيها بين الادوات والحقب الزمنية أو التاريخية التي ظهرت فيها ، بشكل يلقي لنا الضوء على تطور استخدام هذه الادوات في دراسة الطفل .

ومن الممكن أن نتبع بالدراسة أربعة أنواع من الادوات الرئيسية هي : طرق الملاحظة ، والطرق المعملية ، والاختبارات والمقاييس ، والطرق الاكلينيكية . وكل طريقة منها تقابل حقبة زمنية ظهرت فيها . وهذه الحقبة الزمنية الأربع هي الحقبة الطبيعية Naturalist Era والتي بدأت في القرن الثامن عشر وبلغت ذروتها في منتصف القرن التاسع عشر ، وحقبة علم النفس التجريبي القديم ، والتي بلغت ذروتها في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، ثم حقبة الفروق الفردية والتي سادت الثلث الاول من القرن العشرين ، ثم حقبة دراسة الشخصية والتي بلغت ذروتها في السنوات العشرين الاخيرة من هذا القرن . وهذا التقسيم التاريخي يقوم على المفهوم المتغير للفرد على نحو ما سوف يتضح من خلال المناقشة التالية لها.

أولا : الحقبة الطبيعية : من المعروف لنا أن الاهتمام بدراسة الطفل ليس وليد العصر الحديث ، بل يمتد الى عهود قديمة . فقد ورد في الكتب السماوية ما يشير الى تربية الصغار وتكوينهم ، وكذلك في النظريات التي نادى بها فلاطون في الجمهورية ، وفي كتابات المحدثين من الفلاسفة من أمثال جون لوك ، وجان جاك روسو وغيرهما عن تنشئة الطفل . لقد كان جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) من أوائل المفكرين الذين مهدوا لهذه الحقبة ، فناقش الكثير من الافكار القديمة التي تتصل بتربية الطفل ونشر سنة ١٦٩٣ مقالته « بعض الافكار المتصلة بالتربية » نصح فيها المربين بترك الحرية للطفل كي يعبر عن مشاعره ، والا تقيده حرته الا قليلا . ولم يكن يتفق والآراء التي تذهب الى تدريب الطفل على الصينة ، أو تأجيرهم للعمل ، لان من واجب الآباء ان يهتموا بتربية ابنائهم وأن يقووا الى جوارهم ما أمكنهم ذلك . وكون الآباء نماذج طيبة امام الابناء هو احسن نمط يمكن التأثير به في شخصية الابناء . ولقد كان **لوك** أحد المفكرين الاقوياء من اصحاب التأثير في تنمية الاسلوب العلمي . فرفض الاعتقاد بأن المعرفة فطرية ، وأكد أن كثيرا من معرفتنا انما مبعثه الاحتكاك بالبيئة ، وأن هذه النتائج يجب أن تدعم من خلال الطرق التجريبية . وتعتبر اعمال لوك في الادراك الحسى والتذكر وتداعى الافكار والانفعالات ونمو اللغة من الاعمال التي ساهمت فيما بعد في ارساء قواعد علم النفس التجريبي .

وثمة مفكر آخر كان له تأثير عظيم على الاتجاهات نحو الاطفال ونعنى به **جان جاك روسو** (١٧١٢ - ١٧٧٨) والذي رفض - شأنه شأن لوك - الكثير من الافكار التي كانت سائدة في العصور الوسطى عن الاطفال . أن ما نخرج به من قراءتنا لروسو هو الاحترام الكبير للاطفال كأفراد . فمثلا يجب الا يصر الآباء على اعتذار الطفل لانه لا يهدف بطبعه الى القيام بالخطيئة . انه مخلوق طيب بطبعه ، وان ما يفرضه مجتمع الكبار عليه من قيود وتحريات هو الذي يعرقله ويضطره الى أن يكون شخصا اقل نبالة وفضيلة ، وقد كانت نظريته تخالف ما تواضع عليه المجتمع فدعا الى تشجيع الطفل على أن يعبر تعبيرا حرا غير مقيد عن نوازه الاصلية التي هي في جوهرها وأصلها نوازع نبيلة .

لقد بدأت لحقبة الطبيعية في أواخر القرن الثامن عشر حين أخذ نفر من الباحثين في دراسة الاطفال باستخدام منهج الملاحظة الفعلية . من ذلك ما قام به المربي السويسري **جوهان هاينريش بستالوتزى** (١٧٤٦ - ١٨٢٧) من نشر مذكرات تقوم على الملاحظة الدقيقة التي قام بها لنمو ابنه الذي يبلغ من العمر الثالثة والنصف . وقد أعلن هو الآخر أهمية فهم الاطفال وسلوكهم . وقد نظر الى الام باعتبارها أول وأهم مرب للطفل ، وحفزها على أن تصدق مشاعرها نحو الطفل ، وأن تفتح امامه آفاق هذا العالم وتعدده لاستخدام حواسه وتقوية ملاحظته .

وفي القرن التاسع عشر بدأت تظهر سلسلة متتابعة من تراجم حياة الاطفال . فقد قدم العالم المشهور تشارلس دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) من بين أعماله العديدة ، مقالة أورد فيها ملاحظاته عن طفله الاول . كما قدم العالم الفسيولوجي ولهم تيرى براير Preyer ملاحظاته الدقيقة عن النمو العقلي لطفله خلال السنوات الاربع الاولى من حياته .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

لقد لاحظ نمو الانعكاسات منذ الولادة ، كما لاحظ أثر الخبرة والتعلم . ويعد كتابه ((عقل الطفل **The Mind of the Child** وهو خلاصة ملاحظاته أحد أهم الكتب القديمة في علم نفس الطفل .

فالمنهج الطبيعي في دراسة الطفل - شأنه شأن المنهج الطبيعي في علم البيولوجيا - يقوم أساسا على الملاحظة والتسجيل الدقيقين لما يقوم به الطفل في موقف طبيعي وفي مجال نشاطه اليومي . فلم يكن الاهتمام موجهًا اذن بوجه عام نحو تحليل أو معالجة التغيرات في الموقف بقصد دراسة الانواع الخاصة للاستجابات أو التأثير على النمو .

وثمة مظهر آخر لمنهج الطبيعيين ونعني به الدراسة الطولية **Longitudinal** والتي تقوم على تكرار الملاحظات على نفس الفرد في فترات متعاقبة (وهذه الطريقة الطولية تختلف عن الطريقة المستعرضة **Cross-Sectional** حيث ندرس النمو بمقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة) .

والحقيقة أن الكثير من ملاحظات الطبيعيين القدامى تبدو لنا اليوم بسيطة وساذجة . فهي ملاحظات غير منهجية ، وتتم على فترات غير منتظمة . وطالما انها كانت تفتقر الى المقارنات بين الاطفال وبين المواقف والظروف المختلفة للنمو بين الملاحظين ، فانها كانت اذن دراسات غير مضبوطة تماما . هذا بالاضافة الى أن الملاحظين في الاغلب كانوا لا يحجمون عن اقحام مشاعرهم الذاتية وتفسيراتهم الشخصية على ما يرونه من سلوك الطفل ، والذي هو في الاغلب ابنه أو أحد اقاربه . ومع ذلك ، ورغم كل هذه الانتقادات ، فلا تزال مثل هذه التراجم الاولى مصدر ثروة للمادة العارضة في نمو الطفل . كما انها تعد بمثابة دراسة للفردية بالمعنى الحديث فالباحثون القدامى كانوا يوجهون اهتمامهم الى دراسة سلوك الطفل « بعامة » أكثر من اهتمامهم بدراسة النواحي التي يختلف فيها طفل عن الآخر .

وبطبيعة الحال استمر المنهج الطبيعي في خلال الحقبة الثانية وهي حقبة علم النفس التجريبي القديم ، ولكن بصورة معدلته وحتى وقتنا الحاضر . فالباحثون القدامى الذين اهتموا بدراسة الطفل كانوا أساسا طبيعيين في اتجاهاتهم ولكنهم بدأوا في تكييف مناهجهم القديمة مع الاتجاه التجريبي الجديد . ومن ثم نجد سير ستانلي هول (١٨٤٦ - ١٩٢٤) والذي كان مهتما ببحث « محتويات عقول الاطفال » يلجأ الى استخدام منهج جديد للبحث هو منهج الاستخبار **questionnaire** والذي يتألف من سلسلة من الاسئلة وضعت للحصول على المعلومات عن سلوك الطفل والمراهق ، واتجاهاتهم واهتماماتهم ، كما كان يجمع الاستجابات المكتوبة على هذه الاستخبارات من كل من الاطفال وآبائهم على السواء . ويمكن القول أن عمل «هوك» الذي استمر في القرن العشرين يحدد بداية الدراسة المنظمة لعلم نفس الطفل . لقد بدأ يركز الانتباه على جوانب معينة من نشاط الطفل ، كما أنه يعد من الناحية المنهجية أكثر موضوعية من المناهج الفلسفية وتراجم الحياة ، هذا بالاضافة الى مكان معالجة نتائج هذه الاستخبارات في صورة كمية .

ثانياً : حقبة علم النفس التجريبي القديم: وعلى خلاف الطبيعيين الذين اهتموا بالتركيز على الوظائف الكلية للطفل - والطفل دائماً - فان التجريبيين الاول قد ركزوا اهتمامهم على دراسة الوظائف الجزئية كعمليات التفكير والتذكر والادراك والتصور وما اشبهه . ولكنهم كانوا يشبهون الطبيعيين في ناحية البحث عن القوانين العامة أو الصور الكلية لهذه الوظائف المجردة النقية . ومن أجل البحث وراء العمومية والنقاء ، تركوا المجال الطبيعي ودخلوا المعمل حيث يمكن تجنب الكثير من تعقيدات الحياة اليومية وتعقد الظروف فيها . وفي المعمل يمكن استخدام الطرق السيكوفيزيكية وتغيير الظروف بشكل منتظم واستخدام كل ظرف على حدة . ولجعل الظروف نقية تماماً لجأ بعضهم الى تخلص المثيرات ، قدر الامكان ، من جميع المعاني على نحو ما فعل ابنجهوس في تجاربه المشهورة على التذكر ، والتي استخدم فيها مقاطع صماء عديمة المعنى ، كما انهم في بحثهم عن العمومية نظروا الى الفروق الفردية التي توجد بين الافراد في الاستجابة للمثيرات المختلفة باعتبارها شوائب تجريبية أو اخطاء في القياس ، ولجأوا الى تكرار الاقيسة من أجل الحصول على متوسطاتها . وبالمثل لم يكن يرحب هؤلاء بالتغيرات أو الاختلافات في الفروق النمائية . فالتجريبيون الاول كانوا مهتمين أساساً بالوظائف الجزئية عند الكبار ودراستها في ظروف نقية قدر الامكان ، بقصد الوصول الى القوانين العامة التي تخضع لها . ولذا كان نصيب التجريب المعمل على الاطفال في هذه الحقبة السيكوفيزيكية المبكرة ضئيلاً .

ولكن بعد ذلك ، اخذ علماء النفس المعمل يوجهون اهتمامهم نحو التغيرات النهائية، واجريت دراسات على التغير مع السن في مظاهر السلوك المختلفة مثل زمن الرجوع ، وفترات التذكر والنسيان وحل المشكلات وغيرها .

يضاف الى ذلك أن المناهج التجريبية في المعمل اصبحت قابلة للتطبيق على عدد كبير من المشكلات خارج جدران المعمل حيث يمكن دراسة الآثار المباشرة والبعيدة المدى لظروف أكثر تعقيداً ، مثل دراسة القيادة السلطوية ضد القيادة الديمقراطية ضد القيادة المطلقة ، أو دراسة منهج تعليم القراءة عن طريق السمع في مقابل البصر . والواقع أن المنهج الاساسي للتجريب والذي استعير من السيكوفيزيقا يتطلب فقط ضبط الظروف والمقارنة بينها .

ثالثاً : حقيقة الفروق الفردية ثم ظهر مجال جديد من مجالات الاهتمام في علم النفس العلمى في السنوات الاولى من القرن العشرين . لقد أخذ هذا الاتجاه الجديد مظهرين : الاول النظر الى الناس على أساس وجود سمات متعددة لديهم . والثانى كيفية توزيع هذه السمات على المجموع العام من الناس . فمجال الاهتمام والتركيز في هذه الحقبة لم يكن منصّباً على طبيعة الوظائف العقلية أو العمليات العقلية المفردة - كما كان في الحقبة السابقة ، بل على مقدار وجودها وتوزيعها بين الناس .

والفكرة الاساسية التي يقوم عليها هذا الاتجاه ، هي تلك العبارة التي دوى صداها في تلك الايام والتي تعزى الى ثونديك حيث يقول « أن كل ما يوجد ، يوجد بمقدار ، وكل

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

ما يوجد بمقدار يمكن قياسه » . وفي هذه الحقبة ، كانت الاختبارات كأداة ، هي موضع اهتمام بالغ لدى علماء النفس . فمع بداية الحرب العالمية الاولى ظهرت الحاجة ماسة الى اجراء الاختبارات السيكولوجية على نطاق واسع على المجندين الجدد في الجيش . ومن ثم ظهر العديد من اختبارات الذكاء . وكان من نتيجة ذلك أيضا أن ظهرت الاختبارات الجمعية التي يمكن أن تطبق على عدد كبير من الافراد في وقت واحد . وبعد الحرب استخدمت الاختبارات العقلية على نطاق واسع في مجال المدرسة وميدان التعليم . ومن قياس الذكاء انتشرت الاستخدامات المختلفة للاختبارات ، فاستخدمت في قياس القدرات الخاصة عند الفرد كالقدرة اللغوية أو الرياضية أو الميكانيكية أو الموسيقية ، كما استخدمت أيضا في قياس الشخصية .

ومن أئمة حركة القياس نذكر **جالتون وجيمس ماكدكنازل وثورنديك وترستون وترمان وسبيرمان** وغيرهم كثيرون ممن أتى بعدهم . وكانت حركة القياس والتي تعرف الآن باسم « السيكومتري » ظاهرة من ظواهر علم النفس الأمريكي ، وان كانت هذه الحركة قد بدأت أولا في فرنسا على يد طبيب فرنسي مشهور هو « الفردينيه » ويعتبر بينيه أحد الرواد الاول في قياس الذكاء ، حيث وضع اختباراه المشهور هو وزميله سيمون والذي عرف فيما بعد باسم « مقياس استنفورد - بينيه - للذكاء » - والذي خرجنا منه بفكرة هامة في قياس الذكاء هي فكرة العمر العقلي . وكانت هذه الفكرة هي بداية كثير من الافكار التي من هذا النوع والتي استخدمت على نطاق واسع بعد ذلك في دراسة الطفل : كالعمر التحصيلي والعمر التعليمي والعمر القرائي الخ . . ومن المهم أن نلاحظ أن قياس السمات على أساس العمر أو أي مقياس أخرى هو دائما نسبي بالنسبة للمجموع العام من الناس . ومع ذلك فقد عولجت في الاغلب كما لو كانت مقاييس مطلقة تعبر عن المقدار الفعلي للذكاء أو أي سمة أخرى لدى الفرد .

ويجدر بنا أن نشير الى أن اهتمام السيكومترين الاول بالفروق الفردية كان في الحقيقة موجها الى اختلاف الجماعات في سمة ما في وقت واحد ، وليس الى الطريقة التي بها يختلف فرد عن آخر . ومع ذلك ، فقد طبقت المقاييس العقلية على الافراد بقصد التصنيف التربوي أو المهني . واستخدام اختبار بينيه أساسا كوسيلة تساعد على تقدير قدرة الفرد على التعليم ، وفي التمييز بين العاديين وغير العاديين .

ولقد حاول نفر من السيكومترين بعد ذلك الوصول الى تقدير شامل للفرد بتحديد درجته في مجموعة من الاختبارات توضع لقياس سمات مختلفة . ورغم أن هذه الطريقة مكنت المختبر من وضع عدد من الاحكام المستقلة المنفصلة عن الفرد موضع الدراسة ، إلا أنها لم تبين لنا كيف ترتبط هذه السمات بعضها ببعض .

وغالبا ما يركز السيكومليون على وسائل القياس ذاتها ، وعلى الانماط العامة لتغير الجماعة في حدود منحنى التوزيع الاعتدالي ، واغفال الافراد موضوع الدراسة (أو حتى السمات) . وعلى الرغم من استخدام الاطفال كأفراد عند تطبيق الاختبارات ، إلا أن الاهتمام

الرئيسى لحركة القياس لم يكن موجها الى دراسة طبيعة الطفل كطفل . ولكن حديثا ، أصبح المختبرون أكثر مرونة في تفسير نتائج القياس ، واصبحت الاختبارات وسيلة ضرورية وهامة في دراسة الطفل .

ولكن كى تكون النتائج التى نحصل عليها من استخدام الوسائل السيكومترية مفيدة وناقعة ، يلزم أن تتوفر فكرتان أساسيتان في نفس المقياس ونعنى بهما الثبات والصدق .

أما الثبات فمعناه أن المقياس يعطى أساسا نفس التقدير عند إعادة تطبيقه على الافراد .

أما الصدق فمعناه أن الاختبار يقيس ما وضع لقياسه . والاختبار الجيد يمكننا من التنبؤ بما سيكون عليه سلوك الطفل أو الفرد بوجه عام . فمثلا اختبار الذكاء يمكننا من التنبؤ بمدى تحسن التلميذ أو الطفل في المدرسة ، ومدى استعداده للدراسة في مستقبل أيامه . ولكن الاحكام الخاصة بأداء الطفل في المدرسة ليست ثابتة تماما ، حيث تتأثر بعدد كبير من العوامل الاخرى غير الذكاء . وعلى العموم ، فنتائج اختبار الذكاء ترتبط ارتباطا عاليا بالتحصيل ، أعنى أن الذين يحصلون على تقديرات عالية في اختبار الذكاء ، يحتمل أن يكون تحصيلهم للدراسى عاليا ، كذلك والعكس لكن تحدث استثناءات فردية يمكن أن ترجع الى خطأ في احكام المدرسين أنفسهم أو الى عمل عدة عوامل أخرى تتدخل الى جانب الذكاء أو الى الاختبارات ذاتها .

ويجب الا يظن القارئ أن الاختبارات كانت هي وحدها الادوات الجديدة التى استخدمت في هذه الحقبة الخاصة بالاقيسة العقلية . ذلك أن مناهج الملاحظة التى اتبعت في الحقبة الطبيعية قد عدلت واخذت هي الاخرى صورة كمية . فقد ظهرت لدينا طريقتان جديدتان انتشرتا انتشارا واسعا ، ونعنى بهما مقياس التقدير rating scale والعينة الزمنية time sample وهذه الاخيرة بالذات وضعت للاستعمال مع الاطفال ، وعلى العموم فقد استخدمت كلا منهما استخداما واسعا في دراسة الطفل .

وطريقة مقياس التقدير طريقة يحدد فيها الحكم Judge درجة الفرد بالنسبة لسمة أو مجموعة من السمات كالأمانة والتعاون والخضوع أو السيطرة . ويمكن أن يكون هذا التقدير نسبيا أى بالنسبة لأعضاء نفس الجماعة التى ينتمى إليها الطفل في ضوء قوائم وضعية توضع لذلك ، أو قد يكون تقديرا تقريبا كميًا يقوم على أساس الاحساس الذاتى للحكم . وتقوم التقديرات في هذه الحالة على أساس الملاحظات الخاصة التى يقوم بها الحكم للسلوك الخاص للطفل ، أو المواقف الخاصة أو على أساس المعرفة الطويلة الأمد بالطفل على نحو ما هو الحال في تقدير الآباء والمدرسين للطفل . وبمقارنة تقديرات نفس الطفل على نفس السمة في أوقات مختلفة ، أو بالنسبة لتقديرات حكاهم مختلفين يمكن أن نصل الى معرفة لمدى ثبات هذه التقديرات . وعندما تتوفر للتقديرات درجة ثبات عالية ، فإن التقديرات تسمح لنا في هذه الحالة بإجراء مقارنات بين الافراد ، وبين الجماعات أو بين الظروف - على نحو ما يحدث بالنسبة لمناهج التدريس - التى تؤثر في الافراد أو الجماعات . ويمكن أن تطبق التقديرات على الاشياء كما تطبق

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

على الاشخاص ، على نحو ما تستخدم مثلا في الحكم على رسومات الاطفال تحت ظروف مختلفة . وتعتبر تقديرات الذكاء احدى الوسائل الهامة التي تستخدم في تقدير صدق اختبارات الذكاء ، رغم أن الاختبارات يقصد منها في الحقيقة أن تحل محل هذه النتائج الذاتية . والمشكلة الرئيسية في مقاييس التقدير هي في الواقع تحديد السمات المراد تقديرها بحيث يمكن ان تطبق بطريقة مفهومة على جميع الافراد .

اما النوع الثاني ونقصد به العينة الزمنية فهي طريقة من طرق الملاحظة يتركز فيها انتباه الملاحظ على حدوث أو عدم حدوث أنواع من السلوك تحدد سلفا ، وتعتبر ممثلة للسمة المراد دراستها . وتجري الملاحظات على عدد محدود من الاطفال في فترات زمنية ، وتحدد من قبل وتعطى عينة من نشاط الطفل بصرف النظر عن التأثيرات العارضة ، كالحالة المزاجية للطفل أو الاحداث الخاصة وما شابه . فمثلا استخدمت طريقة العينة الزمنية في دراسة العلاقة بين كون الطفل لديه عدد قليل أو كثير من اللعب ، وبين تكرار انفجارات أو ثورات الغضب والعُدوان لديه ، وظهور أو انتشار سمات معينة كالعصبية والاتجاهات الاجتماعية في اعمار مختلفة أو تحت ظروف مختلفة .

وهناك اتجاه آخر ظهر في الحقبة السيكمترية يلقي الضوء على الاهتمام بالفردية في الحقبة التي تلى ذلك ، ونعني به ظهور عدد من **الدراسات الطولية** . ولكن ابتداء من أعمال ستانلي هول تحولت معظم دراسات نمو الطفل الى دراسات مستعرضة ، أي مقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة . وهذه الطريقة المستعرضة أثارت مشكلة منهجية خطيرة وهي هل وصف عمليات النمو التي تقوم على أساس مادة مستمدة من أفراد مختلفين في أعمار مختلفة ، يمكن أن تعتبر حقا دراسة أو وصفا للنمو؟ وكانت الدراسات الطولية التي أجريت للإجابة عن هذا السؤال هي تخطيط النمو بالنسبة لنفس الأفراد منذ الولادة وما بعدها ، وقد أوضحت بالطبع أن منحنيات نمو الأفراد تختلف اختلافا دالا عن المنحنيات التي تجري لها تسويات والتي تقوم على أساس متوسطات الجماعات . ونحن ندين للدراسات الطولية بمعرفة فترات الكُمون والطفرات في النمو ، والمسالك النمطية للنمو والتي يسير فيها الأفراد المختلفون . ورغم تركيز الباحثين على النمو الفردي ، فإن دراسات النمو قد نظر إليها داخل إطار الإقيسة ، كما ركزت على الطرق السيكمترية أو مقاييس السمات الجسمية .

رابعا : حقبة دراسة الشخصية : إن علم النفس يهتم أساسا بمعرفة كيف يسلك الناس . والسيكولوجيون العلميون الأول وكذلك السيكمتريون ، كانوا مع ذلك مهتمين أساسا بالمشكلة الفنية ، وهي كيف يمكن فصل العمل الإنساني من أجل الدراسة السهلة . ولكن ابتداء من منتصف الثلاثينات كان هناك إحساس متزايد بالشكوى من مصادر متعددة من أن دراسة الإنسان انتهت إلى أن تصبح دراسة أجزاء متعددة ، وأن الوقت قد حان إلى النظر إليه ككل ، وتجميع هذه الأجزاء في كل متكامل . لأنه إذا نظر للكائن الحي جزءا جزءا ، فإن الخصائص الإنسانية المميزة التي تنتمي إلى هذا الكل النامي تميل إلى الاختفاء : مشاعره وإحساساته وأهدافه وأسلوبه الشخصي .

فالفرد ليس حزمة بسيطة من السمات التي يمتلكها بمقادير تتفاوت في الكبر والصغر . فسماته المتعددة انما تخضع - وظيفيا في نمط منظم - الى اهتماماته الانسانية الخاصة ، وانه مهما كانت لديه سمات مشتركة بينه وبين الاشخاص الآخرين ، فان هذه السمات تأخذ معناها الفردى الخاص بالنسبة للمحتوى العام الذي يتميز به سلوك الفرد . والحقيقة انه تحت تأثير مدرسة الجشتلت ومدرسة التحليل النفسى ، أصبح علماء النفس أكثر اهتماما بمفهوم الشخصية ودراستها وطبيعة الفردية، وكيف ينتظم الناس مع هذه الطبيعة . واذا كان السيكونفزيون الاول بحثوا قياس الوظائف النقية « مستقلة عن المعنى » ، واذا كان السيكونمزيون الاول بحثوا قياس الدكاء الخالص مستقلا عن الخبرة السابقة والسمات الاخرى كالانفعالية ، فان هذا الجيل الجديد من الباحثين أراد أن يعطى لكل هذه الامور دورها الكامل ، وأن يرى الانسان ككل يتفاعل مع بيئته الحقيقية. وبهذا المعنى ، فان هذه الحقبة الجديدة تعتبر عودة الى الحقبة الطبيعية ، ولكنها تختلف عنهما من حيث اهتمامها بالفرد وبوحدة الشخصية وبالاختلافات والعموميات على حد سواء .

وقد عادت بعض الطرق التي ظهرت في الحقبة الطبيعية الى الظهور ثانية ولكن بصورة معدلة . فالتقارير اليومية استخدمت بشكل أكثر دقة، وامكن تدريب الملاحظين لسلوك الاطفال من اجل ان تكون التقارير أكثر ثباتا ودقة ، كما درب الملاحظ أيضا كيف يبقى بعيدا في نفس الوقت الذي يلاحظ فيه سلوك الاطفال ، بمعنى الا تصبح مشاعره مختلفة بما يقوم بملاحظته من سلوك الطفل ، أعنى بعبارة أبسط درب الملاحظ على أن يكون موضوعيا في ملاحظته . كما عادت الى الظهور الدراسات الميدانية . فباحث ليفين عن القيادة حاولت أن تهيب تجريبا ، بيئة طبيعية بدرجة كبيرة أو صغيرة لجميع الاشخاص ، كما استخدمت طرق ملاحظة المجال .

غير أن الطرق الحقيقية التي تنتمى الى هذه الحقبة ، فهي تلك التي اطلق عليها «جوردون البورت » اسم المنحى الناموسى nomothetic الذى يهدف الى الكشف عن القوانين العامة والمنحى المتفرد أو الاكلينيكى idiographic الذى يهدف الى الكشف عن الوحدة المتفردة للكائن الحى . ذلك أن من عادة العلماء أن يتجه اهتمامهم الى الكشف عن القانون العام أو القاعدة السائدة في السلوك الانسانى ، والى وضع المبادئ العامة والكشف عن العلاقات والتفاعلات بين المتغيرات ، أو الى استخراج معايير النمو . وهم يستعينون من أجل تحقيق ذلك بدراسة مجموعات كبيرة من الافراد يقومون بدراساتهم أو يطبقون عليهم اختباراتهم وملاحظاتهم بقصد معرفة القانون العام الذى تخضع له هذه الظاهرة موضوع الدراسة . حقيقة، هناك خصائص عامة مشتركة بين افراد الجنس الواحد ، وقوانين عامة تنطبق عليهم ، ولكننا مع ذلك لا نجد اثنين من البشر متطابقين تمام التطابق . فالناس في تفردهم اشبه بصمات الاصابع ، ومن المستحيل أن نجد بصمتين متشابهتين لشخصين مختلفين . كما أن عالم النفس والمربى كثيرا ما يضطر الواحد منهما الى أن يركز انتباهه على فرد معين بالذات

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

ليحاول فهمه فهما دقيقا شاملا ، ومن ثم يجد نفسه مضطرا الا يقتصر على مجرد فهم المبادئ العامة للنمو والتطور والقوانين العامة التى تحكم سلوك الفرد ، بل يركز اهتمامه على الفرد ككل . فالخاصية المميزة للانسان هى فرديته ، اعنى اعتباره مخلوقا فريدا في الطبيعة وانه مستقل مكانيا عن غيره من الافراد ، ولا يشبه تماما أى فرد آخر ، وأن يسلك في مجاله الخاص في الحياة وعلى طريقته الخاصة .

وفي بداية الثلاثينات شاعت بعض الطرق التى تعنى بالمنحى المتفرد والتى من أهمها تلك المسماة بالطرق الإسقاطية ، وهذه التسمية اطلقها عليها لورانس فرانك سنة ١٩٣٩ .

وهذه الطرق تواجه الفرد بموقف أو مادة غير محدودة وغير متشكلة وغامضة الى حد ما ليستجيب اليها كما يشاء وكما يحب . والدلالات الخاصة التى يعزوها للموقف تعتبر ذات أهمية بالنسبة له ولطريقة ادراكه لهذا العالم . ومن أشهر الاختبارات الإسقاطية المعروفة والواسعة الانتشار والتى تستخدم على نطاق واسع في دراسة الشخصية اختبار بقع الحبر لهرمان رور شاخ حيث يفسر المفحوص طفلا كان أم كبيرا ، عددا من بقع الحبر غير المتشكلة . وكذلك اختبار تفهم الموضوع لهنرى مورى حيث يكون الفرد قصة عن كل صورة من الصور التى تعرض عليه ، يكشف فيها عن مشاعره واتجاهاته نحو الموضوعات الرئيسية التى تتضمنها الصورة . وهناك اختبار تداعى الكلمات لـ « كارل يونج » حيث يستجيب المفحوص لقائمة من الكلمات التى تعرض عليه شفاهة كلمة كلمة ، ويسجل زمن الرجوع والاستجابة التى يذكرها المفحوص ، والذى بواسطته يمكن الكشف عن مجالات الضغوط في حياة الفرد . وإذا كانت هذه الاختبارات قد وضعت للصفار والكبار على السواء ، فإن هناك عددا آخر قد وضع خصيصا للأطفال كاختبار اللعب (لويزا ديز) واختبار تفهم الموضوع للأطفال . وعلى العموم يمكن القول بأن ليس هناك استجابات صحيحة وأخرى خاطئة للاختبارات الإسقاطية ، وإن ما يراه كل فرد إنما يتشكل وفق ادراكه وحالاته الانفعالية واتجاهاته وميوله وقيمه . وهذه الاختبارات الإسقاطية يمكنها ان تكشف عن التنظيم الداخلى للفرد دون أن يشعر الفرد بذلك ، أو دون أن توجه اليه الاسئلة بطريقة مباشرة على نحو ما نجده مثلا في الاستخبارات التى يحاول المفحوص أحيانا الا يجيب عنها بصراحة أو دقة متناهية .

وفي خلال هذه الحقبة أيضا كان هناك اهتمام متزايد « بالتجربة الطبيعية » هذا المنهج الذى استخدم في ميادين مختلفة كالفلك والاجتماع والطب ، أو حيث تكون الظروف التى تقوم بدراساتها خارج قدرة الباحث ويصعب عليه اخضاعها للتجريب وعوامل الضبط (اما لأسباب خلقية أو لأسباب عملية) . ولذا فليس على الباحث الا ان ينتظر حتى تتفضل الظاهرة بالمثل بطريقة طبيعية للملاحظة ، ودراساتها . والدراسات التى أجريت على اثر اصابات المخ في الانسان تدخل بالضرورة تحت هذا النوع . وبالمثل أيضا الدراسات التى قام بها شبيتز Spitz عن اثر الحرمان المبكر على الاطفال ، وكذلك دراسات آنا فرويد والمجلس القومى للبحوث في أمريكا عن الآثار النفسية للكوارث . وبالمثل فإن أى باحث يهتم

بدراسة النمو الشاذ ، نجده مضطرا للتعامل مع مثل هذه الحالات التي يقابلها . وبالطبع يمكن اجراء الدراسة على الحيوان حيث يكون الباحث أكثر قدرة على اجراء التجارب واعداد الظروف التي يستحيل اجراؤها على الإنسان. والجدير بالذكر ان جانبا كبيرا من الافكار في سيكولوجية النمو ، يأتي من دراسات اجريت على الحيوانات ويمكن ان نشير الى دراسات ليدل Liddell وغيره على الماعز والخراف ، في علاقة الصفار بالام ، وعلى العصاب التجريبي . ولذلك تعتبر التجربة الطبيعية هي منهج السيكلوجي الاكلينيكي او الطبيب النفسي ، الذي يريد دراسة شخص فرد نتيجة اهتمامه بآثار ظروف خاصة ، او البحث عن فروق في الشخصية او في المناهج العلاجية .

تلك هي المناهج الاربعة الرئيسية في دراسة النمو - الملاحظة والتجربة والاختبارات والمقاييس الاكلينيكية . وقد ظهرت بالتتابع نتيجة اهتمامات واتجاهات مختلفة لدى الباحثين ، ولكنها جميعها اثبتت نفعها لعدد من الاغراض في دراستنا للكائن الحي الانساني .



● نظرة الى دراسات النمو النفسي

اعتاد غالبية علماء نفس الطفل عند دراستهم لعملية النمو ، النظر الى التغيرات المختلفة التي تطرأ على الكائن الحي منذ اللحظة الاولى التي تبدأ فيها الحياة جنينا في بطن الام ثم تعقبه بالدراسة حتى الرشد . وقد اخذ هؤلاء بفكرة تقسيم النمو الى مراحل زمنية يمر بها الكائن الحي . فهناك مرحلة ما قبل الولادة والطفولة المبكرة والمتأخرة والمراهقة . وعادة يتتبع الباحث داخل كل مرحلة دراسة مظاهر النمو المختلفة وتطورها . فهناك النمو الجسمي والعقلي والاجتماعي والانفعالي . وقد يأخذ الباحث مرحلة بعينها ويعالج فيها جوانب النمو المختلفة ثم ينتقل الى التي تليها وهكذا ، او قد يأخذ مظهرا بعينه من مظاهر النمو ويتتبعه بالدراسة في جميع المراحل ثم ينتقل الى مظهر آخر وهكذا . والنتيجة واحدة في كلتا الحالتين وان اختلف الاسلوب الذي يتبعه الباحث ، ولواظعنا على الكثير من كتب علم نفس النمو ، سواء ما كتب منها بالعربية او باللغات الاجنبية ، نجد انها قد سلكت سبيل هذه الدراسة الوضعية او الشكلية . ومن امهات الكتب في هذا المجال ما قدمته اليزابيث هرلوك في مجموعتها الثلاثية الهامة .

Developmental Psychology (١)

Child Development (٢) و

Adolescent Development, (٣) و
وما قدمه ارنولد جيزل وآخرون في تلك السلسلة الرائعة من كتب النمو والتي تعد دراسة تطويرية هامة من الطفولة المبكرة حتى الشباب والتي وردت بكتبهم .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

Infant and child in the culture of today (١)

Child from five to ten (٢) و

و (٣) Youth والتي ترجمت كلها الى اللغة العربية ، وكذلك كتاب آرثر جيرسلد وآخرون Child psychology . ولا يمكن حصر الكتب التي سارت على هذا النحو في هذا المجال .

غير أن ثمة اتجاهًا آخر ركز على الكائن الحي ككل واهتم بالاطار النظري العام لعملية النمو واقتربت الدراسة فيه من دراسة لنمو الشخصية . والنظرة هنا في شمولها نظرة دينامية أكثر منها وصفية . فقد ركزت معظم النظريات التي اتبعت هذا المنحى الأخير على دراسة العوامل المؤثرة في نمو الشخصية ابتداءً من الطفل حتى الرشد ، وكيف أثرت هذه العوامل أو المحددات في بناء الشخصية وفي نوع النمو الناتج عنها . وكان من الطبيعي أن تتعدد أيضا النظريات التي سلكت هذا السبيل . ذلك أن ابنية الشخصية وعملياتها لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ، وإنما يتطلب الأمر الاستدلال عليها من النمط للاستجابات التي يقوم بها الفرد داخل اطار موقف معين . ولذا فليس مما يشير الدهشة أن تختلف نظرة الباحثين لنمو الشخصية أو بمعنى أوسع النمو النفسي للفرد . فإذا كان فرويد مثلاً يؤكد في تحليله للنمو النفسي على تطور الدوافع والانفعالات وبخاصة خلال السنوات الثلاث الأولى من الحياة ، فإن كتابا آخرين من أصحاب الاتجاه النمائي من أمثال هاينز فرير ، وجان بياجيه لا يلقون اهتماماً بالكلية الى نمو الدوافع أو الانماط الانفعالية ، بل يوجهون اهتمامهم بأكمله الى النمو المعرفي ، والتفكير التكيفي ، على حين يتمسك آخرون بالنظرية الفرويدية ولكنهم يدخلون عليها بعض التعديلات والإضافات على نحو ما فعل أريكسون .

وإذا كانت النظريات التي كتبت في هذا الاتجاه الثاني كثيرة ومتعددة ، فإن ضيق المجال لا يسمح لنا بالتعرض لها جميعها . ولذا سوف يخصص الباحث هنا بالذكر نظريات أربعة لها أهميتها وهي نظرية النمو النفسي - الجنسي لفرويد ، ثم نظرية النمو النفسي - الاجتماعي لأريكسون ، والتي تعد تعديلاً للأولى وإضافة عليها ، ثم نظرية نمو الذات عند جوردون البورت ، وأخيراً نظرية النمو العقلي المعرفي عند جان بياجيه . وسوف نشير الى كل نظرية منها بشيء من الإفاضة .

أولاً : النظرية النفسية - الجنسية لفرويد :

إن مادة التحليل النفسي وكتاباته لا حصر لها . ومن المستحيل في مثل هذا المجال أن نقدم عرضاً وافياً لمثل هذه النظرية الضخمة . ولذا سوف نقصر أنفسنا هنا على الجوانب التي من شأنها أن تساعدنا في التعرف على النمو النفسي عند أصحاب نظرية التحليل النفسي . ويحسن قبل أن نتعرض لمراحل النمو النفسي الجنسي في نظرية فرويد أن نلقى الضوء على ديناميات الشخصية وبنائها ثم نعرض لمراحل النمو .

ديناميات الشخصية :

● ان نظرية التحليل النفسي - ككل النظريات الدينامية - تدور حول القوى أو الحوافز ، فهي أساسا نظرية دافعية . والظواهر العقلية ينظر اليها على أنها نتيجة قوى متفاعلة يمكن ان تفهم من وجهة نظر تاريخية . وبعبارة أبسط ان فرويد ينظر الى الاحداث الراهنة باعتبارها نتاج نمو سابق تمتد جذوره الى الماضى .

والمصطلح الذى استخدمه فرويد للدلالة على الطاقات او القوى التى تستثير النشاط الانساني هو المصطلح الالماني Trieb والذى ترجم الى اللغة الانجليزية ، بالمصطلح Instinct الذى يعرف فى اللغة العربية بالفريزة . ولكن هذه الترجمة للمصطلح الالماني ادت الى الخلط فى فهم هذا المصطلح ، ذلك ان Trieb كما استعمله فرويد ، لا يتضمن معنى النمط الثابت غير القابل للتغير ، والدللى يعنيه المصطلح Instinct . فتحت الظروف والتأثيرات البيئية ، يمكن للفريزة بمعانيها فى المصطلح الالماني ، ان تغير من اهدافها وموضوعاتها .

ومفهوم الفريزة من المفاهيم الاساسية فى كتاب فرويد وتفكيره . ومعظم كتابات فرويد تملئها فكرته وهى ان الانسان ولد مزودا بغرائز معينة . ولقد صادق فرويد على وجود نوعين من الحوافز الانسانية أو الغرائز وكلاهما بيولوجى فى طبيعته . اما النوع الاول فيتكون من الحاجات الجسمية البسيطة كالجوع والعطش والاخراج والتنفس ، هذه الحوافز أو الدوافع تستثيرها التغيرات البدنية التى تحدث داخل الكائن الحي العضوى . وشباع هذه الحوافز أو الحاجات الاساسية أمر حيوى لبقاء الانسان ، كما أن اهدافها لا يمكن تغييرها أو تعديلها . ولذا ، فان الاختلاف بين الافراد بالنسبة لهذه الحاجات قليل للغاية ومن ثم فانها تعد قليلة الاهمية نسبيا لعالم النفس .

أما المجموعة الثانية من الحوافز فهي تلك التى وصل اليها فرويد من دراساته للمرضى النفسيين . وهذه يمكن تقسيمها الى قسمين : غريزة الحياة وغريزة الموت . الاولى تخدم غرض الحفاظ على الحياة وتكاثر الجنس ، ويطلق فرويد على القوة الحيوية الدافعة لها اسم « الليبيدو » وهو هذا الجزء من تركيب «الهو» الذى يبحث عن اشباعه من الحوافز الجنسية . ومعنى الجنس عند فرويد أوسع بكثير من مفهومه الدارج فى حياتنا اليومية وفى لفتنا الدارجة . فهو يتضمن بالإضافة الى معناه المتصل بالحوافز الجنسية عند الكبار - كل ما يؤدى الى الشعور باللذة من خلال استثارة المناطق الشبقية للجسم ، وهى المناطق التى لها قدرة على إثارة الاحساس السار أو الشعور باللذة عند الفرد . وهى غالبا المناطق الحساسة فى جسم الانسان كالشفاه والتجويف الفمى والمنطقة الشرجية وأعضاء التناسل . والغريزة الثانية وهى غريزة الموت فهى تخدم أغراض الهدم والتدمير .

وتتميز الغريزة عند فرويد بأربع خصائص وظيفية أساسية هى : المصدر والهدف والموضوع والقوة الدافعة . ولتوضيح هذه الخصائص لنفرض أن انسانا ما يحس بألم فى

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

أسنانه ، فان نتيجة هذا الاحساس تدفعه من خلال مبدأ التوازن الداخلى الى خفض التوتر على النحو التالى :

المصدر Source : وهو الحالة البدنية للشخص وهو هنا الالم الذى يحسه الفرد في أسنانه .

الهدف Aim : وهو التخلص من الاستثارة أو التهيج البدنى . وهو هنا ازالة الالم الناتج عن تسوس السن والعودة الى حالة الارتياح التى كان يحس بها قبل حدوث الالم .

الموضوع Object : وهو يشير الى ضروب النشاط التى تقع بين ظهور الحاجة وتحقيقها . فهو لا يشير الى شيء بعينه أو حالة تشبع الحاجة فحسب ، بل انه يتضمن كذلك كل أشكال السلوك الذى يحدث مستهدفا الحصول على الشيء أو الحالة اللازمة . وهو في هذا المثال ترتيب موعد مع الطبيب والذهاب اليه والجلوس على الكرسي .

القوة الدافعة Impetus : ويقصد بها قوة أو شدة الحاجة المحركة . فآلم الاسنان حين تخف حدته أثناء النهار تقل قيمة المثير الى حد ما ، ولكن حين يصبح الالم غير محتمل خلال الساعات الاولى من الليل تزداد قوة المثير بشكل واضح وتصبح القوة الدافعة أكثر شدة فيزداد اصرار الشخص على ضرورة الذهاب الى الطبيب .

ويرى فرويد أن مصدر الغريزة وهدفها يظلان ثابتين طوال الحياة ، مآلم يتغير المصدر أو يزول نتيجة النضج الفيزيقي . أما الموضوع أو الوسيلة التى يحاول بها الفرد اشباع الحاجة فهى تتباين تبأينا ملموسا خلال حياة الفرد ، وذلك نتيجة قابلية الطاقة النفسية للازاحة من موضوع لآخر . وإذا كان هذا الإبدال أو هذه الإزاحة ممكنة بالنسبة للموضوع فهى غير ممكنة بالنسبة لمصدر الغريزة أو هدفها .



✽ بناء الشخصية :

وتتكون الشخصية من ثلاثة نظم أساسية: **الهو ، والأنا ، والإنا الأعلى** . ورغم أن لكل جزء منها وظائفه وخصائصه ومكوناته ومبادئه ودينامياته وميكانيزماته التى يعمل وفقا لها ، إلا أنها جميعا تتفاعل معا تفاعلا وثيقا بحيث يستحيل فصل تأثير كل منها عن الآخر وتقدير وزنه النسبى في سلوك الإنسان . فالسلوك ، فى الأغلب ، هو محصلة تفاعل هذه الأنظمة الثلاثة . ونادرا ما يتفرد أحداها بالعمل دون الآخرين . وسوف نوضح فيما يلى كل واحدة منها على حدة وباختصار .

الهو : لقد كتب الكثير عن هذا المصطلح الذى وضعه فرويد . و « الهو » هو النظام الاصلى للشخصية والذى يعتبر أساسا لكل حياة انسانية . فهو يوجد مع الانسان منذ لحظة ولادته ، ويظل معه طول حياته . هو ذلك الجزء من النفس الذى يحوى كل ما هو موروث أو غريزى ، كما يحوى العمليات العقلية المكبوتة التى فصلتها المقاومة عن الحياة النفسية الشعورية . فالهو مستودع الطاقة النفسية كما أنه يزود العمليات التى يقوم بها النظامان الاخران بطاقةتهما .

ويخضع **الهو** لمبدأ اللذة فقط ولا يهتم بأى شيء آخر . أنه هذا الجزء الخام ، غير المرتب ، غير المهذب ، الباحث عن اللذة . أنه الزاد الاساسى الذى يحرك الانسان خلال حياته ، أنه لا يعرف القوانين ولا يخضع لقواعد ويبحث فقط عن شهواته . أنه القوة المحركة لوجود الانسان . وعلى الرغم من أنه وثيق الصلة بالعمليات الجسمية التى يستمد منها طاقته ، فان « الهو » نظام نفسى حقيقى ، وليس له مكان محسوس فى جسم الانسان ، كالقلب أو المخ مثلا .

ولا يمكننا أبدا أن ندرك الهو فى صورته الخام . وربما كانت أقرب صورة للهو ، ما يبدو لنا فى دراسة الطفل الصغير أو فى سلوك الدهانى (المريض عقليا) . فالطفل الصغير يسلك سلوكا انانيا تماما ، يهدف الى اشباع رغباته وتحقيق لذاته دون مراعاة لحاجات الآخرين ، فهو يخضع لمبدأ اللذة فحسب . وكذلك الدهانى الذى يسلك كيفما يحب ويعجبه ، فسلوك الطفل والدهانى أقرب الى ما يعنيه فرويد بمفهوم « الهو » .

الانا : ومن المفترض أن الهو فى صورته الخام ، اذا ترك لاساليبه الخاصة فقد يحطم نفسه . فهو فى حاجة الى ما يضبط طاقته ويوجهها نحو اكبر اشباع ويقدر ما تسمح به مطالب الحياة ودون أن يهدم نفسه أو يحطمها . ويذهب فرويد الى أن الانا تحقق هذه الوظائف وتحققها جيدا . فالانا تتبع مبدأ الواقع وتعمل وفق العمليات الثانوية . فاذا كان الهو يعمل وفق مبدأ اللذة ويستخدم العملية الاولى وتفرغ التوتر بتكوين صورة لموضوع من شأنه أن يزيل التوتر ، الا أن الكائن الحى يتطلب معاملات مناسبة واشباعا واقعا ، ومن ثم يفرق الانا بين الاشياء التى توجد فى العقل والاشياء التى توجد فى العالم الخارجى . ومن هنا تطبع الانا مبدأ الواقع الذى يعمل على الحيلولة دون تفرغ التوتر حتى يتم اكتشاف الموضوع المناسب لاشباع الحاجة . فمبدأ الواقع يرجى مبدأ اللذة مؤقتا ، لان مبدأ اللذة هو الذى سوف يخدم فى نهاية الامر عندما يوجد الموضوع المرغوب فيه ، ومن ثم يخفض التوتر .

فالانا اذن امتداد للهو وغير مستقل عنه أبدا . والانا هو الجزء المنظم وهو الذى يبحث فقط عن إيجاد مخارج تخدم اغراض الهو ، دون أن يترتب على ذلك تحطيمه . أن الانا يستمتع بكل الاشباع التى يسمح للهو أن يستمتع بها أيضا ، ولكنه يستمتع بها بدكاء وبتعقل فى ضبط واختيار وتقرير ما يشبع وكيف يشبع . فالانا اذن يخضع لمبدأ الواقع ، يفكر تفكيراً موضوعياً ومعتدلاً ومتمشياً مع الاوضاع الاجتماعية المتعارف عليها . أما وظيفته

النمو النفسى : من الطفل الى الراشد

فهى الدفاع عن الشخصية والعمل على توافقها مع البيئة وحل الصراع بين الكائن الحى والواقع أو بين الحاجات المتعارضة للكائن الحى .

الانا الاعلى : وهذا هو المكون الثالث لشخصية الفرد ، وهو مكون يقع فى الطرف الآخر من الهو ، والانا الاعلى هو الاخير فى عملية النمو النفسى لهذه الابعاد الثلاثة للشخصية . انه الممثل الداخلى للقيم التقليدية للمجتمع ، وهو شئ موجود داخل الفرد وليس خارجه . انه مكون داخلى وليس مجموعة من القوانين الحاكمة ، وعندما ينمى الفرد « انا اعلى » داخل نفسه ، يكون حينئذ قد أصبح شخصية ناضجة . فالانا الاعلى هو هذا الجانب الخلقى للشخصية ، انه مثالى وليس واقعيا ، هدفه الكمال وليس اللذة . انه هو الذى يقرر ما اذا كان نشاط ما حسنا أم سيئا وفق معايير المجتمع التى يتقبلها ، والقوانين الاجتماعية لا تعنى شيئا بالنسبة اليه ما لم يتقبلها ويتوحد معها .

ويمكن تلخيص الوظائف الأساسية للانا الاعلى فيما يلى :

- ١ - كف دفعات الهو وبخاصة تلك الدفعات ذات الطابع الجنىسى أو العدوانى ، حيث ان هذه الدفعات هى التى يقابل التعبير عنها من المجتمع بأشد صور الادانة والرفض .
- ٢ - اقناع الانا باحلال الاهداف الاخلاقية محل الاهداف الواقعية .
- ٣ - العمل على بلوغ الكمال ، أى ان الانا الاعلى يميل الى معارضة الهو والانا معا ، والى تشكيل العالم على صورته . الا انه يشبه « الهو » فى انه غير خلقى ، ويشبه الانا فى محاولته ممارسة التحكم فى الفرائز ، ويختلف « الانا الاعلى » عن « الانا » فى انه لا يحاول ارجاء الاشباع الفريزى فحسب ، بل انه يحاول الحيلولة دونه على الدوام .

تلك هى ديناميات الشخصية وبنائها فى نظرية التحليل النفسى . وفى ضوءها قام فرويد بتفسير أساليب السلوك المختلفة والمراحل النمائية التى تمر بها ابتداء من الطفولة حتى الرشد . ويمثل هذا الانتقال من مرحلة الى مرحلة النمو النفسى الجنىسى للفرد ، والذى قد يتخذ صورة سوية أو غير سوية نتيجة المؤثرات المختلفة التى يتعرض لها الفرد . وسوف نشير باختصار الى هذه المراحل المختلفة التى يمر بها الفرد فى نموه النفسى من الطفولة حتى الرشد .



* مراحل النمو :

ولفظ مراحل يشير الى تتبع نمو الانسان وشخصيته ابتداء من الولادة حتى الكبر . فالطفل قد يمر عبر سلسلة من المراحل المحددة تكوينيا ، ومالم يتعرض هذا النمو فى سيره الى تدخل ظروف شاذة أو معوقة ، فمن المتوقع له ان يسير على نحو طبيعى، وعلى شاكلة مانجده عند الغالبية العظمى من الناس .

ان فكرة بناء الشخصية ونموها عند فرويد أشبه ما يكون بالطريقة التي يقوم بها البناء حائطا من الطوب حيث توضع طوبة طوبة ، ويسير البناء من أسفل الى أعلى ، وترتبط قمة البناء بأساسه أو أصله . فشكل البناء وسمكه وجميع خصائصه ترسي قواعده في الاساس الذي يقام عليه . وتغيير شكل البناء تغييرا ملحوظا قد يترتب عليه هدم البناء بأكمله . والشخصية بالمثل - في نموها - ترسي قواعدها في السنوات الاولى من حياة الكائن الحي . وهذا الاساس غير قابل للتغير وهو يحدد ما يمكن أن يقام عليه بعد ذلك . فان كان الاساس ضعيفا مهزوزا وغير مستقر ، نشأت الشخصية وتطورت بشكل ضعيف مهزوز غير مستقر كذلك . ومن هنا جاء قول فرويد أن « الطفل أبو الرجل » ، وأن الاساس الذي يوضع في الطفولة هو الذي يحدد ما سيكون عليه الفرد في الكبر . ولكن ليس معنى ذلك أنه حين ينمو البناء لا يمكن تغييره . ان من الممكن أحداث تغييرات طفيفة ، ولكنها لا تتجاوز أبدا حدود ما يتحملة الاساس أو الشكل الذي اتخذه . فان حدث هذا تجاوز انهار البناء (على نحو ما نجد في الشخصيات الذهانية والعصائية) . وفي العادة يتغير الكثيرون منا مع النمو ، ولكن احساسا منا بخطر الانهيار ، وخوفا على انفسنا من اهتزاز البناء ، فاننا نحذر الابتعاد كثيرا عما يمكن أن يتحملة بناء شخصياتنا .

وعلى هذا النحو ، نجد فرويد يعطى أهمية كبرى لعملية البناء طوبة طوبة من أجل بناء شخصية الفرد في المستقبل ، كما يعطى أهمية كبرى للسنوات الخمس الاولى من حياتنا ، باعتبارها أهم سنى العمر والاساس الذي يقام عليه كل بناء .

ومن حسن الحظ أن عوامل البناء تتوافر للغالبية العظمى من الناس . فاغلبنا ينشأ في أحضان أبوين يتكاثفان معا على تربيته وتنشئته بشكل يجعل الرحلة الطويلة للحياة تسير في خطى وئيدة مطمئنة متعاقبة . فأكبر العوامل ذات الأثر في نمونا النفسى السوي وصحتنا العقلية في الرشد ، توضع خلال السنوات الاولى من الحياة .

ان الوليد عندما يرى النور لأول مرة تتركز اهتماماته على اشباع حاجاته الاساسية التي يولد مزودا بها ، وأهمها حاجته الى الطعام الذي يحصل عليه عن طريق الفم ، وقرابة نهاية السنة الاولى تبدأ عمليات ضبط الاخراج والتدريب على العادات المتعلقة به ، ومن ثم يتركز اهتمامه حول هذه العمليات وتصبح محور التركيز من الناحية الجسمية . وفي حوالى سن الثالثة يبدأ الطفل في استطلاع غوامض تشريح أعضائه التناسلية أو أعضاء المحيطين به . هذا ما يحدث لكل فرد . فكل طفل يمر بثلاث مراحل نمائية رئيسية تقع كلها في السنوات الأربع الاولى من حياته ، ويهتم كل منها بجزء خاص من تشريحات جسمه يكون مؤقتا موضع الاهتمام الاول بالنسبة للطفل . فهناك الفم ثم الشرج ثم الجهاز التناسلى . وهذه لا تصبح فقط موضوعات الاهتمام الخاص عند الطفل ، بل ان الخبرات التي ترتبط بها تصبح الطرق التي تؤدي الى الحصول على الاشباع وتؤدي الى الاحباطات ايضا .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

فالطفل الصغير يركز اهتمامه اساسا طوال السنة الاولى تقريبا في المنطقة الفموية ، ثم ينتقل هذا التركيز بعد ذلك طوال السنة الثانية والثالثة تقريبا حول منطقة الشرج ، ثم يتركز الاهتمام أخيرا حول المنطقة التناسلية ، وذلك بعد سن الثالثة الى سن السادسة . وطبعي أن ليست هناك قواعد ثابتة محددة لمجرد الزمن الذي يتحول فيه الطفل من خبرة الى أخرى ، لان ذلك يتوقف الى حد كبير على أسلوب المعاملة الاسرية ، كما أن ليس هناك بالتأكيد فواصل مميزة دقيقة بين كل مرحلة وأخرى .

« لقد سمي فرويد هذه المراحل باسم «مراحل النمو النفسي الجنسي» وهذا هو التعبير الذي لا زالت تعرف به . . أن هذا التعبير يعنى أن الطفل على طول تطوره النفسي ، يمر بعلامات مميزة ومحددة لمراحل النمو النفسي الخاصة كلما كانت القوى والدوافع الداخلية في هذا الشخص الجديد تحاول أن تصله بالناس المحيطين به ، وأن تجد الطرائق التي تعطيه الاشباع من هذا الاتصال . »

وسوف نوضح مراحل النمو النفسي الجنسي هذه دون الاضافة في ذلك :

(١) **المرحلة الفموية :** ترتبط أول مرحلة من مراحل النمو في تكوين شخصية الفرد بالمنطقة الشبقية الفموية وعلى وجه الخصوص بالشفيتين . فالطفل يبدأ عقب الولادة بقليل استخدام الشفتين في الحصول على الطعام ، ويصبح فم الطفل وسيلة الاتصال الهامة بالعالم ، وهو لا يستعمله للحصول على هذا الطعام الشهى اللذيذ الذي من شأنه أن يخفف من حدة التوتر الذي يشعر به في أحشائه فحسب ، بل وأيضا ليستمتع بحنان الام التي تضمه الى صدرها وقت اشباع هذه الحاجة . ويتكرر هذا الحدث الهام في حياة الطفل كل ثلاث أو أربع ساعات ، كما يكتسب الشخص الذي يحتضنه وهو يطعمه من الثدي أو الزجاجاة بمرور الزمن نفس أهمية الطعام .

وليس ثمة شك أن هذا الطعام الذي يحصل عليه الطفل يعتبر مصدر اشباع ولذة . فهو طعام شهى ولذيذ (وهذا هو مبدأ اللذة) . وسواء كان يحصل عليه عن طريق الثدي أو عن طريق الزجاجاة ، فإن الوليد في شهره الاول سربما ما يتعلم (عن طريق مبدأ اجبار التكرار) أن التجويف الفمى واللسان والشفيتين عندما تمس هذه الاشياء تصبح مصدر لذة وسعادة بالنسبة له (منطقة شبقية) . ومن الطبيعي أن يتعلم الطفل استخدام الشفاه كلما أراد الحصول على هذا الاحساس السار أو اللذة ، فهو عندما يحس ثمانية بالجوع ، تقوم المنطقة الفموية بدورها وتؤدي به الى الشعور باللذة . ولما كان الطفل في هذه المراحل الاولى من حياته يعتمد كثيراً على العادات التي يكونها ، فانه يلجأ الى استخدام الشفاه في الحصول على اللذة ايا كانت حالة الجوع التي يكون عليها . وتبعاً لذلك ، وبعد أن يكون قد درب الشفاه على أحداث اللذة ، فقد يلجأ الى استخدام الاصابع أو أى مثير آخر (كأصابع القدم مثلا) من أجل الحصول على اللذة سواء كان جائعاً أم غير جائع (خفض التوتر) . وهكذا تصبح الشفاه من الآن فصاعداً مصدراً للحصول على اللذة .

ولما كانت الاشياء التى تظهر أولا فى نظام ما ، تكون آخر ما يترك هذا النظام ، فان المرحلة الفمية والمنطقة الشبكية الفمية تكونان على هذا الاساس اطول واقصى مراحل حياة الانسان . فهو دائما يبحث عن لذة المنطقة الفمية ، وهو يقوم بذلك حتى اذا كان مثل هذا النشاط غير مجد فى حل المشكلة او فى خفض التوتر .

(ب) **المرحلة الشرجية :** والمجموعة التالية من الخبرات ذات الاهمية البالغة فى تشكيل طباعنا وعلاقاتنا بالناس هى التدريب على عملية الاخراج وعاداته . وكما كان الحال خلال المرحلة السابقة لا يتركز الانتباه فقط على جزء معين من تشريح الجسم ، ولكن على وظيفة هامة ترتبط به . وتختلف الاتجاهات التى تتكون فى هذه المرحلة اختلافات بينة ، الامر الذى يتوقف على ما يظنه الآباء احسن مران ونظام للتدريب يمكن استعماله .

وحين يتجمع قدر كاف من فضلات الطعام لدى الطفل ، فان ذلك يسبب له توترا فى الامعاء يؤدي الى الشعور بعدم الارتياح او الالم . وطرد الفضلات واخراجها يزيل عنه مصدر القلق ، ويحدث له الشعور بالراحة . وعند بداية التدريب على النظافة - وهذا ما يحدث عادة فى السنة الثانية من العمر - يلتقى الطفل بأول خبرة حاسمة له مع التنظيم الخارجى لدفعة غريزية . فعليه ان يتعلم ارجاء اللذة التى يحققها له تخلصه من توتره الشرجى ، أى عليه ان يتعلم الخضوع لمبدأ الواقع ، وان يقوم بعملية الاخراج حين تصل هذه الضغوط الى حد معين ، وان يقوم بها فى اماكن معينة وليس فى أى مكان يشاء . وتتوقف نتائج هذا التدريب على الاسلوب الذى تتبعه الام فى تدريبه على ضبط عملية الاخراج . فان كان أسلوبا شديدا صارما ، فقد يقبض الطفل على فضلاته ويصاب بالامساك . وحين يعمم هذا الاسلوب فى الاستجابة الى مجالات من السلوك فيما بعد ، فقد ينمو لدى الفرد خلق قابض ويصبح عنيدا شحيحا . . . اما اذا كانت الام من النوع الذى يتودد الى الطفل ليخرج فضلاته وتسرف فى مديحه عندما يستجيب لذلك ، فان الطفل تتكون لديه فكرة قوامها ان النشاط الخارجى بأكمله امر بالغ الاهمية .

وقد تكون هذه الفكرة اساس الخلق والانتاج . وعلى العموم ، يقال ان العديد من السمات الاخرى ترجع جذورها الى المرحلة الشرجية (هول ولندزى ص ٧٦) .

وبالتأكيد يستطيع الطفل ان يحس بأن عملية التدريب على الاخراج هامة جدا بالنسبة لأمه وأبيه ، والا فلماذا كل هذه الضجة التى تثار حولها . انه يتعلم فى وقت مبكر ان ما يقوم به من عمل أو مال يؤديه يكون له اثره على المحيطين به . وليس من شك فى ان الخبرات التى ترتبط بالتدريب على الاخراج ، وما ينتج عن ذلك من اتجاهات الاطفال نحو الآباء ، تضع اللبنة الاولى لكثير من الاتجاهات والاعمال التى يقوم بها الفرد فى مستقبل حياته . انها اول عهده بالتأديب والنظافة ، وربما قد يتعلم منها أشياء أخرى كثيرة . فقد يتعلم من هذه العملية « ان يثابر على العمل حتى ينتهى من العملية الاخراجية » ، وهذه بلا شك خبرة لها علاقة بالثابرة والاصرار فيما بعد ذلك من ايام الحياة فى أى عمل نقوم به ، كما قد تغذى عنده الاحساس بالقوة اذ يمكنه التحدى والعناد ومنع الاخراج ، وليس هناك من يجبره على القيام بذلك اذا اراد الامتناع عن القيام به .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

(ج) **المرحلة الجنسية**، وتتفجر في حياة كل كائن بشري في حوالى سن الثالثة أو الرابعة رغبة في استطلاع أمور الجنس ، ويرتبط بهذه الرغبة قدر معين من الاستثارة الجنسية . والمنطقة الشبقية الثالثة التى تلى المنطقتين السابقتين هى الأعضاء التناسلية . ولا شك أن الطفل يستمد لذة من العبث بهذه الأعضاء. وتكون حياة الطفل الانفعالية أى علاقته الوجدانية بأفراد الوسط المحيط به في هذه الفترة ، أشبه بالحياة العاطفية للكبار . وفى خلال هذه الفترة (من سن ٣ - ٥) تكون علاقاته العاطفية والاجتماعية بوالديه قد أخذت تنمو وتتعدد ، وتهىء السبيل لظهور عقدة أوديب . وتستمد عقدة أوديب اسمها من أساطير الإغريق حيث كان أوديب طفلاً لـأحد الملوك ، وتكهن المنجمون أنه سوف يقتل أباه حين يكبر ، فنبذ الملك في العراء . ولما كبر أوديب التقى بالملك وتنازع على أمر ما ، فقتل أوديب الملك دون أن يعرف أنه أبوه ، ثم دخل المدينة وتزوج ملكتها ، وهى أمه ، دون أن يعرف أنها أمه . وقد اتخذ فرويد من هذه الأسطورة صورة لما يعانى به الطفل الإنسانى أبان طفولته المبكرة فى صلتة بوالديه والتي تسمى باسم « الصراع الأوديبى » .

ذلك أن أول موضوع يمر بخبرة الطفل - عدا نفسه - هى أمه . إنها أول إنسان يطعمه ويلبسه ويحبه ويجيب كل مطالبه وحاجاته . والطفل يعتمد على الأم فى هذه المرحلة الأولى من حياته اعتماداً كلياً . ومن هذا الاعتماد من أجل الحياة والتوحد معها ، ينمو الإحساس بالحب للأم .

ثم أن الطفل بالإضافة إلى حبه لأمه واكتشافه لجسمه وأعضائه التناسلية يصبح أيضاً على معرفة بالدور الذى يقوم به الأب فى حياته . فالأب إنسان أكبر وأقوى منه بكثير، وأنه أقل وجوداً معه فى البيت ، وأنه يشبهه فى الجنس ، ثم أنه يشاركه فى حب الأم ويحظى باهتمامها .

وفى الحقيقة يبدو أن له بعض الأولوية فى وقت الأم ومحبتها ، وتكون النتيجة الطبيعية لهذا هو الإحساس بمنافسة خفية وغير مصاحبة . وفى المراحل الأولى لهذه المعرفة ، لا يفعل الطفل الذكر شيئاً لكبح إحساسه بالفيرة . ومع ذلك يبدأ الكبت فى الظهور مع استمرار النمو . ثم هو يلاحظ أيضاً أنه من الناحية الجسمية ، أقرب شياً بأبيه منه بأمه ، وهى حقيقة تؤدى به إلى التوحيد مع الأب مثلما توحد مع الأم . وينشأ التناقض الوجداني (مبدأ ازدواج أو الثنائية) عن هذه الشحنة الوجدانية نحو شخصين مختلفين كلاهما يعتبر ضرورياً وهما لسعادته وراحته . فهو من ناحية يحب أن يشارك الأب فى حب الأم ، تلك المشاركة التى لا يحبها نظراً لرغبته فى الاستئثار بحبها ، ولكنه من ناحية أخرى أكثر شياً بالأب منه بالأم ، وهو إحساس بالتوحيد يجلب له السرور والرضا. وطالما أنه مع استمرار النمو ينمو أيضاً مبدأ الواقع ، فإنه قد يتوقع نوعاً من العقاب يوقعه به الأب ، أعنى عقاب الأب له على مشاركته فى حب الأم . ولما كانت معرفته بالعالم لا تزال قاصرة ، ولما كانت تربيته لا تزال تدور حول المناطق الفمية والشرجية والجنسية ، فإن أى عقاب يمكن أن يوقعه به الأب ، سوف يتصل بهذه المناطق الشبقية . ولما كانت الصفة الجسمية الوحيدة التى تميزه عن الأم هى عضوه

الدكرى ، اذن ، فان هذا العضو هو الذى يمكن أن يوجه اليه الثأر والانتقام من جهة الاب ، حتى يجعله اقرب شيها بالانثى ويبعد عنه في الوقت نفسه صفته الذكرية الوحيدة . ويشبه ذلك من حيث الاهمية أيضا أن عضو الذكر هو عضو التحريم الذى يجب أن يزال من أجل استبعاد أى احتمال لمجرد التفكير في قيام أية علاقة محرمة مع الام . وهذا الخوف الشديد هو الذى أشار اليه فرويد باسم عقدة « الخصاء » . فالطفل الذكر يخاف من ازالة هذا العضو الذى يجعل منه ذكرا شبيها بالاب مما يترتب عليه فقد التوحد مع الاب ، كما يخاف أيضا من منافسته المستمرة للاب في حب الام ، وجذب اهتمامها . ومبدأ الثنائية هذا يترتب عليه ظهور القلق عند الطفل بشكل يعجز معه عن احداث التوافق الى أن يدخل مبدا الواقع ميكائزم الدفاع عن الانا ونعنى به ميكائزم الكبت . وبذلك يجد الطفل طريقا لحل مشكلته .

وتعتبر الفترة من الثالثة حتى الخامسة والسادسة من اقوى فترات النضال العنيف لدى الطفل . ومع ذلك فهي تستمر كاملا حيوى خلال حياة الفرد ، كما يكون لها اثر في اتجاه المراهق نحو الجنس الآخر ونحو مصادر السلطة وفي علاقته بزوجه واطفاله .

هذا فيما يتصل بالولد الذكر . أما عن البنت ، فان عقدها تسمى باسم « عقدة الكترا » . وتتطور علاقتها بأبيها تطورا أكثر تعقيدا ، يتأثر بما تستشعره البنت من احساس بالفيرة من الام لمشاركتها في حب الاب . وما تستشعره من وجودها بغير هذا العضو الذكرى واعتبارها أمها مسئولة عن ذلك . وإلى جانب اتهامها لامها بأنها المسئولة عن حالة الفقد هذه ، فانها تتوحد بقوة مع الاب ، لانه يمتلك هذا العضو الذى تحسده عليه ، ويظهر حسدها واضحا في المقارنة مع أبيها الذى يمتلك شيئا تفتقده هي .

ومرة أخرى تظهر الثنائية عند الفتاة . ذلك ان مشاركتها لامها من حيث افتقارهما الى شيء ما ، يقوى توحيدها الأول والأصلى مع الام ، ويحدث التناقض الوجدانى حالة قلق أنفعالى عند الفتاة . وقد اطلق فرويد على حالة القلق هذه اسم « حسد القضيب » . ولا تصل البنت بسهولة الى حل هذا التناقض الوجدانى مع وجود فروق سيكولوجية عديدة بين الذكر والانثى . ويستمر هذا الحسد لدى الفتاة فترة اطول ، كما تصبح أكثر تمردا على الام مع المراهقة ، وتعديل اتجاهها تدريجيا حتى توفق هي الأخرى في الحصول على شريك حياتها بالزواج . ومرة أخرى تكشف - كأم - عن تناقضها الوجدانى نحو الجنس وذلك في دورها كأم لاولاد وبنيات ودورها كزوجة لرجل .

(د) فترة الكمون :

ويدخل الطفل في مرحلة كمون جنسي تبدأ في حوالى سن السادسة أو السابعة أو الثامنة . وفي هذا الوقت يصبح الطفل أكثر اهتماما بالعديد من الأمور الأخرى غير الجنس ، اذ يخصص لمثل هذه الأمور وقتا أطول مما كان يخصصه لها من قبل . ولكن لا يحتمل ان تفوته فرصة استطلاع أمور الجنس في أى مجال من المجالات التي تتاح له فيها فرصة القيام بذلك . وغالبا ما يحصل الطفل في هذه المرحلة على المتعة من اللعب

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

والعمل المدرسي ويمكن القول بوجه عام أن الكثير من صراعات الطفل القديمة عن الجنس تكون قد تقدمت قليلا في ناحية الاتضاح ، وأن الموضوع كله قد أصبح مفهوما بصورة أفضل .

وبالإضافة الى ذلك ، فإن الاطفال في هذه المرحلة يبدأون في استقلال بعض اهتمامهم وميولهم في غيرهم من الناس كأصدقائهم وزملائهم في المدرسة ، بدلا من أن يكونوا منطوين على أنفسهم . وفي هذا الوقت تتاح لهم أول فرصة لتنمية مشاعر الحب والمتعة والتعلق بالرفقاء في عالمهم الذي بدأ يتسع بعض الشيء ، ولو أنه لا زال صغيرا ومعروفا - عالم زملاء اللعب والمعلمين والإبطال والنجوم من الذكور والاناث .

(هـ) **المرحلة التناسلية :** والمراحل الثلاث السابقة على مرحلة الكمون - وهى الفمية والشرجية والقضيبية - تعرف باسم **المراحل قبل التناسلية** . وتتميز شحناتها بأنها ذات طابع نرجسي حيث يحصل الفرد على اللذة من تنبيه مناطق معينة من جسمه ، وأن شحناته تستهدف الآخرين لأنهم يتيحون له أشكالا إضافية من اللذة الجسمية فحسب . ومع المراهقة يبدأ بعض هذا الحب يتلمس طرقا تقوده الى اختيارات موضوع حقيقي ، ويشرع المراهق في حب الآخرين ، تحدوه دوافع الايثار وليس مجرد أسباب نرجسية . فالجاذبية الجنسية والتنشئة الاجتماعية والنشاط الجماعي والتخطيط المهني والاستعداد للزواج وتكوين الاسرة تبدأ جميعها في التعبير عن نفسها بصورة واضحة . وفي نهاية المراهقة تصبح الشحنات الانفعالية الاجتماعية الفرية أكثر ثباتا ، ويتحول الفرد من النرجسية او البحث عن اللذة الذاتية الى راشد تسيره الحقيقة الواقعية والمجتمع (هول ولندزى ص ٨٠) .

واخيرا ، يحسن ان نشير الى أنه على الرغم من أن فرويد قد ميز بين مراحل أربع من النمو النفسي الجنسي ، إلا أن هذه المراحل ليست منفصلة بعضها عن بعض ، أو أن الانتقال يكون فجائيا من مرحلة الى أخرى . وبذلك يكون التنظيم النهائي للشخصية هو نتيجة اسهامات هذه المراحل الأربع .



ثانيا : نظرية أريكسون :

لقد ادخل أريك أريكسون تعديلات على نظرية فرويد في **النمو النفسي الجنسي** في ناحيتين أساسيتين : **الأولى :** التوكيد على التفاعل المتبادل - وربما بصورة أكثر مما عند فرويد - بين المحتوى الاجتماعي والمراحل البيولوجية المعينة التي يمر بها الكائن الحي . **والثانية :** التوسع في المراحل . فبعد أن كانت هذه المراحل أربع عند فرويد (الفمية - الشرجية - القضيبية - التناسلية) ، أصبحت ثمانية عند أريكسون .

وسوف نعرض نظرية أريكسون بشيء من الاختصار مستعينين في ذلك بما قدمه في كتابيه « **الطفولة والمجتمع** » طبعة ١٩٧٠ (١٧) ، « **والهوية : الشباب والازمات** » طبعة ١٩٦٨ (١٨) .

وقد أشار أريكسون في بداية حديثه عن نمو الشخصية الى أن هناك صوراً كثيرة لخصائص الشخصية السوية واخذ بتعريف ماري جاهدودا Marie Jahooda التى تذهب الى أن الشخصية السوية هى « تلك التى تسيطر على البيئة بنشاط ، وتكشف عن وحدة معينة ، ولديها القدرة على ادراك العالم وادراك نفسها على نحو سليم » . ومن الواضح ان هذه المعايير تعد نسبية اذا نظرنا اليها من ناحية النمو المعرفى والاجتماعى للطفل . فالطفولة تتميز في الحقيقة بالغياب المبدئي لهذه المعايير ، وينموها التدريجي بعد ذلك في خطوات معقدة من التمايز المطرد . ومن هنا ، يرى أريكسون أن المفيد أن نبين الطريق الاساسى لنمو الشخصية وخصائصها السوية .

ويذهب أريكسون الى أنه عند محاولة فهم عملية النمو ، يحسن أن نتذكر جيداً مبدأ « التخلق المتعاقب » (*) Epigenetic Principle والذي نستمد من نمو الكائن الحى العضوى داخل الرحم . ويتعميم هذا المبدأ نوعاً ما ، يمكن القول بأن أى شيء ينمو ، انما يكون له منذ البداية ، خطة اساسية ينمو وفقاً لها . ومن هذه الخطة الاساسية تقوم الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقت محدد لظهوره ، حتى يكتمل ظهور الاجزاء جميعاً ، فتكون كلا وظيفاً . هذا ما يصدق بشكل واضح على نمو الجنين ، حيث يكون لكل جزء من أجزائه وقت محدد لظهوره ، والا تعرض للتلف أو نقص التكوين . وعند الولادة يتخلى الطفل عن التبادل الكيميائى الذى كان يتم داخل الرحم ، كى يفسح المجال امام نظام جديد من التبادل الاجتماعى مع مجتمعه الذى سيحيا فيه ، وحيث تتعرض قدراته وامكانياته المتزايدة بالتدريج لكثير من فرص النمو ، ومن الاحباطات التى تظهر داخل الاطار الثقافى الذى يعيش فيه . أما كيف يستمر الكائن الحى النامى في نموه ، لا عن طريق نمو أعضاء جديدة ، ولكن عن طريق التتابع المحدد لظهور القدرات الحسية والحركية والاجتماعية ، فهذا ما تمتلئ به كتب النمو . لقد امدنا التحليل النفسى بالكثير من المعلومات التى تتصل بالخبرات المزاجية ، وعلى وجه الخصوص بالصراعات الداخلية التى تكشف عن الطريقة التى بها يصبح الفرد شخصية متميزة ، ولكن من المهم ايضاً ان نتحقق من أن الطفل السوى في تتابع خبراته الشخصية يمكنه ، اذا منح قدراً معقولاً من التوجيه السليم ، أن يخضع لقوانين النمو الداخلية ، تلك القوانين التى تسمح بتتابع ظهور الامكانيات في تفاعلها الهام مع الشخصيات والمؤسسات الاجتماعية التى يتفاعل معها . واذا كان هذا التفاعل يختلف من ثقافة لأخرى ، الا انه يجب ان يظل داخل اطار « المعدل الطبيعى للسرعة والتتابع السرى » الذى يحكم كل تخلق متعاقب . وعلى ذلك ، يمكن القول بان الشخصية تنمو وفقاً لخطوات محددة سلفاً في استعداد الكائن الحى العضوى ، من أجل ان يعرف ويتفاعل ويتجه نحو مجال أوسع من الاشخاص والمؤسسات ذات الاهمية بالنسبة له . . ولذا يستخدم أريكسون عند عرضه لمراحل نمو الشخصية تصوراً لهذا التخلق المتعاقب في النمو النفسى ابتداء من الطفولة الاولى حتى الرشد .

* Epigenesis : التخلق المتعاقب : نظرية تقول بان الجنين يتكون بسلسلة من التشكلات المتعاقبة (وهي تناقض التخلق السبقى القائلة بان جميع امضاء الجنين موجودة وجوداً سبقاً في الجرثومة) .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

ومن الطبيعي ان يواجه الطفل في كل مرحلة من مراحل نموه مشكلة أساسية عليه ان يحلها بصورة مؤقتة على الأقل ، اذا اراد ان يتقدم في حيوية وثقة الى المرحلة التالية . وهذه المشكلات او هذه الصراعات بين المشاعر وبين الرغبات لاتحل باكملها على الإطلاق ، فكل تغير في الخبرة والبيئة من شأنه ان يظهر هذه الصراعات في صورة جديدة . على ان من المعتقد ان كل نوع من هذه الصراعات يبدؤ في أنقى صورة واوضحها في مرحلة معينة من مراحل نمو الطفل ، ومتى حل هذا الصراع او هذه المشكلة حلا طيبا في ذلك الوقت ، تم وضع أساس التقدم الى المرحلة التالية .

ونقدم فيما يلي وصفا للمراحل النمائية الثمان عند أريكسون .

١ - **الاحساس بالثقة الأساسية في مقابل عدم الثقة الأساسية** : وعند وصف مجموعة الاتجاهات الأساسية المتعاقبة للنمو ، استخدم أريكسون مصطلح « الاحساس بـ » sense of ومع ذلك ، يجب ان يكون من الواضح بشكل مباشر ان مثل هذه الاحساسات ، كالاحساس بالصحة او الحيوية او الاحساس بالافتقار الى كليهما ، تنطبق على جميع الاشياء التي تنتشر ظاهرة على السطح او توجد في الاعماق . فهي تنطبق على الحالات الشعورية وما قبل الشعورية واللاشعورية . فالثقة ، كخبرة شعورية يمكن ان تخضع للاستيطان ، ولكنها هي ايضا وسيلة للسلوك تقبل الملاحظة من الآخرين ، ثم بانها اخيرا حالة داخلية يمكن ان تتحقق فقط عن طريق الفحص والتفسير بالتحليل النفسي . وكل هذه الأبعاد الثلاثة يمكن الاستدلال عليها حين نتحدث عن « الاحساس بـ » .

وأول مكون للشخصية السليمة هو « الاحساس بالثقة » . وهذا الاحساس يظهر عادة خلال السنة الاولى من حياة الطفل ، وهو كغيره من مكونات الشخصية لا ينمو مستقلا عن غيره من مظاهر النمو الاخرى . والشعور بالثقة لايعنى ان الطفل قد أصبح قادرا على استخدام جسمه في حركة هادفة ، وانه قادر على التعرف على من حوله من الناس والاشياء فحسب ، بل وايضا يستعمل كتعبير موجز عن خاصية مميزة لكل خبرات الطفل المشبعة في هذا السن المبكر .

وأول مظهر من مظاهر الثقة الاجتماعية لدى الطفل في هذه المرحلة هو ما يتجلى في سهولة الحصول على الفداء ، وعمق النوم ، والشعور بالارتياح عقب القيام بعملية الاخراج . وتساعد خبرة التنظيم المتبادل بين قدراته المستقبلية . واساليب الام التي تزوده تدريجيا باحتياجاته المختلفة ، على احداث التوازن لمشاعر عدم الارتياح . ومع ازدياد ساعات اليقظة ، يجد الطفل ان الخبرات الحسية المتزايدة من شأنها ان تثير لديه الاحساس بالالفة والتوافق مع مشاعر الارتياح الداخلية ، وتصبح أشكال الارتياح ، وكذلك الناس والاشياء المحيطة به ، امورا مألوفة لديه .

ويستمد الطفل من الثقافة التي يعيش فيها بعض الاساليب الأساسية . ومن أبسطها وأسرعها ظهورا ، أسلوب « الأخذ » ، لا بمعنى « ان يذهب ويأخذ » ، ولكن بمعنى ان « يستقبل ويتقبل ما يقدم له » وهذه العملية تبدو سهلة وبسيطة ، ومع ذلك فان اي اضطراب

فيها من شأنه أن يكشف عن مدى تعقد هذه العملية . فهذا الطفل الصغير يتعلم كيف ينظم استعداداته « للاخذ » مع اساليب الام التي تسمح بدورها للطفل أن ينسق وسائله ، عندما تنمى هي وسائلها في العطاء . ونتيجة لهذا كله ينمى الطفل أيضا التوحد مع الام ، ويصبح أخيرا معطيا على نحو ما كانت الام .

وقد يظهر لدى بعض الاطفال الحساسين على وجه الخصوص أو الذين لا تعوض احباطاتهم المبكرة ، قدر من الضعف في احداث مثل هذا التنظيم المتبادل المبكر ، الامر الذي يسبب اضطراب العلاقة مع العالم الخارجى بعامة ، ومع الاشخاص المهمين بخاصة . غير أن هناك بالطبع طرقا أخرى لتوكيد هذا التبادل من خلال مواقف أخرى غير المواقف الغمية المستقبلية . فهناك احساس الطفل بالسرون عندما تضمه الام الى صدرها أو عندما تبتسم له أو تتحدث اليه أو تدله . والى جانب مثل هذا التعويض « الاقوى » (الذى يحدث خلال نفس مرحلة النمو) وهناك أيضا التعويضات « الطولية » في الحياة والتي تظهر خلال المراحل التالية من دورة حياة الفرد .

وخلال المرحلة الغمية الثانية ، تنمو لدى الطفل بعض القدرات للحصول على اللذة باتخاذ اساليب أكثر ايجابية وأكثر ادماجا ، وبشكل مباشر . ففي هذه المرحلة تبرز الاسنان ، ومع بزوغها يظهر السرون من القيام بالقضم على الاشياء أو عضها . ويتصف هذا الاسلوب الادماجي النشط بعدد من الانشطة الأخرى . فالعين التي كانت من قبل سلبية في استقبالها للانطباعات التي تحدث ، تتعلم الآن التركيز على الاشياء وفصلها وادراكها على أرضيتها الغامضة وتتبعها . وبالمثل تتعلم أعضاء السمع أن تميز الاصوات الهامة والتركيز عليها وإدارة الرأس وراعها ، وتتعلم الأذرع الوصول الى الاشياء والقبض عليها باليدين بشكل محدد .

ومن الصعب تقدير أزمة هذه المرحلة الغمية نظرا لأنها تتألف من الاتفاقيات الزمنية لنماذج ثلاثة : (أ) حافز قوى الادماج وأفراد وملاحظة التوتر المصحوب بعدم الارتياح نتيجة بزوغ السن وغيرها من التغيرات في الجهاز الغمي (ب) المعرفة المتزايدة للطفل بنفسه كشخص متميز . (ج) التحول التدريجي للام بعيدا عن الطفل ، وتجاه أمور كانت قد تطلت عنها الى حد ما خلال فترات الحمل الأخيرة ، أو المدة الأولى للرعاية ، أو ربما لاستقبال طفل جديد .

وعندما تستمر الام في تقديم الثدي خلال مرحلة العض ، فإن من الضروري اذن أن يتعلم الطفل كيف يستمر في الرضاعة من غير عض ، وحتى لا يترتب على ذلك أن تسحب الام الثدي في غضب أو ألم . ويشير العمل الاكلينيكي الى أن هذه المرحلة المبكرة في تاريخ حياة الطفل تزوده والى الأبد . وهذا فقدان المفاجيء لحب الام الذي اعتاده الطفل - ودون أن يكون هناك بديل مناسب في هذا الوقت المبكر يعوضه هذا الحبد من شأنه أن يحدث اكتئابا شديدا لدى الطفل ، أو على احسن الظروف احساسا بالانقسام الداخلى وحنينا غامضا للجنة المفقودة . واناء هذا التجمع القوى للاحاساس بالحرمان والشعور بالانقسام ، والفقدان يجب أن تؤكد الثقة الأساسية ذاتها خلال حياة الفرد .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

ويتضح فقدان الثقة الاساسية في حالات المرض، النفسى ولدى حالات الفصام الطفلى ، كما تتضح مظاهر فقدان الكامن الطويل الامد لهذه الثقة في شخصيات الراشدين الذين يتسمون بالانسحاب الشديد والبعد عن الناس وبالاكتئاب . وقد وجد بالنسبة لمثل هذه الحالات ، أن اعادة بناء الثقة بالنفس هو المطلب الاساسى للعلاج ، لأنه أيا كانت الظروف التى أحدثت الاضطراب الذهاني ، فان الشلوك أو الانسحاب الذى يظهر فى سلوك الكثيرين من المرضى ، انما يخفى وراءه محاولة لاستعادة التبادل الاجتماعى واعادة الثقة مرة أخرى .

وأول عمل للأنا هو اقامة انماط متينة ثابتة لحل الصراع الرئيسى للثقة مقابل فقدان الثقة ، وهذا بلا شك واجب من واجبات الرعاية التى تقوم بها الام . ويجب أن نوضح هنا ، أن مقدار الثقة المستمد من الخبرة الطفيلية المبكرة ، لا يتوقف على الكميات أو المقادير المطلقة للطعام أو على اظهار المحبة للطفل فحسب ، وانما يتوقف أيضا على نوع العلاقة بين الطفل والام . فالامهات يخلقن الاحساس بالثقة فى ابنائهن عن طريق هذا النوع من المعالجة الذى يتضمن الرعاية الحساسة لحاجات الطفل ، وعن طريق هذا الاحساس العميق بأنه جدير بالثقة الشخصية داخل اطار الثقة فى أسلوب حياة المجتمع والثقافة التى يحيا فيها . ومن شأن هذا أن يشكل لدى الطفل اساس الاحساس بالهوية ، والذى سوف ينضم فيما بعد الى الاحساس بأن الامور « تسير على ما يرام » ، وأنه « هو هو » ، وأنه « جدير بثقة الآخرين به » . حقيقة قد يواجه الطفل ، سواء فى هذه المرحلة أو المراحل التالية عليها ، مجموعة من الاحباطات التى لا يمكن للطفل النامى تحملها أحيانا ، ولذا يجب الا يعتمد الآباء فى أسلوب تربيتهم للطفل على وسائل معينة للتوجيه عن طريق المنع أو المنح فحسب ، بل يجب أن يكون لديهم أيضا القدرة على الاقتناع العميق للطفل بأن ثمة معان تكمن وراء ما يقدمونه له من أشياء ومن أوامر ونواه . ان الطفل لا يصبح فى النهاية عصابيا نتيجة ما يتعرض له من احباطات ، وانما لفقدانه المعنى الاجتماعى لهذه الاحباطات .

٢ - الاحساس بالاستقلال مقابل الشعور بالخجل والشك وبعد أن توضع بنود الاحساس بالثقة على أساس متين ، يبدأ الانتقال الى المكون الثانى من مكونات الشخصية السليمة ، وذلك فى الفترة ما بين سن الاثنى عشر والخمسة عشر شهرا . وتنصرف معظم طاقة الطفل فى هذه المرحلة الى توكيد ذاته من خلال الافعال التى يقوم بها من حيث انه انسان له عقل وله ارادة خاصة .

وهناك أساس فسيولوجى للسلوك المتميز فى هذه المرحلة . ذلك أن نضج الجهاز العضلى وما يترتب عليه من تأزر وتوافق بين عدد من الانماط المتصارعة للحركة والفعل ، يهيئ المسرح امام تجربة مجموعتين من الاساليب الاجتماعية فى وقت واحد : القبض والاسترخاء ، الامساك والاخراج . وكما هو الامر بالنسبة لكثير من الحالات ، يمكن أن تؤدي صراعاتها الاساسية فى النهاية اما الى العدوان أو الى توقعات واتجاهات لطيفة معتدلة . فالقبض أو الامساك يمكن أن يصبح احتجاجا قاسيا أو مدبرا ، كما يمكن أن يصبح نمطا من الرعاية ، بمعنى أنه يمتلك ويحتفظ بما يمتلك . وبالمثل قد يصبح الاخراج أو الاسترخاء وسيلة لاجراج عدوانى لقوى مدمرة ، كما يمكن أن يصبح استرخاء بمعنى « دع الامور تمر وتنتهى » .

وفي هذه المرحلة يجب أن يكون الضبط الخارجى من النوع الذى يعيد الطمانينة مع قدر من الحزم . فالطفل يجب أن يشعر أن الثقة الأساسية في الوجود ، والتي استمر محتفظا بها رغم ثورات المرحلة السابقة وازماتها سوف لا تتعرض للخطر نتيجة هذا التغير الكامل المفاجيء ، وهذه الرغبة العنيفة المفاجئة للقيام بالاختيار بين أن يحتفظ بعناية أو أن يخرج بعناد . فالحزم في هذه المرحلة أمر ضرورى لأنه يجب أن يحميه من الفوضى التى يمكن أن يتردى فيها نتيجة لاحتياسه غير المدرب على التمييز والتفضيل ، وعدم قدرته على القبض والاخراج دون تحفظ وحذر . فينبغى على الأم والبيئة المحيطة به اذن ، أن تعضد الطفل وتشجعه على « الوقوف على قدميه » والاستقلال بنفسه، وأن تحميه ضد الخبرات القاسية والعديمة المعنى والتي سيطر عليها الخجل والشك .

فالبينة اذن يجب أن توجهه التوجيه الحكيم ، وأن تجنبه مشاعر الخجل والشك في قيمته كشخص ، وأن تسلك ازاءه بحزم وتسامح ، بحيث يستطيع أن يتمتع بكونه شخصا مستقلا ، وأن يمنح الاستقلال للآخرين .

ويذهب أريكسون الى أن الخجل انفعال لم يدرس بعد بما فيه الكفاية ، لانه في مجتمعاتنا الحديثة ، سرعان ما تمتصه الخطيئة بسهولة . ويفترض الخجل أن الفرد قد تعرى تماما ، كما يفترض أيضا الشعور بأن الآخرين قد اطلعوا عليه ونظروا اليه . فهو واع بذاته أو خجل من نفسه . لقد رؤي وهو على غير استعداد أن يراه احد . ولعل هذا هو السبب في أننا نحلم أحيانا بالخجل في موقف يشعر فيه الفردان الآخرين يتفرسون فيه . وهو في حالة من العرى الكامل أو وهو في ملابس الليل « وبدون سروال » . وكان يعبر عن الخجل كدافع يدفع الفرد « أن يدفن وجهه بين يديه » أو « أن يتمنى أن تبتلع الأرض هنا أو هناك » . ويعتبر أريكسون الخجل أساسا بمثابة ثورة موجهة ضد الذات . فهذا الذى يشعر بالخجل يود لو أجبر العالم ألا ينظر اليه ولا يلاحظ ثورته ، يود لو يحطم أعين العالم ، ثم هو بالإضافة الى ذلك يود أن يصبح هو ذاته غير مرئى .

والشك قرين الخجل . وإذا كان الخجل يتوقف على الشعور بالتعري والانكشاف أمام الناس ، فإن الشك - حسب ما أوصلته الملاحظة الكلينيكية الى الاعتقاد - يتصل بالشعور بأن للفرد « قبل ودبر » (أى أمام وخلف) وخاصة الدبر ، لان هذه المنطقة الخلفية من الجسم مع تركيزها العدوانى والليبيدى على العضلات العاصرة والارداف ، لا يمكن أن يراها الطفل ، ومع ذلك يمكن أن تخضع لإرادة الغير . « فالدبر » هى تلك المنطقة من الجسم التى يمكن أن يسيطر عليها أو يكسحها - بالخيال أو بالفعل - هؤلاء الذين يمكنهم مهاجمة قدرة الفرد على الاستقلال ، أو الذين قد يصنفون ما تخرجه الامعاء بأنه خطأ أو عيب في الوقت الذى يشعر فيه الطفل بالارتياح وقت اخراجها . وهذا الاحساس الرئيسى بالشك فيما يخلفه الفرد وراءه ، يشكل قوام الصور الأخيرة واللفظية للشك القهرى ، والذى يعبر عنه في الرشد في خوف المصاب بالهذاء من المضطهدين المختفين ، ومن الاضطهادات الخفية السرية التى تدبر من الخلف .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

وتعتبر هذه المرحلة من مراحل النمو النفسي الحاسمة في تكوين الفرد نظرا لما يوجد فيها من صراع بين الحب والكراهية ، بين التعاون والعناد ، بين حرية التعبير عن الذات وقمع الذات . فمن الاحساس بضبط النفس دون فقدان التقدير للذات ، ينتج احساس مستمر ودائم بالارادة والاستقلال والزهو ، على حين ينتج عن الاحساس بعدم القدرة على ضبط النفس ، وان التحكم مصدره خارجي ، احساس مستمر ودائم بالشك والخجل .

ويجدد بنا أن نشير الى أن هذه النتائج المتصلة بالاحساس بالاستقلال والخجل والشك ليست أمورا مبالغ فيها نتيجة الاهتمام الزائد بالمشكلات الاكلينيكية ، وانما هي أمور نجدها متمثلة « حتى لدى الراشدين الناضجين وغير العصبيين . هؤلاء غالبا ما يكشفون عن حساسية تتصل « بالفقدان المخجل لماء الوجه » . وعن « خوف من أن يهاجم من الخلف » ومعظم هذه الاحساسات هي بقايا لمرحلة النمو المبكرة التي يمر بها الفرد من طفولته ، والتي يتغلب على معظمها وهو في طريقه الى الانتقال الى المراحل التالية .

٣ - الاحساس بالمبادأة مقابل الاحساس بالذنب وفي كل مرحلة جديدة تظهر معجزة أخرى تتكشف للعيان وتمثل أملا جديدا ومسئولية جديدة للجميع . ومعجزة هذه المرحلة هي الاحساس بالمبادأة . ونحن الآن نقرب من نهاية السنة الثالثة حيث تصبح عملية المشي سهلة وميسورة لدى الطفل . حقيقة أن كتب النمو تشير الى أن الطفل يمكنه أن يمشي قبل هذا السن بكثير ، ولكن المشي والجرى يصبحان جزءا هاما من اساليب سيطرة الطفل على البيئة المحيطة به . أنه يريد أن يكتشف المجال الحيوي الذي يعيش فيه . فالطفل في هذه المرحلة شغوف بعقد مقارنات بين الأشياء والأشخاص ، ولديه القدرة على الاستطلاع المستمر للفروق في الحجم والنوع بعامة ، والفروق في الجنس والسن بخاصة . أنه يحاول أن يفهم الأدوار المستقبلية والأدوار الجديرة بأن يتخيلها ، أنه يريد أن يكتشف أي نوع من الأشخاص يمكن أن يكونه . وهو يحس فجأة بأنه قد نما وكبر سواء في جسمه أو في نفسه ، وأنه قد أصبح أكثر نشاطا وحيوية وأكثر لمعانا وذكاء في أحكامه وأنه يمتلك مريدا من الطاقة والنشاط اللذين يسمحان له بأن ينسى الفشل بسرعة ، وان يقترب مما هو مرغوب (حتى ولو بدا هذا المرغوب غير مؤكد أو خطرا) فالمرحلة مرحلة تعلم نشط عنيف ، تعلم يقود الطفل من نواحي قصوره وضعفه الى امكانيات مستقبلية جديدة ، مرحلة اندفاع في المكان عن طريق الحركة العنيفة النشطة ، مرحلة غزو للمجهول يدفعه اليه حب استطلاع شديد . ثم هو في هذه المرحلة يستطيع أن يرتبط وبشكل مباشر برفاقه من نفس سنه ، ويمكنه بتوجيه الأطفال الأكبر منه سنا ، أو بتوجيه الكبار من حوله ، أن يتعلم سياسة التعامل مع هؤلاء الرفاق ، سواء في المدرسة أو في الشارع أو المجتمع الخارجي .

وهكذا تضيف المبادأة الى الاستقلال صفة مباشرة العمل ومواجهته وتخطيطه من أجل أن يصبح نشطا ومتحركا . ويرى أريكسون أن مصطلح المبادأة - رغم ما يحمله من مدلول أمريكي ذي صبغة اقتصادية - يعد جزءا ضروريا بالنسبة لكل عمل . فالإنسان يحتاج الى

الاحساس بالمباداة بالنسبة لكل نشاط يقوم به ، وكل عمل يتعلمه أو يؤديه ابتداء من جمع المحصول في الحقل الى القيام بتنفيذ مشروع هندسى .

ويرى أريكسون أن تعلم الطفل في هذه المرحلة هو الى حد بعيد من النوع الإقحامى والعنيف . أنه يبعد الطفل عن نواحى قصوره وضعفه ، ويقربه في ذات الوقت من امكاناته المستقبلية .

واسلوب الإقحام الذى يسيطر على كثير من مظاهر سلوك هذه المرحلة قد يتخذ العديد من الأنشطة والتخيلات المتشابهة . وتتضمن هذه :

- (١) اقحام المكان بحركة نشطة وعنيفة .
- (٢) اقحام الطفل بنفسه فيما لا يعنيه من أمور عن طريق حب الاستطلاع .
- (٣) اقحام نفسه في آذان الآخرين وعقولهم عن طريق صراخه العدوانى .
- (٤) اقحام نفسه على اجسام الآخرين بالهجوم المادى عليهم .

(٥) وأخيرا باقحام عضو التذكير - بالتفكير أو التخيل - في جسم انثى . وهذه المرحلة هى نفسها المرحلة القضيبية في نظرية الجنسية الطفيلية عند فرويد . انها مرحلة حب استطلاع طفلى واستشارة جنسية واهتمام زائد وانشغال بأمور الجنس كافتقار البنت الى عضو التذكير .

ومرحلة التجول - والتى هى مرحلة لعب وجنسية طفلية - تضيف الى الاساليب الاجتماعية الاساسية اسلوبا جديدا لدى الجنسين هو أسلوب « الاحداث أو الصنع making » وهو بالمعنى الطفلى أسلوب « الفوز بشيء » وهذه العبارة توحى بالاستمتاع بالمنافسة والاصرار على بلوغ الهدف واللذة في الفوز والسيطرة ، وينصب التركيز عند الولد الذكر على الاساليب « القضيبية - الإقحامية » ، على حين تتحول عند الفتاة الى أساليب المسلك المفاجيء والاختطاف العدوانى أو - في الحالات المعتدلة - اتخاذ أساليب تجعلها جميلة وجذابة . وبذلك ينمى الطفل متطلبات المباداة الذكرية والانثوية وبعض صور الذات الجنسية التى سوف تصبح مقوما أساسيا من مقومات المظاهر الموجبة والسالبة لهويته المستقبلية ، كما تزداد تخيلات الطفل . فالولد ينغمس في تخيلات قوامها أنه أصبح هائلا أو أسدا ، ولكن أحلامه تدور حول مخاوف تتصل بالحياة وبالأطراف . فهى مرحلة « عقدة الخصاء » والخوف العميق من الفقد . أما البنت فلديها اقتناع بأنها قد فقدت العضو الذكرى عقابا لها عن تخيلات وأفعال سرية خفية .

وفي هذه السن يكون الضمير قد نما وأصبح أعظم حاكم للمباداة . فالطفل لم يعد موجهها بأناس من الخارج فحسب ، بل أصبح أيضا يسمع « الصوت الداخلى » لملاحظة الذات وتوجيهها وعقابها ، هذا الصوت الذى يعلق على أفعاله ويحذره ويهدده ، وتلك هى بداية

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

نشوء الاخلاق عند الطفل . غير ان ترومت الكبار وتحميلهم للطفل اكثر مما يطيق ، سوف يجعل الامر صعبا وخطيرا بالنسبة للروح والاخلاق معا . ذلك ان ضمير الطفل يكون بدائيا وقاسيا وغير متسامح ، وقد ينتج عن ذلك نوع من الحصر الشديد . فاذا كان من الممنوع أن يفعل كذا ، فمن الخطورة بمكان أن يفكر حتى مجرد التفكير فيه ، وقد يدفع الى هذا القرار غير وحسد ومراة واتجاه نفسى شرير تجاه العالم . ومثل هذه المشاعر تجبر الطفل على تقييد ذاته ، وقد يصبح هذا التقييد لا شعوريا ويكون جزءا من الشخصية يقوم بوظيفته ويؤثر في سلوكها . ولعل أحد الصراعات العميقة في الحياة هو ذلك الصراع الذى يتكون نتيجة كراهية الاب الذى يكون في بداية الامر نموذجا للضمير ، ولكنه في النهاية يرتكب الخطايا التى لا يتحمل ضمير الطفل اتيانها . وهنا يصل الطفل الى الشعور بأن المسألة ليست مسألة اخلاق عامة ، بل هى قوة قسرية وتعسفية تفرض عليه .

وهذه المرحلة النمائية لها مزايا ومخاطر. فالطفل في هذه المرحلة يكون اكثر استعدادا للتعلم بسرعة وقوة ومشاركة الالتزامات والاعمال التى يقوم بها الغير ، منه في أية مرحلة أخرى ، فهو شغوف لان يتعلم ، ومشوق وقادر في نفس الوقت على القيام بالاعمال التى يشارك ويتعاون فيها مع الاطفال الآخرين من أجل التصميم والبناء ، كما يرحب بالاستفادة من المدرسة ، وان يضاهاى النماذج الاصلية التى يراها . انه يظل بالطبع متوحدا مع الاب من نفس الجنس ، ولكنه في الوقت نفسه يبحث عن فرص يتيح له فيها التوحد مع العمل ، مجالا للمبادأة دون حدوث صراع طفلى ، او شعور اوديبى بالذنب ، وكذلك البحث عن توحيد اكثر واقعية يقوم على روح المساواة التى خيراها من العمل مع الآخرين . واذا استطاع الطفل في هذه المرحلة ان يفهم جزئيا بعض الادوار والوظائف التى يستطيع القيام بها كشخص راشد ، فانه سوف يكون مستعدا للانتقال في نمو سليم الى المرحلة التالية .

٤ - **الاحساس بالعمل مقابل الشعور بالنقص :** واذا كان طفل المرحلة السابقة مستعدا لان يتعلم في شغف وسرعة وأن يصبح كبيرا ، وان يشارك في الالتزامات والنظام والعمل ، وأن يعمل ويشارك في البناء والتصميم فان اطفال هذه المرحلة يصبحون اكثر ارتباطا بالمدرسين وآباء الاطفال الآخرين ، واكثر ميلا الى ملاحظة وتقليد أعمال بعض الناس الذين يمكنهم ادراكها كرجل الشرطة ورجل المطافىء والبستاني . وهذه المرحلة تبدو كلها وكأنها تمهد السبيل للدخول في الحياة . واقتصد بالحياة هنا حياة الدرس ، سواء تم ذلك في الحقل او المعسكر او الفصل ، والطفل في هذه المرحلة ينسى الكثير من الآمال والرفقات السابقة وينصرف الى الاعمال الحقيقية . ذلك ان الفرد قبل ان يصبح أبا من الناحية البيولوجية ، عليه ان يعمل أولا ليرعى أسرته ، ومع الدخول في مرحلة الكمون ينسى الطفل المتقدم بشكل طبيعى نحو النضج أو يعلى الرغبة في ان يوجد انسا او ان يصبح أبا او تصبح اما . انه يتعلم الآن ان يكتسب المعرفة عن طريق انتاج الاشياء .

وإذا كان جميع الأطفال محتاجين في بعض الأوقات الى ان يتركوا يلعبون وحدهم او ان يتركوا - فيما بعد - في صحبة الكتب او الراديو او السينما او التلفزيون ، وإذا كان جميع الأطفال يحتاجون في بعض الاوقات الى القيام ببعض الالعاب الإيهامية ، فانهم ، ان عاجلا أو آجلا . سوف يحسون بالاستياء والسخط اذا لم يوجد لديهم الاحساس بالقدرة على القيام بعمل شيء ما أو عمله جيدا واثقان . وهذا الاحساس بالقدرة على العمل هو ما اطلق عليه اريكسون اسم «الاحساس بالانجاز» أو «الاحساس بالصناعة» ، فبدونه يشعر الطفل بالضيق . فبالعمل يعرف الفرد ويعرف مجتمعه انه قد أصبح من الناحية النفسية مؤهلا لان يكون ابا ، حيث يلزمه العمل لرعاية الاسرة من الناحية الاجتماعية ، قبل أن يصبح ابا من الناحية البيولوجية .

وتقول « ايفس هينريك » ان مبدا العمل يعلم الفرد لذة اتمام العمل وانجازه ، وذلك نتيجة الانتباه المستمر والاجتهاد المتواصل . والاطفال في جميع الثقافات يتلقون خلال هذه المرحلة بعض نواحي التعليم المنظم والذي يأخذ عادة صورة تعليم مدرسي حيث يتجمع الأطفال حول مدرسين مؤهلين جيدا للقيام بعملية التعليم . وفي المجتمعات البدائية ، حيث لا تعلم منظم ، يقوم الكبار بدور تعليم الصغار الذين يلتقطون المهن من الكبار . ويفلب الميل لدى الطفل في مثل هذه الحالات حين يقبل على تعلم صنعة ما . وعلى ذلك ، فان أساسيات التكنولوجيا تنمو عندما يصبح الطفل قادرا على معالجة الأدوات والعدد والسهام التي يستخدمها الكبار من حوله . وحيث يتطلب الامر ان يصبح المتعلم على قدر من التخصص المهني ، فان واجب المدرسة في هذه الحالة هو ان تزود الطفل بأكبر قدر من التعليم الاساسي لاثقان تخصصه . ومن الملاحظ انه كلما أصبح دور التعليم اكثر تخصصا ، وأصبحت المواد الدراسية اكثر عمقا ، قل دور الآباء في العملية التعليمية وأصبح اكثر تحديدا . ومن هنا ، تصبح المدرسة هي المصدر الاساسي للثقافة بما لها من قدرة وامكانات على تحقيق اهداف المجتمع التربوية .

والخط الاساسي في هذه المرحلة يكمن في احساس الطفل بعدم الكفاية والنقص . وقد يرجع ذلك الى فشل الطفل في تنمية الشعور بالمبادأة في المرحلة السابقة ، او ان وضعه بين اقاربه الذين يشاركونه العمل او الدراسة يشعره بالعجز في التوحد معهم ، او ان مكان التعليم والعمل لا يوفر له من الخبرات والمثيرات ما يتحدى قدراته الكامنة . ومن هنا يصبح النجاح في المدرسة أحد عوامل الصحة النفسية للطفل ، وكما يقولون النجاح يولد النجاح . ومن شأن ذلك ان يجعل النمو النفسي للطفل سويا وطبيعيا الى حد بعيد . والمدرس الناجح هو الذي يعرف كيف يساعد التلميذ على أن يشق طريقه في المدرسة ، ويعينه على التغلب على مشكلاته المدرسية وعلى العوائق التي تعترض سبيله . انه يعرف جيدا كيف يجعل الطفل يتناول اللعب والعمل . انه يعرف كيف يقدم الجهود الخاصة وكيف يشجع الأطفال على بذل المزيد من الجهد ، وكيف يعالج هؤلاء الذين لا ينظرون باهتمام الى المدرسة ويعتبرونها سجنًا . ولكن من واجب الآباء ايضا أن يجعلوا أبناءهم يحبون مدرسيهم

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

ويحسنون بالثقة فيهم ، لأن الطفل محتاج الى التوحد مع مدرسه مثلما هو محتاج الى التوحد مع ابيه .

٥ - الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الدور وباقامة صلات مبدئية حسنة مع عالم المهارات والادوات ، ومع الدخول في مرحلة المراهقة ، تنتهي فترة الطفولة الحقة ، وتبدأ مرحلة الشباب . وتعود المشكلات مرة اخرى الى الظهور بسبب التغيرات الجسمية والفسيولوجية السريعة ، والتي تعادل في سرعتها سرعة النمو في مراحل الطفولة المبكرة ، وكذلك بسبب الاضافات الجديدة للنمو الجنسي . ويصبح الشاب النامي الذي يواجه بمثل هذه التغيرات اكثر انشغالا بمظهره امام الآخرين ، اكثر مما هو عليه في الحقيقة .

والمشكلة الرئيسية في هذه المرحلة بالنسبة للمراهق هي مشكلة تكوين الاحساس بالهوية ، أى معرفة من هو ، وما دوره في هذا المجتمع ، وهل هو طفل - على نحو ما كان ينظر اليه من قبل - أم راشد - على نحو ما هو صائر اليه الآن ، وهل لديه المقدرة التى تجعل منه انسانا له كيانه وقيمته في هذا المجتمع . ومثل هذه المشكلات تحتل مكانا هاما من تفكير المراهق واهتماماته ، كما يصبح اكثر انشغالا واهتماما بالتوفيق بين ما تعلمه من مهارات وادوار في مراحل نموه السابقة ، وبين ما هو مقبول اجتماعيا الآن . وهو في بحثه عن احساس جديد بالهوية والاستمرار ، عليه ان يخوض الكثير من المعارك التي سبق ان خاضها من قبل .

وى اريكسون ان التكامل الذى يحدث الآن في صورة هوية الذات ، اكبر من مجموع توحيدات الطفولة . انه نتيجة الخبرة النامية لقدرة الانا على احداث تكامل بين كل التوحيدات السابقة وتقلبات الليبدو والقدرات المنبثقة من الواهب ، والفرص التي تقدمها له الادوار الاجتماعية . فكل هذه التغيرات هي التي تعمل على احداث التكامل الجديد في صورة هوية الذات لدى المراهق .

وتمثل خطر هذه المرحلة النمائية في اضطراب الدور role confusion وارتباك . ولتوضيح معنى هذا المفهوم اشار اريكسون الى عبارة وردت في رواية آرثر ميللر Death of a Salesman على لسان أحد المراهقين في سياق حديثه مع أمه « انى لا أستطيع ان امسك بشيء يا أمى ، انى لا أستطيع ان استحوذ على أى نوع من أنواع الحياة » . فاذا التغيرات الجسمية السريعة التى تحدث للمراهق سواء من حيث الشكل أو الحجم ، وازاء نضجه الجنسي ، ونظرة المجتمع اليه ، والتغيرات المختلفة التي تطرأ على ادواره الاجتماعية ، لا يملك المراهق الا الاحساس بهذا الاضطراب في الهوية .

وسواء سيطر المراهق على اضطراب الهوية ، او اصبح نتيجة لذلك جانحا او عصابيا او ذهانيا ، فان هذا يتوقف على خبرات الماضي وعلى الشكوك القوية السابقة التي مرت به . فان تم تشخيص هذه الاحداث وعلاجها بشكل سليم ، فسوف يحدث تكامل جديد لدى الفرد ، ويرى طريقه في الحياة . وفي بعض حالات المراهقة ، يكون عدم القدرة

على الاستمرار أو الاستقرار في عمل ما أو في وظيفة واحدة أحد الأسباب التي تؤدي إلى اضطراب الهوية عند المراهق .

ويجد المراهقون راحة نفسية في التواجد معاً ، فهم يميلون إلى تكوين الشلل . ومن أجل الإبقاء على وحدة الجماعة أو الشلة ، يتوحد المراهق ، ولو وقتياً وإلى الحد الذي يصل فيه أحياناً إلى فقد الظاهر لهويته ، مع أبطال الشلة . وهذه هي بداية « الوقوع في الحب » والذي ليس أساساً أو كلية ، حباً جنسياً . فحب المراهقة هو إلى حد بعيد محاولة للوصول إلى التعريف بهوية الفرد عن طريق إسقاط صورة الذات المختلطة على الغير ورؤيتها هكذا معكوسة وواضحة بالتدرج . ولعل هذا هو السبب في أن معظم حب صغار الشباب هو حب كلام وحديث .

وصغار الشباب يتعصبون أحياناً بشكل ملحوظ لبني جنسهم ويسلكون بقسوة وعدم تسامح تجاه من يختلف عنهم في اللون أو الأساس الثقافي أو حتى في بعض المظاهر البسيطة كاللزي والشارات وغيرها من الأمور التي ينظر إليها مؤقتاً بأنها علامات تشير إلى من ينتمي إلى جماعته ومن هو خارج عنها . ومن المهم أن نعرف أن مثل هذا التصلب وعدم القدرة على التسامح يمكن أن يكون أسلوباً دفاعياً ضد الإحساس باضطراب الهوية وتشوشها . فهم يساعدون بعضهم البعض بقوة وحرارة عند الوقوع في مشكلات مع السلطة ويختبرون بصورة حمقاء أحياناً قدرة بعضهم البعض ، ومدى انتمائهم إلى هذه الجماعات من أجل ضمان الولاء لها . واستعداد الشباب للقيام بمثل هذه الاختبارات القاسية وتحملها أحياناً ، يفسر لنا مدى مالبعض المذاهب السياسية الدكتاتورية أو بعض الجماعات المتطرفة من أغراء على عقول أمثال هؤلاء الشباب . ففي مثل هذه الأحوال يفقد الفرد هويته نتيجة التشوش والاضطراب في التفكير ، حيث لا يفكر إلا بعقلية الجماعة التي تدفعه إلى تحقيق أهدافها . وأمثلة هؤلاء الشباب يتعرضون للانفصال والانعزال عن حياة غالبية المجتمع الذي يعيشون فيه ، كما يفقدون الثقة بأنفسهم وبقدرتهم على توجيه دفعة حياتهم بسلام .

ومع أن « الإحساس بالهوية صعب التحقق ، إلا أنه يحفظ الفرد وبقية من فوضى الدوافع البيولوجية ، ويمكنه من المحافظة على المبادئ والقوانين ، والوقوف أمام ضمير مستبد قاس شاك . أما فقدان الهوية أو فقدان الشعور بأن هناك قدراً من « التماثل » والاستمرار ، فإنه يعرض الفرد لصراعاته الطفلية ، ويؤدي إلى اضطرابات انفعالية » .

٦ - الإحساس بالسود والتآلف مقابل العزلة والقوة المكتسبة في أية مرحلة يمكن اختبارها بقدرة الفرد على تجاوزها بطريقة تسمح له بالحصول على فرص أكبر في المرحلة التالية ، لم تكن متاحة له في المرحلة السابقة . فالراشد - الذي يخرج من البحث عن الهوية - يكون مشوقاً ومرحباً أن يدمج هويته بهوية الآخرين . فهو على استعداد للإحساس بالسود والتآلف مع أشخاص من نفس الجنس أو من الجنس الآخر أو مع نفسه . فتكون لديه القدرة على أن يسلم نفسه للانتماءات والمشاركات المحسوسة مع الغير ، وأن ينمي

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

لديه القوة الاخلاقية التي تمكنه من ان يفى بتعهداته حتى لو اقتضى الامر القيام بتضحيات ووعود هامة .

وفي مقابل اللفة والود نجد الابتعاد ، اعنى الاستعداد للعزلة ، واذا لزم الامر ، هدم القوى والاشخاص الذين يبدو في وجودهم خطر يهدد الذات وتهدد على العلاقات الوثيقة التي تربط الفرد بالآخرين .

واذا تحرينا الدقة ، فان هذه المرحلة هي مرحلة النمو الكامل للتناسلية الحقيقية True Genitality . ذلك ان غالبية حياة الجنس السابقة كانت من نوع البحث عن الهوية او خاضعة للشهوات القضيبيية أو الفرجية التي تجعل حياة الجنس نوعا من الصراع التناسلي . اما التناسلية الحقيقية ، فهي من الناحية الأخرى حالة دائمة من السعادة الجنسية المتبادلة . لقد سئل فرويد مرة عما يظن أن الشخص السوي قادر أكثر على فعله . فأجاب « أن يحب وان يعمل » to love and to work . وهذه العبارة البسيطة تدعو الى التأمل العميق ، لانه عندما قال فرويد « أن يحب » كان يعنى الحب التناسلي . وعندما قال « يحب ويعمل » فانه كان يعنى العمل المنتج عامة ، والذي لا يشغل الفرد الى الحد الذى يفقد الفرد او ينسى حقه أو قدرته على أن يصبح كائنا محبا ومتناسلا .

واذا كان التحليل النفسي قد قطع شوطا بعيدا في التوكيد على التناسلية كعلاج عام للمجتمع ، وقدم بذلك بضاعة جديدة لكثير ممن يرغبون تفسير تعاليمه على هذا النمو ، إلا انه لم يوضح دائما - في نظر اريكسون - كل الاهداف التي يجب ان تتضمنها التناسلية بالفعل . فمن اجل ان يصبح لهذه التناسلية قيمة اجتماعية مستديمة ، فان الصورة المثلى للتناسلية يجب ان تتضمن : ١ - تبادلية الشبق الجنسي ٢ - ومع شريك يحبه ٣ - ومن الجنس الآخر ٤ - وان يكون مستعدا ومرحبا ان يشاركه الثقة المتبادلة ٥ - وان يكون مستعدا ومرحبا ان ينظم معه دورات (أ) العمل (ب) والانجاب (ج) والترويج ٦ - وبذلك يضمن للنتاج او الصغار جميع مراحل النمو السوى .

وخطر هذه المرحلة هو العزلة ، اعنى تجنب العلاقات التي تسلم الى الود والمحبة والتآلف ، وقد يؤدي هذا الاضطراب وهذه العزلة الى حدوث مشكلات خطيرة في الشخصية .

(٧) الانتاجية مقابل الجمود . لقد كان التركيز فيما سبق منصبا على الطفولة والمراهقة . ولكن مع التقدم في السن والوصول الى الرشد واكتمال النضج يبدأ الاحساس الابوى . والاحساس الابوى يتضمن النمو التطورى الذى جعل الانسان هو الكائن الحى المعلم والمتعلم على حد سواء . واصرارنا المستمر على تصوير الاطفال والنظر اليهم باعتبارهم معتمدين ومتكئين دائما على الكبار ، يجعلنا ننسى أيضا اعتماد الجيل الاكبر والمتقدم في السن على الجيل الاصغر منه . أن الشخص الناضج يحتاج دائما الى الشعور بأن هناك من يحتاج اليه ، والنضج يحتاج الى توجيه مثلما يحتاج الى تشجيع ممن يقدم اليه ونرعاه .

والابوة ، اساسا ، هي الاهتمام بتربية الجيل الجديد الناتج وتوجيهه ، وان كان هناك آباء - اما بسبب سوء الخط أو عوامل نفسية خاصة ، لا يقومون بهذا العمل نحو اولادهم . وقد يتسع مفهوم الابوة أيضا فيشمل مترادفات أكثر ألفة كالانتاج والخلق .

اما الاخفاق في انماء هذا المكون من مكونات الشخصية السوية ، فكثيرا ما يؤدي الى نوع من الانغماس في الذات والاحساس العام بالجمود والفقر الشخصي . فيبدأ الفرد غالبا في امتاع ذاته واشباع رغباتها كما لو كان هو الشخص الوحيد أو الطفل الوحيد ، ويتساهل مع نفسه وينتظر من الآخرين التساهل معه ، أى يسلك بطريقة طفلية غير ناضجة » .

وثمة حقيقة هامة تتلخص في أن مجرد الطفل أو حتى الرغبة في انجابه ، لا ترتفع الى ضرورة الاحساس بالابوة . فبعض صفار الآباء يعانون فيما يبدو من تأخر في القدرة على تنمية الرعاية الحقة لابنائهم ، ويمكن أن ترجع أسباب هذا الاخفاق الى الانطباعات غير السارة في الطفولة المبكرة وفي التوحيات الخاطئة مع الآباء، وفي الحب الزائد عن الحد للذات ، وفي الافتقار الى الثقة في الاطفال أو الرغبة في الشعور بالاستقلال وعدم الارتباط بالغير ، والاحساس بالعزلة . وقد يحدث هذا عند بعض الاشخاص نقصا في الاحساس بتكامل الانا .

(٨) تكامل الانا مقابل اليأس : Ego Integrity vs Despair وتظهر ثمان المراحل السبع السابقة في هذا الشخص الذي نما على العناية بالاشياء والاشخاص ، وعلى ملائمة نفسه مع النجاح والفشل في هذا العالم ، والذي أوجد الآخرين وولد الاشياء والافكار . ولم يجد اريكسون مصطلحا افضل من مصطلح «تكامل الانا» لوصف هذا الشخص . وهذا المصطلح يشير الى أن الفرد قد أصبح قادرا على توكيد نمو الانا في نزعتها نحو النظام والمعنى ، ونحو التكامل الانفعالي المخلص لحملة صور الماضي ، والاستعداد لتحمل الزعامة والقيادة في الحاضر والى تقبل دورة حياة الفرد ، وتقبل ما يتصل بها من اشخاص باعتبارهم ذوي أهمية ومغزى في هذه المرحلة من تاريخهم ماداموا قد أدوار سالتهم في هذا السبيل .

كما يعنى « تكامل الانا » أيضا حبا جديدا ومختلفا للابوين، حبا خاليا من الرغبة في أن يكونوا غير ما هم عليه ، أو أن يتخلصوا من عيوبهم وأن يتقبل حقيقة أن حياة المرء هي مسؤوليته وحده . كما يعنى أيضا احساسا بزمالة الرجال والنساء الذين ساهموا في خلق أنظمة وأشياء وأقوال تكشف عن كرامة الانسانية . وعلى الرغم من معرفته بنسبية جميع الاساليب المختلفة للحياة والتي أعطت معنى للكفاح الانساني ، فإن الشخص الذي لديه تكامل الانا يكون على استعداد للدفاع عن كرامة أسلوبه في الحياة « أمام كل ما يتعرض له من تهديدات مادية كانت او اقتصادية . فهو يدرك أن حياة الفرد وكرامته تتوقف على تمسكه بأسلوبه الذي يقوم عليه شعوره بالتوحد .

والادلة الاكلينيكية والانثروبولوجية توحي أن نقص أو فقدان هذا النمو لتكامل الانا يتضح في ناحيتي الاشمزاز واليأس . فالقدر أو المصير لا يتقبله الفرد كإطار للحياة ، كما أنه يخاف الموت . وهو يعبر عن اليأس في صورة الشعور بأن الزمن قصير ، وأنه أقصر من أن يسمح

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

للغرد ان يبدأ حياة اخرى من جديد ، او ان يحاول تجربة طرق اخرى بديلة للتكامل . ومثل هذا الياس غالبا ما يختفى وراء مظاهر الاشتمزاز وبغض الجنس البشرى والاستياء المزرى الزمن لمؤسسات معينة وأشخاص معينين ، وهذا الاشتمزاز وهذا الاستياء انما يعينان فقط احتقار الفرد لنفسه وازدرائه لها .

وهكذا يربط اريكسون بين مراحل النمو والتكيف ، ويربط بين اتجاهه التطيلي واتجاهات اخرى انثروبولوجية واجتماعية .



ثالثا - نظرية نمو الذات عند جوردون البورت

جوردون البورت من كبار المشتغلين بدراسة الشخصية ، وكتب في هذا المجال العديد من الكتب . وقد نظر الى الشخصية من حيث هي أسلوب متميز من اساليب التكيف التى يقوم بها الفرد ، لا توجد عند الولادة ، وان كان من الممكن القول بان بدورها توضع مع الولادة ، ان اساليب التكيف الميزة المبكرة والتى على اساسها يمكن ان نفرق بين طفل وآخر تتضح فى شدة نشاطهم التلقائي وتكراره ، وفى تعبيراتهم الانفعالية والمزاجية ، وانه ليس من المحتمل قبل بداية الشهر الرابع ان يكون الطفل قد نضج نضجا كافيا وتعلم تكوين عادات متميزة للتكيف .

ومع بداية النصف الثانى من السنة الاولى تبدأ استجابات الطفل التوافقية المتميزة مع العالم المادى والاجتماعى تظهر بوضوح ، وان الصفات المتميزة التى يمكن ملاحظتها فى وقت مبكر من حياة الطفل تميل الى الاستمرار وبشكل ملحوظ يسمح للملاحظ ان يتنبأ بما ستكون عليه شخصية الفرد فى المستقبل . فالشخصية اذن نامية متطورة تخضع لمظاهر النمو النفسى السوى وغير السوى ، وفقا للمحددات المختلفة التى تؤثر فيها ، ووفقا للظروف التى يمر بها الفرد .

والذات هى لب الشخصية ، بل هى لب كيان الفرد ووجوده . وفكرة الذات تنمو وتتطور وتمر بمراحل متعددة فى نموها وتطورها . واذا كنا عرضنا للنمو النفسى الجنسى عند فرويد ، والنمو النفسى الاجتماعى بصورته المتطورة عند اريكسون ، فجدير بنا ان نشير ايضا الى نظرية اخرى تتصل بصميم النمو النفسى للفرد ، وهى نمو ذاته ابتداء من الطفولة المبكرة حتى المراهقة ، وهذه النظرية هى نظرية البورت .

* مراحل نمو الذات عند البورت :

١ - الطفولة المبكرة : من المؤكد ان الطفل ليست لديه اية معرفة عن نفسه « كذات » وهذا ما تكشف عنه الملاحظات العديدة التى قام بها العديد من علماء نفس الطفل من امثال جان بياجيه وغيره . فالطفل لا يمكنه ان يميز بين ذاته والعالم الخارجى . فهو ينظر الى جسمه كما لو

كان شيئاً غريباً عنه ويلعب بأصابع قدميه كما لو كانت دميته ، أى أنه ليست لديه أية معرفة عن وجود ذات جسمية أو ذات اجتماعية . فالحدود الفاصلة بين ما هو جزء منه ، وما ليس جزءاً منه لم تتضح بعد ، ويحسن أن نفرق بين الشعور ، والشعور بالذات ، فهما ليسا مترادفين لا عند الطفل ولا حتى عند الراشد . فالطفل على الرغم من أنه يحس ويشعر بما يجرى حوله من حالات وتغيرات نفسية ، إلا أنه يفتقر في هذه المرحلة الأولى من عمره إلى الشعور بالذات . أما البالغ فلديه الناحيتان معا ، وإن كانتا غير متماثلتين : فهو يشعر ، كما أنه يشعر بذاته .

والطفل يكتسب الشعور بالذات بشكل تدريجي خلال السنوات الأولى من حياته . وهذه المرحلة الأولى من حياة الطفل والتي تشتمل على السنتين الأوليين يسميها بياجية باسم « المرحلة الحسية الحركية » وفيها يستقبل الطفل انطباعات من العالم الخارجى ، ويستجيب لهذه الانطباعات دون أن تكون هناك ذات وسيطة بين هذه الانطباعات وهذه الاستجابات . فهو يحس ويشعر ويستجيب للضغوط الواقعة على سطح الجلد ، ويستجيب للأصوات الهادئة الناعمة الصادرة عن الأم ، وردود الأفعال الحسية الحركية هذه تدخل في كل غير « متشكل » أو كل غير متميز من الذات والعالم الخارجى على حد تعبير بياجية .

ومع استمرار النمو يبدأ الطفل يكتشف جسمه . ففي حوالى الشهر الخامس أو السادس يمسك بأصابع اليدين والقدمين ويمسك بالأشياء الصغيرة المحيطة به . ولكن الأشياء والأصابع التى تقبض عليها هى شئ واحد بالنسبة إليه ، شئ واحد لم يتميز بعد إلى مكوناته . وهو عندما يحمل في قدميه ، يحاول أن يمسك بها وأن يضع أصبع قدمه في فمه ، وهو أن أصاب قدمه فهو يتألم دون أن تكون لديه أية فكرة عن أنه هو سبب ألمه . وقد تستثيره رؤية صورته في المرآة وهو في شهره الثامن تقريباً ويحمل فيها ويحاول اللعب معها دون أن يدرك أن هذه الصورة التى يراها هى صورته هو . والجدير بالذكر أن الطفل في العادة يميز صورة والديه في المرآة ، قبل أن يستطيع أن يميز صورته هو بوقت طويل .

ثم هو حين يبدأ يتنقل في أرجاء البيت بالزحف من مكان لآخر ، قد يصطدم بأشياء كثيرة تسبب له ألماً فيبدأ يدرك بالتدريج أن هناك أشياء خارجية جامدة ، وأن الاصطدام بها يسبب له ألماً . أى يبدأ يدرك أن هناك أشياء خارجية عنه . وهو يصل إلى فكرة الشئ الخارجى الذى « ليس هو » قبل أن يتمكن من أن يدرك أن له ذاتاً متميزة عن هذا العالم الخارجى بوقت طويل . وكما يدرك وجود الأشياء الخارجية قبل إدراكه لذاته ، فكذلك يدرك وجود الآخرين قبل إدراكه لذاته . فهو يتعرف على الوجوه المألوفة في البيت من الأبوين والإخوة ، كما يتعرف على الغرباء عن البيت . وهذا التعرف على « الغير » يسبق أيضاً التعرف على الذات.

ويذهب البورت إلى أن أول مظهر لفكرة الذات في هذه المرحلة الأولى هو « الإحساس بأن له جسماً » ، وإن هذا الجسم ، جسمه هو . فالطفل يستقبل سيلاً من الإحساسات العضوية الداخلية ، كما أنه يتأثر أيضاً بالكثير من المثيرات العديدة الموجودة في العالم الخارجى .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

وبالطبع لا يكون لهذه الاحساسات الجسمية أى اثر في تكوين الذات مالم تكن متكررة . ومعرفة هذا التكرار للاستجابات البسيطة المتلاحقة يتطلب نضجا مناسباً في اللحاء بشكل يسمح بالاحتفاظ بآثار الخبرات السابقة . وكما ينمو الاحساس بالذات الجسمية من الاحساسات العضوية المتكررة التي تترك آثارها في نفس الطفل فإنه ينمو أيضاً من الاحباطات المتكررة التي تصدر عن العالم الخارجي . فالاحساس بالذات الجسمية هو في نظر البورت وثيقة وجودنا ، بمعنى أن احساساتنا وحركاتنا تمدنا بمعرفة ثابتة عن وجودنا .

ولكن رغم ما للذات الجسمية من أهمية ، إلا أنها ليست كل شيء في تكوين فكرة الذات عند الطفل في هذه المرحلة الاولى من الحياة ، فهناك أفكار أخرى لها أهميتها .

هناك ثانياً : هوية الذات واستمرارها : فانت هو نفس الانسان الذي كنت عليه وانت في سن الثالثة أو الرابعة من عمرك ، رغم أن كل شيء يتصل بك ، حتى خلايا جسمك والبيئة المحيطة بك قد مرت بها تغيرات عديدة جداً . ثم أن كل فرد منا يتعرف على ذاته . فانا أتذكر بعض الافكار والاحداث التي مرت بذهني بالأمس ، وفي الغد سوف أتذكر بعض ما مر بي من افكار واحداث في يومي وأمسى . وأنا على ثقة أيضاً من أن هذه الافكار والاحداث تتصل بشخص واحد هو انا . ففكرة هوية الذات تعتبر بالغة الأهمية طالما أن التغير هو مع ذلك القاعدة الأساسية للنمو . فرغم ما يطرأ على أفعالنا وأفكارنا من تغير ، إلا أن الذات تبقى هي هي مستمرة ومتصلة .

وتلعب اللغة دوراً هاماً في هذا الصدد . فعندما يبدأ الطفل التحدث والتعبير عن رغباته يستخدم من الالفاظ ما يشير الى حاجاته ورغباته ، وأنه ، يعنى « هو » ، يريد أن يأكل أو أن يشرب أو أن يحصل على لعبة ما : فلفظ « انا » أو ما يشير اليه يعتبر عاملاً واضحاً في علاقته بالعالم الخارجي . ثم أن اسم الطفل الذي يتردد على سمعه في اليوم الواحد مرات عديدة ، قد يساعده أيضاً على أن يدرك ذاته كشيء متميز ومستقل . وهذا الاسم يكتسب معنى ودلالة بالنسبة للطفل في عامه الثانى . ومع الاسم تأتى المعرفة بالوضع المستقل ، وأن له وجوداً مستقلاً عن وجود الآخرين يتمثل في هذه الذات الجسمية التي بدأ يحس بوجودها . وإلى جانب الاسم هناك أشياء أخرى يمكن أن تعد بمثابة نقاط ارتكاز هامة للتعرف على الذات كالملابس والأشياء الخاصة . فبعض الاطفال في سن الثانية أو الثالثة ، قد يكشفون عن احساس بالهوية حين ينظرون الى بعض ممتلكاتهم الخاصة كالخذاء الجديد أو شريط الرأس أو الفستان الذي ترتديه .

والى جانب الذات الجسمية وهوية الذات واستمرارها ، هناك ناحية ثالثة تلعب دوراً هاماً في هذه المرحلة من تكوين فكرة الذات هى **رغبة الطفل في اثبات وجوده أو تقديره لذاته** . ففى سن الثانية أو الثالثة يحاول الطفل القيام ببعض الأشياء بنفسه ، كدفع المشاية بنفسه أو تناول بعض الأشياء واللعب بها بنفسه ، وينتقل في أرجاء البيت يستكشف ما فيه . ويجد لذة كبيرة في القيام بمثل هذه الألوان من السلوك والتي - أن أعيقت من جانب الكبار - يشعر الطفل كأنها ضربة موجبة لتقديره لذاته . بمعنى أن الذات قد أحبطت أو أعيقت ، ونتج عن ذلك

شعور بالضعف أو احساس بالفضب . ويحس الطفل بذاته ويكون واعيا بها لدرجة كبيرة . ويكون هذا السلوك واضحا لدى طفل هذه المرحلة حتى أن البعض يسميه الحاجة الى « الاستقلال الذاتي » . وهى سمة ملحوظة وبارزة فى فكرة الذاتية عند طفل الثانية او الثالثة . وهذا ما يتجلى فى ثورة المعارضة التى يتميز بها طفل هذه الفترة بالنسبة للطعام والملبس واطاعة الاوامر وكل ما يريده الاباءعادة . فهو ينظر الى اوامر الكبار كما لو كانت تهديدا يهدد تكامله . ولذلك تتضح عنده ظاهرة الرفض ، كما لو كان الرفض بقوله « لا » وسيلة لحماية الذات من كل ما يؤدى الى تحقيرها . ولمثل هذه الفكرة ذهب اريكسون فى دراسته للنمو النفسى عند الطفل فى حديثه عن المرحلة الثانية من مراحل النمو النفسى للطفل والتى سماها باسم الاستقلال الذاتى ، كماسمى الخطر الذى تتعرض له هذه المرحلة باسم الخجل والشك . والفكرتان - تلكما اللتان - اوردهما البورت واريكسون - قريبتان الى حد بعيد .

وعلى ذلك ، فالمظاهر المميزة لنمو فكرة الذات فى السنوات الاولى من حياة الطفل عند البورت هى :

١ - المظهر الاول : الاحساس بالذات الجسمية .

٢ - المظهر الثانى : هوية الذات واستمرارها .

٣ - المظهر الثالث : تقدير الذات .

ب - مرحلة ما قبل المدرسة :

لكن مرحلة ما قبل المدرسة - وهى الفترة ما بين الرابعة والسادسة - سرعان ما يفقد الطفل فيها هويته ويختلط عنده الوهم بالحقيقة ، ويسيطر على العا به النوع المعروف باسم « الالهامى » الذى يتوهم الطفل نفسه فيه فارسا او شريطيا مثلا ، ويخلق له من الوهم والخيال اصدقاء : اطفالا كانوا ام حيوانات . وفكرة الذات الجسمية تكون عنده اكثر وضوحا ، فجميع اعضاء جسمه هى ملك خاص به وحده .

كما أن طفل هذه المرحلة يكون « ذاتى المركز » الى حد بعيد . فالأطار الرجمى لتفكره هو ذاته . فالقمر يتبعه فى كل مكان وحيثما سارا ، والله موجود ليحفظه ويحميه ، كما أن وجهة نظره تعتبر مطلقة . فالآخرون يفكرون على نحو ما يفكر هو ، ولذا فهو ليس فى حاجة لان يعبر عن وجهة نظره أو يفسر أقواله وعباراته للآخرين . ولكن مركزية الذات هنا ليست قائمة على معرفة بالذات أو أنها تدور حول الذات ، وإنما هى تصدر عن الطبيعة الشخصية لتفكير الطفل فى هذه المرحلة فحسب .

ومن ثم فإن هذه المرحلة تتميز فى نظر البورت بمظهرين جديدين ، بالإضافة الى المظاهر الثلاثة السابقة التى تتميز بها السنوات الثلاث الاولى . وهذان المظهران هما :

٤ - المظهر الرابع : امتداد الذات واتساعها .

٥ - المظهر الخامس : صورة الذات .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

فالذات تتسع لتشمل أشياء كثيرة ، كما يلعب الاحساس بالملكية في نفس الوقت دورا هاما . فهذه الكرة كرتي ، وهذه الدراجة دراجتي وهذه أمي وهذا أخى وهذا بيتي . الخ . وكلها تصبح امتدادا للذات وتشير أيضا الى اتساعها لتشمل العديد من الأشياء . وبطبيعة الحال لا تتسع ذات الصغير في هذه المرحلة لتشمل كل ما يحيط به في دائرة عالمه الكبير على نحو ما نجد مثلا بالنسبة للكبار ، وإنما أساس هذا الاتساع الكبير الذى سوف يحدث فيما بعد يتم وضع بدوره في هذه المرحلة حينما يحس الطفل بتملك أشياء كثيرة .

وبالإضافة الى امتداد الذات واتساعها ، تأخذ صورة الذات في الاتضاح أكثر وأكثر . فمن طريق التفاعل المتبادل مع الكبار والوالدين يمكنه أن يقارن بين سلوكه الواقعى وما هو متوقع منه . فهو ولد مشاغب ، ووالداه يريدانه ولداه دانا مطيعا لطيفا . ولكن صورة الذات هنا ليست نامية على نحو ما هي في المراهقة . وعلى العموم فبدون فكرة الذات كما هي وكما يريد أن تكون عليه ، تكون موجودة في هذه المرحلة .

ج - مرحلة الطفولة المتأخرة : ومع دخول الطفل المدرسة الابتدائية أى في الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة ، يزداد احساس الطفل بهويته وبصورة ذاته . وبقدرته على امتداد الذات . وسرعان ما يتعلم الطفل أن ما هو متوقع منه خارج المنزل يختلف الى حد كبير عما هو متوقع منه داخل المنزل . فمستويات الرفاق في اللعب والمشى والكلام والملبس شيء جديد عليه . ثم هو يحاول أن يدمج نفسه مع جماعات الرفاق وأن يندمج مع الشلة وفي عالم الواقع ، كما يقل لعبه الايهامى ، ويزداد احساسه بذاته الواقعية . ولذلك نجده يرتبط بالمعايير الخلقية واحكام اللعب وقواعدها ويتبعها بكل دقة . ويكون راضيا عن نفسه اذا هو تكيف مع الواقع الخارجى والاحكام الخارجية وامتزج مع الشلة ونمت صورة ذاته .

وهذه الفترة هي أيضا فترة نمو عقلى . وهي فترة تتميز بالمزيد من الرغبة في المعرفة وحب الاستطلاع وكثرة الاسئلة والاستفسارات . وهذه هي بداية الاحساس بمظهر جديد من مظاهر نمو الذات ، وهو المظهر السادس عند البورت .

٦ - المظهر السادس : الذات منطقية عاقلة ووظيفة الذات هنا كوظيفة « الانا » عند فرويد التى تحاول أن تجد حلا ومخرجاً للمشكلات التى تخلقها النزاعات الغريزية والنزعات المكبوتة « الهو » ثم الواقع أو البيئة الخارجية ، ثم الاوامر والنواهي التى تصدر عن الوالدين والمجتمع (الانا الأعلى) . فوظيفة الذات العاقلة هي محاولة تجنب المشكلات والصعوبات التى تثيرها هذه النواحي الثلاث ، ولكنها بالطبع ليست دائما عاقلة تماما ، بل تكون أحيانا مجرد ذات دفاعية تحاول خلق المعاذير والتبريرات كى لا تجرح الذات . فهي تنكر العوائق الموجودة القائمة وتلمس وسائل الهروب ووضع الخطط التى هي مجرد حلول مريفة لمشكلات الحياة .

د - مرحلة المراهقة :

وأخيرا تأتي مرحلة المراهقة وفيها يبحث المراهق من جديد عن ذاته . فهو في طفولته المبكرة قد أحس بهويته ولكنه فقدتها ان شئنا القول في الأسرة وفي الشلة وفي الولاء لهما . والآن تصبح مشكلة المراهق هي البحث من جديد عن هويته .

وكثيرا ما تواجه المراهق في هذه الناحية صعوبات جمة تزيد من مشكلاته في هذه المرحلة . فأسلوب معاملة الوالدين له مرة كطفل ، ومرة كرجل ، من أسباب مشكلاته وعدم استقراره . فسلوكه وتصرفاته تكون أحيانا كسلوك الاطفال وتصرفاتهم ، ولكنه مع ذلك قد بلغ من الناحية الجنسية والجنسية مبلغ النضج الذي يكفي للنظر اليه كرجل .

وصورة المراهق عن ذاته تتوقف على الآخرين وتقبلهم أو نبذهم له . وثورة المراهق وتمردته على السلطة لهما علاقة هامة ببحثه عن هويته وذاته . أنها محاولته الأخيرة للاستقلال الذاتي . وقد يلجأ المراهق الى أساليب تكشف عن قلقه وعن بحثه عن شيء لم يصل اليه بعد . فالوان الزى التي يرتديها . وتصفيف شعره بالصورة التي يقوم بها ، وتقليده للابطال المختلفين ، كل ذلك تعبير عن القلق وعدم الاستقرار . وعادة ما ينظر الآباء الى مثل هذا السلوك وهذه الخبرات نظرة بعيدة عن الاحترام والتقدير للمراهق . ولذلك فهو يقوم به في الاغلب خارج البيت وفي صحة الزملاء .

ويكون الصراع حول الحاجات الجنسية واضحا ، وتتناقض وجداناته وعواطفه ويتذبذب أحيانا بين الايمان والالحاد . وقد يجد كثير من المراهقين في الدين حلا لمشكلاتهم ، كما تظهر أهداف المستقبل واضحة جلية ، ويحتل التفكير في المهنة التي يعد نفسه لها في المستقبل جزءا كبيرا من تفكيره . كما أنه يرسم للمستقبل خطة موضوعة . وهو بهذا يدخل بعدا جديدا على ذاته لم يكن موجودا من قبل في الطفولة . وغالبا ما تكون آمال الشاب بعيدة ومستويات طموحه عالية جدا . ولكن مع تقدم السن سرعان ما يتكشف البعض أن ما لديهم من قدرات واستعدادات أقل مما لديهم من آمال وأحلام ، فيعدل من صورة ذاته ومن مستويات طموحه بما يتفق وقدراته واستعداداته . وهذا دليل على مستوى عال من النضج ، وعلى هذا النمو يضيف البورث البعد السابع في تكوين الذات ونموها وهو :

٧ - المظهر السابع : الجوهر المميز .

وهذا المظهر الأخير يتميز بالاتجاه والقصد المعرفي مما يساعد على تحديد أهداف الفرد . وليس من الضروري أن تكون الأهداف جامدة وثابتة ، ولكن يوجد هدف رئيسي يهدف الفرد الى تحقيقه فقط . وهذا المظهر الهام في نمو الذات لم يكن موجودا من قبل . فالطفل الصغير الذي يريد أن يكون طيارا أو طبيبا ليس لديه الاتجاه المتصل والجهد المتكامل لبلوغ ذلك وتحقيقه . أما الشاب فهو يرسم ويخطط ويحس بالهدف وينشط الى تحقيقه . وبالطبع يحتاج هذا كله الى قدر من النضج في الشخصية قد لا تجده عند جميع المراهقين . فالبعض قد

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

يصل الى مرحلة المراهقة دون أن يكون لديه احساس واضح بالهدف . وهؤلاء في الاغلب لا تكون شخصياتهم ناضجة ، ولذا ، فاحساسهم بالذات لا يزال فجاً اولياً .

ولكن هذه المظاهر المختلفة للذات ليست متباعدة . فهي جميعاً حالات تكشف عن الذات على نحو ما نحسها ونشعر بها . وكل واحدة منها مرحلة من مراحل نمو الذات ويمكن أن نربطها بعضها ببعض تحت اسم واحد . وقد اختار البورت لها اسم الذات الممتدة المميزة Proprium . وقد أشار البورت الى أنه لم يسمها الذات وكفى ، لان معظم الكتاب يطلقون اسم الذات أو الانا على مظهر واحد أو مظهرين من المظاهر السابقة . ولهذا فهو يفضل أن يضع لها تسمية جديدة تضم هذه المظاهر المتعددة للذات .

٨ - المظهر الثامن : الذات العارفة

وبعد أن حدد البورت الوظائف الموحدة المميزة المتنوعة ، والتي تعتبر موجودة لدينا كلها يتساءل عما اذا كانت لدينا ، بالإضافة الى ما سبق ، ذات عارفة يمكن أن تضاف وظيفتها الى كل الوظائف الاخرى للذات الممتدة وتتمتعها وتذكرها ؟ لقد ذهب وليم جيمس الى أنه لا توجد لدينا مثل هذه الذات العارفة . فهي لا توجد كشيء له كيان يمكن تمييزه عن المجموع الكلي للخبرات ، أو يمكن انتزاعه من مجرى هذه الخبرات . فكل لحظة شعورية ترتبط باللحظة السابقة ، وعلى هذا فالذات العارفة توجد مضمحلة على نحو ما ، في قوله : « الافكار نفسها هي الذات المفكرة » .

أما معارضو جيمس فيقولون أن مجرد سلسلة من الخبرات لا يمكن أن تتحول هي ذاتها الى شعور أو وعي بهذه السلسلة كوحدة ، كما أن الافكار الماضية لا يمكن أن تؤخذ بذاتها على أنها هامة أو مثيرة للاهتمام ، ما لم تكن هناك ذات تثير اهتمامها أو تكون هامة بالنسبة اليها . فالذات العارفة هي المحك النهائي ، وهي التي تنبثق كمستلزم نهائي لا مفر منه .

وسواء أخذنا برأى جيمس أو برأى معارضييه ، فمن الملاحظ أن هناك اتفاقاً بينهم في ناحية أن الوظيفة المعرفية ضرورية وحيوية بالنسبة لنمو الذات . فنحن لا نعرف أشياء فحسب ، بل أننا نعرف ونتعرف على الملامح التجريبية لذاتنا الموحدة المميزة ، اننى أنا الذى لدى احساسات جسمية ، وأنا الذى الاحظهويتى من يوم الى آخر ، وأنا الذى الاحظ وافكر في توكيد ذاتى وامتدادها ، وفيما أبدية من تبريرات ، كما أراقب اهتماماتى وكفاحى وهكذا . أفكر في وظائفى الخاصة الموحدة المميزة ، واكاد أدرك وحدتها الاساسية ، وأشعر بارتباطها الوثيق على نحو ما بالوظيفة العارفة ذاتها » .

ومع ذلك يتدارك البورت الامر ويرى خطورة هذا القول اذا التزمنا بوجهة النظر العلمية ، فاذا صرحنا بأن الذات «عامل مستقل» داخل الشخصية هي التي تعترف وتريد وتهدف الخ ، السنا في خطر اذن من خلق شخصية داخل الشخصية ؟ فاذا تساءلنا مثلاً لماذا يعمل هذا الشخص بجد ، فانا لا نفسر شيئاً اذا قلنا لأن ذاته تريد بذلك . فقولنا أن الذات

تفعل هذا أو اذك ، وتريد هذا أو ذاك ، وترغب في هذا أو ذاك ، انما يثير مجموعة من المشكلات الصعبة التي هي اقرب الى الفلسفة منها الى العلم . ولذا يذهب البورت الى انه في بناء الشخصية - اذا فهم فهمها صحيحا بما في ذلك البناء الموحد المميز - سوف نجد التفسيرات التي تبحر عنها . فليس من الحكمة ان يتخلى عالم النفس عن مسؤولياته في تفسير مظاهر السلوك المختلفة ويعزو مشكلاتنا الى وسائط داخلية أو الى عامل خفي يحرك الخيوط على حد تعبيره . واذا كان من الممكن - لاغراض فلسفية معينة - ان ننظر الى الذات كوحدة متصلة ثابتة أو ان نهملها الخلود مثلا ، فاننا في علم النفس يجب ان نتجنب الفصل القاطع بين الذات « كعامل » ووظائف الانظمة الموحدة المميزة داخل الشخصية .

تلك هي المراحل الثمان التي يمر بها « نمو الذات » منذ الطفولة المبكرة حتى المراهقة عند البورت ، وليس من العسير علينا أن نجد الكثير من أوجه التشابه بينها وبين مراحل النمو النفسي عند اريكسون ، وان كانت الاسس النظرية التي يستند اليها كل منهما مختلفة الى حد ما .



رابعاً - نظرية النمو عند جان بياجيه :

وكما هو الحال بالنسبة لفرويد ، فان جان بياجيه اهتم ايضا بدراسة المراحل العامة التي يمر خلالها الفرد في نموه النفسي العقلي . فنظريته نظرية شكلية تهدف الى وصف المراحل المختلفة للنمو . ولكنه - على عكس فرويد الذي اكد نمو العمليات الدافعية والانفعالية كالدوافع الجنسية والشاعر المتصلة بها ، فان بياجيه ركز اهتمامه كله على النمو المعرفي ، اعنى العمليات الفعلية المميزة للنمو من الطفولة حتى المراهقة والرشد . وبالإضافة الى ذلك ، فان اسلوب الدراسة والملاحظة الذي استخدمه كل من فرويد وبياجيه كان مختلفا ، مثلما اختلفت مفاهيمهما في البحث . لقد درس فرويد النمو النفسي في الطفولة اساسا من خلال وصف الراشدين لحياتهم الوجدانية أثناء فترة الطفولة، وذلك خلال جلسة العلاج النفسي ، اما بياجيه فقد قام بالملاحظة الدقيقة لما يقوم به الطفل من سلوك ودون تدخل مباشر من جانبه . كان يعطى الاطفال مشكلات لحلها ويفحص الطرق التي يتبعونها في حل هذه المشكلات في اعمار زمنية مختلفة . وجزء كبير من اعمال بياجيه الاولى ، والتي نشرت سنة ١٩٢٦ في كتابه الاول « اللغة والفكر عند الطفل » كانت بمثابة تقرير للملاحظات الدقيقة التي قام بها على السلوك اللغوي التلقائي للطفل . كما ان كثيرا من مظاهر السلوك التي اوردها في دراساته الاولى والتي امتلأت بها ملاحظاته العديدة التي وردت في كتابه « ميلاد الذكاء عند الطفل » لم تكن نتيجة تدخل مباشر من جانبه كمجرب وباحث . ومع ذلك فقد تضمنت معظم دراساته واحدة أو اكثر من صور التدخل التجريبي البسيطة ، والتي تتلخص في ادخال نوع من المثيرات في وقت معين خلال النشاط التلقائي للطفل . ومن هنا كانت معظم دراساته تحمل الطابع الشكلي للتجارب الدقيقة ، بمعنى

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

ان السلوك موضوع الدراسة منذ البداية بمثيرات معينة يدخلها المجرى . ومن الممكن أن نميز أنواعا مختلفة من الأساليب التي اتبعتها على ضوء أهمية المثيرات والاستجابات اللفظية في الموقف الاختباري .

ولقد كانت وجهة نظر بياجيه - كما هو الحال بالنسبة لفرويد - متسقة مع اتجاه داروين في التكيف . فهو ينظر الى السلوك كعملية تكيف مع الحياة ، عن طريقها يؤكد الفرد حالة التوازن بين نفسه والبيئة . فالتغيرات التي تحدث في البيئة تؤدي باستمرار الى اضطراب هذا التوازن، ومن الممكن أن يعود الفرد الى حالة التكيف فقط من خلال تغيير الفرد لنفسه (أى الملاءمة مع البيئة) أو معالجة البيئة (التمثيل) وينمو التفكير العقلى من خلال عملية التغير التكيفى المستمر بين الفرد والبيئة .

دراسة تطور النمو المعرفى عند بياجيه :

الهدف من هذه الدراسة هو وصف النمو العقلى عند الطفل من الميلاد حتى النضج . لقد قسم بياجيه النمو العقلى عند الطفل الى اربع مراحل أساسية periods ، مشيرا بذلك الى الحقب النمائية الكبرى ، ثم قسم كل مرحلة منها الى مراحل فرعية stages ، مشيرا بذلك الى التقسيمات الفرعية الصغرى لكل مرحلة من المراحل الكبرى . فالمرحلة الحسية مثلا تنقسم الى ست مراحل فرعية لكل منها مميزاتها الخاصة . وسوف نقدم في دراستنا لهذا الموضوع تلخيصا موجزا للمراحل الأربع . ولن يريدها التوسع في هذا المجال ، عليه الاطلاع على الكتب العديدة التي كتبها بياجيه وتلاميذه في هذا الصدد .

المرحلة الاولى : المرحلة الحسية الحركية - من الميلاد حتى الثانية Sensorimotor Period

والمرحلة الحسية الحركية للنمو تقابل من حيث الزمن الفترة المحددة للطفولة المبكرة التى تشمل السنتين الاوليين من حياة الطفل . والسمة البارزة لهذه الفترة ، كما يراها بياجيه ، هى أن الطفل فيها يكتسب المهارات والتوافقات البسيطة التى من النوع السلوكى . والصور الاجمالية العامة في هذه المرحلة المبكرة صور حسية حركية . فهى تنظم المعرفة الحسية وتؤدي الى السلوك التكيفى ، ولكنها لا تكون مصحوبة بأى نوع من التصورات المعرفية او الذهنية للسلوك أو البيئة الخارجية . والطفل في خلال هذه المرحلة ينتقل من مجرد وليد يعمل على مستوى الفعل المنعكس والمستوى المركز حول الذات الى مستوى متسق نسبيا من الافعال الحسية الحركية ازاء بيئته المباشرة التى يحيا فيها . ولكن التنظيم في هذه المرحلة تنظيم « عملى » بمعنى أنه يتضمن القيام بالتوافقات الادراكية والحركية مع الاشياء ، أكثر مما يتضمن المعالجات الرمزية لهذه الاشياء .

وفي اثناء هذه المرحلة يكتسب الطفل القدرة على أحداث التناسق بين المعلومات الصادرة عن الأجهزة الحسية العديدة ، وكأنها مصادر مختلفة للمعلومات عن الشيء الواحد أكثر مما هي مصادر غير مترابطة . فالطفل يصبح قادرا على النظر الى الشيء الذى يستمع اليه ، كما أن قبضه على الاشياء وسيره توجهه الادلة السمعية والبصرية واللمسية .

وثمة مظهر آخر لاكتساب الطفل في هذه المرحلة الحسية الحركية يتضح في قدرته على العمل كما لو كان العالم الخارجى مكانا ثابتا ، وليس شيئا يتوقف وجوده على ادراكه له . فالطفل يصبح قادرا على البحث عن الاشياء التى اختفت من امامه ، ويبحث عنها على أساس معرفته بالمكان الذى ذهبت اليه او اختفت فيه . كما أن من الممكن أن يتخذ طريقا - فى بحثه عن الشيء - غير الذى أخذه الشيء وكان لديه معرفة بالمجال المحيط تسمح له باتخاذ طرق عدة توصله لنفس المكان . كما أن فى استطاعته أيضا أن يعود الى النقطة التى بدأ منها ، وربما أخذ طريقا يختلف عن الطريق الذى اتخذه أول الامر .

ثم انه يقدر على القيام بسلوك موجه نحو هدف ومحكوم منذ البداية بشئ من القصد . فمن الممكن أن ينظم معا عمليتين أو ثلاثة بقصد الوصول الى نقطة النهاية فى سلسلة ما . كما يمكنه - قرب نهاية المرحلة - أن يقوم بأعمال جديدة لم يحاول القيام بها من قبل للوصول الى أهداف لم يكن فى استطاعته الوصول اليها . وبعبارة أبسط يكون فى مقدوره أن يجرب أشياء جديدة ويختبر صوره الاجمالية العامة الواحدة تلو الأخرى ، كما لو كان يبحث عن الامكانيات السلوكية للشئ ففى امكانه أن يغير افعاله تلقائيا ومختارا .

وتعد كتبه الثلاثة الآتية المصادر الرئيسية لهذه المرحلة . الكتاب الاول « ميلاد الذكاء عند

الطفل » حيث قدم فيه ملاحظاته عن نمو السلوك التكيفى عند الطفل ، كما اشار الى النمو التدريجى للصور الاجمالية الحسية الحركية خلال فترة الطفولة المبكرة . وقد تركزت أبحاثه فى هذا الكتاب على الملاحظات الدقيقة والمتعمقة التى استخدم فيها أساليب التجريب البسيط على اطفاله الثلاثة « جاكين ولوسين ولوران » خلال فترة طفولتهم المبكرة منذ أكثر من اربعين عاما . اما الكتاب الثانى فهو « تركيب الواقع عند الطفل » الذى قام فيه بتحليل معرفة الطفل وكيف يعكس سلوكه الافتراضات العديدة عن طبيعة الاشياء والزمان والمكان والسببية . وفى الكتاب الثالث « اللعب والاحلام والتقليد » ففيه يصف نمو اللعب والتقليد خلال فترة النمو الحسى الحركى . وفى صورة موجزة للغاية يمكن ان نقدم الملامح الرئيسية للمراحل الستة الفرعية التى تشتمل عليها المرحلة الحسية الحركية :

المرحلة الفرعية الاولى (من صفر الى شهر) : لا يظهر فيها شئ كثير الى جانب الافعال المنعكسة التى يولد الطفل مزودا بها .

المرحلة الفرعية الثانية (من شهر الى ٤ شهور) : وفيها تبدأ الانشطة المنعكسة العديدة تخضع لتعديلات مستقلة نتيجة التجربة والخبرة وتناسق بعضها مع بعض بطرق متعددة .

المرحلة الفرعية الثالثة : (من ٤ - ٨ شهور) : وفيها يبدأ الطفل القيام بأعمال موجهة نحو الاشياء والاحداث خارج حدود جسمه بصورة أكثر تحديدا . فهو فى محاولاته اعادة ظهور الآثار البيئية التى حققها عفوا وعن غير قصد من قبل ، يكشف عن نوع من التبشير بالقصد أو الاتجاه نحو هدف .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

المرحلة الفرعية الرابعة : (من ٨ - ١٢ شهرا) : وفيها يتضح القصد بشكل ملحوظ محدد على نحو ما يتجلى في الوسائل والغايات الاولى .

المرحلة الفرعية الخامسة : (من ١٢ - ١٨ شهرا) : واذا كان الطفل في المرحلة الرابعة يتنوع بأنماط السلوك العادى والمألوف ويستخدمها كوسائل في المواقف الجديدة ، فانه في هذه المرحلة يجرب ليكتشف وسائل جديدة .

المرحلة الفرعية السادسة : (من ١٨ شهرا الى سنتين) : وفيها يبدأ الطفل القيام بتصورات داخلية رمزية للمشكلات الحسية الحركية ، مخترعا الحلول عن طريق سلوك المحاولة والخطأ الضمنى ، أكثر منه عن طريق السلوك الصريح . وبحدوث هذه التصورات الاولى المبدئية يكون الطفل قد تجاوز أساسا مرحلة النمو الحسى الحركى ليدخل في مرحلة ما قبل العمليات .

ويكشف الطفل قرب نهاية هذه المرحلة الاولى من المراحل الكبرى ، عن استبصار وفهم ملحوظ بالبيئة التى يعيش فيها . ففي امكانه استخدام الاداة للوصول الى الاشياء . كما يمكنه التنبؤ بالنتائج المباشرة نسبيا لما يحدث من افعال ، وان يدرك اسباب الاحداث التى تحدث . ويمكنه ايضا ان يستخدم الآخرين كعوامل مساعدة لتحقيق النتائج التى يريد بها . وهذه القدرات كلها قدرات محدودة . ولكن مجرد كونها موجودة يعتبر في حد ذاته انجازا في هذه المرحلة . ولتحقيق هذه الانجازات يجب مواجهة بعض المتطلبات الهامة التى منها :

١ - اكتساب صور اجمالية عامة (سكيمات) تكون مضبوطة داخليا وقابلة للانتقال . فالطفل يجب ان يكتسب ذخيرة من الصور الاجمالية العامة التى تعمل بهدوء خلال قدر من الضبط الداخلى ، كما يجب ان تكون قادرة على الانتقال ايضا . فكل صورة اجمالية يجب ان تكون مترابطة داخليا باتساق وانتظام . فالسلوك هو تتابع افعال حركية يؤدى كل فعل منها وبهدوء الى الفعل الذى يليه . وهذه السهولة في اداء الوظيفة تتضمن ما أسميناه بجودة الضبط الداخلى . اما قابلية الصور الاجمالية للانتقال والحركة فتتضمن قابليتها للتكيف بالنسبة لمجموعة من المواقف والاشياء . فطفل الثانية يمكنه ان يلتقط الاشياء بشئ من الدقة ، ويمسك كل شئ بدقة وسهولة وبلا تردد ، وان كان القبض على الاشياء يتغير ويتكيف تبعا للظروف المختلفة .

ب - مفهوم الواقع : وبالإضافة الى ما يجب ان يكون لدى الطفل من ذخيرة الصور الاجمالية العامة ، فمن الضرورى ان يميز الخصائص الرئيسية لبيئته . ففي طفولته الاولى يفترض ان الاشياء الخارجية لها صفة الدوام والاستمرار النسبى ، وانها تستمر في الوجود حتى ولو لم تصبح موضوعا لادراك مباشر . فالمعرفة الحسية تتغير تغيرا جوهريا حين يفلق الطفل عينيه او يدير رأسه او عندما تتحرك الاشياء ذاتها في البيئة او تغير شكلها . ويسمى بياجيه هذا الافتراض بهوية الاشياء الدائمة باسم « مفهوم الشئ » . فعندما ينظر الطفل بعيدا عن الشئ ، او عندما يختفى الشئ عن نظره ، يجب ان يكون الطفل قادرا على الرجوع اليه والبحث عنه وتوقع ظهوره ثانية . والمادة الاولى لهذه السمة من سمات النمو هى استجابة الطفل لاختفاء الاشياء من مجال

ادراكه . ومع ذلك ، فليس يكفي مجرد أن يعرف الطفل أن الشيء المختفى لا يزال موجودا ، بل يجب أن يكون قادرا على تنظيم معرفته عنه حتى يكون بحثه وتنقيبه مناسباً . ومعنى ذلك ، أنه يجب أن يفهم أو يدرك أن الأشياء والأفعال مستقرة في مكان وزمان متصلين ، وأن هذا المكان الذي يوجد فيه يحوى الأشياء كما يحوى جسمه أيضاً . والحقيقة أنه يعمل كما لو كان جسمه شيئاً في المكان شبيهاً ببقية الأشياء الأخرى .

ج - التعرف على السبب والنتيجة : وبالإضافة إلى ما لديه من ذخيرة الصور الإجمالية وفكرته عن المكان الخارجى ، فمن الضروري أن يكون قادرا على معالجة مشكلات تتضمن السبب والنتيجة . ومرة أخرى ، قد يبدو الأمر بالغ الصعوبة عندما نحاول تحديده . ذلك أن العلاقة العلية بين حادثتين يتم ادراكها فقط خلال أدلة معينة مثل التجاور والتقارب المكاني في تتابع الأحداث الوسيطة . ولكن واحدة من هذه ليست مؤكدة تماماً . فالطفل قد يرفس قدمه في الهواء ، وقد ينجم عن ذلك حركة كرة موجودة إلى جوار قدمه . ومع ذلك فليس من الضروري أن يؤدي نفس الفعل إلى نفس النتيجة . إلا أنه إذا أمكن للطفل أن يحدث مرات عديدة نفس النتيجة ، فقد يسلك على نحو كما لو كان يعتقد أن رفس القدم يحدث بطريقة آلية حركة الكرة . ومن الملاحظ أنه قرب نهاية هذه المرحلة يصبح الطفل أكثر وعياً ومعرفة بالأحداث الوسيطة ، كما يحدث تقدم ملحوظ في التعرف على العوامل الخارجية المتضمنة في تتابع العلي .

المرحلة الثانية : مرحلة التفكير التصورى - من الثانية حتى السابعة Preoperational Period .
ويلى المرحلة الحسية الحركية مرحلة أخرى تستغرق عدة سنوات تنمو خلالها بالتدريج الصورة المعرفية الداخلية للطفل عن العالم الخارجى وقوانينه وعلاقاته الكثيرة . وتسير هذه المرحلة بطريقة تدريجية : فالصورة الإجمالية التصورية الأولى هي مجرد نسخة داخلية للصور الإجمالية الحسية الحركية . ومع ذلك وبالتدريج ، تنتظم الصور الإجمالية التصورية في أنظمة مترابطة يسميها بياجيه ادائية أو إجرائية operational . وهذا معناه أن الأفعال الداخلية التي هي عناصر النظام تخضع لقوانين عقلية معينة كالمجموعات والتجميعات . وحين يحدث ذلك فإن الطفل يكون قد وصل إلى مرحلة العمليات العيانية Concrete operations .

ومرحلة ما قبل العمليات هي أساساً مرحلة انتقالية لا تتميز بحدوث أى توازن أو إثبات .
فنهاية المرحلة الحسية الحركية تمثل نوعاً من التوازن على المستوى السلوكى ، كما أن مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية (المرحلة الثالثة) تمثل توازناً جديداً على مستوى أعلى ، بينما هذه المرحلة الثانية هي انتقال بين المرحلتين الأولى والثالثة . وإذا توخينا الدقة ، يمكن القول بأن بياجيه قد قصر نفسه على مراحل ثلاث فقط من مراحل النمو الفكرى . وهو بالفعل فعل ذلك في بعض كتبه ، وهي : المرحلة الحسية الحركية التي تنتهي بالسنة الثانية ، ومرحلة العمليات

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

المحسوسة أو العيانية والتي تنتهى عادة باكتساب قوانين التجميع والمجموعات المختلفة ، ثم مرحلة العمليات الشكلية والتي تبدأ عادة من الحادية عشرة أو الثانية عشرة . وكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث السابق الإشارة إليها تتميز ببلوغ حالة من التوازن والثبات . يميزها عن غيرها من المراحل .

وان كنا من أجل التوضيح سنأخذ بفكرة جعل « مرحلة ما قبل العمليات » مرحلة قائمة بذاتها رغم كونها انتقالية .

وفي هذه المرحلة نلاحظ وقوع الطفل في أخطاء ظاهرة واضحة في مجال تفكيره التصورى أو العقلى . فهو يقع في تناقضات ظاهرة أحيانا . فقد يذكر في لحظة ما أن الشيء (أ) أكبر من الشيء (ب) ، ثم يعود بعد ذلك ، فيقول أن الشيء (ب) أكبر من الشيء (أ) دون أن يدرك التناقض الظاهر بين هذين القولين .

وفي هذه المرحلة أيضا يقوم الطفل بمحاولاته الأولى غير المنظمة نسبيا في الاتصال بعالم الرموز، هذا العالم الجديد الغريب بالنسبة إليه . ويميز بياجيه أحيانا مراحل فرعية ثلاثا داخل هذه المرحلة الثانية الكبرى وهى :

١ - بدايات التفكير التصورى (من ٢ - ٤ سنوات) .

ب - التصورات أو الحدوس البسيطة (من ٤ - ٧ سنوات) .

ج - التصورات أو الحدوس المفصلة (من ٧ - ١١ سنوات) .

واذا نظرنا بدقة الى طبيعة التصورات ، نجد أن أساس عملية التصور هى القدرة على التمييز بين الدال Signifiant و « المدلول عليه » Signifie .

ومن ثم القدرة على استدعاء أحدهما والاستدلال عليه بمجرد ظهور الآخر أو آثاره . وقد أطلق بياجيه على هذه العملية اسم « الوظيفة الرمزية » La fonction symbolique . وعلى الرغم من إدراكه أن الطفل فى المرحلة الحسية الحركية يكشف عن نوع من الاستدلال البسيط ، كاتخاذ الدليل الإدراكى علامة على أن شيئا ما على وشك الظهور - إلا أنه لا يمكنه القيام بالتمييز بين الدال والمدلول عليه ، هذا التمييز الذى يحدد لنا امتلاك الطفل للوظيفة الرمزية والتي تسمح له بالانتقال بين الدكاء الحسى الحركى والدكاء التصورى . فطفل المرحلة الحسية الحركية لا يمكنه أن يستدعى ذهنيا الدال (سواء كان كلمة أو صورة) . وابتداء من سن السنة والنصف وظهور اللغة عند الطفل ، نلاحظ تمايزا تدريجيا بين الدال والمدلول عليه . فالطفل يمكنه أن يستدعى صورة الشيء الغائب بواسطة شيء آخر (أى بالتصور) . وهذا التمايز بين الدال والمدلول عليه هو أساس ظهور الرمز . والرمز هو الذى يسمح لنا بالقيام بعملية التصور . فعن طريق قطعة الخشب يتصور الطفل وجود سيارة يتمثل فيها لعبته .

وليس ثمة شك أن الذكاء التصوري بامتلاكه الوظيفة التصورية يختلف اختلافا واضحا عن الذكاء الحسى الحركى الذى يفتقر إليها . ويمكن أن نوجز هذه الفروق فى النقاط التالية :

أولا : أن الذكاء الحسى الحركى يصدر عن الأفعال أو الإدراكات المتتابعة التى يدركها الطفل الواحدة تلو الأخرى. أما التفكير التصورى فلديه القدرة من خلال وظيفته الرمزية هذه على ادراك مجموعة من الأحداث المنفصلة فى صورة واحدة . فهو وسيلة أسرع وأكثر مرونة ، يمكنه استدعاء الماضى وتمثل الحاضر والتنبؤ بالمستقبل فى فعل واحد منظم . ومختصر زمنيا .

ثانيا : أن الذكاء الحسى الحركى يستند أساسا الى المكان القريب ، أى المكان الذى يمكن للطفل ادراكه فى المحيط الذى يوجد فيه . فهو لا يستجيب اذن للمكان البعيد (كالجبال والنجوم باستثناء القمر) وبالمثل يستند الذكاء الحسى الحركى الى الزمان الحاضر . فليس هناك توقع سوى لمستقبل مباشر قريب ، كما أن ليس هناك استجابة ، سوى لماض قريب حيث يواصل القيام بعمل ما تركه منذ لحظة وجيزة . أما التفكير التصورى ففيه يمد الطفل مجال المعرفة الى مكان بعيد ، وإلى زمان يتجاوز الماضى والمستقبل القريبين ، أى أنه يتميز بالامتداد فى الزمان والمكان .

ثالثا : لما كان الذكاء الحسى الحركى ذكاء فعليا أو ذكاء عمليا ، فإنه يقتصر على تتبع الأهداف المحسوسة للفعل أكثر من طلب المعرفة والبحث من حيث هما كذلك . أما التفكير التصورى فهو بطبيعته يهتم بتنظيم أفعاله من حيث هى قائمة على أشياء ، أكثر من اهتمامه بتسجيل « النجاح أو الفشل التجريبيين » . فالتفكير التصورى يهتم اذن بتأمل الفعل أكثر من اهتمامه بالفعل نفسه .

رابعا : وبواسطة قدرته على الخروج من نطاق الحاضر المباشر ، فإن التفكير التصورى يمكنه أن يمد مجاله الى خارج نطاق الأفعال المحسوسة الواقعية للذات ، وخارج مجال الموضوعات الواقعية المحسوسة فى البيئة . وهدف هذا التحرر من الواقع المحسوس هو المعالجة الرمزية لأحداث غير محسوسة (على نحو ما يحدث فيما بعد فى التفكير العلمى والرياضى عند الكبار) .

خامسا : لما كان الذكاء الحسى الحركى قاصرا على الأفعال الحسية الحركية أكثر من تصور الواقع ، فهو بالضرورة حادث خاص أو مسألة فردية . أما الذكاء التصورى فهو من ناحية أخرى يمكنه أن يصبح - بل هو يصبح بالفعل - اجتماعيا عن طريق مجموعة الرموز المتعارف عليها والتى يشارك فيها أفراد الجماعة كلها .

وعلى ذلك ، فظهور الوظيفة الرمزية - أى القدرة على التمييز بين الدال والمدلول عليه - والقيام بعملية الاستدلال بينهما ، يؤدى الى صورة عقلية ذات امكانيات أبعد مدى بكثير من أية صورة من صور الذكاء الحسى الحركى .

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نقدم باختصار أهم الخصائص المميزة لمرحلة التفكير التصوري:

١ - **مركزية الذات** : فطفل مرحلة التفكير التصوري أو مرحلة ما قبل العمليات ، يكون - بالنسبة للتصورات - مركزي الذات ، تماماً مثلما كان طفل المرحلة السابقة بالنسبة للأفعال الحسية الحركية . ولصفة التمرکز الذاتي في مرحلة ما قبل العمليات ، نتائج كثيرة أهمها : أن الطفل يكشف باستمرار عن عجز نسبي في الأخذ بعين الاعتبار بوجهة نظر الغير كأحد الاحتمالات الممكنة ، وأن يحاول أن ينسق وجهة نظره مع وجهات نظر الغير .

ويمكن أن نوضح ذلك بمثال بسيط من الخبرات التي تمر بنا في طفولتنا وتتصل مع **تقدم السن بالفرد** . أن من يركب منا سيارة مثلاً في ليلة مقمرة ، يبدو له القمر كما لو كان يسير معه ويتبعه . ونحن جميعاً نعلم بطريقة أو بأخرى أن هذا مجرد خداع ، وأن من بين المبررات التي تدفعنا الى عدم الأخذ بمثل هذا الاعتقاد الذي يلزمنا في طفولتنا المبكرة ، أن نفترض مثلاً أن هناك شخصين يركبان سيارتين تسيران في اتجاهين متضادين . فإذا أصر كل منهما على أن القمر يتبعه ويسير في اتجاهه هو ، كان معنى ذلك أن القمر يسير في نفس الوقت في اتجاهين متضادين . وفي هذا بالطبع تناقض واضح . ومثل هذه النظرة تتطلب من الفرد فصل المظهر عن الحقيقة . فالقمر ثابت ونحن الذين نسير ونتحرك . ومثل هذا الفصل بين المظهر والحقيقة يتطلب من الفرد الأخذ بعين الاعتبار لوجهات نظر الغير ، الأمر الذي لم يصل اليه الطفل في تصوراتهِ بعد ، وشبيه بهذا أيضاً ما نجده لدى الطفل في مجال اللغة والاتصال حيث يبدو أنه يقوم بجهد قليل حقاً لتكييف لفتته وحديثه لحاجات المستمع .

ونتيجة لافتقار الطفل الى الأخذ بوجهة نظر الغير ، نجده لا يحس بالحاجة الى تبرير أفكاره للآخرين أو البحث عن التناقضات الممكنة التي تكمن في أفكاره ومنطقه . فهو حين ينقل فكرة أو أفكاراً الى أطفال آخرين ينقلها كما لو كان الآخرون يفهمون أفكاره ووجهة نظره . ويعتقد بياجيه اعتقاداً جازماً أن الطفل يصبح على معرفة بنفسه ويصبح قادراً على تبرير أفكاره والارتباط بالمعايير المنطقية والاجتماعية من خلال التفاعلات المتكررة مع الآخرين ، وبخاصة تلك التي يجد فيها الطفل نفسه مضطراً المرة تلو المرة أن يعرف دور الآخرين ، وأن يستمع لوجهة نظرهم وأن يدخلها في اعتباره . ومن هنا ، فإن التفاعل الاجتماعي هو الذي يحطم مركزية الذات عند الطفل . ومع ذلك ، فهذا التمرکز حول الذات طور من اطوار النمو لا بد أن يمر به طفل هذه المرحلة .

٢ - **فكرة الثبات** ومن الفروق الهامة بين الإدراك الحسي والتفكير التصوري أن التفكير يربط الماضي بالحاضر مما يساعد تفسير المشكلة التي تواجه الفرد ، بينما الإدراك يتحدد بالمادة التي تقع تحت حواس الفرد بشكل مباشر . وهذه السمة للتفكير تعتبر ذات أهمية

في نظر بياجيه ، وتكوين المفهوم يعتبر امرأها بالنسبة لتفكير الطفل في هذه المرحلة . واحدى المشكلات الكبرى بالنسبة لطفل هذه المرحلة قد تكون عدم قدرته على ادماج المادة التي يستمدّها من خبراته الماضية من أجل الوصول الى احكام صحيحة يستحيل الوصول اليها بدونها . ولقد عالّج بياجيه موضوع الثبات في مجالات متعددة فدرس فكرة الثبات المكاني وثبات الكم المتصل وثبات الكم المنفصل، ويكفى أن نشير الى مثال واحد وليكن ثبات الكم المتصل من أجل أن نعرف الى أي حد يجد الطفل صعوبة في الوصول الى هذه الفكرة .

« اعطيت قطعتان من الصلصال من نفس الشكل ونفس الحجم ونفس الكم . شكلت احدهما على هيئة قرص مستدير والاخرى على هيئة اسطوانة مستطيلة . ثم وجه السؤال الى الطفل : هل نفس كمية الصلصال واحدة في الاثنتين (ثبات المادّة) ؟ وهل لدينا نفس الوزن ؟ هل لدينا نفس الحجم ؟ ... وقد وجد أن الطفل في بعض الاحيان لا يقول بالثبات . فيقول مثلاً : ان هذه اكبر لانها طويلة ورفيعة ، وفي مرحلة ما قبل العمليات ، لا نجد ثباتاً . اما في سن السابعة فان الطفل يصل الى فكرة ثبات الكم . وفي سن ٩ - ١١ سنة ، نجده يصل الى فكرة ثبات الوزن . اما فكرة ثبات الحجم فانه يصل اليها في حوالي سن ١١ - ١٢ سنة .

المرحلة الثالثة : مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية : من السابعة حتى الجادية عشرة
Concrete Operations

وفي حوالي سن السابعة يكتسب التنظيم الفكري للطفل عن البيئة المحيطة به ، صفة الثبات والتماسك بفضل تكوين مجموعة من التراكيب العرفية . وفي هذه المرحلة يبدأ الطفل في أن يبدو معقولا ومنظما في توافقاته مع البيئة ، بمعنى أنه يبدو أن لديه اطارا فكريا ثابتا ومنظما يستخدمه في تعامله مع عالم الاشياء المحيطة به . ففي استطاعته ان يرتب مجموعة من الاشياء حسب حجمها ويدخل اشياء جديدة داخل المجموعة . وفي امكانه أن يفهم أن عدد الاشياء في مجموعة ما ، لا يتغير بمجرد اعادة الترتيب المكاني لهذه الاشياء . ومن الممكن أيضا أن يفهم الكثير من العلاقات البسيطة بين اصناف أو انواع الاشياء . فمثلا يمكنه أن يدرك أن ضئفا ما لا يمكن أن يحتوي على اعداد أقل مما يحتوي عليه أي من الاصناف الفرعية الداخلة تحته . وباختصار يكتسب الطفل في هذه المرحلة مفهوما بدائيا عن الزمان والمكان والعدد والمنطق . وهذه المفاهيم التي في ضوئها تنتظم فكرتنا عن الاحداث والاشياء.

واذا كنا قد أوضحنا ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية (المرحلة الثانية) يختلف تفكيره عن طفل « المرحلة الحسية الحركية » من حيث انه يعمل على مستوى التصور الذهني في مقابل مستوى الفعل المباشر فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية والتي نحن بصددّها يختلف في تفكيره عن طفل المرحلتين الاولى والثانية . فهو يختلف

عن طفل المرحلة الحسية الحركية من حيث انه يعمل على مستوى العمليات ، أى الاداء العقلى غير المحدد ، وليس على مستوى الفعل المباشر، كما انه يختلف عن طفل المرحلة التصورية من حيث انه يعمل وفق نظام او نسق معرفى متكامل ، به ينظم العالم من حوله . فاذا كان تفكير طفل المرحلة التصورية يفتقر الى الثبات والتنظيم الذى يجعله يسلك احيانا بطريقة منطقية واحيانا يفشل فى مواصلة القيام بنسق منطقي بسيط فى الظاهر ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية - والمرحلة الشكلية التى تليها - يكون تفكيره ثابتا ومستقرا ، ينتج عن تنظيم « الافكار الادائية او الاجرائية فى انظمة مترابطة تمكن الطفل ان يسلك بثبات وبصورة منطقية ، وان يستخرج من افكاره ما تتضمنه من نتائج . ولذا يقول بياجيه « ان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية يسلك فى مجموعة متنوعة من الافعال ، كما لو كان لديه تنظم تمثيلي غنى متكامل يعمل فى حالة توازن مع عمليات الملازمة . وهذا هو جوهر الخلاف بين هذه المرحلة والمرحلة السابقة عليها . والحقيقة أن معظم ما يتجلى فى المرحلة التصورية يمكن ان يفيد فى مرحلة العمليات المحسوسة .

وحين تبلغ الاعمال المعرفية العقلية هذا المستوى الخاص من الثبات والتنظيم ، أى حين تنتظم فى وحدات تامة متماسكة وتركيب محدد قوى ، هنا يطلق عليها بياجيه اسم « العمليات العقلية » . ومن هنا جاءت التسميات العديدة للمرحلة الثانية وهذه المرحلة الثالثة ثم المرحلة الرابعة ، فقد سميت هذه المراحل على التوالى باسم « مرحلة ما قبل العمليات العقلية » و« مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية » و« مرحلة « عمليات التفكير الشكلى او المنطقى » . ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية لديه بالطبع افعال تصورية . ولكن هذه الافعال التصورية التى تسمى احيانا باسم « الحدس » انما هى تعبيرات معرفية منفصلة ومتفرقة ولا تتجمع فى كليات متماسكة . ومن هنا يمكن القول بأن « العمليات على نحو ما حددها بياجيه هى الملكة الخاصة بمرحلة الطفولة والمتاخرة ومرحلة المراهقة .

اما ما نوع الاداء الذى يسميه بياجيه باسم العمليات operations ، فان أى عمل تصورى ذهنى يكون جزءا متكاملا من شبكة اعمال مترابطة ، يعتبر أساسا « عملية » . ولقد أشار بياجيه الى العديد من هذه العمليات . فهناك عمليات الاضافة المنطقية (الجمع) ، وعمليات الطرح والضرب والقسمة ، سواء فيما يتصل بالانواع او العلاقات . وهناك العمليات العقلية العديدة المختلفة الانواع ، والتى اطلق عليها اسم العمليات المنطقية الاخص
 InfraLogical Operations وتتضمن الكم والزمان والمكان وغيرها . وهناك ايضا العمليات التى تتصل بنظام القيم والتفاعل المتبادل بين الافراد . ولعل الإشارة الى العديد من هذه العمليات ، ما يجعل القارئ على الفقه بها . من ذلك مثلا : عملية الاستجابة لمجموعة من الاشياء المتشابهة فى ناحية معينة وتكوين نوع من الانواع ، وعملية ضم الانواع معا (الجمع

المنطقى (لأنواع) وتكوين فرع اشمل واعم يضم هذه الانواع جميعا كضم نوع النباتات ونوع الحيوانات لتكوين نوع الكائنات الحية، ثم هناك عملية العود ثانية الى الانواع الاصلية عن طريق الطرح المنطقى، أى فصلها واستخراجها ثانية من النوع الذى يضم الانواع الى آخر هذه العمليات المتعددة التى أشار إليها بياجيه فى هذه المرحلة والتى ليس هنا مجال التوسع فى شرحها .

ومن الممكن أن نلخص أهم منجزات مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية بقولنا أن تفكير طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكشف عن تقدم ملحوظ إذا قورن بتفكير طفل مرحلة ما قبل العمليات المنطقية أى المرحلة التصورية . ولعل أهم منجزات هذه المرحلة هى أن تراكيبها المعرفية تتألف من أنظمة تكون فى حالة توازن، أعنى تتألف من كليات متماسكة من العمليات القابلة للانعكاس ، والتى تمكنه من ايجاد التنظيم والثبات بين الاشياء والاحداث فى العالم المحيط به ، بشكل كان يستحيل على طفل مرحلة ما قبل العمليات أن يقوم به . فإذا كان طفل مرحلة « ما قبل العمليات » يميل الى العمل فقط فى ضوء الواقع الظاهرى الذى يقع أمام ناظرية ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يبدأ بمد تفكيره من الواقع الى الممكن . وهذا النمو هو نتيجة طبيعية لتكوين التراكيب المحسوسة . فلو اخذنا متسلسلة مكونة من عناصر ثلاثة محسوسة ولتكن ١ ، ب ، ج (الواقع) فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكون أكثر استعدادا من طفل مرحلة ما قبل العمليات للتنبؤ بإمكان تطبيق هذه العلاقة على عناصر جديدة مثل د ، هـ (أى الممكن) . وهذه الخطوة تعتبر من أهم الخطوات تمهيدا للانتقال الى المرحلة الرابعة والاخيرة .

المرحلة الرابعة : مرحلة العمليات الشكلية - ابتداء من سن الحادية عشرة Formal operations

وتبدأ هذه المرحلة من حوالى سن ١١ - ١٢ سنة وتصل الى حالة توازن فى حوالى سن ١٤ - ١٥ سنة . وهى مرحلة بداية التفكير المنطقى عند الكبار . فالمرادق فى هذه المرحلة يمكنه أن يتعامل بنجاح ليس فقط مع عالم الواقع المحسوس (على نحو ما كان فى المرحلة السابقة)، بل وأيضا مع عالم المجردات والقضايا المنطقية . فهو يفهم المبادئ الاساسية للتفكير العلى والتجيب العلى ، ويستطيع القيام بتجارب ، واستخلاص التضمنات الصحيحة على الأقل فى بعض الحالات .

وتعتبر مرحلة العمليات المنطقية أو الشكلية تنويعا للنمو العلى . فهى بمثابة حالة التوازن النهائى التى يسير نحوها التطور العلى المعرفى منذ بدايته الاولى . لقد عالج بياجيه هذا الموضوع فى مؤلفات عديدة أهمها كتابه الذى ألفه مع أنهلدير عام ١٩٥٥ ، والذى ترجم الى اللغة الانجليزية عام ١٩٥٨ تحت عنوان « نمو التفكير المنطقى من الطفل حتى الرشد » والخاصية

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

المميزة للتفكير الشكلي ترجع بلا شك للدور الذي يقوم به « الممكن Possible » في علاقته بالواقع « Réal » فالتفكير الشكلي - اذا قورن بالتفكير في مرحلة العمليات المحسوسة - يكون بذلك صورة جديدة من صور التوازن التي يسير نحوها هذا التطور العقلي . ولعل مما يلقي الضوء على هذه العمليات الشكلية أن نربط بينها وبين العمليات المحسوسة السابقة عليها والتي صدرت عنها . فطفل المرحلة المحسوسة او العيانية تواجهه صعوبات منها :

١ - أن العمليات المحسوسة عيانية ، أى محسوسة وغير مجردة ، بمعنى أن تركيبها ونشاطها التنظيمي يتجه نحو الاشياء والاحداث المحسوسة الموجودة في الواقع المباشر . حقيقة أن تكوين الانظمة المحسوسة يسمح ببعض الانتقال والسير نحو الممكن أو غير الموجود ، الا ان هذا السير او هذه الحركة يكون نطاقها محدودا ويتألف غالبا من تعميمات بسيطة للتركييب موجودة على محتوى جديد (على نحو ما سبق ان اشرنا في معرفة الطفل امكان نقل العلاقة ١ ، ب ، ج ، وتطبيقها على د ، هـ) ، كما ان نقطة البدء بالنسبة للعمليات المحسوسة - كما هو الحال أيضا بالنسبة لما قبل العمليات - هي دائما - « الواقع اكثر منه الممكن » . فطفل المرحلة من ٧ - ١١ يعمل كما لو كان واجبه الاساسي هو تنظيم وترتيب ما هو موجود أمامه مباشرة . اما الانتقال البسيط المحدود للتنظيم والترتيب على اشياء ممكنة ، فهو أمر يقوم به عند الضرورة . ولذا فهو ينظر اليه كحالة خاصة من النشاط . اما مالا يستطيع طفل مرحلة العمليات المحسوسة أن يفعله ، ويستطيع الراشد القيام به ، فهو يمثل جميع الاحتمالات الممكنة منذ البداية ومحاولة الكشف عن اى هذه الاحتمالات يوجد فعلا في المادة الراهنة . وبهذا الاسلوب الاخير يصبح الواقع حالة خاصة من الممكن وهذه هي احدى خصائص العمليات الشكلية المنطقية .

٢ - وكون طفل مرحلة العمليات المحسوسة لا يزال مقيدا - نسبيا - بالظواهر الخارجية ، فهذا من شأنه أن يخلق صعوبة أخرى . أن عليه أن يتغلب على الخصائص المتعددة للاشياء والاحداث (كالكتلة، والوزن والطول والزمن ... الخ) واحدة واحدة ، لأن وسائله المعرفية ليست « شكلية » بدرجة كافية ، ولا منفصلة او مستقلة بدرجة كافية عن الموضوع الذي تحمل عليه من اجل أن تسمح بتمايز الشكل عن المحتوى . فالطفل بعد أن يصل الى فكرة ثبات الكم ، يظل لفترة غير قصيرة ، عاجزا عن بلوغ فكرة الثبات بالنسبة للوزن والحجم .

٣ - اما الصعوبة الثالثة فهي أن أنظمة العمليات المحسوسة المتعددة ، تعتبر بمثابة نقط تنظيم أكثر وقل انفصالا من ٧ - ١١ سنة ، فهي لا تترايط فيما بينها لتكوين نظام متكامل بسيط ، نظام يمكن للطفل أن ينتقل من تركيب فرعى الى تركيب فرعى آخر بالنسبة لمشكلة واحدة . فبينما يوجد لدى طفل مرحلة من ٧ - ١١ سنة نوعا عمليات القابلية للانعكاس (وهما

النفي والتبادل) ، فانه لا يوجد لديه مع ذلك نظام كلى شامل يسمح له بتنسيق الاثنين معا ، وحل المشكلات ذات المتغيرات المتعددة والتي تتطلب هذا التنسيق . فالتراكيب المعرفية تعجز اذن عن الترابط فيما بينها في نظام كلى موحد لازم للقيام ببعض العمليات المعقدة .

وفي ضوء هذه الصعوبات التي نجدها في مرحلة العمليات المحسوسة ، يمكن ان ننقل الى دراسة اهم خصائص التفكير الشكلي الذي يتميز به تفكير الراشد . وكثير من خصائص تفكير هذه المرحلة ليست مترابطة بسهولة احداها بالآخرى بطريقة ذهنية واضحة ، ولكنها تعتبر مهمة في نمو قدرة الفرد على حل المشكلة .

خصائص التفكير الشكلي :

الخاصية الاولى : تتصل بالتطور او بالنمو لقدرة الطفل على فهم العلاقات المنطقية بين الانواع . فاذا كان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يمكنه فهم العلاقات المنطقية بين الانواع التي تعرض او تقدم اليه ، فان الراشد في مرحلة العمليات الشكلية عليه ان يدرك بوضوح او ان يتحقق من العلاقات الممكنة ، بحيث يمكنه تصميم مواقف تزوده بالمعلومات او المعرفة التي يحتاج اليها .

الخاصية الثانية : هي ان جزءا من قدرة الطفل على ادراك جميع الامكانيات يتمثل في سهولة وقدرة الطفل على التفكير التوافقي او الترابطي . وبعبارة اخرى يتمثل في قدرته على مراجعة كل الاختيارات بطريقة منتظمة تسمح بالانتقال خلالها تتابعا اذا لزم الامر ، ويعرف انه استنفدها جميعا . وقد وصفت العلاقات الممكنة المختلفة بين الانواع في نظرية المنطق الشكلي . ويكون طفل مرحلة العمليات الشكلية قادرا - بطريقة حدسية - على استعمال النسق الكامل للمنطق الشكلي من اجل الحصول على المعرفة التي يريدها .

الخاصة الثالثة : هي التفكير الذي طرا على العلاقة بين الواقع والممكن . وهي اهم الخصائص جميعا ومنها استمد يياجه بقية الخصائص الاخرى . فبدلا من ظهور « الممكن » في صورة امتداد محدود وبسيط للواقع او للافعال التي تجرى في هذا الواقع ، فان العكس هو الذي يحدث اذ يصبح الواقع تابعا للممكن . فالراشد على عكس طفل مرحلة من ٧ - ١١ سنة - يبدأ نظريته الى المشكلة موضوع البحث بمحاولة النظر في جميع الاحتمالات والعلاقات الممكنة التي تصدق على المادة . ومن ثم يحاول خلال الجمع بين التجريب والتحليل المنطقي ان يصل الى معرفة اى هذه العلاقات الممكنة تصدق في الحقيقة على هذه المادة . فالواقع أصبح ينظر اليه كمجموعة فرعية داخل وحدة تامة من الاشياء التي تسمح المدة بظهورها كفروض . فهو ينظر الى « الواقع » كجزء موجود داخل وحدة « ممكنة » .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

فنحن اذن بازاء خطوة في غاية الاهمية من خطوات النمو الفكرى ونعنى بها التحرر من عبودية الملازمة للواقع المباشر على نحو ما وجدنا في المرحلتين السابقتين . وهذا التحرر يأخذ شكلا جديدا في المراهقة والرشد يتمثل في قلب دور الواقع الى ممكن . وليس هذا بالامر اليسر ، اذ هو بمثابة اعادة توجيه اساسى نحو المشكلات المعرفية . فالراشد لم يعد يشغل نفسه بثبات وتنظيم الاشياء المحسوسة وهى التى تتصل اتصالا مباشرا بالحواس ، وانما تظهر لديه خلال الاعادة الجديدة للتوجيه ، القدرة على تصور كل ما يمكن وجوده .

أن التفكير الشكلى هو في أساسه تفكير « افتراضى - قياسى Hypothetico déductive والقياس لا يقوم هنا مباشرة على حقائق مدركة في العالم الخارجى ، وانما على منطوقات افتراضية ، أى على قضايا تقوم على فروض ، أن يضع المعطيات من حيث هى معطيات بسيطة مستقلة عن حقائقها الواقعية الخارجية . فالقياس يتألف اذن من ربط هذه المعطيات او الفروض فيما بينها واستخلاص النتائج الضرورية المترتبة على ذلك ، حتى ولو لم تتجاوز حقيقتها التجريبية حدود الممكن . فهذا القلب لدور كل من الممكن والواقع - أكثر من اية خاصية أخرى - هو الذى يحدد التفكير الشكلى . وقد أوضح بالارد Ballard هذه الحقيقة في قوله : ان الاستدلال لا يقوم على الاعتقادات وانما على فروض . فاذا سلمنا بالافتراضات: كذا ، وكذا ، فإنه يتبع اذن ان نصل الى كذا وكذا من النتائج. وطفل المرحلة من ٧ - ١١ سنة يقيم استدلالات لا على أساس معطيات المشكلة وفروضها ، بل على أساس الواقع والحقيقة . أما الراشد ، فإنه يستدل على أساس التسليم بصدق أو كذب الافتراضات التى يبدأ منها استدلالاته .

تلك هى المراحل الأربع للنمو المعرفى ابتداء من الطفولة المبكرة حتى الرشد ، أى ابتداء من النمو الحسى الحركى حتى التفكير المنطقى . وليس ثمة شك ان وراء هذا النمو هدف . لقد كشف لنا هذا النمو عن تقدم مستمر ومتصل نحو حالة من التوازن Equilibre يسير نحوها الذكاء . لقد كان هذا الذكاء في بداية الامر امتدادا للمجال الإدراكى الذى يفتقر الى وجود القابلية للانعكاس ، ثم مع بداية ظهور العمليات أصبح المجال أكثر اتساعا وأكثر قدرة على القيام بالعمليات العقلية المختلفة ، وأكثر تحررا من الاشياء الواقعية والمحسوسات ، كما أصبح أيضا أكثر ثباتا وانتظاما على نحو ما يتضح لنا بشكل ظاهر في المرحلة الرابعة والاخيرة من مراحل النمو العقلى وهى مرحلة التفكير الشكلى . فنمو الذكاء يتحدد أساسا في نظرية بياجيه باعتباره تقدما نحو التوازن .

وليس من شك ان ثمة عوامل أساسية هى التى تفسر لنا هذا السير نحو التوازن . والنضج هو أحد هذه العوامل ، وهو التفتح الطبيعى الذى يطرا على الكائن الحى ، ثم الخبرة وهى العامل الثانى . فالتعلم عملية هامة تفسر اكساب الانسان لكثير من الخبرات التى تمر به

في الحياة . ولا يمكننا بحال من الاحوال ان ننكر اثر التعليم أو اثر تراكم الخبرات المكتسبة من البيئة التي نعيش فيها . ثم هناك ثالثا الوسط الاجتماعي . فقد لا يكتسب الطفل مثلا فكرة الشيء (كفكرة الثبات) من البيئة المادية وتفاعله معها ، وانما قد يلحق هذه المفاهيم والافكار عن طريق الوالدين والمدرسين أو المحيطين به . غير ان كل واحد من هذه العوامل لا يكفي لتفسير التنظيمات المعرفية ، ولذا ينتهي بياجيه الى تقديم نظريته التي تقوم اساسا على فكرة التوازن . فبسبب احتواء الانظمة العقلية المنسقة على تناقضات ذاتية ، وبسبب ما تحدثه لدى الطفل من صراعات ، فان الطفل يجد نفسه مدفوعا بقوة لاحداث التناسق بين افكاره واعادة تنظيمها في كل منسق متوازن . وهذه هي عملية احداث التوازن عند بياجيه .



وبعد ، فقد استعرضنا أربع نظريات من نظريات النمو النفسي ، يمثل كل منها اتجاها من الاتجاهات الهامة في نظريات النمو النفسي . فهناك نظرية النمو النفسي الجنسي عند فرويد ، ونظرية النمو النفسي الاجتماعي عند اريكسون والتي ادخلت بعض التعديلات والاضافات على النظرية الاولى ، ثم هناك نظرية نمو الذات عند البورت ، واخيرا نظرية النمو العقلي المعرفي عند بياجيه . واذا امعنا النظر في هذه النظريات النمائية الاربع ، نجد تقاربا واضحا بينها حاول الباحث بيانه في التخطيط التالي :



النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

تخطيط للعلاقة بين النظريات النمائية لكل من
فرويد - اريكسون - البورت - بياجيه

المرحلة العمرية	المراحل النفسية الجنسية عند فرويد	المراحل النفسية / الاجتماعية عند اريكسون	مراحل نمو الذات عند البورت	مراحل النمو العقلي عند بياجيه
من صفر الى ٢	الغمية	الاحساس بالثقة مقابل عدم الثقة	الاحساس بالذات الجسمية	المرحلة الحسية الحركية
من ٢ الى ٣	الشرجية	الاحساس بالاستقلال مقابل الشك والخجل	هوية الذات تقدير الذات	المرحلة التصورية او مرحلة ما قبل العمليات العقلية
من ٣ الى ٦ (ما قبل المدرسة)	القضيبية (الاوديبية)	الاحساس بالمباداة مقابل الشعور بالذنب	امتداد الذات صورة الذات	
من ٦ - ١١ (المدرسة الابتدائية)	الكمون	الاحساس بالانجاز والامام (الصناعة والعمل مقابل النقص)	الذات منطقية عاقلة	مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية
من ١٢ - ١٧ (المدرسة الثانوية) ثم الرشد واكتمال النضج	التناسلية	الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الهوية . والاحساس بالود والتآلف مقابل العزلة . الانتاجية مقابل الجمود . تكامل الانا مقابل اليأس	الجوهرة المميز الذات العارفة	مرحلة التفكير الشكلي او المنطقي

المراجع

أولا : المراجع العربية :

- ١ - جابر عبد الحميد جابر ومحمد مصطفى الشعيبي : النمو النفسى والتكيف الاجتماعى - القاهرة - دار النهضة العربية - ١٩٦٢ .
- ٢ - جون كونجر وبول موسن وجيروم كيجان سيكولوجية الطفولة والشخصية . ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة وجابر عبد الحميد جابر . القاهرة - دار النهضة العربية - ١٩٧٠ .
- ٣ - سيد محمد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل . الكويت . عالم الفكر . المجلد الثانى - العدد الاول - ابريل / يونيو ١٩٧١
- ٤ - سيد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل فى نظرية جان بياجيه (الجزء الاول) القاهرة - حويلات كلية الآداب بجامعة عين شمس - ١٩٧٢ - العدد ١٢ .
- ٥ - سيد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل فى نظرية جان بياجيه (الجزء الثانى) القاهرة - المطبعة المالية - ١٩٧٣ .
- ٦ - سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية : محدداتها ، قياسها ، نظرياتها - القاهرة - دار النهضة العربية - ١٩٧٥ .
- ٧ - هول . ل . لندي ج : نظريات الشخصية ، ترجمة فرج أحمد فرج وآخرين - الهيئة المصرية للتأليف والنشر القاهرة - ١٩٧١ .

ثانيا : المراجع الاجنبية :

7. Allport G. : **Personality. A Psychological Interpretation.** New York, Holt Rinchart and Winston, 1937.
8. Allport G. : **Becoming : Basic considerations for a Psychology of Personality.** New Haven. Conn. Yale Univer. Press 1955.
9. Allport G. : **Personality and Social Encounter.** Boston. Beacon Press 1960.
10. Allport G. : **Pattern and Growth in Personality.** New York, Holt, Rinchart and Winston 1961.
11. Aires P. : **Centuries of Childhood.** New York, Knopf. 1962.
12. Bandura A. & Walter R. H. : **Social Learning and Personality development.** New York, Holt Rinchart & Winston 1963.
13. Barker R., Kounin J. & Wright H. : **Child Behavior and Development.** New York, McGraw Hill Book Company, 1943.
14. Bishchof L. J. : **Interpreting Personality Theories.** New York. Harper and Row, 1964.
15. Carmichael L. (ed.): **Manual of Child Psychology**, 2nd ed. New York, Wiley, 1954.
16. Cashdan A. & Whitehead J. (eds). **Personality Growth and Learning.** London, Longman Group Ltd. 1971.
17. Erikson E. H. : **Childhood and Society.** Penguin Books 1970.

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

18. Erickson E. H. Identity : Youth and Crisis. New York. W. W. Norton & Comp. 1968.
19. Flavell J. H. : The Developmental Psychology of Jean Piaget. Princeton Von Nostrand 1963.
20. Freud S. : New Introductory Lectures on Psychoanalysis. New York, Norton 1935.
21. Freud S. : The Ego and the Id (1923). Hogarth, 1947.
22. Freud S. : Beyond the Pleasure Principle, New York, Liveright 1950.
23. Gesell A. & Ilg. F. L. : Child Development, 2nd ed., New York Harper 1949.
24. Hurlock E. B. : Developmental Psychology. New York. McGraw-Hill Book Comp., 1953.
25. Hurlock E. B.: Adolescent Development, (2nd ed.) New York, McGraw Hill Book Comp., 1955.
26. Hurlock E. B. : Child Development, (5th ed.) New York, McGraw Hill Book Company 1972.
27. Inhelder B. et Piaget J.: De la logique de l'Enfant a la logique de l'Adolescent. Paris. Presses. Univer. France, 1955.
28. Jersild A. T., Tefford C. W. & Sawrey J. M. Child Psychology (7th ed.) New Jersey, Prentice Hall Inc. 1975.
29. Kegan J. & Moss H. A. : Birth to Maturity: A Study in Psychological Development. New York. Wiley 1962.
30. Medinnus, G. R. & Johnson R. : Child & Adolescent Psychology. New York. John Wiley & Sons Inc. 1969.
31. Mussen P. H., Conger J. J. & Kegan J. Child Development and Personality. New York, Harper and Row 1963.
32. Piaget, J. : La g n se du nombre chez l'Enfant. Delachaux et Niestle Neuch tel, 1941.
33. Piaget J. : La Naissance de l'Intelligence chez l'Enfant. Delachaux et Niestle Nechatel, 1948.
34. Piaget, J. : Play, Dreams and Imitation in Childhood, New York, Norton, 1951.
35. Piaget, J. : Essai sur les Trnasformations des op rations logiques, Paris, Presses Univer. France, 1952.
36. Piaget J. : "La formation des connaissances." Bull. Psychol. Paris 1955—1956, pp: 148-156, 268-495, 701-727.
37. Piaget J. : "Les relations entre la perception et l'intelligence dans les development de l'enfant." Bull. Psychol. Paris, 1956-1957. 10, 376-381, 751-760.

38. Pichon E. : **Le Development Psychique de l'Enfant et de l'Adolescent**. 2 ieme ed. Paris Masson & Cie (Ed). 1947.
39. Rayner E. : **Human Development; an Introduction to the Psychodynamics of growth, maturity and ageing**. London. George Allen & Unwin Ltd. 1971.
40. Reese H. W. & Lipsitt L.P.: **Experimental Child Psychology**. New York Academic Press 1970.
41. Riegel, K. F. : „History as a Nomothetic Science. Some Generalizations from Theories and Research in Developmental Psychology,” **J. of social issues** 1969 Vol. XXV No. 4.
42. Riegel K. F. **The Changing Individual in the changing society**. New York, Academic Press 1972.
43. Riegel K. F.: “Influence of Economic and Political Ideologies on the development of Developmental Psychology,” **Psychol. Bulletin**, 1972, Vol. 7 No. 2 129-141.
44. Ruch F. & Zimbardo P. **Psychology of Life** 8th ed. London Scott, Foresman and Company 1971.
45. Stone F. & Church J. **Childhood and Adolescence. A psychology of growing Person**. 7th ed. New York. Random house 1957.
46. Watson R. I. & Lindgren H. C. **Psychology of the Child**, New York, John Wiley & Sons Inc. 1973.

★ ★ ★

مَحَمَّدُ جَوَادِ رَضَا *

الانفصال عن العالم والرحيل إلى الأعماق

الواح ملونة من أزمات الطفولة والشباب في المجتمع المعاصر

الواح الأول

العالم الكئيب

« يتهامسون معا ...
هادئون بلا معنى ...
كالريح في الأعشاب ...
أو أقدام الفئران على الحصاد الهشيم ...
في مخزننا الجاف ...
صور بلا هيولى ... ظلال بلا ألوان ...
قوى مشلولة ... إيماءات بلا حراك ...

(*) عميد كلية الآداب والتربية في جامعة الكويت وأستاذ التربية المقارنة فيها . له العديد من الكتب والبحوث المنشورة منها (فلسفة التربية وأثرها في تفكير معلم المستقبل) ، (التربية والتبديل الاجتماعي في الكويت والخليج العربي) ، (التربية والصراع الاجتماعي) ، (التعليم الثانوي) و (ظاهرة العنف في المجتمعات المعاصرة - تفسير سايكوسوسيولوجي) .

الرجال الجوف ...
سقط القناع ...
يتساندون ...
خوذا مملوءة قشا ...

تي . اس . ايليوت
« الرجال الجوف »
مجموعة قصائد
١٩٠٩ - ١٩٣٥



« أرى أفقا بنجيع الدماء
تنوّر واختفت الأنجم
وجبلا من الأرض يرمى به
كما قذف الصاعد السلم
إذا مدّ كفّاه ناكث
تصلّى ليقطعها مبرم
تكوّر من جثث حوله
ضخام وأمجادها أضخم
وكفّاء تمّد وراء الحجاب
فترسيم في الأفق ما ترسيم
وجيلا يروح وجيلا يجيء
ونارا ازاءهما تضرّم
ويا ويح خانقة من غبد
إذا نفّس الغد ما ينظّم »

محمد مهدي الجواهري
١٩٤٩



« سمعت صوت بندق . شعرت بالدعر . كانوا يطلقون نيران بنادقهم ومسدساتهم في الليل
ولم استطع النوم . كنت مَرَوِّعة وفزعة من أنهم قد يشرعون بنادقهم على نوافذ غرفتي ويطلقون
النار علي . نمت ليلتئذ مع أمي في فراش واحد . كان هناك مخزن قريب من بيتنا تلتهمه النيران .
كانوا يوقدون النار في كل شيء . خيل لي يومئذ ان العالم كله يحترق ... »

من اعترافات طفلة بنت أربع سنوات
أيام العنف الأسود في واتس - لوس انجلوس
١٩٦٥

الانفصال عن العالم والرحيل الى الامتاق

« ... لقد استمرت الحرب الفيتنامية طويلا حتى لم يعد يوجد الآن فرد واحد في فيتنام يملك أية فكرة عن كيف كانت الاحوال قبل الحرب . ان اطفالنا يجهلون معنى السلام ، واذا تخيلوه فانهم يتصورونه مكانا جميلا وأوقاتا مريحة خلوا من المشاكل والازمات والمسؤولية ، نوعا من أنواع الجنة على الارض ... »

« من رسالة لعالم نفسي فيتنامي موجهة
الى الاستاذ موريس فريزر وقد نشرها في صدر
كتابه :

Children in Conflict, Penguin Books, 1974.

• • •

الوح الثاني

السقوط النفسي

منذ أربعين عاما تقريبا كتب رئيس جامعة ييل Yale الدكتور آنجل J. R. Angell يقول :
ان ما بين ١٠٪ - ١٥٪ من طلبتنا الجامعيين يعانون من امراض نفسية معاناة حقيقية تهدد
بتدمير فاعليتهم وسعادتهم . وفي الاجتماع السنوي للجمعية الطبية الملكية البريطانية عام
١٩٦٠ اشارت التقارير الى أن ١٤٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من امراض نفسية
على درجة غير يسيرة من الشدة . وفي المؤتمر العالمي الاول حول الصحة العقلية لطلبة الجامعات
المنعقد في جامعة برنستون في نفس الوقت تقريبا أكدت البحوث المقدمة في المؤتمر مذهب اليه
الرئيس آنجل عام ١٩٣٦ مع التنبيه الى زيادة النسبة وبروز ظاهرة الانتحار بين الطلبة (١) .
في سنة ١٩٦٦ كتب نيكولاس مولييسون Nicholas Malleison يقول ان ما يقارب ٢٠٪ من طلبة
الجامعات البريطانية يعانون من اضطرابات نفسية معوقة لتقدمهم العلمي على درجات متباينة من
القوة . (٢) وفي سنة ١٩٧٠ نشر انتوني راي Anthony Ryle الأمور الطبى في جامعة
سسكس Sussex في كتابه « الضحايا الطلابية » ان حوالى الثلث من طلبة الجامعات البريطانية
معرضون للاصابة باضطرابات نفسية على درجات متباينة من الشدة . (٣) وفي سنة ١٩٧٦ نشر كل
من ميلر وميلر ان في جامعة صغيرة مثل جامعة سوانسي هناك ما بين ٣٠٠ - ٤٥٠ طالبا وطالبة
يعانون من امراض نفسية جدية، وان مستشفيات الجامعة وعياداتها النفسية تواجه وضعاً صعباً
للفاية في تلبية الحاجات العلاجية لهؤلاء الطلبة . ومن الدراسات التحليلية التي قام بها هذان

(١) Davy, B. W. ; The Source and Prevention of mental ill health in University Students, proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.

(٢) Malleison, N.B. ; A Handbook of British Student Health Services, London, Pitman, 1966.

(٣) Ryle, A. ; Student Casualties, Pelican Books, 1970,

الباحثان تبين أن ١٤ ٪ من الطلبة الجامعيين يشكون من التعاسة في علاقاتهم الشخصية ، ١٠ ٪ يقاسون من أحاسيس الكآبة و ٧ ٪ كانت مشاكلهم تنجم عن مصاعب دراسية . (٤)

في المؤتمر الدولي السابع للمائدة المستديرة لتقدم الارشاد النفسي المنعقد بين الحادى عشر والخامس عشر من شهر ابريل ١٩٧٦ فى جامعة فيرزبورج فى المانيا الاتحادية وجه الاستاذ آرنولد W. Arnold رئيس جامعة فيرزبورج السابق ورئيس قسم علم النفس فيها ، وجه الانتباه الى ما أسماه « الاخلاقيات النفسية الجديدة » New Psychological Ethics فى معرض التحذير منها . قال الاستاذ آرنولد :

« يجب التذكير بحالات مأسوية ومرضية فى المجتمع الحديث . فى جلسات الارشاد النفسي غالبا ما يسمع الواحد منا عبارات تصدر عن الاطفال الصغار . . ان أمى لم تكن ترغب فى مجيئى الى هذا العالم وهى حتى الآن تعبر عن ضيقها بوجودى معها . . »

ثم يعقب الاستاذ آرنولد على هذا بقوله :

« . . ان هذه الصرخة الانسانية تعلن عن قلق وجودى ، وهى دعوة للبحث عمن يمكن الوثوق به ، انها التماس للشفقة والحب ولا مكانية الاعتماد على شخص ما . ان كل الاخلاقيات النفسية القديمة قد تلاشت من الوجود الاجتماعى تقريبا . كثيرون يشعرون بأنهم وحيدون ومهجورون . واذا كان الاطفال والشباب يحسون انهم مرفوضون وغير مرغوب فيهم من قبل اولياء أمورهم ومن أمهاتهم على وجه التخصيص فانهم يقفون على أرض بوار ، فى حالة من القنوط الكامل من أى رجاء . . . » (٥) .

• • •

اللوحة الثالث

الضحايا

بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٧١ كتب أحد اطباء العموميين فى مدينة « لندن برى » يقول معقبا على ضحايا الحرب الأهلية فى إيرلندا : -

« انى أحب أن أناشد أولئك المشتغلين فى الاقناع السياسى والعاملين فى منطقتى كريكمان وبوك سايد شيئا من الحلم والتبصر فى عواقب ما يفعلون . خلال الاربع والعشرين ساعة الماضية

(() Miller, P. — Miller, T. ; Student Problems, Remedies and Satisfactions, British Psychiatry, Sep. 1973.

من المهم ان نلاحظ هنا ان الجامعات العربية لاتنشر ولا تملك معلومات معادلة عن الاوضاع النفسية والعقلية لطلابها ، ولذا تبقى مشاكلهم النفسية ومعاناتهم مقصورة عليهم وغير محسوس بها فى العالم الخارجى .

(٥) Arnold, W. ; Counselling Activities in Modern Society, Proceedings of Seventh International Conference for the advancement of counselling, 11-15, April, 1976, Würzburg.

دعيت لمعالجة بعض ضحاياهم . أحد هؤلاء الضحايا حاول الانتحار منذ ذلك الحين أكثر من مرة . واحد منهم الآخر تطلب علاجاً عاجلاً في حالة القلق العنيف الذي سيطر عليه . ان عدداً كبيراً من الناس الطيبين يسقطون يومياً فريسة الخوف مما يحمله الاقتتال اليهم وهم لهذا يعتمدون اعتماداً متزايداً على المهدئات الطبية كي يستطيعوا مواصلة حياتهم اليومية . ان عواقب هذا الاتكال المكثف على هذه المهدئات الطبية هي أوخم من أن يستطيع أحد التنبؤ بها « (٦) » .

في وقت قريب من هذا الوقت كتب باحث آخر في آثار الحرب الأهلية في أيرلندا على الأوضاع النفسية والعقلية للأطفال والشباب يقول ان التعرض لتجربة تفجير القنابل والاثارات النفسية والاستفزات يوماً بعد يوم صارت تضاعف حالات الكآبة والمعاناة العصبية ، حتى صار يمر على كل يوم موكب طويل من المراجعين في العيادة يروون قصصاً مخيفة عن معاناتهم من الخوف والمعاناة المزقة لشخصياتهم ولهذا أجندى ملزمان أصف لهم كميات كبيرة من المهدئات الطبية والمسكنات . ولأول مرة في حياتي المهنية أجندى مضطراً لاعطاء الحبوب المنومة بمقادير كبيرة نسبياً للأطفال لمساعدتهم على النوم ، ولتمكينهم من مواصلة أدائهم لواجباتهم المدرسية . ولأول مرة في حياتي المهنية أيضاً بدأت أخاف على سكان مدينتي - ديري - من أنهم لن يستطيعوا اجتياز مرحلة الاضطرابات العنيفة هذه من دون تعرض نظام حياتهم الاجتماعية للانهييار التام . (٧)

لقد ترتب على حياة العنف والقتل والدمار التي عاشتها بلغاست والمدن الأيرلندية الأخرى منذ اندلاع الحرب الأهلية في سنة ١٩٦٩ ظهور نوعين من الأمراض النفسية بين سكان هذه المدن وخاصة الصغار منهم .

أولاً : كانت هناك الهزات النفسية الشديدة التي كان يتلى بها الافراد الذين كانوا يتعرضون بصورة مباشرة الى المظاهرات والاشتباكات الدموية في الشوارع . وغالباً ما كان يمكن معالجة الآثار المترتبة على هذه التجارب ، وذلك بالمهدئات الطبية أو دخول المريض الى مراكز العلاج النفسي والعصبي لفترات قصيرة .

ثانياً : زادت نسبة الابتلاء بالأمراض النفسية ذات الطبيعة التعجزية للمصابين بها ، والتي تتطلب علاجاً أكثر تعقيداً ، كحالة المرضى الى المعالجين النفسيين ، أو الزامهم بدخول مستشفيات الأمراض العقلية لفترات طويلة . ومن الملفت للنظر ان هذا النوع الثاني من الأمراض النفسية ظهر على نطاق أوسع في المناطق المجاورة لمناطق الصراع الدموي الفعلي . ان هذه الظاهرة تتفق مع الاستنتاجات العامة المستخلصة من أيام الحرب العالمية الثانية ، والتي أثبتت انه في زمن الاضطرابات والحروب تزداد ظواهر الانهييار العصبي والأمراض العقلية في المناطق التي « يتوقع » فيها الناس اشتعال الاضطرابات أكثر من تلك الأماكن التي تصبح مسرحاً فعلياً للصراع ، وهذا ما صار الأطباء النفسيون يطلقون عليه اسم « عقدة الغزو » The Invasion Complex (٨)

Belfast Telegraph, Sept. 7, 1971.

(٦)

Sinclair, F., Belfast Telegraph, Sept. 16, 1971.

(٧)

Fraser, M., Children in Conflict, pp. 81-82, Penguin Books, 1974.

(٨)

لقد خرج الاستاذ فريزر من دراساته التي أجراها على آثار النزاع الدموي الايرلندي على الاوضاع النفسية للاطفال ، خرج بنتيجة كبيرة وهي انه ليس هناك اى طفل ممن يعيشون في ظروف الاضطرابات وقد نجا من الوقوع في نوع من انواع القلق المبهض واضطراب النوم ، والخوف من الاضطراب للانفصال عن أبويه وعائلته ، او من رفض المدرسة لقبوله فيها ، او من فقدان الشهية والاضطرابات المعوية والتفوطية والبولية ومن انواع الصداع .

لقد تجمعت لدى الدكتور فريزر اعداد كبيرة من عينات ضحايا الامراض النفسية الناجمة عن احوال القتال اليومي في شوارع بلفاست وغيرها من مسارح القتال في المدن الايرلندية ، وكلها حالات مأسوية بالقياس الى صفر اعمار الضحايا وما سببته عليها بالنسبة لقابل حياتهم . **والحالتان التاليتان يمكن ان تكونا مثلين منبئين عن آثار هذا الخراب النفسي المبكر .**

● **مارجريت ، طفلة في الثالثة عشرة** راجعت الاطباء بسبب نوبات اغماء متكررة واعراض قلق شديد جراء مشاهدته من مناظر الاقتتال الدموي في شوارع بلفاست . اضطرت عائلتها الى تغيير سكنها بعد اندلاع الاضطرابات عام ١٩٦٩ وعندما احترقت جميع المنازل حول بيتها . وعلى الرغم من أن منزل العائلة لم يدمر تدميرا كاملا الا ان العائلة تعرضت للاستفزاز والابتزاز وتعرضت لممتلكاتها للنهب . وبعد فترة من الاستقرار في سكن مؤقت اشترت العائلة منزلا جديدا في مكان آمن سرعان ما أصبح هو الآخر واحدا من أسوأ نقاط الاضطرابات . انفجرت المظاهرات والاشتباكات بعد خمسة أسابيع من نزول العائلة في منزلها الجديد . ولعدة ليال اصبحت شوارع الحي الجديد ميدان معركة حربية حقيقية بين الفرقاء المتقاتلين من جهة ، وبينهم وبين رجال الجيش والامن من جهة أخرى، وكثيرا ما وقع الصدام في حديقة المنزل الجديد الذي نزلته عائلة مارجريت .

عندما وقع هذا للمرة الاولى ، راحت مارجريت تصرخ وتزعق وخرت مغشيا عليها وكان لابد من نقلها الى المستشفى حيث جاءت نتائج كل الفحوص البدنية سلبية . اخرجت مارجريت من المستشفى ولكنها - وعلى الرغم من تمتع منطققتها السكنية ، بعد ذلك بهدوء نسبي - ظلت تتعرض لنوبات الاغماء سواء في المدرسة أم في البيت ، واضطرب اكلها وبدأ وزنها في الهبوط .

كانت مارجريت ثانی طفل في عائلة مكونة من سبعة اطفال . كان أبوها عاطلا مزمنًا ، وكان هو وأمها يعانيان من توتر عصبي مزمن وسرعة انفجار عاطفي منذ أن بدأت الاضطرابات في بلفاست . لم يكن في تاريخ طفولة مارجريت ما يثير الانتباه . كانت دائما خجولة مترددة ولكن مشاكلها مع اترابها بدأت بالازدياد منذ انفجار الاضطرابات السياسية في أغسطس ١٩٦٩ . منذ ذلك الوقت بدأت مارجريت تعاني من فقدان القدرة على النوم توها ان دارها ستحرق وانها ستحترق معها . كذلك صار الخوف الشديد يعترها من ظواهر أخرى ، مثل الضوضاء والضجيج والصراخ الجماهيري في الشوارع ، الامر الذي تحول الى خوف من الذهاب الى المدرسة ، فاخذت تقصر في أداء واجباتها المدرسية ، وهذا أدى بدوره الى انحطاط مستواها المدرسي .

الانفصال من العالم والرحيل الى الامعاق

ظلت ظاهرة الاغماء تتكرر عند مارجريت لأشهر عدة وبخاصة كلما شاهدت تجمعات من الناس حتى حين لم يكونوا في حالة تظاهر ، وكذلك عند سماع الاشارات العابرة الى حوادث الاشتباكات الدموية أو اخبار الصراع السياسي من أبيها أو من جيرانها . ولقد حاول اطباء الذين تولوا علاجها في مستشفى الامراض العقلية أن يوضحوا لها العلاقة بين ظاهرة الاغماء المتكررة عندها وبين التجارب القاسية التي مرت بها ، وأن الثانية هي سبب الاولى وان ليس هناك أي سبب تشريحي أو عضوي أو فسيولوجي للاغماء. وقد احرزت بعض التحسن بعد لأي ، الا أن مستواها العلمي استمر في الهبوط ، الامر الذي أوجب نقلها الى صفوف ضعاف المتعلمين .

●● ماري ، كانت في العاشرة من عمرها حين جئ بها الى العيادة لأول مرة بسبب تعرضها لنوبة صرع ناجمة عن حالة من القلق الشديد . وكانت ماري أصغر أربعة اطفال في عائلتها ، وكانت العائلة تعيش في واحدة من أسوأ مناطق بلقاست اضطرابا وأكثرها اقتتالا .

اختفى أبو ماري دون أن يعثر له على اثر لمدة ثمانية اشهر قبل جلبها الى المستشفى ، والمعتقد أنه كانت هناك اسباب سياسية وراء رحيله . وقد تعرضت والدتها لحالات من الكآبة الشديدة بسبب الحوادث الدموية الاخيرة في بلقاست . كانت ماري قد تعرضت لحالات صرع ثانوية قبل ١٩٦٩ ، غير انها كانت نوبات عابرة وقليلة صارت تتكرر بعدد اكبر وبدرجات اعلى من الحدة بعد انفجار الصراع السياسي . وقد قصت ماري بدايات انهيارها النفسي على طبيبها على الوجه التالي :

« في أحد أيام اغسطس ١٩٦٩ جاءت مجموعة من رجال الشرطة الخاصة الى الشارع الذي نقطن فيه وبدأوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين اثر احراق معمل صغير يقع في الشارع الذي كنا نقيم فيه . وطلبت مني امي الصعود الى الطابق الاعلى من الدار ووضعني في احدى حجر النوم وتركنتي وحدي ولكنها نسيت ان تسحب ستائر الحجرة التي وضعتني فيها . وجلست عند حافة الشباك انظر الى ما يجري في الشارع كما لو كنت في حالة شلل كلي . لم اكن خائفة في تلك اللحظات وانما المنظر كان يبدو كما لو كان فيلما سينمائيا . بعد يومين من ذلك الحادث كنت ورفيقتي في طريقنا الى المدرسة ، وكنا نركض لاننا كنا متأخرات وفجأة عاودتني صورة الناس يتراكمون في الشارع ومن ورائهم رجال الشرطة الخاصة ببنادقهم ورشاشاتهم . بفتة أحسست ان ساقى يعتريها ضعف شديد ثم سقطت الى الارض ولم أفق الا في المستشفى حيث اخبرني الشرطي اني تعرضت لحالة اغماء .

ذات مرة قالت لي امي أوقدى طباخ الغاز . وفجأة تذكرت قنابل الغاز التي كان رجال الشرطة يطلقونها على المتظاهرين فبدأت أشهق شهيقا سريعا ، وأخذت يداي ترتعشان ثم تهاويت الى الارض ولم أفق الا في المستشفى . في اليوم التالي . . في المدرسة . . كنا في درس اللغة وكان الموضوع الاصوات التي تخرجها الاشياء المختلفة . سالتنا المعلمة ماهي الآلة التي تخرج الصوت . . تنكاليك . . تنكاليك . . فتذكرت من دون أي شيء آخر صوت سيارة الاطفاء وأحسست يدي ترتجفان ، ولم أفق الا وأنا ساقطة على الارض في حالة اغماء أخرى . . . »

استمرت ماري معوقة بهذه النوبات التي كان يسبقها ارتفاع مفاجيء في حدة التنفس . وكانت أشياء كثيرة تسبب تعرضها للأغماء ، مثل أنين جرس المدرسة أو رؤية الشرارات الكهربائية حتى رؤية الاطفال يركضون وهم يخرجون من المدارس .

اعيد ادخالها الى مستشفى الامراض النفسية ثم أحيلت الى عيادة نفسية للاطفال وهناك وجد من الضروري حجب الاخبار التلفزيونية عنها ، وحيل بينها وبين سماع الاحاديث من القتال او المظاهرات نظرا لاتضاح العلاقة بين القلق وسرعة التنفس الذي اصبح النمط الذي يقود الى ظاهرة الأغماء لديها . لقد أوشكت ذات مرة أن تتعرض للأغماء بسبب رؤيتها لعبة عند أحد أصدقائها على شكل دبابة نفائفة للهب فما كان من المسؤولين عن علاجها الا ان ابعدها عن اللعب لانقاذها . (٩)



على ان ضحايا الطفولة والشباب لا يقتنصهم رصاص الحروب العقائدية المشتجرة وحدها . فقد يكون في الحرب الصامتة الملعنة عليهم من الآباء والامهات أحيانا ماهو أشد تكلالا بهم وأكثر تخريبا لأوضاعهم النفسية والعقلية ، وذلك بسبب مايسقطه هؤلاء الآباء والامهات أحيانا من آثامهم الماضية على أولادهم وبناتهم ، وبما يقتضونه من أولادهم وبناتهم من تعويضات نفسية عن فشل قديم عانوه ، أو مرارة نفسية قاسوها في طفولتهم وظل جرحها يكبر معهم حتى اذا كبر أولادهم وبناتهم ورشدوا ظنواهم المثابة التي توفى لهم فيها ديونهم القديمة على آبائهم وامهاتهم . ولنجتزئ هنا بمثلين اثنين .

● المستر ميلر مواطن من مدينة نيويورك وهو يعيل من الاطفال سبعة يضاف اليهم زوجه وامه وهكذا يستوى عدد افراد الاسرة عشرة . والمستر ميلر ليس من ذوى الدخول الواسعة ، وكبرى بناته هي دوروثي في المرحلة النهائية من الدراسة الثانوية . ودوروثي ترغب ان تظهر من المظاهر باجملها ، وهى كاية شابة في عمرها تستهويها مفاتن الشباب من عطر وحلي وملابس وحفلات وغير ذلك . وهي تدرك ان موارد العائلة المالية لا تكفي لنوالها ما تريد . وهي في ذات الوقت حريصة على كرامتها واسم عائلتها . والمدارس في الولايات المتحدة تدرك حاجات الشباب ، وتعني ان كثيرا من الاسر قد تعجز عن الوفاء لابنائها وبناتها بما يريدون . ولذلك فهي - اى المدارس - تضم الى أجهزتها الادارية أجهزة متخصصة بتشغيل الطلاب في العطل الصيفية الطويلة في المصانع او منتجات الاصطياف والاستجمام وتضرب بذلك عصافيرين بحجر واحد ، فهي اذ تريح الاسرة المعسرة او المضيق عليها في الرزق من قدر من تكاليف المدرسة فانها في الوقت ذاته تنيل الاولاد والبنات فرصة الخبرة العملية ، وتعلم الاعتماد على النفس واحترام الكد من أجل العيش بكرامة ، ثم تعيد الاولاد والبنات في آخر الصيف الى منازلهم بجيوب مملوءة بمقادير محترمة

من المال تضمن لهم ما يشتهون من متع الشباب. وكانت مدرسة دوروثي تقدم هذه الخدمات لطلابها شأنها شأن المدارس الأخرى . وتقدمت دوروثي الى مكتب تشغيل الطلاب تلتمس عملا خلال الصيف ، ووفرت لها المدرسة عملا مربحاً في احد المصايف الجميلة . فلما أشعرت دوروثي أهلها بالترتيب الصيفي انفجر الاب مفضبا من اقدام ابنته على ذلك ثم راجع المدرسة ناقما ومعتزضا ومحتجا . ويعجب اولو الامر في المدرسة من نقمة الرجل واعتراضه على حين كانوا يظنون انهم قد احسنوا اليه والى ابنته ، فيناقشونه في الامر ، ويتذرع الرجل في البداية بأن الامر يتنافى وحبه لابنته ، فهو لا يريد لها أن تتحمل متاعب العمل في هذه السن المبكرة . فاذا نوقش في ان البنت هي الراغبة في العمل وهي الساعية اليه قال ان كرامته تأبي عليه ان يرسل ابنته للعمل في الفنادق . فاذا انبىء بان اسرا اكبر من اسرته دخلا وأنبه في المجتمع ذكرا ترسل بناتها للعمل دون أن تجد في الامر حرجا قال انه يخشى على ابنته من ذئاب الرجال في تلك الاماكن ، الامر الذي يثير دهشة المسؤولين لان ايا من البنات اللواتي سبق لهن العمل في الماضي لم تتعرض لمكروه فما الذي خوف المستر ميلر من مثل هذه المحاذير ؟ هنا جواب ميلر انه متأكد من ذلك .

— وكيف تأكدت من ذلك ؟

— ان هذا شأني الخاص ...

— ولكنه شأن المدرسة ايضا ؟ فالمدرسة ليست اقل حرصا على شرف بناتها من اولياء امورهن ؟

— اني اعلم مالا تعلمون .

— واني لك هذا العلم الذي لانعلم يا مستر ميلر ؟

— ان القضية بسيطة ... يأتي الرجل المصطاف الموسر الى هذه الاماكن هربا من زوجته او من عمله . . فتتصل به الفتاة عن طريق خدمته على المائدة ، فتستهويه فيشتهيها فيترك لها في اليوم نصف دولار على المائدة ، ثم يصير نصف الدولار دولارا في اليوم الثاني . . ثم يتجاوز الامر الدولار الى دعوة لرقصة على ساحل البحيرة تحت ضوء القمر . . ثم الى هدية صغيرة ثم هدية اكبر . . وهكذا تبدأ الفتاة تنجر الى الشرك المنسوب لها حتى تكتشف في نهاية الطريق انها دفعت الكثير لقاء ثمن بخس .

كان المستر ميلر يقول هذا بكل اخلاص للمسؤول عن تشغيل الطلبة ، ويتذرع به للحيلولة دون ارسال ابنته للعمل والمسؤول فاغر فاه عجاودهشة مما يقول هذا الاب الغيور . فلما اتم المستر ميلر حديثه قال له المسؤول : —

— انك ياسيدي تثير عجبنا الى حد الخوف . . فهل لك ان تعطينا واقعة واحدة مصداقا لما تقول وعلى ما تلقيه من التهم ؟

فما كان من المستر الا ان يبلغ به الغضب مداه فينفجر صارخا في وجه المسؤول ...

- أبة بينة تريد ... ؟ كل الرجال يفعلون هذا ... لقد كنت أنا نفسي أفعله ردحا طويلا من الزمن .

بعد ذلك تهاوى ميلر على مقعده كمنلقى من كاهله ثقلا كبيرا واستراح . ورفع الحجاب امام مسؤولى المدرسة . اذن كان المستر ميلر يصارع آثامه هو وأخطائه هو وضحاياه هو من خلال اعتراض على عمل ابنته . كانت الآثام والأخطاء والضحايا تثر في صدره أن الرجال كلهم على شاكلته ، وأن ابنته لن تكون شيئا مختلفا عن اللواتي سقطن في شباك أبيها . واذن لم يكن هناك حب أبوى ولا كرامة شخصية يأتين على الرجل إرسال ابنته للعمل وإنما كان هناك الخوف ... الخوف من أن تدفع ابنته ثمن حرمان بنات الآخرين التي استباحها في شبابه ... لأن الآباء الذين يأكلون أعنابا لم تنضج تفرس أسنان أبنائهم ، كما يقول الإنجيل .

●●● الآن تيودور شاب في التاسعة عشرة من عمره ، وهو مخفق في عمله الجامعي نتيجة احساس عميق بالعجز في المساهمة في رسم مستقبله وتخطيط حياته القابلة وهو يعاني من القلق وضالة الشعور بالرضا عن نفسه وعن الحياة . لقد كان طفلا وحيدا لأبويه اللذين كانا يتمتعان بمركز اجتماعي محترم وقد حرصا منذ البداية على حمايته من حقائق الحياة المؤذية . وكان كلما سأل أبويه بعض الأسئلة أجيب من قبلهما « أنتظر حتى تكبر » . وكلما حاول أن يقوم ببعض الأعمال على مسؤوليته الخاصة سأل أبواه « أو تظنك قادرا على القيام بذلك ؟ » . وكلما حاول أن يناقش مستقبله المهني معهما قالوا له « أن أمامك الكثير من الوقت لتفكر في ذلك ، أما في الوقت الحاضر فإن واجبك الوحيد هو الالتحاق بالجامعة » . وكانت الهواية الوحيدة التي سمح له بممارستها هي لعبة « الجولف » وكانت تلك هي الهواية الوحيدة لأبيه أيضا . وعندما الحق بالجامعة سأل أبويه « ما الغرض من ذهابي إلى الجامعة ؟ » وكان الجواب « أننا سنقرر ذلك فيما بعد بطبيعة الحال » . كان الأبوان يفكران في مستقبله المهني إلا أنهما جعلتا ذلك سرا مكتوما ليتأكدا من طاعته المطلقة لتوجيهاتهما . أخيرا بدأ الشاب يحس بالرهق من هذه الحياة التائهة التي كان يحيها . ثم جاء اليوم الذي كان لا بد أن يجيء في هذه الحالة وكل حالة أخرى مشابهة لها عند الأطفال المبكوتين وصرح الشاب قائلا « اننى أشعر بأننى مثبط . اننى لا أدري إلى أين أسير ولا إلى أين أذهب . اننى لا أحس بأننى أساهم في تقرير مصيرى . عندما أسأل سؤالا فأنى لا أحصل على جواب . حتى حينما أدخل على أبوى وهما منشغلان بحديث من الأحاديث فانهما يسكتان فجأة . اننى لم أشعر بأية لذة من حياتى في السنتين أو السنوات الثلاث الأخيرة . اننى شديد القلق . اننى أعتقد أن الأمور تعاكسنى بشكل سيء تماما (١٠) » .



الانفصال عن العالم والرجيل الى الأعماق

اللوحة الرابع

الرفض

الاستاذ - اريد أن أعرف الفلسفة وراء اطالة الشعر وارساله بهذه الصورة المبعثرة .

الطالب - هل يزعجك ذلك ؟

الاستاذ - كلا . . . ولكنى من جيل متقدم على جيلك ولم يكن من الذوق العام في زماننا ارسال شعور الرجال بالشكل الذى تفعلون انتم الآن .

الطالب - اعتقد انها قضية ذوق شخصي .

الاستاذ - ولكنها ظاهرة عامة والظواهر العامة لا يمكن أن تترجم عن اذواق شخصية . ولو كانت قضية ذوق شخصي لاختلف الشباب فيها . وإذا كانت ظاهرة اجتماعية عامة ثابتة - وهى كذلك فعلا - فلا بد لها من فلسفة . ان الظواهر الجماعية فى السلوك الانسانى هى قوانين غير مدونة ولكنها فاعلة فى السلوك .

الطالب - لم أخبرك الحقيقة . . . ولكن ماهو غرضك على وجه التحقيق ؟

الاستاذ - حب الاستطلاع ومحاولة فهم الدوافع الانسانية . . انا معنى بمشاكل الانسان . . . وانا ادرك ان الظواهر السلوكية لا بد أن تكون رموزا لأشياء أعمق جذورا فى النفس البشرية . . .

الطالب - صدقت . . . ان الشعر الطويل المرسل المشوش والقدر أحيانا هو رمز لشيء أعمق منه بكثير .

الاستاذ - هو رمز على ماذا ؟

الطالب - الرفض .

الاستاذ - ولكن رفض ماذا ؟

الطالب - قيم المجتمع ؟

الاستاذ - أى من قيم المجتمع ؟

الطالب - قيمه الاستهلاكية . قيمه الاستحواذية . ان روح الاقتناء والاستزادة والانفراد بالأشياء والتكثرت منها والتنافس عليها بدأت تدمر الأسس الانسانية للمجتمع . الناس يتنافسون على اقتناء البيوت الفخمة والاثاث الفخم وامتلاك أكثر من سيارة واحدة وأكثر من جهاز تلفزيون . حتى الكلاب والقطط أصبحت مما يتنافس فيها الناس . بهذا صرف النظر عن الانسان نفسه الذى يفترض ان يكون الفاية العليا من الحياة كلها ، من الوجود . لقد وضع الانسان فى خدمة الأشياء بدلا من أن تكون الأشياء فى خدمته . اليس ذلك شيئا مأسويا ؟ .

الاستاذ - نعم .. هو مأسوى بالفعل .. ولكن ما علاقة ذلك كله بالشعر الطويل المنثور .
الانسان صاحب العقيدة يكافح من أجل افكاره بشعر ومن دون شعر . . وهل يعنى كون
بعض الرؤوس صلعاء ان أصحابها ليسوا من أصحاب الافكار الانسانية العالية ؟

الطالب - انت الآن تمزح ...

الاستاذ - بل انا جاد .

الطالب - حسنا اذن . لنبدأ من هذه النقطة . لوعدنا الى الورا قرنين أو ثلاثة قرون
سنجد ان الشعر الطويل للرجال كان ظاهرة عامة . حتى الانبياء .. عيسى وموسى عليهما
السلام مثلا ... تجدهما مصورين أو منحوتين بجدائل طويلة مرسلة على اكتافهما وذوائب اطول
مدلاة على جباههما . طف كنائس الدنيا كلها فلن تجد المسيح مصورا في تمثال واحد من دون
جدائله وذوائبه . هذا هو الاصل الثقافى للشعر الطويل المرسل عند الرجل . رجال الصحراء
العرب الى اليوم يتزينون بشعور طويلة تحت كوفياتهم المهفهفة فى الهواء . ان لهذا التعلق
بالشعر الطويل سببا بطبيعة الحال . ان الشعر اكثر من أى شيء آخر يعطى الرجل شخصيته
المتفردة المتميزة وعندما تجزئ فروة راسه يتغير شكله كليا وربما اضطربت اوضاعه النفسية .

الاستاذ - ولكن هل تحتمل هذه القضية كل هذه المضامين ؟ الا ترى انك تحمل الاشياء
فوق طاقتها ؟

الطالب - عموما ... ليست هذه « هى » القضية ...

الاستاذ - ما « هى » القضية اذن ؟

الطالب - الانسان « هو » القضية .. ان حضارتكم الراهنة تمجد الابداع الانسانى ولكنها
تدمر الكائن المبدع نفسه . هذا من صنع البورجوازيين .

• • •

اللوحة الخامسة

القنوط

الاستاذ - ولكن من اين جئت بفكرة تدمير « المبدع » ؟

الطالب - ان الاعتداء على الانسان يبدأ مبكرا . منذ الطفولة المبكرة . انهم يحاولون صبك
فى قوالبهم الموروثة ، يجب ان تكون صورة أخرى مكررة عن ملايين صور الرجال الجوف . الم
تسمع بكتاب « اندريه جيد » ، أيتها العائلات .. انى اكرهك ؟

الاستاذ - بلى سمعت به .

الانفصال من العالم والرجيل الى الاعماق

الطالب - لقد كان جئرا ضد معاملة الاطفال على أنهم راشدون صغار . لقد كرر سارتر الشكوى ذاتها والاحتجاج ذاته في كتابه « الكلمات » (١٩٦٣) وقد حاول سارتر في هذا الكتاب التنبيه الى ان خير طريقة لتفادي جعل الناس نوريين هي توفير تربية ديموقراطية اصيلة لهم .

الاستاذ - ولكن البورجوازيين الذين هاجمتهم قبل قليل لم يبنوا مجدهم ونفوذهم على هذه التربية الديموقراطية الاصلية ؟

الطالب - ان البورجوازي يفسر وجوده على هذه الارض بانه نوع من انواع الحق الالهي . اما البروليتاري فلا يملك مثل هذا اليقين ، لانه لا يتمتع بنفس الضمانات التي يتمتع بها الطرف الآخر .

الاستاذ - ما الذي يمنعه من ذلك ؟

الطالب - لان الصناعة كما يقول « اندريه مالرو » دمرت صورة الله في الضمير الانساني وبهذا محت من امام الانسان كل ما يعترض طريقه، وعندما وصل نهاية افعابه لم يجد الا الموت كما وجده رانسي امام جسد حبيبته . (١١)

الاستاذ - ولكن الا ترى أنك تتخذ موقفا مفرقا في التشاؤم من العالم ؟

الطالب - أبدا . . انه عالم عبثي قائم على الخديعة .

الاستاذ - الخديعة ؟

الطالب - نعم الخديعة . . انها في المركز من المأساة الانسانية المعاصرة . . او لم تسمع بمحنة « هنري مارتان » التي هي رمز لازمات كل الشباب المخدوع في هذا العالم ؟

الاستاذ - بلى سمعت به اليس هو صاحب « سارتر » الذي . . .

الطالب - بلى انه هو . لقد انضم مارتان الى المقاومة الشعبية الفرنسية سنة ١٩٤٥ وهو في السابعة عشرة من عمره ، وأبلى بلاءا حسنا ، ثم نقل الى البحرية الفرنسية بعد الحرب ، وارسل الى الهند الصينية حيث اوحى اليه انه ارسل للمشاركة في تحرير شعوب المنطقة من الاحتلال الياباني . غير انه سرعان ما اكتشف انه كان متوقعا منه ان يسهم في ابقاء تلك الشعوب تحت السيطرة الفرنسية الاستعمارية ، فأحس بالخيانة وحاول ثلاث مرات شراء حريته من الجندية وأخفق فيها كلها فما كان منه عام ١٩٤٩ الا أن قام بتوزيع منشورات مناهضة للحرب في قاعدة طولون العسكرية انتهت به الى السجن خمس سنوات .

الاستاذ - هل كان في مقدوره ان يغير العالم وحده ؟

الطالب - كلا . . وتلك كانت خطيئته المهلكة . . انه أراد ان يعلن حربا على النظام العالمي الفاسد ، وان يقودها ويخوضها وحده ، على حين ان المخدوعين في العالم كثير كثير ، افرادا كانوا أم جماعات .

(١١) رانسي مصلح ديني فرنسي عاش بين ١٦٢٦ - ١٧٠٠ - وانتهى عاشقا مات بين يدي عشيقته . لقد طرح مالرو افكاره هذه في رواية « الفاتحون ١٩٢٨ » و « الامل ١٩٣٧ » .

الاستاذ - وكيف تخدع الجماعات ؟

الطالب - ان خديعة الجماعات لا تختلف عن خديعة الافراد الا بالدرجة فقط . ألم تقرا ما كتبه « توينبي » عن خديعة الرجل الاسود في الولايات المتحدة .

الاستاذ - وماذا قال توينبي ؟

الطالب - قال توينبي ان «الزنبي الامريكي» وعد أولا بأن تحريره من الرق ، ومن ثم توحده مع الرجل الابيض سيضعان حدا لضعة مركزه الاجتماعي ومستواه المعاشي . ولكن في كل مرة كانت آمال الزواج تخيب . وكان من نتيجة ذلك وتبعها له ان اصبح الزنبي حائرا ضائعا شاكا تأكل المرارة قلبه ، وقد دفع ذلك فيما دفعه الى ان تتجه قطاعات من المجتمع الزنبي الامريكي الى الايمان بحياة جديدة قائمة على الانفصال الكلي عن الرجل الابيض ، انفصال قائم هذه المرة على اختيار السود ومن صنعهم يجري تحقيقه بوسائل العنف (١٢) .

الاستاذ - اذا كان العالم يبدو لكم مزاجا عجيبا من العبيثية والخديعة والاغترار ، فأنتم لا تبقون على باب من ابواب الرجاء مفتوحا امام مسؤوليات المستقبل .

الطالب - نعم هو ذلك . القنوط من الامل هو العقلانية الوحيدة التي تجعل العالم محتملا ، وهي التي تحيل هذه التجربة المبهضة - الحياة - الى حالة من حالات الوعي . لقد تنبأ صاموئيل بيكيت Samuel Beckett (١٣) لذلك منذ ١٩٣٨ في شخصية مورفي .

الاستاذ - وما هي رؤيا بيكيت عن العالم من خلال مورفي ؟

الطالب - محض عبث لا مبرر له ولا طائل تحته . فانت تعرف ان مورفي مواطن من مواطني دبلن يعيش في لندن على الصدقات ، وهو وحداني ذاتي سيء العشرة يؤمن بأن عقله عبارة عن « مجال ضحل كبير مفلق انفلاقا تاما بالنسبة للعالم الخارجي . وهو يريد ان يوصد بوابات عقله من دون العالم الذي تبهضه عبيثته وبطلانه وفوضاه ، وهي أمور لا تترك له فرصة للتوافق مع هذا العالم ، ولذا فهو يرى ان المعتكف الوحيد في العالم هو « عقله » الذي هو المكان الاوحد حيث يستطيع ان يجد السلام الداخلي فيه ، وحيث لا يكون الا « هبوة » في ظلام الحرية المطلقة . الطريق التي يسلكها مورفي الى الرحيل الى اعماقه الداخلية هي ان يربط نفسه عاريا الى كرسي هزاز ثم يهتز ويهتز حتى « يجيي عقله » .

ان رحيله بعيدا عن زعزعات العالم الخارجي « عالم الامتداد » وتقدمه الى « كهف النفس » ذلك الكهف الباطني المظلم يتعقد بحبه لعاهرة اسمها سبليا وهي « مخلوق شهواني » تبحث

(١٢) Toynbee, A., Experiences, p. 248, Oxford University Press, 1969, London.

(١٣) صاموئيل بيكيت كاتب مسرحي ايرلندي ولد عام ١٩٠٦م واختار باريس منذ صدر شبابه مستقرا له حيث نشر اكثر مسرحياته باللغة الفرنسية وبني مجده الادبي هناك وهو يعد الآن بالاضافة الى برخت ويونسكو القاطب الحركة المسرحية العالمية في الاربعين سنة الاخيرة . ومن اهم اعماله « مورفي ١٩٣٨ » و « في انتظار جودو ١٩٥٢ » و « نهاية اللعبة ١٩٥٧ » و « كيف الحال ١٩٦١ » .

الانفصال عن العالم والرجيل الى الاعماق

عن مركز اجتماعي محترم بافترائها بمورفي وحملها اياه على البحث عن عمل . غير ان العمل الذي يحصل عليه مورفي يكون في مصحة للأمراض العقلية . في هذا المكان يجد مورفي « ملاذه من الدنيا » ويحس بنوع غريب من السعادة بين المتأئين عقليا ، لانهم ولجوا المنطقة التي يحاول هو الوصول اليها عن طريق كرسيه الهزاز . على أن سعادة مورفي لا تدوم طويلا لانه يحترق ذات يوم هو وكرسيه الهزاز .

يترك مورفي وراءه وصيته يوصي فيها ان تحرق رفاته وان توضع بقاياها في كيس من الورق وان تحمل الى مسرح « آبي » السدي « انقضت فيه أسعد ساعات هذه البقايا ، وان تنثر في مجارى مياه ذلك المسرح دون احتفال او اظهار للحزن . ولكن حتى هذه الأمنية الأخيرة كانت غير ممكنة التحقيق ، ذلك ان الصديق الذي حمل رماد رفات مورفي - وقبل ان ينفذ الوصية - يدخل في شجار مع عامل البار في المسرح فيقذفه بكيس الرباد في لحظة غضب ويتناثر الرباد على الجدران وارضية البار ويصبح في التو موضع الدهس والنخس بنعال السكاري ، وهكذا يغدو جسم مورفي وعقله ونفسه مبعثرة على ارض البار . وقبل ان يبرغ فجر اليوم التالي تكون الارض قد كنست من « الرمل والبيرة واعقاب السكاير والزجاج والكبريت والبصاق والقيء » المختلطة ببقايا رفات مورفي .

الاستاذ - لا امل اذن امام الانسان في شيء من الخير او الرجاء فيه ؟

الطالب - لا بل هنالك امل .. هو اقرب الى البطلان منه الى الحقيقة .. هو الامل في الامل ..

الاستاذ - لا افهم ؟

الطالب - انه وجود المرتقب الذي يرينا ببيكيت كيف ان كل الناس تتوقعه ، ولكنه لا يجيء .. ومع هذا فهم يحلمون بمجيئه وهم لا يريدون ان يخسروا هذا الحلم لانه هو الشيء الوحيد المتبقى لهم . (١٤)



(١٤) في مفتتح مسرحية « في انتظار جودو » نسمع هذا الحوار بين صطوكين ينتظران جودو على قارعة طريق وقد عفيهما الجوع :

استراجون - هل آلت متأكد ان هذا هو المكان الذي علينا ان ننتظره فيه ؟
 فيلاديمير - لقد قال بجوار الشجرة . ماذا تريد ان تقول ؟ اننا في المكان الخطأ ؟
 استراجون - كان يجب ان يكون هنا .
 فيلاديمير - انه لم يؤكد انه سيأتي
 استراجون - واذا لم يات ؟
 فيلاديمير - سوف تأتي غدا
 استراجون - ثم بعد غد
 فيلاديمير - يحتمل
 استراجون - المسألة هي
 فيلاديمير - الى ان يأتي

اللوحة السادسة

الضياع

الاستاذ - الا ترى ان بيكيت وامثاله ليسوا ممثلين للعالم ، وان الوضع الانساني ليس بالسوء الذي يصورونه به ؟

الطالب - ولكن الكتاب من طبقتهم هم ضمير العالم .

الاستاذ - ليست هناك معايير هادية في هذه الدنيا غير رؤى هؤلاء الكتاب ، وغير الصراع السياسي والكفاح الدموي ؟

الطالب - مثل ماذا ؟

الاستاذ - خذ القيم مثلا . . ألم تكن حتى الآن دليلا هاديا للبشرية ؟ ألم تكن مصدرا من مصادر الاستقرار النفسي للانسان العادي ؟

الطالب - الانسان العادي الذي لا يفكر بطبيعة الحال . . . ذلك هو الذي تريد . . أليس كذلك ؟

الاستاذ - ابدا . . الانسان المفكر هو الذي يعرف القيم ويميزها ويسترشدها بها .

الطالب - قد يكون الامر كذلك ولكن المشكلة هي انه ليست هناك قيم متفق عليها أصلا ، ولذا فاننا لسنا في وضع أفضل من وضع مورفي في انفصاله عن العالم .

الاستاذ - وكيف ذاك ؟

الطالب - القيمة شيء نسبي ، والنسبي قابل للتعليل والتأويل . . وما كان كذلك لا يمكن الاعتماد به .

الاستاذ - ومن أين جاءت نسبية القيم ؟

الطالب - جاءت من غياب الإجماع عليها . فهناك من يرى ان القيمة شيء ذاتي ، وانها لا توجد الا كمواظف أو احساسيس بالرغبة أو النفور ، بالحب أو الكره ، بالاحترام أو الازدراء نحو شيء معين أو نحو شخص معين . فالأكل والشرب والاستمتاع بالموسيقى أو تأمل غروب الشمس كلها قيم لانها تثير فينا احساسا للذبا ، وتقديرا ، وتوهجا في المشاعر . انها تعطينا تجارب شخصية في طبيعة الاحساسات التي نلدها . وهذا لا تكون القيمة الا اهتماما أو متعة يعطي الاشياء معنى في نظرنا عندما نرغب فيها أو نحس بالحاجة اليها . حتى عندما تكون القيمة في الشيء فعلا فان الشيء نفسه لا يكتسب من الأهمية الا بمقدار رغبة الانسان فيه أو حاجته اليه ، وكما يقول پيرى R. B. Perry فان « أى شيء - مهما كان - يكتسب قيمة » عندما يحظى

الانفصال من العالم والرحيل الى الاعماق

باهتمام الانسان به ايا كانت درجة الاهتمام ، بالضبط كهدف الرامى الذى لا يصبح هدفا الا عندما يقع التصويب عليه من قبل رام معين » . (١٥)

ويوضح باركر هذه الحقيقة بشكل ادق في قوله « ان القيم تنتسب الى العالم الداخلي ، عالم العقل . ان اشباع الرغبة هو القيمة الحقيقية ، اما ما يساعد على تحقيق الرغبة او اشباعها فهو مجرد أداة . القيمة هي دائما خبرة ، وليست شيئا . الأشياء يمكن ان تكون قيمة ولكنها لا يمكن ان تكون قيما على الاطلاق . اننا نعكس القيمة الداخلية على العالم الخارجي ونسبها على الأشياء التي تحقق الرغبة أو تساعد على تحقيقها . » (١٦)

الاستاذ - اراك تغلوا غلوا شديدا في نفي واقعية القيم الانسانية ، وتنفي عنها صفة الموضوعية والحقيقة ، على حين اني أعلم أن قيم الأشياء فيها وليست في الانسان . وفي تخميني انه لو لم تكن الأشياء قيمة بذاتها لما قيمها الانسان . الانسان يكتشف قيمة الأشياء فقط . ولا ريب ان هناك ميزة او خاصية او نظاما للخصائص والمزايا في « الشيء » تجعل الحكم عليه ضروريا ومعقولا في وقت معا لانها تثير فينا استجابة تقييمية Appreciative Response . عبارة أخرى . . ان فيها شيئا مستقلا يلد العين أو الاذن أو الحاسة الخلقية أو الملكة الجمالية في الانسان . وعلى هذا فان الانسان لا يهتم الا بتلك الأشياء التي تبدو له ذات قيمة أصلا .

الطالب - قد يكون هذا حقا . . . ولكن اكتشاف قيمة الشيء لا يتحقق الا من خلال التجربة الفردية ، أي الانفعال بالأشياء ، وهذه قضية ذاتية صرف .

الاستاذ - هذا حق ولذا فاننا يجب ان نميز بين امرين مهمين ، بين التجربة النفسية المصاحبة للحكم على الشيء من جهة ، وبين « الشيء Object » أو « الوضع Situation » الذي نحكم عليه .

الطالب - كيف تفصل الانفعال عن موضوعه ؟ ألا يبدو ذلك صعبا ان لم يكن مستحيلا ؟

الاستاذ - لاستحالة في الامر . خذ مثلا احكام الناس على الجو من حيث هو حار أو بارد . اننا هنا لا نقول ان احكامهم نفسها حارة او باردة لانها احكام موضوعية من جهة ، ولأن ما هو حار او بارد انما هو موجود خارج الانسان . وفي هذه الحالة نستطيع ان نختبر دقة احكامهم بمقاييس الحرارة وسيكون صوابها او خطأها - أي الاحكام - مرهونا بمدى توافقها مع ما يشير اليه ميزان الحرارة حتى في الحديث عن الجمال . . . اننا لا نقول عن شيء انه جميل ما لم يكن فيه ما يبرر هذا الحكم كالوانه مثلا او تناسق ابعاده او هيئته . قيم الأشياء هي في الأشياء ذاتها غير ان

Perry, R. B. ; General Theory of Value, pp. 115-116, Longman's Green (١٥) and Company, New York, 1926.

Parker, D.H., Human Values, pp. 20-21, Harper & Brothers, New York, (١٦) 1931.

اكتشافها ليس ميسرا للجميع لأنه رهين بالخبرة والملكة ، فالانسان الدواقة هو الذى يميز الطيب من الخبيث وعندما يعجز الناس عن اكتشاف قيم الاشياء فانهم يبرهنون على عجزهم ليس غير .

الطالب - انك لم تزد الامر وضوحا .. كل ما فعلت انك خلطت « الشيء » ب « التجربة »
أو « الموضوع » ب « الانفعال » وجعلتهما شيئا واحدا .

الاستاذ - تلك هي بالضبط طبيعة الاشياء . لان القيمة - في التحليل الاخير للاشياء - هي ذات طبيعة علائقية ، بمعنى ان كلا من العوامل الدائية والموضوعية ضرورية لخلق القيمة ، ذلك ان عملية خلق القيمة او ايجادها او احداثها هي علاقة خاصة او معرفة بعلاقة خاصة تتكشف لاشخاص حساسين أو قادرين على التفهم . ان القيمة هي حصيلة تفاعل متغيرين أو أكثر في حالة معينة . وهناك خصائص أو حالات بيئية تثير في الأجهزة الحسية تلك الاستجابات الفريدة التي نسميها أحكاما اخلاقية . في مثل هذه الحالات لا يمكن الجواب على السؤال .. « هل الجمال موضوعي أم ذاتي بكملة نعم أولا . الجواب الصحيح هو ان الجمال صفة أو خاصية في شيء معين تتكون من قدرة ذلك الشيء على احداث اللذة في ذات متألمة . ان السؤال .. هل الجمال موضوعي أم ذاتي ؟ مشابه منطقا للسؤال .. هل حالة التسمم موضوعية أم ذاتية ؟ ان تجربة اللذة مثل الموت .. انها ليست طاقة ولا قدرة ... انما هي حدث بعض الاشياء قادر على التسبب به في بعض الناس على حين ان الجمال - من الناحية الاخرى - هو مثل التسمم ليس حدثا ولا خاصية وانما هو طاقة او قدرة تملكها بعض الاشياء ... لاحداث اللذة في بعض متألميها ... » (١٧)

الطالب - لقد اعطيت للقضية عمقا عقلانيا جدليا وعزلتها عن ملاساتها الحياتية . ان جيلنا ينظر الى القضايا الاخلاقية على انها مشاكل عملية محمولة في الرحم الاجتماعي ولا يمكن التماسها في الجدليات الميتافيزيقية . الفقر والعوز والبطالة واستغلال الانسان للانسان والعبودية الفكرية .. هذه كلها ليست امورا جدلية محضة .. انها من افرازات التركيبة الاجتماعية التي تحتوى الانسان ولا سبيل الى تبديلها الا بتبديل التركيبة الاجتماعية ذاتها . عندما طرحنا قضية القيمة طرحناها على انها أداة استهداء في الحياة العملية ، أداة للبحث عن الخلاص الانساني .

الاستاذ - ومن قال ان مسألة القيمة معرولة او قابلة للعزل عن مشاكل الحياة الانسانية وعن معاناة الانسان ؟ الاخلاق عموما ليست نظاما في بناء القيم الضابطة للسلوك الانساني فرديا كان أم جماعيا . وهكذا فان الحديث في القيم ان هو الا المدخل الطبيعي الى مناقشة النظام الاخلاقي الموجه للفعاليات الانسانية والجماعية منها على وجه التخصيص .

الطالب - هذا حق .. لولا انك أضفيت على المعالجة درجة عالية من الضبابية اللغوية التي أضاعت المعالم الاساسية للمعضلة الانسانية .. معضلة الاهداف وعبثية الوجود وسقوط

الانفصال عن العالم والرحيل الى الاعماق

الانسان في محاولة ابتداء النظم الاجتماعية التي تعطي الوجود الانساني على الارض معنى ، وتعينه على ملء فراغ الزمن الضائع في انتظار جود والذي يعرف الجميع انه لن يجيء .

الاستاذ - القضية هنا تصبح قضية اختيار ، اختيار التفسير الاتي بالنبوءة والماليء لفراغ الزمن ، وهذه مسألة اخلاقية صرف .

الطالب - ولكن المسألة الاخلاقية ليست اقل ضبابية ولا غشبية من مسألة القيمة ، والسقوط في غياهب الاختيار الاخلاقي ليس اصعب من ضياع الطريق امام الباحثين في معنى القيمة .

الاستاذ - ومع هذا فلا بد من الاختيار . تريد الحق . . ان المسلكية الاخلاقية للانسان تبدأ بالاختيار أصلا . لقد كان المتدينون الأوائل والميتافيزيقيون اخلاقيين من الطبقة الاولى رغم ان اخلاقياتهم قد لا تقدم حلا لمعضلات عصرنا .

الطالب - هل كان في غيبياتهم حل حتى لازمت عصرهم وعبودياتهم هم انفسهم ؟

الاستاذ - ربما لم يكن . . ولكن الرؤية كانت واضحة عندهم . وهذا ما منحهم السلام العقلي على الاقل .

الطالب - ولكنه كان سلاما مكذوبا . . كان تسليما ولم يكن سلاما .

الاستاذ - كانت الطريق امامهم منورة . كانت عقيدتهم هي مجموعة الحدود التي قضت بها القوة العليا ، ارادة الله . ومع تطور المفهوم الديني اصبح وجود الانسان كله رهينا بطاعة هذه التعاليم ، كما صارت هذه الطاعة المبرر الوحيد لوجود الانسان على الارض والسبيل الى ثبوته في الحياة الاخرى ، وقد اكسبه ذلك درجة عالية من النبل .

الطالب - الطريقة هذه لم تكن عقلانية ، ولهذا حاول الانسان عقلنتها .

الاستاذ - قاده هذا الى المثالية الاخلاقية . ابتدأت هذه المثالية بافلاطون وانتهت بـ « كانط Kant » الذي كان واحدا من ابرع الفلاسفة الميتافيزيقيين ومبلور الاخلاقية الميتافيزيقية في كتابيه (ميتافيزيقية الاخلاق Methaphisics of Morals) ونقد العقل العملي Critique of Practical Reason . لقد اطلق كانط على فلسفته الاخلاقية اسم « الاخلاقية الصورية Ethical Formalism » هل قرأت كانط ؟

الطالب - اجل قرائه واعرف قوانينه الاخلاقية العامة ، واعرف شروطه لاخلاقية الفعل الانساني وهي ثلاثة (اولها) مبدا الكونية بمعنى ان الفعل الاخلاقي ينبغي أن ينبثق ليس من الرغبة او الميل ولكن من مبادئ يمكن تعميمها على كل الظروف والاحوال وأن تصدق في كل تلك الظروف والاحوال ايضا . و (ثانيها) مبدا الانسانية كفاية في ذاتها ، بمعنى ان الانسان هو غاية الحياة العليا على هذه الارض ، ولا يجوز استعماله اداة لاية غاية اخرى كما في الرق او البغاء او الاستغلال الاقتصادي . والمبدا الثالث هو مبدا الاستقلال ، بمعنى ان المبادئ الاخلاقية

التي يطيعها الإنسان لا ينبغي أن تفرض عليه من الخارج ، بل ينبغي أن يفرضها هو على نفسه ، أي أن يختارها بإرادته الحرة ، وهو يملك الوسيلة لذلك متمثلة في العقل والاحساس الفطري بالواجب المنبعثين من الداخل ، داخل الإنسان ، واللذين هما برهان ذاته العليا .

الاستاذ - الست ترى في هذه المجموعة من القوانين نظاما متكاملا للسلوك السوي وطريقا الى الرقعة الانسانية ؟

الطالب - بلى ، لولا أن مثالية كانط اغفلت حرب المصالح الاقتصادية بين الطبقات ورمت نفسها بالعدم . حتى قبل ظهور ماركس والماركسية ظهر الأخلاقيون النفعيون مثل جيرمي بنتام J. Bentham (١٧٤٨ - ١٨٣٢) وجون ستوروات ميل J. S. Mill اللذين بنيا نظريتهما في الاخلاق على القول بأن اخلاقية الفعل الانساني مرهونة بنتيجته ، فان كانت النتيجة جيدة او ممتعة كان الفعل اخلاقيا ، والا فانه غير اخلاقي ، وان يكن ميل قد حاول التقليل من خطر هذه النزعة الفردية بربطه مبدأ « النفع » لا بالفرد وانما بالجماعة او « بمدى صلاحيته في تحقيق السعادة العظمى » ، أي سعادة المجتمع . لقد قال ميل في هذا الصدد « ... ان سعادة الغالبية من الناس هي المعيار الاخلاقي الوحيد لالتماس الخطأ والصواب في السلوك الانساني ، وما دما نعيش في مجتمع غير عادل فان البعض منا يجب ان يضحي بنفسه او مصالحه في سبيل الآخرين ، وهذا هو جوهر الاخلاق ... » .

الاستاذ - هل لك من مأخذ على التفسير النفسي للاخلاق ؟

الطالب - اكثر من مأخذ واحد . **اولا** ان ميل اعترف اننا نعيش في مجتمع غير عادل ولكنه ربط صلاح هذا المجتمع او اصلاحه بالنزعة الفيرية ، التضحية بالذات في سبيل سعادة الآخرين ، وهو يعلم جيدا ان هذه دعوة غير مستجابة في المجتمع التجاري الذي كان يعيش فيه والذي كان يقوم على الربح وعلى الازدياد منه . **ثانيا** ان المجتمعات لا تصلح بالصدقات . لا بد لك من نظام ثابت في تقرير الحقوق والضمانات للإنسان ، ولا بد من وضوح العلاقة وثباتها بين الجهد والمكافأة . ان شر ما يهدد المجتمعات ان تظهر فيها طبقات طفيلية غير منتجة تعيش على جهود الناس المنتجين .

الاستاذ - لقد حاول ديوي وغيره من « الاخلاقيين التحليليين » ان يطرحوا بديلا عقلانيا عن كل المذاهب المتقدمة . وكان ديوي John Dewey (١٨٥٩ - ١٩٥٢) في كل حياته مثالا للمفكر العلمي الذي يسترشد بالتجربة ويعتمد نتائجها معيارا لتحليل الاوضاع الانسانية والنظم الاخلاقية . وقد ربط في كتابه « الطبيعة الانسانية والسلوك الانساني » Human Nature and Conduct (١٩٢١) ، ربط الاخلاق الى علم النفس الاجتماعي رافضا بذلك التسليم القديم بوجود « قيم خالدة » تقرر مسبقا ما هو خطأ وما هو صواب ، ومؤمنا بان القيم الاخلاقية الحقيقية يجب ان تمر باستمرار بعمليات تحويل واعادة بناء من خلال التفكير الناقد وعلى ضوء التبدلات في الوضع الاجتماعي الانساني وتعاطم المعرفة الانسانية . لقد رفض ديوي التسليم بصواب تلك

الانفصال عن العالم والرجيل الى الاعاق

الاشياء التي يمكن البرهنة نظريا على انها نافعة ومرضية في جميع الاحتمالات المتوقعة ولجميع الاطراف المعنية . ورغم تقدير ديوى للتاكيد الذي وضعه النفعيون على نتائج الفعل كمعيار لاخلاقيته الا انه لم يوافقهم على ربط المعايير الاخلاقية باللذة المستخلصة من فعل من الافعال وذلك لانه اعتبر الدوافع والشخصية والذات جزءا لا يتجزأ من السلوك ولا يمكن اهماله . وعلى هذا الاساس رفض التسليم بوجود فضائل محددة ومتفق عليها لان هذه الفضائل غالبا ما ترتبط بالعادة والعرف السائدين في وضع اجتماعي معين ، وهما عرضة للتبدل بتبدل ذلك الوضع . (١٨)

الطالب - لقد كان ديوى محلا مختبريا للمشاكل الاجتماعية فاضطر الى اغفال دور نظام توزيع القوة الاقتصادية في صياغة الاهداف الاخلاقية للمجتمع ، وكان عليه ان يولى قوانين الحركة الاجتماعية الواقعية مكانا اكبر من اطاره النظري للاخلاق .



اللوحة السابع

التعليق

خارج اطار العبئية الوجودية وسقوط النظم الاجتماعية في بلوغ الوضع الانساني الامثل . . .
كيف نفسر ازمت الشباب في المجتمع المعاصر ؟ لا انتمائته العقلانية او الدينية ؟

حاول هربرت ماركوزه في كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » (١٩٦٤) تفسير ذلك بخواء الحياة الانسانية الداخلية الحديثة من تلك التجارب المنورة باطنيا للوجود الانساني ، تلك التجارب التي كانت تعطي انسان ما قبل الثورة الصناعية ازدهارا باطنيا من خلال الاتحاد مع الله ، او التوحد مع النظام الطبيعي للكون . فرضية ماركوزه (١٩) الاساسية في هذا الكتاب هي « ان التقدم التكني حين ينسحب على نظام كامل للسيطرة والتنسيق يخلق انماطا من الحياة

(١٨) للتوسع في هذا التجدل الاخلاقي ، راجع كتاب

A History of Modern Philosophy by: Wm. K. Wright, pp. 546-549, Macmillan Book Company, N.Y., 1965..

كذلك راجع كتاب « فلسفة التربية واثرها في تفكير معلم المستقبل » للدكتور محمد جواد رضا ص ١٢٢ - ص ١٢٣ ، نشر جامعة الكويت ١٩٧٢ .

(١٩) ولد هربرت ماركوزه في برلين سنة ١٨٩٨ وتلقى دراسته الجامعية في جامعتي برلين وفرايبورغ حيث نال في الاخرة دكتوراه الفلسفة وكان موضوع رسالته « نظرية هيغل Hegel في طبيعة الوجود وعلاقتها بفلسفة التاريخ » . عندما استولى النازيون على السلطة هرب الى سويسرا ، ومنها الى الولايات المتحدة وابستقر في جامعة كولومبيا حيث نقل اليها بالاشتراك مع ماكس هورخايمر « معهد الابحاث الاجتماعية » من مدينة فراكفورت . بين ١٩٥٤ - ١٩٦٧ عمل في التدريس في جامعة برانديس ، ومنذ ١٩٦٧ وهو يدرس في جامعة كاليفورنيا . من اهم كتبه « ابروس والحضارة » « الانسان ذو البعد الواحد » « العقل والثورة » (الماركسية السوفييتية) .

والسلطة التي تمتص قوى المعارضة للنظام القائم ، أو تفند أى احتجاج ضده باسم التطلعات التاريخية للتحرر من الكدح والسيطرة . حتى الفكر يتم إخضاعه بحيث لا يعود مصدرا لنقد الحياة الاجتماعية » .

أن ظروف العمل في المجتمع الصناعي الرعوى تميل الى جعل العامل سلبيا . ذلك أن انسياب الانتاج في مصنع شبه أوتوماتيكي ودرجة المهارة العالية لدى العامل وزيادة نسبة المستخدمين كل ذلك من شأنه أن يقضى على أى شعور بمعارضة نظام العمل ، وهكذا تهيمن مؤسسات دولة الخدمات Welfare State على حياة الذين ينعمون بنعمها ومزاياها وذلك من خلال سيطرتها على مستوى معيشتهم ، لان زيادة الاستهلاك كفيلة كما يقول ماركوزه بأضعاف حوافز تقرير المصير حرصا على التمسك بما هو متوفر لها من نعم الحياة الباطلة ولكن الخلابة .

الى تفسير قريب من هذا التفسير ذهب **أرنولد توينبي** في تفسير ثورة الشباب وازماته بأن التقدم الصناعي تسبب في « انعدام الذاتية الفردية وانسحاق الفرد في آلية الحياة الميكانيكية من جهة ، وفي آلية الحياة الاجتماعية من جهة أخرى . ذلك أن الفردية التنافسية المميزة للمجتمع الرأسمالي . . . وتعاونية النمل أو النحل الشيوعية والقومية ذات الطبقة القبلية . . . كل واحدة منها تمثل الاخرى وكلها تمثل التكنولوجيا في . . لا شخصيتها impersonality وان تنظيمها اجتماعيا ذا طبيعة لا شخصية يناقض جوهر الطبيعة الانسانية ، ولهذا فهو تنظيم مقدر على الطبيعة الانسانية أن تثور ضده . وعندما يستجاب احتجاج الطبيعة الانسانية المبرر تماما سواء بشكل صوري موروث أو بالصمت الخالص فإن الكائن البشرى سيجد نفسه مسوقا الى استنتاج انه لا يحمل غير العنف المادى سيكون قادرا على جلب الانتباه له كإنسان وسط العلاقات اللاشخصية التي يجد نفسه فيها » . (٢٠)

على أن ماركوزه H. Marcuse يضع تأكيداً خاصاً على أثر النزعة الاستهلاكية الجديدة في مطامنة السلوك العقلاني للإنسان الحديث . والفرضية الأساسية هنا هي أن تكنولوجيا المجتمعات الصناعية الراقية قد جعلت في استطاع هذه المجتمعات إزالة التناقضات الخارجية وذلك من خلال امتصاص جميع أولئك الذين كانوا في ظل النظم الاجتماعية السابقة يشكلون أصواتاً أو قوى رافضة ومنشقة . والتكنولوجيا تفعل ذلك جزئياً من خلال خلق الكفاية والوفرة المادية وهكذا يتحول التحرر من الحاجة المادية التي اعتبرها ماركس شرطاً مسبقاً للحريات الأخرى مدخلاً لتوليد عبوديات جديدة ، فمن خلال تلبية احتياجات الأفراد المادية تزول أسباب الانشقاق والاحتجاج وينقلبون الى أدوات سلبية بيد النظام الاقتصادي القائم .

ولكن ألا يبدو هذا تناقضاً ؟ ينفي ماركوزه التناقض بإشاراته الى أنه عندما يتم اشباع حاجات الفرد الى السلع المادية على حساب احتياجه واحتياج الآخرين الى الحرية وغيرها

من القيم يفقد الانسان حرية اختيار مصيره . ويطلق ماركوزه على النوع الاول اسم الاحتياجات الباطلة ، وهو يضمن حكمه هذا ان الناس العاديين ليسوا هم الذين يقررون - في المدى البعيد - حاجاتهم الحقيقية . بمعنى ان الانماط الحياتية ترسم لهم من قبل الآخرين لانهم ليسوا احرارا في التفريق بين الباطل والحقيقي من الحاجات . وهكذا يكون للانماط الاستهلاكية في مجتمع الوفرة تأثير مزودج طبقا لتفسير ماركوزه . فهي اذ تلبى احتياجات الانسان المادية التي قد يقوده الحرمان منها الى الاحتجاج والثورة فانها تحمله من الناحية الاخرى على التكيف لفرائض الوضع القائم والتسليم بها . ذلك انه « اذا كان العامل ورئيسه يتمتعان بنفس البرامج التلفزيونية ويزوران نفس دور اللهو . واذا كانت الموظفة الضاربة على الآلة الطابعة تستطيع ان تتزين بنفس المستوى الذي تتزين به ابنة صاحب العمل الذي تعمل عنده . واذا كان الزنجي يستطيع امتلاك سيارة كاديلاك ، واذا كان هؤلاء جميعا يقرأون نفس الصحف ، اذا كان ذلك كله كذلك فانه لا يعنى بالضرورة زوال الطبقات ، بل هو يدل على بعد المدى الذي يذهب اليه المجردون من اسباب الهيمنة الاجتماعية جراء ركضهم وراء الحاجات الباطلة التي تخدم هدفا واحدا هو الحفاظ على الوضع الاجتماعي والاقتصادي القائم . ان تكيف المجردين من اسباب القوة الاجتماعية لقوالب الاستهلاك هذه يعزز وسائل الانتاج واسع النطاق mass production ولكنه لا يخلقه » .

لقد بنى ماركوزه نظريته في عبودية الانسان الجديد للحاجة المادية على فرضية أبعد عمقا في الحضارة المعاصرة ، اذ هو يرى ان هذه الحضارة قد فصلت فصلا يكاد يكون مأسويا بين العالمين الداخلي والخارجي للانسان . في هذه الحضارة ظاهرتان مركزيتان ، الاولى هي انتقالها من فترة اليقين والتوثق بصواب اخلاقياتها ابان ازدهار العهد البورجوازي الى فترة لاحقة اساسها الارتياب والرفض . ففي فترة اليقين نشأ تمييز جلي بين العالم العقلي والروحي من جهة ، والعالم المادي من جهة اخرى . العالم العقلي والروحي يفرض على الفرد متطلبات تتجاوز تلك التي يفرضها العالم المادي . ويفترض في الفرد في الاطار الاول ان يطور نفسه داخليا وفق تلك المتطلبات، ومثل هذا التطوير ممكن من دون حاجة الى اجراء تغيير في العالم المادي المحيط بالفرد .

هذا التصدد المتعالي يعتبر جزءا من طابع الثقافة البورجوازية . وكلما ازداد التصدد تعاظمت الحاجة للتعبير عن الذات بمفاهيم العالم الداخلي . وهنا يصبح مفهوم السعادة في صورتها الرومانتيكية مفهوم ذلك الجزء من الشخصية الذي يكافح لتحقيق رغباته التي خلقتها الضرورة من دون تعبير ولا انجاز . اما القطاعات غير الروحية فهي قطاعات الحياة المادية . ان الروح تنشأ جمالا مثاليا وسعادة مثالية غير ممكنة التحقيق . وعندما لا يتمكن البورجوازي من شيء غير الحفاظ على نظامه الاجتماعي والاقتصادي من خلال « تسييس » هذا النظام شيئا فشيئا واخضاع الفرد لمطالب هذا النظام ، عندئذ يكون حتما مهاجمة « العالم الداخلي » للفرد ؛ ذلك العالم الذي يستطيع فيه الفرد ان يحتفظ بقدر ضئيل من الحرية الخاصة المتحررة من المطالب

الخارجية للعالم البورجوازي . ولكن اذا كانت متطلبات العالم المادى الخارجى تقود بالضرورة الى الاعتداء على العالم الداخلى ، فان القيد الموضوع على الحرية يعنى نقضا للسعادة ، وهذه هى الظاهرة الثانية التى يفترضها ماركوزه سبباً فى ازمت الانسان المعاصر . **ان الحرية والسعادة - عند ماركوزه - ترتبطان ببعضهما ارتباطاً شديداً ، والسعادة بوصفها « تحقيقاً لجميع الطاقات الكامنة فى الفرد تفترض الحرية فى وجودها ، بل انها هى الحرية ذاتها »** . ولما كان الفلاسفة الاخلاقيون سواء منهم من عاش فى العالم القديم او فى العصر البورجوازي قد وعوا عجز الانسان امام محيطه الخارجى ، فقد رفضوا اى احتمال لقبول اية سعادة معتمدة على ظروف المحيط الخارجى ان تكون هدف الانسان . (٢١)

لقد قادت فكرة الحرية المحدودة فى العصر البورجوازي وفى الاطر الثقافية البورجوازية الى فكرة اشد تزمناً ومحدودية عن السعادة ، ومن ههنا غدت فكرة المتعة فى المجتمع البورجوازي مرتبطة بحرية الفرد المقيدة بضرورات العمل ومقتضيات السوق الاستهلاكية . المتعة هنا تتقيد بفكرة الفراغ وهذا سبب تدنى قيمتها نسبياً ، وهذا التدنى يصدق على حرية الجنس بصورة خاصة . فقد كتب « سبينوزا » يقول عن المتع الحسية « اننا نستطيع ان نغمس فى الملذات على ان يكون ذلك الى الحد الضرورى للحفاظ على صحتنا » . وكتب « فيشته » فى اتجاه مماثل يقول « انه لامر مغاير للترف والانسانية الاصيلية ان تتحول طاقة الانسان عن انجاب النسل الى وسيلة للمتعة الحسية » (٢٢) . لقد كان الجنس من جهة نظر سبينوزا وفيشته موضوعاً فى خدمة حاجات المجتمع البورجوازي النامى يومئذ . وعلى الرغم من ان الفصل بين المتعة وانجاب الاطفال امر واضح فان الانجاب المتزايد يقدم للدولة البورجوازية ما تحتاج اليه من العمال والجنود فى وقت معا . او على الاقل هذا ما يذهب اليه علماء الاجتماع الاشتراكيون مثل الاستاذ الكساندر سينالاي الذى ينظر الى هذه الازدواجية او الانشطارية على انها نتيجة طبيعية للازدواج فى الاسس الاقتصادية للمجتمع البورجوازي ، اى فى ملكية وسائل الانتاج بين اولئك الذين يعملون ولا يملكون . . . وأولئك الذين يملكون ولا يعملون . يقول سينالاي مدللاً على رايه « . . . خذ مثلاً على ذلك الازدواج الخلقى للمجتمع البورجوازي الذى يسهم كثيراً فى زيادة التوترات الخطيرة ذات الثمن الباهظ وفى زيادة الحساسية الفردية والخوف وحالات المرض العقلى . فمن السهل جداً تحت هذه الظروف ان يكون الشخص رب عائلة طيباً ، او ان يكون عدواً من أعداء تعذيب الحيوان ، ولكنه فى الوقت نفسه يستسيغ استغلال عماله بلا خجل او ان يهدم

(٢١) للتوسع فى نظرية ماركوزه عن انماط السيطرة الجديدة راجع كتابه

One dimensional Man, Sphere Books, London, 1972.

خصوصاً ص ١٦ - ص ٢٨ .

Russell, B., History of Western Philosophy, p. 557, Unwin University Book 1969.

(٢٢)

حياة عوائل الآخرين من منافسيه او ان يقوم بترويج الدعاية للحرب . الازدواج الخلقى هو التفسير . ان عبارات مثل « . . التجارة تجارة » . . او « . . حسنا تلك قضية سياسية » . . هذه العبارات وامثالها تكشف عن وجهة نظر مخيبة وداعية للقنوط . ان التهديم القاسي لحياة الناس ، السلوك الذى لا يرتضيه الانسان الشهم ممكن الوقوع جدا فى الدوائر التجارية وفى الحياة السياسية . الازدواج الخلقى مرة أخرى . هل هذه حقا قضية اخلاقية محض ؟ على العكس تماما ففى المجتمع الذى تنقسم فيه العملية الانتاجية بين العاملين والمالكين ، ويميز فيه بين العمل والعامل لا يستغرب ابدا ان يكون الازدواج الخلقى انعكاسا للازدواج فى الاوضاع المادية » (٢٢)



اللوحة الثامن

المخرج

القول بانفصال الشباب عن العالم لا ينبغي ان يؤخذ على إطلاقه . لأن العالم الذى انفصل عنه الشباب ليس عالم الانسان نفسه وانما هو عالم القيم الباطلة التى تحدت الى هذا الجيل تركه « ثقيلة » وميراثا قبيحا من رواسب الماضى البشرى المثقل بالظلم والاستغلال والازدواجيات الاخلاقية التى افرزتها عصور التخلف والاعتبارات الطبقيّة الاستغلالية التى زينها فى عيون التقدمين على هذا الجيل الجهل والحرمان والاسر الاجتماعية . فهو اذن لم يكن انفصالا بقدر ما كان رفضا . وقد وعى هذه الحقيقة اكثر الباحثين فى ازمت هذه الاجيال الرافضة واعتبروا مسؤوليتهم الاخلاقية نحوها هى فى التعمق فى تحليل هذه الازمت وتشخيص مسببات الرفض ، وعدوا ذلك وفاء منهم ببعض ما لهذه الاجيال عليهم . . ، هذه الاجيال التى استطاعت لأول مرة — ربما — فى تاريخ الانسان ان تمتلك الوعي والذكاء والشجاعة لكى تختار حياتها الخاصة وقد كان جين بول سارتر اول من حاول تنبيه المجتمع الانسانى المعاصر الى ما فى حركة الرفض الشابّة من اخلاقيات صميمية تستحق لا الدراسة والفهم وحسب وانما هى تستحق الاحترام كذلك . ففى مقابلة صحفية أجرتها معه مجلة الـ « نوفيل او بزورفاتور » فى ١١/٤/١٩٦٨ واذاعتها اذاعة اللوكسمبورج قال سارتر معقباً على ثورة الطلبة الفرنسيين : —

« . . ان العنف هو الوسيلة الوحيدة الباقية امام الطلاب الذين لم يتحولوا بعد الى شريحة من النظام الاجتماعى الذى اقامه آباؤهم للاحتجاج على هذا النظام . ففى مجتمعاتنا الغربية المترهلة صار الطلاب قوة النضال اليسارية الوحيدة . وما العنف اليسارى نفسه الا ردا على العنف الدائم الذى يمارسه المجتمع الرأسمالى ضد كل افرادهم . واذا ما حكمنا — بناء على اكثر التقارير الصحفية حيادا — نجد ان شرطة القمع الفرنسية تصرفت بشكل غريب من الوحشية عند محاولة احتواء ثورة الطلبة فى مايو ١٩٦٨ . ولم يكن ذلك العنف الا نموذجا لما يمكن ان تكون عليه الحرب الطبقيّة فى فرنسا من عنف وفظاعة . . . » .

وفي نفس الوقت تقريباً نشر **ماركوزه** دراسته عما أسماه بـ « التسامح القمعي » في المجتمعات الغربية ، وفي تلك الدراسة كشف عن إعجابه بالطابع الجمالي للحركات الطلابية التي أسماها « لغة الروح » ووجد فيها « موقفاً جديداً معقولاً مقترفاً عن مفهوم وثقافة السوق » .

والى نتيجة مشابهة توصل الاستاذ **لويس فيور** Lewis Feuer في كتابه الموسوم « صراع الأجيال Conflict of Generations » عام ١٩٦٩ . فقد تبين للاستاذ فيور من خلال سلسلة الدراسات التي نظمها حول تمرد الطلبة « أن هناك ميلاً ثابتاً في سلوك الشباب الى الرغبة في تحطيم هيمنة الآباء على الأبناء والتحرر منها ، وذلك من خلال الثورة على القيم الثقافية القائمة على التسليم بهذه الهيمنة اخلاقياً وفعلياً . وهم حينما يقومون بالثورة على الوضع الاجتماعي القائم ، وعندما يحاولون تحطيم قيمه ومؤسساته فكانهم يقولون لانفسهم ... حسناً . هذه كلها من صنع آبائنا واجدادنا وهي قيودهم التي يمسكوننا بها ويفرضون ارادتهم من خلالها علينا . ونحن لا نستطيع ان نتحداهم او نثور عليهم مباشرة ، ولا ان نفلت من قبضتهم عنوة فلا أقل من ان نحطم ما بنوه من قيم ومؤسسات ، ونسفه ما التزموا به من مثل وانماط في العيش وبهذا لن نبقى لهم شيئاً يسيطرون به علينا . » (٢٤)

حتى الجامعات العريقة في تقاليد التحرر العقلي لم تجد في حركات الرفض الطلابية « نذيراً » بمرحلة انهيار جامعي في العالم . وانما وجدت فيها شيئاً يستحق الدرس والفهم . بمعنى آخر هي وجدت في هذه الحركات باباً من ابواب الحقيقة . الجامعة التي لا تبخل بالاموال وطاقت العلماء توفرها للدراسة الاميبا او الدودة الصغيرة ليست اكثر مسؤولية نحو دراسة الانسان وفهم مشاكله . لقد جاءت ثورة الطلاب مقترفة بفراغ الجامعة من الظفر بالاعتراف لها بحقها المطلق في طلب الحقيقة المادية مع بقاء الحقيقة الاجتماعية معلقة غير محسوسة . واذا كان للبشرية اجوبة حاسمة حول اسباب مرض السل وعلاجه مثلاً فهي لا تملك مثل هذا الجواب عن قضايا الظلم والعدل ، والحرب والسلام والفقر والغنى ، الانتاج والتوزيع ، التمييز والمساواة . ان هذا كله جزء من الحقيقة التي التزمت الجامعة بالبحث عنها وفيها ، ولن يقلل من قيمته ان الطلاب هم الذين يثرونه . ولن يقلل من قيمته ان الطلاب قد يخطئون الوسيلة الى اثارته . ان اخطاءهم لا تهون ولا تستطيع ان تهون من حقيقة ان الحرب على الحرب في فيتنام بدأت في حرم الجامعات الامريكية ، وان الزكاة لها كان الدم المطلوب في كلية ولاية كنت Kent State College . لقد كان اول من اخترق الجدار المضروب بين الشعبين الصيني والامريكي فرق من طلبة الجامعات الامريكية من لاعبي كرة المنضدة . كما ان اقوى الاصوات المرتفعة ضد التمييز العنصري في الغرب هو صوت الطلاب سودا كانوا ام بيضا . وعلى الرغم مما اتهمت به الحركة الطلابية العالمية من طغيان النزعة اللاعقلية Anti Intellectualism عليها فان سلوك الطلاب عموماً يتميز باهتمامات اخلاقية من نوع معين ، اهتمامات اخلاقية تقوم على رفض التاريخ الذي لم تجد فيه دليلاً أميناً

الانفصال عن العالم والرحيل الى الامتاق

الى حل المشاكل التي ترتطم بها ، بل ولعلها تعتبره مسؤولا عنها . ان الاهتمامات الاخلاقية عند الشباب الجامعي المعاصر هي من دون أدنى ريب خير مطلق . وعلى الرغم مما يراه منتقسو هذه الحركات الطلابية فان هذا الانشغال الاخلاقي بقضايا الحرب والسلام ، التمييز والمساواة ، الفقر والغنى ، الحرمان والبلذخ ، الجهل والتعليم هو خير من اللامبالاة بها التي ربما كانت البديل المحتمل لهذا الانشغال الاخلاقي . كما ان انشغال الشباب الجامعيين بخفايا الاوضاع السياسية يفضل - يقينا - استغراقهم بالازياء والالعاب الرياضية واللذائذ الاخرى . وعلى الرغم مما تتهم به الحركة الطلابية المعاصرة من تمييز بشعور عظيم بالمباشر immediacy ، المباشرة الزمانية على وجه التحديد وأن اهتمامهم لا يتجاوز الحاضر المباشر ، ولذا فان التاريخ لا يحمل لهم حكمة معينة تمكنهم من رؤية الحاضر في اطار واسع من العلاقات ذات المعنى بالنسبة لهذا الحاضر ، على الرغم من هذا فان الحركة الطلابية لم تغفل العوامل التاريخية التي قادت الى قيام الحاضر المرفوض . حتى لو كانت هذه التهمة صحيحة - وهي قد تصح - فان المؤسسات التعليمية التي تولت تربية هؤلاء تحمل مسؤولية هذا التقصير ، فلو كانت قد عمقت من رؤيتهم في حركة التاريخ لما ابتلوا بهذه المباشرة في الرؤية الاجتماعية (٢٥) .

ان الاشارة الى تقصير المؤسسات التربوية في تعميق الرؤية الاجتماعية عند الشباب تقود بالضرورة الى الدور السلبي الذي لعبته هذه المؤسسات في تربية الناشئة اجتماعيا . ذلك ان المدرسة كانت في الغالب اداة بيد المهيمنين اجتماعيا يستعملونها لتثبيت الاوضاع التي تعوز مصالحهم وامتيازاتهم ، ولذا فان ثورة الطلبة تعني في بعض مآثرها الثورة على المؤسسة التربوية نفسها التي أحسوا - حين صدمهم الواقع - وكأنها قد خدعتهم عن انفسهم وعن هذا الواقع في وقت معا . لقد اكتشف الفرنسيون مثلا ان سبباً رئيسياً من أسباب هزيمتهم في الحرب العالمية كان وضع التربية الفرنسية في أهداف الطبقة الاجتماعية الفرنسية ، « ان الهزيمة والظلم ما كانا ليحلا بالامة الفرنسية لولا ضعف الايمان واخطاء وخيانة الفئات المسيطرة في البحر والجيش .. في السياسة والاقتصاد .. وفي الصناعة والتجارة .. اولئك الذين كانت دعواهم انهم خريجو أحسن معاهدنا العلمية وقمة نظامنا التربوي .. اولئك الذين كان جنبهم فاضحا جدا .. » (٢٦)

واذا كان « تقرير الجزائر » اشارة عابرة « الى دور التربية الفرنسية في الهزيمة القومية فان « تقرير لجنة لانجفان Langevin » (١٩٤٧) كان أكثر صراحة في تحميل التربية الفرنسية كفلا كبيرا من مسؤولية الهزيمة القومية لأنها وضعت نفسها في خدمات الاحتياجات الثقافية للطبقة البورجوازية واهدافها وقيمها الفكرية على حساب احتياجات الاكثرية المطلقة من الشعب الفرنسي ، فانطبع بالاحتكارية من جهة ، وبالتخلف الفكري والتقني من جهة أخرى ، حتى اذا جاءت الحرب لم تكن جماهير الشعب معبأة تعبئة كافية لمواجهة الفرو النازي . وليست التربية الفرنسية في ظروف ما قبل الحرب الكونية الثانية وما اخفاها الا مثلا نموذجيا للتربية

(٢٥) من محاضرة الدكتور محمد جواد رضا بعنوان « الجامعة في مركز الاعصار » القيت في جامعة الكويت مساء ١٩٧١/١٢/٥ .

(٢٦) تقرير الجزائر ، الصادر عن « اللجنة التربوية لاصلاح التعليم » ١٩٤٤ .

عندما لا تكون في خدمة الاكثرية الصامتة من ابناء الشعوب ، من هنا جاء انفصال الشباب عن العالم ، الذي صنعه لهم وفرضه عليهم النظم الاجتماعية المحتضرة وأدواتها التربوية . ومن هنا ايضا جاء رحيلهم الى الاعماق .. اعماقهم هم .. ضمائرهم وعوالمهم الداخلية التي تنبها الى وجوب حمايتها من العدوان الخارجى عليها كما صورته ماركوزه . واذا كان الانفصال عن العالم يعنى رفض نظام قيمي عقيم ، فان الرحيل الى الاعماق لم يكن هو الآخر محض هرب من قيم مرفوضة وحسب ، وانما كان جهدا ايجابيا موظفا في البحث عن نظام قيمي بديل ملائم لوعى الانسان الجديد ، لنفسه وقيمتيه المكتشفة ، على انه رأس المال الحقيقي في هذا الكون ، او انه هو القيمة الواقعية العليا على هذه الارض .



اللوحة التاسعة

التربية العربية المعاصرة وتطلعات الشباب العربى

لا تختلف تطلعات الشباب العربى في هذه المرحلة من تاريخ الامة العربية عن تطلعات اترابهم وازماتهم في انحاء العالم الأخرى ، اللهم الا في اهمال ابلاء هذه التطلعات والازمات ما هي اهل له من عناية السلوكيين العرب ، وهم - اى الشباب - ما يزالون قارة عذراء لم ينزل على شواطئها مستكشف حتى الآن ، واقيانوس لم يحاول أحد سبر اغواره ولا دراسة عواصفه واعاصيره الا نادرا ، (٢٧) ولذا فان احتمالات اتهامه بالمرق من العرف او الدين او التقاليد هي اسهل ما تجابه تطلعاته به وهى اغلب ما تقابل معاناته به ايضا . من يدري ؟ فربما كان الاحساس الطبقي لدى بعض الاكاديميين العرب ازاء الشبيبة العربية مسؤولا عن هذه الغربة الضاربة بينهم وبين من يفترض أنهم يتحملون مسؤولية تربيتهم وقيادتهم الروحية والاخلاقية .

يضاعف من تعقيد هذا الموقف المعقد ان المؤسسات التربوية العربية - مدرسة كانت أم جامعة - ما تزال أداة مطواعة في يد القوى المهيمنة في المجتمعات العربية ، وهي في الغالب قوى محافظة على قدر ما تكون المحافظة درعا ودريئة لامتيازاتها الاجتماعية ، وهى مهية لقبول التقدم والتطور اذا ما اطمأنت الى أن التقدم والتطور لن يضرها تلك الامتيازات بشيء ، وهى تستعمل المؤسسة التربوية لخدمة هذا الوضع استعمالا واقعيا وذكيا ولكن من دون أن تحسب حسابا لافرازاته المستقبلية غير القابلة للتنبؤ .

لقد فرض هذا الوضع على المؤسسة التربوية العربية المعاصرة واجبا ازدواجيا على درجة عالية من التناقض والتعقيد . ففي الوقت الذى يطالب فيه المجتمع مؤسساته التربوية ان تحفظ له موارثه الثقافية وقيمه المنحدرة اليه من ماضيه والتي يعتبرها هويته الخاصة ، والاجوبة الجيدة والصحيحة على كل المشاكل التي تواجهه ، في هذا الوقت بالذات هو يطالب

(٢٧) راجع كتاب (فلسفة التربية واثرها في تفكير معلمى المستقبل - دراسة تجريبية) جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

الانفصال عن العالم والرحيل الى الاعماق

هذه المؤسسات التربوية أن تيسر له سبل التقدم من مواقعها التاريخية الموروثة ، وان تعينه على قبول العصر الذي يعيش فيه ومن تقبل روحه العلمانية على وجه التخصيص . بعبارة أخرى انه يريد من مؤسساته التربوية أن تكون أدوات محافظة وتبديل في وقت واحد ، وهذا مالا تستطيع مؤسسة اجتماعية الوفاء به ما لم تكن مؤسسة منافقة استرضائية .

لقد كتب هذا الدور الازدواجي على التربية العربية المعاصرة ان تسقط في حلقة مفرغة ينظر فيها الى الطلاب على أنهم - مادة - تربوية من حق النظم التعليمية أن تصوغهم على هواها وحسب اجتهادها ، ومن واجبهم ان يتكيفوا - للقالب المعدة لصيغهم فيها . فيما وراء المنهج والكتاب كان الطلاب كما مهملا . لقد ضرب هذا الموقف العقلي بين الطلاب وبين نظمهم التعليمية أكثر من سد ، ودفعهم الى التماس التعبير عن أنفسهم في الحركات الاجتماعية خارج معاهد العلم ، ولم تعد المدارس ولا الجامعات عندهم الا أماكن تلتبس فيها الشهادة . ولقد كان لهذا معنى واحد هو ان مؤسساتنا التربوية فقدت القدرة على القيادة الاخلاقية لروادها ... (٢٨) .

لقد حمل هذا التنازل معه المبرر الاخلاقي للشباب العربي لأخذ مهمة صناعة مستقبلية في يديه ، والبحث عن أو الكفاح من أجل دور متميزه في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ امته مع كل ما يصاحب ذلك أو يستتبعه من تهم المروق والزندقة الاجتماعية .

لقد كان من واجب الاكاديميين العرب ، والسلوكيين منهم بوجه خاص ، ان يوجهوا فكرهم وبحثهم العلمي الى دراسة هذا القدر الجديد الذي كتب على الشباب العربي ، غير ان شيئا جوهريا لم يحدث في هذا الصدد ، وظلت ادبيات الحركة الطلابية العربية مهمة اهمالا تاما رغم ما فيها من صدق العفوية وسطوع البراءة ووضوح الالتزام الوطني والقومي . اننا نشك كثيرا ان تكون هذه الادبيات قد حظيت بشيء من القراءة الناقدة أصلا .

أحب ان أقف هنا عند نماذج مختارة من ادبيات الحركة الطلابية العربية ، وان أحاول النفاذ من خلالها الى بعض تطلعات شبابنا ، وان أوجه عناية السلوكيين والاجتماعيين وعلماء السياسة والاقتصاد العرب الى ما فيها من محتوى انساني وقومي غني من جهة ، وإلى ضرورة تكريس اهتمام حقيقي بهذه الظاهرة الاجتماعية العربية الجديدة التي لن ينفعنا في شيء ان ندير لها ظهورنا ونكتفي بالنظر اليها من عل على أنها لون من المحاولات الطلابية القاصرة ، فقد نكتشف في وقت متأخر جدا ان القصور كان حيث كنا نظن الكمال ونفترضه .

١ - جاء في نشرة معنونة « دراسات » صادرة عن المكتب الطلابي القومي في بغداد ما يلي :

« ان الفكر البورجوازي الذي تسيره الدوائر الامبريالية لتحقيق مصالحها يؤكد على مفهوم العلم للعلم ويدفع بالكثير من العلماء لان يعتبروا الوصول الى انجاز اختراعاتهم هدفا بخذ ذاته . ان مهمة الانجاز العلمي هي هدف العالم ، اما استعمال هذا الانجاز في أي مجال فهو من

اختصاصات السلطة البوجوازية وحدها . وهكذا تصبح غاية الغني والمهندس والعالم وسيلة للنظام ، وبالطريقة نفسها يخدر الفكر البورجوازي ضمير العالم بالتفسيرات الذاتية والشروح الفردية . فعندما تصبح الحرية الفردية لا حدود لها على شرط ان لا تصطدم بالمصالح البورجوازية ، وعندما يسمح المجتمع البورجوازي للأفراد أن يتحركوا ضمن اختصاصاتهم الفردية على شرط أن يتركوا أمر استعمال انجازاتهم في يد السلطة يحدث دائما ان يستعمل العلم وانجازاته في كثير من الاحيان كسلاح لتهديد الانسانية . . . » .

٢ - جاء في كلمة « الاتحاد الوطني العام لطلبة اليمن » التي القيت في « الندوة الطلابية العالمية المنعقدة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية من ٢٣ - ٢٧ مارس ١٩٧٤ ما يلي :

اننا كاتحاد وطني عام لطلبة اليمن ، كحركة طلابية يمنية ديموقراطية وتقدمية نؤمن بان نضالات الطلبة من أجل ديموقراطية التعليم يجب ان ترتبط بنضالات اوسع الجماهير الشعبية والكادحة في بلادهم من اجل التحولات الاجتماعية والاقتصادية التقدمية ، من اجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي لتحقيق غد الاشتراكية الخالي من استغلال الانسان لاخته الانسان . وما لم ترتبط نضالات الطلاب من أجل تعليم ديموقراطي بنضالات اوسع الجماهير الشعبية الكادحة من أجل صنع غدها الانساني المتطور والمزدهر فان الفشل الدريع سيكون حليفها دوما وابدا ، وستصطدم في النهاية بصخرة الواقع التي لا ترحم . . ولن تستطيع الاحلام والاماني ان تتجاوز تعقيدات الواقع وتكيفها . . . » .

٣ - جاء في التقرير العام الذي قدمه « الاتحاد الوطني العام لطلبة اليمن » عن الاوضاع التربوية في اليمن في الندوة المذكورة ما يلي :

« تحتل المناهج أهمية خاصة فائقة في العملية التعليمية . فمن خلالها يتحدد محتوى التعليم العام . ان التطور التعليمي في أي بلد كان لا يقاس بتوسعة الكمي فحسب ، ذلك ان الهدف ليس عدد من يتخرجون من مؤسسات التعليم وانما المسألة المركزية هي نوعية هؤلاء . لقد عانت بلادنا من المناهج الدراسية الاستعمارية التي كانت تهدف الى خلق جيل يمني مغترب عن وطنه . لذا فقد احتلت مسألة تغيير المناهج الدراسية اهتمام الثورة في بلادنا منذ الايام الاولى لاستلام السلطة . وكانت أولى المحاولات لتغييرها هي استبدال المناهج القديمة الاستعمارية بالمناهج المصرية والعراقية وبعض مناهج الدول العربية الوطنية الاخرى . كما بدلت محاولات في ١٩٦٩ من وزارة التربية والتعليم لايجاد منهج وطني . الا ان تلك المحاولة لم تكن لتخرج عن اطار الباس انواب يمنية على مناهج الدول العربية الشقيقة » .

بعد ذلك يحاول الاتحاد ان يطرح تصور من المساق الذي يجب ان تسير فيه التربية اليمنية الديموقراطية الشعبية في رسم لها الاهداف التالية :

١ - ان تحقق المناهج ربطا بين العلوم الانسانية والطبيعية وافكار الطبقة العاملة ، اي استخدام المنهج الجدلي في تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية .

الانفصال عن العالم والرحيل الى الاعماق

٢٠ - ان تحقق المناهج بناء جيل يبنى متزود بمعارف عن تطور وطنه وشمولية تاريخه ، فعلى المناهج الجديدة ان تركز على ما يتعلق بالوطن اليمني سواء في تاريخه أو جغرافيته أو ثرواته الطبيعية ، وكذا علاقة تلك بالدول المختلفة في العالم .

٣ - على ان يركز محتوى المناهج عند معالجتها للدراسات اليمنية على الجوانب التقدمية . ففي التاريخ مثلا ينبغي التأكيد على دور الشعب في صنع التاريخ مفايرة لمناهجنا القديمة المرتكزة على اساس دور الافراد في صنع التاريخ . وفي دراسة الجغرافيا ينبغي التركيز على قدرة الشعب بفضل نظامه التقدمي على استغلال الثروات الوطنية . وفي جانب الادب اليمني ينبغي التركيز على الجانب التقدمي في تطور الادب اليمني .

٤ - تحقيقا لمبدأ ربط المدرسة بالمجتمع والنظرية بالتطبيق فان المناهج الجديدة ستحتوي منهاجا للبوليتيكنيك .. » .

هذه نماذج قليلة من ادبيات الحركة الطلابية العربية الشابة . وهى ولا ريب تنضج بالثألية والقطعية والنهائية في الاحكام مما قد لا يتفق حتى مع المنطق الجدلى في تفسير حركة التاريخ . وهى قد تكون بصورة من الصور ممثلة لمجمل هذه الحركة . وليس هناك من يدعو الى تقبل مقولاتها تقبلا عفويا ولا الى شرائها من باعها المتحمسين . في تقديرنا ان هذا ربما أضر بالحركة أصلا . ولكن الشيء الخطير هو ان تترك هذه الحركة من دون حقول بها ، ومن دون دراستها دراسة منهجية ، ومن دون تحليل متواصل لتطلعاتها ومقولاتها . وهناك خطر أكبر في اشعارها بانها لا تعنى شيئا للحلقات الاكاديمية العربية ، وأيسر ما سينجم عن هذا الاغفال أو التغافل هو جهل الحركة والاعترا ب من مفاهيمها الاساسية . ومن هنا تأتي القيمة التي لا تحتل المبالغة لتكريس اهتمام فعلى بافرا زات هذه الحركة فكريا وسلوكيا وجرها الى دائرة الجذب الاكاديمية المتزمنة بمنطق البحث العلمى وتقويمها تقويما موضوعيا . فلقد يتاح لنا آئذ ان ندعى اننا قد وفينا لورثتنا في الغد القريب أو البعيد بعض ما كان لهم في ذمنا من دين ، واننا استطعنا ان نزيد من وضوح الرؤية امامهم ، وان نقلل من احتمالات سقوطهم في الاجتهادات البتراء .

★ ★ ★

مراجع البحث

أولا - في اللغة العربية

- ١ - محمد جواد رضا - فلسفة التربية وأثرها في تفكير معلمي المستقبل ، جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .
- ٢ - محمد جواد رضا - الجامعة في مركز الانعصار ، محاضرة أقيمت في جامعة الكويت بتاريخ ١٩٧١/١٢/٥ .
- ٣ - اللجنة التربوية الفرنسية لاصلاح التعليم - تقرير الجزائر - ١٩٤٤ .

ثانيا - في اللغة الإنجليزية

1. Arnold, W., *Counselling Activities in Modern Society*, Proceedings, IRT Conferenec, Würzburg, 1976.
2. Beckett, S., *Murphy*, 1938.
3. Cantril, H., *Tensions that Cause Wars*, University of Illinois Press, Chicago, 1950.
4. Davy, B. W., *The Source and Prevention of Mental Ill Health in University Students*. Proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.
5. Ducasse, C. J., *Art, The Critics and you*, Oscar Priest, New York, 1944.
6. English Pearson, *Emotional Problems of Living*, Norton Company, 1960.
7. Feuer, L., *Conflict of Generations*, Basic Books, New York, 1971.
8. Fraser, M., *Children in Conflict*, Penguin Books, London, 1974.
9. Malleson, N. B., *A Handbook of British Student Health Services*, London, Pitman, 1966.
10. Marcuse, H., *One Dimensional Man*, Sphere Books, London, 1972.
11. Miller & Miller, *Student Problems, Remedies and Satisfactions*, British Psychiatry, September 1973.
12. Parker, D. H., *Human Values*, Harper & Brothers, New York, 1944.
13. Perry, R. B., *General Theory of Value*, Longman's Green and Company, New York, 1926.
14. Ryle, A., *Student Casualties*, Pelican Books, 1970, London.
15. Russell, B., *History of Western Philosophy*, Unwin University Press, 1969.
16. Sinclair, F., *Belfast Telegraph*. Sept. 16, 1971.
17. Toynbee A., *Experiences*, Oxford University Press, 1969.
18. Wright, Wm. K., *History of Modern Philosophy*, Macmillan Book Company, New York, 1965.

عبد الرحمن عيسوي *

النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلتى الطفولة والمراهقة

في بحثنا في النمو الروحي وعملية التنشئة الاجتماعية في مرحلة الطفولة ينبغي أن نؤكد أن الدين لا تقتصر آثاره ووظائفه على مرحلة واحدة من مراحل العمر ، وإنما يشمل أثره كافة مراحل النمو الانساني ، وأن كان هذا التأثير يختلف من مرحلة الى أخرى .

وعلى الرغم من أن القيم الدينية والسلوك الديني يؤثران بصورة أو بأخرى في كل جوانب حياة الفرد إلا أن تأثيرهما أكبر في حياة الفرد الانفعالية The Individual's Emotional Life وللدين أهمية كبرى في مرحلتى الطفولة والمراهقة حيث يمر الطفل بمرحلة تكوين الشخصية وصلها وحيث تلعب العوامل الانفعالية دورا هاما في حياته .

(*) استاذ علم النفس المساعد بجامعة الاسكندرية وجامعة بيروت العربية .

والمعروف ان مرحلة المراهقة ، كما يزعم بعض علماء النفس ، مرحلة شك ونسب rejection للقيم والمعايير الدينية التي سبق ان تلقاها الطفل عن الكبار ، وقبلها عن طيب خاطر .

وعندما يصل الطفل الى درجة من النضج العقلي تسمح له باعادة النظر في هذه القيم والمعايير فانه يتناولها بالنقد والفحص والتمحيص ، وتنتهي عملية النقد هذه اما بقبول هذه القيم او رفضها او تعديلها .

ومن الاهمية بمكان ان تجرى الدراسات والبحوث التي تكشف عن الآثار التي يتركها قبول الدين او نبذه على صحة الطفل النفسية وثباته الانفعالي ، بعبارة أخرى هل يضيف الدين الى التكيف او الى سوء التكيف النفسي ، هل يسهم الدين في تحقيق الصحة النفسية والثبات الانفعالي ام يؤدي الى مزيد من الشعور بالذنب والى تنمية ضمير حاد وخاز يؤنب صاحبه ويلومه على كل كبيرة وصغيرة ؟

تفسير ظاهرة التدين في الطفولة والمراهقة

وفي تفسيرنا لظاهرة التدين نستعرض آراء كل من ف . مري و ر . مري F. Merry and R. Merry حيث يفترضان ان ظاهرة التدين ظاهرة غريزية بمعنى وجود غريزة دينية لدى الفرد (*) a religious instinct . فتبعا لهذه النظرية يعتبر الطفل طبيعيا متدينا ، واذا اعطى الفرص المناسبة فانه يكون المفاهيم الدينية اللائمة ذات المعنى والدلالة . ويعتقدان ان الطفل منذ سن مبكرة يعي بطريقة غريزية وجود قوة عليا يلجأ اليها للحماية ، ولديه تجاهها اتجاه غريزي فطري نحو الاحترام والعبادة (١) .

ويتعارض هذا الرأي مع رأي آخر يزعم ان الطفل شرير بطبعه او بالفطرة ، لانه ورث الخطيئة الاصلية التي ارتكبها آدم في جنة عدن . ولذا كان لابد من ان نستخدم اكثر الاساليب صرامة في تاديب الطفل وقمع هذه الطبيعة الشريرة وجذبه الى حظيرة الدين والصواب . ولكن كثيرا من علماء الدين المحدثين يرفضون الزعم بأن طبيعة الطفل طبيعة شريرة بالوراثة ويعتقدون ان الاطفال يولدون وهم لا طيبون ولا شرار ، ولكن يولدون باستعدادات او امكانيات عامة هي التي يوجهها المجتمع فيما بعد اما الى القنوات الصالحة او الشريرة .

ويؤيد سكنر C. Skinner هذا الرأي بالقول بأن الكائن البشري يولد بحالة حيادية حيال الدين . فالرضيع مثلا ليس متدينا ولا هو ضد الدين بل انه يمتلك الاستعدادات Potentialities للتكيف ، والتي تجعل النمو ممكنا نحو التدين او نحو معارضة الدين .

(*) لم يعد يستخدم اصطلاح الغريزة في علم النفس واصبحت هناك اصطلاحات أخرى كالدافع والباعث والحافز وكلها تعبرينات لفظية عقلية للدلالة على بعض انماط السلوك علما بان السلوك وحده هو الذي نلاحظه .

(١) Merry, F. and Merry, R., The First two decades of life, Harpers and Brothers, N.Y. 1950. P. 482.

متى يبدأ الشعور الديني لدى الطفل ؟

وإذا ما تساءلنا عن السن التي يبدأ فيها الطفل في الشعور بالخبرة الدينية فإننا لا نجد (٢) اتفاقاً كاملاً بين الباحثين حول هذه السن، فمنهم من يرى بعض المظاهر الدينية في سلوك الأطفال الصغار ، ومنهم من يرى أن الطفل لا يقوى على إدراك المفاهيم الدينية إلا بعد الوصول إلى مرحلة متقدمة من النضج العقلي .

فطبقاً لرأى إلج F. Ilg يستطيع الطفل التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين الرديء والحسن في سن السابعة ، أما فيما قبل سن الرابعة فهو غير قادر على فهم الآراء الدينية ، وعندما يبلغ الطفل سن الأربع سنوات يبدأ في توجيه مثل هذه الأسئلة ذات الطابع الديني والفلسفي :

- ١ - من الذي صنعك ؟
- ٢ - من الذي صنع هذه الأشجار ؟
- ٣ - من هو الله ؟
- ٤ - ما الذي يشبهه ؟
- ٥ - هل الله رجل طيب ظريف ؟
- ٦ - هل هو يحب الحلوى ؟
- ٧ - هل يشبه الله أبى ؟
- ٨ - أين يقيم الله ؟
- ٩ - وهل يرانا الآن ؟
- ١٠ - هل يرتدى جلباباً فضفاضاً ؟

ولذلك فلا عجب أن نجد طفلة صغيرة (سن أربع سنوات) كانت تسير في يوم مطير وكانت تمشي مع أمها فنظرت إلى أعلى السماء وقالت : (شكراً لك يا الهى لجعل الطريق جافاً في بعض الأماكن أنك ترى أنني أرتدى حذاءي الجديد) (٣)

وخلافاً لهذا الرأي يذهب فالنتين Valentine إلى القول أن الطفل لا يستطيع أن يدرك معاني المصطلحات The abstract terms كمعنى الشفقة والله والعدالة والإحسان ... الخ ، قبل سن الثالثة أو الرابعة عشرة . (٤)

-
- (٢) Skinner, C., Child Psychology, the Macmillan Co. N.Y. 1949, P. 276.
- (٣) Ilg, F., Child Behaviour, Hamish Hamilton, London, 1955, P. 292-303.
- (٤) Valentine, C., The Normal child and some of his abnormalities, A Pelican Book, 1962 P. 271—275.

ومهما يكن فإن الاطفال ولاشك لديهم بعض الافكار الدينية التى توصف بأنها افكار مشخصة ومجسدة وشخصية وحسية .

ومنذ وقت مبكر (١٨٨٠) طلب ستانلى هول G. Stanely Hall من مجموعة من الاطفال الصغار أن يصفوا تصوراتهم عن الله ، وفيما يلى بعضا من استجاباتهم ؟

(الله رجل كبير ربما لونه أزرق يرى غالباجدا فى السماء أو فى السحب أو فى الكنيسة بل حتى فى الشارع . انه يصبع اللببات والاطفال والكلاب والاشجار والنقود . الخ ، ويعمل الملائكة لحسابه . الخ .

وعندما يموت الناس انهم فقط يذهبون أو يوضعون فى حجر أو فى صندوق أو فى عربة نقل سوداء ، ويذهبون الى الجنة أو يصعدون الى السماء أو يفرقون أو يعلقون فى السماء حيث يمسك الله بهم . . . وعندما يذهب الاطفال الى الجنة تقدم لهم الحلوى والبنادق واللعب وكل ما يوجد فى محلات لعب الاطفال ، والكتب المصورة وأوراق اللعب ، وتقدم لهم الملابس الانيقة والساعات الذهبية والمثلجات ، ولا توجد هناك مدارس ويلعبون البلى والورق) .

وفى دراسة اخرى على مجموعة من اطفال المدرسة الابتدائية اظهروا خلطا بين مفهوم الله ومفهوم « السيد المسيح » وعبروا عن مفاهيم وصفات مشخصة عن الذات الالهية ، وغيرها من المفاهيم الدينية ، فهم يصفون الجنة بأنها تشبه الدخان أو الماء أو الهواء ، ويعتبرون السيد المسيح كحامى حمى الناس ، فهو يأخذك الى الجنة اذا كنت طيبا ، ويشفيك اذا كنت مريضا . ويدرك طفل فى سن ٦ سنوات وظيفة الله بالقول بأن « الله شخص ما فى السماء أو فى الجنة يعتنى بكل شئ ويرعاه ويعالج كل شئ حتى لا يعترى الناس أى مشاعر رديئة أو تسود بينهم » ، ولكن اطفال هذا السن يعانون من خلط ازاء فكرة (ان الله خلق كل شئ من لا شئ) ويرجع سوء الفهم هذا الى نزعة الاطفال لارجاع كل الافكار المعنوية الى معان مشخصة مجسمة تقع فى اطار خبراتهم .

ولقد عبر عدد كبير من الاطفال الصغار (٦٤٠ طفلا) من اطفال الصف الرابع الابتدائى فى المجتمع الأمريكى عن فكرة يوم الحساب The Judgment Day حيث وافقت نسبة ٣١٪ من مجموعهم على القضية الآتية :

يحتفظ الله بسجل كبير يسجل فيه أفعالنا السيئة .

بينما أقر ٤٣٪ منهم أنه تعالى لا يفعل ذلك و ٢١٪ كانوا فى حالة شك وتردد ، بينما وافق نحو ٥٠٪ منهم « بأننا اذا صلينا بجدية كافية من أجل سطوع الشمس أو هطول الامطار فإن الله سوف يغير الطقس من أجلا » (٥)

• • •

خصائص الفكر والشعور الدينى فى الطفولة والمراهقة

يعبر الاطفال فى الغالب عن خيال حر وغير تقليدى فى افكارهم عن الدين . ولقد حلل هارمس Harms سنة ١٩٤٤ بضعة الاف من رسوم الاطفال الصغار من (٣ - ٦ سنوات) التى تمثل افكارهم عن الله ، ووجد أن معظم الصور المرسومة تعبر عن الله كنوع من شخصية الاساطير ، يرتدى الملابس الفضفاضة (٦) ولقد افترض هارمس ثلاثة مراحل للنمو الدينى فى الطفولة هى :

١ - مرحلة الصورة الاسطورية The Fairy Tail tage حيث تسود الافكار والمعتقدات الخيالية أو الوهمية .

٢ - المرحلة الواقعية realistic stage وفيها يرفض الاطفال خيالاتهم السابقة ، ويعتقدون التأويلات القائمة على اساس الظواهر الطبيعية .

٣ - المرحلة الفردية The individualistic stage وفيها يبدأ الطفل فى اختيار العناصر التى ترضى حاجاته وبواعثه من الدين ، أى ينتقى العناصر الدينية التى تشبع حاجاته الفردية . (٧)

وعلى الرغم من اختلاف تصورات أو مفاهيم الاطفال عن الله وعن النار وعن الجنة ، وما اشبه ذلك عن المفاهيم الثيولوجية التقليدية ، الا أن ذلك لا يعنى أن الاطفال لا يشعرون بالرهبة والتقديس والاحترام نحو الذات الالهية ، وأن كان كثير من هذه الآثار يتوقف على الطريقة التى يتعلم بها الاطفال المبادئ الدينية .

يقول مرى ومرى « وهناك أدلة كثيرة على أن التعاليم الدينية المبكرة من قبل المنزل والكنيسة هي العامل الاساسى فى تحديد الاتجاهات الدينية اللاحقة . أن المنهج المستخدم فى تقديم المفاهيم الدينية للاطفال له أهمية عظيمة » . (٨)

ولا شك أن مفاهيم الطفل عن الدين تختلف اختلافا كبيرا عن افكار الكبار وعن خبراتهم ومشاعرهم ، ولذلك فالجوانب الدينية فى حياة الطفل أقل خضوعا لفهمنا عن جوانب شخصيته الأخرى ، فالنضج العقلى Mental maturity يساعد الطفل على أن يستبدل مفاهيم الطفولة الساذجة والشخصية بمفاهيم أكثر عمومية وأكثر تجريدا ، فكلما تقدم الطفل فى السن أصبحت علاقته بالله أكثر شمولاً وأقل تشخيصاً ، وتصبح اتجاهات الطفل الدينية أقل تركزاً حول ذاته self-centered وأقل أنانية ، ويصبح أقل اهتماماً بالحياة الأخرى . ومعنى هذا أن الدين لا يصبح له دور فعال فى حياة الطفل إلا إذا تناول تصورات ومفاهيم تدور حول حياة الطفل الدنيوية

(٦) Argyle, N., (cited in) the religious behaviour, Routledge and Kegan Paul, London, 1958.

(٧) Cole, L. and Hall, I., Psychology of Adolescence, Holt, Rinehart and Winston, N.Y. 1960

(٨) Merry F. and Merry, R., op. cit. P. 490.

المباشرة ولم يقتصر على الحياة الأخرى ، وإذا ما تساءلنا عما يحدث في فكر الطفل الدينى عندما يصل الى مرحلة المراهقة لوجدنا أن هناك عملية انتقال أو تحول من تلك الاستجابات التى تثيرها الضرورة الخارجية الى تلك الاستجابات التى تثيرها الضرورة الداخلية، أى من الدوافع الانانية الى الدوافع غير الانانية ، ولكن هذا لا يعنى ان نستنتج ان الشعور الشخصى بالواجب والمسئولية والاحساس بالمثل العليا والسلوك الفيرى ليست معروفة قبل هذه السن ، وانها تظهر فجأة عند البلوغ Puberty ، وهناك كثير من الأدلة التجريبية التى تؤكد حدوث النمو التدريجى وليس النمو أو الانتقال الفجائى من مرحلة الى أخرى .

وتبدو القدرة على التجريد بتقدم الطفل فى السن ، ولقد وجدت نسبة مئوية كبيرة من الاطفال الصغار الذين وافقوا على القضية الآتية « ان الله عبارة عن شخص ما يراقبك ليرى أنك تتصرف تصرفا حسنا وهو الذى يعاقبك اذا لم تكن طيبا » . بينما كانت هناك نسبة اكبر من الاطفال المتقدمين فى السن (١٨ سنة) الذين أبدوا موافقاتهم للقضية الآتية : « ان الله قوة غريبة تعمل من أجل الخير اكثر من كونه شخصا » .

وبالتقدم فى السن تبدو نزعة التسامح نحو آرباب الديانات الاخرى لدى المراهقين . (٩)

ولقد وجد أن الاطفال الكبار فى السن أكثر استعدادا للموافقة على القضايا مثل : « ان الكاثوليك واليهود والبروتستانت متساوون فى الطيبة ، او ليس من الضرورى أن تذهب الى الكنيسة لتكون مسيحيا ، والمراهقون المتقدمون فى السن (١٨ سنة) كانوا اقل اصرارا على أن « الناس الطيبون يؤدون الصلاة بانتظام » .

وفى احدى الدراسات التى تناولت عينة من الشباب من (١٦ الى ٢٤ سنة) تبين أن ارتياد الكنيسة تنخفض بالتقدم فى السن .

اما فكرة الطفل عن الدين فانها فكرة محسوسة ملموسة وينطبق هذا على صورة الملائكة والشياطين ، اما العبادات كالصلاة فانها وسيلة الطفل الصغير فى الحصول على مطالبه . ولكن يتقدم الطفل فى العمر يدرك أن دعواته لا تجاب كلها ، فلا بد أن يؤمن بقيمة العمل حتى تجاب مطالبه .

اما المفاهيم الدينية فان الطفل الصغير لا يفهم معناها لأن قدرته العقلية لا تقوى على ادراك المعنويات المجردة كالخير والشر والصلاح والتقوى ، ولكنه يدرك فقط الأمور الحسية الملموسة التى يستطيع أن يشاهدها ، وأن يحس بوجودها . وعندما يصل الطفل الى مرحلة الطفولة المتأخرة يستطيع أن يناقش الأمور الدينية . ويأخذ الطفل فى الاتيان ببعض الأسئلة التى تدور حول الخلق والموت والحياة والبعث وأصل العالم .. وهكذا . وفى أول الأمر يقبل ما يلقى عليه من اجابات ثم يتقدمه فى العمر يعيد النظر فيه .

(٩) Kahlen, R., The Psychology of Adolescence, Harpers and Brothers, N.T. 1952, P. 439

وفي بداية مرحلة المراهقة هيل المراهق الى الشك في القيم الدينية التي تعلمها في مرحلة الطفولة، ويعجز عن فهم المعاني الدينية والفلسفية العميقة ، ويظل يشك في هذه القيم حتى اواخر مرحلة المراهقة . وعندما يبلغ المراهق حوالى سن السادسة عشرة فإنه يتحول نحو الدين مرة أخرى ، ولذلك تُعرّف هذه الفترة بفترة اليقظة الدينية .

تدل مناقشات المراهق وجدله العنيف على وجود اليقظة الدينية ، حيث يميل الى مناقشة امور مثل الثواب والعقاب ، أو الجنة والنار والبعث والخلود والقضاء والقدر والجبر والاختيار . وقد تزداد وطأة الشك الديني عندما يموت أحد آباء أو أصدقاء المراهق المقربين . وعندما يقترب الفرد من مرحلة الرشد يتحول من الشك الى اليقين ، فيفكر تفكيراً هادئاً في الأمور الدينية ، ويظهر عندئذ الشعور بالتسامح نحو أصحاب الديانات الأخرى (١٠)

وبالرغم من أن كثيراً من علماء النفس يزعمون أن فترة المراهقة تمر بحالة ارتباك خلقي وتطرف سياسى ، وتغير في القيم ، وقبول القيم الدينية أو رفضها ، ولكن هذا لا يحدث الا بالنسبة لقلّة بسيطة من المراهقين ، أما الأغلبية الساحقة فإنها تظل محتفظة بالاتجاهات الدينية التي يعتنقها الوالدان ، ويعتقدون مبادئ تشبه مبادئ الوالدين في الفلسفات السياسية والأخلاق والجنس وما أشبه ذلك .

ففي إحدى الدراسات وجد أن : ٨٤ ٪ من المراهقين أعضاء في الكنيسة ، وأن ٥٠ ٪ يرتادون الكنيسة بانتظام . وأن ١٠ ٪ لم يذهبوا للكنيسة . وأن ٧٥ ٪ يعتقدون اعتقاداً راسخاً في وجود الله . (١١)

ويتقدم الطفل في العمر ينمو عنده الشعور بالتسامح الدينى ، وبالحرية الدينية religious liberalization ويحدث التحرر الدينى فيما بين سن ١٢ و ١٥ سنة وعلى ذلك تزداد نسبة عدد المراهقين في هذه السن الذين يوافقون على عبارات مثل :

(١) ليس من الضروري أن تذهب للكنيسة لكي تبقى مسيحياً .

(٢) الكاثوليك والبروتستانت واليهود كلهم متساوون في الطيبة . بينما تقل نسبة الموافقة على عبارات مثل :

١ - كل لفظة في الانجيل صادقة .

٢ - الله يراقبنا ويعاقب فاعل الشر .

• • •

(١٠) د. فؤاد البهي السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٨ .

(١١) Mussen, P.H., The psychological development of the child, Prentice-Hall, U.S.A. 1963.

أثر الخبرة الدينية في عملية التطبع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية :

هناك عوامل متعددة تلعب دورا هاما في عملية التطبع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية Socialization * من ذلك جماعة الانداد أو الزملاء والأسرة والمدرسة والراديو والتلفزيون والصحف والمجلات والاندية والمعسكرات والمؤسسات الدينية وثقافة المجتمع ككل .

منذ اهتمام استانلي هول وتلميذه دانييلز Daniels (١٨٩٣) واستاربوك Starbuck (١٨٩٩) الذين كانوا يعتقدون أن التحول الديني جزء هام من خبرة المراهق منذ ذلك التاريخ ، اهتم علماء النفس بأثر الدين على النمو . حقيقة لا نعرف الا القليل عن التأثير المباشر للدين على السلوك لأن وضع محكات تعتبر مسألة صعبة . فكيف يمكن فصل الشخص المتدين عن غير المتدين لتحديد أنهما يختلفان في السلوك والقيم ؟

من بين المعايير المستخدمة عبارات الفرد نفسه ، هل يزعم هو انتمائه الديني أو عدم انتمائه ؟

ولقد أسفرت الدراسات التي تناولت مئات الجانحين انهم يقررون في المقابلات وعلى الاختبارات النفسية أن لديهم بعض الارتباطات الدينية ، ولكن استخدام مزيد من الأسئلة يوضح أن معظم هؤلاء الجانحين لا يدخلون الكنيسة ولو مرة واحدة في السنة . وهكذا فإن انتمائهم الديني Their religious affiliation هو « انتماء لفظي وليس سلوكيا ، وعلى ذلك فيلزم محك آخر غير محك الانتماء . بل أن ارتياد الكنيسة Church attendance كما استعمل في كثير من الدراسات لا يصلح كمؤشر حقيقي لتدين الفرد الاصيل ، فهناك بعض الأشخاص الذين يرتادون الكنيسة لأسباب غير دينية كالذهاب نتيجة لضغوط الآباء أو لمجرد العادة ، أو حبا في الظهور أو الطموح الاجتماعي ، أو للشعور بالسمو أو للتمتع بالصحة الاجتماعية ، أو لمجرد قضاء وقت الفراغ أو التخلص من الشعور بالوحدة والعزلة . وهناك دراسات استخدمت اختبارات لقياس المعرفة الدينية كما فعل هالديول ، ولكن حتى هذا المنهج لا يكشف عن الاعتقاد الديني الحقيقي ، وعلى ذلك فإن النتائج التي نحصل عليها من هذه الأبحاث يجب أن تؤخذ بكثير من التحفظ ، فمعظم المعطيات تعطى معلومات عن بعض الجوانب « الصورية » من الدين أو الرسمية ومن السلوك كالعلاقة بين ارتياد الكنيسة والسلوك ، ولا تعطى صورة عن الرابطة بين الانغماس العميق في الدين وفي السلوك . اننا نتوقع أن الخبرة الدينية تؤدي إلى تغيير كل الاتجاهات الاجتماعية العريضة كالاعتقاد في الاخاء بين بني الانسان ، وتغير السلوك النوعي المحدد كما يقاس على الاختبار للفش مثلا . (١٢)

(*) تشير هذه العملية إلى امتصاص الطفل لقيم المجتمع ومعاييره واكتساب أنماط السلوك المقبولة .

Ibid, P. 488.

(١٢)

١٥٤

اليقظة الدينية في مرحلة المراهقة :

ومن الظواهر الدينية البارزة في مرحلة المراهقة ظاهرة التحول الدينى The religious conversion ولقد افترض استاربوك Starbuck منذ وقت مبكر (١٨٩٩) أن هناك علاقة وثيقة بين بداية المراهقة وبين التحول الدينى. (١٣) ولكن الدراسات الحديثة لا تؤيد وجود يقظة دينية فجائية في المراهقة، وتؤكد مثل هذه الدراسات أن نمو الافكار الدينية عملية تدريجية مستمرة تحدث بدون طفرة تصاحب سن البلوغ ، أو تدفق أو انفجار فجائى يصاحب مرحلة البلوغ . ويتأثر الاتجاه الدينى في المراهقة بما تلقاه الطفل في المراحل السابقة من تعاليم دينية ، فكلما كانت هذه التعاليم أكثر ضيقاً أو أكثر رسمية أو صورية كان المراهق أكثر ميلاً للابتعاد عن حظيرة الدين .

وليس هناك أدلة لتأييد الفرض القائل بأن التغيرات البيولوجية في البلوغ تؤدي الى حدوث أزمة انفعالية تؤدي بدورها الى اليقظة الدينية religious awakening .

وتكشف الدراسات المبكرة التى أجريت في حوالى سنة ١٩٠٠م كدراسة استاربوك أن التحول الدينى يحدث في السن ما بين خمسة وعشرين عاماً ، إلا أن الدراسات المتأخرة نسبياً (١٤) كدراسة كلارك E.T. Clark سنة ١٩٢٨م حول سيكولوجية اليقظة الدينية أوضحت أن متوسط سن حدوث هذه اليقظة هو ١٢ سنة، وهي سن مبكرة قليلاً عن بداية البلوغ ، والأكثر احتمالاً أن حدوث أى تكثيف intensification في الميول الدينية أو الخبرة الدينية يرجع الى النضج العقلى intellectual maturation أكثر من البلوغ في حد ذاته . فلقد وجد هولنجورث L.S. Hollingworth سنة ١٩٣٣ أن تكثيف الميول الدينية يحدث في الاطفال الموهوبين عقلياً في سن الثمانى سنوات لأولئك الذين يصل عمرهم العقلى الى اثنى عشر عاماً .

ان استعراض التراث السيكلوجى يعكس وجهات نظر متباينة حيال مسألة زيادة أو نقص الشعور الدينى في مرحلة المراهقة ، فتبعاً لوجهة نظر جارسون K. Garrison يؤدي نمو دائرة معرفة المراهق ، ونمو عادات أفضل في التفكير الى تساؤل المراهق وتشككه في كثير من الاشياء أو الافكار التى قبلها سابقاً دون نقد أو تمحيص .

ان شك المراهق يثار عن طريق بعض المبادئ والمعلومات العلمية ، وعن طريق رغبته (١٥) في اكتشاف نفسه بنفسه ومحاولته ربط العالم مع خطة الحياة العامة وذلك بتفكيره الخاص . ويؤيد جيرسييلد هذه الفكرة بالقول بأن الاطفال يصبحون قادرين على التفكير في الافكار المجردة عندما يصلون الى المراهقة . انهم يكتسبون فهماً أكثر عمقاً من معنى دينهم ، وسوف تزداد قدرة المراهق

(١٣) Carmichael, L., Manual of child psychology, J. Wiley, N.Y. 1954, P. 699.

(١٤) Ausubel, D. Theory and Problems of adolescent development Grune and Stratton, N.Y., 1954, P. 270.

(١٥) Garrison, K., Psychology of adolescence, Prentice-Hall, 1955 P. 162.

على اختيار وفحص معاني الافكار والعقائد والمبادئ والقيم التي سبق له ان قبلها عن طيب خاطر بلا نقد او تمحيص ، قبلها من الآباء أو الكبار أو المعلمين .

وخلافا لهذا الرأي يقول كول Cole (سنة ١٩٦٤) ان الطفل يبدأ في التشكك في كل مظاهر السلطة ورموزها authority figures عند بلوغه مرحلة المراهقة وربما يبتعد عن دور العبادة ، ويثور على سلطات الاسرة والمدرسة ، وان كان هناك عدد كبير من المراهقين ما يزال يعتبر الدين مصدرا ممكنا للرضا والاثارة النفسية والانفعالية والعقلية * ، ففي نظره يأخذ كثير من الاطفال بعد سن الخامسة عشرة في التفكير النقدي في المسائل الدينية ، وعند وصول مرحلة الرشد يستقر بهم الحال الى وضع غير مبال نسبيا ، وان كان اتجاههم (١٦) هو اتجاه تسامح نحو الديانات الاخرى واربابها (١٧) . أما أوزابل B. Ausubel فيرى ان التناقض الديني تثيره الاكتشافات العلمية في ذهن المراهق ، وهو تناقض سطحي ، ولا يؤثر في جوهر الايمان الديني religious faith ولقد درس فورستر J. F. Forrester الاتجاهات الدينية لدى مجموعة من المراهقين تتراوح اعمارهم من ١٣ الى ١٧ سنة . ووجد انهم يرغبون في ان يصبح الدين عمليا ، وأنه من الأفضل ان نسلك سلوكا صحيحا عن امتلاك العقائد الدينية الصحيحة ، وان الخدمات الاجتماعية اكثر اهمية من العبادة ، ووجد ان العناصر الصوفية في الدين mystical elements ليس لها الا جاذبية قليلة بالنسبة للمراهقين .

ويمر النمو الديني في الفرد بمراحل مختلفة تختلف باختلاف عمر الفرد ، لان فكرة الطفل عن الدين تختلف عن فكرة الراشد الكبير . ففكرة الطفل الصغير عن الله فكرة مادية مجسمة مشخصة . وعندما سئل عدد من الاطفال الصغار عن فكرتهم عن الله قالوا : « انه رجل عجوز له لحية بيضاء ، ويلبس ملابس بيضاء فضفاضة » . اما التفكير الديني في مرحلة المراهقة فيمتاز بأنه تفكير نقدي ، حيث يلجأ المراهق الى نقد الافكار التي تلقاها من الآباء والمدرسين والكبار في مرحلة الطفولة ، وكان قد قبلها عن طيب خاطر . وللدين اهمية خاصة في مرحلة المراهقة ، حيث يلجأ المراهق للدين لكي يجد فيه مخرجا من مشكلاته ، ولكي يجد فيه السند الذي يحقق له الشعور بالأمن الذي فقده بسبب الصراعات التي تدور في نفسه .

ويفترض بعض علماء النفس أن مرحلة المراهقة مرحلة كفر والحاد ، ولكن يبدو أن التفكير النقدي هو الذي يدفع المراهق لاعادة النظر في العقائد التي سبق له أن تلقاها ، ويساعده على ذلك زيادة نضجه العقلي وتحرره الفكري . ولقد أجرى جليلاند Gilliland بحثا على الشباب في سن المراهقة ، وتناول بالأسئلة موضوعات مثل وجود الله والخلود والمعجزات التي قام بها الانبياء والحياة الاخرى ، والاعتقاد في وجود الجنة والنار وفي وجود الشياطين ، وتبين له أن غالبية الشباب

Cole, L. and Holl, IK, Op. Cit. P. 477.

(١٦)

Ausubel D., OP. Cit. P. 270.

(١٧)

(*) يعتبر الدين بالنسبة لكثير من الكتاب والعلماء والفنانين مثيرا عظيما لمبقرياتهم وابداعهم ونبوغهم الفني .

النمو الروحي والخلقى والتنشئة الاجتماعية

يعتقدون (١٨) في صحة هذه المبادئ الدينية ، ولكن هناك نسبة قليلة لا تعتقد ، ونسبة أكثر منها في حالة تردد وعدم يقين .

وهناك من المفكرين من يعتقد أن فترة المراهقة ليست فترة اضطراب خلقى أو دينى . « وعلى النقيض من الفكرة التى كانت تشيع سابقا نجد المراهقين لا يمرون بفترة من ثورة الاضطراب الاخلاقى والدينى ، ولكن المراهقين بالطبع على درجة كافية من الفهم والحكمة بحيث انهم يرون ذلك التناقض الذى يقوم بين المعتقدات المتزمتة من ناحية ، والجانب العقلى من ناحية أخرى ، وهم يتلمسون للحياة معنى وقيمة . وقد تمتلئ نفوسهم في بعض الاحيان تحمسا وشوقا زائدين الى اعادة تنظيم الكون . ولكن هذه المثل العليا تتعارض أو تتصارع مع الواقع تصارعا يؤدي الى الارتداد عن الدين أو الاضطراب الخلقى . ان النزعات الخلقية والدينية اذا ارسيت قواعدها في الطفولة تستمر الى المراهقة ثم في مرحلة الرشد عند غالبية الشبان (١٩)



النمو الخلقى في مرحلتى الطفولة والمراهقة

مفهوم الاخلاق :

ينبغى تحديد المقصود باصطلاح «الاخلاق» Morality فهل الاخلاق هي ما يقرره المجتمع حتى ولو كان خطأ ؟ ام أن الاخلاق هي ما يعتبره الفرد عدلا Justice وشفقة Kindness وايثارا Alturism وما الى ذلك من القيسم الخلقية المطلقة ؟

لا شك ان مفهوم الاخلاق كمفهوم نابع عن المجتمع هو مفهوم دينامى في طبيعته ، بمعنى انه يتغير من جيل الى جيل ، ومن مجتمع الى آخر ، وينمو ويتطور او يتعدل .

ويعرف هادفيلد J. Hadfield الاخلاق بالقول :

« هناك معنيان عريضان لمصطلح «الاخلاق» أحدهما بمعنى الامتثال Conformity لمعايير المجتمع norms or mores وعاداته ، والمعنى الآخر هو اتباع الغايات والأهداف الصحيحة » (٢٠) النوع الاول : يجعلنا آليا نتبع العادات ونمثل السلوك الجماعى ، ونرعى التقاليد

Gilliland, A.R., „Changes in religious beliefs of college students” in J. (١٨)
Soci. psychi, P. 37.

(١٩) جلن مايرزبيلر ، ستيفارت جونز ترجمة د. احمد عبد العزيز سلامة ، د. ضياء الدين ابو الحب ، سيكلوجية المراهقة للمربين ، دار النهضة العربية - القاهرة .

Hadfield, J., Child hood and adolescence, Penguin Books, 1964 P. 141. (٢٠)

الاجتماعية . وطبقا للمعنى الثانى فان الغايات الصحيحة كالكرم والولاء والامانة تعدخيرة في ذاتها وينبغى اتباعها بصرف النظر عن عادات المجتمع ومعايره . (٢١)

والاخلاق بمعنى الامتثال لقيم المجتمع وانماط سلوكه تختلف من مجتمع الى آخر .

ويستخدم احيانا اصطلاح الخلق character ليعنى السلوك الخلقى moral behaviour ولكن اصطلاح الخلق يشير الى درجة التنظيم الخلقى الفعال لكل قوى الفرد . ويشير الى الاستعداد « النفسيفيزيقى » الدائم الذى يجمع البواعث تبعا لمبدأ تنظيمى معين . ومعنى هذا الاشارة الى الاخلاق morality كخلق داخلى يكمن فى داخل الفرد نفسه . وهكذا نرى أن اصطلاح الخلق يشير الى سمات الشخصية أكثر من اشارته الى الاخلاق التى تتضمن قوة ارادية كافية لتوجيه السلوك نحو نوع ما من القيم . وتهتم الاخلاق بنوع خاص بقوى الفرد الارادية وأهداف كفاحه واتجاهاته . (٢٢)

ويقصد بكلمة الاخلاق Morality من الناحية السلوكية العادات والتقاليد والآداب والمثل المرعية فى مجتمع ما ، وعلى ذلك فالقيم الخلقية تختلف من مجتمع الى آخر ، كما تختلف فى نفس المجتمع من عصر الى آخر ، وتختلف فى نفس المجتمع وفى نفس العصر باختلاف الطبقات الاجتماعية . فالمبادئ التى تصلح للمجتمع الاشتراكى لا تصلح للمجتمع الرأسمالى ، كذلك اخلاقيات المجتمع الديموقراطى تختلف عن اخلاقيات المجتمع الديكتاتورى ، والفرد الذى يعيش متكيفا فى مجتمع رأسمالى يصبح غير متكيف اذا ما نقل الى مجتمع شيوعى مثلا . وطبقا لوجهة النظر « الامتثالية » ما على الفرد الا أن يقبل قيم الجماعة التى ينتمى اليها حتى يعيش فى سلام ووثام معها ، ولكن رغم وجود هذه الفروق الثقافية فى مفهوم الاخلاق الا أن هناك بعض المبادئ الخلقية « المطلقة » العامة التى تصدق فى كل مكان وزمان ، ومنها الصدق والامانة والولاء . . . الخ .

ويعرف الخلق بأنه تكامل العادات والاتجاهات والعواطف والمثل العليا بصورة تميل الى الاستقرار والثبات ، وتصلح للتنبؤ بالسلوك المقبل . (٢٣) فالنمو الخلقى لدى الطفل يسير من مجرد الرغبة فى تحقيق اللذة والسعادة الى التقيد بالمبادئ الخلقية والاجتماعية السائدة فى المجتمع الذى يعيش فيه الطفل .

ويتقدم الطفل فى العمر تتحول القوى الرادعة من كونها قوى خارجية اى صادرة من الخارج ، من الآباء والأمهات والمدرسين ، الى أن تصبح قوى ذاتية داخلية هي ضمير الطفل ، ويتكون هذا الضمير عن طريق امتصاص قيم الآباء واكتسابها ، وبذلك تصبح معايير الطفل نفسه .

(٢١) راجع كتاب « علم النفس ومشكلات الفرد » للكاتب ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، لمعرفة الاتجاهات المختلفة فى تحديد السواء والانحراف .

(٢٢) يختلف معنى الاخلاق بالمعنى السلوكى كمعادات فردية وجماعية عن الاخلاق بالمعنى الفلسفى ethics او كعلم الاخلاق .

(٢٣) دكتور فؤاد البهي السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة ، دار الفكر العربى بالقاهرة / ١٩٦٨ .

ويقودنا هذا الموضوع الى التساؤل ايهما تصبح له القيمة العليا والمطلقة : الفرد ام المجتمع؟

في ضوء الخبرات المستمدة من المجتمعات الديمقراطية والدكتاتورية يتضح ان الامل الوحيد في الاصلاح والتقدم يكمن في النشاط الحر لأعضاء المجتمع . وليس هناك ضرورة لاتخاذ موقف دون آخر في ايهما تكون له السيادة : الفرد ام المجتمع، اذ الواقع انهما يعتمدان على بعضهما البعض ، وهناك علاقة تفاعل قوية بين الفرد والمجتمع . فصالح المجتمع من صلاح افراده وصالح الافراد يؤدي الى صلاح المجتمع برمته .

ومن الناحية السيكولوجية فان مفتاح الاخلاق هو شعور الفرد بالواجبات والالزام في كل من الفكر والعمل .

وعلى ذلك فان السلوك الذي يقوم به الفرد خوفا من عقاب المجتمع ليس خلقيا بالمعنى السيكولوجي ، ويصبح خلقيا عندما يصدر عن شعور الفرد بالواجب أو بالولاء أو العطف أو الشفقة أو الرحمة أو الحب أو الشرف وغيرها من الانفعالات المشابهة . ولكن هذه الانفعالات ليس من الضروري أن تكون صحيحة اجتماعيا ، ذلك لانها قد تنشأ أصلا من الاخطاء التي يرتكبها المجتمع ضد افراده .

ولا يمكن قبول الافتراض ان الانسان خير محض أو شر محض ، انما تسود آراء الكثرة من العلماء بأن في الانسان الشر والخير معا ، وتفتح هذه الفكرة الافاق واسعة امام المجتمع ومنظماته التربوية لتنمية الجوانب الخيرية في الانسان وسيطرتها على جوانب الشر فيه . وتلعب الاساليب التربوية دورا هاما في توضيح مفاهيم الخطأ والصواب ، وخاصة لدى أولئك الذين يعتبرهم الخلط وعدم القدرة على التمييز بينهما . فكثير من الناس ، وخاصة الشباب ، يقفون موقف الحيرة ازاء الوعظ والارشاد من قبل الكبار من ناحية وسلوكهم الفعلي العملي من ناحية اخرى . على أن مجرد المعرفة النظرية بالخير أو الشر لا تتضمن بالضرورة عمل الخير . المهم هو الارادة التي تفعل الخير وتتجنب الشر الى جانب ضرورة توافر الامكانيات البيئية والانفعالية والجسمية لممارسة الخير . فلقد وجد أن قوة الارادة تتأثر بتعاطي الفرد بعض العقاقير . (٢٤)

الانماط الخلقية :

يصنف الناس احيانا الى انماط خلقية مختلفة تبعا لنوع الاخلاق الذي يتبعونه :

١ - النمط النفعي The expedient type وفيه يسلك الفرد فقط سلوكا خلقيا للحصول على أغراضه الداتية .

٢ - النمط الامتثالي conforming type وهو النمط الذي يفعل صاحبه ما يفعله الآخرون، وما يقولون أنه ينبغي عليه أن يعمل .

Johnes, V., Character development in children : an objective approach, (٢٤)
in Manual of child psychology, ed. by, Carmichael, L., P. 821.

٣ - النمط العقلي أو النمط ذو الضمير الحي The rational or conscientious type
وله معايير الخاصة الداخلية في الصواب والخطأ

وتبعا لهذه المعايير يحكم على تصرفاته . وهو نمط إيثارى altruistic ويمثل على مستويات الأخلاق . وله مجموعة من المبادئ الخلقية الثابتة المستقرة والتي توجهه . أنه عقلاني وواقعي Realistic في تقويمه لما هو خير له ولغيره من الناس (٢٥) . وهو غير مضطر لعمل كثير من التفسيرات أو التأويلات الخلقية لأنه يتبع «حرفية» القانون الخلقى ، أما الشخص النسبي في مذهبه الخلقى relativist فإنه يأخذ في الحسبان النوايا والدوافع والاصرار أو التعمد والنتائج العملية لعمله ، وكما يقول فروم E. Fromm في ضوء الأخلاق السلطوية تضع السلطة * ما هو خير للإنسان ، وتضع القوانين والمعايير للسلوك ، أما في الأخلاق الإنسانية فالإنسان نفسه هو موضوع المعايير وهو الذي يضع هذه المعايير ، أنه مصدر المعايير والمسئول والمنظم ، وهو أيضا الموضوع الذي تنطبق عليه هذه المعايير . (٢٦)

خصائص الفكر والسلوك الخلقى في الطفولة والراهقة :

يضاف الى المشاكل السابقة مشكلة عمومية المبادئ الخلقية أو خصوصيتها ، بمعنى هل يكون الطفل الأمين في البيت أمينا في المدرسة وفي النادي وفي العمل وفي الامتحان وفي اللعب وفي جميع المواقف والأماكن أم أن الامانة تتوقف على الموقف الذي يوجد فيه الفرد ومقدار حاجاته الى «الفش» مثلا ؟ وعلى دوافع الفرد وحاجاته ؟ لقد دلت دراسة هارتشون وماي (١٩٢٨) Hartshorne and May على عدم وجود ارتباط ذي دلالة بين الفش في المدرسة والفش في المنزل Cheating at home and at school ، ولكننا اذا اخذنا الأخلاق بمعنى الشعور بالذنب لتجنبنا الصعاب الناتجة من الاتجاه الامتثالي السلوكي ، اذ من الممكن أن يخضع الفرد للاغراء Temptation ومع ذلك يشعر بالذنب نتيجة لامتلاكه معيارا داخليا .

يسير الطفل في بدء حياته بمنطق «اللذة» أي أنه يميل الى تكرار السلوك الذي يجلب له اللذة المباشرة ويجنبه الألم . ويتكون ضمير الطفل عن طريق مجموعة الأوامر والنواهي التي يتلقاها من الوالدين اللذين يقومان بوظيفة الضمير في بدء حياة الطفل . فالطفل الصغير لا يسرق لأن «ماما» تقول لا تسرق ، ولأن السرقة تفضب «ماما» .

Jersild, A., The Psychology of adolescence, P. 368.

(٢٥)

Fromm, E., Man for himself : an inquiry for the psychology of ethries, Rinehart, N.Y 1947.

(٢٦)

(*) داجع أنواع القيادة وأثر كل منها على السلوك والشخصية في كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعي » دار النهضة العربية - بيروت .

وهنا ينبغي أن نتساءل عن العوامل التي تؤثر في مجرى النمو الخلقى في حياة الطفل ؟

العوامل المؤثرة في النمو الخلقى :

لقد تساءل كثير من الكتاب : هل يرجع السلوك الخلقى الى الوراثة ام الى البيئة والاكتساب ؟ يحتوى التراث السيكلوجى على كلا الاتجاهين أى الاتجاه الوراثة والاتجاه الاكتسابى . ومن بين الدراسات العديدة التى تؤيد العوامل الفطرية فى الأخلاق The innate factors دراسة الأسر التى انتشر الجنوح والاجرام بين أعضائها بكثرة كبيرة عبر الأجيال المتعاقبة (٢٧) . ولقد افترض قديما بعض العلماء وجود حس خلقى داخل الانسان ، ولكن اذا كان للأخلاق حس مستقل فأين يقع هذا الحس من الجسم ؟ وفى غضون القرن الثامن عشر سادت حركة طبية تفترض انه نتيجة لاصابة الفرد بمرض ما فانه يفقد حسه الخلقى ، بينما تبقى قواه العقلية سليمة ، واطلق على هذه الحالة المرضية اصطلاح الجنون الخلقى moral insanity (٢٨) ويفترض هنرى مودسلاى Henry Maydsley أن معظم المجرمين الصغار ضعاف اخلاقيا فى القوة الخاصة بتكوين الحدس الخلقى ، وكان يعتقد أن الطفل قد يكون ماهرا عقليا ولكنه اعمى خلقيا ، وأن هذا الضعف الخلقى الموروث يبدو انه ينتشر فى أسر معينة عبر الأجيال المتعاقبة . ومن ناحية بناء الشخصية وجد أن كثيرا من الاعراض السيكلوباتية والعصابية ترتبط بالجنوح (٢٩) وكان لمبوروزو Cesare Lombroso يعتقد بوراثية الاجرام . ويعتقد بعض الناس بأن الطفل يولد مزودا بضمير معين يساعده على التمييز بين الصواب والخطأ ، بل يزعم البعض أن الطفل يرث بعض السمات الخلقية المحددة كالامانة والصدق ، ولكن هذه الفكرة تخلص الآباء والعلمين من مسئولياتهم ازاء تربية الطفل تربية خلقية سليمة حيث لا يعززون السلوك غير المرغوب الى فشلهم وانما الى نقض وراثى أو فطرى لا يمكنهم التغلب عليه .

ولكن الضمير فى واقع الامر يتكون خلال الشعور بالالتزام او بالواجبات الاجتماعية ، تلك العمليات التى تحول الضبط الخارجى الى ضبط داخلى (٣٠) . يقول وليم مكجوجل McDougall مؤيدا الاتجاه الوراثة للعقل البشرى : ان هناك نزعات فطرية او مورثة هي المنابع الاساسية او القوى الدافعة لكل من الفكر والسلوك ، وهي الاساس الذى تنمو عليه خلق و ارادة الافراد والأمم بالتدريج تحت توجيه الملكات العقلية (٣١) .

(٢٧) Kanner, L., Child Psychology, Charles C., Thoms, U.S.A. 1957, P. 679.

(٢٨) Burt, C., The Young delinquent, univ. of London, Press, 1957 P. 34—40.

(٢٩) Ibid.

(٣٠) Hawkes, G.R., Behaviour and development from 5-12 Harpers and Brothers, N.Y. 1962, PP. 122.

(٣١) لم تعد فكرة الملكات مقبولة فى الفكر السيكلوجى الحديث واصبح ينظر للعقل البشرى على انه وحدة .

اما فرويد Freud فيرى أن غريزتي الجنس والحفاظ على الذات هما العنصران الأساسيان في الدافعية الانسانية human motivation وتتضمن غريزة المحافظة على الذات ، من بين ما تتضمن حماية معايير الفرد الخلقية والاجتماعية ويفترض أدلر Adler وجود نزعتين مسئولتين عن ارتباط الانسان بأخيه الانسان ، وهما :

١ - الرغبة في القوة الشخصية والسمو .

٢ - الشعور الاجتماعي .

ولكن مثل هذه الاتجاهات التي تختزل الدافعية الانسانية في شكل عامل أو عاملين تبالغ في تبسيط التنظيم الدافعي في الانسان .

وتدلنا الدراسات الانثروبولوجية التي تناولت بعض المجتمعات البدائية على أن القيم الخلقية ليست عالمية ، ومن ثم ليست موروثية ، وعلى سبيل المثال فإن مجتمع الأرايش Arapash ليس في حاجة الى كثير من الوسائل التربوية التي ترويه على ممارسة السلوك الخلقى ، وانما يظهر هذا المجتمع كثيرا من مظاهر الايثار والتضحية (٣٢) تلقائيا .

وفي مجال تأييد وجهة النظر الوراثية في نمو القيم الخلقية ربما نشير الى الفروق الملاحظة بين الذكور والاناث في الاخلاق . فلقد وجد أن الاناث أكثر تأثرا بالنداء الانفعالي في الحياة الدينية ، بينما الذكور أكثر جذبا بالشرف والعقاب الخلقى والنشاط الاجتماعى . وبالنسبة للعدوان فلقد أعطى باين وماريكارد Bize and Maricard (١٩٣٧) حقنا من الهرمون المنشط للذكور لعدد من الصبيان الصغار ووجد زيادة واضحة في العدوانية في كل العلاقات الاجتماعية . كذلك أعطى كلارك وبرش Clark & Birch هرمونات ذكورة وأنوثة لقرود ذكر ، ووجد أن الهرمون الذكري يؤدي الى زيادة السيطرة الاجتماعية عند الحيوان ، وأن الهرمون الانثوى يؤدي الى خضوع الحيوان ، ويؤكد هذا فكرة زيادة النزعات العدوانية في الذكور عنها في الاناث . وفي مجال الفروق الجنسية في الاخلاق أيضا هناك ما كشفت عنه دراسة تيودور - هات Tudor-Hart حيث وجد أن الاناث يلقين أكثر من الذكور كثيرا من الأكاذيب التقليدية مثل : أُمى ليست في المنزل (٣٣)

انا سعيدة لرؤيتك .

لقد قضيت وقتا ممتعا في حفلتكم ؟

مثل هذه الأكاذيب اعتبرتها نسبة اكبر من البنات عن البنين « ضرورية » كذلك اعتبرت نسبة اكبر من البنات الأكاذيب الاجتماعية « ضرورية » (نسبة ٣٢ ٪ في مقابل ١٨ ٪ من الذكور) ومن

(٣٢) Mead, M., Sex and temperament in three primitive societies, Routledge and Kegan Paul, 1948, P. 137.

(٣٣) Jones, V., OP. cit.

أمثلة الأكاذيب الاجتماعية « الكذب للاحتفاظ بالأسرار » و « الكذب حماية من الفرامة » وما الى ذلك . وفي دراسة شيللي Sheelly (١٩٣٨) التى تناولت ٨٠٠ طفل تتراوح أعمارهم من ٩ الى ١٦ سنة وجد الذكور أكثر عدوانا وسيطرة وأقل خوفا وأكثر تفاخرا عن الإناث اللاتى كن أكثر شكا وخيالا ، وأكثر خضوعا وطاعة للضوابط الاجتماعية ، ولقد وجدت نسبة الذكور الى الإناث فى الأحداث الجانحين الأمريكين تساوى ٦ - ١ .

ولكننا يجب أن نلاحظ أن هناك فروقا كبيرة فى نوع الجرائم التى يرتكبها أفراد كل جنس ، كذلك هناك فرق فى المستويات الخلقية التى يضعها المجتمع على أفراد كل جنس . فالمعروف أن الأسرة أكثر تسامحا فى قبول المخالفات التى يرتكبها الولد الذكر . كذلك فإنه يفترض أن الأب - أكثر من الأم - هو الذى يمثل السلطة الخلقية الرئيسية فى الأسرة ، وأنه أيضا الموضوع الخلقى الذى يتقمصه الولد والبنت على حد سواء . أن الأب أكثر تمثيلا للمعايير الاجتماعية ، وهو أكثر قدرة على القيام بعملية الضبط والربط فى الأسرة .

وفى هذا الصدد افترض فرويد أن الذات العليا أو الضمير فى النساء أضعف منها فى الرجال . ويرجع السبب فى ذلك الى بقاء البنات مدة أطول من البنين فى مرحلة جمود عقدة الكترا Electra* .

وخلافا لوجهة نظر فرويد هذه يعتبر تيرمان وتيلور أن البنات يمثلن أكثر من البنين لقواعد الآباء والسلطة . كذلك تعاني البنات من مشاكل مدرسية ومنزلية أقل من البنين ، وأن نسبة جنوح الأحداث بينهن أقل من مثيلتها عند البنين . وفى دراسة ثرستون وكيف Thurstone and Chave عن الاتجاه نحو الكنيسة وجد أن النساء أكثر استعدادا للذهاب للكنيسة عن الرجال . (٣٤)

ويرى فرويد Freud أن الاحساس بالعدل وغيره من القيم الخلقية أقل فى النساء منه فى الرجال ، ويرجع ذلك فى نظره الى طرق تكوين الذات العليا عندهن ويقول فرويد : « أن السمات الخلقية التى اثارها النقاد فى كل الأزمنة ضد النساء - أى أن احساسهن بالعدل أقل من احساس الرجال ، وأنهن أقل استعدادا للخضوع لضرورات الحياة الهامة ، وأنهن أكثر تأثرا فى أحكامهن بمشاعر الحب والعداوة - كل هذا يفسر بالرجوع الى التعديلات التى تحدث فى تكوين ذواتهن العليا » .

ويبدو أن تعاطف الإناث ينتج من جوانب شخصية أكثر من المبادئ والقيم المجردة . وفى هذا الصدد يقال أن النساء يتأثرن فى الأحكام الخلقية والجمالية بالأسلوب وبالشعور أكثر من التأثر بالعقل .

(٣٤) Thrustone, L. and Chave. E., The measurement of attitudes. The University of Chicago Press, 1951.

(*) تشير هذه الحالة الى ارتباط الفتاة بايها مع كراهية الام والشعور بالفرة نحوها ، وتقابل عقدة أوديب فى الطفل الذكر التى تشير الى ارتباط الطفل جنسيا بامه والفرة من الاب وما يصحب ذلك من شعور بالذنب والصراع الانفعالى لدى الطفل .

ولقد وجهت انتقادات عديدة لفكرة وراثية الأخلاق ، فعلى سبيل المثال ، وجد هارتشون وماي أن الامانة تختلف باختلاف المواقف . فالطفل قد يكون أميناً في المدرسة خائناً في المنزل . ويؤكد الاتجاه البيئي في نمو الاخلاق دور الاسرة والمدرسة والمسجد والكنيسة أو الجماعات البشرية ، كجماعة الاصدقاء والزلاء والحركة الاجتماعية ووسائل الاعلام والاتصال الجماهيري كالراديو والتلفزيون والسينما والمسرح والصحف والمجلات مما يؤكد اثر المنزل على الاخلاق ، ما وجد في احدى الدراسات من أن ٨٧٪ من الأناث الجانحات اتين من بيوت محطمة ، حيث يقل تأثير المنزل ، وتقل فرص تدريب الطفل على السلوك الخلقى .

وفي دراسة اخرى وجد أن ضعف التدريب والتأديب كان سبباً في ٩٠٪ من الانحرافات السلوكية . ولا شك أن الطفل يبني مفهومه عن الصواب والخطأ من الأمثلة التي يتلقاها من الكبار الراشدين . ولقد وجدت معاملات ارتباط كبيرة نسبياً بين فكرة الأطفال عن الصواب والخطأ وبين أفكار الكبار المحيطين بهم . وكانت معاملات الارتباط كما يلي :

معامل الارتباط

الأطفال والآباء	٠.٥٥
الأطفال والاصدقاء	٠.٣٥
الأطفال ومعلمو الأندية	٠.١٤
الأطفال والمدرسون	٠.٠٦
الأطفال ومعلمو مدارس الاحاد	٠.٠٢

ويبدو أن الآباء لهم أكبر قدر من التأثير في تكوين مفهوم الطفل عن الخطأ والصواب . ولقد تبين انه كلما زاد اتصال الطفل بالتصاقاً بالكبار زاد تأثيرهم عليه وعلى سلوكه ، وتلعب علاقات الحب والعطف والحنان والدفع دوراً هاماً في تنمية الضمير القوي في الأطفال .

فأسلوب التربية القائم على أساس الحب هو الذي يؤدي الى تنمية الضمير . اما الحماية الزائدة أو الخضوع لرغبات الطفل المبالغ فيها فانهما يؤديان الى زيادة نزعات الطفل نحو العصيان والطفيان والمبالغة في المطالب . اما الأطفال الذين خضعوا لسيطرة الأمهات والتحكم الزائد والتأنيب المبالغ فيه والذين كانوا يمنحون المكافأة لخضوعهم التام ، أصبحوا منسحبين وخجولين . (٣٥)

ويعتبر المنزل من أقوى المؤسسات الاجتماعية في نقل ثقافة المجتمع للطفل ، انه يكمل وظائف المؤسسات الاجتماعية الاخرى كالحكومة والمدرسة والمسجد . بل انه يبدأ في عمله هذا « قبل أن يبدأ الطفل في الاحساس بدور هذه المؤسسات . كذلك تلعب المدرسة دوراً هاماً في

نمو السلوك والقيم الخلقية في الطفل ، فلقد لوحظ أن السلوك الخلقى للأطفال يتدهور عندما تضعف الادارة المدرسية .

ولكي يمارس الطفل السلوك الصواب لابد من معرفة الصواب والخطأ والتمييز بينهما ، وليس هذا التمييز أمرا سهلا ، إذ يختلف الأفراد في تقدير الصواب والخطأ . ففي إحدى الدراسات قررت ٩٠ ٪ من مجموعة من الأطفال الصفار أن ٩ مواقف من مجموع ٦٤ موقفا مدرسيا هي مواقف صحيحة أو صواب ، وعندما حكم المدرسون على هذه المواقف قرروا أن ١٢ موقفا صحيحة فقط ، وقرر هذه النتيجة ٩٠ ٪ من المدرسين ، وعلى الرغم من أن المعرفة النظرية بالصواب والخطأ لا تضمن بحد ذاتها ممارسة الصواب وتجنب الخطأ إلا أن المعرفة مهمة ، لأن الفرد لا يختار الصواب في موقف لا يعرفه ، اللهم بمحض الصدفة البحتة . (٣٦)

ومن العوامل المؤثرة في السلوك الخلقى ارتياد أماكن العبادة ، فلقد وجد أن للخبرة الدينية أثرا كبيرا على النمط القيمي للأطفال وللشباب . ولقد وجد « هارتشون وماي » أن مقدار الغش يقل بارتياح الكنيسة . كذلك وجد أن الأطفال الذين يرتادون الكنيسة يحصلون على درجات أعلى في اختيار « مساعدة الغير » أو النزعة نحو مساعدة الآخرين .

وبالنسبة لآثر المجتمع أو الحياة الاجتماعية ككل يقول عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم Durkheim « ان الحركة الاجتماعية العظيمة هي التي تخلق الجريمة . ففي الماضي كان الناس يرتبطون بروابط وثيقة بأسرهم التي كانت توحد وتضبط سلوكهم . » (٣٧)

ولقد أدى النمو الاجتماعي الى النزوح للمدن الكبرى وتحطيم الروابط الأسرية القديمة ، وأصبحت الوظيفة أو المهنة تمارس بعيدا عن دائرة الأسرة ، ولقد تحللت القيم القديمة دون أن يبتكر غيرها ، فأصبح هناك فراغ قيمى يحتوى الفرد المعاصر . لقد أصبح أبناء المجتمع الحديث أكثر عزلة وانسحابا ومن ثم ضعف التأثير الاجتماعى عليهم .

كذلك تؤثر الطبقة الاجتماعية على نوعية الأخلاق التي تنمو في الطفل ، فلقد وجد أن أطفال الطبقات الاجتماعية والاقتصادية الدنيا أكثر تسلطا في اتجاهاتهم ، فقد طالبوا بانزال العقاب ، كعلاج لعمل الخطأ أكثر من أطفال الطبقات العليا . ولقد وجد أن أطفال الطبقات الدنيا ينظرون للسلوك في ضوء الصح والخطأ ، بينما يحكم أطفال الطبقات العليا على السلوك طبقا لنتائج العملية . كذلك وجد أن أطفال الطبقات الاجتماعية الدنيا كانوا أكثر قبولا وتسامحا ازاء الأفعال الخاطئة ، وذلك بالمقارنة بأطفال الطبقات العليا ، وعلى سبيل المثال عندما سئلوا عما إذا كان « السكر » خطأ ، كانت هناك النسب المئوية الآتية التي أقرت أن السكر خطأ :

٥ ٪

أطفال الاحياء الشعبية القدرة

Ibid

(٢٦)

Ibid

(٣٧)

أطفال مناطق نصف قدرة	٪١١
أطفال الطبقة الاجتماعية المتوسطة	٪٢٠
أطفال الطبقة الاجتماعية العليا	٪٣٤

ولقد فسر هذا بأن أبناء المناطق الشعبية المتدنية المستوى أكثر الفة مع السكر عن زملائهم من أبناء الطبقات العليا .

ويقترح بريكنريدج Breckenridge العوامل الآتية كأساس للنمو الأخلاقي الجيد :

١ - صحة جسمية جيدة لمقاومة الاغراء ، وللتحرر من الشعور بالمرارة أو النقص ، ومن وجود دوافع الانتقام .

٢ - الأمان الانفعالي لامكان الشعور بالحب تجاه الآخرين .

٣ - توفر وظيفة مناسبة ومنافذ للتعبير أو التصريف .

٤ - تدريب مستمر في التحكم والضبط الذاتي للمساعدة في التخلص من البواعث الطفلية .

٥ - وجود أفق اجتماعي مستمر الاتساع لتنمية القدرة على اكتساب المعارف ، وعلى التسامح وعلى التعاطف ، وعلى الفهم وتنمية الرغبة الاصيلية لتقدير حقوق وواجبات الناس الآخرين .

٦ - الطموح نحو الرغبة القوية في عمل الصواب ، بحيث يجد الفرد الشعور بالرضا والسعادة نتيجة لعمل الصواب . وفي الغالب ما ينمو هذا الطموح نتيجة للتعاليم الدينية . (٣٨)

ولا يمكن تخيل حدوث النمو الخلقى بمحض الصدفة ، بل انه يحتاج الى جهود واساليب مدروسة ، ويتطلب تخطيطا دقيقا للمواقف التى تضمن التعاون والضبط الذاتى ، ونمو روح الجماعة . كذلك ينبغى تشجيع الطفل على تعميم المبادئ الخلقية ، ويمكن اشراك التلاميذ فى مشروعات خدمة البيئة لتنمية الشعور بتحمل المسؤولية وتقدير الصالح العام وحمايته . وإلى جانب المؤثرات الخارجية وفى مرحلة المراهقة توجد دوافع داخلية نحو التعاون ونحو تقدير العدالة ونمو الشعور بالولاء للجماعة ولقواعدهم وغير ذلك من المبادئ السلوكية المثالية . وفى المراهقة تنمو النزعات المثالية والنزعة نحو اصلاح العالم ونحو البذل والتضحية الدائبة ، وينبغى توجيه هذه المثالية نحو السلوك الخارجى الحقيقى كما ينبغى اشعار المراهقين بانهم مرغوبون ومطلوبون كما ينبغى أن يجدوا المنافذ الايجابية البناءة لتصريف طاقاتهم الزائدة . وأخيرا فاننا فى معرض الجدل بين تأثير البيئة والوراثة ، ينبغى ان نؤكد بأن الانسان يتأثر بكل من البيئة والوراثة معا ،

وان العلاقة بين البيئة والوراثة هي علاقة تفاعل، أى تأثير متبادل قوى ، ولكننا ينبغي أن نضع مزيداً من الأهمية للعوامل البيئية، لأن ذلك سوف يوسع من مقدرتنا على مساعدة الاطفال نحو النمو الجيد ، والايمان بإمكان اصلاح الاعوجاج . ان ارجاع السلوك الانساني الى العوامل الوراثية وحدها يضيق من امكانية تعديل السلوك المنحرف وتوجيهه نحو الصواب . ولاشك أن ما يولد به الطفل من استعدادات وامكانيات يمكن صقلها وتشكيلها وتوجيهها وحسن استقلالها عن طريق الخبرات التى يمر بها الطفل ، والفرص التى تتاح له ، والاشراف الذى يلقاه .

المثال والقذوة :

كيف يختار الطفل الصغير مثاله الأعلى الذى يقتدى به ؟

نتيجة لالتصاق الاطفال الصغار بأبائهم فانهم يختارون منهم مثالهم الأعلى . وفى احدى الدراسات وجهت للأطفال الاسئلة الآتية :

١ - من هو الشخص الذى تعجب به أشد الإعجاب ؟

٢ - من هو الشخص الذى ترغب أن تشبهه من هؤلاء الناس الذين تعرفهم أو سمعت أو قرأت عنهم ؟

ولقد اختار الاطفال الصغار (سن ٦ - ٧ سنوات) مثالهم الأعلى من بين أفراد الدائرة الضيقة لمعارفهم كالآباء والأمهات . وعلى حد قول فالتين : « بازدياد السن تتسع خبرات الطفل، وبذلك يصبح الاشخاص الذين يختارهم الطفل مثالا أعلى من بين الاشخاص الذين قرأ عنهم فى التاريخ أو فى الأدب أو فى الانجيل ، أو من بين الشخصيات العامة الشهيرة . (٣٩)

على كل حال وجد أنه بعد سن الثالثة عشرة يعود الطفل للاختيار من دائرة المعارف المقربين . ومن المعروف أنه بالتقدم فى السن ينمو اتجاه التسامح نحو المذاهب الدينية المختلفة وأربابها ، كما تنمو نزعات الشك والنقد تجاه العقائد الدينية التى تعلمها الطفل من قبل .

ولقد وجد معامل ارتباط سالب بين عامل العمر الزمنى وبين قبول المعتقدات الدينية .

كذلك كلما تقدم المراهق فى السن زاد قدرة على التفكير فى الأمور المجردة ، وكلما قلت نزعته نحو « الاخلاق الموضوعية » أو الواقعية أو المطلقة حلت محلها الاخلاق النسبية ونمت نزعات التحرر والمرونة فى وجهات النظر .



مراحل النمو الخلقى :

على الرغم من أننا نستطيع أن نحدد مراحل معينة للنمو الخلقى ، إلا أن النمو الخلقى ، كغيره من مظاهر النمو الأخرى ، يحدث تدريجياً فجائياً ، وليس هناك انتقال فجائى أو طفرى من مرحلة إلى أخرى ، فالطفل لا يتحول من الطفولة إلى المراهقة بين عشية وضحاها ، بل إنه من الممكن أن يحدث نوع من النكوص regression أو الارتداد من مراحل متقدمة إلى مراحل سابقة عندما يتعرض الفرد لصعوبات نفسية حادة ، فالنمو لا يسير باستمرار في خطوط مضطردة . كذلك هناك فروق فردية واسعة individual differences في الوصول إلى أى من هذه المراحل ، ولا توجد فواصل حاسمة فاصلة وقاطعة بين هذه المراحل ، ولكنها تتداخل فيما بينهما (٤٠) ففى المراهقة تظل هناك رواسب من الماضى الطفولى وفى الشباب تبقى بعض سمات المراهقة . ويصف جيرسيلد Jersild حركة الانتقال من مراحل أقل نضوجاً إلى المراحل الأكثر نضوجاً فى النمو الخلقى بما يلى :

- ١ - المفهوم العام لما هو صواب ولما هو خطأ يحل محل القواعد النوعية المحددة .
- ٢ - المعايير الداخلية تحل تدريجياً محل الطاعة للأوامر والنواهي الخارجية .
- ٣ - زيادة فهم (قواعد المباراة) نتيجة الاحترام المتبادل والموافقة أكثر من كونه نتيجة لطاعة الأوامر التعسفية .
- ٤ - نمو قدرة متزايدة واستعداد أكبر لأخذ الظروف المحيطة بالسلوك الخاطئ فى الاعتبار بدلاً من الحكم الآلى على العمل الخلقى .
- وبالنسبة للسلوك الإنسانى ككل يمكن النظر إليه على أنه يسير تبعاً لمستويات أربع يمكن أن تتخذ دليلاً على النمو الخلقى للطفل ، هذه المستويات هي :
- ١ - السلوك غير المتعلم أو السلوك الغريزى يتعدل بالنتائج الطبيعية للسلوك ، ومن أمثلة ذلك تعلم الطفل لتقائماً لا يصدم رأسه ضد الأشياء الحادة أو الساخنة .
- ٢ - الثواب والعقاب كما يمارسهما الآباء والمعلمون وغيرهم من الكبار ، أى الضوابط الخارجية .
- ٣ - القبول وعدم القبول الاجتماعى وخاصة من قبل الجماعة التى ينتمى إليها الطفل .
- ٤ - الإيثار حيث تحرك الفرد وتسيره الرغبة فى عمل الخير العام ، ويمثل هذا أعلى المستويات الخلقية .

النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية

وفي الطفولة المبكرة يكون سلوك الطفل ليس خلقيا أو لا أخلاقيا . ان حاجات الطفل الرضيع تشبه حاجات الحيوان ، بمعنى انها فيزيقية حسية ومباشرة، فيحاول ان يحصل على الاشباع المباشر لحاجاته وان يتجنب الألم . وفي محاولاته لاشباع حاجاته يكون الطفل الصغير انانيا متسلطا ومن خلال شعوره بالدفع والبرد والامتلاء والفراغ يحصل الطفل الصغير على الشعور بالخبرات الجيدة والخبرات (٤١) الرديئة .

ولقد ميز **بياجية** Piaget بين نوعين من الأخلاق :

١ - النوع الاول الذى يظهر مبكرا ، او هو ما أطلق عليه اصطلاح (الأخلاق الموضوعية) objective morality وهنا تكمن الصحة والخطأ في بعض مظاهر السلوك ، ويمكن ادراكهما موضوعيا ، وهما بينان أو واضحان بذاتهما ، فالطفل الصغير يعتقد ان أى شخص يستطيع ان يدرك خطأ أخذ أى شىء يخص الغير أو يخص شخصا آخر ، وتبعاً لراى بياجية فان الاطفال في سن الثمانى سنوات يحكمون على أى سلوك تبعاً لنتائجه بصرف النظر عن الدوافع او النوايا . التى تكمن وراء السلوك . وعلى ذلك فالطفل الذى كسر ، عرضاً او مصادفة او قضاء وقدر ، عشرة أطباق هو أكثر « شقاوة » أو خطأ أو مشاغبة من ذلك الطفل الذى كسر عامداً متعمداً كوباً واحداً . وبمرور الزمن يصبح الطفل قادراً على استيعاب الافكار المجردة حول الخير والشر بوجه عام .

ويعتقد بياجية ان هناك انتقالاً من الضبط الخارجى ومن الواقعية الخلقية الى النسبية الخلقية .

حيث يصبح حكم الطفل الخلقى نسبياً وليس حرفياً . يبدأ الطفل في تكوين فكرته عن الصواب والخطأ عن طريق اكتشافه ان اشباع حاجته في الحب والدفع لا يتأتى الا عن طريق ارضاء أمه ، وعن طريق الحصول على موافقتها ، وهذا يضع الأسس الاولى نحو التعامل مع الناس ، فموافقة أو رفض الآباء تمثل الجذور الاولى للمعايير الخلقية . وفي دراسة هارتشون ومای وجد ان الاطفال من سن تسع سنوات يعملون طبقاً للخير العام ويتعاونون فيما بينهم وتثيرهم دوافع الاحسان .

ويقرر **الج** Ilg ان الطفل عند سن ثمانى سنوات يستطيع ان يميز بين الخطأ والصواب والخير والشر ، وفي الفترة ما بين ٥ ، ٧ سنوات تحدث زيادة في السلوك التعاونى وفي ادراك حقوق الآخرين .

وعلى الرغم من ان الجنوح يزداد انتشاره في مرحلة المراهقة ، الا ان جلدوره الاولى ترجع الى الطفولة المبكرة ، ولا شك ان النمو الداخلى الخلقى عامل اساسى محدد في ازالة السلوك

الجانب . في الطفولة المبكرة لا يدرك الطفل الصراع بين الامانة والولاء للاصدقاء . وكلما تقدم الطفل في السن كان اكثر وعيا وادراكا لهذا الصراع ، وكلما تقدم الطفل في السن ايضا كان اكثر قدرة على ادراك المطالب الثقافي والتوقعات الاجتماعية .

اما عن تطور الحكم الخلقى عند الطفل ، ففي مرحلة الطفولة المبكرة يسير الطفل حسب ما اسماه بياجيه « الخلقية الموضوعية » ومعنى ذلك ان العالم عبارة عما نشاهده فقط ، وليس هناك وجهات نظر متعددة ، وليس هناك نسبة ، فالاشياء اما بيضاء او سوداء ، صواب او خطأ ، فعلى قدر فهم الطفل فان الآباء في نظره يعرفون كل شيء ، فاذا قالوا ان هذا خطأ فانه خطأ ، فكل ما يقوله الآباء او يفكرون فيه فهو صواب .

فالاطفال يحكمون على الاشياء حكما موضوعيا ، أى دون أخذ الدوافع في الاعتبار ، تلك الدوافع التي دفعت الطفل نحو هذا السلوك ودون اعتبار للظروف المحيطة والملابس ، بل يتبعون « حرفية النص الخلقى » او حرفية القاعدة في العايم . فالعقاب يتناسب مع حجم الخسارة المادية التي أحدثها الطفل ، وليس وفقا لدوافع الطفل او نواياه او « سبق الاصرار والترصد » .

وعلى كل حال طبقا لمنطق بياجيه فان الطفل بالتدريج يتعلم ان القواعد الاخلاقية التي يضعها الكبار ليست مطلقة ، وبذلك يمكن تعديلها لكي تناسب الظروف المحيطة بموقف معين .

في المراحل المتقدمة تظهر المرونة في الاحكام الخلقية ، وعندئذ يدرك الطفل ان القاعدة الخلقية يجب ان تتعدل طبقا للظروف ، بحيث تحقق الصالح العام والخير الاكثر ، فالطفل الذي تأمره الاسرة بالعودة فورا بعد الخروج من المدرسة والذي ينفذ ذلك في حالة تعطل المواصلات العامة « بالشعبطة » في احدى سيارات النقل ، وبذلك يعرض حياته لخطر الموت في سبيل تنفيذ تعليمات الاسرة يلتقى عقابا غير مفهوم بالنسبة له ، ففي هذه المراحل المتأخرة يدرك الطفل ان الحكمة في طاعة القوانين والقواعد الخلقية تكمن في تنفيذ روح القانون اكثر من حرفية القانون . (٤٢)

علاقة الذكاء بالأخلاق :

في بعض الدراسات وجد ان نسبة ذكاء مجموعة من الاطفال الاحداث الجانبين هي ٩٢٥ بينما كانت نسبة ذكاء مجموعة مماثلة من غير الاحداث الجانبين ١٠١٨ ، الا ان انخفاض الذكاء ليس عاملا اساسيا في حدوث معظم حالات الاحداث (٤٣) الجانبين .

(*) يشير الصراع لحالة نفسية فيها تجاذب الفرد بين هدفين او مشيرين قد يكون احدهما مشراجيدا والاخر ضارا ، او كلاهما ضارا او كلاهما خير كصراع الفرد بين الرغبة في الثراء والخوف من العقاب او تائب الضمير . وهناك صراع الاقبال - الاحجام ، وصراع الاقبال - الاقبال ، وصراع الاحجام - الاحجام .

(٤٢) Breckenridge, M.E. and Vincent, E.E. Child development physical and Psychological growth through the school years, W.B. Saunders Co., London, 1949.

(٤٣) Brooks, A., Child psychology, Methuen and Co., London, 1951, P. 409.

النمو الروحي والخلقى والتنشئة الاجتماعية

لقد أجرى عدد كبير من الدراسات لتحديدكم وكيف العلاقة بين الذكاء والاخلاق . وفي مثل هذه الدراسات يقارن الاطفال أصحاب الذكاء المرتفع بالاطفال متوسطى او ضعيفى الذكاء ، يقارنون فى مستوياتهم الخلقية . ففى احدى الدراسات التى أجراها تيرمان Terman على ٥٣٢ طفلا ذكيا تزيد نسبة ذكائهم عن ١٣٠ وجد أنهم يتفوقون فى السلوك الخلقى على المجموعة الضابطة من الاطفال من ارباب الذكاء المتوسط . ولقد استنتج تيرمان ان الاطفال المتفوقين عقليا يتفوقون من الاطفال متوسطى الذكاء على اختبارات الامانة والصدق والسمات الخلقية المشابهة . وهنا يجب أن نتحفظ. فى تفسير هذه الفروق وارجاعها الى الذكاء وحده ، ذلك لأن أحدا لا يستطيع أن ينكر تأثير البيئة المنزلية وغيرها من العوامل الاجتماعية على الانحراف وعلى النمو الخلقى . لقد درس تأثير الذكاء على المستوى الخلقى عن طريق مقارنة نسبة الاطفال ضعاف العقول بين جماعات الاحداث الجانحين . وعلى سبيل المثال وجد بيرت Burt ٨ ٪ فقط من الاطفال ضعاف العقول بين الاحداث الجانحين (نسبة ذكاء أقل من ٧٠ *) ولقد وجد كل من هيلى وبرونر فى دراستهما عن الاحداث فى شيكاغو وبستون ١٣ ٪ من ضعاف العقول ، اما هذه النسبة فى المجتمع العام فلا تتجاوز ١١/٢ ٪ . (٤٤)

وفى نفس الوقت وجدت نسبة الجنوح الى الصحبة السيئة عند ٦٢ ٪ من الحالات . كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره (٥٠٠ ر .) بين الذكاء والغش ، بمعنى انه كلما زاد الذكاء قل الغش ، وكلما قل الذكاء زاد الغش . ويبدو أن تأثير الذكاء على الاخلاق نوعيا أكثر من كونه تأثيرا عاما ، فالاطفال الأكثر ذكاء كانوا أكثر تعاوناً من الاطفال الاغبياء والمتوسطين ، ولكن العلاقة بين الكرم والذكاء كانت ضعيفة ، اما العلاقة بين الامانة والذكاء فكانت عالية (٤٥) .

وفى احدى الدراسات وجد أن طفل التسع سنوات الموهوب عقليا يصل الى مستوى نمو خلقى يعادل طفل الرابعة عشرة من الاطفال غير المنتقين . ولكن الذكاء يساعد فى سرعة حدوث النمو مهما كان الاتجاه الذى يتخذه هذا النمو ، فاما : اخلاق حسنة او « جرائم خطيرة » . كذلك فلقد وجد أن الاطفال الأكثر ذكاء أقل غشاً فى امتحاناتهم ، ولكن ليس ذلك بالضرورة لانهم أكثر خلقاً ؛ بل ربما لانهم أكثر قدرة على حل أسئلة الامتحان بدون اللجوء الى الغش . ويبدو منطقياً ان نقول أن الطفل الذكى والطفل الغبى يختلفان فى قدراتهما على التنبؤ بنتائج أعمالهما ، كما يختلفان فى قدراتهما على الرؤية البعيدة للمزايا البعيدة فى الاهداف المرتبة ، وتفضيل ذلك على الاشباع المباشر لحاجاتهم الراهنة .

* من المعروف ان نسب الذكاء ١٠٠ تشير الى الطفل متوسط الذكاء وهو الطفل الذى يساوى عمره العقلي عمره الزمني .

Jones, V., Op. Cit. P. 793.

(٤٤)

(٥) راجع كتاب المؤلف « القياس والتجريب فى علم النفس والتربية » دار النهضة العربية - بيروت لتحديد معنى الارتباط والعلية والفرق بينهما .

وكلما زاد ذكاء الفرد كان أقدر على اختيار العناصر الصالحة من بيئته وعلى تشكيلها وتسخيرها بما يخدم أغراضه . كذلك لا يتعلم الذكي والغبي بالتساوى حتى من نفس الموقف، أو من نفس البيئة ، والمفروض أن يساعد الذكاء الفرد على الاستفادة من بيئته الى أقصى حد ، وعلى تعديلها اذا كانت غير مواتية ، وعلى تكييف نفسه للمواقف الجديدة . ولقد دلت دراسة تيرمان ان الاطفال الموهوبين يتفوقون على الاطفال المتوسطين في السمات والقيم الموجهة نحو النجاح الدائى أكثر من السمات والقيم الموجهة نحو المسؤوليات والخدمات الاجتماعية، فلاحظ أيضا أن الاذكياء يرتفع عندهم مستوى الطموح، وتفوقت المجموعة الموهوبة على المجموعة المتوسطة تفوقا أكثر دلالة في الإرادة والثابرة ، وتفوقت أقل في المشاركة الوجدانية والرقعة ، كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره ١٦.٠ بين الذكاء ومساعدة الآخرين ، ومعامل ارتباط قدره ٩.٠ بين الذكاء وروح التعاون .

ولكن لا ينبغي الاعتقاد بأن الضعف العقلى أو البغاء يؤديان بحد ذاتهما الى الجنوح ، هناك دائما عوامل متوسطة كثيرة ، فانخفاض الذكاء مثلا قد يقود الى الفشل والاحباط ، كما يقود الى كثير من الصعوبات في التحصيل المدرسي . كذلك فان مستوى طموح الفرد ينخفض في حالة الضعف العقلى .

كيف ينمو ضمير الطفل :

يظهر الضمير أو الذات العليا في اصطلاحات التحليل النفسى ، في سلوك الطفل تدريجيا . ففي بداية حياة الطفل يرغب في الاشباع المباشر للدوافع أو لحاجاته بصرف النظر عن الاعتبارات الخلقية أو العملية ، فهو يطلب الطعام ويطلبه الآن وفي هذا المكان .

وبالتقدم في العمر يتعدى السلوك الاندفاعى خلال الخبرة ، فيتعلم الطفل أن بعض استجاباته سوف يثاب عليها ، وان بعضها الآخر سوف يجلب له العقاب ، وان بعض مطالبه لا يمكن تلبيتها في الحال ، وان بعضها الآخر لا يمكن تحقيقه مطلقا . وبمرور الوقت يصبح تجنب بعض مظاهر السلوك الذى كان يحدث نتيجة لقوة خارجية يحدث الآن نتيجة « للسلطة الداخلية » فيكف الطفل عن الاتيان بالسلوك الخاطيء حتى في غياب الكبار ممثلى السلطة الخارجية في الطفل . وهنا يشعر الفرد بالذنب عندما يفشل في مقاومة الاغراء .

وتبعاً لنظرية فرويد هناك في كل شخص منطقة من الدوافع غير المستانسة تشبه الحيوان في طبيعتها ، وعند الميلاد تحتوى هذه المنطقة على مجموعة من البواعث العامة « الفريزية » ، وهى ما أطلق عليه اسم **الذات الدنيا** Id في هذا الدافع توجد قوتان مختلفتان هما :

١ - الدافع نحو الحياة ونحو الخلق والحب ، وهو الذى يسميه فرويد رغبة الحياة أو غريزة الحياة .

٢ - والدافع العدوانى الهدام وهو ما اطلق عليه رغبة الموت أو غريزة الموت . وتبعاً لوجهة نظر فرويد فان الطفل تحكم « الانا الدنيا » حياته . فهو بلا قيود او شعور بالاسف يسعى لتحقيق لذاته ، ويعبر عن دوافعه « الهدامة » نحو موضوعات العالم الخارجى .

وتشير الانا الدنيا في اصطلاحات فرويد الى الطبيعة البدائية وغير المفكرة واللامعقولة ، والى تستهدف اشباع الفرائز مباشرة اشباعاً كلياً وعلنياً . ولكن بمرور الوقت ينمو تحكم الطفل ، ففي البداية يكون الطفل غير خلقى وغير اجتماعى ولا يتوقف عن السلوك غير المقبول الا في حضور الكبار اصحاب السلطة في العقاب .

اما **العنصر الثانى** فى الشخصية الانسانية فى الفكر الفرويدى فهى الذات الوسطى Ego وهى عبارة عن القدرة على التعامل عقلياً بمعقولة مع الواقع ، وتنمو الذات الوسطى من الذات الدنيا ، وتتمشى مع مبدأ الواقع ، وتمثل العالم الخارجى وقيوده وتكاليفه وفروضه ومستلزماته . وهى القوة التى تدرك الحدود او الفواصل الواقعية التى تمنع من حدوث الاشباع المباشر لدوافع « الذات الدنيا » فتبعا لمنطق الذات الوسطى هذه فان تأجيل الاشباع يضمن لنا اشباعاً اكثر كمالاً فى المستقبل . وتحتوى الذات الوسطى على اجزاء شعورية واخرى لا شعورية . وهى التى تتصل دائماً بالعالم الخارجى ، وتهتم بما يجرى فى بيئة الفرد ، وعليها ان تفى بمطالب الواقع ، ومن ثم فانها تنادى الطفل الصغير قائلة : انك ينبغي ان تطيع امك ، لانها سوف تصفحك ان لم تفعل ذلك .

وعليها ان تشبع المطالب الداخلية للذات العليا وتقاوم ضغوط الذات الدنيا التى تدعو للانطلاق . وعلى ذلك فللذات الوسطى ثلاثة اسياد هى :-

١ - البيئة او الحياة الخارجية او المجتمع .

٢ - الضمير

٣ - الذات الدنيا

وعلى ذلك فكلما نجحت الذات الوسطى فى التعامل مع هذا المثلث تعاملنا حسناً وتحسن توازن الشخصية او اتزانها النفسى .

اما **العنصر الثالث** فى تكوين الشخصية فهو تبعاً لنظرية فرويد الضمير او الذات العليا ، وهنا نتساءل كيف يتكون او ينمو ضمير الطفل الصغير ؟

كلما نما الطفل نمت المعايير الداخلية ، تلك المعايير التى نسميها صوت الضمير الذى يرشد الفرد فى سلوكه وفى احكامه الخلقية .

ويمثل الضمير معايير الفرد وقيمه ومبادئه ومثله العليا . انه السلطة الضابطة العليا فى الانسان ، فاذا لم يستجب الفرد لندائه فانه سوف يعاقب عن طريق قوة داخلية من خلال الشعور بالذنب وكراهية الذات ونبذها . ويعطى فرويد اهمية كبرى لنمو الضمير فى نضج الفرد ،

فالفرد يظل غير ناضج حتى يعطى الاحترام للملائم لقوانين المجتمع الذى يعيش فيه ، وحتى يصبح لديه ذوق جيد ، ويطيع القانون ، يحترم حقوق الآخرين ، ويشعر بالواجب .

ويلعب الضمير دور الاب ، او الامر او المراقب او الملاحظ او الشرطي على كل حال من الذات الدنيا والذات الوسطى . انه يعمل كقاضى للاخلاق يحكم تبعا للمبادئ « المثالية » اكثر من المبادئ الواقعية ، انه يعمل من اجل الوصول بتصرفاتنا نحو الكمال المثالى . ويقال انه يحدد السلوك ، يقمعه او يمنعه ، ويتحكم فى ضبطه ، وعلى الرغم من طبيعة الضمير الخلقية الا انه اذا اصبح حادا او قاسيا اكثر من اللازم فانه يظل يخز ويؤنب صاحبه على كل كبيرة وصغيرة ، بل حتى على مجرد الافكار السيئة ، حتى تلك الافكار التى ينبجج الفرد فى اخفائها عن الناس لا تنجو من عقاب الضمير عليها . وتؤدى حدة الضمير الى تكوين شخصية هيابة مترددة . فاذا زادت سيطرة الضمير فى الشخصية يصبح الفرد عبدا لمجموعة من العادات والتقاليد ، وعبدا لمشاعر الذنب والتائب القاسية . يقول فرويد ان الحياة الشخصية تشبه جبل الثلج العائم iceberg يفوق معظمه تحت سطح الماء . وعلى ذلك فالصراعات التى تحدث بين الذات الوسطى والذات العليا هى على المستوى اللاشعورى غير المرئى . وللمحافظة على توازن الفرد ينبغى ان تكون العلاقة بين الذات الدنيا والوسطى والعليا علاقة وثام وانسجام وتوازن . ولا ينبغى ان يكون الضمير قاسيا او حادا جدا ، لان ضعفه اكثر من اللازم يؤدى الى نشأة الانحراف السيكيوباتي .

واخيرا فاننا ينبغى ان نشير الى انه رغم تقسيم فرويد العقل الانسانى الى هذه العناصر الثلاثة الا ان العقل الانسانى فى الواقع وحدة دينامية متكاملة متفاعلة ، بل ان الانسان نفسه وحدة جسمية نفسية واجتماعية متكاملة متفاعلة ، وان هذه العناصر ليست الا تجريدات عقلية لوصف انماط معينة من السلوك ، وليس العقل البشرى مقسما الى موجودات مستقلة بعضها عن البعض (٤٦) فلا ينبغى ان نتصور ان الذات الدنيا والوسطى والعليا كائنات صغيرة تكمن داخل الانسان ، وانما هى مجرد تجريدات يضعها الباحث الملاحظ لوصف انماط معينة من السلوك .

ولا شك ان فهم الضمير عملية اساسية في فهم سلوك الانسان كله ، وهنا نتساءل عن العوامل المؤثرة فى نمو الضمير ، وعلى الفور تبرز امانا ثلاثة عناصر اساسية هى :

١ - قيم الثقافة او معاييرها التى تكون جزءا اساسيا من الشرعية التى تنتقل للطفل عبر الآباء والامهات ، وتختلف تلك القيم من ثقافة الى اخرى ، فعلى حين نجد ان العدوان سلوك غير مرغوب فيه فى اطار بعض الثقافات نجد ان توكيد الذات تؤكده وتشجعه ثقافة اخرى ، بينما تشجع ثقافة ثالثة الاعتراف بالشخصى .

النمو الروحي والخطى والتنشئة الاجتماعية

٢ - **نمو الطفل العقلي** ، فالطفل الأكبر سنا والأكثر نضوجا من الناحية العقلية أكثر قدرة على ادراك وفهم ما نتوقعه منه ، أنه يستطيع ان يفهم اسباب بعض القيود والمعايير ، كما انه يستطيع ان يعمم بعض المبادئ ، وان يطبقها على العديد من المواقف . كذلك فإنه يستطيع أكثر من زميله الصغير ، ان يدرك المفاهيم المجردة التي تكمن وراء المسائل الاجتماعية مثل الايثار أو المساواة أو العدل أو الحق أو الخير أو الصدق أو الشفقة .

٣ - **علاقة الطفل بأبويه** . هنالك بحوث كثيرة استهدفت معرفة التأثير الوالدي على نمو ضمير الطفل . في دراسات « التنميط » التي أجراها كل من سيرز وماكوبى وليفين Sears, Maccoby and Livin, 1957. طلب من امهات الاطفال ان يحددن علامات نمو الضمير في سلوك اطفالهن . واتخذ لذلك معيارين هما :

١ - نزعة الطفل لكي يمثل الدور الابوى ، أى بمحاولاته تعليم اخواته واخوته واصدقائه معايير الآباء .

ب - سلوك الطفل الذى يعقب عمل الخطأ ، أى محاولاته الاعتراف بهذا الخطأ أو الاعتذار عنه أو باصلاح ما أفسده . وحدد مقدار نمو ضمير الطفل على هذا المقياس المكون من خمس نقاط هى :

١ - لا دليل على النمو اطلاقا : حيث ينكر الطفل ، ولا يبدو عليه عدم السعادة عندما يكون « شقيا » .

٢ - ادلة بسيطة على وجود الضمير .

٣ - نمو متوسط للضمير : بما لا يعترف بالخطأ مباشرة ، ولكنه يبدو خجولا أو جبانا ونادرا ما ينكر اخطائه .

٤ - ضمير لا يستهان به ونام بدرجة كبيرة .

٥ - ضمير قوى : حيث يشعر الطفل بالتعاسة عندما يكون « شقيا » ودائما يعترف ولا ينكر أبدا ، ولديه حاجة قوية للعفو والحصول على تسامح الآخرين .

وتتم عملية امتصاص الطفل لمعايير الكبار عن طريق عملية التقمص أو التوحد . فالتقمص القوى لشخصية الآباء يساعد على نمو ضمير الطفل . فلقد وجد (تبعاً لدراسات ميسون ودستلر ١٩٦٠) Mussen and Distler أن صبيان سن الحضانة الذين كانوا أكثر ذكورة ، وبما يسبب تقمصهم لشخصية آبائهم كانوا ايضا متقدمين في نمو الضمير . كذلك وجد (فى دراسة ستين) بعض الادلة التجريبية ان الاطفال فى مواقف الاغراء يقلدون النموذج الذى يخضع للاغراء ، ويوحى هذا ان الآباء يعملون كنموذج لابنائهم فيما يختص بالسلوك الخلقى ، فقد اهتم البحث العلمى بعاملين اساسيين فيما يتعلق بنمو الضمير :

أ - نوع التأديب الأبوي .

ب - دفء علاقة الاب - الطفل ، فيما يتعلق بالنشاط التأديبي في المنزل . كشفت دراسة التنميط ان الاسلوب السيكولوجي اى الاتجاه الموجه بالحب ، ذلك الذى يتمثل بالمدح والفوز ، وسحب الحب ، ساعد في نمو الضمير اكثر من الاسلوب المادى الفيزيقي المتمثل في المكافأة المحسوسة والحرمان والعقاب الفيزيقي.

وفي دراسة مالم كونون Mackinonon على طلاب الجامعة وجد ان الذين تجاوزوا المنوعات كانوا اولئك الاطفال الذين كان آباؤهم يتبعون نظاما فيزيقيا في التأديب اكثر منه نظاما سيكولوجيا .

ولكن هناك دراسة حديثة نسبيا (١٩٦١) اجراها كل من بارتون وماكوبى والينسميث Burton, Maccoby and Alinsmith على اطفال سن الاربع سنوات عن مقاومة الاغراء في الغش لم تؤيده هذه النتائج ، ففى هذه الدراسة الاخيرة كان العقاب البدنى مرتبطا بمقاومة الاغراء اكثر من العقاب السيكولوجي او استخدام العقل . ويدوان الاسلوب الفيزيقي والمباشر يؤثر في الطفل الصغير ، ولكن تحل محله الاساليب السيكولوجية التى تشجع التقمص مع الآباء يتقدم الطفل في السن وبحصول مزيد من النمو المعرفى cognitive development ويشبه التميز بين مناهج التأديب الفيزيقي والنفسية التميز بين أسلوب الاستقراء وأسلوب الاحساس induction and sensitizaion

وقد قام بهذه المحاولة ارنو فريد سنة ١٩٦١ Arnofreed . من بين الاساليب الاستقرائية استخدام الاستدلال مع الطفل او ايماله او نبذه او استخدام الشرح والتفسير ، وتثير مثل هذه الاساليب في الطفل ردود فعله لتجاوزاته ، وربما تصبح ردود الفعل هذه مستقلة عن المصادر الاصلية للعقاب . وعلى سبيل المثال فان الاستدلال مع الطفل الصغير يشرح النتائج والمرتبات لفعل ما ، سوف تشجعه على فحص واختيار تصرفات ، وعلى قبول المسؤولية عن هذه الافعال .

وعلاوة على ذلك فان هذا المنهج يسمى قدرة الطفل على التعاطف او وضع نفسه في مكان الغير والاندماج ذهنيا في موقف الشخص الاخر عن طريق تحديد الآثار الضارة لسلوكه بالنسبة لوالديه وللآخرين .

اما أسلوب الاحساس او الحساسية فيتقمص العقاب البدنى والزجر والتعنيف والتوبيخ . هذا الأسلوب يجعل الطفل شديد التأثير للخوف من العقاب الخارجى الذى يعقب تجاوزاته او أخطائه ، كما يعطى أهمية كبرى لمطالب الآخرين وتوقعاتهم . وعن طريق استخدام منهج « استكمال القصص » مع اطفال الصف السادس في احدى المدارس الأمريكية وجدت علاقة بين نوع الاستجابة الخلقية للطفل واسلوب أمه في التأديب ، فالاطفال الذين استخدمت اماتهم الاساليب الاستقرائية كانوا اكثر ميلا لاستخدام افكار عن الاصلاح او الترضية

وفكرة القبول في قصصهم ، بينما الاطفال الذين استخدمت امهاتهم الاسلوب الحسى عبروا عن نتائج خارجية لتجاوزاتهم في قصصهم .

وبصدد أسلوب الآباء التأديبي أيضا ميز « هوفمان » Hoffman (١٩٦٣) بين التأديب التوكيدي القوى والتأديب غير التوكيدي وغير القوى ، النوع التوكيدي ، يتضمن العقاب البدني والحرمان المادي ويؤدي هذا الاسلوب الى توجيه خلقي خارجي قائم على اساس الخوف من العقاب من الاكتشاف .

اما النوع الثاني فيتضمن سحب الحب ، وانماطا من التأديب الاستقرائي ، ويؤدي الى تكوين اتجاه خلقي داخلي يتميز بشعور قوى بالذنب . ولقد وجد « هوفمان » تأييدا لفكرته بأن المنهج الاستقرائي يؤدي الى ضمير اكثر قوة من منهج سحب الحب نظرا لفشل هذا الاسلوب الاخير في توجيه تفكير الطفل الى الامام التي يشعر بها الآخرون نتيجة لخطائه . ان الادراك او الوعي بمشاعر الآخرين والتحقق من ان الطفل هو المتسبب في عدم راحة الآخرين ينبغي ان يعمل على تنمية ضوابط واخلية قوية (٤٧) .

ولقد وجد ان الاساليب الموجهة بالحب تنتشر بين امهات الطبقة الاجتماعية الوسطى ، اما الانماط الفيزيقية من التأديب فمنتشرة بين امهات الطبقات الاجتماعية الدنيا . وفي دراسة « آرنو فريد » اختارت امهات الطبقة الوسطى « الاستقراء » ، بينما اختارت « الاحساس » امهات الطبقة الدنيا . ان الاسلوب الفيزيقي المنتشر في بيوت الطبقة الدنيا لا يشجع التقنص ولا يؤدي الى تقوية الضوابط الداخلية The inner controls ولم تسفر الجهود التي بذلت لربط الضمير بممارسات محددة نوعية لتربية الطفل عن نتائج واضحة ، ربما لان الجو السيكلوجي العام في المنزل هو الاكثر اهمية عن اى اسلوب نوعي محدد في تربية الطفل .

فلقد وجد ان التهديد بانسحاب الحب ، وهو منهج سيكلوجي ، ليس له تأثير كبير اذا كانت الام « باردة نفسيا » او كانت نابذة لطفلها اصلا .

وعلى العكس من ذلك فان هذا المنهج اثبت فاعلية كبيرة عندما كانت علاقة الطفل بامه علاقة قبول ودفع . ان الطفل غير المقبول ليس لديه ما يخسره بممارسة العمل غير المقبول .

لقد وجد ١٨٪ فقط من الاطفال المنبوذين هم الذين حكم عليهم بأن لديهم ضمير قوى بالمقارنة مع ٣١٪ من المجموعة المقبولة .

كذلك وجد ان الاطفال الذين يقبلهم آباؤهم كان لديهم ضمير اقوى عن الاطفال الذين ينبذهم الآباء .

ولقد وجد أن هناك سمتين في الأسرة ترتبطان بنمو الضمير أو الذات العليا في الاطفال،
أى بوجود ضمير فعال يوجه السلوك ويرشده ، وهاتان الصفتان هما :

١ - الثبات أو الديمومة consistency

٢ - اتحاد بين الثقة المتبادلة والقبول .

فالنمط الثابت للضبط الابوى وللتوقعات يعطى مواقف واضحة جلية لنمو السلوك
الايجابى ، وعلاوة على ذلك فان جو الثقة المتبادلة يساعد الطفل لامتناس قيم الآباء ومعاييرهم
فيقبلها الطفل على أنها معايير هـ .

أن نمو الضمير ينبغى أن يفهم لكى يفهم نمو الشخصية برمتها ، ذلك لان الطريقة التى
يحل بها الفرد صراعاته الخلقية هى جانب ثابت من جوانب شخصيته .

وليس هناك أقوى من توفير جو من الحب والدفع والحنان فى العلاقة بين الآباء والاطفال
فى نمو الضمير وامتلاك الضوابط الداخلية وتبنى قيم الآباء ومبادئهم ، تلك التى تعكس بدورها قيم
المجتمع ومعايير هـ .

وفى بداية المراهقة تلعب الثقة المتبادلة والقبول والثبات المتحد مع الدفع ، تلعب دورا
هاما فى نمو الضمير القوى (٤٨) .

والآن لنتناول عملية التنشئة الاجتماعية بالعرض والتحليل لبيان الصلة الوثيقة بين النمو
الخلقى والروحى فى هذه العملية .

• • •

تعريف عملية التطبع الاجتماعى وأهميتها :

أن تحديد النمو الاجتماعى مسألة صعبة ، وذلك نظرا لتعدد الدراسات التى تناولت
موضوعات يمكن أن تندرج تحت هذا العنوان ، فدراسة الانفعالات والطموح والقيم والعادات
السلوكية والعلاقات الاجتماعية واللغة ، ودراسة موضوعات مثل الغضب والعدوان والفيرة والامان
والسعادة والضحك والتعاطف والسلوك الجنسى كلها تتصل بالنمو الاجتماعى ، كذلك هناك
دراسات متعددة تتناول موضوعات النمو الاجتماعى دون أن تحمل هذا العنوان ، ومن أمثلة ذلك
دراسة جنوح الاحداث ونمو الاخلاق .

اما السلوك الاجتماعى فيقصد به السلوك الذى يتأثر بوجود الآخرين وبسلوكهم ، أو ذلك
السلوك الذى ينظمه المجتمع ، أو السلوك الذى يقصد به التأثير فى الآخرين كالقيادة * مثلا فهو

النمو الروحي والظلي والتنشئة الاجتماعية

سلوكه يقصد به التأثير في اتجاهات الآخرين وفي سلوكهم . أما النمو الاجتماعي Social growth
فيقصد به نمو الفرد في السمات التي تسهل التفاعل الاجتماعي Social interaction
أي الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر بالجماعة .

أما التطبع الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية socialization فيقصد بها العملية التي يكتسب الطفل بموجبها الحساسية للمثيرات الاجتماعية ، كالضغوط الناتجة من حياة الجماعة والتزاماتها، وتعلم الطفل كيفية التعامل والتفاهم مع الآخرين ، وأن يسلك مثلهم ، فهي العملية التي يصبح الطفل بموجبها كائنا اجتماعيا ، وتتضمن هذه العملية تعليم العادات الاجتماعية والاستجابة للمثيرات الرمزية ، كما تعرف بأنها العملية التي تساعد الفرد على التكيف والتلاؤم مع بيئته الاجتماعية ، ويتم اعتراف الجماعة به ويصبح متعاوناً معها وعضواً كفواً فيها .

أما التوافق الاجتماعي فيقصد به تلاؤم الفرد وسلوكه لظروف المجتمع ومتطلباته ، وبذلك يصبح التكيف الاجتماعي social adjustment حالة تلاؤم للمجتمع الذي يعيش فيه أو البيئة الاجتماعية والوفاء بظروفه وشروطه ومتطلباته .

التأثير الاجتماعي social influence ويتضمن نوعية الأشخاص الذين يعرفهم آباء الطفل والذين يتبادلون وإياهم الزيارة - ويقدر الطفل آباءه ، وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمن يعرفونهم من أشخاص ، ولما يبدونه من حكمة ومعرفة . يقول الطفل : بابا ليس ضخماً أو قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير والناس المهمون يدعونه لبيوتهم ، ويحضر أسبوعياً مبلغاً ضخماً من المال (٤٩) .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع أطفال الطبقات الوسطى للضبط الأبوي ، ويبدو أن التعليم الاجتماعي عموماً يتقدم أسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الإيجابية ، أي المكافآت ، نسبة العقاب .

كذلك وجد أن الثبات والديمومة في المعاملة تساعد في تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى ما يرغب في تحاشيه .

أهمية عملية التطبع الاجتماعي :

لأن عملية التطبع الاجتماعي هي أكبر إنجازات الفرد ، حيث يؤدي الفشل فيها إلى أن يعيش الناس حياة بائسة تعسة ، ويعانون من سوء التكيف Maladjustment كما يخلقون البؤس لغيرهم من الناس . بل أن الحروب ليست النتيجة للفشل الدريع لعملية التنشئة الاجتماعية في الجماعات ، وتحدث الصعوبات والأمراض الآتية نتيجة للفشل في عملية التنشئة الاجتماعية :

١ - الذهان العقلي أي المرض العقلي أو الجنون Psychosis

Deilnquency	٢ - الجنوح أو الانحراف السلوكى
Alcohol addiction	٣ - ادمان الكحول
Psychopathy	٤ - السيکوباتيه والجريمة .
Homosexuality	٥ - الجنسية المثلية
Mental deficiency	٦ - بعض أنواع الضعف العقلى
Neurosis	٧ - العصاب النفسى أو المرض النفسى .

ولسوء الحظ فان اكثر المجتمعات تقدما من ناحية العلوم الطبيعية والانتاج التكنولوجى مازال يفتقر الى علم صحيح للتنشئة الاجتماعية ، كما يحدث فى المجتمع الأمريكى الذى تنتشر فيه مثل هذه الاضطرابات والجرائم اكثر من غيره على الرغم مما حققه من تقدم علمى وتقنى . اننا فى حاجة الى علم يحدد معالم عملية التنشئة الاجتماعية ، ولذلك نجد من يقول ان كل علم النفس « هو عبارة عن علم نفس اجتماعى » . ومن اكبر الفروض التى ينبغى اعتناقها ان عملية التطبيع الاجتماعى عملية تعلم فى المحل الاول ، فليس الخير أو الشر فطريا فى الانسان ، ويحدث هذا التعلم نتيجة لتوجيهات الآباء ، ونتيجة للخبرة الشخصية للطفل ونتيجة للنضج الجسمى والعقلى والنفسى والاجتماعى . ويحدث التعلم على المستويين الشعوى واللاشعورى .

ومن المبادئ الهامة فى عملية التطبيع ان هناك فروقا فردية واسعة فى مدى تطبيع الافراد أو خضوعهم لعملية التطبيع . ولقد سقطت فكرة « البذرة السيئة » التى كانت توحى بالانتقال الوراثى لسمات الشخصية الاجرامية والسيکوباتية . بل اننا لم نحصل على صلات واضحة بين الحالة الوراثية ومعظم الامراض العقلية والنفسية بل حتى الضعف العقلى . ولكن هناك تفاعل قوى وفعال بين الجيلة والاستعدادية وبين البيئة الاجتماعية والمادية . هذا التفاعل قد يجعل من السهل أو الصعب على طفل ما أن ينمو راشدا سويا منضبطا عاقلا .

ولقد لاحظ بعض الباحثين تأثير حالة الحمل والولادة على شخصية الطفل . فقد لاحظ سونتاج (٥٠) (١٩٤١) ان الاطفال الذين مروا بحمل صعب كانوا اكثر نشاطا أو اندفاعا وتهيجا ، كذلك كشفت الدراسات الطولية للنمو longitudinal studies ان التفاعل بين البيئة المادية والاجتماعية من ناحية والتكوين الجسمى physique وكذلك وقت الوصول الى النضج الجسمى ومستوى النشاط يؤدي الى تأثيرات مختلفة على الشخصية .

وتلعب العوامل الآتية دورا هاما فى عملية التطبيع الاجتماعى :

١ - مركز الطفل أو تربيته فى وسط اخوته ، فالطفل الوحيد غير الطفل الاخير غير الوسيط ،

(٥٠) راجع « بحث حقلى للمؤلف عن « سيكولوجية المرأة العربية الحامل » ، الهيئة العامة للكتاب . مصر (تحت الطبع)

النمو الروحي والخلقى والتنشئة الاجتماعية

والطفل المرغوب فيه غير المنبوذ ، والوحيد على عدد من البنات غير الموجود مع عدد كاف من البنات غير الموجود مع عدد كاف من الذكور... الخ .

٢ - سن الآباء ، فطفل الآباء المتقدمين في السن غير طفل الآباء الشباب .

٣ - البيئة المادية والاجتماعية المحيطة بالطفل .

٤ - الذكاء ، فالطفل ضعيف الذكاء أقل حساسية للمؤثرات التي تؤثر في التنشئة الاجتماعية .

٥ - التكوين الجسمى للطفل ، فالطفل القوى البنية غير الطفل الضعيف .

٦ - العلاقة بين الآباء والاطفال ونمط معاملة الطفل .

٧ - المستوى الاجتماعى والاقتصادى للأسرة .

٨ - انتماء الأسرة الى جماعات الاكثرية او الاقلية في المجتمع .

تنبع الدوافع الاجتماعية من المواقف التي يمتص منها الفرد المؤثرات الاجتماعية . هذه المؤثرات تكون في اول الامر خارجية بالنسبة للفرد . ان عملية نمو وتعلم التفاعل الاجتماعى والتي ينتج عنها ان يمتص الفرد Internalization المؤثرات الاجتماعية وبذلك تصبح مثيراته هو شخصيا ، وذوقه ورغباته ، هو ، هذه العملية هي عملية التطبيع الاجتماعى (٥١) .

ان النتيجة النهائية لتنشئة الفرد الاجتماعية تظهر في اتجاهاته الاجتماعية social attitudes وأفعاله واقواله في التعبير عن هذه الاتجاهات . كما تظهر في تعامله اليومى مع غيره من الناس وتفاعله مع الجماعات الاخرى ، ومع نواحي ثقافته ، ويؤدى مثل هذا الاحتكاك الى نشأة اتجاهات محددة نحو هذه الاشياء . فالانسان لا يولد رأسماليا او شيوعيا او جمهوريا او ديموقراطيا ... الخ وانما هو يتعلم ان يكون ايا من هؤلاء بالخبرة والتجربة . (٥٢)

مراحل النمو الاجتماعى :

يذهب ايركسون Erikson (١٩٥٦) الى القول بأن عملية التطبيع الاجتماعى تمر بثمانى مراحل او أطوار ، وهو في ذلك متأثر بعمق باتجاهات فرويد في هذه المراحل ، ولقد افترض هذه المراحل ، ليس بناء على أعمال تجريبية ، ولكن من خلال عمله المطول بالعلاج النفسى ، وخاصة مع الاطفال والمراهقين ، من أبناء الطبقات الاجتماعية الدنيا والوسطى والعليا . وهذه المراحل مرتبطة اقل بالنظام العضوى عنها عند فرويد ، ولكنها أكثر ارتباطا بالتعلم الذى يحدث في المراحل المختلفة . ويعتبر ايركسون ان كل مرحلة عبارة عن أزمة نفسية تتطلب الحل قبل الوصول الى

Sherif, M. and Sherif, G. An outline of social psychology Harper and Row, N.Y. 1956.

المرحلة اللاحقة . ويعتبر هذه المراحل كالطوابق المعمارية: فالتعليم المرضى وحل كل مشكلة ضروري اذا كان للطفل أن يمر بالمراحل اللاحقة بنجاح ، بالمثل فان أساس المنزل يعد ضروريا بالنسبة للطابق الاول منه ، الذى ينبغى أن يكون قويا بدوره لتعضيد الطابق الثانى ... وهكذا .

وهذه المراحل الثماني هي : -

١ - تعلم الثقة في مقابل عدم الثقة mistrust-trust

وتقابل هذه المراحل مرحلة الرضاعة ، وتشمل العام الاول أو الثانى اذا تناولنا الطفل تناولا حسنا وتمت تغذيته وحبه ، فانه ينمى في نفسه الشعور بالثقة وبالأمان ، والشعور الاساسى بالتفاؤل . واذا عومل معاملة سيئة فانه يفقد الثقة والأمان . وجدير بالذكر أن فرويد أطلق على هذه المرحلة اسم المرحلة الفمية :

٢ - تعلم الذاتية أو الاستقلالية في مقابل الشعور بالعار . ويعتقد ايركسون أن الاثمة النفسية الثانية تحدث في الطفولة المبكرة (من ٢ - ٤ سنوات) وتقابل المرحلة الشرجية عند فرويد ، وهى المرحلة التى يحدث فيها أكثر مظاهر التعليم وضوحا وضبطا ، ونعنى التدريب على عادات الاخراج ، ويخرج الطفل الذى يلقي معاملة والديه حسنة من هذه المرحلة متأكدا من ذاته ، سعيدا مبتهما يتمكن من الضبط الجديد القوى ، ويشعر بالفخر أكثر من شعوره بالعار .

٣ - تعلم المبادرة learning initiative في مقابل الشعور بالذنب .

ويعتقد ايركسون أن هذه الازمة تحدث في سن اللعب أو سنوات ما قبل المدرسة ، وتبدأ تقريبا من سن ١/٢ سنة ، وفي اثنائها يتعلم الطفل ، الذى ينمو نموا صحيا ، أن يتخيل وأن يوسع مهاراته من خلال اللعب النشط من كل الانواع بما في ذلك اللعب الخيالى ، كما يتعلم التعاون مع الغير وأن يقود غيره بالمثل كما يتبع أو ينقاد للغير . اما اذا اعاقه الشعور بالذنب فانه يصبح خائفا يقف دائما على هامش الجماعات ، ويستمر في الاعتماد على الكبار بدون حاجة فعلية الى ذلك ويعاق نموه في مهارات اللعب play skills وفي الخيال . وتقابل هذه المرحلة تقريبا المرحلة القضيبية وعقدة اوديب في الفكر الفرويدى A Phellic and Oedipal Stages .

٤ - تعلم الاجتهاد industry في مقابل الشعور بالنقص inferiority .

وتحدث في سنوات المدرسة الابتدائية وقد تمتد لتشمل بعض سنوات المدرسة الاعدادية ، وهنا يتعلم الطفل اتقان المهارات الأكثر رسمية اللازمة للحياة ، كالتعامل مع الجماعة تبعاً للقواعد والتقدم من الالعب الحرة الى اللعب المنظم عمدا أو المشكل طبقاً للقواعد ، وقد يتطلب فريق للعب ، وكذلك اتقان الدراسات الاجتماعية والقراءة والحساب . وهنا يشعر الطفل أن عمل

النمو الروحي والخلقى والتنشئة الاجتماعية

الواجبات المنزلية أصبح ضروريا ، وأن التاديب الذاتى يزداد تدريجيا . وهنا يصبح الطفل ، الذى فقد الثقة ، شكاكاً فى المستقبل ، والطفل الذى يشعر بالذنب من المراحل السابقة يشعر الآن بالهزيمة والنقص .

وتقابل هذه المرحلة مرحلة الكمون عند فرويد .

٥ - تعلم الهوية identity في مقابل اضطرابات الهوية ، وتحدث هذه الازمة النفسية فى نظره فى سن المراهقة ، من حوالى ١٣ - ٢٠ سنة . فقد أصبح الطفل الآن مراهقا ، يستطيع أن يجيب اجابة مرضية سعيدة للتساؤل : من اكون أنا ؟

ولكن أحسن المراهقين تكيفا يعانون من بعض الاضطراب فى الهوية identity diffusion وخاصة الذكور ، حيث يعانون من جنوح بسيط يظهر فى شكل عصيان أو تمرد rebellion والخجل والشك الذاتى ، وهنا تنمو نظرة المراهق للزمين - ويكتسب اليقين الذاتى فى مقابل الشك الذاتى والحساسية الذاتية . فيقوم بأدوار ايجابية فى الغالب بدلا من اعتناق الهوية السلبية (كالجنوح) فيحاول المراهق الناجح أن يحصل على بعض الانجازات بدلا من الشلل من جراء مشاعر النقص . وفى المراهقة المتأخرة يكتسب المراهق الرجولة ويكتسب المراهقة الانثى صفة النسائية ، وأحيانا يسمى للقيادة والتدريج ينمى نمطا من المثل المرغوبة ، وفى الغالب ما يلعب المراهق عدة ادوار حتى يجد اكثرها ملاءمة له .

٦ - تعلم الصداقة الحميمة intimacy فى مقابل العزلة . لأول مرة يشعر المراهق الناجح بالصداقة الحميمة والحقبة . . التى يمكن أن يقوم على أساسها الزواج الناجح أو الصداقة المستديمة .

٧ - تعلم الانتاجية generativity فى مقابل الاستغراق فى الذات self-absorption فى مرحلة الشباب المبكرة يتطلب النمو النفسى تعلم الانتاج سواء فى الزواج أو الابوة وفى العمل وفى الإبداع أو الابتكار .

٨ - تعلم التكامل integrity فى مقابل اليأس despair اذا مرت الازمات السبع الماضية بنجاح فان الشباب الناضج يصل الى قمة التكيف أى التكامل .

فهو الآن يثق فى نفسه ويشعر بالاستقلال ، ويعمل بجدية ، ويجد لنفسه دورا محددا فى الحياة وينمى فى نفسه مفهوما عن الذات self-concept ويكون سعيدا بهذا المفهوم . يصبح ودودا دون توتر أو ذنب أو أسف أو بعد عن الواقعية ، ويصبح فخورا بما يبتكر أو ينتج من أولاد وبعمله أو هواياته . أما اذا فشل فى حل أى من الازمات السابقة فانه يشعر باليأس والاشمئزاز .

هذه المراحل ليست الا وصفها لفظيا لكيفية نمو الشخصية . ذلك لان المهم هو تحديد الظروف البيئية التى تساعد الطفل على نمو هذه الصفات الإيجابية وغيرها .

ان التطبيع الاجتماعى هو عملية تعلم تحيل الكائن البشرى من جالة الطفولة او الرضاعة ومن حالة الضعف والانانية الى حالة الراشد المثالي الذى يدين بالامتثال المعقول sensible conformity مع وجود سمات الاستقلال والابتكار (٥٣) والخلق والابداع .



التنشئة الاجتماعية في الطفولة المبكرة :

تستخدم المجتمعات طرقا مختلفة في العناية بالطفل ، بل انه في داخل المجتمع الواحد تختلف هذه الطرق من طبقة اجتماعية الى اخرى . ان المؤثرات الثقافية تبدأ في التأثير في شخصية الطفل في اليوم الاول من ميلاده ... وتؤثر الام في الطفل عن طريق اسلوب معاملتها اياه في التغذية وطرق اطعامه . والمعروف ان الام تسعى لتحقيق هدفين من وراء تغذيته هما :

١ - تغذيته

ب - تدريبه على تناول الطعام بطريقة صحيحة .

التغذية مسألة فسيولوجية وان كان هناك بعض الثقافات التى تفضل الاطفال السمان ، بينما هناك ثقافات اخرى تفضل الاطفال الناحلين . وتستهدف « ام » الطبقة المتوسطة ان يتدرب طفلها على تناول طعامه بدون ضوضاء او احداث اصوات ، وبدون ان يسكبه على نفسه ، وان يأكل كل الطعام من طبقه ، وان يستخدم ملعقة وشوكة وسكين بطريقة سليمة . بل ان نظام تغذية الاطفال يتغير داخل المجتمع الواحد بمرور الوقت ، فقد تغيرت هذه العادات في المجتمع الامريكى منذ عام ١٩٢٠ حتى يومنا هذا عدة مرات على القليل فيما يختص بعدد الوجبات وموعد كل وجبة . ففي العشرينات كان اطباء الاطفال يوصون باتباع نظام منتظم في تغذية الاطفال مكون من ٣ وجبات يوميا . اما المستشفيات فكانت تتبع نظام تقديم اربع وجبات يوميا هي كالآتي :

١ - الساعة ٦ صباحا

٢ - الساعة ١٠ صباحا

٣ - الساعة ٢ بعد الظهر

٤ - الساعة ٦ مساء

٥ - الساعة ١٠ مساء

٦ - الساعة ٢ صباحا .

النمو الروحي والخلقى والتنشئة الاجتماعية

اما الآباء فكانوا يرغبون في اتباع نظام يشبه نظام الكبار في الطعام ، ولذلك حذفوا وجبة الساعة الثانية صباحا ، ولكن الثقافة لا ينبغي ان تجمد نمو الطفل عن طريق وضع أنظمة صارمة في تغذيته ، وبالطبع لم يكن نظام الاربع وجبات هذا ملائما لكل الاطفال وكان على الآباء ان يتحملوا بعضا من صراخ الطفل قبل الوجبات .

وفي الاربعينات بدأ يتحول الاتجاه نحو نظام الطلب الذاتي Self-demand schedule وبموجب هذا النظام يقدم الطعام للطفل كلما بكى طلبا له . والتقييد الوحيد الذى وضع فى احدى الدراسات كان ضرورة انقضاء ساعة كاملة بين أى وجبة والاستجابة لطلب الطفل للطعام . ولقد تبين ان معظم الاطفال كانوا يطلبون الطعام بعد ثلاث ساعات، ونادرا ما كانت تصل هذه المدة الى اربع ساعات وخاصة فى الاسبوع الاول من الميلاد . وكانت هذه المدة اطول اثناء الليل عنها اثناء النهار (٣٦ فى مقابل ٢٩ ساعة) وبالطبع يتغير النظام المرغوب بتقديم الرضيع فى السن . واستمر هذا الاتجاه فى التزايد حتى اصبح هناك حاجة الى الاستفادة من نظام الانتظام فى الوجبات . ومزايا الطلب الذاتى اى الايمان بنظام معين دون أن تكون عبيدا لهذا النظام ، مع مراعاة فردية كل طفل. والمقصود من خضوع الطفل لنظام الوجبات الثلاث أو الاربع، هو خضوعه للمعايير الحضارية فيما بعد ، ويؤثر الغذاء تأثيرا اكثرا عمقا فى شخصية الطفل اذا لاقى صعوبات فيما يختص بالغذاء حيث يشعر بعدم الامان ولا يحتاج الطفل فقط لتفريغ زجاجات الطعام فى جوفه بطريقة آلية بل انه فى حاجة الى المص . ولقد وجد الطفل فى حاجة الى الامتناس لمدة ساعتين يوميا والا اضطر الى مص اصابعه او ملابسه او لعبه او اشياء اخرى . كذلك لعملية الفطام اثر نفسى قوى اذا تمت بطريقة فجائية او قاسية تؤدي الى صعوبات انفعالية يعانى منها الطفل . (٥٤)



المؤسسات التي تسهم فى عملية التطبيع الاجتماعى:

نتساءل عن المؤسسات التي تسهم فى عملية التطبيع الاجتماعى هذه ، ومن اول هذه المؤسسات التي تؤثر فى نمو الطفل الاسرة ؟

دور الآباء :

ان عملية التطبيع الاجتماعى لا تعتمد على الطفل وحسب بل على الآباء ايضا ، لانها على القليل بمفهوم الضبط الاجتماعى ، لا تحدث الا اذا كان الآباء يعززون سلوك الطفل او يكافئونه عليه ، فاذا لم يقم الآباء بدور تقديم التعزيزات والمكافآت للطفل فان عملية التطبيع الاجتماعى سوف تتأخر او تعاق . ويتحقق تعزيز سلوك الطفل عن طريقة عناية الآباء بجسمه ودثته ومأكله ومشربه ، على شرط أن يتم ذلك كله بطريقة رقيقة فى اثناء تغذيته وتنظيفه

واستحمامه وتغيير ملابسه ووضع في الفراش على شرط الا يتم ذلك ببرود او بطريقة آلية ميكانيكية ، وانما يصاحبه تقبيل الطفل « الدندنه » او التودد اليه والتربيت عليه ولمس جسمه وتدليكه والفناء له حتى ينام .

ولقد وجد رينجولد (١٩٥٦) Rheingold أن حاجات الطفل المصحوب بالمشيرات الاجتماعية بما في ذلك الاتصال الجسمي به ، يؤدي الى خلق طفل أكثر استجابة من الناحية الاجتماعية عن قضاء مثل هذه الحاجات بطريقة فاترة باردة وبكفاءة ولكن دون علاقات شخصية ولكن مثل هؤلاء الاطفال يسرعون في النمو الاجتماعي عندما يتغير نمط معاملة الآباء معهم ، ويشعرونهم بالرعاية والرقابة والحب ، كذلك وجد أن الرضيع يصبح قادرا على الاستجابة الاجتماعية وتزداد عنده عندما يستجيب الكبار بطريقة اجتماعية لاستجابات الطفل الصوتية المعبرة Vocal responses وينبغي تدريب الطفل على الاستجابة الاجتماعية او توجيهها الى القنوات الصحيحة عندما يبدأ في اظهار مثل هذه الاستجابات ، وذلك حتى تصبح مقبولة لدى الآباء والاخوان والاخوات ، ثم المجتمع ككل ، بحيث يظهر الطفل الاستجابات الملائمة في السن الملائم ، فاستجابات الفناء واشارات « باي باي » مناسبة لسن عام واحد ، ولكنها غير ملائمة لسن مدرسة الحضانة ، كذلك تبلييل الفراش مقبول في سن عام واحد ، ولكنه غير مقبول في سن الأربع سنوات . وبالمثل البكاء من اجل الطعام مناسب في سن ٩ شهور ، ولكنه غير ملائم في سن ٩ سنوات مثلا . فهناك حاجة الى مزيد من الضبط والتوجيه لسلوك الطفل منذ الوقت الذي يبدأ فيه في عمل الاستجابات الاجتماعية حتى يصبح مدنيا او متحضرا خاضعا للقانون ، ونسبيا راشدا كبيرا ، وغيريا او غير انانسي .

وتبدأ عملية الضبط الاجتماعي والتكيف او التلاؤم مع تفاعل الطفل مع الآباء ثم مع اسرته ، ثم تستمر مع زملاء اللعب والاقارب والمدرسين ، وينبغي على أي مؤسسة تعمل لتحقيق التطبيع الاجتماعي ان تقدم نمطا من الآتي :

١ - المكافآت

٢ - القبول

٣ - السماح

٤ - العقاب

بحيث يكسب الطفل الاتجاه نحو طاعة القانون واللياقة الاجتماعية في سن الرشد ، وبحيث يصبح سعيدا وهادئا قادرا على القيام بدور الذكر أو الانثى المطلوب ممن هم في مثل سنه ، وقادرا مهنيا على كسب عيشه .

نمط الآباء في التعزيز :

لا شك انه ، للمرور في مراحل النمو المبكرة ، هناك حاجة ماسة الى توجيه الطفل ومن البديهي أن يكون المنزل هو المصدر الاول لتقديم مثل هذا التوجيه ، ويمكن تمييز منهجين في مثل هذا التوجيه هما : -

النمو الروحي والخلقى والتنشئة الاجتماعية

١ - اتجاه سيكولوجى قائم على الحب والمكافآت غير المادية . هنا يسحب الحب أو يهدد بسحبه ، كما لاتعطى للطفل زجاجة الطعام في نفس اللحظة التى يطلبها فيها . وإذا أصبح « شقيا » ينعزل عن الآباء وهو يشترك الى النشاط واللعب، ولكن ينبغي أن يبقى لبعض الوقت داخل عربته أو حجرته . يرى الطفل مثل هذه النماذج من الحرمان كتهديد بانسحاب الحب ، ولذلك فإنه يعمل ، فيما بعد ، على تعديل سلوكه لكي لايفقد هذا الحب. وهناك أشكال أكثر تعقيدا من التهديد بسحب الحب كالحرمان من الملاطفة أو العناق أو التربيت أو الابتسامة أو كلمة المديح التى يتوق اليها الطفل .

٢ - يعتمد المنهج الثانى على الاشياء المادية، ويتراوح ما بين انزال العقاب البدنى الى حرمان الطفل من الطعام لتحويله الى السلوك الطيب . فى حالة منهج الحب تعمل على توضيح أن المعنويات تلتفت أنظار الآخرين وانتباههم، لها أهمية خاصة. ويعلمه الآباء الضبط الذاتى خوفا من فقدان الحب .

أما المنهج السىء فإنه يعلم الطفل الخوف من الأشياء المحسوسة المادية ، وهنا يقول الطفل لنفسه لابد أن تكون حسن السلوك حتى لاينكشف أمرى وتزال العقاب ، فالضبط هنا من خلال الشعور بالعار . أما فى منهج الحب فالضبط من خلال الشعور بالذنب ، ولكن اذا كان الشعور بالذنب قاسيا جدا فإنه يشل حركة الطفل ونشاطه . أما الشعور بالعار فيعتمد على توقع رجل الشرطة فى كل مكان يترصد الطفل للمساكبه .

ولقد اتضح أن منهج الحب أكثر فاعلية من الناحية الاجتماعية بحيث يتجنب الطفل الخطأ فى غيبة الكبار أو ممثلى السلطة ، ويمكن تمييز نوعين من التعزيز فى معاملة الآباء للطفل :

١ - تعزيز ايجابى reinforcement ويتمثل فى عبارة الام « ماما تحبك لأنك عملت كذا وكذا .. او ماما سوف تعطيك كذا وكذا اذا عملت كذا ... »

٢ - تعزيز سلبى ، ويتمثل فى قول الام لطفلها « ماما لن تحبك اذا عملت كذا وكذا .. او ماما سوف تصفحك اذا عملت كذا وكذا »

وواضح أن التعزيز ايجابى يمنح المكافآت، أما السلبى فيعطى العقاب ، وهنا تسأل ، أيهما أكثر فاعلية فى تعليم الطفل الثواب أم العقاب ؟ هناك أدلة تجريبية مؤداها أن الطفل يتعلم أسرع اذا تلقى كلا من الثواب والعقاب فى التعزيز ، فالتعزيز ايجابى لتعليمه ما ينبغي أن يعمل ، والتعزيز السلبى يعلمه مالا ينبغي عمله . وعلى ذلك فاذا تلقى الطفل تعزيزات من النوعين فإنه يحاط علما بصورة أكثر شمولاً عما لو تلقى تعزيزات من نوع واحد .

وتتضح هذه الفكرة من أبحاث كل من هارتوب ومون وسيجار Martup, Moore and Sager الذين وجدوا (١٩٦٣) أن الاطفال الذكور الصغار يتعلمون الادوار الجنسية الملائمة اذا منحت لهم المكافآت على السلوك بطريقة فيها ذكورة ، ويبحثون عن اللعب الذكورية ، ويعاقبون عندما يعملون أعمالا بنائية أو انثوية أو يبحثون عن لعب ودمى البنات ، وبالنسبة للاناث ، على

العكس من ذلك ، فكانت تعطى لهن المكافآت عندما يبحثن عن الأشياء « البنائية » بما في ذلك اللعب ، وكن يهملن عندما يتصرفن بطريقة « صبيانية » أو يسعين للحصول على لعب الصبيان ، بل إن فاعلية التعزيزات تتوقف على الطريقة أو الأسلوب الذي يمنح به التعزيز . فلقد وجد أن التعزيز ، سواء كان إيجابيا أم سلبيا ، عندما يمنح مباشرة وبثبات أو ديمومة واستمرارية وبسخاء أو بكرم فإن التعلم يتم بسرعة أكثر منه عندما يكون مؤجلا ، أو بدون ثبات أو ضعيف أو هزيل أو قليل ، ولكن هذا الفرض يحتاج الى كثير من الدراسات ، لأن كمية التعزيزات تبعا لهذا الفرض ، تغير كمية التغيير في السلوك ، ومعنى هذا أننا إذا أردنا أن نضعف من السلوك الحسن في سلوك طفل ما فإننا نضعف من مقدار ما تعطيه له من مكافآت . كذلك فإن التعزيز الجزئي يجعل الطفل تواقا الى المزيد من التعزيز ، فيواصل العمل الجيد ، أما إذا حصل على كل التعزيز فإنه يفقد الاهتمام بمزيد من تحسين السلوك .

أثر وجود الأب في الأسرة :

ما هو التأثير الذي يتركه وجود الأب في الأسرة على شخصية الطفل ؟ لقد أجريت دراسات كثيرة منها دراسة سيرز Sears (١٩٥١) ووجدان الصبيان الذين نشأوا في بيوت مع الآباء كانوا أكثر عدوانا على القليل في خيالهم عن زملائهم الذين غاب الأب عن منزلهم .

كما كانوا أكثر ثقة ، وكانوا أكثر استعدادا لتأجيل الحصول على مكافأة صغيرة في سبيل الحصول على مكافأة أكبر ، ولكنها مؤجلة . كذلك وجد أن الأطفال الأكبر سنا والأكثر ذكاء كانوا أكثر استعدادا لتأجيل الأشباع المباشر . كذلك وجد مولتون Moulton (١٩٦٦) أن الآباء الأكثر قوة وحبا هم أكثر قدرة على إنتاج أطفال يضبطون أنفسهم بواسطة ضمائرهم ، وأن الأطفال الذكور الذين يمتاز آباؤهم بالقوة والحب كانوا أكثر ذكورة عنهم عندما تكون الأم هي الشخصية القوية والمحبة . كذلك وجد جروسيك Grusec (١٩٦٦) أن الكبار الذين يكافئون كثيرا يجعلون الطفل أكثر استعدادا لنقد نفسه (أكثر عما يلوم الآخرين مثلا) وذلك بالمقارنة بالآباء الذين لا يكافئون أطفالهم سواء كانت المكافأة بالعتاء أو العقاب .



مصادر القوة في عملية التنشئة الاجتماعية :

يحدد ولوتر Wolowitz (١٩٦٥) مصادر القوة التي يتم خلالها تقديم التعزيزات بأنها : -
١ - القوة الفيزيائية ، ويدركها الطفل مبكرا ، ويعتقد أن والده يمتلكها أكثر من والدته .

٢ - القوة الجنسية ، ولا يدركها الطفل إلا متأخرا نسبيا حيث يدرك أن والديه يمثلان قوة جنسية ، وإذا كانت العلاقات الجنسية مجرد علاقات شهوانية أو بهيمية بحتة فإن فكرة الطفل عن الجنس تنمو سيئة .

٣ - الحكمة ، وللأسف فإن الحكمة في المجتمع الحاضر لا تبدو محترمة كما ينبغي .

٤ - التأثير الاجتماعي ، ويتضمن نوعية الاشخاص الذين يعرفهم آباء الطفل والذين يتبادلون وإياهم الزيارة ، ويقدر الطفل آباءه وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمن يعرفهم من أشخاص ، ولما يبدو أنه من حكمة ومعرفة ، يقول الطفل . . « بابا ليس ضخما او قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير ، والناس المهمون يعزونه لبيوتهم ، ويحضر للبيت اسبوعيا مبلغا ضخما من المال (٥٥) » .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع اطفال الطبقات الوسطى للضبط ، ويبدو أن التعليم الاجتماعي عموما يتقدم اسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الايجابية أى المكافآت نسبة العقاب .

كذلك وجد أن الثبات أو الديمومة في المعاملة تساعد في تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى ما يرغب في تحاشيه .

تفسير عملية التطبيع الاجتماعي :

هناك نظريات كثيرة لتفسير عملية التطبيع الاجتماعي . أن نمو الفرد يتوقف على مدى رؤيته وردة فعله لقوى التطبيع الاجتماعي التي يستخدمها المجتمع معه . يضع المجتمع الصورة التي يرغب أن يكون عليها نساؤه ورجاله . ويضع عدة قواعد لارشاد الآباء والمعلمين في ذلك ، ولكن كيف يرى الطفل هذه العملية ؟ وما هي المفاهيم والقوى التي تكمن في داخل الطفل والتي تحدد نوع استجابته لهذه المؤثرات الاجتماعية ؟

هناك اتجاهان نظريان في عملية التطبيع الاجتماعي هما :

أولا : نظرية التحليل النفسي ونظرية التعلم الاجتماعي ، فكلاهما يرى أن الراشد الكبير هو المحصلة النهائية لعملية تعلم الأسرة والبيئة كما يراها الطفل ، وكما تؤثر فيه ، أى تعاليم الأسرة والبيئة . فإذا كانت هذه القوى معتدلة كان الطفل سعيدا ، وإذا كانت مؤذية أو ضارة كان الطفل تضا . فالكائن الحى تصقله وتشكله خبراته ، فيصبح جيدا أو سيئا تبعا لجودة أو سوء مثل هذه الخبرات .

تصنع النظرية التحليلية توكيدا أكثر من نظرية التعلم الاجتماعي ، على بعض مراحل النمو التي تؤثر فيها الخبرات أكثر من غيرها من المراحل . وهذه السن تبدأ من الميلاد حتى سن السابعة . أما نظرية التعلم الاجتماعي فتري أن الطفل كائن قابل للتعديل والتغيير في أى سن كانت .

ثانيا : الاتجاه الثاني يذهب الى الزعم بأن قوى النمو في داخل الكائن البشرى هي في الأساس خلاقة ، فإذا كان الطفل مقبولا ، وإذا لم توصد الابواب امام اشباع حاجاته ، فإنه ينمو شخصا سعيدا خلقيا واجتماعيا . مثل هذه النظرية لا تقلل من أثر التعلم . وإنما هي فقط تدعى أنه إذا أعطى الطفل ظروفًا بناءة فإنه سوف يوجه نفسه نحو القنوات البناءة . وينحو

التعلم النشط دورا اقل في هذه النظرية عنه عند فرويد وفي نظرية التعلم الاجتماعي. والعنصر الاساسى في بيئة الطفل هو القبول ، وكان جان جاك روسو هو اول من قال بمثل هذه النظرية في كتابه « اميل » وما زال يمتنقها كثير من علماء النفس من أمثال كارك روجرز و Maslow وجيزل Rogers و Gesell وان كانوا يختلفون عنه في بعض التفاصيل .

ويمكن تشبيه هاتين النظريتين بحالات من مجال البستنة فالنظرية الاولى ينطبق عليها المبدأ القائل : كما يثنى الجذع تنمو الشجرة على غرارته .

وعلى ذلك يوصى بتوفير البيئة الجيدة ذات التربة الصالحة والضوء والماء والتخصيب الضرورى ، ولكن التعليم او التشذيب الفعال والتشكيل والتطعيم والتسميد لابد من ممارستها. والنظرية الثانية ايضا تطالب ببيئة ذات تربة ملائمة وضوء وماء وربما أيضا سماء ، ولكنها تميل الى الاعتقاد بأن الطبيعة لديها افضل معرفة من كيف تنمو الشجرة .

فالتعليم والتطعيم والتشكيل والتسميد والتلقيح التهجينى تترك كلها للمجرى الطبيعى للاحداث وللطبيعة الفطرية للكائن. النظرية الاولى تنادى بمزيد من التعلم النشط كعمل مرغوب ، والثانية تنادى بقليل من هذا التعلم . وطبقا للنظرية الاولى فان الطفل سوف يصبح اجتماعيا وغيريا واثيريا وواقعا من نفسه للحد الذى يلزمه لى كيف نفسه مع الآخرين ولكن يشبع حاجاته . وتتوقف سهولة هذه العملية على مدى كفاءة المعلم ومهاراته ، وعلى مدى ملائمة وكفاءة وفعالية عملية التدريس . وطبقا للنظرية الثانية فان بدور عملية التنشئة الاجتماعية تكمن فى الناس ، وسوف تصل الى اقصى درجات النضج فى بيئة تمتاز بالقبول واللفظ ، ولكنها بيئة سلبية . وربما يضع جيزل كثيرا من الاهمية للاستعدادية الموروثة للوراثة اكثر من كارل روجرز ، فجيزل لا يقبل القول بأن اعطاء الفرد البيئة المناسبة سوف يؤدي الى نموه النمو الملائم .

والواقع اننا لا نعرف الصحيح من هاتين النظريتين ، بل ربما لا نعرف اذا كان كلاهما صحيح أم خطأ ، فكلاهما يضع وزنا كبيرا على جوانب البيئة فى التنشئة الاجتماعية . فالنظرية الاولى يمكن وصفها بأنها نظرية تعليمية ، بينما النظرية الثانية ارتقائية . ويمكن اعتبار فرويد ممثلا للنظرية الاولى وجيزل ممثلا للثانية . النظرية الفرويدية تؤكد دائما النزعة الاجتماعية الفطرية فى الانسان ، بمعنى ان الطفل الصغير الانانى يجب أن يتحول الى شخص راشد كبير ايثارى قادر على تأجيل لذاته .

ونظرية التعلم الاجتماعى لا تضع افتراضات ازاء هذه المسألة ، ولكنها تفترض ان الاثار وتأجيل اشباع الذات يتم تعلمهما اكثر من كونهما فطريتين ، ويضع جيزل كما يضع فرويد تأكيدا كبيرا على تواجد ونواتج النمو ، ولكن فرويد لا يضع كل الاهمية - كما يفعل جيزل - للوراثة كعامل محدد للفروق الفردية بين الناس .

الشيخوخة في المجتمع الانساني المتغير *

أحمد أبوزيد

حين أصدر عالم الاجتماع البريطاني المعاصر
بيتر تاونسند Peter Townsend كتابه المتع
عن « الحياة العائلية لدى كبار السن
The Family Life of Old People (١)

اعتبر ذلك ايذانا ببدء الاهتمام بميدان جديد
من ميادين البحث الاجتماعي ، كان مهملًا الى
حد كبير حتى ذلك الوقت ، واخذ اهتمام
السوسيولوجيين والانثربولوجيين يزداد

(*) سبق ان اصدرت المجلة عددا خاصا بالشيخوخة ، ونظرا لاهمية الموضوع توالى المجلة نشر بعض الدراسات الاخرى
من حين لآخر - التحرير .

(١) اعتمد تاونسند في تأليف كتابه على دراسة عميقة اجراها في الدة بين ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ في حي Bethnal Green
في لندن ودرس اثناءها مائتي حالة لشيخوخ متقاعد من العمل . وكان السبب الرئيسي وراء هذه الدراسة هو
الزيادة الشعور بالقلق في بريطانيا على المسنين الذين كانوا يتزايدون في العدد بسرعة عالية والذين كانوا يعانون من
الوحدة والعزلة والانقباض نتيجة لشعورهم بالاهمال من اولادهم والقاربهم ومن الدولة على السواء . وليس أدل على
ذلك من أن ١٤٪ من سكان المنطقة كانوا محالين على المعاش ومتقاعدين عام ١٩٥١ ، وهي نسبة عالية ، وكان هناك
احساس بأن هذه النسبة في ارتفاع مستمر . وقد ضمت عينة الدراسة حالات من الجنسين وكانت كل مقابلة تستغرق
حوالي ساعتين كانت تستخدم فيها الاستمارة والمقابلة المفتوحة ، وكثيرا ما كانت زيارة المؤلف تتكرر لنفس الاشخاص
مرتين وثلاث مرات واحيانا أربع مرات لاستكمال المعلومات ، ولكن الباحث كان يعتمد بالإضافة الى ذلك على بعض المصادر
الاخرى التي تلقى مزيدا من الضوء على وضع الشيخوخ والمسنين بصفة عامة .

خاصة أساسية في دورة الحياة بأكملها ، وكانوا بالتالي يميلون الى فهمها على أنها جزء له مغزاه في عملية الحياة ، بينما كان الأطباء يهتمون بالشيخوخة نظرا لما يلعبه الطب في علاج أمراض الشيخوخة ومحاولة اطالة الحياة عن طريق التفلب على المرض والعجز (٢) . وكان قد سبق ذلك كله مرحلة كان الاهتمام فيها بدراسة الشيخوخة يعتمد على التأمل النظري البحث في الأغلب ، وإن كانت هناك الى جانب ذلك بعض المحاولات الجادة للقيام بالبحوث الأمبريقية أو حتى التجريبية التي لادامى للخوض فيها هنا . ولكن على الرغم من هذا كله فإن دراسة تاونسند تعتبر أحد المعالم الرئيسية في البحوث الاجتماعية العلمية الدقيقة، بحيث يمكن القول أنها أرست قواعد الدراسة السوسولوجية في هذا المجال الهام ، وبحيث نجد عددا من تلاميذ تاونسند يكرسون جهودهم للدراسة الشيخوخة من زواياها المختلفة ، ويصدرون في ذلك عددا من الكتابات والدراسات التي شجعت على القيام بدراسات مماثلة خارج بريطانيا ، مما أدى في آخر الأمر الى أن اصبح علم الشيخوخة علما اجتماعيا بقدر ماهو علم بيولوجي ، بل لقد أخذ علماء الاجتماع والانثروبولوجيا في السنوات الأخيرة يسيطرون سيطرة كبيرة على دراسات الشيخوخة ، ويسلطون كثيرا من الاضواء على النواحي والمظاهر الاجتماعية لمشكلة الشيخوخة ، وهي المظاهر التي لا يعطيها الأطباء وعلماء البيولوجيا ما تستحقه من عناية وذلك بحكم تخصصهم الدقيق . ولكن المهم هنا هو أن الاهتمام بدراسة الشيخوخة من الناحية الاجتماعية اهتمام حديث نسبيا رغم ما أحرزه من نجاح وتقدم . وإن معظم المحاولات التي بأيدينا تدرس المشكلة في جماعات وفئات معينة بالذات ، أو في مجتمعات محلية محددة

بدراسة الشيخوخة كظاهرة اجتماعية ، وبحياة كبار السن والشيخوخة في المجتمع العربي المتقدم ، والعلاقات الاجتماعية التي تقوم بين مختلف الاجيال ، والدور الذي يلعبه الشيخوخة في حياة المجتمع المعاصر والمشكلات التي يعانون منها ، ونظرة المجتمع والدولة اليهم والخدمات التي تقدم لهم ، ويقارنون هذا كله بما يحدث في المجتمعات التقليدية والمتخلفة أو النامية والجماعات « البدائية » التي لم تصل بعد الى مرحلة التصنيع ، والتي لا يزال نظامها الاقتصادي يعتمد على أشكال أكثر بساطة ، مثل الجمع والالتقاط أو صيد السمك أو قنص الحيوان أو الرعي أو الزراعة البسيطة .

وليس معنى هذا أن دراسة تاونسند كانت أول دراسة على الإطلاق يطبق فيها المنهج العلمى وتتم بطريقة علمية منظمة ودقيقة . بل الواقع أنه هو نفسه كان قد تأثر بعدد من الدراسات التي ظهرت من قبل ، والتي عالجت مشكلة الشيخوخة في بعض المجتمعات المحلية في بريطانيا ، كما أنه يبدو أن عددا من الدراسات حول الموضوع ذاته كانت قد أجريت في بعض الدول الأوروبية ، وبخاصة في فرنسا ، حيث نجد بالذات سلسلة طويلة من مشروعات البحوث الكبرى عن سيكولوجية الشيخوخة تتم تحت اشراف سوزان بيكو Suzanne Becaud التي كانت تهتم في المحل الأول بتغيرات السن واثرها في الذاكرة ، وفي الوظائف العقلية والسيكوكهركية ، وكذلك تأثير التعليم على تراجع هذه الوظائف عند المسنين . كذلك كانت هناك دراسات كثيرة تعالج الشيخوخة من الناحيتين البيولوجية والطبية ، خاصة وأن علماء البيولوجيا في دراساتهم للكائنات العضوية الدنيا ذات دورة الحياة القصيرة كانوا يعتبرون الشيخوخة

(٢) انظر في ذلك John E. Anderson, "Research on Ageing" in Burgess, E. W. (ed.) ; Ageing in Western Societies, A comparative Survey, Chicago University Press, 1960, 1969.

الشيخوخة في المجتمع الانساني المتغير

المعلومات المتعلقة بالشيخوخ والشيخوخة في هذه المجتمعات الأخيرة بوجه خاص . والواقع أن كثيرا من النظم الاجتماعية لدى القبائل الافريقية والاسترالية و قبائل الهنود الحمر وغيرها يصعب فهمها ان لم يؤخذ في الاعتبار موقف تلك المجتمعات من الشيخوخ والمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها هناك ، والادوار التي يقومون بها ، والوظائف التي يؤديونها في تماسك الجماعة .

فالمجتمعات القبلية التي توصف عادة في الكتابات الانثروبولوجية بأنها مجتمعات بدائية او « متخلفة » تختلف في نظرتها الى الشيخوخ والشيخوخة اختلافا كبيرا عن المجتمعات الحديثة المتقدمة ، وبخاصة المجتمعات الصناعية . وربما كان السبب الرئيسي في تلك الاختلافات هو أن الظروف والاحوال العامة في المجتمع « البدائي » أو البسيط أو المتخلف لا تسمح الا لنسبة ضئيلة جدا من السكان بأن تعيش حتى مرحلة الشيخوخة المتقدمة ، وذلك نظرا لانخفاض مستوى العناية الطبية والتربية الصحية أو التشخيص الصحي هناك ، وتفشي الامراض والابوثة والمجاعات التي تقضى على نسبة كبيرة من السكان في مرحلة الطفولة أو الشباب . ولذا فان الشيخوخة كعملية بيولوجية تكاد لا تكون مفهومة تماما عند هؤلاء « البدائيين » حيث يموت الناس في العادة في سن صغيرة نسبيا وهم لا يزالون قادرين على العمل وعلى المشاركة في الحياة . ومن هنا فان عدد الاشخاص الذين يحتاجون فعلا الى الاعالة في الجماعات القبلية قليل نسبيا ويكاد لا يعتبر عبئا على الجماعة الا في الحالات التي يتعرض فيها المجتمع ككل الى المجاعات الشديدة .

وعلى ذلك فان الشيخوخة من حيث هي مشكلة تحتاج الى حل ليست قائمة هناك بنفس المعنى الذي نجاهه في المجتمع الصناعي الحديث الذي تؤلف فيه الشيخوخة مشكلة ضخمة تحتاج الى تكوين مؤسسات تتولى امر

لتحقيق أكبر قدر ممكن من الدقة العلمية ، ولامكان التعمق في التحليل . وعلى الرغم من تزايد الدراسات والبحوث الاجتماعية والانثروبولوجية والسيكولوجية في هذا المجال، فان هذه الدراسات والبحوث لاتزال قليلة اذا هي قورنت بما حققه الاطباء وعلماء البيولوجيا الذين كان لهم بغير شك فضل السبق في دراسة ظاهرة الشيخوخة عند الانسان .

وعلى أية حال فان علماء الاجتماع والانثروبولوجيا في دراساتهم للشيخوخة يأخذونها على أنها أكثر من مجرد تغيرات بيولوجية وفسولوجية وفيزيائية تطرأ على الجسم البشري نتيجة للتقدم في السن ، ويعتبرونها ظاهرة اجتماعية تتمثل في موقف معين يقفه المجتمع من الفرد ويفرض عليه بمقتضاه قيودا وحدودا وقواعد سلوكية يلتزم بها ، كما تتمثل من الناحية الأخرى في موقف معين أيضا يقفه الفرد نفسه من نفسه ومن الآخرين ، ويتمثل في التزامه بتلك القواعد والقيود والمبادئ التي يضعها له المجتمع ، كما يمتنع عن كثير من الأمور التي كان يبيحها لنفسه قبل أن يصل الى تلك السن . ويقول آخر ان علماء الاجتماع والانثروبولوجيا يعتبرون الشيخوخة إحدى المراحل التي يمر بها الفرد خلال دورة الحياة وتلابسها مظاهر سلوكية وقيم اجتماعية معينة ، كما انها في الوقت ذاته منزلة اجتماعية يحتلها الفرد بحكم السن التي وصل اليها ، ودور اجتماعي يلتزم بالقيام به وأدائه ... وربما كان هذا أوضح في المجتمع البدائي والتقليدي منه في المجتمع الصناعي الحديث .

(١)

لقد اهتم علماء الانثروبولوجيا بالذات بدراسة هذا الموضوع وتتبع ظاهرة الشيخوخة في الاساطير والتراث القديم وفي المجتمعات القبلية « البدائية » ولدينا ذخيرة هائلة من

الاقتصادي ، اذ أنهم يضطلمون بدور حيوى له أهميته فى عملية الانتاج ، ونعنى به الشعائر والطقوس السحرية والدينية التى تعتبر عنصرا أساسيا لضمان نجاح أية عملية انتاجية ، ويستوى فى ذلك صيد السمك أو قنص الحيوان أو تغليح الارض أو بلر أو حصد المحصول أو غير ذلك . فهذه كلها أنواع من النشاط الاقتصادي لا يمكن البدء فيها ان لم تسبقها شعائر وطقوس معينة يقوم بها الشيوخ ، وتعتبر ممهدة لذلك النشاط ومتممة له . ومن هنا فان علماء الانثربولوجيا الذين اتاحت لهم فرصة دراسة الدور الذى تلعبه هذه الممارسات السحرية والدينية فى الحياة الاقتصادية يعتبرونها بالعقل جزءا من عملية الانتاج ، مما يعنى بالتالى أن الشيوخ يسهمون بالعقل ايضا فى الانتاج ، وأن كان المجهود الفيزيقي الذى يبذلونه فى ذلك عديم الاثر ، أو على الاقل غير واضح تماما .

والامثلة كثيرة على ذلك :

فبعض علماء الانثربولوجيا من امثال مالىنوفسكى Malinowski وايفانز بريتشارد Evans-Pritchard وفيرث Firth يميزون بين « أنواع » السحر المختلفة حسب وظائفها ، ويذكرون ضمن هذه الأنواع السحر الانتاجي Productive الذى يهدف الى تحسين الانتاج ووسائله وتنظيم العمل ، والتحكم فى عوامل الطبيعة التى تساعد على ذلك مثل المطر . ومالىنوفسكى بالذات يعطى لهذا السحر جانبا كبيرا من اهتمامه ، وهو يدرس عناصر الانتاج فى المجتمع البدائي وبخاصة مجتمع التروبرياند Trobriand الذى درسه ، ويشير بوجه خاص الى ما يسميه بسحر الحدائق Garden Magic ، وهو السحر الذى يمارسه الناس هناك بقصد تحقيق محصول وافر من نبات اليام Yam الذى يعتبر الغذاء الرئيسى عندهم ، وبدون ممارسة هذا السحر لن تفلح

الشيوخ والعناية بهم ، ووضع القوانين والقواعد والتنظيمات التى تنظم حياة هؤلاء الشيوخ وتهتم بتوفير مستوى اقتصادى واجتماعى معين لهم بعد ان استغنى المجتمع عن خدماتهم . وليس ثمة شك فى أن التكافل الاجتماعى القائم على أساس الروابط القرابية فى المجتمعات البسيطة والتقليدية ، والذى يقضى على اعضاء الجماعة القرابية الاهتمام والعناية بأمر أفراد الجماعة من الشيوخ والمتقدمين فى السن ، يساعد مساعدة فعالة على حل مشكلات الشيخوخة فى تلك المجتمعات . ومما يخفف من وطأة الشيخوخة على الشيوخ أنفسهم وعلى بقية أفراد الجماعة فى وقت واحد ان تلك المجتمعات البسيطة وبخاصة « البدائية » منها تحاول بقدر الامكان الافادة من هؤلاء الشيوخ ومن خبراتهم العميقة فى شئون الحياة ، ومن هنا فانها تحدد لهم مركزا معيناً ودورا يتعين عليهم اداؤه ، وأنواعا محددة من النشاط الاجتماعى - أو حتى الاقتصادى - تتناسب مع ضعفهم الفيزيقي النسبي بحيث لا يشعر المجتمع بأنه يتحمل نحوهم مسئوليات ثقيلة أو أنهم يشكلون عبئا يصعب حمله ماداموا يؤدون لهذا المجتمع وظيفة لها أهميتها بالنسبة اليه على ما ذكرنا من قبل .

والواقع ان الشيخوخة فى المجتمع « البدائي » والتقليدي تعتبر فى حد ذاتها انجازا له أهميته ومكانة متميزة ، وتجلب لصاحبها الاحترام الذى يتناسب مع المركز الاجتماعى السامى الذى يحتله فى الحياة الاجتماعية . فأهمية الفرد فى المجتمع البدائي لا ترتبط بالضرورة بقدرته على الانتاج الاقتصادى ، أو على الاصح بالمجهود الفيزيقي الذى يبذل فى عملية الانتاج . اذ ليس من شك فى أن العمل الشاق الذى يتطلب لياقة بدنية عالية وقدرة فيزيقية كبيرة انما يضطلع به الشبان . ولكن هذا لا يعنى اطلاقا عدم مشاركة الشيوخ فى النشاط

على العموم باسم « صانع المطر » . ومهمة « صانع المطر rain-maker » هي القيام بالصلوات والادعية الخاصة بالاستسقاء واستنزال المطر في سنوات الجذب ، ولذا كانت وظيفته من أهم الوظائف المكملة للحياة الاقتصادية في تلك الشعوب . (٤)

ومن التسليم بأن أفرادا قلائلا فقط هم الذين يمارسون هذه المراسيم والطقوس في تلك المجتمعات نتيجة لخبرتهم ودرايتهم بفنون السحر ، فان القيام بهذه الممارسات يعتبر وقفا على الشيوخ والمتقدمين في السن ممن يحذقون هذه الفنون ، بل انه ليس من المفروض ان يقوم باداء دور « شيخ الارض » او « صانع المطر » او ان يمارس سحر الحدايق وغيره من أنواع السحر الانتاجي الاخرى الا من يكون قد بلغ مرحلة معينة من العمر هي مرحلة الشيخوخة ، أى ان هذه الادوار تعتبر بالضرورة من ادوار الشيخوخة ومن اوجه النشاط التي ترتبط بالضرورة بتلك الرحلة . وربما كان هذا اوضح في المجتمعات القبلية التي يقوم تنظيمها الاجتماعي على ما يعرف باسم نظام او نسق طبقات العمر age-set system.



الزراعة ولن تحقق محصولا وفيرا . ويقوم الشيوخ بأداء تلك الممارسات والطقوس ، ويعتبر ذلك هو الاسهام الذي يسهمون به في النشاط الاقتصادي ، على الأقل في ميدان الزراعة (٣) كذلك نجد عند كثير من القبائل الافريقية تدخل العناصر الفيبية المتعلقة بالالهة والارواح والطواطم في النشاط الاقتصادي ، وهي عناصر يشرف عليها الشيوخ وكبار السن في تلك الجماعات . فالشعوب النيلية مثلا تعرف ما يسمى بنظام « شيخ الارض » ، وهو من الرؤساء الدينيين الذين يتمتعون بقوة روحية خارقة ، وبمكانة دينية عالية، ويشرف على توزيع الارض في كل موسم زراعى بين العائلات المختلفة التي يحق لها زراعة تلك الارض ، كما انه يقوم بالصلوات والادعية والطقوس قبل الشروع في زراعة الارض حتى يضمن نجاح المحصول وابعاد الآفات عن الزراعة . وتعتقد هذه الشعوب أن زراعة الارض بدون الرجوع الى هذا « الشيخ » وبدون القيام بهذه المراسم والطقوس ، سوف يودى بالزرع والمحصول . وهذا نفسه يصدق على بعض الزعماء الروحيين والدينيين في تلك المجتمعات القبلية ذاتها ، وفي بعض المجتمعات النيلية الحامية في شرق افريقيا والذين يعرفون

(٢) انظر بوجه خاص كتاب مالىنوفسكى عن حداثى الرجان وسحر الحدايق وهو بعنوان :

Malinowski, B., Coral Gardens and Their Magic.

كذلك راجع ما ذكرناه في ذلك الصدد في الجزء الثاني من كتابنا : البناء الاجتماعى (الانسان) ، صفحة ١٢٨ حاشية ٢ حيث تقول ان الاستاذ مالىنوفسكى يذكر في كتابه Argonauts of the Western Pacific كثيرا من الطقوس التي يمارسها سكان جزر التروبريان قبل الخروج الى رحلات التبادل العروفة باسم الكولا ، وانهم يمارسون سحر الحدايق او « سحر الزراعة » حتى يضمنوا ليس فقط نجاح المحصول ، بل ولكي يحصلوا ايضا على ثمرات كبيرة من نبات الذي يهتمون بزراعته . « فساكن هذه الجزر يتنافسون فيما بينهم على الحصول على درنات كبيرة الحجم يتخذونها منها مصدرا للتفاخر فيما بينهم . ولكنهم يصلون الى ذلك ليس فقط بفضل الجهود الكبيرة التي يبذلونها فعلا في الزراعة والعناية بالحقول ، بل وايضا عن طريق ممارسة نوعين من السحر ، احدهما يهدف الى نجاح زراعة الشخص وكبر حجم الدرناات التي تنبت في ارضه ، والاخر يهدف الى الفساد لزراعة غيره من الزراعى الذين يتنافسون معه . وكان من نتيجة ذلك ظهور نوع ثالث من السحر يحاول كل منهم ان يطل به مفعول السحر الذى يوجه خصومه الى زراعته وهكذا » . وليس من شك في ان الشيوخ وكبار السن هم الذين يقومون بهذه الممارسات السحرية التي تؤثر تأثيرا مباشرا في الحياة الاقتصادية .

Seligman, C. G. and Brenda Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, (٤)

Routledge 1932, pp. 195-200 ; 326-34 and 398-404.

المنزلة . وعلى هذا الاساس فان (طبقة العمر) تختلف تماما عن (مرحلة العمر) التي تطلق عادة على تلك الاقسام المعروفة التي تنقسم اليها حياة الفرد من حيث هو فرد من الطفولة الى الشيخوخة ، وذلك بعكس الحال بالنسبة لطبقة العمر التي لها معنى اجتماعى وجماعى ، ولا ينظر للفرد فيها الا باعتباره عضوا في تلك الجماعة او (الطبقة العمرية) .

فكانه يمكن حصر الفوارق الاساسية بين هذين النوعين من التقسيم ، اى طبقات العمر ومراحلها ، فى نقطتين : الاولى هى أن الرجل الفرد لا يستطيع بحال ان يغير طبقة العمر التي ينتمى اليها . فولادة الفرد أو تكريسه فى طبقة عمر معينة يعنى انتماءه الى تلك الطبقة طيلة حياته . بينما هو ينتقل بالطبع وبحسب نموه من مرحلة عمر معينة الى المراحل التالية بمرور الزمن وبفعل تقدمه فى السن . والنقطة الثانية هي أن فكرة التماسك والتمايز التي تعتبر ركنا جوهريا فى (طبقة العمر) لا تظهر على الاطلاق فى (مرحلة العمر) . فطبقة العمر هى جماعة من الناس تتميز باتحادها وتضامنها فى أداء واجبات وأعمال معينة مرسومة ، كما تتمتع كوحدة بحقوق وامتيازات محددة ، وتؤدي - كوحدة أيضا - وظائف معينة فى الحياة الاجتماعية بشكل لا يتوفر فى مرحلة العمر . وهذا هو ما سبق أن المالحا اليه حين ذكرنا أن طبقة العمر لها معنى اجتماعى بينما يصطبغ مفهوم مرحلة العمر بصيغة فسيولوجية غالبية . ومع ذلك ، فهناك علاقة وثيقة بين الاثنين ، اذ لا يمكن فهم نظام طبقات العمر الا بدراسة هذه الطبقات فى ضوء علاقتها بالمراحل العمرية التي يمر بها الانسان فى حياته ، وذلك على أساس أن احتلال الطبقة

ويظهر نظام « طبقات العمر » فى عدد من المجتمعات « البدائية » التي يقوم التفاضل الاجتماعى فيها على أساس السن أو العمر وليس على أساس الثروة مثلا كما هو الحال بالنسبة للفاشية العظمى من المجتمعات . وليس المقصود من (العمر) هنا السن الفسيولوجية أو المراحل العمرية التي يمر بها الفرد فى حياته من الطفولة الى المراهقة والشباب الى الرجولة الكاملة ، انما المقصود هو تقسيم أعضاء المجتمع - وبخاصة الذكور منهم - الى جماعات وفئات طبقية بحيث تشمل كل جماعة منها جميع الافراد الذين ينتمون الى سن معينة ، مما يؤدي فى آخر الامر الى ترتيب السكان جميعا فى طبقات تعلو احداها الاخرى ، ويقف كل منها موقفا معينا من بقية الطبقات التي تعلوها أو تأتي دونها فى السلم الاجتماعى ، كما تعمل الطبقة الواحدة وتتصرف فى كل شؤون الحياة الاجتماعية ككل أو كوحدة متماسكة . (٥)

فكان طبقة العمر هي جماعة محددة منظمة تضم جميع الاشخاص الذين ينتمون الى سن واحدة ، وغالبا ما تتألف من الذكور وحدهم .

وتتكون طبقة العمر فى العادة من الاشخاص الذين يكرسون معا فى وقت واحد . وبمجرد التحاق الشخص بطبقة عمر معينة نتيجة تكريسه فيها فانه يظل معتبرا عضوا فى تلك الطبقة طيلة حياته . ويطلق على كل طبقة عمر فى كثير من الاحيان اسم واحد يعرف به افراد الطبقة جميعا ويشاركون فى حملته ، كما أنهم يشغلون جميعا نفس المركز الاجتماعى ويتبعون نفس أنماط سلوكه فى معاملتهم بعضهم بعضا ، ويتخذون موقفا واحدا ازاء غيرهم من الناس ممن ينتسبون الى طبقة العمر التي تعلو طبقتهم أو التي تكون ادنى منها فى

(٥) يوجد هذا النمط من التمايز الاجتماعى فى مجتمعات معينة بالذات فى افريقيا وامريكا وبعض جزر المحيط الهندى وبعض قبائل استراليا ، ولكنه لا يتمثل بوضوح وقوة فى أى منها كما يتمثل فى شرق افريقيا عند مجموعة الشعوب المعروفة باسم الشعوب نصف الحامية Half-Hamites وبخاصة عند القبائل النيلية الحامية او النيلو حامية Nilo-Hamites وهى كلها مجتمعات تنفرد بنسقى سياسى معين .

بوظيفة المحاربين الا بعد تقاعد الطبقة التي تقوم بالفعل بهذه الوظيفة وتنازلها عن السلطات المخولة لها لتلك الطبقة الجديدة الناشئة . ويتم هذا في معظم المجتمعات التي تعرف هذا النظام كل خمس عشرة سنة ، وبمقتضى ذلك تحدث نقلة الى أعلى في كل مكونات البناء الاجتماعي مع احتفاظ البناء ذاته بشكله وبالنسب القائمة بين تلك المكونات . اى ان الطبقات كلها تنتقل من مرتبة الى أخرى أعلى منها في ترتيب تصاعدي كلما تكونت طبقة جديدة ، ولكن العلاقات النسبية بين الطبقات التي تشغل مختلف المراتب تظل كما هي بدون تغيير . واختلاف الطبقات يستتبع بالضرورة اختلاف المرتبة والمركز . والطبقة تعتبر في ادنى مستويات التمايز الطبقي بعد تكوينها مباشرة وتصل الى أعلى تلك المستويات حين تقترب نهايتها ، اى حين يموت معظم افرادها بفعل السن وتكاد تختفي من الوجود .

ويختلف عدد المراتب الاجتماعية التي تمر بها طبقة العمر الواحدة من مجتمع لآخر وان كان ثمة ميل عام الى التمييز بين ثلاث مراتب اساسية هي البطولة والرجولة الكاملة والشيخوخة . وقليل من هذه المجتمعات يعتبر الطفولة مرتبة تشغلها الطبقة لفترة معلومة من الزمن . ولكل مرتبة من هذه المراتب وظيفة خاصة بها . **فالبطولة وظيفتها الحرب** كما سبق ان ذكرنا ولكن هذه الوظيفة تتضمن بالضرورة وظيفة أخرى هامة هي الوظيفة الاقتصادية ، لان الحرب في كثير من الاحيان يكون الغرض منها شن الاغارات على معسكرات الاعداء لسرقة الماشية (الإبقار) التي تلعب دورا هاما جدا في الحياة الاجتماعية كلها علاوة على قيمتها الاقتصادية ، وذلك على اعتبار ان الماشية هي اداة دفع المهر ودفع الدية وتقديم القرابين والاضحيات الى الآلهة في تلك المجتمعات الوثنية وهكذا . وترتبط مرتبة **الرجولة الكاملة** بالاستغلال بامور الحياة المدنية

مركزا اجتماعيا معينا ، وانتقالها من مستوى اجتماعي الى مستوى آخر أعلى منه يرتبط بالانتقال التدريجي بين مراحل العمر المختلفة ، كما ان الطبقات التي ينقسم اليها سكان المجتمع تتوزع في العادة بين مختلف المراحل العمرية (انظر في ذلك مقالنا عن : « نظام طبقات العمر - دراسة في الانثروبولوجيا المقارنة » - مجلة الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣) .

وليس هنا مجال تفصيل القول في الشعائر التي تمارس لتكوين طبقة جديدة او للاحاق الشبان المراهقين بهذه الطبقة الجديدة ، وهي الشعائر التي تعرف عادة باسم شعائر التكريس initiation ceremonies ويكفى ان نقول ان هذه الشعائر هي التي تحدد تكوين الطبقة والاشخاص الذين ينتمون الى الطبقة الواحدة ، وانها قد تستغرق عدة سنوات حتى يسمح لعدد كبير من الشبان بالدخول فيها لتكوين طبقة واحدة قوية ومتماسكة ومتعاونة ، وذلك قبل ان يفلق موسم التكريس وتممر سنوات أخرى طويلة تتراوح بين سبع سنوات وخمس عشرة سنة قبل ان يبدأ موسم جديد للتكريس لتكوين طبقة جديدة وهكذا .

وتعرف الطبقة الجديدة دائما باسم طبقة الابطال المحاربين لانهم يتولون الوظيفة الحربية ، اى الدفاع عن ارض القبيلة او الهجوم على القبائل الاخرى المعادية . وتظل هذه الطبقات تمارس هذه الوظيفة حتى يتم تكوين طبقة عمرية أخرى تزيج طبقة المحاربين من وظيفتها وتحتل مكانها ، بينما ينتقل المحاربون القدامى الى مرتبة اجتماعية أعلى هي مرتبة شيوخ العشيرة ، وهذا يؤدي بالضرورة الى زحزحة جميع الطبقات الاخرى الموجودة بالفعل ونقلها الى مراكز أعلى من تلك التي كانت تشغلها قبل تكوين الطبقة الجديدة ، اى ان الطبقة الناشئة لا تمارس حقها في القيام

طبقات الشيوخ كلها في هذه المهمة التربوية الحيوية بالنسبة للمجتمع وللمحافظة على كيانه واستمرار تقاليد وقيمه الاجتماعية والثقافية . بل ان الحرب الهجومية ذاتها او الاغارات التي هي وظيفة طبقة الأبطال المحاربين لا يمكن أن تبدأ الا بعد استئذان شيوخ العشيرة وتلقى بركاتهم ودعواتهم التي تعتبر عنصرا أساسيا هاما لنجاح الاشارة او الحملة . والواقع ان الانتصار في الحرب ونجاح الحملة او فشنها هو مسئولية الرؤساء الشعائريين او السحرة ورجال الدين قبل كل شيء ، لانهم هم الذين يعينون الوقت الملائم للحرب الناجحة ، وهم الذين يضمنون بذلك نجاح الحملة وانتصارها .

فواضح اذن من هذا كله ان الشيوخ في هذه المجتمعات يتعدون في وظائفهم المجال الاقتصادي البحث ، ويلعبون دورا أكبر وأوسع واشمل بحيث يتغلغلون في كثير من نواحي الحياة الاجتماعية بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويؤثرون في كل مجالات الحياة . وهذا معناه في آخر الامر ان لهم في تلك المجتمعات التي يطلق عليها اسم المجتمعات البدائية دورا ايجابيا واضحا يساعد على تشكيل الحياة الاجتماعية واستمرارها . وقد تختلف تفاصيل هذا الدور من مجتمع لآخر وانما المهم هو ان الشيوخ في كل هذه المجتمعات يشاركون مشاركة فعلية وفعالة في حياة المجتمع ، وأنهم يشعرون بذلك ، كما أن المجتمع ذاته يشعرهم طيلة الوقت بحاجته اليهم . وهذه كلها مواقف تكاد لانجد لها مثيلا في المجتمعات الصناعية المتقدمة والمجتمع الحديث على العموم .

(٢)

هذا الوضع يعتبر في حقيقة الامر هو الوضع المنطقي في كل المجتمعات الانسانية التي تلعب الروابط العائلية والقربانية فيها دورا هاما في الحياة اليومية ، وبالذات في الحياة الاقتصادية ، بحيث نجد ان أعضاء الجماعة القربانية يعتبرون

والاقتصادية والسياسية ، وافراد الطبقة التي تشغل هذه المرتبة يدخلون في تأليف مجالس الوحدات الاقليمية والقبلية التي تنظر في المنازعات الداخلية بين افراد القبيلة وتحاول انهاء الصراع ، اى ان وظيفتهم في الاغلب وظيفة سياسية . واما مرتبة الشيوخ فأنها ترتبط بوجه خاص بالوظيفة الدينية . فطبقات الشيوخ هي التي تشرف على امور الدين وعلى الطقوس والشعائر باعتبارهم أكبر الأحياء سنا في المجتمع واقربهم بذلك الى الموت والى العالم الآخر وادانهم بالتالى الى الآلهة ، ولذا يلجأ الناس اليهم في الملمات والازمات ، كما يطلبون اليهم التحكيم فيما قد ينشب بينهم من خلافات ويقبلون آراءهم ويخضعون لشورتهم ونصحتهم نظرا لمكانتهم الدينية المتأثرة .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن نظام طبقات العمر في ذاته وانما الذى يهمنا هو تبين دور الشيوخ في بعض المجتمعات (البدائية) والوظيفة التي يقومون بها في تلك المجتمعات وهي وظيفة أساسية وهامة ، ثم تحديدها لهم حسب نظام محكم دقيق في جملته ، وبأخذ في الاعتبار القدرات الجسمية والكفاءة الذهنية وما يكتسبونه من خبرة وتجربة نتيجة لتقدمهم في السن . ومما له دلالة هنا ان تكوين الطبقة الجديدة التي سوف تحتل مرتبة البطولة لا يتم الا بموافقة الشيوخ او اعلى طبقة من طبقات الشيوخ في حالة تعدد هذه الطبقات في المجتمع ، وأن الفتيان أنفسهم هم الذين يلجأون الى شيوخ العشيرة طالبين اليهم الاذن بالتكريس . ويخضع الفتيان اثناء شعائر التكريس ذاتها وفي خلال المدة التي تستغرقها تلك الشعائر والتي قد تمتد الى عدد من السنين لنوع من الاشراف من طبقة الشيوخ ، كما انهم يتلقون كثيرا من التعاليم والتوجيهات والدروس التي تتعلق بنوع السلوك المنتظر منهم بعد التكريس ، وتعاون

والتماسك بين افراد الطبقة وفي الامتناع عن التزاوج فيما بينهم أو من بين اولاد بعضهم بعضا على اعتبار أن العلاقات الجنسية بين الاخوة والاخوات وذريتهم علاقة محرمة . بل ان طبقة العمر الواحدة تنظر الى الطبقات التي تعلوها على أنها طبقات آباء واجداد اجتماعيين تقع عليهم كل المسؤوليات التي يجب أن يضطلع بها الآباء والاجداد الحقيقيون ، كما أنها تنتظر من الطبقات التي تصغرها أن تلتزم بأداءها بنفس الالتزامات التي يلتزم بها الأبناء الحقيقيون . فكان نظام طبقات العمر - بشكل ما ومن زاوية معينة - نوع من التنظيم القرابي الاجتماعي أو المتخيل الذي يلجأ اليه المجتمع القبلي لكي يحافظ به على كيانه واستمراره وعلى تماسكه ، على اعتبار أن اقوى اشكال التماسك في المجتمع البسيط هو ذلك الذي يقوم على أساس القرابة .

وللمجتمعات البسيطة اساليبها الخاصة في تشكيل نظمها الاجتماعية بحيث تتخذ في آخر الامر شكل التنظيم القرابي أو على الأقل تقوم على أساس العلاقات القرابية والعائلية الحقيقية أو الاجتماعية (المتخيلة) وبذلك يركز التكافل الاجتماعي في هذه المجتمعات على قاعدة قرابية وليس على مجرد المصالح الاقتصادية أو السياسية . وليس ادل على ذلك من النظام المعروف باسم النظام الطوطمي Totemism الذي يشيع في كثير من

الشيوخ والمسنين عاملا من عوامل قوة الجماعة واستمرار وجودها وبقائها . ويصل الامر في بعض الاحيان وفي بعض المجتمعات الى حد أن نجد الشخص يبيع المرتبة الاجتماعية التي يحتلها بحكم السن ، الى من هم أصغر منه سنا لكي يشتري مرتبة اجتماعية أعلى ترتبط بدرجة أعلى من الشيخوخة . وهذا هو ما كنا نقصده حين ذكرنا ان الشيخوخة تعتبر في ذاتها نوعا من الانجاز في مثل تلك المجتمعات . وليس ادل على ذلك من أن المجتمعات البسيطة تترجم تنظيماتها الاجتماعية المختلفة في حدود والفاظ وعلاقات قرابية وعائلية على اعتبار أن هذه العلاقات هي الأساس القوي الذي يمكن أن تقوم عليه حياة المجتمع وتماسكه وتضامنه واستمراره . ونظام طبقات العمر ذاته الذي اشرنا اليه في الفقرة السابقة لا يخرج عن ذلك في آخر الامر . ذلك أن الانتماء الى أي طبقة عمرية إنما يتم بعد ممارسة شعائر التكريس التي بمقتضاها يصبح جميع افراد الطبقة اخوة واخوات على ما ذكرنا . (٦) وهذه اخوة اجتماعية أو اخوة متخيلة أو متوهمة fictitious كما يحب بعض علماء الانثروبولوجيا أن يصفوها ، وليست اخوة بيولوجية أو حقيقية ، ولكنها تخضع مع ذلك لجميع القواعد والالتزامات والحقوق والواجبات والمسؤوليات التي تخضع لها الاخوة الحقيقية . ويتمثل ذلك في التعاون

(٦) تكتسب طبقة العمر وجودها التمايز وكيانها التماسك بعد أن يتم بالفعل تكريس كل الافراد الذين تتألف منهم ، أي أنها لا تظهر كوحدة وظيفية الا بعد التكريس . وتقام معظم حفلات التكريس على المستوى الجماعي ، ويعتبر الختان أهم عنصر فيها ، كما يتعرض الفتيان أثناءها لكثير من التعذيب والتأعب التي تختلف في الشدة والقسوة من مجمع لآخر ، مثل خلع بعض الأسنان ، أو تشليخ الجبهة والراس ، أو الوخز بالاشواك والشجيرات ، أو الجلد بالسياط ، وهذه كلها عمليات تهدف الى اختبار قوة احتمال الشبان على ملاقات الصعاب كما أنها تعدهم للقيام بدور الإبطال المحاربين على ما ذكرنا . وليس من شك في أن الانتماء الى طبقة واحدة والبرود بفترة التكريس والخضوع لتلك الشعائر القاسية العنيفة التي قد تتضمن أحيانا عزلة افراد الطبقة لفترة معينة عن بقية المجتمع تخلق بينهم نوعا من (الاخوة) الاجتماعية التي لا تعتمد على روابط الدم ، وذلك على أساس أن افراد الطبقة ينتسبون في العادة الى عشائر مختلفة داخل القبيلة الواحدة ، ويساعد على خلق علاقة (الاخوة) الاجتماعية نفس عملية الختان أو التشليخ الجماعية حيث يمارسها على جميع افراد الطبقة شخص واحد في وقت واحد ، مستخدما في ذلك سلاحا واحدا لا يهتم بتنظيفه بعد كل عملية فتختلط الدماء تبعاً لذلك مما يوجد نوعا من الرابطة بينهم - انظر في ذلك كتابنا : « البناء الاجتماعي » ، الجزء الثاني - الإنساني . صفحة ٣٠٠ .

ومتعاسكة . وبهذه الطريقة يتمكن المجتمع البسيط أو البدائي أن يقضى على المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الأخرى نتيجة لشيخوخة بعض أعضائها وتقدمهم في السن .



ويمكن ان نجد مثيلا لذلك في المجتمعات التقليدية التي لا يزال يغلب عليها طابع الحياة الريفية ، بل وأيضا في المناطق الريفية في الدول المتقدمة . وليس من شك في أن الثورة الصناعية وما ترتب عليها من آثار في بناء العائلة هي المسئول الأول عن ظهور مشكلة الشيخوخة بالحجم الذي نراها عليه في المجتمع الحديث ، وهذه مسألة سوف نعرض لها بالتفصيل فيما بعد ، ولكن الذي يهمنا الآن هو أنه قبل هذه الثورة الصناعية في أوروبا كان الشيوخ وكبار السن يجدون اشباعاتهم في انتمائهم العائلي ، حيث كان النمط السائد للعائلة هو العائلة الممتدة extended family التي يجد فيها الفرد - بصرف النظر عن سنه - الأمان والاطمئنان والاستجابة والاعتراف بالكيان ، وحيث كان الشيوخ يؤدون وظيفة وظيفية اجتماعية حيوية تتمثل - في أبسط صورها - في تقديم خبرتهم ونصائحهم وإرشادهم لأولادهم الكبار البالغين على ما يقول بيرجس Burgess (٧) .

والمعروف أن العائلة الممتدة تركز أساسا على مبدأ استمرار الأجيال المنحدرة من صلب رجل واحد في المعيشة معا بحيث يؤلفون وحدة اجتماعية واقتصادية متعاونة ، بمعنى أن الرجل لا ينفصل حين يكبر ويتزوج عن (بيت) العائلة بل يظل محتفظا بعضويته وانتمائه اليه ، وبذلك فقد تضم العائلة الممتدة أفرادا ينتمون الى ثلاثة أجيال أو أربعة ،

المجتمعات الأفريقية القبلية وفي استراليا وغيرها ، والذي يؤدي في آخر الأمر الى ايجاد روابط قرابية اجتماعية بين اشخاص لا يرتبطون في حقيقة الأمر بأية روابط قرابية فيزيقية أو دموية . فاعضاء الجماعة الطوطمية يعتبرون أنفسهم متحدرين من سلالة ذلك الطوطم (وهو حيوان أو نبات أو قوة طبيعية تلعب دورا هاما في حياة الجماعة) ويحملون اسمه ، وبذلك يعتبرون أنفسهم اخوة واخوات ، ويحرم عليهم بالتالي الزواج فيما بينهم . ومع أن أفراد الجماعة الطوطمية قد يكونون مبغضين كل التبغش وتكاد لا توجد بينهم روابط قرابية حقيقية فان هذا لا يقلل بحال من قوة الروابط القربية الاجتماعية . والذي يهمنا هنا بصفة خاصة هو المسؤوليات التي تلقى على أعضاء الجماعة الطوطمية ، بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود علاقات قرابية حقيقية ، وهذه المسؤوليات والالتزامات لها الى جانب مغزاها القرابي دلالات اجتماعية واقتصادية تتمثل في التعاون المتبادل الذي يعتمد الى رعاية الشيوخ والمسنين من أعضاء الجماعة .

وهكذا نرى أن المجتمعات البسيطة أو « البدائية » تستطيع بأساليبها واجراءاتها الخاصة في خلق روابط قرابية اجتماعية أو متخيلة حتى بين الأغراب إنما لتهيئ لنفسها نوعا من (الضمان الاجتماعي) ضد الأزمات التي تمر بها من ناحية ، بحيث يصلح هذا الضمان الاجتماعي لتأمين حياة أعضاء الجماعة تحت الظروف القاسية التي تسود في تلك المجتمعات . ويمتد هذا الضمان الاجتماعي بحيث يشمل بطبيعة الحال الشيوخ وكبار السن باعتبارهم أعضاء في الجماعة (القربية) أو باعتبارهم أقارب وعلى أساس أن الوحدة القربية هي بالضرورة وحدة متعاونة

Burgess, E. W. ; " Family Structure and Relationships " in Burgess (ed) (٧)
op. cit., p. 271.

أخذة في الاعتبار المركز الاجتماعي لتلك العائلات بصرف النظر عن الميول الشخصية . ولا تزال بقايا هذا النظام موجودة الآن في بعض مناطق الريف الأوروبي . وكل هذا من شأنه توفير قدر من الطمأنينة والاستقرار والاحترام للأجيال السابقة وكبار السن الذين يتدخلون في معظم الأمور التي تعتبرها أمورا خاصة وشخصية مثل مسألة اختيار الزوجة .

وهذه كلها أمور مألوفة لدينا ، ونحن نعرفها من خبراتنا ومن حياتنا اليومية حيث أنها تسود في المجتمعات الريفية الشرقية ، ولكن هناك كثيرا من الشواهد التي تشير إلى أن هذا هو الوضع في بعض المجتمعات الريفية في أوروبا وأمريكا ، حيث لا تزال الروابط العائلية تتميز بدرجة عالية من القوة والتماسك، وحيث لا تزال أنماط العلاقات القرابية تكشف عن مدى الاحترام الذي يتمتع به الشيخوخ الذين يلعبون دورا فعالا في حياة العائلة . (٨) وقد يحسن بنا أن نشير هنا إلى بعض ما سجله علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع بهذا الصدد في المجتمع الريفي في الغرب ونكتفي بمثال واحد

يتعاونون معا في الحياة اليومية ، ويقوم بينهم نوع من التكافل الاجتماعي الذي ينبع من شعور كل فرد بالمسؤولية نحو الآخرين اجتماعيا واقتصاديا . ونظرا لأن هذه العائلة تستمد قوتها إلى حد كبير من الأجيال السابقة ومن كبار السن والشيخوخ الذين يوجهون كل شئونها ويتحكمون إلى حد كبير في تصرفات الأعضاء الأصغر منهم سنا فإنهم يحظون لذلك بكثير من المهابة والاحترام . ولقد كان هذا النمط من التنظيم العائلي يسود كثيرا من المناطق الريفية حتى في أوروبا ذاتها ، كما أنه كان يوجد لطبيعة الحال في المجتمعات الأكثر بساطة والمجتمعات التاريخية ذات الحضارات القديمة ، ولا يزال هو النظام السائد في المجتمعات الشرقية على ما ذكرنا . واستمرار هذا النمط من التنظيم العائلي يدل على تماسك الأجيال والتمسك بالتقاليد كنتيجة حتمية لاستمرار بقاء الأبناء وزوجاتهم وأولادهم داخل نطاق العائلة ، وذلك فضلا عن ارتباط العائلات المختلفة ببعض عن طريق الزواج والمصاهرة فالعائلة الممتدة هي التي تحدد في الأغلب لأعضائها العائلات التي يمكن لهم الزواج منها

(٨) الواقع أن بعض علماء الاجتماع البريطانيين الذين درسوا التجمعات العمالية في بعض المناطق المتخلفة في المدن الصناعية بانجلترا وبالذات في لندن قد سجلوا وجود بعض بقايا العائلة الممتدة في الأحياء الصناعية التي يسكنها العمال والتي يعملون فيها في الوقت ذاته ، أي الأحياء التي تعتبر مناطق عمل وسكنى وإقامة معا وبذلك تكون مناطق مغلقة إلى حد كبير إذ تتم كل أنواع النشاط الاجتماعي التي يقوم بها السكان داخل حدود تلك المناطق ، كما أن الرجل حين يتزوج فإنه يميل إلى الإقامة بجوار أسرته وبخاصة أسرة أمه أن كانت تعيش في المنطقة ذاتها . ومن هنا فإن شكل العائلة الممتدة هو الشكل الأمومي ، وأن نواة هذه العائلة الأمومية الممتدة تتألف من الجدة (أم الأم) وبناتها وحفيداتها وهذه مسألة قد تبدو غريبة لمن لم يدرس هذا الموضوع ، كما أنها تختلف اختلافا كبيرا عن الاعتقاد السائد من أن نواة الحياة العائلية في المجتمعات القروية الصناعية هي الروابط العائلية الأبوية التي تعتمد على الذكور لا الإناث . وقد أشار إلى هذه الظاهرة كل من تاونسند ، الذي سبق الإشارة إليه ، ويونج وويلموت Young and Willmott اللذين اشتركا معا في دراسة بعض الأحياء المتخلفة في لندن ، واللذين تعتبر دراستهما تمهيدا للدراسات التي قام بها تاونسند فيما بعد . ومن الطريف أن نجد أن هؤلاء العلماء الثلاثة يجمعون على أن النساء في تلك المناطق الصناعية المتخلفة أكثر ارتباطا بأمهاتهن وأخواتهن ، وفي هؤلاء الأقارب النساء من ارتباط الرجل بأقاربه من كلا الجنسين حيث يفضل الرجل في العادة أن يقيم علاقاته الاجتماعية مع أصدقاء وليس مع أقارب . وقد أشارت إليزابيث بوت Elizabeth Bott إلى ذلك في دراستها القيمة عن Family and Social Network حين ذكرت أن أحد الرجال الذين كانت تعتمد عليهم في بحثها قال لها أن « الرجال لهم أصدقاء ، أما النساء فإن لهن قريات وأنه ليس للنساء صديقات وإنما لهن أمهات فقط » . ويبدو ذلك واضحا بشكل قوى من التعاون المتبادل بين القريات وقت الحاجة والشدة . وهذه كلها مظاهر سائدة في المجتمعات البسيطة والتقليدية المتخلفة .

لذلك ، مستمد من الدراسة القيمة التي قام بها اثنان من العلماء هما آرنسبرج وكيملبول على المجتمع الريفي في ايرلندا ، وعن المنزلة الاجتماعية العالية التي يتمتع بها الشيوخ هناك ، والدور الاجتماعي الذي يقومون به في حياة المجتمع كنتيجة طبيعية لقوة الروابط العائلية وتماسك الوحدات القرابية هناك .

ولقد لاحظ الباحثان أن الفلاح الايرلندي يعيش في العادة الى سن متقدمة ، ومع انه من الصعب رد طول العمر في المجتمع الريفي الايرلندي الى اسباب معينة بالذات مثل الطعام والمناخ او العوامل السلافية او العناية الطبية التي يحظى بها الرجل الاوروبي عموما ، الا انه ليس ثمة شك في أن الفلاحين الايرلنديين - كما يقول الباحثان - يعيشون طويلا ويتغلبون على الامراض ، لان لديهم ما يعيشون من اجله ، وهو كثير . ذلك انهم في مجال حياتهم الخاصة يحظون بكثير من الاحترام ويتمتعون بكثير من القوة والسلطة والنفوذ . وسلوك الفلاح العادي هناك وعواطفه ومواقفه واتجاهاته وحديثه في الحياة اليومية تشير كلها الى ذلك الاحترام الذي يتمتع به الشيوخ والمسنون في المجتمع ، وان هذا الاحترام وتلك المراعاة للسن وللشيخوخة يعتبران جزءا من اخلاق المجتمع الريفي وقيمه ، وان الطفل يتعلم منذ صغره كيف ينبغي عليه ان يسلك ويتصرف مع الذين يكبرونه في السن ، وبخاصة الشيوخ ، ليس فقط داخل عائلته وانما في نطاق المجتمع ككل ، وهذا في حد ذاته يساعد مساعدة فعالة واكيدة على تحديد المراكز الاجتماعية والراتب التي يحتلها افراد المجتمع بحسب تقدمهم في السن ، كما يحدد انماط السلوك التي يجب اتباعها ، لدرجة ان المجتمع يفرض الجزاءات والعقوبات على كل من يخرج على قواعد السلوك التي يجب مراعاتها نحو الشيوخ ، وهي جزاءات تتراوح بين اللوم

والتوبيخ والمقاطعة والنبد وغير ذلك . ولا يعنى هذا اطلاقا ان الشباب لا يختلفون مع الشيوخ ، او انهم يقبلون دائما وجهة نظرهم وآراءهم ومواقفهم ، اذ كثيرا ما يعبرون عن معارضتهم للشيوخ وانتقادهم لآرائهم وافكارهم التقليدية القديمة ، ولكن هذا يتم في حدود معينة مرسومة ، وان كان الشبان فيما بينهم كثيرا ما يسخرون منهم دون ان ينسوا مع ذلك نسق القيم الذي يمثل الشيوخ فيه الحلقة الرئيسية التي تربط افراد العائلة بعضهم ببعض ، والذي يتمتعون فيه بأكثر قدر من الاحترام والمهابة والتبجيل . ومع ان الشباب يريدون دائما بطبيعة الحال ان يكون لهم كيانهم المستقل المتميز عن الشيوخ فانهم لا يجراون في كثير من الاحيان على الافصاح عما يدور في اذهانهم . وينعكس احترام المجتمع لكبار السن والشيوخ في كثير جدا من التصرفات العادية في الحياة اليومية ، وهي تصرفات قد تبدو عديمة الاهمية لأول وهلة ولكن لها دلالتها العميقة . فالشيوخ يجلسون دائما في صدر المكان على المقاعد المجاورة للنار للتدفئة ، بينما يجلس صغار السن في مؤخرة الحجرة . والشيوخ هم الذين يتكلمون بينما ينصت صغار السن والشبان ، وحتى حين يكون الكلام موجها الى أحد هؤلاء الشبان فكثيرا ما يجيب كبار السن عنه ، بل وقد يصل الحال بالشباب بان يتحرز من الكلام الا حين يؤذن له بذلك . ومن الطريف ما يلاحظه المؤلفان من أن « افضل فنجان شاي ، واكبر قطعة خبز ، والبيضتان بدلا من البيضة الواحدة ، وما الى ذلك تقدم كلها للشيوخ » دليلا على الاحترام والاعزاز والرعاية ، وهما يريان انه بدون هذه اللفتات الصغيرة تفقد حياة الجماعة الريفية طعمها ومعناها ، كما يصعب على الباحث ان يفهم العلاقات الاجتماعية بل وبناء المجتمع كله ان لم يأخذ هذه الامور في الاعتبار . (٩)

والتي كان الشيوخ يؤدون دورهم الواضح الحيوى فيها طالما كانوا قادرين على الحركة وعلى ابداء الراى فى شئون الجماعة التي ينتمون اليها ، ولقد تغير هذا كله تغيرا جذريا بدخول التصنيع الى المجتمع وظهور مراكز صناعية متقدمة كانت تعتبر - ولا تزال - مراكز جذب للسكان وللأيدي العاملة ، نظرا لما تتيحه من فرص جديدة للكسب والعمل لا تتوفر في المجتمع الريفي الذي يعتمد على الزراعة وغيرها من أشكال النشاط الاقتصادي الأكثر بساطة . ولقد ترتب على ذلك الحراك السكاني من أجل الالتحاق بالمصانع كثير من التغيرات الهامة التي تتمثل في انفصال الأفراد عن عائلاتهم الكبيرة الممتدة ، وتكوينهم عائلات صغيرة أو عائلات نووية - حسب التعبير الشائع في الكتابات السوسولوجية والانثربولوجية - تتألف من جيلين اثنين (جيل الوالدين وجيل الأولاد) بدلا من الاجيال الثلاثة أو الأربعة التي تتكون منها العائلة الممتدة ، وضعف الروابط العائلية والعلاقات القرابية نتيجة لذلك ، والفصل بين مناطق السكنى والإقامة ومناطق العمل ، بعد أن أصبح الشخص يعمل في المصانع الكبيرة التي تقام في أماكن معينة بعيدة عن السكان ، بعد أن كان يعمل مع أعضاء عائلته في نفس موطن إقامته الأصلي ، وازدياد الاتجاه إلى الفردية نتيجة لاستقلال الفرد اقتصاديا عن عائلته الممتدة ، وتبعثر أعضاء العائلة الواحدة بين مختلف مناطق العمل والصناعة ، والتحاقهم بأعمال مختلفة بحيث أن الزوجين كثيرا ما يعملان في مهن وأماكن مختلفة ومتباعدة بعد أن كانت وحدة العمل والنشاط الاقتصادي تجمع بينهما ، بل وبين كل أعضاء الوحدة القرابية ، وظهور التخصص الدقيق وبخاصة في مجال الصناعة مما أدى إلى تباعد أعضاء العائلة الواحدة في عمليات الإنتاج الاقتصادي بعد أن كانت وحدة الإنتاج قبل الثورة

وهذه كلها كما ذكرنا من قبل أمور مألوفة وشائعة في مجتمعاتنا العربية التي يقوم تنظيمها الاجتماعي على أساس روابط القرابة والدم والمصاهرة ، وحيث لا تزال العائلة الممتدة هي النمط الغالب ليس فقط في المناطق الريفية بل وإيضاً في المراكز الحضرية والمدن . والمهم هنا هو أن هذه الروابط القرابية القوية هي التي تساعد الشيوخ على الاستمرار في أداء الدور الذي يتلاءم مع سنهم ، كما تساعد المجتمع على الاعتراف بهذا الدور وتقبله ، وبالتالي على تقبل الشيوخ واحاطتهم بالرعاية والاحساس طيلة الوقت بالحاجة إلى وجودهم الذي يعتبر (بركة) في أغلب الأحيان . ومن هنا تعتبر الشيخوخة ليس مجرد إنجاز كما قلنا ، بل إنها تعتبر قيمة يحافظ المجتمع عليها ويسترشد بتعاليمها .

(٣)

هذا الالتزام بمساعدة المتقدمين في السن والشيوخ والذي يرتبط بالعائلة الممتدة وبالروابط القرابية القوية لم يلبث أن طرا عليه كثير من الضعف والوهن بتقدم المجتمع الانساني ، وتحول الكثير من المجتمعات من الحياة الزراعية البسيطة إلى التنظيم الصناعي الأكثر تعقداً ، والذي أدى إلى ظهور أنماط جديدة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقيم الأخلاقية التي لم تكن معروفة من قبل . ذلك أنه قبل الثورة الصناعية التي بدأت بواورها الأولى في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم وضحت معالمها في القرن التاسع عشر ، كان النمط العام للحياة الاجتماعية في المجتمعات القرابية هو نفس النمط الريفي الذي لا يزال يسود في المجتمعات التقليدية البسيطة ، والذي كانت الروابط العائلية والقرابية تلعب فيه دوراً أساسياً فعالاً في كل مجالات الحياة ،

العمل سوى روابط المصلحة المشتركة . فصاحب العمل يحتفظ بالعمال طالما كانوا على درجة معينة من الكفاءة والمهارة واللياقة البدنية التي تؤهلهم للقيام بالعمل الذي يوكل اليهم على الوجه الاكمل ، والا استغنى عنهم بحجة عدم حاجة العمل اليهم او عدم امكانهم تحقيق المستويات المطلوبة في الانتاج . ويتضح ذلك بأجلى صورة في استغناء العمل عن العاملين حين يصلون الى سن معينة تقل عندها قدراتهم وكفاءتهم ومهارتهم . وهى امور غير مألوفة في المجتمعات التقليدية البسيطة او اساليب الانتاج الاقتصادى التقليدى . ومن هنا كان الرأى الذى يذهب اليه الكثيرون من علماء الاجتماع والانثربولوجيا من أن مشكلة الشيخوخة والاحساس بها كمشكلة اجتماعية تحتاج الى حل ، انما هي وليدة الثورة الصناعية وما ادخلته من تغيرات على اساليب العمل والانتاج، وما ترتب على ذلك من تغيرات

الصناعية هي الوحدة القرايية الممتدة على ما سبق أن ذكرنا (١٠) . ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا كله هي أن اصبح الشيوخ يمثلون عبئا على العائلة . فالعائلة الصغيرة او النوواة لم تعد - بحكم تكوينها وبحكم الظروف التى تعيش فيها - تحتل او تستطيع اعالة الشيوخ او استيعابهم او العناية بامرهم . بل ان الشيوخ لم يعودوا يؤلفون جزءا في تكوين هذا النمط من العائلة نظرا لان الرجل ينفصل عن عائلته بمجرد أن يكبر ويتزوج ان لم ينفصل عنها قبل ذلك ويرحل للعمل في مكان بعيد . (١١) ومن ناحية اخرى فان التغيرات التى طرأت على طبيعة العمل وطبيعة العملية الانتاجية ادت الى ان تصبح الوحدة الانتاجية تقوم على اساس المصالح الاقتصادية بعد ان كانت تقوم على اساس روابط الدم والقراية . فالعمال الذين يعملون فى أى صناعة من الصناعات وفى أى مصنع من المصانع لا تربطهم ببعض ولا بصاحب

(١٠) تربط فكرة التخصص وتقسيم العمل بالمعنى الدقيق للكلمة بالمجتمعات الأكثر تطورا ، وبخاصة المجتمعات الصناعية ، لدرجة أن اصبح نظاما لازما للصناعة الحديثه يرتبط بها ارتباطا قويا في الازمان ، وبحيث نجد أن الكثيرين من الكتاب ينكرون على الشعوب (البدائية) والبسيطة اية معرفة بالتخصص . والمقصود بالتخصص وما يرتبط به من تقسيم للعمل هو توزيع الادوار المختلفة على أشخاص مختلفين بطريقة تكفل في آخر الامر تحقيق هدف واحد متكامل ومحدد بحيث يقوم الافراد باداء ادوار معينة وانجازها . والنسق الصناعي بالذات يعتمد أكثر من غيره من الانساق الاجتماعية والاقتصادية على الدقة المنتهية في التخصص وفي تقسيم العمل والتمييز بين الادوار المختلفة التي تؤلف كلها في الوقت ذاته وحدة متماسكة متكاملة . وذهب الكثير من الكتاب ايضا الى ان التدقيق في التخصص يؤدي في آخر الامر الى كفاءة المصنع وكفاءة العملية الانتاجية وبسيط العمل ، وذلك نظرا لان العمال يصبحون أكثر كفاءة ومهارة في انجاز اعمالهم . والاتجاه العام على أى حال في الانتاج الصناعي يميل الى المبالغة في التخصص وتقسيم العمل بحيث اصبحت الناحية الفنية التي يتضمنها الدور الذى يقوم به أى عامل من العمال مجهولة تماما للعمال الآخرين الذين يشتغلون في نفس الصناعة الواحدة ، ولكنهم يؤدون فيها ادوارا مختلفة ، وان بعض هذه الادوار يكاد لا يعرف معناها او اهميتها الا الذين يمارسونها بالفعل ، والاكثر من ذلك انه في بعض الاحيان قد يجهل العامل نفسه اهمية العمل الجزئى الذى يقوم به بالنسبة للعملية الانتاجية ككل . ويذكر عالم الاجتماع الأمريكى ماكيفر Mac Iver في هذا الصدد أن أكبر مساوئ التخصص وتقسيم العمل هي انهما يبعلمان الناس بمثابة أجزاء في آلة واحدة كبيرة . فبعضهم يصبح بمثابة (الكباس) وهكذا ، وبذلك يصيب العامل وعمله مجرد أجزاء صغيرة لا قيمة لها في ذاتها وبذاتها ، انظر في ذلك :

Mac Iver, R. M. ; Community : A Sociological Study, Macmillan, London 1936, pp. 359-62.

Clark Tibbitts, " Retirement Problems in American Society ", in (١١) Eisenstadt (ed.)

Comparative Social Problems, Free Press, N. Y. 1964, p. 195.

الشيخوخة في المجتمع الانساني المتغير

زيادة انتاج العامل وتضاعفه من ناحية ، وعدم حاجة الصناعة في كثير من الاحيان الى كل الايدي العاملة المتاحة ، واحلال الآلة محل الانسان وبخاصة حين تتقدم السن بهؤلاء العمال ، كل ذلك ساعد على تضخم مشكلة الشيخوخة بحيث اصبحت تحتاج الى تضافر كثير من القوى لدراساتها وايجاد الحلول المناسبة لها وذلك بعد أن فقدت العائلة الممتدة وظيفتها ومبررات وجودها .

ولقد شغلت الازدهان مشكلة السن التي يمكن عندها أن يتقاعد المرء عن أداء عمله المألوف المعتاد ، أو التي ينبغي على المجتمع أن يجبره عندها على التخلي عن عمله والكف عن ممارسته ، وإن كان يبدو أن معظم الدول في الوقت الحالي ترى أن السن المناسبة لذلك هي الفترة بين سن الستين والسبعين ، وإن كان هذا التحديد لا يخلو من التعسف . ذلك أن مثل هذا التحديد ، وإن كان يرتكز بغير شك على كثير من الاعتبارات الاجتماعية والعملية يفشل الفوارق والاختلافات الفردية ، مثل القدرة الفيزيكية الفعلية على العمل والأداء ، والحالة الصحية عند مختلف الافراد ، والوضع المالي للفرد وحاجته الى العمل وإلى المحافظة على مركزه الاجتماعي ومكانته في العائلة والمجتمع ، وقدرته على الاحتفاظ بعمله وممارسته على مستوى معقول ومقبول . وثمة شواهد وأدلة كثيرة تشير إلى أن معظم الذين يحالون إلى المعاش لبلوغهم سن التقاعد التي ترتبط بمرحلة الشيخوخة من وجهة نظر المجتمع إنما يميلون إلى الاستمرار في أداء عملهم ، أو على الأقل القيام بعمل ما يستطيعون أن يكسبوا منه بعض الدخل من ناحية ، وإن يرتبطوا عن طريقه من ناحية أخرى بالحياة الاجتماعية وبالمجتمع مما يشعرهم بأنهم لا يزالون قادرين على أن يؤديوا أعمالاً يحتاج

في العلاقات داخل الوحدة الانتاجية وبين المشتركين في العمل الواحد . (١٢) واحد المظاهر الهامة لهذه الشيخوخة وما يترتب عليها من تغير العلاقات داخل العمل هو ظاهرة التقاعد عن العمل أو الاحالة إلى المعاش حين يبلغ العامل سناً معينة يفترض عندها أنه لم يعد قادراً على العمل والانتاج حسب المستويات المطلوبة على ما أشرنا إليه .

ويعتبر التقاعد عن العمل — من حيث هو نظام اجتماعي له قواعده المحددة — ظاهرة حديثة نسبياً حتى في المجتمع الأوروبي والأمريكي ، كما أنه يشكل نوعاً من التحدي لنمط جديد من الحياة يختلف كل الاختلاف عن النمط المألوف الذي اعتاده المرء أثناء حياته العاملة النشيطة . ففي المجتمعات الريفية وقبل الصناعية ، أو المجتمعات التقليدية والبسيطة عموماً وكذلك في العصور السابقة على الثورة الصناعية نجد أن نسبة ضئيلة جداً من السكان هي التي كانت تعيش حتى سن متقدمة وتصل إلى مرحلة الشيخوخة الفيزيكية ، أي أن عدد الشيوخ في هذه المجتمعات قليل نسبياً بحيث لا يؤلفون مشكلة اجتماعية خاصة ، وإن العائلة الممتدة كانت تتحمل مسؤولية العناية بهم وبدل الرعاية الضرورية لهم ، فضلاً عن أن الشيوخ أنفسهم كانوا يساهمون في مختلف أوجه النشاط الاجتماعي والاقتصادي بما يتناسب مع حالتهم الفيزيكية والذهنية . إلا أن تقدم الخدمات والرعاية الصحية وتقدم الطب وما يترتب عليه من إطالة فترة الحياة وبالتالي ازدياد عدد الشيوخ في المجتمعات الأكثر تقدماً ، وكذلك الانجازات العلمية والتكنولوجية التي أمكن تحقيقها وما يترتب عليها من ظهور اختراعات كثيرة ، واستخدام القوى الميكانيكية والآلية في الانتاج بدلاً من القوى العضلية ، مما أدى إلى

اليها غيرهم من الناس ، وان لهم بالتالى وظيفة يقومون بها فى المجتمع الذى ينتمون اليه . ولكن الوضع يختلف بطبيعة الحال بالنسبة لصاحب العمل الذى يرى ان العنصر الاساسى الحاسم فى ذلك هو مدى كفاءة العامل او الموظف وقدرته على الانتاج ، فضلا عن الرغبة المشروعة فى استخدام ثلث اصغر سنا لقدرتهم ليس فقط على العمل بل وايضا على التكيف مع الازواضع الجديدة المتغيرة وعلى استيعاب التجديدات ، بل والقدرة على الابتكار وعلى الخلق والتجديد . (١٣)

واذا كان التقاعد يعنى بداية مرحلة جديدة بالنسبة للشيوخ فانها مرحلة لا تخلو من متاعب ومشكلات وصعوبات ، وربما كان اصعب هذه المشكلات التى تواجه الانسان بعد تقاعده هى مشكلة التكيف مع الازواضع الجديدة التى يجد نفسه فيها . وقد اجريت بعض الدراسات فى الخارج حول هذا الموضوع لمعرفة مدى قدرة الاشخاص الذين ينتمون الى مهن واعمال وطبقات اجتماعية ومستويات ثقافية مختلفة على التكيف مع هذه الازواضع الجديدة التى تحيط بهم ، ويبدو من تلك الدراسات ان المشكلات الرئيسية التى يحس هؤلاء الشيوخ المتقاعدون بضرورة ايجاد حل لها هى مشكلة ضمان توفير دخل يكفى لاشباع حاجاتهم ومتطلباتهم ، بحيث يتوفر لهم مستوى معين من الحياة الكريمة الصحية التى لا تخلو من ممارسة بعض النشاط والمشاركة فى حياة المجتمع ، ثم ايجاد فرص كافية للاتصال بالآخرين وخلق علاقات اجتماعية وصادقات جديدة ، ثم الرغبة الشديدة فى الاحساس

بالمحبة والعطف ، اعنى حب الآخرين وعطفهم وحنوهم ورعايتهم لهم . ومع ان معظم هذه الدراسات تبين ان غالبية الشيوخ المتقاعدين يتكيفون بشكل او باخر مع ظروفهم الجديدة ، فثمة اعداد كبيرة منهم تشعر بالضيق والحيرة واتعدام الهدف وخلو الحياة من معنى ، وان كان ذلك لا يمنعهم من ان يبذلوا الجهد للتشبث بادوارهم القديمة التى كانوا يقومون بأدائها ، او بالبحث عن دور جديد مفيد وفعال ، وتوفير درجة معقولة من الأمن والطمأنينة . ومع ذلك فان ثمة اتفاقات فى كل هذه الدراسات والبحوث على ان الشيوخ المتقاعدين فى المجتمعات الصناعية الحديثة يعانون من انخفاض واضح فى مستويات الحياة سواء فى السكن او فى نوع الطعام او فى الحالة الصحية ، وذلك فضلا عن الانسحاب الجزئى او الكامل من الحياة الاجتماعية ، او على الاقل القدرة على المشاركة بطريقة فعالة فى النشاط الاجتماعية المنظمة . ولكن لعل اشد ما يثير فى نفوسهم الالم هو الشعور بأنهم يمثلون عبئا على اولادهم . ويزيد من حدة هذا الشعور انصراف الاجيال الشابة عن اعطاء هؤلاء الشيوخ ما يحتاجون اليه من رعاية وعطف وعناية نتيجة لانشغالهم هم انفسهم باعباء الحياة المتزايدة فى القسوة (١٤) .

وكان لابد لهؤلاء الشيوخ من ان يعثروا على بديل يعوضهم عن المصادر السابقة التى يستمدون منها العطف والمحبة والاعزاز ، التى تزودهم بشبكة العلاقات الاجتماعية التى كانوا يدخلون طرفا فيها . فاستقلال الابناء اقتصاديا وانتقالهم من موطن الإقامة

Tibbitts, op. cit., p. 196.

(١٣)

(١٤) من الدراسات الهامة التى عرضت لهذه المشكلات :

Susan H. Kubie and Gertrude Landau, Group Work with the aged, International Universities Press, N.Y. 1953 ; Retirement Policies and the Railroad Retirement System, Washington D.C. : Government Printing Office, 1953 ; Heron, A., Preparation for Retirement ; Solving New Problems, National Council of Social Service, London 1963.

وتقوم بوظائفها فيما يتعلق بالعناية بهؤلاء الشيوخ ، وذلك رغم الفجوة الواسعة الهائلة التي تفصل بين الحكومة والفرد . والملاحظ انه على الرغم من تزايد عدد الشيوخ والمسنين في كل المجتمعات الانسانية بدون استثناء ، نتيجة لتقدم الرعاية الصحية والخدمات الطبية بالذات ، أن الشيوخ لا يؤلفون قوة ضاغطة على الحكومات في أى من تلك المجتمعات ، حتى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بحيث يضطرونها الى الاستجابة لمطالبهم . أى أن الشيوخ - من حيث هم فئة متميزة عن بقية فئات المجتمع - يفتقرون الى التنظيم القوى الفعال المؤثر ، وإن كانت النقابات والاتحادات العمالية والمهنية المختلفة قد استطاعت ان تحقق الكثير من المزايا لعضائها الذين يصلون الى سن التقاعد ، بحيث توفر لهم في شيخوختهم درجة معينة من الحياة الكريمة المريحة . ولكن الشيوخ - كشيوخ ، أو كفئة بصرف النظر عن أعمالهم أو مهنتهم أو تخصصاتهم الاصلية وغير ذلك من عوامل التفاوت والتفاضل - ينقصهم ذلك التنظيم الذي يمكن ان يضمهم جميعا ويتكلم باسمهم كفئة ، ويطالب بحقوقهم كما هو الحال مثلا في تنظييمات الشباب . وليس من شك في ان الحكومات تعطى في الوقت الحالي اهتماما متزايدا لمشكلات الشيوخ والشيخوخة وتضع القوانين والتشريعات التي تكفل ضمان حقوقهم . ولكن مهما يكن من أمر هذه الجهود فإن الحكومات بكل تنظييماتها ومؤسساتها وأجهزتها التي تسخرها للسهر على رعاية الشيوخ لا يمكن أن تكون بديلا حقيقيا يحل محل العائلة الممتدة القديمة رغم قصور الامكانيات المادية للعائلة . فكل هذه المؤسسات والاجهزة لا تستطيع ان تعطي الشيوخ ما يحتاجون اليه حقا من دفء الصداقة والرفقة الحقيقية التي يشعر بها المرء بين افراد عائلته وبخاصة حين

الاصلى وثبعثرهم للبحث عن عمل يعتبر بغير شك خسارة عاطفية هائلة للأباء الشيوخ يصعب عليهم تعويضها ، كما انه يفرض على هؤلاء الشيوخ حياة الوحدة والحرمان من العلاقات القرابية والعائلية التي كانت تؤلف جزءا كبيرا من نشاطهم واهتماماتهم اليومية . ويزيد ذلك الشعور بالوحدة والعزلة عن حياة المجتمع حين يفقد المرء زوجه أو أصدقاءه مما يضع كثيرا من القيود والتحديدات على عالمه الاجتماعى وعلى نطاق علاقاته الشخصية بأفراد المجتمع الذى يعيش فيه . وهذا الانسحاب من المجتمع والحياة الاجتماعية يتم تدريجيا بحيث لا يكاد المجتمع أو حتى الفرد نفسه يشعر به في اول الامر الى ان يسلم الفرد في النهاية الى نوع من العزلة تكاد تكون تامة ، وبحيث يقع الفرد نفسه في ظل النسيان ممن يعيشون حوله كما بينت دراسة تاونسند ، وإن كان الكثيرون من الشيوخ ، وبخاصة الذين قاموا بأدوار هامة اثناء حياتهم العاملة والنشيطه ، كثيرا ما يقاومون هذا الميل الى التراجع والانسحاب من الحياة العامة ، ويحاولون الاستمرار بقدر الامكان في ممارسة نشاطهم بشكل أو بآخر ، لانهم يجدون من الصعب عليهم النزول عن المكانة التي كانوا يتمتعون بها أو التفريط في حقوقهم وسلطتهم . ولكن النتيجة النهائية على أى حال والطابع العام السائد الذى يطبع حياة الشيوخ هو ازدياد الشعور بالوحدة والانعزال والانحصار داخل دائرة من العلاقات الاجتماعية التي تضيق بالتدريج (١٥) .

وهذا كله من شأنه أن يلقى مسئولية رعاية هؤلاء الشيوخ والمسنين على عاتق المجتمع ككل ، أو على عاتق الدولة التي يتعين عليها ازاء هذه التغيرات العميقة في العلاقات القرابية والعائلية التقليدية ان تحل محل العائلة الممتدة

تتقدم به السن ، ولذا فانه رغم كل الجهود التي قد تبذلها بعض الحكومات والهيئات لتهيئة واعداد بيوت للشيخوخة والعجائز وتزويدها بمختلف وسائل التسلية والتثقيف ، ومحاولة شغل أوقات هؤلاء الشيخوخ فان الشعور والانعزال والتمركز حول الذات يظل مسيطرًا عليهم . ويكشف هذا الشعور عن نفسه في كثرة الشكوى والتدسر التي تميز حياة الشيخوخة ، وهي شكوى تمتد في كثير من الاحيان الى كل الاوضاع العامة السائدة في المجتمع ، وتتخذ شكل المقارنة بما كان يحدث في العهود السابقة ، وان كانت هذه الشكوى تصل الى ذروتها فيما يتعلق بانصراف الأبناء والاقارب عن الاهتمام بهم واعطائهم ما يستحقونه من رعاية ، وما هم بحاجة اليه من عطف .

وعلى أية حال فالملاحظ هو ان الحكومات في محاولتها رسم سياساتها الخاصة برعاية الشيخوخة تتخذ بوجه عام احد اتجاهين متعارضين تماما .

فاما الاتجاه الاول فانه يقوم اساسا على الايمان باستقلال الفرد في اتخاذ قراراته ورسم حياته بنفسه دون تدخل من السلطات ، وان ذلك يجب أن يكون الحال فيما يتعلق بالشيخوخة . ولذا يرسم أصحاب هذا الاتجاه سياستهم على أساس ضمان تحقيق استقلال هؤلاء الشيخوخ والمسنين والعجزة وتوفير حرية الحركة والعمل لهم بحيث يستطيع كل منهم أن يأخذ زمام المبادرة بنفسه مثلما كان يفعل خلال مراحل حياته السابقة قبل أن يصل الى مرحلة الشيخوخة . وهذا معناه ان رعاية الدولة للشيخوخة يجب ان تأخذ في الاعتبار امكان توفير الظروف التي تساعد الفرد على أن يختار بنفسه أسلوب حياته اثناء الشيخوخة ، وهذا الاتجاه يسخر من الاعتقاد السائد عن كثير من الناس من أن المرء يفقد استقلاله وقدرته على اتخاذ القرارات حين تتقدم به السن ويصل

الى الشيخوخة الفيزيائية . ولذا فان المهم عند اصحاب هذا الاتجاه هو الكشف عن مصادر القوة الكامنة في الفرد ، وعن المقومات الاساسية في شخصيته وتكوينه لاتي تساعد على الاحتفاظ باستقلاله وكيانه المتميز ، وانه لا بد للمرء من ان يتنبه في مرحلة مبكرة من حياته الى مرحلة الشيخوخة التي سوف يصل اليها في وقت من الاوقات ، ان طالت به الحياة وطال به العمر ، وان يستعد لهذه المرحلة ليس فقط بتوفير ما قد يحتاج اليه حينئذ من مال او ممتلكات ، بل وايضا عن طريق تنمية اهتمامات جديدة يمكن أن تملأ عليه حياة الوحدة والوحشة والفراغ . وهذا كله كفيل في آخر الامر بان يجذب الشخص المسن الى حياة المجتمع من جديد ، بحيث يشارك في حياته وحياة الجماعة ويقوم بدور ايجابي فعال في حياة ذلك المجتمع .

وأما الاتجاه الثاني فانه على العكس من ذلك تماما يأخذ في الاعتبار سلبية الفرد وبخاصة حين يصل الى مرحلة الشيخوخة . فالشيخوخ بحكم واقعهم وضعفهم وتدهور قواهم الفيزيائية والذهنية لا يستطيعون ان يهتموا بانفسهم او أن يعطوها ما تستحقه من عناية ورعاية . كما أن الفرد بطبيعته قلما ينتبه اثناء شبابه الى ما سوف يؤول اليه امره بمضى السنين . وبذلك فانه قلما يأخذ عدته للمستقبل ، وان يعمل مقدما على توفير ما سوف يحتاج اليه حين يصل الى الشيخوخة . ولقد وصلت الحياة الحديثة الى درجة من التعقيد يعجز معها الشيخوخ عن أن يواجهوها وحدهم وبدون عون من الدولة ذاتها ، ومن هنا كان اصحاب ذلك الاتجاه يرون أن من أهم مايجب على الدولة ان تضطلع به هو أن توفر للشيخوخ والمسنين والعجائز من أعضاء المجتمع الضمانات المادية والاجتماعية التي تسمح لهم بأن يمضوا الفترة الباقية من حياتهم دون أن يشغلوا انفسهم بأمر العيش

الشيخوخة والعجائز في المجتمع العربي المعاصر ، كما أن الجامعات العربية لم تول هذا الموضوع ما يستحقه من عناية واهتمام ، على الرغم من أن العالم العربي مقبل الآن على تغيرات سريعة وعميقة نتيجة للاتجاه نحو التصنيع والتحديث ، وما سوف يترتب عليهما من تغييرات في البناء الاجتماعي والنظم الاجتماعية وأنساق القيم والثقافة التقليدية والعلاقات بين الناس وبخاصة داخل نطاق العائلة . وإذا كان الشيخوخة في مجتمعاتنا لا يزالون يجدون الكثير من الرعاية والاحترام والمراعاة ، ولا يزالون يلعبون دورا في الحياة الاجتماعية ، وإن كان يختلف من مجتمع لآخر ، فإن ذلك يرجع في المحل الأول الى روح التكافل الاجتماعي الذي يركز كما رأينا من قبل على الروابط القرابية والعائلية التي تستمد قوتها من القيم التقليدية المتوارثة ، وهذا كله سوف يتعرض للتغير بغير شك نتيجة للاتجاه نحو الحياة الحديثة ، وبذلك فإن مكانة الشيخوخة والنظرة اليهم والى الشيخوخة سوف تتغير بدورها . وقبل أن تظهر المشكلة بنفس الحجم الذي نجده في المجتمعات الأوروبية الحديثة قد يكون من الخير أن نعد لها العدة من الآن عن طريق الدراسة والبحث ، ليس لكي نمنع وقوع المشكلات والصعوبات المتعلقة بالشيخوخة ولكن لكي نخفف من وقعها ومن آثارها بقدر الامكان . وسوف يتطلب ذلك بالضرورة اتخاذ خطوات إيجابية مدروسة لتحديد موقف المجتمع من الشيخوخة وأعدادهم لمواجهة الظروف الجديدة التي سوف يجدون أنفسهم حيالها .

والذي يبدو للمرء من دراسة الأوضاع في المجتمعات الصناعية الحديثة هو أنه مع التسليم بكل ما فعلته المدينة الغربية الحديثة في مجال اطالة فترة الحياة بالنسبة للغالبية

أو الخوف من المرض . ويقول آخر فإن ما يحتاج اليه الفرد حين تتقدم به السن ويصل الى مرحلة الشيخوخة هو مختلف الخدمات الاجتماعية والصحية والترفيهية دون أن يحمل هو نفسه ما لا يطيق من أجل البحث عنها ، أو من أجل أن يثبت لنفسه وللآخرين أنه لا يزال قادرا على المشاركة في حياة المجتمع والقيام بدور ايجابي يعود بالخير على الآخرين . (١٦)



وأيا ما يكون موقف الحكومات والمؤسسات من الشيخوخة والشيخوخة فالشيء الواضح الآن هو أن الشيخوخة تعتبر من أهم المشكلات الرئيسية التي تواجه المجتمعات الحديثة والتي تشغل بال الكثيرين من العلماء من مختلف التخصصات . ولقد كان معظم اهتمام العلماء في الماضي موجها الى النواحي الطبية والبيولوجية كما ذكرنا ، وفي هذين المجالين بالذات تتمثل أهم الاسهامات في بحوث الشيخوخة ، ولا تزال هذه النواحي تحظى حتى الآن بكثير من العناية ، بينما قليل جدا من البحوث تعرضت للجوانب الانسانية والاجتماعية للمشكلة رغم أنها تتصل في المحل الأول بالفرد من حيث هو انسان وعضو في مجتمع . ولقد جاءت هذه الاسهامات متأخرة نسبيا ولكنها حققت كثيرا من النجاح وكشفت عن ميادين كثيرة غنية وعميقة ، وإن تكن هناك ميادين أخرى أوسع وأرحب وأعمق لا تزال مجهولة وتحتاج الى كثير من البحوث والدراسات الميدانية الجادة في مختلف المجتمعات والثقافات . ومما يؤسف له أننا هنا لم نكد ننتبه الى هذا الموضوع الحيوي ، ولم تقم حتى الآن أية دراسات جدية حول المشكلات الاجتماعية الواقعية التي يواجهها

Havighurst, R. J. ; " Life Beyond Family and Work ", in Burgess, op.cit., (١٦) pp. 303-4.

الحياة ، وتميزه تماما عن مرحلة النضج والرجولة الكاملة فان الباحثين عموما يميلون الى أن يعتبروا الشيخوخة مجرد امتداد بأئس وتعييس لمرحلة النضج والرجولة ، وانها بذلك تمثل نوعا من التراجع والتدهور والاضمحلال والهبوط عن المستويات والمعايير التي يحققها الانسان الناضج المكتمل الرجولة حين يبلغ أواسط العمر ، وذلك بدلا من أن ينظروا الى الشيخوخة على انها تمثل نوعا من التحدى لنمط من الحياة له آفاق مختلفة وجديدة تماما في تجربة الحياة . والواقع أن هناك من الاسباب والمبررات ما يدعو لأن ننظر الى الانتقال لمرحلة الشيخوخة وما يصاحبه من تغيرات هامة وحيوية في شخصية ونفسية وعلاقات الشخص بالمجتمع بنفس النظرة التي ننظر بها الى الانتقال من المراهقة الى النضوج ، والى أن نعطي لمرحلة الشيخوخة نفس العناية التي حظيت بها مرحلة المراهقة . بل أن مجالات البحث في مرحلة الشيخوخة باعتبارها تجربة فريدة ومتميزة في حياة الانسان ، وما قد يمر به المرء من تجارب ويتعرض له من اساليب وأنماط سلوكية جديدة قد تجعل البحث في الشيخوخة أكثر إثارة من البحوث التي أجريت على مرحلة الشباب مثلا .

ثم هناك نقطة أخيرة يوجه النظر اليها كثير من العلماء وهي أن الباحثين حين يتكلمون عن الشيخوخة يركزون كلامهم في الأغلب على « المشكلات » ويكادون لا يتكلمون عن انجازات الشيخوخة او امكاناتها أو عن الفرص المتاحة للشيخوخ في حياتهم الجديدة أو التي يجب العمل على استغلالها والافادة منها . فهم يصورون الشيخوخة كما لو كانت « لعنة » - كما يقول سيمونز - بدلا من أن يعتبرونها مرحلة عادية وطبيعية من مراحل العمر التي

العظمى من السكان في تلك المجتمعات نتيجة لتقدم الطب بالذات فان هذه المدنية الحديثة ذاتها أساءت اساءة بالغة لكثير من الاساليب القديمة التي كان الشيوخ يعتمدون عليها في تكيفهم مع واقع الحياة ومع الظروف الجديدة التي يواجهونها بحكم شيخوختهم . بل أنه يمكن القول ان اساليب المدنية الحديثة في حل مشكلات الشيخوخة تكشف عن كثير من نواحي النقص والقصور اذا هي قورنت بالاساليب والازواضع التقليدية القديمة التي كانت تسهم اسهاما كبيرا في أن يمضى الشيوخ الفترة الأخيرة من حياتهم وهم ينعمون بغير قليل من الطمأنينة والسعادة وراحة البال ، وهي العناصر التي تؤلف ما يجب بعض الكتاب أن يسموه « الشيخوخة الناجحة » ، ايا كان المقصود من هذه التسمية . وربما كان الدرس الذي يمكن استخلاصه من كل البحوث والدراسات التي أجريت حتى الآن عن الشيخوخة في مختلف الشعوب والمجتمعات هو - كما يقول سيمونز Simmons (١٧) - أن المعلومات الاساسية للشيخوخة الناجحة - بالاضافة الى الراحة النفسية التي اشرنا اليها - تتركز بعد كل شيء على قدرة الافراد أنفسهم على التلاؤم بنجاح مع الاطار الاجتماعي السائد في العصر الذي يعيش فيه هؤلاء الافراد ، ولقدرتهم على توكيد حقوقهم في اطالة فترة اسهامهم في الحياة الاجتماعية ، واجبار المجتمع على الاعتراف بهم لاطول فترة ممكنة ، ثم قدرتهم على ان يدركوا متى ينبغي عليهم أن يتوقفوا عن ذلك كله .

ولعل مما يلفت النظر حقا في موضوع الشيخوخة أننا نجد أنه في الوقت الذي اهتم فيه العلماء والباحثون من مختلف التخصصات بدراسة المراهقة كمرحلة فريدة في تجربة

(١٧) Simmons, Leow. ; " Social Participation of the Aged in Different cultures ", The Annals of the American Academy of Political Science, Vol. 279, p. 50.

الشيخوخة في المجتمع الانساني المنفرد

قدرات وكفاءات ومهارات وخبرات يستطيعون ان يقدموها للمجتمع وأن يفيدوا بها غيرهم . ان علينا أن نكشف عن القدرات والامكانيات الكامنة عند الشيخوخ ، وأن نعمل على تنمية هذه القدرات والامكانيات وتطويرها الظروف الاجتماعية القائمة . وهذا كله سوف يتطلب في آخر الامر أن نراجع موقفنا ونظرتنا الى الشيخوخة ، وأن نعيد تقييمنا لأساليب البحث والدراسة والموضوعات والجوانب التي يمكن ان نهتم بها في دراستنا للشيخوخة وحياة الشيخوخ .

سوف نصل اليها جميعا ، ان لم يكن هناك من الاسباب ما يمنع دون ذلك ، وان لم تحدث الوفاة في سن أصغر لسبب من الاسباب ، والتي يجب لذلك أن نهىء أنفسنا لها باعتبارها تجربة تستحق أن يخوضها الانسان بكل قوة وعمق . ومن الملاحظ أيضا ان معظم الدراسات التي أجريت على الشيخوخة تميل الى توكيد وإبراز ما يقدمه - أو ما يجب أن يقدمه المجتمع للشيخوخة والمسنين والعجائز بدلا من أن تحاول البحث عما يمكن لهؤلاء الشيخوخ والمسنين والعجائز ان يكتشفوه في أنفسهم من



أهم المراجع

- Birren, J. E. ; (ed.) Handbook of aging and the Individual, Chicago 1959.
- Bromley, D. B. ; The Psychology of Human Ageing, Penguin, London, 1966.
- Burgess, E. W. ; (ed.) Ageing in Western Societies, Chicago 1969.
- Clark, F. Le Gros ; Growing Old in a Mechanized World, Nuffield Foundation, London 1960.
- Comfort, A., ; The Process of Ageing, Signet, N.Y. 1964.
- Eisenstddt, S. N. ; Comparative Social Problems, Free Press, N.Y., 1964.
- Felstein, I. ; Later Life : Geriatrics Today and Tomorrow, Penguin, London 1969.
- Gilbert, Jenne G. ; Understanding Old Age, Ronald Press, N.Y. 1952.
- Havighurst, R. J. and Albrecht Ruth ; Older People, Longmans, N.Y. 1953.
- Lehman, H. C. ; Age and Achievement, Princeton U.P. 1953.
- Munn, N.L.; Evolution and Growth of Human Behaviour ; Houghton Muffin, Boston 1955.
- Rosset, E. ; Ageing Process of Population, Pergamon Press, Oxford 1964.
- Sheldon, J. H. ; The Social Medicine of Old Age, O.U.P. 1948.
- Towns end, P., The Family Life of Old People, Penguin, London 1963.
- and Wedderburn, Dorothy ; The Aged in the Welfare State, Bell London 1965.
- Zubek, J. P. and Solberg, P. A.; Human Development, McGraw-Hill, London, 1954.

ميكلا نجلو

(بمناسبة ذكرى مرور خمسمائة عام على مولده)

د. ثروت عكاشة

عام واحد للالتحاق بمدرسة النحت في حدائق آل مديتشي حيث عاش بين تماثيل العصر الكلاسيكي التي تضمها مجموعة لورنزو العظيم . وهناك ينحت رأس تمثال لجنى صغير (فون) يراها الأمير لورنزو حاكم دوقية فلورنسا فتبهره مواهب الصبي ميكلا نجلو ، ويدعوه للاقامة في قصره وسط مجموعة الفلاسفة والادباء والشعراء الذين صاغوا فلسفة المذهب الانساني خلال مناقشات طويلة ، كان ميكلا نجلو يتشربها وتتسلل الى اعماق نفسه ، فاذا بها تشكل خلفيته الفكرية التي تظل متوثبة في وجدانه طوال عمره .

منذ خمسمائة عام على وجه التحديد وشمس النهضة الايطالية تتوهج ، ولد طفل انفصل من أيامه الأولى عن أبيه القاضي المتقاعد وعن أمه ليعيش في كنف زوجة عامل في محاجر الرخام ، فاذا الطفل يرضع مع لبن حاضنته حب الرخام ونحته وتشكيله ، واذا بأمه تموت بعد ستة أعوام وهو بعيد عنها فحرم من حنانها الى الأبد .

وما يكاد يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى ينضم الى مرسوم الأخوة « جيرلا ندايو » ليتدرب على انجاز رسوم الفريسك الجدارية، لكن هواية النحت تجتذبه الى ترك المرسوم بعد

كان دعاة المذهب الانساني قد اكتشفوا في الحضارة اليونانية القديمة انماطا فكرية وفنية أكثر ثراء وخصوبة ، فتأقوا الى التوفيق بين الافكار والاشكال الوثنية وبين الاعراف المسيحية ، وراوا في الأفلاطونية مثلهم الأعلى، فهموا بتطبيقها في سلوكهم ومنجزاتهم .

على أن تأثر ميكلانجلو بأفلاطون كان مرنكزا على عدة نقاط في فكره ستكون نبراسا نستهدي به في أعمال ميكلانجلو الفنية . كانت محاوره أفلاطون « تيمائوس » عن الخلق والتكوين ، وكذلك محاوره « المادبة » (سمبوزيوم) عن الحب والجمال أكثر ما شدد ميكلانجلو الى أفلاطون ، ولم يلبث أن صاروا السلف الفلسفي لجميع أعمال ميكلانجلو الفنية .

شده الى أفلاطون نظرتة الفلسفية الى المثلث والدائرة والمربع بوصفها الاشكال الخالدة التي تهيء مفتاحا لطبيعة الكون الحق حتى قال في محاوره فيليبوس : « ليس ما أعنيه بجمال الاشكال ما يراه الناس عادة جميلا أو يحسبونه كذلك وراء ما برونه من كائنات أو صور لهذه الكائنات ، وإنما الجميل عندي قد يكون حزمة من الخطوط المستقيمة وما ينتج عنها من مسطحات وكتل شكلها الفرجار والمنقلة والمثلث ، لكنها فريدة في ذاتها ، ينطلق جمالها من نبع روحها ، يعيش لاصقا بها الى الأبد » .

وأغراه التثليث الأفلاطوني الذي قسم الوجود الى مستويات ثلاثة هي عالم الوهم والخيالات ، وعالم الصيرورة المادي المتغير ، والعالم العقلي ، والتي على أساسها قسم المجتمع البشري الى طبقات ثلاث أيضا : المنتجون من العمال والزراع ، والمحاربون ، والفلاسفة والحكام ، ورمز لهم على التوالي بالنحاس والفضة والذهب ، وحدد لكل طبقة

هدفا : الكسب للعمال ، والطموح للمحاربين ، والهيام بالحقيقة المطلقة للفلاسفة ، كما قسم التعليم الى مراحل ثلاث : الجهل والرأي والمعرفة . وجعل للنفس الانسانية ثلاث ملكات : الشهوانية والوجدانية والعقلانية ، وزعها على ثلاثة مواضع : المعدة والصدر والرأس . وجعل للملكة العقلية اسمى المهام وهي نشدان الخلود ، فالانسان بحكم ذكائه « كالشجرة لا تضرب بجذورها في الارض بل تشب بفصولها الى السماء » . ومن ثم كان العنصر العقلاني في النفس هو الذي يرتفع بنا من الارض « الى اشباهنا القابعة في السماء » . وهو ما سوف نرى تطبيقه العملي المذهل في تصوير ميكلانجلو بسقف مصلى سيستينا .

كما تصور أفلاطون صعود الانسان من أدنى مراتبه حتى بلوغ أصله الالهى . وفي هذه العودة الى العالم الالهى ، تدرك النفس الاله ، وهي مازالت في أسار سجنها الدني تصارع من أجل ذلك ، وتبذل الجهد والمعاناة فتنتقل من المحدود المتناهي الى الانلامحدود اللانهائى ، حتى تنفلت من الاسر المادى الى الحرية الروحية والخلود .

ولذلك كان أفلاطون يكن للحياة الدنيوية احتقارا عميقا ، فهو يعدها عبئا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لأصله الالهى وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلى الذى سقط منه فى الاصل ، على ما سوف نرى في تماثيله للأسرى .

ويسمينا أفلاطون في « المادبة » صوت أريستوفانس شاعر الملهة يتحدث عن الحب قائلا : « سمعت على لسان الكاهنة ديوتيميا أن الكائنات كانت مركبة : أما من جنس مذكر خالص أو جنس مؤنث خالص ، أو من الجنسين معا . وعندما تعالت هذه الكائنات على الآلهة

والتصوير والعمارة والشعر . وإذا كانت عظمة الانسان تكمن في استهائه بالعقبات المادية وشحذه لقدراته العقلية والروحية ، فلا بد من أن نمد ظهور ميكلانجلو أحد الاحداث العظمى في تاريخ الانسانية .

ولما كان العمل الفني بالنسبة لميكلانجلو هو أن يشترك على الدوام في عالم الأفكار ، جاءت كل انجازاته الفنية فلسفية كما هي جمالية ، وثنية كما هي متدينة ، وأفلاطونية كما هي مسيحية .

ففي عالم النحت حمل تمثال (باكخوس) اله الخمر المبكر (لوحة ١) بصمات وثنيته الدفينة بحيث لا تكاد تفرق بينه وبين تماثيل العصر الكلاسيكي ، ومالبت تمثاله التالي « العذراء الآسية (بيتيا) » أن كشف عن ايمانه الدينى الصادق (لوحة ٢) .

وفي عالم التصوير جمعت رسوم ستيف مصلى سيستينا العرافات الوثنيات (لوحة٣) جنبا الى جنب مع الانبياء العبريين (لوحة٤) كما أفسحت المكان للنظرية الافلاطونية عن العودة الى العالم الالهى ، الى جانب نظرية الخلاص المسيحية .

وتجىء لوحة يوم الحساب في عنفها وضراوتها الشبيهة بسفر الرؤيا في الروعة والترهيب لتتجاوز الشخصيات الأسطورية مثل شخصية خارون حارس العالم السفلى لدى الاغريق مع شخصيات العهد القديم والجديد .

وتمثل سنوات حياته الأخيرة مرحلة من التبتل والورع المسيحى لم تنطفىء معها شعلة الافلاطونية في أعماقه . ففي الوقت الذى كان يمنح جهده كله لخدمة العقيدة المسيحية كان

عاقبتها بأن شطرتها الى أنصاف . ومن هنا جاء نزوع الانسان اما الى مثيله او الى الجنس الآخر وفق الكائن الذى انحدر عنه .

كذلك كانت تلج على ميكلانجلو نظرة أفلاطون بأن الانسان قد عب مرة من مياه نهر النسيان فأنسى أصله الالهى ، حتى اذا رأى امرأة جميلة ذكرته بأصله الالهى . ولكن لا يلبث الاغراء الجسدى والجمال الزاوى أن يشده الى جمال الحقيقة الأبدى . . . ثم فى النهاية الى تأمل حقيقة الحق والخبر الخالدة .

وأخيرا رأى ميكلانجلو فى المثل الأفلاطونية روحانية مطلقة ، وعشق الجمال بوصفه مثالا مطلقا أزليا أبديا ، تحتفظ الروح الانسانية بذكرى مبهمة لمعيشته في ماض بعيد سابق على الحياة فوق الأرض ، فلا تنفك - الروح - تعشق ذلك الجمال وتصبو اليه وتبحث عنه .

لقد آمن ميكلانجلو أن على العاشق أن يسمو من الحب الجسدى الى الحب الروحى ، الى حب الجمال المثالى الذى هو جزء من القداسة والخير . وذلك هو المجال الذى يشتاقه العباقرة والفلاسفة ويطمحون اليه .

كان ميكلانجلو ثنانا شكلته الفلسفة ، شأنه شأن الفنان فيدياس الذى عاش خلال العصر الذهبى الكلاسيكى ، غير أن صوت سافونا رولا الراهب المسيحى التأثير كان يطارد ميكلانجلو ، بينما كان ذهنه مؤهلا لتمثل التجريدات الافلاطونية . فكان قدره أن يظل عقله العاصف نهيا لهاتين الفلسفتين المتصارعتين خلال أعماقه حتى آخر حياته ، مترجما رؤاه فى أشكال درامية مرئية ، فأبدع لنا روائع خالدة فى عالم النحت

ينظم شعرا يفيض بالوهج الأفلاطوني الذي تجلى من قبل :

- في تماثيل العذراء حين عبر عن اتحاد الجمال الجسدي بالجمال الأبدى .

- وفي تمثال موسى حين ربط بين قوى الإنسان المادية والمعنوية وبين الخير الأبدى .

- وفي وقوعه تحت سيطرة الأشكال الأفلاطونية الخالدة التي تهبط مفتاحا لطبيعة الكون والتي تلمسها في سقف مصلى سيستينا (لوحة ٥) .

- وحتى في أشكاله المعمارية المجردة نجده يقيم الأعمدة وكأنها الأسرى ، تشدها انقيود فلا تستطيع فككا من ثقل الحمل المادي الذي لا مفر من حمله (لوحة ٦ ثم ٩ ب) ، على حين تحوم القبة الشامخة عاليا في الكمال الهندسي للشكل الدائري ، الرامز للسماوات التي هبط منها الإنسان والتي يجب أن يلمس طريقه نحوها من جديد .

اننا نقف اليوم في خشوع وذهول ونحن نتأمل هذه العبقرية الفنية التي بزغت في مجالات فنون أربعة هي النحت والتصوير والعمارة والشعر .

وقد ظن فنانون عصر النهضة أنهم توصلوا إلى القواعد الجمالية النهائية المحددة للشكل . وما ينبغي أن ينطوى عليه من توافق، خلال فترة التطور التي أعقبت جوتو ومارشيو وبلغت ذروتها برافائيل ، وإذا بميكلائيلو يضرب عرض الحائط بهذه القواعد في مستهل القرن السادس عشر . وكان واعيا بما يموج في وجدانه من قلق وما يعمل في

داخله من صراع . كان إيمانه التقليدي بالشكل قد وثق روابطه بالنحت أكثر من التصوير مع أنه كان عبقريا في كليهما ، كما شده هذا الإيمان التقليدي بالشكل إلى الجسد الإنساني في الوقت الذي استهان فيه بمشاهد الطبيعة . غير أنه لم يكن راضيا عن التقديس الممنوح للشكل في عصره ، فأطلق في مقابل الشكل نقيضه ، وهو الطافة الكامنة فيه ، التي تطمح إلى التحرر من سجن الشكل ، لكنها لا تملك إلا التمرد وتمزيق بعض القيود ، التي لا تتيح لها إلا أن تطل برأسها فحسب ، بينما يبقى الجسد كله سجيناً .

وقد تجلى كفاحه ضد قواعد الشكل المألوفة في عصره في افتتاحه بموضوع الأرقاء والأسرى المغلوبين ، الذي يعد صياغة جديدة لموضوع هيلنستي قديم ، هو صراع لاوكون كاهن أبو للو الطرواوي ضد الأفاعي الضارية التي أرسلتها الآلهة المناصرة للاغريق ففتكت به هو وبنيه . فنشهد في تماثيله التوكيد على العضلات المتوترة ، بصفتها بفاعلة الحركة المهددة بتفجير أغلال الشكل ، والمعبرة عن تبرم الأرقاء الساخطين بأغلالهم التي تقيّد أطرافهم ، بينما يتجلى الانفعال محتدما في أجسادهم وهي تصارع لتحرر نفسها من قالب الصخر الذي يحاصرها ويطوق حركتها والذي توقف أزميل المثال قبل انفلات الأرقاء من ربقتهم .

لقد تجسدت أزمة الشكل في أوج عصر النهضة في منحوتات ميكلائيلو حيث يبدو الشكل وكأنه يصارع ضد ضغط خانق في التماثيل التي تتجلى قوتها المعبرة في كونها لم تكتمل .

ومن بين تماثيل الأرقاء اثنان بمتحف اللوفر ، يعد تمثال العبد المغلول أقربها إلى الاكتمال (لوحة ٧) .

بوبولى بفلورنسا . ويكاد الصخر أن يمثل سجنًا قاسيًا في هذين التمثالين ، إذ يبدو الأسيران محتجزين بين ثنانيا كتلة الصخر دون سبيل إلى الخلاص منها ، رغم كل ما يبذلانه من جهود . ويشى شكلهما الذى لم يكتمل بأن أسلوب ميكلانجلو فيهما كان قريب الشبه بلوحات فن النقش الشديد البروز .

وما أجمل ما تحدث به ميكلانجلو إلى صديقه وهاديته فيتوريا كولونا عن النحت حين قال في إحدى قصائده :

« ليس فن النحت ياسيدتى هو تشكيل قطعة صخر صلبة ، ولكنه تحرير للشكل من سجن الصخر ، بإزالة الزوائد عن الصورة التخيلية في الذهن للشكل الكامن في الصخرة » .

هكذا كان التمثال لميكلانجلو شكلاً كامناً في كتلة رخام ، ينتظر يد أستاذ النحت البارز كى يولد على يديه ، وكأنه يعبر من خلال تماثيله عن فكرة افلاطون بأن نفس الانسان ما تزال سجنية في جسده حتى ترقى إلى الكمال بواسطة قوة خلاقة تفوقها سموا ورفعة .

وفى تمثال العذراء الآسية « بيتا » لوحة (١١٤٢) يكشف جمال التنفيذ ودقة التفاصيل وإثارة المشاعر عن أن ميكلانجلو كان ما يزال واقفاً تحت تأثير طراز النهضة الفلورنسية .

غير أنا نلمح أن ميكلانجلو قد بدأ بالفعل يدخل بعض التعديلات على النمط الهرمى الشائع وقتذاك ، إذ جعل ثنانيا ثوب العذراء العديدة قاعدة للهرم ورأس العذراء قمة له ، وشكل جسد المسيح على غرار آلهة الاغريق ، بينما احتفظت العذراء رغم شجنتها بالوضعية الكلاسيكية ، فبدت بحق ، الأم راعية الاحزان

ويبدو كأنه يمثل فتى نائماً يقض مضجعه حلم مرعب ، أكثر مما يمثل أسيراً يحتضر كما يحلو لبعض مؤرخى الفن تسميته . فبينما نجد القيود مجرد شرائط رقيقة تعجز عن أن تكون وثاقاً ، تتجلى الروح الجبسة التى تعذبها ذكرى أصولها الالهية ، وكأنما وجدت راحتها في النوم بعد عذاب نفسى ممزق .

ويصون التمثال الآخر المعروف باسم **العبد المتمرد (لوحة ٨)** عنف صراع كائن مغتول العضلات كتب عليه أن يضيع كفاحه هباءً .

وفى كلا التمثالين نشهد نفس الصراع اليائس مع القدر . انها مأساة الانسان الذى يجد الزمن من امكاناته ، ويعيبه ادراك سر الوجود ، ويتطلع رغم فنائه إلى الخلود ، ولا تموجه قيود الجسد عن أن يحلم بحرية بلا حدود .

ولا شك في أن أشكال أرقاء ميكلانجلو ذات وشائج قريى مع نقوش أقواس النصر والاضرحة والتواييت الرومانية ، فان نماذج الأرقاء المفلولين يمكن اقتفاء اثرها في المنحوتات الهيلنستية التى تصور مارسىاس التعس وأبوللو يسلخه حياً لتجاسره وتحديه له فى مباراة موسيقية . كما أن الشبه بين هذا العبد المفلول وذاك المتمرد ، وبين الابن الاصغر فى مجموعة تمثال الكاهن لاوكون فى غير حاجة إلى تعليق جديد .

ونلمس نفس الأثر فى تمثالى الأسيرين المعروفين باسم أسيرى بوبولى (لوحة ٩) ، (١٠) . والمعروف انهما قد صمما كتمثالى كاربائيد بطرفى قاعدة ضريح البابا يوليوس الثانى عام ١٥٣٢ ، غير انهما أستبعدا ، فأهداهما ميكلانجلو إلى الدوق كوزيمو دى ميدتشى الذى احتفظ بهما في كهف بحدائق

شخصية مثالية للبأبا يوليوس الذى كان مشرعاً للقوانين شأن موسى العبرى (لوحة ١٣ أ ، ب) . ويبدو موسى وكأنه تجسيد لقوى الطبيعة ، أو بركان بشرى موشك على ثورة غاضبة على عصيان البشر . ففى سكونه نذير عاصفة ساخطة ، وتكاد قسماته تنطق بالوصايا العشر ، وتحكى لنا قصة صعوده جبل سيناء وحديثه مع ربه . ونكاد نحس أنه قد اتخذ جلسته هذه ليحاسب البشرية من فوق منصة القضاء . ومنذ عهد قريب أبدى المثال الفرنسى أوجست رودان ملاحظة وجيهة بأنه يمكن درجة التمثال من فوق جبل دون أن يتهمش منه أى جزء أساسى .

ويكشف هذا التماسك عن قدرة ميكلائجلو على تطويع الرخام الى الحد الذى يحتشد فيه بالقوى التعبيرية والجيشان المستكن فى ثنائيا الاطواء والمكاسر وعضلات الذراعين المفتولة ، والعقلانية المسيطرة على ملامح الوجه ، والمزاج النارى الملتهب .



وفى تمثيل ضريح مديتى تجلى من جديد روعة النحت التى تجلت فى تمثال موسى وتتكون كل مجموعة من مجموعتى النحت الشهيرتين من شخصية جالسة فى ثياب الحرب المدرعة داخل كوة ، مع شخصية رمزية راقدة على كل جانب من جانبى التابوت .

فيعتمر لورنزدى مديتى (لوحة ١٤) بخوذة مجسدا الرجل المفكر ، على حين يحمل جوليا نودى مديتى عصا القيادة مجسدا رجل المآثر البطولية (لوحة ١٥) . وهكذا يمثل احدهما حياة التأمل والآخر حياة الحركة المفعمة بالنشاط . ولم يصف ميكلائجلو على شخصيات آل مديتى الجالسة أية ملامح ذاتية ، وهو ما أصاب أهل فلورنسا بالذهول أمام هذا المفهوم المثالى . وقد طمأنهم

الجليلة التى لا تهون من شأنها دموع أو أنات . فضلا عن أن ميكلائجلو قد استباح لنفسه تناول مقاييس أشكال بحرية تؤجج تأثيرها التعبيرية ، وتؤكد التوافق والانسجام فى تصميمه ، كما أكثر من الاردية ليضمن فيضا من الاطواء والخطوط ، وصاغ جسد المسيح اصفر حجما من العلداء ليحقق التوازن فى تكوينه ، وأقام تمثاله المثلث بلا كوة داخلها أو خلفية معمارية تدعّمه ، فكان تمثال العلداء الآسية بمثابة اعلان لاستقلال النحت ، كما ينفرد بأنه العمل الوحيد الذى وقعه ميكلائجلو .

وعندما طرد أهل فلورنسا أسرة مديتى وأسسوا الجمهورية عام ١٤٩٤ بزعامة الراهب سافونارولا مضوا يجسدون انتصارهم فى أعمال فنية ذات صبغة وطنية بطولية كان أحدها تمثال عملاق لدواد (لوحة ١٢ ، أ ، ب) قاتل الطاغية جالوت . وهو تمثال هرقل الطابع ، هائل الضخامة يبلغ ارتفاعه حوالى ستة أمتار ، يقف عاريا ممسكاً بمقلّاءه منتظرا وصول جالوت عدو شعبه .

ولو أننا وقفنا عند حد تأمل جسد داود وحده ، لخليل الينا بتوتره وحيويته أنه ينتمى الى العهد الكلاسيكى ، وإلى الطابع الهلينستى على وجه التحديد أكثر مما يحمل طابع القرن السادس عشر . ولكننا ما نكاد نتطلع الى رأسه حتى ندرك القوى الروحية التى لم يعرفها الاقدمون ، وهى تنطق بازدياد المتع الحسية .

وقد انجز ميكلائجلو تمثال موسى ليقام فى ضريح البابا يوليوس الثانى المعروف باسم البابا الرهيب ، وكان قوى الفكر عامر النفس بخشية الله . وإذا كان ميكلائجلو قد تخيل موسى على أنه تجسيد للارادة القوية فقد أراد له فى نفس الوقت أن يكون صورة

المختلفة ، وهو ما ينفرد برنارد بيرنسون بتسميته « القيمة اللسية » . كما أنه اختار موضوعا لرسومه الجسد البشرى الذى كان موضوع تماثيله ، مؤمنا بأنه ليس مثل الجسد البشرى العارى شىء قادر على التعبير عن نفسه ، وعن تنبيه وعينا بكل ما يطرا من تغيرات ، وليس مثله شىء يمكن أن ندركه نحن ، بمجرد تماثله لنا في الصورة التى يتبدى فيها في الحياة اليومية الواقعية ، وليس مثله شىء يمكن أن يثير احساسنا بأننا جميعا نشاركه في تجربة الحياة ، وهو ما جعل ميكلانجلو لا يرى في عالمنا كله شيئا يستحق النحت والتصوير غير الجسد الانسانى ، ليس الانسان العادى الذى يدب فوق الارض كما تدب الالاف ، بل جنس انسانى خاص يتميز بالجلال ، والطاقة ، والقدرة على التعبير والاثارة ، وقد كان ميكلانجلو نفسه انسانا متميزا ، يحيا وحيدا ، زاهدا في متع الحياة المادية . بل ان المرأة الانثى الناعمة الجمال والداقة الفتنة لم تجتذبه في حياته الخاصة ، ولم تشده في حياته الفنية الا في عمل فنى واحد لم يلبث ان اهمله وراء ظهره ، ليقدم لنا جنسا من عالم خياله ومثله .

كان حرص ميكلانجلو على العرى في الاجساد البشرية التى يصورها قائما على ايمانه بأن الأردية تمثل عائقا في ترجمة حركة الجسد البشرى، وفي اثاره احساس المشاهد بالضغوط التى يقاومها الجسد ، والمقاومة التى يبذلها، والنفض الخفى السجين باعماقه . وما دامت الأردية تحول بيننا وبين التأثير المباشر بالطاقة التى يعيشها الجسد المصور ، كان من الضروري تصوير الجسد عاريا ، حتى يمتلك ناصية القدرة على اثارة حسنا بالحركة المتماثلة في توتر عضلاته ، وارتعاش بشرته واسترخاء وضعته ، وتميز أعضائه من ربعة الكتف الى النتوءات التى تطفو فوق جسده كله وكأنها

في سخرية وثقة بالنفس ثبت صدقها فأثلا بأن أحدا لن يذكر بعد الف عام ما كان عليه شكل الدوقين .

وعند قدمى جوليانو يرقد تماثالا الليل والنهار . وتمثل الليل (لوحة ١٦) أنثى تغفو في نعاس ثقيل . ونحن اذا اطلنا النظر في تكوين هذه الأنثى التى تتفجر اثاره ، والتى قد تفرينا فيها الاثداء الشبقة الريانة الممتلئة ، والتى قد تخذعنا سيقانها البضة الفارحة ، فان قدرا أكبر من التأمل سيكشف لنا عن اختباء ملامح غلمانية وراء كل هذا .

فان أفسحنا لصورة هذه الانثى مكانا في ذاكرتنا دقائق قليلة ، ريثما نلتقى بصور غلمان ميكلانجلو المصورين على سقف سيستينا حيث أخفى وراء فتوة غلمانيتهم سحرا انشويا دفيناً ، سوف نصل في النهاية الى اكتشاف عالم غريب من غلمان ميكلانجلو وفتيانه لم يعرفه بعد عالمنا الواقعى .

ويمثل **النهار** (لوحة ١٧) عملاق هرقل الطابع مفتول العضلات يلتفت برأسه من فوق كتفه ، غير أن وجهه غائم القسمات .

فاذا انتقلنا الى تابوت لرونزو نرى الجلال مشرقا على جسدى الراقدين بين النوم واليقظة . ويمثل الرجل الغروب (لوحة ١٨) على حين تمثل المرأة الفجر (لوحة ١٩) وهى صنو الانثى الغافية التى تجسد اللبل في ضريح جوليانو .

• • •

دلف ميكلانجلو من عالم النحت الى عالم التصوير مزودا بملكة اعطاء صورة القدرة على اثاره احساس المشاهد ، فيوهمه بأنه يلمس بأعصاب كفه وأصابعه الجسد المصور حتى لتدور انامله مع انشاءاته واستداراته

لقد جاء اختياره لهذه الزاوية من الموضوع نتيجة إيمانه بقدرة الجسد البشرى العارى على حمل جميع الأفكار والعواطف والتعبير عن مختلف الانفعالات . ولا شك أنه كان أقدر على أن يجسد أفكاره وانفعالاته في عراة النهر أكثر مما يجسدها في حركة الجنود المتطعين صهوات الجياد . ومن المؤسف أن المخطط البدئى الكامل لهذه اللوحة بحجمها الاصلى، وهو التصميم الذى نسميه « بالكرتون » لم يترفق به الزمن اذ فقد بعد أن تحدث عنه بينفينوتو شليني بأنه كان أعظم عمل قدمه ميكلانجلو ، وأنه يمثل بحق « أكاديمية الرسم العالمية » بل أنه يفوق في عظمتة سقف سيسيتينا الذى سنعرض له الآن . (٢٠)



ولقد أضاف ميكلانجلو مثلاً أعلى للجمال مقرونا بالقوة ، ورؤيا لانسانية عظيمة كان يتوق الى رؤيتها تدب على أرضنا يوما من الأيام . فنحن لن نلتقى كثيرا بمثل هذه الفحولة والعنف وقوة التأثير، وتجسيد حلمنا بروح عظيمة تسكن جسدا جميلا ، مثلما نلتقى بالاشكال المرسومة على سقف مصلى سيسيتينا. لقد اتم ميكلانجلو ما بداه مازاتشيو وهو ابداع نمط انساني مؤهل اى تأهيل ، لى يخضع الارض ويسوسها نحو التآلق والحق والخير والجمال .

كان ميكلانجلو مكباً على تشييد الضريح الذى اراد يوليوس الثانى تشييده لنفسه ، غير أن البابا مالبت أن نجاه عن هذا العمل الذى كان قد منحه فكره وقلبه ، وكان على وشك أن يمنحه بقية عمره ، فقد كان يتضمن نحت اربعين تمثالا يفوق كل منها الحجم الطبيعى للانسان ، اكمل منها تمثال موسى الذى عرضناه منذ لحظات ، ولو أنه ظل

انبثاقات طاقة دفينه من جسد عملاق ... فهذه العلامات كلها توقظ في الذهن على الفور اسم ميكلانجلو .

وقد أصبحنا الآن قادرين على أن نفهم لماذا ينبغى أن يهتم بالعرى كل فن يدور حول الجسم البشرى ، ولماذا استحوذ العرى على الفن الكلاسيكى في مختلف أطواره ، ليس فقط بوصفه أفضل وسيلة تبعث الحياة في الفن ، بل لكونه كذلك أكثر الموضوعات أهمية في العالم الانسانى . وكان ميكلانجلو أول فنان بعد عصر النحت الاغريقى يدرك تماما هوية العرى في فن تصوير الشخص ، فمن قبله كان العرى يدرس كوسيلة علمية تعين على تصوير الانسان المكسو بالثياب ، ولكنه اكتشف أهمية العرى كفاية في نفسه ، وكهدف نهائى لفنه ، فالفن والعرى بالنسبة اليه متردافان .

ولن نجد في غير أعمال ميكلانجلو - اذا ما طرحنا جانبا روائع الفن الاغريقى - اشكالا تعزز احساسنا بقوة أثر الصورة علينا ، وتصل حركاتها الى وجداننا مباشرة ، فتلهمه بنفس القدر من العمق .

واننا لنرى عمق ايمان ميكلانجلو بالجسد البشرى العارى كموضوع اساسي للفن التشكيلى ، في أنه حين كلف في غمرة الحماس الذى صاحب قيام الجمهورية بفلورنسا برسم لوحة بطولية تزين القاعة الكبرى المتخذة لانعقاد مجلس المدينة الجديد ، لم يختر ميكلانجلو من معركة كاسكينا التى نشبت خلال الحرب بين بيزا وفلورنسا عام ١٣٦٤ الا لحظة غريبة هى تلك التى كان الجنود الفلورنسيون يستحمون اثناءها في نهر الأرنو ، بينما كان التحذير ينطلق معلنا هجوم العدو .

هذا العذاب ليجد وجدانه وقد غاب في هذا العالم السحري . فما بالناس حين نذكر أن ميكلانجلو قد اضطر ، لانجاز هذه الرسوم ، أن يضطجع على ظهره طوال أربعة أعوام . وقد عبر عن هذا العقاب الذي ينوء بحمله البشر في كلمات بالغة البساطة والرقية باحدى قصائده جاء فيها ما ترجمته :

« الى السماء تشمخ لحيتى .

والى الوراء ينثنى قفاى .

مثبتا فوق عمودى الفقرى .

وترقوتى تنتصب عالية كأنها قيثارة .

وعلى وجهى ترسم لوحة ثرية ملونة .

من قطرات الفرشاة الثخينة والدقيقة » .



هجر ميكلانجلو من ناحية المبدأ فكرة زخرفة الاسطح المستوية بتصميمات زخرفية مقتبسة من عالم الاشكال النباتية ، فحيث يتوقع المرء أن يشهد نبتة متحوية يجد مكانها اجسادا بشرية ، ولا شيء غير الاجساد البشرية . ثم ما يلبث أن يدرك الايقاع المتناغم الذى يربط بين هذه الكتل ويفصل بينها .

لقد اختار ميكلانجلو أن يروى قصصه عن طريق الاجساد العارية - كما مر بنا - ونحن ندرك من القاء أول نظرة على هذه الرسوم الفسيحة غياب الابنية ومشاهد الطبيعة الا رموزا موجزة كالشجرة الوحيدة التى تمثل الجنة ، وعشبة هنا واخرى هناك تشير الى خصوبة الارض ، وهكذا استخدم ميكلانجلو وسائل التعبير فى ايجاز بليغ فى هذه التصاوير . وكان المزج بين ايقاع الخطوط

يتابع هذا العمل الخارق رغم كل ما نعلمه عن قدرته المذهلة فى نحت الرخام الذى كان سريع الاستجابة لضربات أزميله الحاسمة ، لأمضى عشرين عاما فى اتمامها .

وقد حنق الكثيرون على البابا الذى أراح مثالا عبقرى عن النحت ، ليفرقه فى تصوير سقف مصلى سيستينا بمبنى الفاتيكان ، الا أن احدا لا يملك الا أن يعترف الآن أن هذا القرار الذى اتخذه البابا كان أقرب ما يكون الى الالهام الاسطورى . ذلك أن هذا العمل قد فجر طاقات ميكلانجلو الخبيثة ، وانهج له التعبير من رؤيته الباطنية للعلاقات الانسانية والمصير البشرى . وقد ترك البابا لميكلانجلو الحرية فى اختيار الموضوع الذى يصوره ، وهو استثناء لم يتمتع به أحد فى هذا العصر الذى كان الفنانون يلتزمون فيه بنصوص القصص الدينى وتعليمات القساوسة . وقد استطاع ميكلانجلو أن يعمل خياله فى القصص الدينى وأن يصور عملا يبهز مشاهديه . والذين شاهدوا تصاوير هذا السقف من نقاد الفن على مر التاريخ وقفوا مذهولين أمام هذا الموضوع الذى لعب فيه خيال ميكلانجلو دورا كبيرا بعد أن استمدته من نصوص سفر التكوين ، فلم يتفقوا على تفسير واحد . غير أنهم أحسوا جميعا هذه الوحدة المتوهجة المشوبة التى ربط بها ميكلانجلو جسد الانسان بعقله وروحه . فأعجبوا بكل ما ينبض به الجسد من القوة العضلية التى كانت طابع تماثيل الكوروس الاغريقية ، كما انبهروا بما يشع حوله من القوة المعنوية الدافقة فى صور العرافات والانبياء ، وأن كان من الواضح أن ميكلانجلو قد منح الروح اهتماما يفوق مامنحه للجسد .

وليس من شك فى أن متابعة رسوم السقف تسبب عذابا كبيرا للمشاهد حين يضطر الى ثنى عنقه الى الخلف طويلا ليستكمل جوانب هذه الملحة الهائلة ، غير أنه سرعان ما ينسى

والإحياء بالعمق وسيلة أعانته على رواية القصص بهذا الإيجاز الفريد .

ولو أنا تأملنا تصميم ميكلائجلو لسقف سيستينا لوجدناه تكويناً عضوياً متماسكاً تسيطر عليه فكرة فلسفة وفنية موحدة ، يمزج في أيقونوغرافيته بين اللاهوت التقليدي العبري المسيحي والفلسفة الأفلاطونية التي تشر بها - كما مر بنا - في صباه أثناء أقامته بقصر لورنزودى مدبثشى ، وهى التى شكلت وجدانه فبقى الى آخر حياته مسيحياً مؤمناً بالأفلاطونية ، أى مؤمناً بوجود قوة خارقة تعلو قوة الإنسان وتوجه حركته ، هى قوة الإلهام .

قسم ميكلائجلو فراغ السقف الى الاشكال الهندسية الأفلاطونية التى ذكرناها من قبل وهى المثلث والدائرة والمربع . (لوحة ٥) .

ثم عاد ميكلائجلو فقسم التكوين ثانية الى ثلاث مناطق تلعب فيه كثافة الضوء دورها . تغطى ادناها وأشدها قتامة البنيقات الثماني المثلثة وبنيقات الأركان الأربعة على شكل المقرنصات . وتشمل الثانية الفراغ المحصور بين البنيقات المثلثة والمنطقة الثالثة العليا المخصصة للوحات التسع الرئيسية .

وتواكب هذه التقسيمات من الناحية الرمزية مستويات الوجود الأفلاطونية الثلاثة التى سبق ذكرها .

- **عالم الوهم والخيالات :** وقد عبر عنه ميكلائجلو بالإنسان غير الملهم الذى لم يتلق الوحي بعد ، وصوره فى أدنى المستويات على البنيقات المثلثة الثماني .

- **وعالم الصيرورة المادى المتغير ،** وعبر عنه ميكلائجلو بأنبياء العهد القديم والعرفات الوثنيات الذين يتوسطون بين الإنسان والله

بحكم ملكاتهم العقلية السامية . وصوره فى المنطقة المتوسطة بين المثلثات واللوحات التسع .

- على حين صور فى المساحة العليا **قصة الخلق والإنسان وعلاقته المباشرة بالله ،** والتى تبدو لنا من خلال التقسيم المعماري مشرفة علينا من أعلى مستوى كونى .

وبلغت مساحة السقف التى صورها ميكلائجلو حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر مربع ، ويضم التكوين ثلاثمائة شخصية . وقد رسم ميكلائجلو المخطط المبدئى (الكرتون) على الورق أولاً ثم قسمه الى أجزاء يتسع اليوم لتنفيذ أحدها وراء الآخر .

وبدل خروج ميكلائجلو عن رسوم المخطط المبدئى على أن عنصر الارتجال قد صاحبه أثناء العمل . وكانت ألوانه محددة بألوان سطح الفريسك ، وكلما تقدم العمل كان يؤثر تدرجات اللون الرمادى الذى كان يسبغ على أشكاله المصورة طابع التمايل المنحوتة . وقد كان الشائع أيامها أن يتولى القيام بهذه الاعمال الكبرى الاستاذ بمساعدة تلامذته ، ولكن الثابت أن ميكلائجلو قد قام بتصوير السقف كله وحده ، واقتصر عمل المساعدين على التجهيزات الأولية فحسب .

واذا كان ميكلائجلو قد وقع اختياره من سفر التكوين على قصة الخلق من بدايتها حتى انتشاء نوح بالخمر . فقد شاء لنا أن نطالع هذه القصص مصورة على سقف المصلى بادئين من النهاية ، لأنه رسمها بطريقة عكسية ، فبدأ بنوح وانتهى بلوحة فصل النور عن الظلمة .

فما تكاد ندلف الى القاعة حتى يعلنونا نوح بجسده المستلقى ثملاً (لوحة ٢١ ، ب) .

من شجرة معرفة الخير والشر التى تنتصب بينهما . لكن ميكلائنجلو لا يقتنع بتقليد الاسلاف بل يبتكر تكوينا جديدا ، كما انه لا يصور الفواية كما كانت تصور قبله عملية سلبية بل يحيلها الى فعل ايجابى يختاره الانسان بارادته . فيصور حواء فى وضعة الاسترخاء المعهودة فى التصوير الرومانى مولية ظهرها للشجرة ملتفتة لفتة عابرة نحو الحية التى لها جذع امرأة ، وتتناول التفاحة متشاقلة ، وصور آدم فى الشطر الايسر من الصورة ضخم الجسم اذنى مرتبة من الانسان ، وهو يمد يده الى غصن الشجرة الممتد فوق حواء ، التى يبدو جسدها ناعما شهوانيا ، ويواكب حركة ذراعها الممدودة غصن مواز ينبثق من جذع شجرة فى الخلفية .

وكما خلق ميكلائنجلو تكوينا جديدا لقصة الفواية ، فقد أعرب من خلال جسد حواء عن فكرة جديدة ايضا هى ان الكسل الانثوى المترف يوقظ الرذيلة فى اعماق الانسان .

ولا تضم جنة عدن سوى اوراق شجر قليلة ، فام يشأ ميكلائنجلو ان يجسد المكان بأسلوب ماذى . ومع ذلك فهو يحتال كى يوحى بالترف والحركة بواسطة خطوط الارض والايحاء بعمق الفراغ . وكلاهما يتباين مع الارض المستوية الجرداء فى النصف الايمن من الصورة ، مجسدا شقاء آدم وحواء بعد طردهما من الجنة حين ازاحمها الى طرف الصورة الايمن ، محتفرا فجوة عميقة بينهما وبين الشجرة .

ويفسر بعض المؤرخين الثنائية التى تجمع بين الحية والملاك المنتقم فى مشهد الطرد من الجنة باللوحه بأنها نطوى على فكرة ان الجريمة والعقاب مثل العلة والاثر ، هما مظهران توأمان للشر .

وكما يصور ميكلائنجلو نوحا الانسان فريسة لشهواته الجسمية يصوره كادحا من أجل لقمة العيش ، فجعله على يسار اللوحه يحتر التربة القاحلة قوى البدن واهن الروح . كما أوقف أبناءه حوله ، دون ان يبدو عليهم الاسى لشهود عورة أبيهم ، ودون أن يتعجلوا باخفائها بالرداء كما جاء فى سفر التكوين ، بل جعلهم شهود المصير المأساوى للانسان نفسه الذى ينبغى له ان يلهب ويكد ويخطو الى الشيوخوخة ، وينتهى الى الموت . وتذكرنا وضعة نوع المستلقية بآلهة الانهار الرومان ، وقد مالت رأسه فى هذه اللوحه على صدره فى ارهاصة بليغة بالنهاية المرتقبة وهى الموت .

ثم تأتى لوحه الطوفان (لوحه ٢٢) ، التى تذكرنا اشكالها بالجنود العراء المستحمين فى نهر الارنو خلال معركة كاسكينا . وتكشف لنا عن فكرة ميكلائنجلو فى تمثيل الفراغ للايحاء بأن الشخوص وافدة صوب المشاهد من وراء الجبل متعاقبة عصية على الاحصاء ، فلايسع المرء الا التسليم بضخامة الحشد المتدفق . وترمز هذه اللوحه للمأزق الذى يسقط فيه الانسان عندما تحاصره عوامل الطبيعة القاسية التى لا يملك معها الا الاستسلام .

وتصور اللوحه الثالثة (لوحه ٢٣) نوحا وابناءه حول المذبح وهم يقدمون القرابين ويجمعون الوقود ويشعلون النار ليتنسج الله رائحة الرضا من ذبائحهم التى يضحون بها شكرا لله على نجاتهم من الطوفان .

وما تكاد المساحة المتاحة لميكلائنجلو تتسع حتى تتضاعف قدراته فنراه فى لوحه خطيئة آدم وحواء وطردهما من الجنة يبسط جناحيه محلقا الى ذرى لم يبلفها أحد من قبل او من بعد (لوحه ٢٤) . كان من قبله يصورون خطيئة الانسان بواسطة شخصين واقفين متواجهين يربط بينهما مشهد تناول التفاحة

عملية عقلانية خالصة . ثم نشهد بعد ذلك الموضوع الرئيسى في عملية الخلق وهو خلق آدم (لوحة ٢٦) ، وهو أحد الاعمال النادرة التى تجمع بين العظمة الفائقة والبساطة المعجزة ، حتى بالنسبة لأولئك الذين لا ينفعلون فى يسر بالاعمال الفنية . فمعناها واضح ومؤثر من الوهلة الاولى ، ويزيد شغف المرء بها كلما طال تأمله لها ، اذ نرى الجسد الانسانى فى روعة ليس لها مثيل سابق ، مستلقيا على الارض فى الوضعة التى اعتدنا ان نرى عليها التماثيل اليونانية لالهة الانهار والخمر ، الذين ينتمون الى الارض ولا يتطلعون الى الفكاك منها .

ويتجه الاله الخالق فى سحابة سماوية تضم زمرة من الملائكة صوب جسد آدم الخادم الملتصق بمضجعه الصخرى . ونأمل الانسان يمد يده حتى تكاد تلمس يد الله ، وكان شحنة كهربائية تسرى بين أصابعهما . وعبر هذه الشحنة الدافقة فى هذا النموذج الطبيعى الفذ ، خلق الله النفس الانسانية . فما يكاد الاله يلمس طرف أصبع آدم الممتدة حتى تدب فيه الحياة ، فتنتطلق القوى الكامنة فى جسده ، التى تتجلى - رغم عجزه عن الحركة - فى انثناء ساقه اليسرى ، وبروز جذعه المصور بالمواجهة وتوتر عضلات ساقه اليمنى المصورة بالمجانبة . ولكن آدم يتقبل الحياة على مضض وهو ما يعبر عن ذلك التشاؤم الذى يشيعه احتقار افلاطون للحياة الدنيوية واعتباره لها عبثا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لأصله الالهى ، وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلى . ومن خلف الله وفي ظل عباءته تترأى حواء غامضة مستخفية وكأنها ما تزال كامنة فى اعماقه ترهص بما سوف يكابده آدم على يديها من شقاء .

ونلاحظ اختلاف تعبير آدم فى مشهد الطرد عنه فى مشهد الفواية ، اذ يبدو مدركا خطيئته وان مضى فى طمأنينة وكبرياء ، محاولا أن يدفع بحركة ذراعيه حد السيف الذى يهدده به الملاك المنتقم . على حين بدت حواء منكشمة محاولة أن تحتفى بظله وهى تسرع الخطى وقد انحنى ظهرها والتفتت بوجهها نحو الجنة آسية وكأنها تسترق نظرة أخيرة .

وهكذا نرى فى الشطر الايسر من الصورة مشهد الفواية والخطيئة حيث تتجلى الرغبة العمياء ، بينما نرى فى الشطر الايمن مشهد الطرد حيث تتجلى المعرفة والتندم .

وتشمل اللوحات الخمس التالية مراحل خلق الله للكون والطبيعة .

ففى لوحة خلق حواء (لوحة ٢٥) يبدو الاله يهوه لأول مرة وهو يخلق الانثى باشارة أمرة من يده التى لا تلمس جسد حواء أو ضلع آدم كما اعتاد المصورون من قبل ، وانما يتجلى داخل اطواء عباءته وقد آمال التفكير العميق رأسه ، وحواء تنهض بطريقة تعرب بوضوح عن أنها طوع أمر الله ، وتتسم ايماءة الدهشة والعجب المرتسمة عليها - وكأنها فى صلاة ورعة ضارعة - بجمال لانهاى اودع ميكلانجلو فيه مفهومه عن الجمال الجسدى ، بينما يرقد آدم مستندا الى صخرة ، متكوما كأنه جثة هامدة ، وقد اندفع كتفه الايسر الى الامام ، وقبضت يده برخاوة على جذع خشبى . ويساير الخط المحيط للتل شكل جسم آدم ويحتويه ، على حين يتوازى مع شكل حواء واتجاهها جذع شجرة مشدب الاغصان . لقد احتشد كل شئ فى المساحة المتاحة وشارف الحواف حتى لم يعد مكان للاله الخالق لكى ينتصب فيه . ونكتشف هنا مفهوم ميكلانجلو الافلاطونى عن الخلق ، بأنه

والغريب في هذه اللوحة تكرار صورة الله، حيث يستدير فنراه من الخلف مندفعاً وكأنه أعصار صوب عمق الصورة، غير أن هذا التكرار تقليد فني قديم، فلو أننا غطينا نصف الصورة لتجلى لنا كيف أن تكرار الشكل منفلتاً، هو جزء جوهري من الأثر الشامل للحركة المدومة.

وبين الإيجاز المتتابع في تصوير المخلوقات، أن فكرة ميكلانجلو هي تصوير طبيعة الله الخلاقة أكثر مما هي تصوير الأشياء والكائنات التي يخلقها.

وفي النهاية نصل إلى الدورة مع لوحة فصل النور عن الظلمة (لوحة ٢٩) حيث ينبثق الوجود من العلماء، وتتعاقد الحكمة المسيحية الداعية إلى معرفة الحقيقة كطريق لتحرر النفس، مع النصيحة الهاتفة الإلهية لسقراط: « اعرف نفسك ». أن مفهوم الله قد تطور: من اتخاذ شكل الإنسان في لوحة خلق حواء، إلى التجلي في الروح الكونية في اللوحات التالية، ثم يستحيل في هذه اللوحة تجريداً شاملاً نابضاً في ملكوت الوجود الخالص، بعد أن أصبح الجسد رمزاً للروح واتشحت قسماً الوجه بالضبابية.

لقد تحقق الهدف الأفلاطوني الجديد لاتحاد الروح من الله عن طريق التدرج من قيد البنيقات، إلى البصيرة التنبؤية للعرفات، وأخيراً صعود سلم القصص الديني نحو ضوء المعرفة النقي، للوصول إلى نقطة الدوبان والتلاشي في حرية اللانهاية.

ومن بين كافة المحاولات التي قام بها الإنسان الفاني المحدود كي يقدم صورة للطاقة المطلقة بلا حدود، نجد هذه اللوحة أكثرها اقناعاً، وإن لم تكن أشدها واقعية. ولا غرو فإن الصور الفوتوغرافية الحديثة لتكوين رؤوس المذنبات النجمية تعرض نفس هذه الحركة الشبيهة بالدوامة.

وتتوالى مشاهد مراحل الخلق المبكرة في تصاعد دافق بالحركة والحيوية.

ففي لوحة فصل اليابسة عن الماء (لوحة ٢٧) تتفجر قدرة الإله مانع البركة، وهو يندفع من خلفية الصورة بأسطاً يديه فوق سطح الماء، فنظن إلى أن ميكلانجلو قد نقل الشعور بالسلام الذي ينطلق عن هذا المشهد بإيماءة من الله وكأنه يبارك الكون. كما تعمد التعبير عن التضائل النسبي للذراع اليميني، وغمر التكوين المساحة التي حددها إطار الصورة تماماً.



ثم نشهد الله بعد ذلك يخلق الشمس والقمر والنجوم (لوحة ٢٨) بإشارات آمرة للإيحاء بضرورة إخضاع هذه العناصر النارية الملهبة بالحزم والقوة لا باللين والمباركة.

وهنا يغدو الله تجسيدا « لفكرة الخلق » نفسها شأنه شأن الأجرام السماوية، فينطلق في فلكه ينثر النجوم والكواكب التي تنطلق بدورها في المدار الذي يرسمه لها.

ونلمس في هذه اللوحة بوضوح ازدياد الدينامية في اندفاع الإله إلى الأمام بأسطاً ذراعيه إلى أن يوقف مسيرته بحيث ينحني جذعه إلى الوراء، كي يتسنى له أن يخلق الشمس والقمر أثناء هذه الوقفة العابرة. ومع أن كلا الذراعين يمثان بحركة الخلق إلا أن الذراع اليميني تبدو أقوى تأثيراً، ليس فقط لأن الله ينظر في اتجاهها بل لأنه قد لحقها نصيب كبير من التضائل النسبي.

كذلك فإن المساحة التي تمثلها صورة الله أكبر من سابقتها، حتى لا تترك موضع قدم لفراغ زائد لا ضرورة له.

حلقة أخرى من الانبياء والشهداء والنساء
العبريات والقديسات العذارى والعرافات
الوثنيات .

ويشرف من إحدى الكوتين العاليتين
جماعة من الملائكة يحملون صليب المسيح ،
ومن الكوة الثانية جماعة أخرى يحملون العمود
الذي عذب عليه . وتبدو الملائكة بلا أجنحة ،
والقديسون بلا هالات في أجساد عملاقة ،
تتحرك محتدمة كأوراق الشجر الصخابة في
أتون العاصفة .

ويبعج القسم الاوسط بحشود البشر ،
بعد الفراغ من الحساب ، حيث يرقى الطائعون
الى الجنة ، بينما يتهاوى العصاة في الجحيم
(لوحة ٣٢) ، ورسل الرب تنفخ في الصور ،
بينما يحمل ملاك صفيح كتاب الحسنات
الدقيق ، وينوء ملاكان قويان بحمل كتاب
السيئات البالغ الثقل والضخامة .

ويحتجز ميكلائجلو القسم الاسفل لصورة
الجحيم اليوناني (لوحة ٣٣) كاشفا بذلك
المنبع الثاني لفكر ميكلائجلو الذي شكلته
المسيحية الافلاطونية ، حيث يبسط خارون
مملكته في العالم السفلى حول نهر ستيكس
الى اليمين ، وحيث تحتشد زبائنه وزبائنه .
على حين يتدافع الى اليسار الموتى مبعوثين
من قبورهم يوم القيامة والذين يتطلع اليهم
المسيح في جلاله لحظة وصولهم الى الجحيم ،
شاهرا يده اليمنى في حركة تلقى الرعب
وهو يصدر حكمة عليهم بالهلاك ، مشيرا
بيمنه الى الطائعين ليشهدوا جرح جنبه
الدامي (لوحة ٣٤) .

لقد بعثت هذه اللوحة انتفاضة هائلة في
فن التصوير ، وخلقت أسلوبا جديدا مثله
الاعلى :

- كونية الفضاء اللانهائي .

لقد استطاعت تصاوير سقف مصلى
سيستنيا هي والتصاوير الجدارية لرفائيل
في غرفة التوقيع بمبنى الفاتيكان أن تنقل من
فكر ايطاليا في عصر النهضة أكثر مما نقلته
آدابها المكتوبة . كما أنها كشفت عن عمق
بصيرة ميكلائجلو وقدرته على التنبؤ بما يوحى
للمشاهدين بأنه فنان كل العصور ، وربما
بصفة خاصة عصر الرومانسيين ، وهذه هي
الصفة التي تميزه عن منافسه العبقري
رافائيل .

ونستطيع قبل مغادرة سقف المصلى أن
نتمهل لحظة أمام تصاوير **الذلمان العراة**
(لوحة ٣٠) لنقارنها بتمثال **الانثى الفافية**
التي ترمز لليل (لوحة ١٦) . وتلك التي ترمز
للفجر (لوحة ١٩) والتي رجوت استضافتهما
في الذاكرة عدة دقائق ، ولنتأمل جيدا هؤلاء
الغلمان الذين يمتلكون من السحر والفننة
والاثارة ما يستطيعون به منافسة جميلات
الفتيات ، ليس في بشرتهم المصقولة ، ولا في
رقة الملامح ، ولا استدارات المناكب ورشاقة
السيقان ، ولا في انبثاق الاثداء وانسدال
الشعور ، بل كذلك في الثنى والتأود في
الوضعة المثيرة واللغة الداعية ، المترددة
الحائرة بين الجسارة والحياء .

في أي عالم رأى ميكلائجلو ذلك الجنس
البشرى الغريب ؟ لا شك أنه جنس ابتدعه
هو بخياله . ولعل لوحة يوم الحساب
(لوحة ٣١) هي أشهر تصاوير روما الجدارية ،
وهي بلا شك اكبرها حجما ، اذ تغطي مساحة
قدرها ستة عشر مترا في اثني عشر مترا .
وقد توزعت رسومها على ثلاثة أقسام رفق
التثليث الافلاطوني : تسود في أعلاها مملكة
السماء يتوسطها المسيح في جلاله على عرش
السحب بوصفه قاضيا والعداء الى جواره .
ومن حوله حلقة من الرسل وآباء الجنس
البشرى المذكورين في التوراة تحيط بهم

عجالة تخطيطية ، أو على خطاب أو ظهر
فاتورة حساب ، مما يجعلنا نرى بوضوح أنه
كان يسجل خواطره - أو على الأقل مسودتها
- على أول ورقة تقع بين يديه .

وتحمل أشعار ميكلانجلو التي تبلغ حوالى
المائتين وخمسين قصيدة طابع التكثيف
لانفعالاته ، بلا تكلف أو اسهاب مصطنع أو
بلاغية لفظية ، فالشعر هو مملكة ميكلانجلو
الخاصة . ولم يكن يكتب أشعاره للعامة
بل لنفسه هو ، أو لانسان بذاته . ومن ثم
كان ديوانه الشعرى أشبه بيوميات لعواطفه،
ومرآة لقلبه ، وسيرة ذاتية عاطفية وروحية .

وفي عصر كان كل عمل فنى خاضعا للتقاليد
أكثر مما هو الحال الآن ، كان على ميكلانجلو
رغم تفوقه على غيره في التعبير عن نفسه
الحقيقة ، ورغم أن ممارسته للشعر قد بقيت
في اطار الهواية بعيدا عن الاحتراف ، أن
يلتزم بالتقاليد الفنية التي لا يستقيم الشكل
الشعرى من غيرها ، ودون أن يكون مع ذلك
مؤمنا بها ، وذلك ماهوى بصنعة الشعرية عن
مستوى رفاق فنه .

كان عالم الشعر ملاذ ميكلانجلو ، يفزع
الى خلوته كلما أججت انفعالاته عذاب القلق
في أعماقه . وما أكثر ما كان يهرب الى الشعر .
فما كانت حياته الا قطعة متصلة من العذاب
الداخلى العاصف الذى يتضاءل أمامه كل
حزن عابر . وكان احتدام مشاعره يشده
الى عزلة موحشة ، يرفض داخل أسوارها
رؤية الاصدقاء ، ويعسر عليه أن يعيش في
سلام حتى مع نفسه ، لكنها كانت تتيح له
اشباع حاجته الى التأمل والتركيز الهائل
لانجاز أعماله الابداعية . ومع ذلك فكم كان
رقيق المشاعر مع بسطاء الناس ، عطوفا حانيا
على الفنانين الناشئين ، كلما عرف الانفلات
لحظات خارج أسوار العزلة .

- والانفلات عن اسار الزمان والمكان .

- وتحريك الوجدان البشرى بآثاره الشفقة
والرثاء .

على أن هذه اللوحة التي أحدثت هذا
التأثير الهائل على المصورين المعاصرين قد
أثارت عداء محموما من جانب رجال الدين
والفكر الذين كانوا يقاومون حركة الاصلاح
الدينى . وهكذا امتدت أيدى التزم لتفطى
معظم الاشكال العارية في لوحة يوم الحساب .



فاذا تركنا عالم النحت والتصوير والعمارة
ودلفنا الى عالم الشعر وجدنا الباب مفتوحا
الى أعماق ميكلانجلو ، فليس غير الشعر
ساحرا يزيج بعصاه الستر .

وكان ميكلانجلو واحدا من أعظم أربعة
أو خمسة شعراء ايطاليين في عصره ،
واذا كان أشدهم صدقا فقد كان أقلهم شأنا
من ناحية الصنعة الشعرية ، فكان تعبيره
الشعرى من أكثر الأشعار الفئائية الايطالية
تركيزا وغموضا ، حتى كان بعض ناشرى
شعره يتبعون كل قصيدة بشرح هو في
حقيقته ترجمة نثرية بالايطالية الحديثة .

وليس يعنى هذا ان لفته نفسها كانت
عسيرة بالنسبة للقارئ العصرى ، ولكنه
الفكر وراءها الذى يبلو ساطعا وخفيا في آن
معا . والواقع أن شعر ميكلانجلو هو شعر
ذاتى بحت . وأغلب الظن انه لم ينظم قط
قصيدة دون أن يكون واقعا تحت تأثير انفعال
ما ، فلم يكن ينظم الا مدفوعا بحاجة قوية ،
أو معزقا بعذاب ، أو محاصرا بعاطفة وتكشف
مخطوطاته التي خلفها عن تلقائية الهاماته .
فقد كانت كثرتها مسجلة على طرف رسم أو

حتى الانثى لم تعرف طريقها الى خلوته ،
فعاش دون أن يتخذ زوجة أو خلية مع أن
صداقته بمساعدته ونماذجه كانت تفوق في
عنفاها وصداقتها أعماق العلاقات البشرية .

وليست نظارته للحب بعيدة عن النظرة
الافلاطونية : فالجمال البشرى يوقظ في النفس
أصالتها الالهية ، ويرتقى بها الى عالم الآلهة
أن هي انسلخت من الانجذاب الجسدى
وهامت بالروح . وهكذا أحب ميكلانجلو
صديق عمره تومازو كافاليري النموذج الذى
التقى فيه جمال الروح بجمال الجسد ، فخلد
صداقتهما في قصائد من شعر اخاذ ، ترجمته
هو وغيره عن الفرنسية لا الايطالية :

« بلا روية انطلقت اليك .

ظننتنى على شاطئ جدول نحيل .

أعبره دون أن يبلل ماؤه ما فوق قدمى .

لكن .. ها أنذا مذ خلفت الشاطئ .

محاصرا وسط خضم محيط هائل .

تشمخ أمواجه من كل جانب .

آه لو كنت مستطيعا العودة للشط .

لهرولت سريعا .

لكنى مادمت بلفت مكانى .

فلأ صنع من قلبي صخرة .

وأخوض بها اليم .

واسمك في روحي وكيانى .

يملؤنى ربا وعدوبة .

تجعلنى لا أعبأ بالضجر .

ولا أخشى الموت .

حتى اذا ما أطلت المرأة على أفق حياته
أقبلت في ثياب سيدة مترهبة تعيش في دير
القديس سلفستر بروما تحمل أربعين عاما من
الثقافة الرفيعة والورع والفضيلة ، وتمنحه
أهم ما كان في حاجة اليه : حنان الامومة الذى
لم ينعم به لوفاة والدته في طفولته ، وطمأنينة
النفس التى كان يطاردها شعوره بالاثم
وخوفه من عذاب النار . بينما كانت **فيتوريا
كولونا** تبشر بعقيدة جديدة تجعل من الايمان
وحده مخلصا من كل الآثام .

وهكذا وجد ميكلانجلو أخيرا المرأة الصديق
والمرأة العزاء ، والمرأة الطمانينة ، والمرأة
الخلاص .

وايقظت فيتوريا المسيحية ، في أعماق
ميكلانجلو ، فاشتعل بحماس خلاق ، وعكف
على انجاز أعمال فنية دينية تمثل فكرة
الخلاص بواسطة السيد المسيح ، كانت قممتها
لوحة يوم الحساب التى واكب تنفيذها هذه
العلاقة المتسامية .

وحين ماتت فيتوريا بعد أن أضاعت حياة
ميكلانجلو عشرة أعوام بكى العملاق كطفل
رضيع فقد الى الابد أمه ، والتفت التشاؤم
ثانية حول وجدانه ، وصبغ شعره بالأسى
وتوقع الموت وراح يقول : -

« أثق أن الفناء مقبل

لكنى لا أعلم موعد اقدامه

العمر قصير

لم يبق لى منه سوى القليل

ثم يخلفنا دون حراك

في نفس الوضع الذي يلقانا فيه » .



ومع احساس ميكلانجلو بأقتراب الموت
دب فيه التخاذل فلم يعد يكمل رسومه او
تمائيله، وأخذ يشوه نسب الجسم التشريحية
عامداً ، ففتح الابواب على سعتها أمام المدرسة
المتكلفة « مانريزم » ثم لطارز الباروك .

كتب الى فاسارى مؤرخ فناني عصر
النهضة عام ١٥٥٩ قبل وفاته بخمسة أعوام:
« ليس ثمة فكرة في أعماقي لم يتسرب اليها
الموت » ، وأصر على قضاء بقية أيامه في خدمة
بلاط البابا بروما لعله يظفر بالخلاص .

وانتقل العبقري العملاق الى عالم الخلود،
وبقيت تماثيل باكخوس وداود وموسى والعداء
الاسية ، وتصاوير سقف مصلى سيستينا
ولوحة يوم الحساب لتذكر الاحياء بأن رجلا
فذا قد شارك بازميله وفرشاته في صنع
عصر كامل هو عصر النهضة الايطالية ، وفي
دفع البشرية خطوة حاسمة على طريق التقدم .
كان اسمه وسيبقى ميكلانجلو . . . او الملاك
ميكايل .

الحياة الدنيا تستهوى حواسي

بينما تستحبنى روحى للقاء الموت .

العالم ضير شرير

يعصف بالاشياء بضربات علوية

النور انطفأ

فولئى معه كل امان .

ينتصر الزيف

ويستخفى الحق

وا اسفاه . . رباه ، متى يتحقق امل المؤمن
بك ؟

وطول الانتظار يفتك بالآمال

ويترك الروح فريسة للموت .

ما قيمة النور الفامر . . الذى تعد به

مادام الموت سيقبل بفتة .

ويقبح المرء أمامه بلا حول ولا قوة



الراجع

- Bottari, Steffano Michelangel. La Cappella Sistina. Eratelli Fabri — Albert Skire 1968.
- Berenson, Bernard Italian Painters of the Renaissance vol. 2. Florentino and Central Italian Schools. Phaidon, London. New York, 1968.
- Clar, Keneth Civilisation, a personal view. British Broadcasting Corporation and John Murray 1969.
- Forlani, Anna Michelangelo. Fratelli Fabri Editori 1963.
- Fleming, William Arts and Ideas, Holt, Rinehart and Winston New York 1961.
- Goldscheider, Ludwig Michelangelo. Complete edition. Phaidon 1959.
- Huygho, René l'Art et l'Ame. Flammarion 1960.
- Pope Hennesy, J. Italian High Renaissance and Baroque Sculpture, 1963.
- Revel, Jean - Francois Michel-Ange: Le Secret d'un coeur révélé par les Sonnets. Collection Génies et Realités. Paris Hachette 1961.
- Redig de Campos D. Michelangelo ... Cappella Paoline in Vatican. Collezione Silvana Milano 1956.
- Vasari, Giorgio Life of Michelangelo Buonarroti, The Folio Society. London 1970.
- Wolfflin, Heinrich Classic Art. An Introduction to the Italian Renaissance, Phaidon. London, New York 1968.

— العهد القديم من الكتاب المقدس .

★ ★ ★

٨١٩

١٨٨٨



(لوحة ١) باكتوس

٢٢١



(لود ٢) القديراء الاسمية (پيمينا) الفاتيكان



(لوحه ۳) سقف مصلی سیستینا عرافه کومای



(لوحة ٤) سقف مصلى سيدينا النبي يونس والخوان

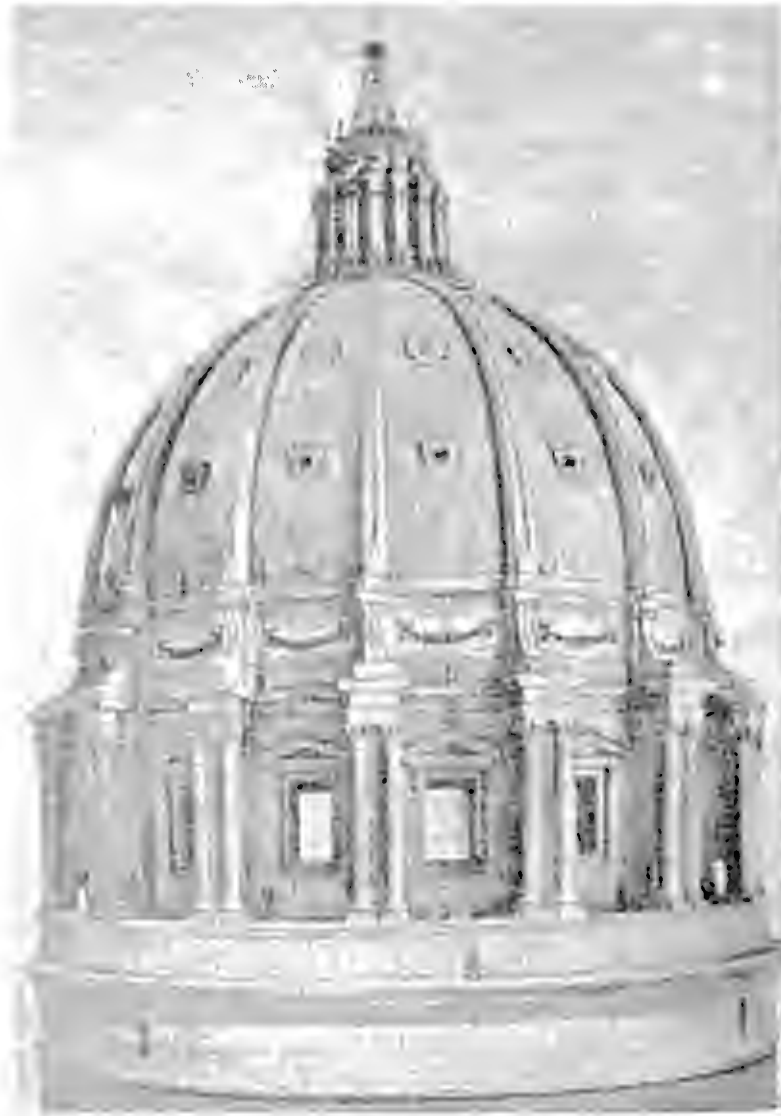
۸۲۳

میکلانجلو



(لوحة ۵) سقف مصلى سيستينا

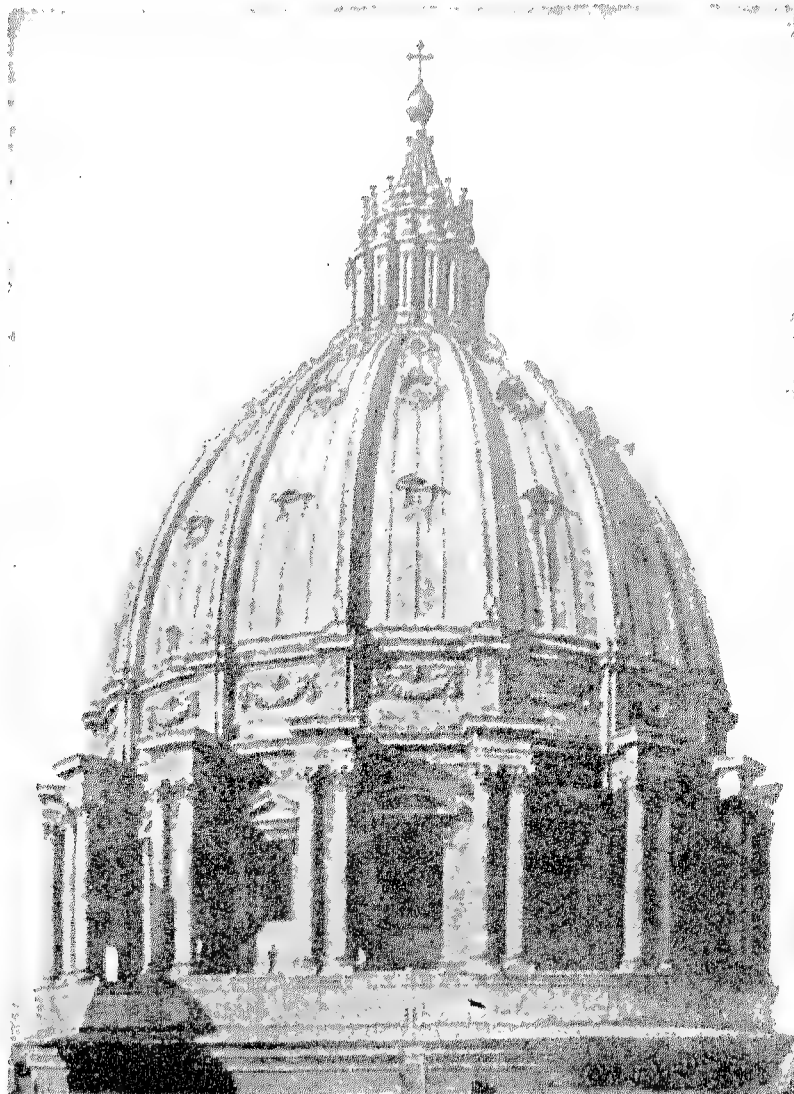
۲۳۵



(لوحة ١٦) نموذج خشبي لقبة كنيسة القديس بطرس بروما

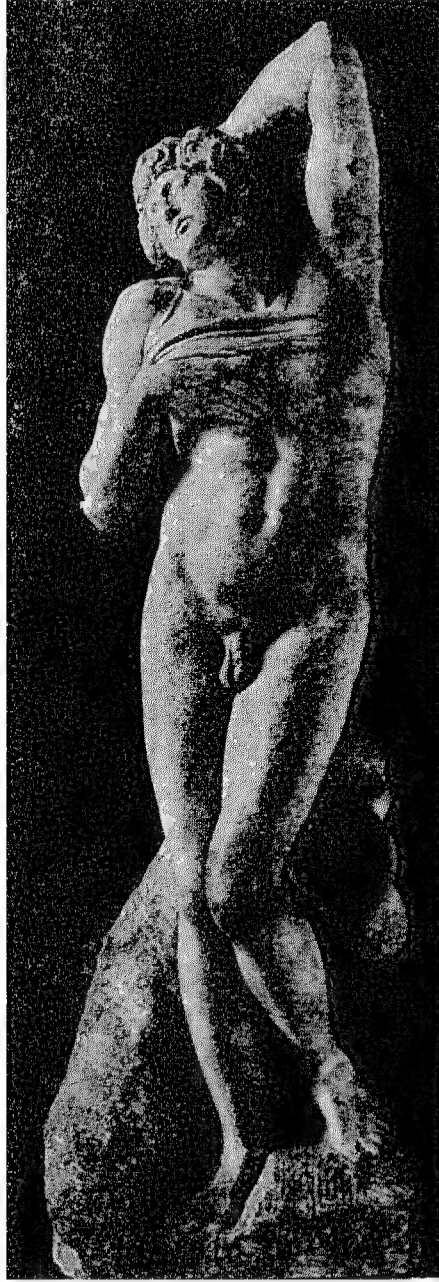
٨٢٥

ميكالانجلو



(لوحة ٦) قبة كنيسة القديس بطرس بعد الانتهاء منها

٢٣٧



(لوحة ٧) العبد المفلول - متحف اللوفر

٨٢٧

ميكلائيلو



(لوحة ٨) العبد المتمرد - متحف اللوفر

٢٣٩



(لوحة ١٠) أسير بوبولي المنسحق



(لوحة ٩) أسير بوبولي



(لوحة ١١) العذراء الآسية (تفصيل) وجه المسيح



لوحة (٢١٢) داود

۸۳۱



(لوحة ۱۲ ب) داود

۲۴۳



(لوحة ١٢) موسى

٨٣٢

موسى



(لوحة ١٣ ب) موسى - تفصيل اليد اليمنى واللحية



(لوحة ١٤) ضريح لورنزو

(لوحة ١٥) ضريح جوليانو

٨٣٥



(لوحة ١٦) جوليانو - الليل

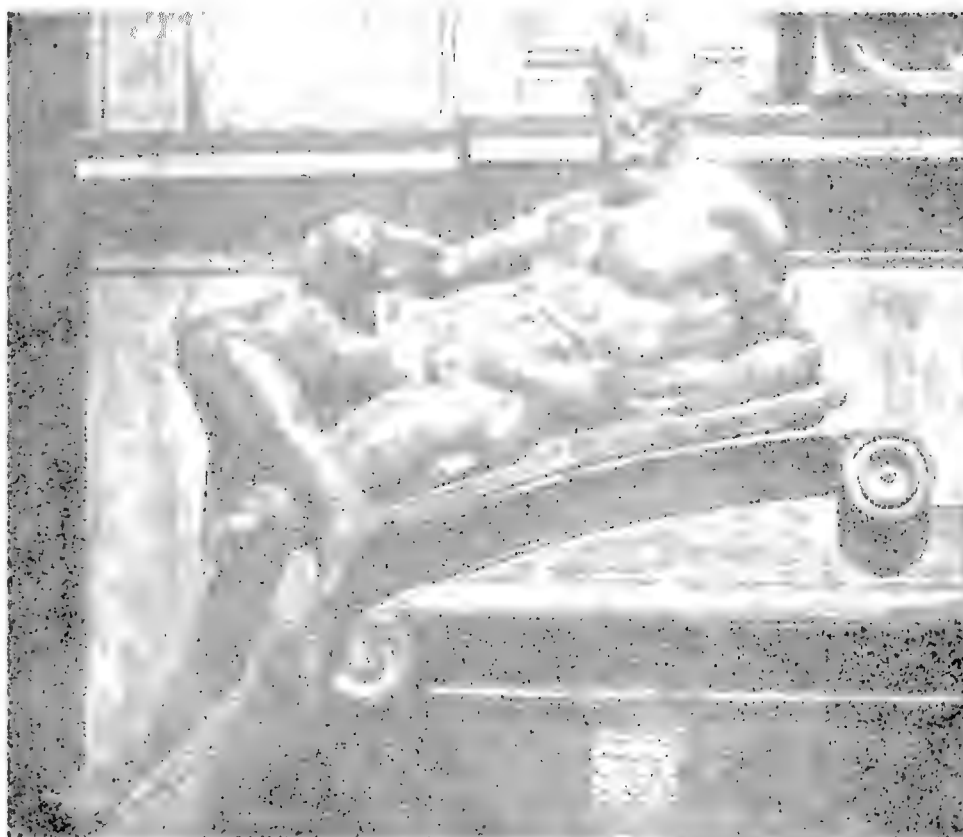
٢٤٧



(لوحة ١٧) ضريح جوليانو - النهار

٨٣٧

ميكالانجاو



(لوحة ١٨) صريح لورنزو - الذروب



الوجه ١٥ - صريح لودولف - الشجر



(لوحة ٢٠) دراسة لمعركة كاسكينا



(لوحة ٢١) سقف معلى سيستينا - نوح ثملا

۸۴۱

میکلائیلو



از جلد ۱۱ به ۱ سبک - سبک - جلد ۱۱

۲۵۳



لوحة (٢١) سقف مهيبي سينا - انطرافان



۱۰۴ - آدم و حوا - میکلمانجو - جنة عدن - الفسيفساء



١ لوحة ١٩٦٠ بيلك ديكلي مستنداً - حادثة آدم وحواء وبعثتهما من الجنة

۸۱۵

مستطیل



لوحة ۲۴ سفلی سینا - خلق حوله

۲۵۷

(لوحة ١٦٩ - سقف مصلى مسجدا - حلق آدم)





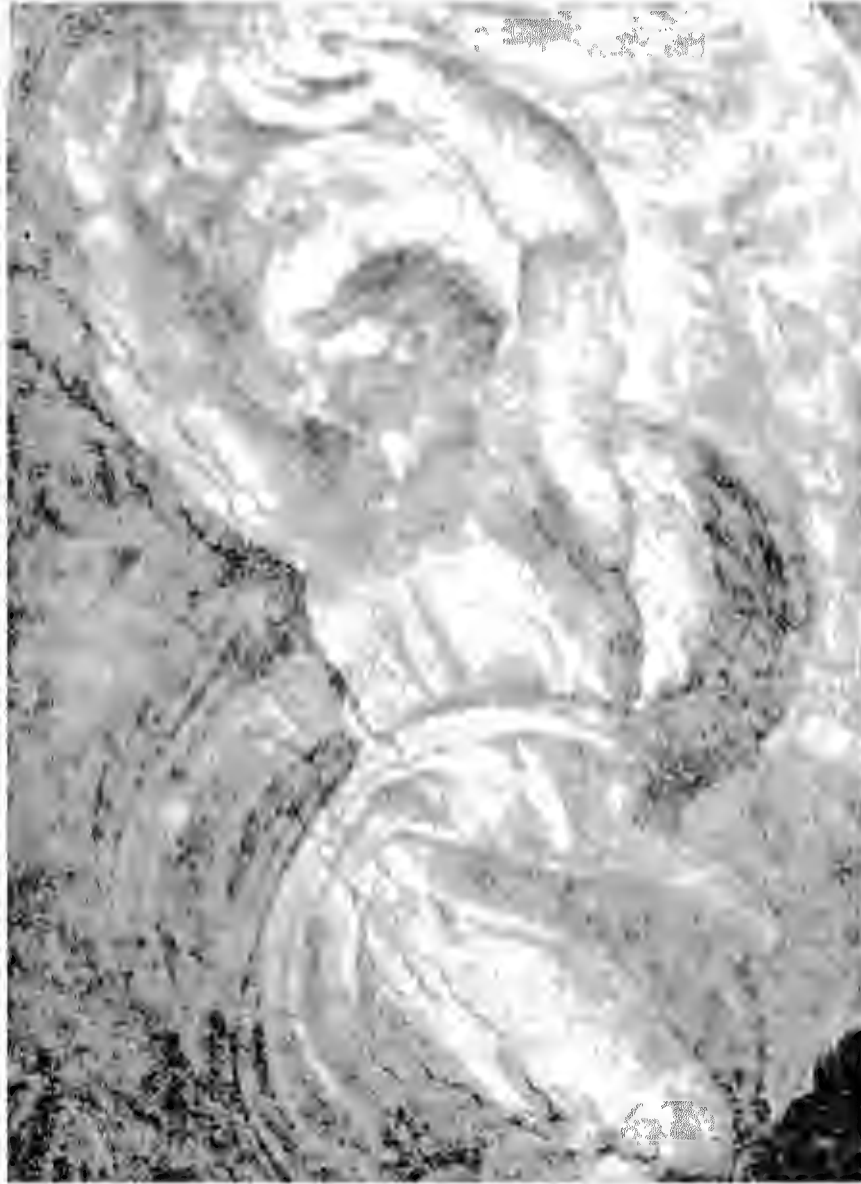
(لوحة ٢٧) سفك «صلى سبتينا فصل اليابسة عن الماء»



(لوحة ٢٨) ستيف مصلي - خالق الشمس والنجوم

٨٤٩

ميكلائيلو



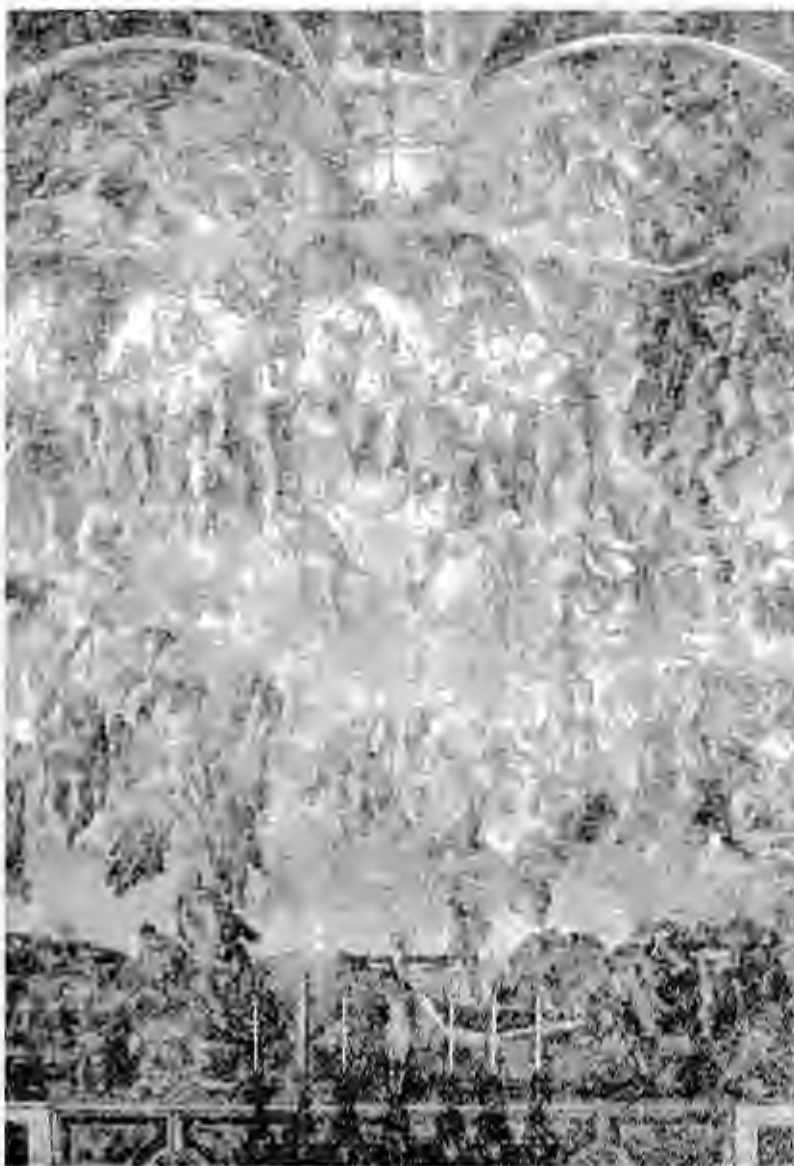
(لوحة ٣٩) سقف مصلى سيستينا - مشهد فصل النور عن الظلمة



(لوحة ٣) سثف مصلى سىستينا غلام عار (انيودى)

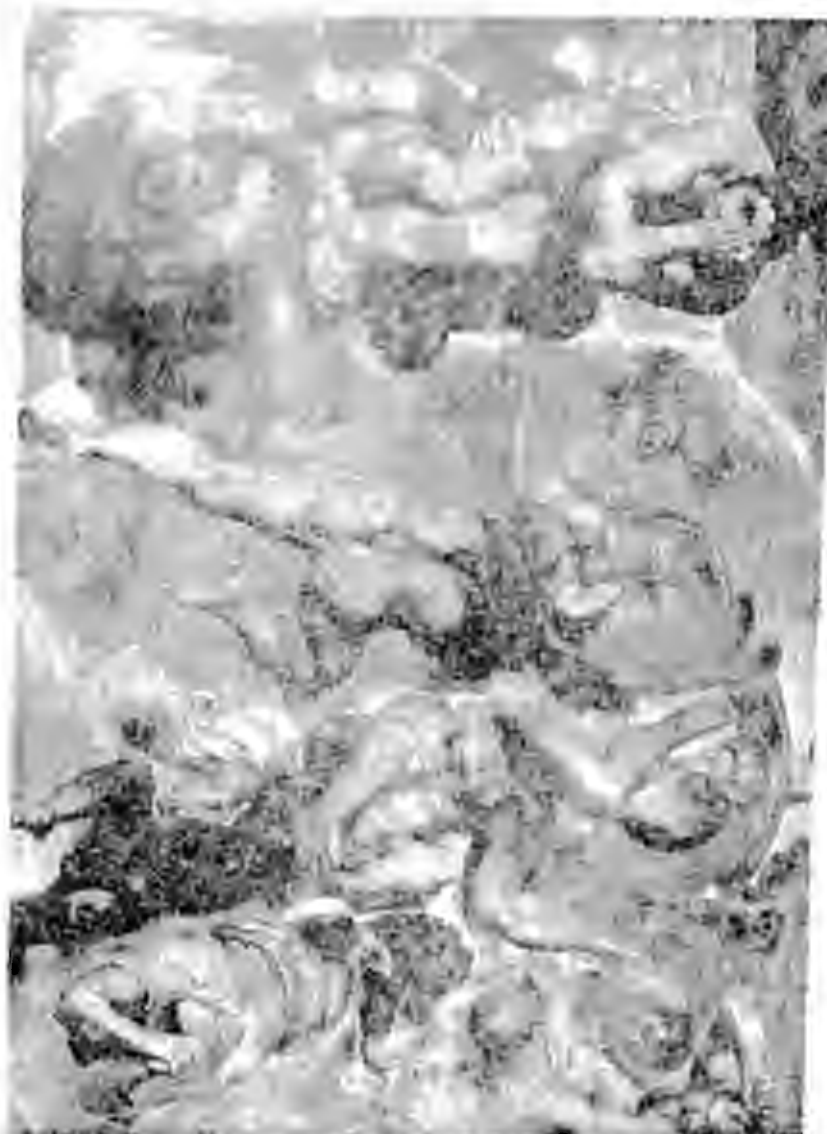
٨٥١

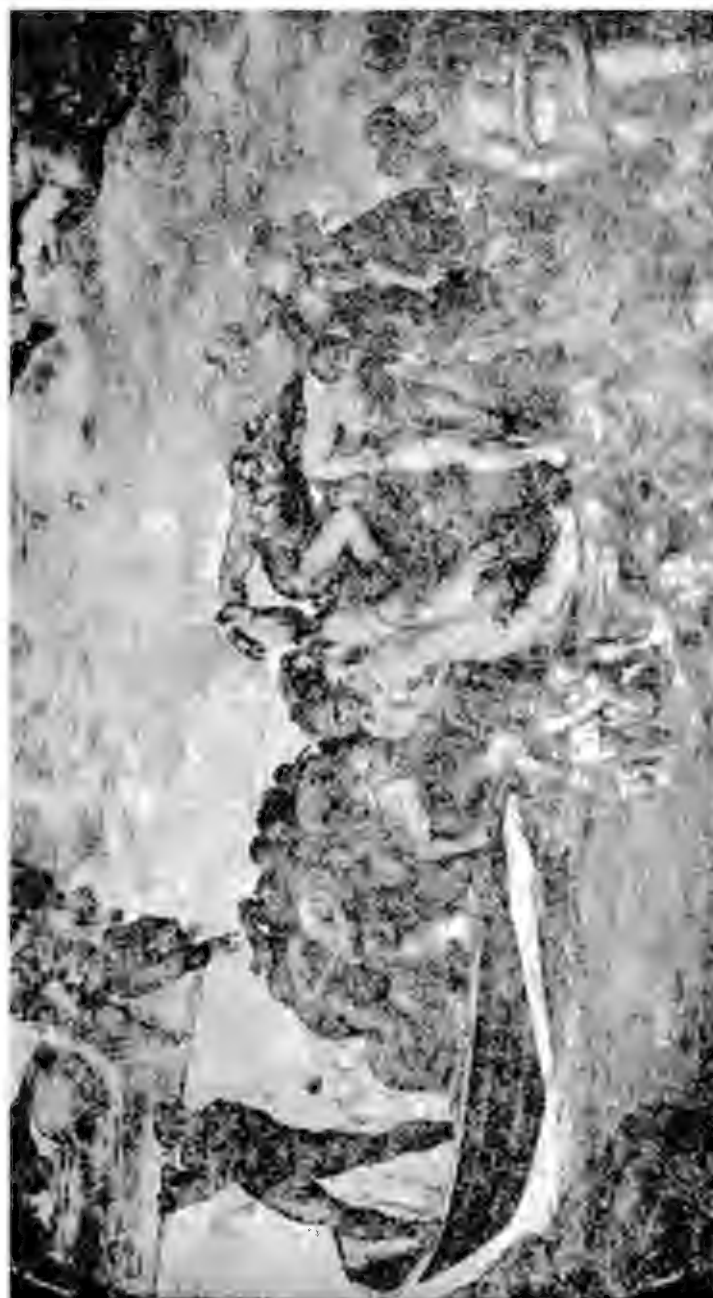
مبنى السجود



(لوحة ٣١) مصلى سييمنتينا - لوحة يوم الحساب

(لوحة ٢٢) - مصلح سنجي - تمثيل من لوحة يوم الصلبي - الصفاة
بتعاون الى الجحيم



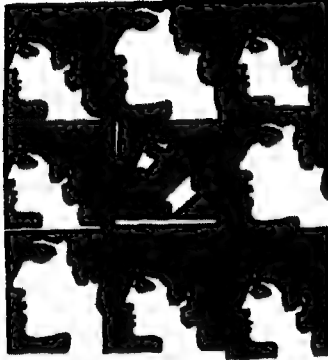


١. لوحة ٢٠٠ - صلي - بيتنا - تفصيل من لوحة يوم الحساب
«الخط»



(لوحة ٣٤) مصلى سيستينا - تفصيل من يوم الحساب - المسيح في
جلاله يوصله لافنيا

عرض الكتب



DRUGS AND
SCHOOLCHILDREN RSPWiener



المخدرات وطلبة المدارس

تأليف: ر. س. ب. وايسر

عرض وتحليل الكثرة: عدنان الدوري

في الجامعة المذكورة ، اما كتابه هذا فهو حصيلة البحث العلمي الذي تقدم به لنيل درجة الدكتوراه في جامعة لندن .

ينقسم الكتاب الى اقسام ثلاثة خصص القسم الاول كمدخل نظري لعرض أبعاد مشكلة المخدرات بوجه عام وبيان أهداف الدراسة وإيجاز بعض الدراسات العلمية التي تناولت هذه المشكلة . وقد خصص القسم الثاني لعرض ماهية الدراسة الميدانية حيث تناول طريقة البحث وكيفية اختيار عينات البحث وعمليات الاستبيان وجمع المعلومات المطلوبة . أما القسم الثالث فقد تضمن خلاصة النتائج وبعض التوصيات المتصلة بموضوع المشكلة . كما ذيل الكتاب بملاحق خاصة باستمارات البحث والاستبيان وبعض الرسائل المتداولة لغرض جمع المعلومات المطلوبة .

ان موضوع العقاقير المخدرة يشكل موضوع الساعة في أولوياته بين البحوث والدراسات الاجتماعية والنفسية والطبية، والطبية العقلية والقانونية المعاصرة . لقد ظهرت كتب عديدة ودراسات علمية لا حصر لها تناولت هذا الموضوع ، الا أن الجديد في هذا الكتاب انه يعالج جانبا حيويا من هذه المشكلة ، وهي ظاهرة تفشي هذه السموم المخدرة بين فئة طلبة المدارس من المراهقين الذين لا تتجاوز أعمارهم التاسعة عشرة .

مؤلف هذا الكتاب الدكتور برايسر من الباحثين العلميين المتخصصين في معالجة المشكلات الاجتماعية الذين يعملون في مدرسة لندن للدراسات الاقتصادية ، كما قد درس علم النفس في جامعة سدني باستراليا ، وعمل فترة ما في المعهد القومي لعلم النفس الصناعي

وعلى الرغم من أن الباحث في كتابه هذا لم يهدف إلى معالجة مشكلة المخدرات بوجه عام ، إلا أنه أفرد ما يزيد على السبعين صفحة من كتابه لعرض أرضية أكاديمية نظرية لموضوع المخدرات ، وهذا لا شك يعكس اهتمام الباحث بالاطار النظري العام الذي يشكل المدخل الأكاديمي للدراسة موضوع الكتاب .

وإذا كان الإنسان قد استخدم العقار المخدر منذ آلاف السنين إلا أن هذه العقاقير المخدرة لم تصبح مشكلة ذات أبعاد اجتماعية ونفسية وطبية وقانونية إلا خلال القرنين الماضيين . أما اليوم فقد بلغت مشكلة العقاقير المخدرة أبعاداً خطيرة لدى الكثير من المجتمعات المعاصرة ، وليس أدل على ذلك من بعض الإحصائيات العالمية التي تشير إلى أن عدد الأشخاص الذين يتناولون نبات الماروانا يزيد على المائتي مليون شخص في جميع أنحاء العالم . وهناك إحصائيات عالمية لعام ١٩٦٢ تشير إلى أن عدد الذين يتناولون بعض العقاقير المهدئة والمنشطة بصورة غير مشروعة يزيد على العشرة ملايين شخص في العالم . أما في الولايات المتحدة الأمريكية فإن مشكلة المخدرات تجاوزت أبعادها التقليدية المألوفة، حيث يشير المكتب الفدرالي للمخدرات في إحصائية صدرت في عام ١٩٦٥ أن عدد المدمنين على عقار الهيروين وحده بلغ (٥٥٨٩٩) شخصاً ، هذا على الرغم من تلك العقوبات الشديدة التي تضعها القوانين الجزائية الأمريكية لمنع تداول هذا العقار منذ عام ١٩١٤ .

ما هو المقصود بالعقاقير المخدرة ؟

هناك تعريف عام ورد بقاموس أكسفورد الانجليزي يعرف العقار بأنه كل مادة طبية جوهريّة عضوية أو غير عضوية تستخدم بصورة نقيّة أو في تركيب كيميائي خاص . وهذا التعريف لا شك لا ينصرف إلى العقار المخدر الذي يتناوله الشخص بصورة غير مشروعة ، فالعقار لا يصبح مشكلة إذا استخدمه صاحبه

لأغراض طبية علاجية مشروعة أو تحت إشراف طبي . أما العقار المخدر الذي يمنع القانون تداوله فهو كل مادة كيميائية تؤدي إلى تغير محسوس في مزاج الشخص الذي يتناوله ، وإلى تبدل واضح في شعوره وفي إدراكه ، وذلك حين يستخدم هذا العقار بصورة غير مشروعة وبأسلوب يخالف معايير المجتمع ونظمه . ولكن ما هي تلك المواد المخدرة التي يمنع القانون تداولها خلافاً للأغراض الطبية المشروعة ؟

أن العقاقير المخدرة التي يشيع استعمالها اليوم بين غالبية الشباب والمراهقين هي الأنواع التالية :

(١) مركبات الأفيون opiates وبوجه خاص مركب الهيروين heroin .

(٢) مركبات نبات القنب cannabis

(٣) عقاقير الهلوسة وبوجه خاص المركب المعروف LSD .

(٤) مركبات الأمفيتامين amphetamines

(٥) مركبات حامض البريتوريك barbiturates .

(٦) المركبات التي تشتمل على الأمفيتامين وحامض البريتوريك معا .

ولعل من الضروري أن نتناول هذه العقاقير بتعريف موجز لبيان بعض صفاتها المميزة وتأثيراتها المختلفة .

أولاً - مركبات الأفيون : وقد عرف الإنسان الأفيون opium منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، أما عقار الهيروين heroin فهو مركبات الأفيون فقد ظهر في ألمانيا منذ عام ١٨٩٨ وهو عقار يجري تصنيعه من

اما التأثيرات الشائعة لهذه المركبات فهي طلاقه اللسان واحلام اليقظة وزوال القلق والمعوقات الباطنية لحرية النشاط والشعور بالمرح والتفكير والارتخاء . كما وهناك خطأ شائع يدعو الكثير للاعتقاد بأن لهذه المركبات تأثير معين في زيادة الطاقة الجنسية ، ولكن الثابت علميا انه لا توجد علاقة بين مثل هذه المركبات وبين زيادة الحيوية الجنسية ، ولكن ربما لبعضها تأثير في اطالة العملية الجنسية . أما بعض التأثيرات الضارة لمثل هذه المركبات فهي لازالت موضوع خلاف كبير . فقد يجد البعض ان الاعتياد على هذه المركبات لمدة طويلة يؤدي الى تدهور القدرات الذهنية ويضعف القدرة على مواصلة العمل المنتظم ، كما يؤدي الى اضطراب العلاقات الاجتماعية بالآخرين ، وهو في الغالب يقود الى حالة الادمان على المخدرات . الا ان منظمة الصحة العالمية لا تؤيد ظهور حالة الاعتماد البيولوجي نتيجة تناول هذه المركبات ، ولكن مثل هذه المركبات تؤدي الى حالة الاعتماد النفسي . كما يرى البعض الآخر ان هذه المركبات هي اقرب في تأثيرها الى تأثير الكحول ، وهذا يجعلها بعيدة عن مركبات الافيون ، اذ ان استعمال مركبات نبات القنب بصورة معتدلة، كما يراها البعض ، لا تزيد في خطورتها عما يتعرض له الانسان نتيجة اسرافه في تناول الكحول . الا ان هناك من يعتقد بان تناول هذه المركبات يشكل جواز سفر للمعبور الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى اشد خطورة كالهيروين حيث تؤيد غالبية الاحصائيات وجود مثل هذه العلاقة .

ثالثا - عقاقير الهلوسة hallucinogenics ومن أبرز أنواعها العقار الشائع باسم LSD والعقار DET والعقار DMT والعقار DPT . وربما يكون عقار LSD أكثرها شيوعا لسهولة الحصول عليه . وهذه عقاقير في الغالب تؤدي الى تغيرات محسوسة في التفكير وفي الإدراك

عقار المورفين ويطلق عليه علميا مصطلح diacetylmorphine . ولا شك ان مركبات الافيون ومنها عقار الهيروين تعتبر من أخطر العقاقير المخدرة ، حيث تقول منظمة الصحة العالمية ان هذا العقار يؤدي الى حالة الادمان addiction حيث تتبلور الرغبة الشديدة لاستمرار تناول العقار بأية وسيلة كانت والرغبة المستمرة لزيادة كميته ، وبالتالي الاعتماد المباشر على العقار يوما بعد يوم . ويرى الكثير من العلماء ان هذا العقار يؤثر على الجهاز العصبي المركزي ، والى هبوط الفعاليات الجثمانية والعقلية واحتقان حدقة العين والامساك المعوي وانقطاع طمث النساء وفتور في الرغبة الجنسية وغير ذلك من الامراض الاخرى . ولا شك ان ادمان عقار الهيروين يفقد المدمن قدرته على مواصلة حياة اجتماعية سوية وتكوين علاقات سليمة بالآخرين ، كما وان المدمن لا يسعى في الواقع الى عقد صداقات جديدة خارج اطار علاقته بالمدمنين من أمثاله ، ولذلك فهو غالبا ما يفضل العزلة على تكوين صداقات جديدة .

ثانيا - مركبات نبات القنب cannabis وهذه عقاقير عرفها الانسان منذ عام ٢٧٣٧ قبل الميلاد ، وهي تستخرج من اوراق او بدور او قشور نبات يعرف بالقنب cannabis saliva ومن أشهر أنواعه الماريوانا marijuana وتستخرج من الازهار المجففة لأنثى هذا النبات ، والنوع الثاني هو الحشيش hashish وهو يستخرج من مسحوق النبات المجفف بعد مزجه بالمادة الصمغية التي تكسو قشرة هذا النبات . وهناك أكثر من ثلاثة وتسعين اسما يطلق على مستحضرات نبات القنب ، الا أن الشائع منها الماريوانا والحشيش والكيف والداجا والجانجا .

تشير بعض الاحصائيات الاميركية الصادرة في عام ١٩٦٥ الى ان عدد الوصفات الطبية التي صرفت من قبل الجهات الصحية بصورة مخالفة للقانون تجاوزت ٣٨٠.٠٠٠ وصفة طبية . أما تأثير هذه المركبات فيقول الاطباء المتخصصون انها تزيد من ارتفاع ضغط الدم وارتخاء العضلات واتساع حدقة العين ، وهى فى الغالب تساعد على زوال الارهاق الجسدى والعقلي وتضاعف الحيوية وتزيد الثقة بالنفس . ويؤكد بعض الاطباء ان تناول هذه المركبات بصورة معتدلة وبكميات صغيرة وفى اوقات متفاوتة لا يثير مشكلة ادمان بالمعنى الطبى ، الا ان تناولها بكميات كبيرة وبأوقات متكررة يؤدى الى حدوث تأثيرات سلبية كحدوث زيادة مفرطة فى الحيوية ربما تقود الى بعض النتائج غير المرغوب فيها اجتماعيا ، كما قد تؤدى الى حالة الانهيار او الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى .

خامسا - مركبات حامض البريتيوريك Barbiturates وهذه تدخل فى الغالب تحت مركبات الامفتامين الا انها تختلف فى تأثيراتها الكيماوية والنفسية ، فالامفتامين عقار منشط يضاعف حيوية الجهاز العصبي ، بينما تعتبر مركبات حامض البريتيوريك عقاقير مسكنة مهدئة خافضة للحياة . ولعل مركبات حامض البريتيوريك اقل خطورة من مركبات الامفتامين ، وذلك لعدم شيوعها بين الشباب والمراهقين على نطاق واسع .

والدراسة الميدانية او البحث العلمى موضوع هذا الكتاب جاء عرضه فى القسم الثانى والثالث من الكتاب . وفى القسم الثانى طرح الباحث خطته فى البحث والطرق التى استخدمها فى جمع البيانات المطلوبة ، وكيفية اختيار عينات البحث وتنفيذ خطوات البحث . أما القسم الثالث فقد خصصه الباحث لنتائج البحث وتحليل المعلومات المتحصلة وطرح بعض التوصيات .

وفى المزاج ، ولكنها لا تؤدى الى اضطرابات دائمية فى الشخصية . وقد اكتشف عقار LSD علميا منذ عام ١٩٣٨ ، الا ان الاهتمام بدراسة آثاره تبلور خلال عام ١٩٤٣ . ويمكن ايجاز أبرز الآثار الجثمانية التى تنشأ عن تناول هذا العقار بأنها تشتمل على اتساع حدقة العين وثبات نسبة ضغط الدم ورعشة سريعة وحادة فى الركبة وزيادة فى النبض وضعف واضح فى النطق . أما الآثار النفسية فيمكن تلخيصها بظهور حالة امتزاج بين الذات والعالم الخارجى وظهور الشعور بالاتحاد مع كل الاشياء أو حالة انفصام عن الذات ، أو حالة انفصام عن العالم الخارجى . ويقول أحد العلماء بأن هناك حالة انتحار واحدة تحدث بين كل (٢٥٠٠) حالة ممن يتناولون هذا العقار . كما ويتفق غالبية العلماء على ان غالبية الذين يتناولون هذا العقار يعانون من بعض الاضطرابات العاطفية أو أنهم يعانون من اضطراب واضح فى شخصياتهم .

رابعا - مركبات الامفتامين وهذه تشتمل على مجموعة كبيرة من العقاقير يزيد عددها على العشرين ، ويشيع تسميتها بالحبوب المنشطة للحياة أو تلك التى تعرف بـ PEP-PILLS وهى اما ان تكون من مستحضرات الامفتامين بصورة نقية أو مختلطة بمركبات حامض البريتيوريك . أما المراهقون فهم يطلقون على هذه المركبات تسمياتهم الخاصة مثل مصطلح METH أو DEXIES أو BENNIES أو PURPLE HEARTS .

والأصل فى هذه المركبات انها تستعمل لأغراض طبية خاصة عرفها الطب الاميركى منذ عام ١٩٢٧ تحت اسم البنزيرين BENZEDRINE لمعالجة حالات الصرع والتسمم والحالات الكحولية وبعض الاضطرابات النفسية والعصبية الأخرى . الا أن استخدامها لأغراض غير مشروعة جاوز أهدافها المشروعة ، حيث

٢ - لم يجد الباحث اختلافات تتصل بالجنس ، أى بين الذكور والإناث ، ولكن ظهر أن غالبية أفراد الجنسين يمثلون سنا متقدمة نسبيا ، وأن غالبيتهم تد اعتادوا على الانقطاع عن الدراسة بصورة متكررة ، كما أن غالبيتهم أيضا لا يلجأون إلى آبائهم لحل ما يعترضهم من مشكلات ، وأن هؤلاء الآباء في الغالب يتميزون بليين واضح وعدم اكتراث بضبط سلوك ابنائهم أو الإشراف على تربيته .

٣ - لقد ظهر أن نوعية النشاطات التي يمارسها أفراد الجماعة التي تستخدم العقاقير المخدرة في أوقات فراغهم هي أقرب إلى تلك التي يزاولها البالغون بوجه عام ، كالتردد على المقاصف ودور الرقص ودور التسلية ، وأن هذه الطائفة تنفق الكثير من المال على التدخين وعلى المشروبات الكحولية وعلى العناية باللبس وتيسير العقاقير المخدرة ، ويميل أفراد هذه الطائفة إلى الاختلاط بمن يكبرهم سنا ولا يجدون حرجا في تقليد الانماط السلوكية الخاصة بالبالغين ، ولذلك فإن أفراد هذه المجموعة يسلكون سلوكا يفوق سلوك الأطفال الذين هم في سنهم .

٤ - ويتميز أفراد عينة البحث بأنهم أقل احتراما وأكثر اندفاعا في سلوكهم ، وهم يعلمون الكثير عن المخدرات واستعمالها ومزاياها .

٥ - وقد ظهر أن أفراد عينة البحث يعتقدون بأن تناول العقاقير المخدرة يزيد من جاذبيتهم الجنسية لدى الجنس الآخر .

أما القسم الثالث فقد تضمن توصيات الباحث بهدف تقرير سياسة تربوية تعليمية تتعلق بموضوع مشكلة المخدرات بين طلبة المدارس . ويعتقد الباحث بادئ ذي بدء بأن مشكلة تعاطي المخدرات بين طلبة المدارس

ويقوم البحث على خطة اختيار مجموعتين من الأطفال أحدهما مجموعة بحث ضمت (١٠٣٩) طالبا من طلبة المدارس ممن تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة ، وقد اختارهم الباحث كعينة للطلاب الأطفال الذين يعتقد أنهم تناولوا بعض العقاقير المخدرة في فترة من فترات حياتهم ، وهم يمثلون أربع مناطق جغرافية مختلفة من منطقة مدينة لندن . أما المجموعة الثانية فهي مجموعة ضابطة تمثل عددا مماثلا من الأطفال الذين أنكروا استعمالهم للعقاقير المخدرة بشكل من الأشكال طيلة حياتهم .

وعلى الرغم من أن الباحث شعر بصعوبة التأكد من صحة استعمال الأطفال للعقاقير المخدرة ، وذلك بمجرد الاعتماد على ادعائهم المجرد ، فقد قام بتجربة تحضيرية أولية تناولت مجموعة صغيرة من الأطفال لمعرفة مدى إمكانية الاعتماد على مجرد الادعاء باستخدام العقار المخدر ، وقد دلت نتائج هذه التجربة الأولية على إمكانية الحصول على مثل هذه الاعترافات إلى حد ما .

ويظهر أن البحث كان يقوم على فرضية أولية وهي إمكانية تشخيص بعض الاختلافات بين طائفة الذين يستعملون العقاقير المخدرة وبين أولئك الذين لم يستعملوها ، وقد أمكن اختبار هذه الفرضية بطرح استبيان مفصل على الطائفتين لتحقيق هذا الغرض . ويمكن تلخيص أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث بما يلي :

١ - ظهر أن نصف أفراد مجموعة البحث قد اعتادوا على استعمال عقاقير مخدرة بصورة فعلية وأن ٧٥٪ منهم قد تناولوها بصورة غير منتظمة ، كما تأيد أن بعضهم تناولوها عن جهل لتأثيرها بينما تناول البعض نوعا واحدا أو نوعين أو ثلاثة أنواع من هذه المخدرات .

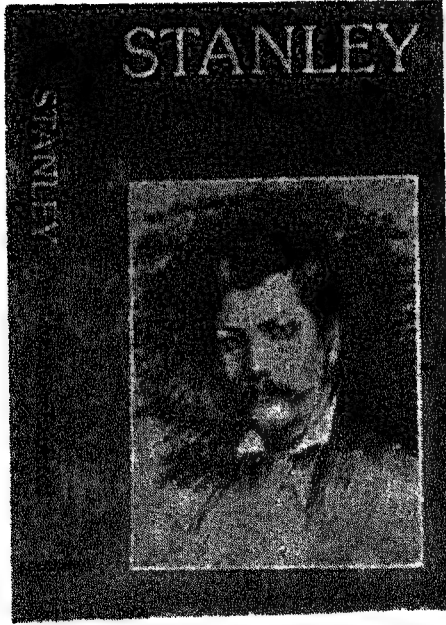
لم تبلغ بعد مرحلة خطيرة من حيث انتشارها او شيوعها . ففي تقدير الباحث أن أقل من ١٠٪ من طلبة المدارس ربما تناولوا بعض العقاقير المخدرة في فترة من فترات حياتهم تحت دوافع التقليد أو لغرض الظهور على الاقران .

ويرى الباحث ان القيام بحملة اعلامية اصلاحية بهدف تبصير الاطفال بخطر المخدرات وآثارها السيئة قد تكون في جدواها أقرب الى تلك الحملات الاعلامية العقيمة التي تقوم بها بعض الجهات الصحية من وقت لآخر لتبصير أطفال المدارس بأضرار التدخين ومساوئه . ويفسر الباحث عدم جدوى هذه الحملات الاعلامية الواسعة بأنها قد تزيد من وعي الاطفال بوجود مثل هذه المخدرات التي يجهلون موضوعها جهلا تاما ، ولذلك فان مثل هذه الحملات تعرف الاطفال بوجود مشكلة المخدرات ، الامر الذي يدفعهم الى تجربتها بدافع الفضول وبوصفها عادة شائعة غير ضارة بدليل انها شائعة بين عدد كبير من الاطفال في كل مكان .

وربما يكون لبعض الافلام الخاصة بموضوع المخدرات فائدة ارشادية في هذا الباب ، الا

ان الدراسات العلمية المتيسرة في هذا المجال لم تؤيد بالرأى القاطع ايجابية مثل هذه الافلام التعليمية ، ولذلك فان الباحث يعتقد بإمكانية القيام بحملات اعلامية بين الاطفال ، ولكن على أسس محددة واهداف مدروسة ، وبناء على دراسات ميدانية لتحديد نطاق هذه الحملات ونوعية المعلومات التي تقدم للاطفال وكيفية تقديمها والاشخاص الذين يقومون بعمليات التوعية المطلوبة ، الى غير ذلك من المتطلبات الاخرى .

وعلى العموم فان مثل هذه الدراسة الرائدة أن لم تأت بالشئ الكثير الجديد في ميدان واسع كبير فهي بلا شك قد ألقت الضوء على زاوية حيوية من هذا الموضوع حيث أظهرت نوعية الاطفال الذين يستخدمون العقاقير المخدرة ، ولكن ينبغي أن لا يقف البحث عند تشخيص الافراد الذين يستعملون هذه العقاقير المخدرة ، بل بمتابعة وملاحقة حياتهم لمعرفة من يعتاد منهم على هذه العقاقير في مستقبل حياته ومن ينقطع عن استخدامها لاكثر من سبب ، وبالتالي معالجة أولئك الذين تصبح العقاقير المخدرة مشكلة كبيرة في حياتهم ومشكلة أكبر بالنسبة لمجتمعاتهم .



ستانلي المستكشف المفاخر

عرض وتحليل . الدكتور عبد الرحمن الشرنوبلي

عقولهم ، لانزال جذوته متقدة حتى الان .
فرحلات ستانلي التاريخية ظلت وستظل من
اعظم ماسجلته قصص الرحلات اثارة في تاريخ
كشف افريقيا .

لقد قام ستانلي بأربع رحلات ناجحة الى
اواسط هذه القارة . كانت رحلته الاولى خلال
عامي ١٨٧١ و ١٨٧٢ ، وكانت الغاية منها
البحث عن الدكتور لفنجستون الذي سافر
الى القارة في مهمة كشف بتكليف من الجمعية
الجغرافية الملكية البريطانية ، ولكن بعد ان
اعتلت صحته وانقطعت اخباره ، كان لابد من
البحث عنه ، وتقصى اخباره ، فكان ان سافر
ستانلي موفدا من قبل الجريدة الامريكية التي
كان يعمل بها انذاك وهي جريدة النيويورك
هيرالد .

صدر هذا الكتاب في عام ١٩٧٤ ، اي بعد
مائة عام تماما على بدء ستانلي رحلته الشهيرة
الى افريقيا ، حيث كشف مصب نهر الكنفو
الحقيقي . الف هذا الكتاب الصحفي «ريتشارد
هول» واصدرته دار جوليتز للنشر في لندن
ويبدو ان موضوع هذا الكتاب لم يكن ليشغل
بال مؤلفه لولا ان اتيحت له الفرصة - كصحفي
- لكي يعيش في قلب القارة الافريقية لعدة
سنوات ، استطاع فيها ان يغطي بقلمه احداث
الثورة الكونغولية في بداية الستينات ، بنفس
القدر الذي استطاع فيه ان يغطي بقدمه كل
المناطق التي بلغها ستانلي في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر ، ان لم يكن قد زاد
عليها .

من هنا نستطيع القول بأن بريق تلك القارة
وسحرها ، الذي طالما سلب الاوروبيين

أما الرحلة الثانية ، فكانت في الفترة من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٧ . وكانت غايتها كشف المنطقة من زنجبار شرقا حتى مصب نهر الكونغو على المحيط الاطلسي غربا ، وكان بعد نجاحه فيها اول رجل ابيض يكتشف مجرى هذا النهر العظيم .

ولم تخرج **رحلته الثالثة (١٨٧٩ - ١٨٨٤)** عن كونها رحلة تقليدية كما يحلو للبعض ان يطلق عليها ، الا انها كانت الرحلة التي مهدت لحكم الملك ليوبولد وسيطرته على الكونغو بواسطة ستانلي وأعاون آخرين .

أما **رحلته الرابعة والاخيرة (١٨٨٦ - ١٨٨٩)** فقد جاءت تلبية للدعوة من بريطانيا لانقاذ **امين باشا** الذي تخرج موقفه وانقطعت اخباره بعد الثورة المهدية ، وحقق فيها عبورا شبيها بعبوره في رحلته الثانية .

هذه كانت رحلات « هنري مورتون ستانلي » التي سجلها في مؤلفه الخاصين :

How I found Livingstone and The Dark Continent
وفيها كل الاثارة ، وكل الفموض ، وكل المبالغة . الامر الذي جعل العالم ينظر الى هذا الرجل - ستانلي - كمعجزة عصره وبطل زمانه .

وحينما يفوس المرء في قراءته لهذا الكتاب ، سوف تعود به الذاكرة الى رائحة التاريخ الذي ميز القرن التاسع عشر وتاريخ الكشوف الجغرافية فيه كشف منابع النيل ، كشف بحيرات وسط افريقيا ، وكشف مصب ومجرى نهر الكونغو .. لاشك ان هذا الاطار التاريخي في حد ذاته ينبغي الا يجعل من ريتشارد هول بطلا حينما يغطي نفس الاجزاء التي جابها ستانلي وأكثر ، فالمؤلف حينما يعلن عن ذلك صراحة ، انما يعترف ضمنا بمقدار

الجهد الذي بذله ستانلي بين مستنقعات افريقيا وغاباتها ورطوبتها وامراضها ومواطنيها وسوف يدرك القارئ مباشرة ان الجهد الذي بذله المؤلف في رحلاته لكي يستفيد منها في كتابة مؤلفه الذي بين ايدينا عن ستانلي ، لم تحقق شيئا ولم تات بجديد . الامر الذي يدفعنا للتصور بأن المؤلف ثمت لدية فكرة الكتابة عن ستانلي ، بعد عودته كمراسل صحفي من القارة الافريقية .

لقد اصطحب « هول » معه الى افريقيا كتاب ستانلي : « كيف وجدت دكتور لفنجستون » ، ومن ثم اصطحب في رحلة « هول » خيال ستانلي مع مواقع اقدامه ووقعها ، فبدت رحلة ستانلي كما لو كانت قد تراءت تماما امام اعين ريتشارد هول ، الذي تحركت مشاعره نحو ستانلي ، فتحول من ناقد عليه - كشأن الكثيرين ممن يعرفون حقيقته - الى متعاطف معه .

ها هو ذا كتاب « ستانلي » يقسمه المؤلف الى ثلاثة اقسام لتضم سبعة وعشرين فصلا قصيرا . القسم الاول يتناول فيه رحلة ستانلي الرئيسية (١٨٧٤ - ١٨٧٧) ، والقسم الثاني ينقلنا الى شخصية ستانلي وطفولته ونشأته وحبه ، بالإضافة الى عودته من جديد الى الاستطراد في سرد ظروف كشوفه ورحلاته وعلاقاته في افريقيا . ثم ينتهي بالقسم الاخير ليحكي قصة المعاناة التي تميزت بها حياة ستانلي ، حتى بعد ان نجح في تحقيق الكثير من آماله وتطلعاته ، حتى مات في العاشر من مايو عام ١٩٠٤ .

زودنا ريتشارد هول في كتابه باثنين واربعين رسما وصورة ولاشك كان خلفها جهد كبير بذله المؤلف لكي يحصل عليها من مصادرها المتباعدة ، ربما ساعده على ذلك

« اليك بيك » وفشل في ذلك الحب اثر ؟ ترى . . هل كان لبحثه عن رجل يتبناه في نيو اورلينز مهما كانت شخصيته ، وبأى أسلوب ممكن (حتى تحقق له ما أراد على كبر) اثر في غموضه وحزنه ؟ أم لانه كان يتصف بالشذوذ الجنسي كما قال بعض علماء النفس عنه وبعض اصدقائه المقربين ؟ يالها من تساؤلات مزعجة تحيط به حقا ويكفي أن تثار . . مجرد اثاره ، لكي ندرك خلفيات هذه الشخصية والغموض الذي يكتنفها .

لقد كان « ريتشارد هول » مستعدا لتبني وجهة النظر التقليدية عن ستانلي البارد المعقد ، الذي ترتبط باسمه مظاهر الرعب والقسوة . ولقد كتب يقول : ان الخوض في دراسة شخصية ستانلي ، كتسلق جدار عمودي صلد من الجرانيت . الامر الذي يفسر احجام الكثيرين من الكتاب والمحللين عن الكتابة عن الجوانب الخاصة جدا من حياة ستانلي ، رغم انه كان من اجرا مغامر القرن التاسع عشر ، واكثرهم اصرارا ونجاحا على الاطلاق .

لكن . . لماذا كان انطباع العالم عن ستانلي الى هذا الحد من السوء طالما لم يفص الكتاب والمحللون بين جوانب شخصيته وحياته الشخصية ؟ لقد نقلت رواية جوزيف كونراد : « قلب الظلام » ، صورة ملطخة بالرعب والفرع والدماء واهدار الحقوق الانسانية على ارض هذا الجزء من افريقيا الذي طرقه ستانلي . وكان دور هذا الاخير في تلك الرواية ، دور الخادم الانتهازي الذي بنى للملك ليوبولد امبراطوريته في افريقيا . فكان لا بد ان يكون قاسيا دمويا ، لما ارتبط به تاريخ السيطرة والاستعمار من امور لانسانية في تلك البقعة من العالم .

مهنته كصحفي ، وعلاقته بالوكالات والشخصيات الصحفية .

لقد ضمن ريتشارد هول كتابه بالاضافة الى المقدمة التقليدية في بدايته ملحقاتضمن كلمة شكر لمن قدم له يد المساعدة في انجازه هذا وفهرسا للاماكن ، وآخر للاشخاص بالكتاب وقائمة جيدة ومطولة بالمراجع والمصادر قسمها وفقا لترتيب فصول الكتاب ، وعلق على كل منها .

هكذا . . وعلى امتداد اربعمائة صفحة تضمنت كافة محتويات الكتاب ، استطاع المؤلف الصحفي ان يمزج بين روح البحث والرواية ، ليخرج حقيقة ملامح وقسمات ستانلي . لقد اجهد المؤلف نفسه كثيرا لكي يميظ اللثام عن الشخصية الحقيقية لهذا الرجل الذي طالما اخفاها عن الناس . ولقد حقق المؤلف غايته ، اذ يدرك القارى ، عقب سرد المؤلف لطفولة ستانلي وظروف نشأته ، التفسير الحقيقي للغموض المتعمد الذي ميز ستانلي وتصرفاته ، فكان حزيننا ابدا مفتقرا الى الثقة بالنفس .

ان المؤلف يعرض حقائق هذه النشأة ، ويترك القارى يتساءل : ترى بعد ان قرأت هذا الجزء عن ستانلي . . هل كان لاصل نشأته تأثير على شخصيته اذ انه حقا « ابن زنا » لسيدة تدعى (Elizebith Parry) من ويلز ام لدخوله اصلحية الاحداث فترة من الزمن ؟ فقد دخلها وهو في السابعة من عمره وهرب منها بعد تسع سنوات ليعيش بعدها حياة التشرد والسعى المضني للرزق ، معتمدا على نفسه ، خلال سنوات العذاب والمهانة في انجلترا والولايات المتحدة . ام كان لحبه من تلك الفتاة ذات السبعة عشر ربيعا

اليه معونة عاجلة . وبر ستانلى بوعده فعلا
ووصله ما يريد فى اغسطس عام ١٧٨٢ .

لقد ذهل ستانلى - الذى طافت مقاله
عن هذه المهمة الناجحة كل ارجاء العالم -
عندما سمع اسمه يتردد كبطل من الابطال ،
وأصبح العالم المفتون ينظر اليه كبطل الساعة ،
لقد استطاع ان ينقل الدكتور لفنجستون ،
ويعيد للعالم صلته به ، بل ويحقق مع كل
هذا جانبا من الكشوف الجغرافية التى ذهب
من اجلها لفنجستون (٣) ويعود بالاخبار
والحقائق والفرائب معا .

لكن ستانلى الذى استطاع ان ينقل
لفنجستون وفريقه لم يكن ليقنع بهذه المهمة
التى انجزها فى افريقيا . انه مجرد صحفى
يتابع الاخبار ويحقق الحوادث ويراسل
صحيفته . لا .. هذه المرة لا بد من سبر
اغوار افريقيا . نعم ، ساكون مكتشفا ..
هكذا اراد وصمم وخطط لمهمته القادمة ..
لقد جربت بنفسى الامر ، ونجحت فيما عجز
عنه آخرون ، بل واشتركت مع لفنجستون
نفسه فى جزء من المحاولة .. لماذا اذن لا اكون
فى سجل الخالدين من امثال بورتون وسبيك
ولفنجستون نفسه ؟ . اننى ستانلى المنقلد .

لقد تردد وارتاب فى امكانيات نجاحه فى
بداى الامر ، بل داخله شعور بأن الصدفة
وحدها كانت وراء خروجه سالما من رحلته
الاولى . وان الحظ لاشك سوف يخلدله هذه

الا ان افكار المؤلف قد تغيرت تماما عن
ستانلى - على حد قوله - عندما سلك نفس
الطريق الذى سلكه صاحبنا من قبل فى رحلة
بحثه عن الدكتور لفنجستون .

يقول ريتشارد هول : لقد احسست بمقدار
الجهد الجهد الذى بذله ستانلى وهو يخترق
تلك المسافات منذ قرن مضى . لقد ادرك
المؤلف ان ستانلى حجب شخصيته الحقيقية
خلف مظاهر كاذبة ، او على الاقل ، لا يعرفها
العالم عنه . لقد وقف « هول » امام النصب
التذكارى الحقيقى لستانلى وقال : ينبغى ان
يكون الكونفو بأسره صاحب هذه الحدود
المتراصة فى افريقيا (١) ، هو النصب التذكارى
الحقيقى لهذا الرجل .

لقد كان ستانلى عدوا حقيقيا لذاته . ولقد
كان تعاميه عن اظهار بعض الحقائق ، سببا
كافيا للانتقاص من روعة انجازاته . ان
المؤلف يحاول السمو والتحليق بستانلى
كواحد من اكبر اصحاب الانتصارات فى العالم ،
ليمحو السمعة السيئة التى التصقت بهذا
الرجل . الا ان الانسانية لن تغفر له ما ارتكب
فى حق ابائنا من جرائم فى سبيل تحقيق
غاياته .

نجح ستانلى فى رحلته الاولى وعاد بأخبار
مطمئنة عن الدكتور لفنجستون (٢) الذى
رفض العودة معه ، مفضلا استمرار عمله ليتم
كشوفة ، فتركه ستانلى على أمل ان يرسل

(١) يشترك الكونفو بحدوده مع عشر دول مجاورة تحيط به من جميع الاتجاهات تقريبا .

(٢) أوفد لفنجستون من قبل الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية عام ١٨٦٦ لحل لغز شبكة التصريف النهري
فى وسط افريقيا ؟ وبحيرات هذه المنطقة ، وبطل الجهد لتحقيق منع تجارة الرقيق فى اكبر اسواقه .

(٣) انتهت الفرصة ليصبح دكتور لفنجستون فسادمه وحققا معا كشف الاجزاء الشمالية من بحيرة تنجانيقا ،
وتاكدا انها ليست ضمن منابع النيل ، كما اعتقد « بورتون » من قبل .

ان التفاصيل الدقيقة التى يذكرها المؤلف ليست جديدة على الجغرافيين ، الا ان المتابع للسرد السلس الجذاب الذى تميز به اسلوب ريتشارد هول يكتشف مقدار مغامرة ستانلى بحياته وسمعته ورجاله ومستقبله . كان انتهازيا يحارب مع الاقوى من الجماعات الافريقية المتصارعة ، وحدث هذا عندما انضم الى رجال مملكة متيسا Mtesa ضد القوما Voma عند الطرف الشمالى لبحيرة فكتورا ، وبفس القدر كان قاسيا لا يعرف الرحمة .. فقد قتل امامه العشرات ، وهو واقف يتسلى بمنظرهم ، حدث هذا وسجله بالصورة ريتشارد هول مع وصف دقيق لطريقة الامداد المحلية هناك ، وقد وقف ستانلى يشاهد ويتمعن .

اخيرا وصلت جماعة الى بوما عند مصب الكنفو . بالها من مغامرة حقيقية راى فيها ستانلى لم يره انسان ن نقائص الطبيعة .. كم مرة اجتمعت فيها المشاكل مع المظهر الطبيعى الرائع لقلب افريقيا . كم مرة سقط امامه المرضى على بسط خضراء بين افناء يعجز امهر الفنانين عن رسمها ، او حتى تخيلها . وكم كان مضحكا فعلا منظره بلباسه الفرنجى بين جماعات ضحكت عليه قبل ان يحاول حتى ان يقترب ليكتشف ما يريدون . كل هذا غير ذى موضوع امام ستانلى الآن . لقد حقق انجازا هائلا قفل بعده عائدا مرة اخرى الى زنبار عن طريق راس الرجاء الصالح .

الا ان ريتشارد هول يعود مرة اخرى الى شخصية ستانلى فى قسمه الثانى ولا يستطرد فى نتائج رحلة ستانلى . فمن هو ستانلى هذا ؟ وما هو الاسم الحقيقى له ؟ ماهى ظروف نشأته المشينة البائسة ؟ .. انها ولا شك

المرة . لقد كان ستانلى قليل الثقة بنفسه دائما لقد كان يتصور ان الرحالة والمستكشفين يكونون من علية القوم وكبراهه ، ابناء الاسر العريقة من الضباط والرياضيين الا انه - ولاول مرة - يصمم على كسر هذا الحاجز النفسى الذى افتعله بنفسه . لقد قرر ان يفرض اسمه فرضا على العالم بأسره لابد ان يحدث هذا .. نعم لابد .

ان المؤلف ريتشارد هول يتحدث بأسهاب فى القسم الاول من الكتاب عن ادق التفاصيل المتعلقة بفتاة حبه (اليك بيك) ، شكلها ، ممرها ، ودارها ، ثم عن تفاصيل اتفاقه معها على الزواج قبيل رحلته .. ذلك الزواج الذى لم يتم قط . ثم يقدم سردا لتحركاته بين نيويورك ولندن ، ومناطق اخرى من العالم وكيف سبق له ان وطد علاقته بالعديد من الشخصيات الانجليزية حينما كان ضمن فريق المراسلين لجريدة النيويورك هيرالد ، وكيف كان « وقحا » فى شجاره بالجمعية الجغرافية الانجليزية ، حينما ساورتها الشكوك حول رحلته لانقاذ لفينجستون ، ولماذا وصفته الملكة فكتوريا بعد ان دعى لمقابلتها بقصرها بأنه رجل عنيد وقبيح .

ان ستانلى مرة اخرى فى لندن يحاول ان يعد لرحلته انسب الظروف ، كما سعى للاتصال بمصادر جديدة لتمويل رحلته الثانية ، ونجح فى اجتذاب جريدة الديلى تلجراف التى وافقت على الاشتراك مع النيويورك هيرالد لتمويل المشروع . هكذا أصبحت رحلته بعثة انجلو امريكية ، وفر لها قسيسا من لندن ، والاخوين Pocock ادوارد وفردريك ، والافريقى المخلص الذى رافقه من زنبار Kalulu ، مع بعض كلابه .

يزال اسمه مدونا في سجلات الاصلاحية وقد كتب امامه اصطلاح (لقيط) . وفي هذه الاصلاحية حيث بقي تسع سنوات ، تلقى كل تعليمه . وكان مجيدا للرياضيات والجغرافيا والرسم ؛ الا انه كان سيء السلوك ، مشاغبا . فقد حاول الهرب من الاصلاحية مرتين وفشسل ، ولكنه حينما تسلق سور هذه الاصلاحية للمرة الثالثة واستطاع ان يتخطاه ، اطلق ساقيه للريح هاربا . والى الابد من هذا المكان البغيض .

اتجه بعد هربه الى مسقط رأسه ، ولكنه لم يجد ارضا صلبة يقف عليها ليحصل حتى على قوت يومه . . انه ابن تلك السيدة سيئة السمعة . ولكنه نجح بعد اسابيع قليلة في الحصول على وظيفة مساعد مدرس بمدرسة (St. Asaph)

ويتحدث « ريتشارد هول » عن كيفية التوصل الى حقيقة اسم ستانلي الحقيقي وذلك عن طريق خطاب ارسله الى خاله في ليفربول ، عقب هربه من الاصلاحية ، لكي يساعده في الحصول على عمل . ثم يتتبع تنقلاته وظروف عمله وكيف كان ضعيف السيطرة على الطلاب ، وكيف كان فاشلا في الحصول على وظيفة بمحطة سكة حديد (مولد) . وحينما وفر له خاله وظيفة كاتب في مكتب للتأمينات في ليفربول تركها ليعمل ساعيا خصوصا .

وفي خضم بأسه واصراره على عمل ، تساءل : الا يمكن ان تكون ليفربول بداية النهاية لشقاء السنين الماضية ؟ الهجرة في

استفسارات بعيدة تماما عن خواطر المهتمين بدراسة تاريخ الكشوف الجغرافية التي ارتبطت في جزء منها - بشخصية ستانلي . ولكنه كصحفي ، تحركه كوامن المهنة و « فريزتها » ، فيسعى بصبر لتحقيق سبق لا جدال ، حول هذه الشخصية ، والجوانب النفسية التي تتحكم في تصرفاتها .

ولد جون رولاندز (John Rolands) وهو الاسم الحقيقي لستانلي ، من ابنة جزار كانت تعمل في مخبز عند اطراف مدينة (Denbigh) الصغيرة ، الواقعة في شمال شرق ويلز في ٢٨ من يناير عام ١٨٤١ (٤) . ويقال ان المخبز الذي كانت تعمل فيه هذه السيدة واسمها اليسزابيث باري (Elizebeth Parry) كان يقع خلف مكتب للشئون القانونية والمحاماة ، يعمل به شخص يدعى فوغان هورن (Vaughan Horne) الذي ولع بها حباً ، وتورطت معه في علاقة غرامية حملت خلالها منه سفاحا هو جون رولاندز (ستانلي فيما بعد) . الا ان ابوة هذا الرجل لجون ، او حتى ابوة غيره لهذا الطفل ، لا تزال لغزا غامضا ، خصوصا وان امه قد انجبت بعده ، وخلال الخمس عشرة سنة التي أعقبت ميلاده ، انجبت ثلاثة أبناء آخرين غير شرعيين . يالها من امرأة سيئة السمعة اذن ، ويالها من نشأة قائمة لجون !

لقد وجد نفسه وهو في سن السادسة - اي جون رولاندز - بين اسوار اصلاحية للاحداث (منذ فبراير عام ١٨٤٧) . ولا

(٤) لم يحدد ستانلي مطلقا تاريخ ميلاده ربما عن عمد . وكان يفصل ان يقول انه من مواليد عام ١٨٤٣ . كتب على قبره انه ولد في العاشر من يونيو عام ١٨٤٠ . ويذكر سجل وفيات التاييز انه ولد « حوالي » عام ١٨٤٠ . اما دائرة المعارف البريطانية فتذكر في طبعتها الحادية عشرة انه ولد عام ١٨٤٢ ، كما يذكر قاموس ناشيونال بيوجرافي ، ان ستانلي من مواليد عام ١٨٤١ .

لم يدم عمله خلال الحرب الاهلية ، فقد كان جنديا فيدراليا ، ولكنه مرة أخرى كان مشبوه التصرف كالمرتزقة ، يحارب مع الجانبين . وأصبح يحس في قرارة نفسه بأنه فعلا كالمتشرد الذي يحيا حياة مشبوهة يعوزها الاستقرار .

وفي اجازة له كان يقضيها في اوروبا زار مدينته (Benbigh) وكتب في سجلها اسمه الحقيقي : انا جون رولاندز الملازم في البحرية الامريكية ، ملتحق بالفرقاطة Teconderoga ، وأعمل حاليا في تركيا . وكتب تاريخ الزيارة : ١٤ ديسمبر ١٨٦٦ .

وحينما قام برحلة الى لندن ، استطاع ان يقابل مندوب جريدة النيويورك هيرالد ، وهو الكولونيل اندرسون (Finaly Anderson) عام ١٨٦٧ ، ووطد علاقته به ، الامر الذي مهد لستانلي ليصبح مراسلا لنفس الجريدة فيما بعد ، بل بعد قليل جدا من تركه عمله بالبحرية الامريكية في نفس السنة (١٨٦٧) .

بدأ عمله مراسلا بمخالفة أوامر المسؤولين في هذه الجريدة الذين طلبوا اليه ان يتجه غربا من لندن ، ولكنه رفض واتجه شرقا . . هكذا . كما اخفى اسمه الحقيقي - والى الابد هذه المرة - ولم يكن قد استقر على اسمه الاوسط حتى أصبح بورتون . هنرى بورتون ستانلي ، ذلك المراسل الصحفي لجريدة نيويورك هيرالد الامريكية ، الذي تنقل بين الحبشة والهند والاسكندرية والقاهرة وغيرها من مدن شرق افريقيا والشرق الادنى .

ومن خلال العودة الى الحديث عن مغامراته في افريقيا بعد هذا السرد المطول والدقيق عن

ذروتها ، والميناء يستقبل الف اسرة مهاجرة الى العالم الجديد اسبوعيا . والميناء غاص بالسفن ، والبحارة بالعشرات والمئات .

نجح ستانلي في العمل على ظهر السفينة وندرمير (Windermere) المتجهة الى نيو اورليانز كمنظف للكبائن ، لقد رأى الاهوال في أول رحلة له استغرقت سبعة اسابيع . لقد وجد نفسه مرة أخرى فريسة للوحدة والانعزال والمهانة ، كما قاسى كثيرا من نومه تحت المقاعد ، ومن اضطراب صحته بتأثير دوار البحر . . . وغير ذلك كثير .

وحينما دخلت السفينة الى الميسيسيبي ، وقعت عينه على عظمة هذا النهر ، وشاهد ما عوضه عن شقاء الاسابيع الست ، وفي وصف ادبي رائع يتحدث المؤلف عن هذا المشهد مستطردا : انه الجنوب ، ارض القطن والزئوج وملاك الاقطاعات الزراعية الهائلة من المهاجرين الاوروبيين .

وحينما كان المعجوز « ستانلي » الذي يعمل سمسارا للقطن بين الزراع على امتداد الميسيسيبي ، وتجار نيو اورليانز ، وقعت عيناه على جون رولاندز الذى بادره بالسؤال في رنة حريثة شيقة : سيدى . . . هل تريد غلاما يكون في خدمتك ؟

بعد ان رحب المعجوز ستانلي الذى لم فى ينجب ولم يتخذ من قبل ولدا ، وكذلك زوجته ، بمقدم هذا الغلام ، لم يلبث ان طرده لقلّة حيائه ولسوء أدبه ، ولكنه بعد ان استقام ومارس العمل الشريف ، وحقق ارباحا سال لها لعابه ، استقل في أعماله وكان محبا مخلصا لعمله لدرجة كبيرة . وكان قد عرف آنذاك باسم هنرى ، انه الآن هنرى ستانلي .

الزعيم العربي (Tippu Tib) الذي ساعده في الهبوط الى نهر الكونغو .

ويكتب المؤلف عن رحلته في مجرى هذا النهر الكبير بأسهاب ، ويكتب عن تفاصيل توزيع قواته او افراد حملته في النهر والبر ، وكيف تعرضت جماعة النهر الى متاعب جمة ارتبطت في معظمها بالاندفاع الشديد للمياه والشلالات ، بنفس القدر الذي تعرضت فيه جماعات البر لمتاعب المستنقعات والغابات والامراض والحيوانات المفترسة . ولكنه بعد كل هذا ، استطاع ان يبلغ مدينة بوما . Boma على مصب هذا النهر ، ولقد اكد المؤلف - وهو موفق في هذا كل التوفيق - على وقفة الركب عند الشلالات التي سميت فيما بعد بشلالات ستانلي (يناير ١٨٧٧) ، والمدينة الصغيرة التي عرفت كذلك فيما بعد بمدينة ستانلي (ستانلي فيل) . واخيرا ... عاد « ستانلي » الى زنبار بطريق البحر عن طريق رأس الرجاء الصالح . وهكذا وفق المؤلف في عرض هذا الجانب ، ولكنه عرض اساسه المعلومات التاريخية التي اتي بها غيره من قبل . ولقد سجل خط سير الرحلة على الخريطة الوحيدة بالكتاب ، التي وضعها « ديكورا » للغلاف الداخلي للكتاب .

حكى « ستانلي » وكتب ونشر العديد من المقالات عن رحلته الرئيسية هذه . وكان من بين ما ذكره طواف العالم وفتن رجال اعمال اوروبا واقتصاديينها ، حديثا مسهبيا عن الاقتصاد الفابي الممكن قيامه في افريقيا ، نخل الزيت ، الاخشاب بأنواعها ، والمطاط ... وغيرها كثير كثير . فسال لعاب القوم ،

حياته الشخصية ، يعود « ريتشارد هول » مرة اخرى ليحكى ادق علاقاته مع جماعات الكشف التي صاحبته من الاهالي او المرافقين البيض ، ومقدار حرصه على الحصول على أية مكاسب ترفعه الى حد الشهرة او الفنى ، وفي سبيل ذلك استخدم اسلوب المرتزقة تارة والمهادنة تارة اخرى والقمع والمكر والخداع تارة ثالثة ، حتى انه عالج تمرد جماعة الوطنيين التي كانت تصاحبه في احدي رحلاته ، بالقتل رميا بالرصاص . ولقد سجل ريتشارد هول هذه الحادثة بين حوادث اخرى تنم عن نفس شرسة بعيدة عن الرحمة ، كما صور لنا كيف كان ينتقل من ورطة الى اخرى خلال تجواله في وسط افريقيا بين وحوش مفترسة ، وغابات هائلة كثيفة ، وامراض قاتلة ، وشلالات رهيبه ، بالاضافة الى ما ذكره من مشاكل « ستانلي » مع بعض الشخصيات والجمعيات العلمية ، ووصف مفصل للقاءه بالدكتور « لفنجستون » .

حينما توجه ستانلي الى زنبار عام ١٨٧٤ - كما يقول « ريتشارد هول » حقق بعد انطلاقه منها أهم هدف له ، حينما اطمأن الى انه اتي بجديد حينما اكد ان بحيرة فيكتوريا بحيرة واحدة ، واكتشف لأول مرة وادي نهر كاجيرا كمخرج وحيد لهذه البحيرة . ثم اتجه الى تنجانيقا ، ووصل الى اوجيجي ، ودار محاذيا سواحلها بقرابه واثبت انها بحيرة مغلقة لا علاقة لها بنهر النيل كما قال « بوتون » من قبل ، والتقى - بعد ان عبرها الى الجانب الغربي - بالشيخ حميد بن محمد

بين صفحاته ، قصة الصراع العالمي الدموي على ارض افريقيا ، قصة الصراع على الارض والرجال والثروات ، اجرت فيها اراض افريقية ، وبيعت اخرى ، ودار قتال على انتزاع ثلثة من ابناءها.. وهكذا سار الشوط بافريقيا الصابرة .

ان المؤلف يختم كتابه بعرض لشخصيات مجهولة وقفت وراء ستانلي تدفعه وتؤازره ، مالا وعطفا وحبا . ولكنه ابدا لم يتغير حتى آخر ايام حياته حينما وافته المنية صباح العاشر من مايو عام ١٩٠٤ . فرغم انه منح الجوائز والتقدير من الملوك والعظماء ودور الصحف الكبرى في اوروبا وامريكا ، الا انه لم يدفن بجوار العظماء في كنيسة « وست منستر » بجوار لفنجستون كما اراد لنفسه في بداية الشوط . لقد رفض رئيس الكنيسة دفنه بها بدون ابداء الاسباب . ويبدو ان شعورا خفيا لدى ستانلي كان يحركه نحو عدم الثقة بما يود ان يبلغه ، فكتب في مذكراته بالحرف الواحد : « انني لم آت الى الدنيا من اجل الحصول على السعادة ، او السعي اليها ، فقط اتيت من اجل عمل خاص اؤديه ... » .

ان الكتاب يزخر بالتحقيقات الدقيقة التي تتبّع حياة الرجل ، ساقها « ريتشارد هول » بأسلوب ذكي ، ولكنه بسيط وسلس وجذاب ، شأن الكتابة الصحفية المتمرسية التي تخاطب العامة والمثقفين على حد سواء . والكتاب بهذا الاسلوب حين يجمع بين البحث الدقيق لبعض القضايا التاريخية والجغرافية مما لا يتسع المجال لعرضه في هذا السياق ، وبين الرواية الجذابة المثيرة المصورة ، هذا بالإضافة الى قرب المؤلف الشديد من دقائق اسرة

وتشكلت الرابطة الدولية للكونفو (٥) براس مال بلجيكي الماني ايطالي ، لكن حماس مساهمة ملك بلجيكا « ليوبولد » كان ينبىء بأن امرا ما ينتظر تلك المنطقة .

وبالتدريج ، تحول ستانلي الى خدام مخلص للملك « ليوبولد » حينما سافر للمرة الثالثة عام (١٨٧٩) وظل حتى عام (١٨٨٤) جعل الكونفو خلالها مزرعة هائلة لهذا الملك . فكانت الشرارة الاولى التي احرقت هذه القارة فيما بعد .

وفي عام ١٨٨٦ — علمت اوروبا بحصار وعزل الحاكم المصري للمنطقة الاستوائية — الذي لم يكن مصريا ابدا — بعد قيام الثورة المهدية ، ولا بد من العمل على انقاذه . وعندما تشكلت لجنة الانقاذ هذه ، كان على رأسها « ستانلي » ، وكيف لا .. الم ينقل دكتور « لفنجستون » من قبل ؟ ..

وصل « ستانلي » فعلا الى حيث التقى بأمين باشا على شاطئ بحيرة البرت ، وبدلا من انقاذه ، عرض عليه العمل كمدير في خدمة الملك « ليوبولد » بشروط مالية لم يوافق عليها « أمين باشا » . وفي طريقه الى الساحل الافريقي ، استطاع ستانلي عقد عدة اتفاقيات مع الزعماء الوطنيين من النوع الذي احكم قبضة الاستعمار على مناطقهم فيما بعد ، حتى كانت معاهدة (ماكينون) المعروفة التي ابرمت بين الشركة البريطانية لشرق افريقيا وحكومة الكونفو .

وهكذا تدخل افريقيا دورا لا يستغرق « ريتشارد هول » كثيرا في الحديث حوله ، ولكن التاريخ الافريقي يعرفه ويسجله بدقة

لم يخل الكتاب من بعض الأخطاء المطبعية - شأن بعض الكتب التي تخرجها دور النشر الانجليزية في الآونة الأخيرة للأسف على غير ما عودتنا . والكتاب يفتقر الى ترتيب افكاره ترتيبا علميا،بالاضافة الى ان المؤلف استخدم عناوين فصوله بأسلوب مثير فيه تورية . ومع كل هذا ، فان الكتاب بحجمه وأسلوبه وصوره ومستنداته ، يرقى الى مصاف الكتب التي يسمي المرء لاقتنائها .

« ستانلي » وارثيفها « سواء في انجلترا او الولايات المتحدة ، مع التجربة الخاصة والمباشرة للمؤلف في افريقيا ، يجعل كل هذا من كتاب « ستانلي » المستكشف المغامر ، كتابا مفيدا بحق لما يضيفه من جديد ، ويعدل مسار بعض الافكار عن هذه الشخصية ، ولكنه لم يأت بجديد في مجال الكشف او التحقيق التاريخي الذي كان بعيدا عنه كل البعد .



من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الاعداد القادمة

1. Clark, W., Ronald, *The Life of Bertrand Russel*, Jonathan Cape and Weidenfeld & Nicolson, London 1975.
2. Frye, Richard N. , *The Golden Age of Persia, The Arabs in the East*, Weidenfeld Nicolson, London, 1975.
3. Haswell, Margaret, *The Nature of Poverty, A Case-History of the First Quarter Century After World War II*, Macmillan Press Ltd., 1975.
4. Howe, Michael, *Learning in Infants and Young Children*, Macmillan Press Ltd., 1975.
5. Swingewood, Alan, *The Novel and Revolution*, Macmillan Press, 1975.



عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧

أزمة البيئة
الإنسان بين العلم والبيئة
البيئة والجريمة
بيئة العرب بين البقاء والبقاء

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت ✻ يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص ١٩٣

المحتويات

الانسان والبيئة

٢ بقلم التحرير	التمهيد
١٣ الدكتور احمد ابو زيد	ازمة البيئة
٢٥ الدكتور محمود احمد الشرييني	الانسان بين العلم والبيئة
٧٣ الدكتور حسن صادق المرصفاوى	البيئة والجريمة
١٢٧ الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبى	بيئة العصر : بين البقاء والافناء

★ ★ ★

آفاق المعرفة

١٦٩ الدكتور منصور احمد منصور	الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق
١٨٩ الدكتور عبد الوهاب حومد	عقوبة الامداد بين الابقاء والالفاء

★ ★ ★

أدباء وفنانون

٢١١ الدكتور مناف منصور	ميخائيل نعيمة .. ناقداً أدبياً
-----	--------------------------	--------------------------------

★ ★ ★

عرض الكتب

٢٤٧ بقلم الدكتور اسعد عبد الرحمن	قوة الغدائين العرب ١٩٦٧ - ١٩٧٢
 للدكتور ليون الكساندر	النمو الانسانى فى عصر التحضر
٢٥٧ مراجعة الدكتور اسحق يعقوب الفلادبا	

الدراسات التي نشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

الانسان والبيئة

تقديم

شهدت السنوات العشر الأخيرة زيادة كبيرة في اهتمام العلماء والمخططين والسياسيين ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع بمشكلات البيئة ، والتغيرات التي تطرأ عليها واساليب التعامل معها والاضرار التي تلحق بها نتيجة لمبالغة الانسان في استغلال مواردها الطبيعية ، والى اى حد ينعكس هذا كله على حياة الانسان والمجتمع ، وواضح ان هذا الاهتمام لم يكن قاصرا على البحث عن مدى ما يمكن ان تقدمه الطبيعة للانسان من ثروات ، او الطريقة المثلى التي يمكن للانسان ان يكشف بها عن هذه الثروات والموارد ، وفضل الاساليب لاستغلالها ، وانما كان ، بالاضافة الى هذا كله ، يحاول الكشف عما لحق بالبيئة الطبيعية من اضرار واذى قد يصعب علاجها او تلافيتها نتيجة لسوء الاستغلال وسوء الفهم . وقد انعكس هذا الاهتمام في ثلاثة أمور : -

الامر الاول : هو كثرة الكتابات التي تهدف الى تنبيه الازهان الى الاخطار المحدقة بالبيئة الطبيعية وطريقة المحافظة عليها ، والابقاء على ما يعرف باسم التوازن الايكولوجي (اى التوازن بين كل

عناصر البيئة من ناحية وبين الانسان والبيئة من الناحية الأخرى) وكذلك الاخطار التي سوف تحقيق بالانسان والمجتمع ، والتي قد تودى بهما كليهما ان لم يغير الانسان من سياسته وموقفه من الطبيعة . وتحمل هذا الكتابات غير قليل من التشاؤم والشك عن مستقبل البيئة والحياة الاجتماعية السليمة . ورغم ما قد يكون في هذه الكتابات من مبالغة وتهويل فانها تكشف بغير شك عن جانب هام من العلاقات المعقدة المتشابكة بين الانسان والطبيعة ، وهو جانب يستحق ان يلقي الكثير من العناية والاهتمام ، نظرا لارتباطه الوثيق المباشر بمستقبل الجنس البشرى .

الأمر الثاني : هو اهتمام المحافل الدولية والمنظمات العلمية بمقدد المؤتمرات والندوات التي تعالج فيها مشكلات البيئة بوجه عام ، وأثر هذه المشكلات على الحياة الاجتماعية وعلى الحضارة . وكان من أهم هذه المؤتمرات الدولية مؤتمر أخطار البيئة الذي عقد في استكهولم عام ١٩٧٢ ، وحضره مئات من المهتمين بشئون البيئة من مختلف التخصصات ، ثم ما ارتبط بهذا المؤتمر من اهتمام الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة بإجراء عدد كبير جدا من الدراسات والبحوث الميدانية في مختلف انحاء العالم ، للتعرف على التغيرات التي يحدثها الانسان عن طريق مشروعات التنمية الاقتصادية في البيئة الطبيعية ، وانعكاس هذه التغيرات آخر الامر على حياة الانسان نفسه . ويكشف هذا الجانب بصورة واضحة عن العلاقة الوثيقة بين الانسان والبيئة ، وهي علاقة عضوية ، قلما كانت تلقى ما تستحقه من عناية واهتمام . وسوف يجد القارئ في هذا العدد كثيرا من الاشارات الى هذا المؤتمر والنتائج المترتبة عليه .

الأمر الثالث : هو الاهتمام الذي تبديه الآن بعض الدول المتقدمة والصناعية باتشاء وزارات واقسام وإدارات واجهزة حكومية لشئون البيئة، يكون من أهدافها وضع الخطط لاحكام السيطرة على البيئة ، وتنظيم عمليات الاستغلال بطريقة محسوبة بدقة ، حتى يمكن المحافظة على تلك العلاقة الدقيقة القوية بين الانسان والطبيعة . وربما كان من آخر هذه الوزارات ما لجأت اليه بريطانيا في أكتوبر عام ١٩٧٠ من تعيين وزير دولة للبيئة تخضع لإشرافه ثلاث من أهم الوزارات التي كان يشغلها دائما وزراء أهم مكانتهم وأهميتهم في الحياة السياسية الحزبية وهي وزارة النقل ، ووزارة الأشغال العامة ، ووزارة الحكومة المحلية والسكان . ومن أهم ما يضطلع به وزير الدولة لشئون البيئة التنسيق بين أعمال هذه الوزارات بما يكفل ضمان المحافظة على البيئة المحلية والعمل على تحسينها لتوفير حياة أفضل للأهالى . والواقع ان بعض الدول الأخرى سبقت بريطانيا في هذا المضمار ، اذ كانت كل من السويد وفرنسا قد أنشأت وزارات لشئون البيئة تعنى في المحل الأول بأمور المحافظة على جمال البيئة الطبيعية ، كما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تهتم اهتماما خاصا بتكوين هيئات من العلماء والمستشارين والأخصائيين في شئون البيئة ، يضعون خبراتهم تحت تصرف رئيس الدولة حيث يقدمون له النصيح والمشورة في كل ما يتعلق بأمور البيئة ، وبخاصة المحافظة عليها وتحسينها وحفظ ذلك التوازن الإيكولوجى الدقيق .

الانسان والبيئة

وبواضح من هذه الاتجاهات الثلاثة ان معظم الاهتمام الذى تبديه الهيئات والاجهزة المتخصصة بل وحتى العلماء الافراد انفسهم في معالجة شئون البيئة تتصل بأمور محددة يمكن اجمالها في التالي:

١ - الاعتراف بموقف الانسان المعادى للطبيعة ، واستخفافه عموما بمكوناتها ، وعدم ادراكه لمدى الاضرار التي يلحقها بها ، وكذلك عدم ادراكه ان مصادر الثروة الطبيعية محدودة نسبيا ، وانها تستهلك نتيجة للزيادة الهائلة المطردة في عدد السكان، مع عدم ترشيد الاستهلاك وازدياد حاجيات الانسان والرغبة في اشباع هذه الاحتياجات .

٢ - على الرغم من اهتمام هؤلاء العلماء وتلك الاجهزة والهيئات بتحديد مدى الضرر الذى يلحق بالبيئة فان هذا الموقف ينطوى الى حد كبير على كثير من السلبية نظرا لعدم الاهتمام ، او ربما عدم القدرة على ابداء اقتراحات محددة تتعلق بإمكانية انقاذ البيئة من سوء استعمال الانسان والوسائل التى تحقق ذلك ، وربما كان هذا العجز ناشئا عن عدم وضوح الرؤية امام الكثيرين عن مكونات البيئة والعلاقة بينها وبين حياة الانسان ، وبخاصة الحياة الاجتماعية ، بكل ما تشتمل عليه من نظم وقيم وعادات وتقاليد ، وان كان هذا الوضع قد تغير في السنوات الاخيرة كما يظهر في النقطة التالية .

٣ - النظر الى المشكلة نظرة تكاملية شاملة، بمعنى ازدياد الادراك بين العلماء بأن مشكلة تلوث البيئة والاضرار التى تلحق بها هي مشكلة انسانية تتعلق في المحل الاول بسلوك الانسان وموقفه من الطبيعة، وان اى محاولة لحل مشكلات البيئة يجب ان تنبع اساسا من معرفة وادراك طبيعة العلاقة بين الانسان والبيئة ، ومواطن الخلل في هذه العلاقة حتى يمكن معالجتها على أسس سليمة . بل ان الكثير من العلماء يعتبرون ما نسميه الآن بمشكلة البيئة انما هي مشكلة سلوكية في المحل الاول ، ولذا فان الحملة المعروفة باسم « الصراع من أجل البيئة » تؤكد على هذه الناحية السلوكية ، وترى ان علاج الموقف يجب ان يبدأ بالانسان نفسه باعتباره هو العامل الاساسي في الاستفادة من البيئة ، كما انه هو السبب المباشر في تلوثها ، وانه هو الذى يعانى من هذا التلوث في آخر الامر .

والواقع ان العلاقة بين الانسان والبيئة علاقة قديمة بقدر ما هي وثيقة ، وان كان شكل هذه العلاقة يختلف من عصر لآخر ، بل ومن مجتمع لآخر ، تبعاً لمدى تقدم المجتمع أو تأخره وأنماط الحياة السائدة في هذه المجتمعات . ومع ذلك فان هذه العلاقة كانت تتصف دائما باغارة الانسان على الطبيعة ومحاولته تغييرها بدرجات متفاوتة وهو في هذا كله كان يؤثر فيها تأثيرا سيئا ، ويعمل على استهلاك مواردها الطبيعية بشكل أو بآخر ، وان كانت هذه التغيرات وتلك التأثيرات السيئة الضارة أكثر وضوحا في الوقت الحالى وفي المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا بالذات نتيجة للعوامل التي سوف نعرض لها .

ولقد كانت هذه العلاقة تتخذ في المراحل الاولى المبكرة من تاريخ الجنس البشرى بوجه عام شكلا يتميز بتغلب سطوة الطبيعة وسيطرتها وقسوتها على الانسان المبكر ، الذى كان يبدو

عاجزا الى حد كبير عن امكان اخضاع البيئة له ولتطلباته ، وانما كان يشكل ظروفه ومواقفه وحياته لشروط البيئة التي يعيش فيها ويعمل على أن يكيف نفسه مع الأوضاع الايكولوجية العامة . وبقول آخر كان الانسان في هذه المراحل الاولى المبكرة يقف من البيئة موقفا يتصف بالسلبية الى حد كبير ، اذ كان يقنع باستهلاك ما تقدمه له الطبيعة من موارد ، وبخاصة تلك التي يعتمد عليها في طعامه . كما انه كان عرضة لكثير من الكوارث الطبيعية وللأمراض المختلفة ، التي لم يكن يدرك لها معنى أو يعرف لها سببا أو تفسيراً، وبذلك كان عاجزا تماما عن التحكم فيها وتجنبها ، أو على الأقل تخفيف نتائجها السيئة . ومن هنا كان يرد هذه الكوارث والأمراض الى قوى خفية غامضة اقوى منه وأكثر قدرة وعنفاً ، وبذلك لم يكن امامه سوى الاستسلام لها . ولم يكن الانسان المبكر قادرا من ناحية أخرى على التنبؤ بما سوف يحدث له في المستقبل القريب نظرا لعجزه عن فهم المنطق الذي تسير عليه الطبيعة والقوى التي تحركها ، ولذا كان يسلم قيادته لهذه القوى تماما ويتقبل بالتسليم كل ما يصدر عنها ، بل انه كان يعمل على أن يتقرب اليها ، ويتضرع ويتذلل لها مادام عاجزا عن التحكم فيها . ويذهب كثير من العلماء ، وبخاصة علماء الانثروبولوجيا ، في القرن التاسع عشر الى أن هذا الموقف المستسلم العاجز امام الطبيعة والقوى الكونية هو الذي ادى في آخر الامر الى ظهور الدين ، وتحديد العلاقة بين الانسان والكون بكل ما فيه من خوارق وغيبيات . فالدين في نظر هؤلاء العلماء يقوم أساسا على فكرة التسليم بوجود قوى - ايا ما تكون طبيعتها - يعترف الانسان بضعفه امامها ، ويسلم بقوتها وقدرتها على التحكم في مصيره وتسيير حياته ورسم قدره .

ورغم كل ما يبدو في هذه النظريات من طرافة فمن الصعب تصور الانسان في اى مرحلة من مراحل تطوره وحياته سلبيا تماما ازاء الطبيعة، وانما الاغلب ان الانسان بحكم طبيعة تكوينه وملكاته وقواه الطبيعية كان يقف موقفا أشد ايجابية من البيئة مما تحاول هذه النظريات تصويره وأبرزه ، وان كان هذا الموقف الايجابي أقل وضوحا مما هو عليه الآن بطبيعة الحال ، وذلك بحكم المرحلة التي كان يمر بها ، وبحكم تخلفه التكنولوجي وقلة امكانياته المادية في الماضي . بل انه يمكن القول ان الانسان حتى في أبسط أشكال حياته كان يقوم بنفس الدور الذي لا يخلو من تدمير الطبيعة أو بعض مظاهرها ومقوماتها ومكوناتها ، والحاق الاذى بهذه الطبيعة وذلك في اثناء معركة الحياة التي كان يخوضها حتى يضمن بقاءه ووجوده واستمراره

ظهر هذا مثلا في مرحلة قنص الحيوان التي تعتبر من المراحل المبكرة في تطور المجتمع الانساني . . فقد كان الانسان المبكر - على ما يبدو يبالغ ويفالى مفاولة شديدة في مطاردته الحيوانية الطبيعية ، وهذا في حد ذاته يعتبر فيها ويعمل على قنصها والعيش على لحمتها ، وانتهى الامر به الى القضاء تماما على كثير من فصائل الحيوانات واختفاء شكل من اشكال الثروة الحيوانية ، الطبيعية ، وهذا في حد ذاته يعتبر تقييرا هاما في البيئة الطبيعية لا يمكن التهوين من شأنه . كذلك ظهر هذا الموقف الايجابي من ناحية ثانية في اكتشاف الانسان للنار ،

الانسان والبيئة

واستخدامها على نطاق واسع في حرق الخشب والحطب بل وأحيانا في اشعال غابات بأكملها ومناطق واسعة من الحشائش ، وما كان ينتج عن ذلك من تلويث للبيئة ، وان كان هذا التلوث ضئيلا في تلك الازمنة نظرا لضاآلة عدد السكان وتأخر حياتهم التكنولوجية . ولكن ينبغي الا نففل هنا عما كانت تسببه الحرائق من تغيير في الطبيعة ، سواء كانت هذه الحرائق تنشب بطريقة تلقائية وطبيعية نتيجة لبعض التفريعات الكونية ، او تشتعل بطريقة متعمدة ومن صنع الانسان نفسه في الغابات ومناطق المراعى والاحراش. وكل هذا معناه ان تأثير الانسان في البيئة كان قديما ويرجع الى اقدم العصور ، كما يرتبط بكل أشكال الحياة الاجتماعية والاقتصادية مع اختلافات في الكم وليس في النوع . وهذا لا ينفي بطبيعة الحال ان مشكلة اختلال العلاقة بين الانسان والبيئة مشكلة حديثة لم تظهر الا بعد ان احرز المجتمع الانساني تقدما ملحوظا في التقدم الصناعي والتكنولوجي وبخاصة منذ القرن التاسع عشر .

وليس ثمة شك في ان ارتقاء المجتمع الانساني وتقدمه يرتبطان - في احد جوانبهما على الاقل - بالقدرة على السيطرة على الطبيعة ، وتسخير البيئة واستغلال مكوناتها لصالح الانسان، وكذلك القدرة على التحكم في هذه البيئة وتطوير مواردها لخير الانسان واشباع احتياجاته ومتطلباته . وبقول آخر فان تقدم الانسان والمجتمع يمكن ان يقاس ليس فقط بمدى تحرر الانسان من سلطة البيئة وسيطرتها ، بل وايضا في قدرته على اخضاعها لرغباته والتحكم في مكوناتها . والواقع ان التقدم التكنولوجي الرائع الذي احرزه الناس خلال جميع مراحل تاريخ التطور البشري ، والذي وصل الى ذروته في القرن الحالي ، قد ساعد على تصور الطبيعة على انها شيء يمكن غزوه والتحكم فيه وتطويره واستخدامه لاشباع احتياجات الجنس البشري التي كانت ولا تزال تتزايد باستمرار واطراد . ولقد ترتب على ذلك كله ان بدأت النظرة الى الطبيعة والى البيئة تختلف ، كما بدأت اتجاهات الانسان ومواقفه وقيمه المتصلة بالبيئة والطبيعة يطرأ عليها كثير من التغيير نتيجة لهذا الادراك ، اعنى ادراك الانسان لقدرته على توجيه الطبيعة ، بل وضرورة التحكم فيها . فلقد اصبح الانسان يشعر انه فوق الطبيعة، او على الاقل انه يسير مع الطبيعة على قدم المساواة ، بعد ان كان عبدا لها ولثوراتها ونزواتها وعنفوانها وجبروتها .

كل هذا معناه في آخر الامر انه من الخطأ ان ننظر الى مشكلة البيئة على انها مشكلة فيزيقية بحتة ، بحيث نففل ابعادها الاجتماعية والانسانية، وذلك لان الانسان هو بالضرورة احد العوامل او العناصر الاساسية في البيئة ، باعتباره على الاقل عامل التغيير فيها وموضوع التأثير بها والتأثير فيها ، سواء كان ذلك التأثير يتخذ شكل المحافظة ، او الابداء واحداث الضرر ، كما ان حياته هو هي التي سوف تتأثر بشكل مباشر في آخر الامر بما يطرأ على البيئة من تغيرات نتيجة

لسلوكه وتصرفاته وموقفه منها . ولو أننا سلمنا بذلك واعتبرنا الانسان هو أحد مكونات البيئة الأساسية فإن أية دراسة للبيئة لابد أن تكون بالضرورة دراسة تكاملية شاملة ، ولا بد من أن تتعرض لكثير من الامور المتشابكة المعقدة التي يمكن أن نشير الى بعضها هنا ، مثل : -

١ - الاسس الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية لمشكلات البيئة او المشكلات الايكولوجية ، وهي أسس معقدة الى أبعد حدود التعقيد .

٢ - الظروف الايكولوجية من حيث انها تنعكس ، ليس فقط على نوع الحياة التي يحياها الافراد والمجتمعات ؛ بل وأيضا على نفس مشكلة الوجود الانساني وامكان استمرار الجنس البشري في الوجود ، وامكانيات الانسان على التكيف .

٣ - النتائج السيئة المترتبة على التغيرات الايكولوجية سواء على المستوى المحلي او الاقليمي او العالمي .

٤ - الامراض والمشكلات الاجتماعية التي تنجم عن التغيرات الايكولوجية ، وهي مشكلات يمكن حلها اجتماعيا عن طريق اعادة النظر في النظم الاجتماعية السائدة في المجتمعات المختلفة ، واعادة تشكيل هذه النظم ، وكذلك اعادة النظر في سلوك الانسان ازاء البيئة ، وموقفه منها ونظرة الى الطبيعة . وسوف يقتضى ذلك ، في آخر الامر ، ضرورة ان يراجع الانسان نفسه ويعيد النظر في القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع المعاصر ، من حيث انعكاسها على معاملة الطبيعة (وسوف يجد القارئ في مقال الدكتور حسن المرصفاوى مثالا للعلاقة بين البيئة وبعض الامراض الاجتماعية ، والجريمة بالذات) .

٥ - التفاعل القوي بين كل الظواهر البيئية والاجتماعية وتساندها الوظيفي ، وهي امور تتصل اتصالا وثيقا بالمشكلات الانسانية . (وثمة امثلة كثيرة لذلك يجدها القارئ في مقالات الدكتور محمود أحمد الشربيني ، والدكتور محمد عبدالرحمن الشرنوبى ، والدكتور أحمد أبو زيد) .

وكل هذا خليق بأن يبين لنا في آخر الامر أن الاضرار التي يلحقها الانسان بالبيئة التي يعيش فيها انما تنجم عن افتقار الناس او معظمهم على الأقل الى وجود نسق متماسك من القيم المتعلقة بطريقة معاملة الانسان للبيئة والاهتمام بها ، والحد من المفالة في الإقبال على التكنولوجيا الحديثة التي قد تسهل حياة الانسان وتقدم له كثيرا من الخدمات وتوفر عليه كثيرا من الجهود والوقت ، ولكنها تلحق في الوقت ذاته اشد الضرر والاذى بالبيئة كما هو الحال مثلا في تلوث الهواء والماء نتيجة لانتشار الصناعة وما يتخلف عنها من نفايات وبقايا وأبخرة ودخان ورماد وغير ذلك .

الانسان والبيئة

ولقد دفع ذلك الكثير من المفكرين الى المناذاة بضرورة الوصول الى ما يطلقون عليه احيانا اسم « أخلاقية الارض » - كما ترد في مقال الدكتور ابو زيد - اى وجود نظرة جديدة أو اتجاه جديد وموقف جديد لعلاقة الانسان بالبيئة . وفى ذلك يقول الاستاذ ليوبولد Leopold وهو من أكبر المهتمين بالمشكلات الايكولوجية وممن بذلوا جهودا كبيرة فى تدعيم فكرة المحافظة على الارض : « اننا نحقق فكرة أخلاقية المحافظة على الارض حين ننظر اليها على أنها مجتمع ننتمى اليه وبذلك يمكننا أن نستخدم الارض بطريقة تنم عن الحب والاحترام . وليس هناك سوى هذه الوسيلة لكى تساعد الارض على الصمود أمام وطأة الحياة الآلية التى تسم الانسان الحديث ، كما ان هذا هو الطريق الوحيد أمامنا نحن لكى نحصد من الارض المحصول الجمالى الذى هى قادرة على أن تنبت به بفضل العلم - وتسهم به فى الحضارة الانسانية . ان النظرة الى الارض على أنها مجتمع هى الفكرة الاساسية فى الايكولوجيا ، كما ان حب الارض واحترامها هو امتداد طبيعى للاخلاق الانسانية . ولقد ادرك الانسان منذ زمن بعيد ان الارض قادرة على أن تنبت محصولا ثقافيا وحضاريا خليقا بالاحترام ، ولكن هذه الحقيقة غابت عن الاذهان فى العصور الحديثة ، ، (انظر كتابه :

(Game Management

والواقع اننا نستطيع أن نميز فى هذا الصدد بين موقفين مختلفين أشد الاختلاف يقفهما الانسان من البيئة الطبيعية التى يعيش فيها . فاما الموقف الاول فيتمثل فى اهتمام فئة قليلة - ولكنها تتزايد فى العدد باستمرار - من الناس ممن يهتمون بالمحافظة على البيئة وما بها من جمال طبيعى مع عدم الرغبة فى ادخال اية تعديلات على مقوماتها الطبيعية او التعديل فيها ، على اساس ان اى تعديل يدخله الانسان عنوة واقتدارا فى الطبيعة سوف يؤدي الى اختلال التوازن الايكولوجى ، وبالتالي الى ظهور كثير من المضاعفات والتأثيرات الجانبية المضارة السيئة . الا ان هذه الدعوى تجد كثيرا من المعارضة والمقاومة من فئات كثيرة جدا من الناس فى مختلف المجتمعات ، وهى فئات تتهم أصحاب حركة « الصراع من أجل البيئة » بأنهم ينتمون الى قطاعات متميزة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، وتعيش فى عزلة تامة بحيث لا تكاد تشعر باحتياجات الطبقات الاخرى الفقيرة التى تريد أن ترفع من مستواها الاقتصادى والمعيشى والاجتماعى عن طريق التنمية الاقتصادية التى تحتاج بالضرورة الى ادخال تعديلات فى البيئة ، تتمثل فى أبسط صورها فى استغلال الموارد الطبيعية . فكان اختلاف الموقفين من البيئة يعكس - الى حد ما على الأقل - اختلاف المستوى الاجتماعى والثقافى والاقتصادى فى المجتمع ، بحيث تصدر الدعوة للمحافظة على البيئة والابقاء على مقوماتها الطبيعية من الجماعات والفئات القادرة اجتماعيا واقتصاديا ، والتى تريد أن تتمتع بما تقدمه البيئة من جمال طبيعى ، ولذا

فهى تعارض أى تدخل من جانب الانسان ، وتعتبره تشويها واساءة الى هذا الجمال ، بينما يقف المهتمون بتنمية المجتمع والمستغلون بالتخطيط فى الناحية الاخرى ، ويرون انه لا بد من استغلال الموارد الطبيعية حتى ولو كان فى ذلك القضاء على كثير من جمال الطبيعة ، وذلك على زعم ان التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يحقق رخاء الانسان والمجتمع لن يقصر عن ايجاد وسيلة للتغلب على اخطار البيئة وحل مشكلاتها ، وانه مهما يؤخذ على التصنيع مثلا من اضرار يجلبها على البيئة وتؤدى الى تلوث الهواء والماء وما الى ذلك فانه فى آخر الامر وسيلة فعالة لرفع مستويات كثير من الناس ، وتوفير مستوى كريم وحياة كريمة لكثير من الطبقات الكادحة . وقد تكون هذه المشكلة بعيدة فى الوقت الحالى عن اذهان الناس فى المجتمعات المتخلفة والنامية ولكنها قائمة بالفعل ، ويدور حولها كثير جدا من الجدل فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهى تعكس فى آخر الامر الصراع الدائر بين الذين يملكون والذين لا يملكون . وليس من شك فى ان الطبقات الفقيرة فى أى مجتمع تهتم أولا وقبل كل شيء بتوفير العيش لها ، ولا تكاد تعتبر جمال الطبيعة جزءا من عملية الحياة .

ومع ادراك هذه الحقائق كلها ، والتسليم بمدى ما تتعرض له البيئة من اخطار ، فالظاهر انه من الصعب التغلب على هذه الاخطار وايقافها تماما ، وانه يتعين على العالم ان يقبل هذه الحقيقة الواقعة ، وان يتعين عليه فى الوقت ذاته ان يعثر على حلول تقلل من هذه الاخطار التى يبدو انها تهدد نفس وجود الانسان والحياة ، وهذه هى الفلسفة التى تختفى وراء الدعوة الى « المعركة او الصراع من أجل البيئة » التى أشرنا اليها ، وهى معركة علمية وتكنولوجية واجتماعية وسياسية معا ، تهدف الى تنبيه الازهان وتجنيده كل القوى للوقوف فى صف البيئة ومعها ضد عوامل التخريب ، كما تحرص أشد الحرص على تحديد مصادر هذا الخطر حتى وان كان يصعب التغلب عليها .

والواقع ان المشتغلين بهذه المسألة يرون أن الخطر الاكبر الذى يهدد البيئة ناجم عن مشكلة أخرى هامة تهدد العالم الآن وهى مشكلة تزايد السكان تزايدا رهيبا فى كل انحاء العالم وبالذات فى العالم المتخلف ، وهذه مسألة سبق أن عالجنها فى العدد الرابع من المجلد الخامس من هذه المجلة (المشكلة السكانية) . ولكن الجديد هنا هو ان الازدياد المطرد فى مطالب السكان الذين يتزايدون باطراد نتيجة للتقدم التكنولوجى والصناعى من ناحية ، والحاجة الماسة الى توفير أعداد متزايدة من المساكن لهم وما يرتبط بهذا كله من اعادة تخطيط للمدن والمناطق السكنية والمستوطنات البشرية أيا كان نوعها من ناحية اخرى ، كل هذا يستلزم بالضرورة الاشارة على المناطق الخلية ؛ بل وأحيانا على الاراضى الزراعية

الانسان والبيئة

لتوفير المسكن ، وهذا في حد ذاته يشكل خطورة بالغة على البيئة الطبيعية يحس بها سكان المدن المزدحمة بالسكان . ويزيد الامر سوءا ضرورة العمل على توفير وسائل المواصلات والنقل لهذه الاعداد المتزايدة ، وهذا يتطلب ليس فقط شق كثير من الطرق في هذه المناطق وتخصيص مساحات متزايدة من الارض لكي تجرى فوقها وسائل المواصلات ، بل ان انتشار هذه الوسائل ذاتها يجلب معه كثيرا من الضجة والضوضاء ، التي يعتبرها الكثيرون صورة اخرى أو شكلا آخر من أشكال تلوث البيئة ، وذلك فضلا عن ازدياد مخلفات السكان من نفايات وفضلات .

وهذه كلها امور معروفة تناولتها كل الكتب التي تدور حول تلوث البيئة ، وسوف يجد القارئ لها صدق في اكثر من مقال في هذا العدد ، بل وفي اعداد سابقة من المجلة .

ولكن الطريف في الامر حقا هو ما يضيفه كثير من العلماء المحدثين الى هذا كله من أن التحركات السكانية من مكان لآخر ، وبخاصة اثناء العطلات ، له دخل كبير جدا في تغير البيئة وغزو الطبيعة والاغارة عليها والحاق الكثير من الاضرار بها . واقد ساعد على ذلك كله انتشار استخدام السيارة كوسيلة عادية ومألوفة من وسائل الانتقال ، ويذهب بعض المشتغلين بمشكلات البيئة الطبيعية والعمل على المحافظة عليها الى اعتبار السيارة اعدى اعداء الطبيعة ، وبالتالي اعدى حركة المعركة من أجل البيئة. ذلك انه قبل انتشار استخدام السيارة على هذا النطاق الواسع ، وحين كان الانسان يستخدم وسائل النقل العامة ، كانت تحركاته اثناء العطلات قاصرة على الاماكن المحدودة التي تصل اليها هذه الوسائل ، فلما أصبح للانسان وسيلة انتقاله الخاصة به ، والتي تتمثل في السيارة بالذات لم يعد هناك ضابط أو قيد على تحركاته ، وأصبح الانسان حرا في أن يذهب الى حيث يشاء والى حيث تستطيع وسيلته الخاصة أن تنقله ، وبذلك امكنه ارتياد مناطق كثيرة وعديدة وبعيدة لكي يمضى فيها عطلاته ، وازداد بالتالي تهجمه على جمال الطبيعة وانتشار التخريب والدمار. فليس اقدر من الانسان على تشويه جمال الطبيعة البكر في الاماكن التي يمضى فيها عطلاته وأوقات راحته بما يحدثه من تغيير وما يتركه وراءه من مخلفات. ويزداد هذا الدمار بطبيعة الحال بطول فترة العطلة . وهذه حقيقة يأخذها في الاعتبار الكثيرون ممن يعارضون الآن فكرة جعل الاسبوع اربعة ايام عمل فقط بدلا من خمسة أو ستة ايام لاتاحة وقت اطول للفراغ والراحة والترفيه للناس مادام الانتاج لن يتأثر بتقصير مدة ايام العمل نظرا لازدياد الاعتماد على الآلات في الانتاج . وليس ثمة غبار على توفير الراحة ذاتها للناس ، انما المشكلة الحقيقية هنا هي ما يلحقه الناس اثناء هذه العطلات ايام الراحة الطويلة من اضرار وأذى بالبيئة الطبيعية . وربما كان هذا أيضا هو أحد العناصر التي تتضمنها حركة ايجاد اخلاقية

للارض . ومن يدري فقد يكون في نجاح الدعوة الى ضبط النسل وبرامج تنظيم الاسرة علاج ، ولو جزئي ، لبعض مشكلات البيئة والمحافظة عليها ، ما دامت هذه البرامج ستؤدي في حالة نجاحها الى خفض عدد السكان ، وبالتالي الحدم انتشار المستوطنات البشرية والمساكن والطرق ووسائل المواصلات في النقل وحرية الانتقال .

ومع التسليم بهذا كله فان المشكلة العويصة التي يبدو انها تواجه العلماء الآن هي : كيف يمكن التوفيق بين الرغبة في المحافظة على البيئة الطبيعية من ناحية وتحقيق برامج التنمية الاقتصادية وتوفير حد أدنى لرفاهية الانسان من ناحية أخرى؟ او بقول آخر كيف يمكن التوفيق بين رغبات الاغنياء والقادرين والموسرين الذين يحاولون الاحتفاظ بجمال الطبيعة ، ورغبات ومطالب الفقراء الذين لا يهمهم في المحل الاول شيء قدر توفير العيش ؟ وكل هذا خليف بأن يكشف لنا عن مدى صدق ما سبق ان ذكرناه من ان مشكلة العلاقة بين البيئة والانسان هي مشكلة اجتماعية في المحل الاول ، تتعلق بتحقيق مستوى معين وشكل أفضل للحياة ، سواء في المجال الجمالي الفني أو الاقتصادي . ولا تزال الحلول تعوز الانسان ، ولا يزال المفكرون يحاولون الوصول الى التوفيق بين هاتين الناحيتين تحت ظروف اجتماعية بالغة القسوة .

★ ★ ★

أحمد أبوزيد

أزمة البيئة

لا يحدث سوى مرة واحدة في كل قرن ان تستطيع
احدى القضايا الهامة أن تفرض نفسها على الناس جميعا
من مختلف الاجناس والطبقات والاديان . ولقد أصبحت
مشكلة البيئة الفيزيكية التي نميش فيها احدى هذه القضايا .

(وليام روكهاوس)

أفلحت « قضية البيئة » في أن تفرض نفسها بشكل قوى منذ اوائل السبعينات ، وذلك
حين ظهر ما يعرف باسم « حركة البيئة Environment movement » ، ولو أن الآراء
لا تزال مختلفة اختلافا شديدا حول مدى عمق هذه القضية أو المشكلة ، وإلى أى حد يمكن أن
تؤثر في مصير الانسان بوجه عام وحياة شعوب ومجتمعات معينة بالذات . وعلى ذلك فإن الآراء
تكاد تجمع على أن العالم كله مقبل على « أزمة بيئية » أو « أزمة إيكولوجية » قد تقلب الأوضاع
الاجتماعية والاقتصادية السائدة الآن في المستقبل القريب أو البعيد . بل أن الدين يظهرون شيئا
من التشكك في ضخامة المشكلة وأهميتها ألما يبنون أحكامهم على الأوضاع القائمة في المجتمعات
التي يعيشون هم فيها دون أن يقللوا من خطورة المشكلة بالنسبة للعالم ككل ، بمعنى أنهم لا يعطون

لمشكلة البيئة أولوية مطلقة ، وذلك على أساس أن مجتمعاتهم وشعوبهم تتعرض لآخطار ومتاعب أخرى يجب حلها أولا قبل الاهتمام بمشكلة البيئة التي يمكن تأجيل حلها الى أن تحل هذه المشكلات العاجلة .

ولقد بدأت « حركة البيئة » بما يطلق عليه الآن اسم « يوم الأرض » Earth Day وذلك حين تقدم في عام ١٩٧٠ عدد كبير من المتحمسين في بعض دول العالم المتقدم ، وبخاصة في أمريكا ، ببعض النداءات التي تدعو الى بذل الجهد لانقاذ البيئة من التلوث . ولم تلبث هذه الدعوة أن وجدت صدى كبيرا لدى الكثير من الناس ومن العلماء من مختلف التخصصات ، بحيث تبلورت بعد عامين اثنين في شكل مؤتمر عقده هيئة الأمم في استكهولم ، واشترك فيه عدة آلاف من العلماء والسياسيين والمخططين الاجتماعيين ورجال الصحافة ، وكان بذلك من أكبر المظاهرات العلمية - بل والفوغائية ايضا - التي شهدتها العالم في أى وقت من تاريخه . (١) وبعد هذا المؤتمر انتشرت الدعوة الى تطهير البيئة مما يلوثها انتشارا واسعا بحيث خصصت لها الدول الكبرى ميزانيات ضخمة . ويكفي للتدليل على ذلك ان نذكر انه في عام ١٩٧١ أى قبل انعقاد المؤتمر نفسه بعام كامل ولكن بعد ان كانت الأذهان قد تنبهت فعلا الى خطورة المشكلة - أنفق رجال الصناعة في أمريكا ما يزيد على ثلاثة بلايين من الدولارات لمعالجة مشكلة تلوث الماء والهواء فقط ، بينما وضعت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية خطة لانفاق ثلاثمائة بليون دولار على برامج البيئة المختلفة خلال الأعوام العشرة ابتداء من عام ١٩٧٢ ، أى بواقع ثلاثين بليون دولار كل عام . وفي الوقت ذاته خصصت بريطانيا أكثر من ثلاثة بلايين من الدولارات لتطهير أنهارها ، كما خصص الاتحاد السوفيتي بليون دولار لتطهير مياه نهرى الفولجا والأورال وحدهما من كل عناصر التلوث . وهذه المبالغ الضخمة الهائلة خليفة بان تكشف لنا عن حجم المشكلة ، ومدى احساس الدول الصناعية المتقدمة بها .

ولكن ربما كان أفضل مقياس لنجاح هذه الحركة هو رد الفعل المضاد لها . فلقد تعرض « انصار البيئة » او أصدقاؤها لكثير من الهجوم والنقد والتشكيك ، كما وصفت الحركة ذاتها بالمبالغة والتهويل والمبالاة التي لا تقوم على أساس سليم . وقد تزعم هذه الدعوة عدد من رجال الصناعة أنفسهم ، نظراً لأن انتشار الحركة واستعداد الناس لتبنيها وتقبلها قد كلفهم الكثير من الأموال التي أنفقت على (تنظيف) البيئة وتطهيرها من التلوث . كذلك ذهب بعض المعارضين الى أن هذه الحركة تسببت بشكل مباشر في خلق « أزمة الطاقة » التي عانت منها أمريكا معاناة شديدة ، وهى أزمة يمكن أن تهدد مستقبل الصناعة ، وبالتالي مستقبل أمريكا والقوى العاملة في الصناعة ، تهديدا مباشرا لو أنها استمرت وصدق الناس كل النتائج الوخيمة التي

(١) الواقع ان فكرة عقد هذا المؤتمر كانت اسبق على ذلك إذ بدأ التفكير فيه عام ١٩٦٨ وان كانت هذه النداءات والحركات وجهت الأنظار الى أهميته . وقد أطلق على المؤتمر اسم « مؤتمر هيئة الأمم المتحدة من البيئة الإنسانية » .

ازمة البيئة

يزعم أنصار البيئة أنها سوف تلحق بالإنسان والعالم لو ظلت درجة التلوث على ما هي عليه ، ولم تتخذ الإجراءات السريعة الحاسمة لوقفها . كذلك تعرضت الحركة لهجوم من زاوية أخرى مختلفة تماما ، وهو هجوم يرمى أنصار البيئة بأنهم فئة من المثاليين الذين عزلوا أنفسهم عن الاتصال بالعالم الخارجى ومشكلاته الحقيقية نتيجة لنوع الحياة التي يحيونها ، والتي تمتاز في الاغلب بارتفاع المستوى الإقتصادي والثقافي ، وهم بذلك لا يحسون بالآلام ولا متطلبات الطبقات والشعوب الفقيرة التي تعطى الأولوية المطلقة لمشكلة الفقر وكسر حلقاته والخروج من دائرته ، وإن التوقف عن الصناعة أو تحديد الانتاج كوسيلة للاقلال من درجة التلوث لن يحقق هذه الغاية التي يحلم بها الفقراء ، وهم بعد كل شيء يمثلون القطاع الأكبر من الجنس البشرى .

والطريف هنا أن هذه الانتقادات التي وجهها رجال الصناعة الى أنصار البيئة وجدت ترحيبا شديدا من بعض الشعوب الفقيرة والمتخلفة والنامية التي نظرت الى الدعوة الى المحافظة على (نظافة) البيئة ، ولو كان ذلك على حساب الانتاج الصناعي ، على أنها حركة استعمارية جديدة تقوم على أساس تثبيت هم الدول النامية عن الاخذ بسياسة التصنيع ، وتحاول صرفها عن تنفيذ برامجها في التنمية الاقتصادية التي تركز الى حد كبير على التحول التدريجي الى الصناعة كوسيلة لرفع مستوى الحياة فيها اقتصاديا واجتماعيا ، او على الاقل كوسيلة تتخلص بها من كثير من مظاهر التخلف والفقر المضروبة عليها . ويقول آخر فإن هذه الدول النامية اعتبرت حركة البيئة حركة معادية للتحرر الاقتصادي من ربقة الدول الصناعية المتقدمة . وقد انعكس ذلك بوضوح خلال جلسات مؤتمر استكهولم ، إذ كانت النغمة السائدة بين عدد من ممثلي العالم الثالث هي أن « البيئة النظيفة » ليست ضرورة عالمية ، وإنما هي مجرد نوع من الترف يجب أن يسترعى بالعمل الصعبة ، وأن ثمن هذا الترف قد يكون غاليا جدا بالنسبة لبعض المجتمعات قد يكلفها فرصة التقدم والرقى . ولم يكن ممثلو هذه الدول ينصتون الى كل حجج أنصار البيئة التي تقوم على مبداء ضرورة تضافر جهود كل الدول والشعوب والمجتمعات لأصلاح البيئة ، وإن ذلك يجب أن يتم بسرعة حتى لا يجد العالم نفسه في مأزق قد يكلفه وجوده نفسه ، وإن الوسيلة الوحيدة لتجنب هذا المأزق هو أن يتحكم العالم كله وبكل مجتمعاته في درجة النمو الاقتصادي والسكاني على السواء . ولقد ذهب الدكتور بول ارليتش Paul Ehrlich في كتابه الشهير « القنبلة السكانية The Population Bomb » الى احتمال وقوع هذه الكارثة الايكولوجية المدمرة حوالي عام ٢٠٤٠ لو استمر العالم يسير في هذا الطريق الخطر الذي اختاره لنفسه .

وأيا ما تكون الحقيقة وراء هذه الاتجاهات المتعارضة فهناك كثير من الاوضاع والحقائق التي يجب أن تؤخذ دائما في الاعتبار ، وهي حقائق تحمل كثيرا من التحذير من الاخطار التي تحيط الآن بالعالم والتي يجب الالتباه اليها . مثال ذلك أن كثيرا من المباني الأثرية في أوروبا كالكنائس

والكاتدرائيات التي ترجع الى القرون الوسطى ، والتي تعتبر من أكبر مظاهر الحضارة الغربية بدأت تعاني من سحب الدخان والغبار والرماد المتصاعد من المصانع ويكاد بعض اجزائها يتداعى بتأثيرها . ولقد أوصت إحدى اللجان التي كلفتها اليونسكو في أوائل السبعينات بدراسة حالة هذه المباني الأثرية الخالدة بأن تقوم الهيئة بتغليف الاكروبول كله بالزجاج لكي تمنع عنه آثار التلوث المدمرة ...

والظاهر ان كل مظهر من مظاهر النجاح الفائق يقتضى ثمنا غاليا للغاية . والظاهر ان هذا هو الوضع أيضا بالنسبة للبيئة ، بحيث يمكن القول ان تنفيذ أى مشروع من المشروعات الضخمة التي تؤدي الى حدوث بعض التغيرات في البيئة الطبيعية لخير الانسان وصالحه كثيرا ما تحمل بين طياتها بعض الآثار الجانبية الضارة التي يلحق عنها بعض الأضرار في التوازن الايكولوجي . وربما كان افضل مثل لذلك هو التغيرات الايكولوجية التي تحدث الآن في مجرى نهر النيل وارضى الدلتا الخصبة بعد اتمام السد العالي وبحيرة ناصر . فعلى الرغم من كل ما حققه لأن السد العالي الذي يعتبر من مفاخر الهندسة الحديثة ، ومن أضخم المشروعات التي تهدف الى التنمية ، وعلى الرغم من كل ما قد يحققه في المستقبل سواء من حيث زيادة مساحة الأرض المنزرعة وتعميم الري الدائم بدلا من ري الحياض الذي كانت تعتمد عليه مساحات كبيرة من الوجه القبلي ، وكذلك توليد الكهرباء بكل ما سوف يترتب عليها من نتائج اقتصادية ومظاهر حضارية ، فان الثمن الايكولوجي لذلك سيكون فادحا بغير شك . فكثير من العلماء والاطباء يخشون من ان تؤدي بحيرة ناصر بمساحتها الهائلة الى انتشار البلهارسيا على نطاق أوسع مما هو موجود الآن بالفعل في مصر ، بل ان البعض يخشى من امكانية عودة بعض الأمراض التي كان قد أمكن القضاء عليها تماما مثل الملاريا ، وذلك كله بالإضافة الى ظاهرة النحر النهري وتأكل الشواطئ في شمال الدلتا والاضطراب التي تهدد التربة ذاتها نتيجة لحجز الطمي الذي كان النهر يحمله ويجدد به خصوبة أرض مصر ، وكذلك بالإضافة الى اختفاء كثير من مظاهر الحياة السمكية البحرية مثل السردين والجمبرى والصناعات التي كانت تقوم على هذه الثروة السمكية ... ومع ذلك فان هؤلاء العلماء أنفسهم يرون ان لكل مشكلة حلا ، وان العلم لن يعجز عن معالجة هذه المشكلات . (٢)

(٢) الملاحظ ان التغيرات البيئية توجد في كثير من الدول وهي تقتضى في رأى الكثيرين ضرورة تكاتف هذه الدول على وقف تيار التلوث ، وانه لن يمكن لاية دولة واحدة ان تقوم بهذا العمل بمفردها ، وليس ذلك ناشئا عن ارتفاع تكاليف هذه الحرب فحسب بل وايضا لقررا للأوضاع القائمة بالفعل . مثال ذلك ان سبع دول على الأقل تلقى بفصلاتها ونفاياتها في بحر الشمال ، كما ان الرماد المتصاعد من مصانع الرور في ألمانيا مثلا يؤثر في لوج النرويج ويفقد بها بريقها ولعانها وصفاها ، وبمثل فان لغايات وفصلات مصانع الرين تصل الى بحر الشمال وتؤدي الى موت اعداد هائلة من الأسماك فيه . والسالك لدى هذ كبير من العلماء ان البحر الأبيض المتوسط سوف يصبح بحرا (ميتا) نتيجة لانقضاء الفصائل والقائورات والنفايات من المصانع والبواخر فيه ان لم تبدل الجهود الجبارة لانقاذه ، وان كان هناك من يعتقد ان الوقت قد فات بالفعل وانه لا أمل في انقاذه من ذلك الحيز :

ازمة البيئة

والخلاصة من هذا كله هو أن الكثير من الدول المتخلفة والنامية والفقيرة تعتقد - كما ذكرنا - أن « حركة البيئة » هي آخر سلاح أو على الأصح أحدث سلاح تتسلح به الدول الغنية في مؤامراتها ضد الدول الأخرى حتى تظل هذه الدول الغنية متفوقة طيلة الوقت وبحيث تستطيع أن تتحكم في غيرها ، ويكفي هنا أن نذكر أنه حين عقد مؤتمر ستكهولم للبيئة كان تعليق أحد أعضاء وفد البرازيل عليه ، حتى قبل أن يعقد ، هو أن « مشكلتنا ليست هي التلوث الناجم عن زيادة التفوق الصناعي وإنما هي الفقر والتخلف » . وربما كان هذا التخوف أو التشكك هو السبب في أن المؤتمر عالج بالإضافة إلى التلوث الناجم عن التصنيع عددا من مشكلات البيئة في مجتمعات العالم الثالث مثل زحف الصحراء على الأراضي الخضراء الخصبة ، وانتشار الجذب وما إلى ذلك . وعلى أية حال ، فلقد بدأت بعض الدول النامية بعد المؤتمر تشعر بعالمية المشكلة ، وتدرك أن تهديد البيئة ليس قاصرا على مجتمعات محددة بالذات دون غيرها ، وأن الأزمة البيئية عالمية بكل مافي هذه الكلمة من معان . والأمثلة عديدة على تلوث البيئة والآثار الضارة المترتبة على ذلك ، وهي أمثلة يمكن أن نجدها في كل بقعة من بقاع العالم . والمعتقد على أية حال أن الدول الفقيرة والمتخلفة هي أكثر عرضة من الدول الغنية والصناعية لكوارث البيئة ، على ما قيد يبدو في ذلك من غرابة ، وذلك لأن هذه الدول المتخلفة تبالغ - في سباقها للحاق بالعالم المتقدم المتحضر - في ادخال نظم الحياة السائدة في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهي تهرق بذلك مواردها الطبيعية التي سوف تستنزف في فترة قصيرة نسبيا ، كما أن الإقبال الشديد على التصنيع سوف يعجل بتلويث الهواء والماء بدرجة أكبر مما هو موجود في المجتمعات المتقدمة التي لديها من الموارد المالية ما يسمح لها بالتخفيف من ويلات التلوث . ويزيد من خطورة الأمر في المجتمعات النامية ارتفاع معدلات الزيادة السكانية بدرجة غير مألوفة في المجتمعات المتقدمة .

(١)

والشيء الذي يسترعى النظر حقا هو أنه على الرغم من أن « حركة البيئة » لم تبدأ بشكل منظم إلا منذ أوائل السبعينات فإن ماتم احرازه من تقدم حتى الآن في هذا المجال خليق بالاهتمام والتقدير على الأقل في مجال توجيه الانظار الى خطورة المشكلة ، حتى وإن لم تنفذ كثير من البرامج الخاصة بمنع تلوث البيئة ، وعلى الرغم من أن منع هذا التلوث لا يزال أملا يراود أحلام أنصار البيئة . والمهم هنا هو أن عددا من الدول أصدر بعض التشريعات الخاصة بالمحافظة على البيئة ، كما أفردت ميزانيات ضخمة لذلك على ما ذكرنا .

ولقد بدأ الاهتمام بالبيئة وعلاقتها بالكائنات العضوية ، أو ما يعرف عموما باسم الأيكولوجيا - على أيدي علماء النبات والحيوان الذين كانوا ينظرون إلى المسألة في الأغلب من الزاوية الفيزيائية

البحته ، او على الاقل كانوا يميلون الى تغليب الجانب الفيزيقي للمشكلة . ولكن الرعيل التالى من علماء الايكولوجيا كانوا يتمتعون بنظرة اوسع واعمق ، ولذا فانهم اعطوا مزيدا من العناية والاهتمام الى وضع الانسان فى البيئة والى التفاعل القائم بين الاثنين . وكما يقول فريرز دارلنج F. Fraser Darling فى مقال طريف له: ان الايكولوجيا - باعتبارها علما يدرس الكائنات العضوى فى علاقته بالبيئة التى يعيش فيها ، وكذلك العلاقات التى تقوم بين مجتمعات الكائنات العضوية التى تنتمى الى نوع واحد او الى انواع مختلفة - هى فكرة اوسع وارحب واكبر بكثير مما يتصور العلماء الرواد الاوائل ، وان الشيء الرائع حقا فى هذه الفكرة هو انها كانت من العظمة والرحابة والاتساع بحيث استطاعت ان تتعدى كل الحدود وان تمتد الى ميادين لم تكن مفهومة او مدروسة تماما ، كما انها تحاول البحث عن العلاقات والروابط ، وان تفقد المقارنة وتكشف عن اوجه الخلاف مهما كانت صغيرة وغير مرتبة . (٢)

وربما كان اهم ما يميز هذه الدراسات الايكولوجية الرائدة هو النظرة العامة الشاملة التى تحاول الربط بين عناصر البيئة المادية او الفيزيائية من ناحية ، وحياة النبات وسلوك الحيوان وتصرفات الانسان والتفاعل والتداخل والتاثيرات المتبادلة بينها جميعا من ناحية اخرى . ومن هنا كانت هذه الدراسات الايكولوجية المبكرة ، رغم ضحالتها النسبية اذا هى قورنت بما يصدر الان من كتابات دقيقة متخصصة ، تعكس جانبا انسانيا عميقا تفتقر اليه هذه الكتابات العلمية المتخصصة . فالظاهر ان علماء الايكولوجيا ساروا فى نفس الطريق الذى سار فيه الكثيرون من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية حين حاولوا محاكاة علماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم فى تطبيق

(٢) Darling, F. Fraser; "A Wider Environment and Ecology Conservation" Daedalus, Fall 1967, P. 1003.

وليس من شك فى ان الفصل فى ابراز علاقة البيئة بالحياة العضوية يرجع فى المكان الاول الى علماء النبات بالذات ، ومن هنا كثر الكلام عن الايكولوجيا النباتية . ثم جاء بعد ذلك علماء الحيوان . ويعتبر كتاب تشارلز التون Charles Elton الذى نشر عام ١٩٢٧ عن الايكولوجيا الحيوانية Animal Ecology من اهم العلامات على الطريق لانه كان يعبر - كما يقول فريرز دارلنج - عن فلسفة محددة وعن رؤية واضحة لوقف شديد التعقيد فيه يعتبر سلوك الحيوانات ذاتها عاملا فى بيئة الكائنات الاخرى . ولقد طالب التون الذى كان عمره فى ذلك الحين اقل من ثلاثين سنة بضرورة تعاون علماء النبات مع غيرهم من العلماء من اجل الوصول الى فهم كيف تتعايش مجتمعات الكائنات العضوية المختلفة . وقد كان آخر كتاب أصدره التون فى هذا المجال هو كتابه الشهير The Pattern of Animal Communities الذى صدر عام ١٩٦٦ وفيه لا يكتفى بوصف ما هو قائم وانما يتجاوز ذلك الى المستقبل ، ويستمد ذلك من طبيعة الاعمال والبحوث التى قام بها تلاميذه واتباعه خلال عشرين عاما . ورغم ذلك فقد اهتم التون بالتنبيه الى قلة البحوث التى أجريت فى هذا المجال الحيوى العام الذى تتوقف عليه قدرة الانسان على رسم حياته وحياة المجتمع البشرى فى المستقبل .

ويمكن ان نذكر الى جانب التون عددا آخر من علماء النبات الذين اهتموا بتوطيد الدراسات الايكولوجية من امثال هومر شانتز Homer Shantz الذى وضع اطلسا نباتيا ظل معتمدا لمدة طويلة جدا وذلك بعد ان قام برحلة علمية فى افريقيا من القاهرة الى جنوب القارة . كذلك يدخل اللويوود Aldo Leopold ضمن هذه المجموعة من العلماء ، وقد قام بكثير من الابحاث فى صحارى المكسيك وارىزونا .

أزمة البيئة

المنهج العلمى الرياضى الدقيق ، وبذلك ترجموا كل العلاقات الايكولوجية ترجمة كمية افقدت هذه العلاقات كثيرا من « انسانيته » وعمقها ، وفقدت الكتابات الايكولوجية عموما كثيرا من جاذبيتها السابقة التى كانت تتميز بها ، وأخفقت بالتالى فى أن تصل الى كثير من الناس على الرغم من أنها تعالج مسائل وامورا تمس حياة الانسان والمجتمع مسا شديدا . وقد زاد الوضع سوءاً أن عددا من علماء الايكولوجيا النباتية والحيوانية كانوا يرفضون فكرة امكان قيام ايكولوجيا انسانية او بشرية على الأصح ، وذلك باستثناء عدد قليل منهم كانوا فى الاغلب من المتخصصين أصلا فى الجغرافيا او الانثروبولوجيا . ولعل من أهم هؤلاء الجغرافيين كارل ساور Carl Sauer الذى كان ينظر الى الايكولوجيا دائما فى ضوء النشاط البشرى العام . ويقول آخر فان هؤلاء العلماء الذين كانوا ينادون بضرورة قيام ايكولوجيا بشرية انما كانوا يؤمنون بأن هناك ايكولوجيا واحدة شاملة ، ويصدرون فى كتاباتهم عن هذا الايمان . وعلى أى حال فالواضح ان كلمة ايكولوجيا انتشرت فى مختلف الاوساط العلمية ، ولم تعد قاصرة على علماء النبات أو الحيوان ، كما أصبحت الدراسات الايكولوجية أكثر ميلا بعد ذلك الى الشمول والتكامل مما يجعل من مشكلة البيئة مشكلة اجتماعية وانسانية بقدر ما هى مشكلة فيزيقية .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من اتساع نطاق البحوث الايكولوجية الان واعطاء الجانب الاجتماعى والانسانى قدرا أكبر من الاهتمام ، فلا تزال نقطة لانطلاق فى أى بحث ايكولوجى هى الظروف والاضاع المادية السائدة فى أى مجتمع من المجتمعات ، وإلى أى حد تنعكس هذه الاوضاع فى سلوك الناس ، وإلى أى حد تتأثر بدورها بهذا السلوك أو بالثقافة السائدة فى ذلك المجتمع ، وكيف يمكن الافادة من هذه الظروف البيئية العامة . وعلى الرغم من التسليم بأن هذه الاوضاع الفيزيكية تؤثر تأثيرا قويا فى حياة الناس الا انها لا تحدد لهم هذه الحياة تماما ، وهذا معناه أن ما كان علماء القرن التاسع عشر يطلقون عليه اسم « الحتمية الجغرافية » والتي كانوا يعنون بها أن الشروط والاحوال الجغرافية تملئ على الناس نوعا معينا بالذات من السلوك والحياة والنشاط الاقتصادى والاجتماعى لا يمكن الخروج منه — قد اختفت الآن تماما من الكتابات الايكولوجية ، التى أصبحت تعتبر هذه الظروف مجرد عامل واحد ضمن عوامل كثيرة تتعاون معا فى تشكيل السلوك الاجتماعى . فساكن الصحراء مثلا لا يشتغلون برعى الحيوان لأن الظروف البيئية وحدها هى التى تحتم عليهم ذلك ، وإنما لأن هناك الى جانب هذه الظروف البيئية الملائمة أوضاعا أخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية تتضافر معا وترسم لهم ذلك الطريق ، مع عدم انكار أهمية الدور الذى تلعبه تلك الاوضاع المادية أو البيئية فى توجيه هؤلاء السكان نحو ذلك النمط المعين — النشاط الاقتصادى . . . فالانسان هو الذى يصنع النظم الاجتماعية التى تسود فى المجتمع الذى يعيش فيه ، آخذا بالاعتبار فى الوقت ذاته ما تقدمه له البيئة الطبيعية من امكانيات ، كما ان الانسان هو أيضا الذى يستطيع ان يغير هذه النظم التى أوجدها بنفسه لنفسه حين يقتضى الأمر ذلك التغيير ، وان كان هذا لا يتم بسهولة فى كل الاحوال . فكان أى تغير فى البيئة الطبيعية يمكن

للانسان أن يقابله بادخال التعديلات والتغييرات المناسبة على النظم الاجتماعية ، بحيث تتلاءم مع الاوضاع والشروط البيئية الجديدة .

ولقد اتجهت البحوث الايكولوجية في معظمها - وبخاصة البحوث التطبيقية - ناحية العمل للمحافظة على البيئة . وارتبط هذا كله بالتخطيط وبالذات بظاهرة التحضر ، أى ازدياد الاقبال على انشاء المدن نتيجة للزيادة الهائلة في عدد السكان وهجرتهم من الريف الى المراكز الحضرية والصناعية . ولقد كان لهذا اثره بالتالى على المناطق الريفية والخلوية . فقد كان من الطبيعي ازاء زيادة التصنيع وزيادة الهجرة من الريف أن تمتد حدود المدن والمراكز الحضرية بحيث التهمت مساحات كبيرة من المناطق الريفية والخلوية والأرض الزراعية . وقد دعا ذلك بعض العلماء الى الاهتمام ليس فقط بتطهير و (تنظيف) البيئة الحضرية من الأدران التى تلوثها ، ولكن أيضا بانقاذ الريف والمحافظة عليه والابقاء على المناطق الخلوية التى تعتبر رئة المجتمع كله . ولعل هذه كانت هى الفكرة الكامنة وراء ما يقال من أن ارتفاع مستوى المعيشة اقتصاديا عن طريق التصنيع يرتبط بالضرورة بانخفاض أو تدهور مستوى المعيشة بيئيا أو ايكولوجيا ، ليس فقط نتيجة للتلوث الذى يصاحب نشأة الصناعة ثم انتشارها ، ولكن أيضا نتيجة للزدحام السكاني وازدياد الضوضاء والضجة والصخب التى ترتبط بعمليات التصنيع وظهور المراكز الصناعية ، بحيث أصبح الهدوء الآن سلعة نادرة الى حد كبير . وهذه كلها أمور يتطلب حلها قيام تعاون وثيق بين علماء الايكولوجيا والفيزياء والاجتماع والنفس والانثربولوجيا ، فضلا عن المهندسين والمستغلين بالتخطيط وغيرهم ، وهو ما يزيد من توكيد وتوضيح خاصية الشمول والتكامل التى تعتبر من أهم الخصائص المميزة لمشكلة البيئة . (٤)

(٤) هناك بعض الاتجاهات التى تدمج الى توجيه التربية والتعليم بحيث تخدم البيئة ، بل وإلى ظهور تخصصات جديدة فى علم البيئة التى يبدو أن كثيرا من الدول حتى المتقدمة لا تعطىها الان ما تحتاجه من مناهة واهتمام . وتعتمد هذه الدعوة على ان (إدارة) البيئة والتحكم فيها والمحافظة عليها تحتاج الى عدة تخصصات تتكامل وتعاون فيما بينها بحيث يمكن ان يخرج منها تخصص جديد يجمع بين عدة فروع مختلفة من العلم مثل الجيولوجيا وعلوم التربية والاقتصاد والاجتماع والانثربولوجيا بل والفلسفة أيضا باعتبارها من الدراسات التى تساعد على فهم مفزى سلوك الناس وعاداتهم وبخاصة فيما يتعلق بموقفهم من البيئة الطبيعية . فالانسان - على ما يقول روبرت موريسون Roper Morrison فى مقاله الرائع عن Education for Ecological Concerns هو انجح الكائنات فى استعمار الارض واستخدامها واستغلال مواردها ولكنه فى الوقت ذاته أكثر هذه الكائنات افسادا للأرض تلويثا لها . ولكن على الرغم من كل الجهود التى تبذلها الجامعات الأمريكية بالذات وعدد من الهيئات والمنظمات العلمية لنشر فكر التخصص فى (الايكولوجيا) بهذا المعنى العام الشامل ، فاللاحظ ان الاقبال عليه لا يزال ضئيلا نظرا لصعوبة العلوم التى يتعين على العالم الايكولوجى ان يلم بها ، وتشعب هذه العلوم وتنوعها بل وتباينها . وعلى أن حال فإن توفر امثال هؤلاء المتخصصين لن يكون سوى الخطوة الاولى فى دراسة البيئة بينما سوف يحتاج الامر بعد ذلك الى تعاونهم مع عدد من المتخصصين فى بعض فروع المعرفة الأخرى وبخاصة الهندسة والتخطيط بل وأيضا الكيمياء والبيولوجيا لحل أبسط مشكلات البيئة .

(٢) .

وواضح من هذا أن أهم ما يشغل بال علماء الأيكولوجيا الآن هو مسألة «المحافظة على البيئة» ، وهو تعبير حديث نسبيا ، وإن كان استعماله شاع كثيرا بين كل المهتمين بأمر البيئة والمحافظة عليها ، حتى وإن لم يدركوا كل الأبعاد التي تتضمنها هذه العملية الشديدة التعقيد التي تحتاج إلى الألام بكل جوانب الحياة الاجتماعية الاقتصادية ، بما في ذلك نفس عادات الناس وموقفهم من البيئة بطريقة معاملتهم لها - أو على الأصح تعاملهم معها - وردود الفعل التي ينتظر أن تصدر عنهم أزاء مشروعات وبرامج المحافظة على البيئة ، وهي برامج غالبا ما تتعارض مع رغبات الناس ومع ما تعودوا عليه ، ولذا فإنها تثير فيهم الرغبة في المقاومة . وهذا وضع طبيعي على أي حال ، يصادف كل مشروعات التنمية التي تهدف إلى تغيير الأوضاع القائمة . هذا كله بالإضافة إلى المعارضة التي يثيرها المشتغلون بالتصنيع على ما سبقت الإشارة إليه . إلا أنه يبدو أن الأذهان أصبحت الآن مهياة إلى حد كبير إلى تقبل فكرة المحافظة على البيئة ، كما أنه يمكن تبديد كثير من الشكوك التي أثرت حول هذه الحركة وحول تلك البرامج ، وإن كانت نتائج البرامج ذاتها لا تظهر بسرعة أو سهولة مما يجعل من الصعب تقدير مدى ما أحرزته من نجاح في المدى القصير ، كما أن وضع هذه البرامج والتخطيط لها يحتاجان إلى دراسات وبحوث طويلة وعديدة ومتعمقة وشاملة (دون أن تفرق مع ذلك في المشاكل المنهجية التي كثيرا ما تكون عائقا أمام إتمام هذه البحوث وبخاصة في المجال التطبيقي ، وربما كان الجانب الاجتماعي هو أصعب جوانب عملية دراسة مشكلة البيئة والمحافظة عليها . فقد يكون من السهل العثور على أعداد كبيرة من الباحثين الذين يمكن الاعتماد عليهم في جمع المعلومات الخاصة بعملية التلوث ، ولكن من الصعب جدا العثور على مثل هذا العدد من الباحثين الذين لهم القدرة على الكشف عن العوامل السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية التي تكمن وراء تلويث الناس لأحد الأنهار مثلا ، (٥) مع أن المعركة الحقيقية تدور ضد العادات والجهل واللامبالاة وما إليها ، وهي كلها أمور يصعب قهرها والتغلب عليها ، وتحتاج إلى جهود طويلة ومكثفة ، وقد تحتاج في آخر الأمر إلى إصدار قرارات سياسية حاسمة للقضاء عليها . وهذه القرارات السياسية تتخذ شكل تشريعات خاصة بالمحافظة على البيئة ، (مثل تحريم القاء الحيوانات الميتة في الأنهار بمجرى المياه) . وإن كان السلاح الأقوى والأكثر فعالية واستمرارا هو التعليم ونشر الوعي ، رغم ما يتطلب ذلك من وقت ومجهود .

ولقد سبق القول أن «المحافظة على البيئة» لا تعني أبدا الامتناع عن كل ما عساه أن يؤدي إلى تغيير الأوضاع البيئية الطبيعية . فليس من شك في أن عمليات استخراج المعادن مثلا من باطن الأرض ، أو إنشاء مشروعات الري وتوليد الكهرباء الكبرى قد أسهمت أسهاما ملموسا في

نمو الاقتصاد القومي في البلاد التي نفذت هذه المشروعات ، كما أدت الى ارتفاع مستوى المعيشة وتقدم المجتمع الانساني ككل ، على الرغم من كل ما نجم عنها من تلوث واضرار تتمثل - في أبسط واوضح مظاهرها - في الامراض التي تصيب الانسان نتيجة لتلوث الهواء واستنشاق ذلك الهواء الملوث (٦) . والمشكلة الرئيسية التي تواجه المهتمين بهذه المسألة ليست هي الطريقة التي يمكن لها السيطرة على تلوث الهواء ، وانما هي الى أي مدى يجب التحكم في هذه السيطرة ، خاصة وان تكاليف هذه العملية باهظة الى حد كبير ، وترتفع ارتفاعا رهيبا كلما زادت درجة التحكم في تطهير وتنظيف الهواء وتنقيته . ولا يزال ثمة جدل كثير حول جدوى العمل على تطهير الهواء تماما من كل ما يشوبه ، كما انه لا يزال ثمة جدل طويل عما اذا كان كل ما يشوب الهواء يعتبر من عوامل التلوث الضارة التي يجب ابعادها وإزالتها تماما . والرأي السائد هو انه لا يكاد يوجد الآن ما يمكن تسميته بالهواء النظيف تماما في أي بقعة من بقاع الارض . وهذا نفسه يصدق على الارض والماء وغيرهما من عناصر ومكونات البيئة الطبيعية ، وان كان تلوث الهواء يثير انتباه واهتمام وعناية العلماء أكثر مما يشهده تلوث تلك العناصر الأخرى ، وذلك نظرا لأن الهواء هو العنصر الوحيد من عناصر البيئة الذي لا يمكن الاستغناء عنه والذي تحتاج اليه كل الكائنات العضوية وكل اشكال الحياة . وكما يقول تيلر Teller : « ان خدمات الهواء تحتاج اليها جميع الكائنات دون أن يملكها أي كائن واحد منها . فالهواء سلعة جماعية بكل ما في الكلمة من معنى » .

ومع ذلك ، فالرأي السائد الآن هو اننا لن نستطيع ان نتحكم في البيئة الطبيعية ان لم نتحكم أولا في أنفسنا ، اما عن طريق التشريع او عن طريق التوعية والاقتناع الشخصي والادراك السليم . وهذا يقتضي بغير شك اعدادا طويلا يقوم على التعريف بالمعلومات الأساسية المتعلقة بالبيئة والاحاطة التي يمكن ان تلحق بها نتيجة لسلوك الانسان . ورغم هذا كله ، فالرأي السائد أيضا بين أغلب العلماء والمستفيين بمشاكل البيئة هو ان ثمة حقيقة يجب قبولها كقضية مسلم بها وهي انه لا مفر - رغم كل المحاولات التي تبذل لتنظيف البيئة - من وجود درجة معينة من التلوث في كل مكان وفي كل شيء وفي كل وقت ، وان المهم في الامر - من الناحية العلمية - هو أن نعرف متى تصبح درجة التلوث مسألة لا يصح السكوت عليها ، وان كان من الصعب الوصول الى مثل هذا التجديد الدقيق .

• • •

(٦) انظر في ذلك التقرير المرفوع عام ١٩٧٣ الى مجلس الشيوخ والنواب الامريكيين عن :

• ويشير التقرير الى اهم مصدر تلوث الهواء "A Study of Pollution — Air" P. 14
مثل السيارات والصناعة ، كما انه يعدد الكائنات العضوية وغير العضوية التي العضوية كالباني . ومثل هذه الاشارات توجد بكثرة في جميع الكتابات التي تتناول مشكلات البيئة والتلوث .

ازمة البيئة

وتضافر كل هذه القوى في معالجة البيئة ، وكذلك النظر الى مكونات البيئة وعناصرها المختلفة على انها تؤلف كلا واحدا متماسكا معناه ان البيئة ذاتها تؤلف وحدة متكاملة أو نسقا متمائرا System . ولقد كثر الكلام في السنوات الاخيرة عن الانساق الايكولوجية Ecosystems ، وحاول كثير من العلماء تصنيف هذه الانساق تبعا لاحد الانماط الاساسية التي تغلب على شكل الحياة داخل كل (نسق) كما هو الحال مثلا في التمييز بين النسق الايكولوجي الصحراوي الذي ينشأ نتيجة لتوافر عناصر فيزيقية معينة تتمثل في جذب الارض وقلة الماء ووجود المراعى وما يرتبط بهذا من وجود نمط اقتصادى معين وتنظيم اجتماعى قبلى ، والنسق الايكولوجى الريفى الذى ينشأ نتيجة لتوافر الارض الصالحة للزراعة وامكانيات الري وما يرتبط بذلك من نشأة القرى بتنظيمها الاجتماعى الذى يختلف عن التنظيم القبلى اختلافا شديدا ويعتمد أساسا على الارتباط بمكان واحد والاستقرار فيه ، والنسق الايكولوجى الحضرى الذى يرتبط بالتجمعات الانسانية الكبيرة التي تنشأ في مناطق معينة بالذات نتيجة لظروف جغرافية معينة تساعد اما على التجارة أو تقديم الخدمات أو قيام بعض الصناعات ، وهكذا . واعتبار البيئة نسقا يتطلب بالضرورة ترتيب مكوناتها وعناصرها في نظام واحد يتدرج من أبسط الكائنات العضوية الى أكثرها تعقيدا بحيث تؤلف سلسلة واحدة تتداخل حلقاتها بعضها في بعض وتتفاعل معا من ناحية ، ومع بقية الأشياء غير العضوية وكل ما في الكون من قوى مختلفة ومتباينة من الناحية الأخرى . الا انه لابد من ان نميز في هذا النسق بين التجمعات البشرية وبقية (التجمعات) وأشكال الحياة الأخرى ، على الرغم من كل ما بينها من تفاعل وتشابك في العلاقات في المتبادلة . وتجتاز هذه التجمعات البشرية في أى نسق ايكولوجي بتعقد سلوكها الاجتماعى الى حد كبير جدا وبخاصة فيما يتصل بالبيئة بحيث يحقق هذا السلوك درجة عالية من التكامل البيولوجى لانجد له مثيلا في العلاقات القائمة بين الحياة الحيوانية أو النباتية وبقية مكونات البيئة في ذلك النسق ، كما ان الانسان في كل نسق من هذه الانساق الايكولوجية هو الذى يسيطر سيطرة تامة على بقية تلك المكونات و (التجمعات) وأشكال الحياة ، وهذه السيطرة هي التى تخلق في آخر الامر الأزمة الايكولوجية التى تعاني منها كل المجتمعات في الوقت الحالى ، وذلك نتيجة لاساءة استخدام تلك المكونات والعناصر . وليس هناك من ينكر اهمية العلاقات بين الكائنات العضوية المختلفة والبيئة ، ولكن التكامل بين الانسان والبيئة خلقى بأن يلقى اكبر قدر من الاهتمام وبخاصة حين تكون المسألة متعلقة بمحاولة التعرف على مستقبل المجتمع الانسانى ومصادر الثروة في الارض وامكانية تحقيق درجة اكبر من التقدم . (٧)

(٧) على الرغم من كل الاهتمام الذى يبديه العلماء الآن بدراسة البيئة فلا تزال الدراسات والبحوث عن الانساق الايكولوجية المختلفة - بكل مكوناتها وعناصرها المتفاعلة - قليلة نسبيا ، كما ان معظم ما كتب لا يخرج عن الوصف السريع الذى يكاد يخلو من تحليل العلاقات المتبادلة بين هذه المكونات المختلفة . وربما كان ذلك راجعا الى تعقد هذه العلاقات والى الحاجة الى الاطاحة بكثير من العلوم التخصصية لفهم هذا التفاعل على ما ذكرناه . ولما اتجه يحاول ان يفرض نفسه الان على دراسة الانساق الايكولوجية عن طريق تطبيق المناهج الرياضية والكمية .



وهذا ينقلنا مرة أخرى الى ماسبق أن ذكرناه من أن النسق الايكولوجي - رغم تعقده - نسق اجتماعي الى حد كبير ، وان مشكلات البيئة ومشكلات اجتماعية في المحل الاول .

(٣)

ولقد جاء اهتمام علماء الاجتماع والانثروبولوجيا وغيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والانسانية بمشكلات البيئة في مرحلة متأخرة على اهتمام علماء النبات والحيوان بهذه المشكلات ، والمعروف ان كلمة « ايكولوجيا Ecology » ادخلت لأول مرة الى ميدان العلوم البيولوجية على يد عالم الاحياء الالماني ارنست هيكل Ernst Haeckel عام ١٨٦٩ للإشارة الى العلاقات المتبادلة بين النباتات والحيوانات التي تعيش معا في بيئة طبيعية معينة ، بينما لم يستخدم المدخل الايكولوجي او النهج الايكولوجي في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية الا في اوائل القرن العشرين ، وبخاصة في كتابات عالم الاجتماع الأمريكي جالبن Charles Galpin وبخاصة في كتابه الهام الذي ظهر عام ١٩١٥ بعنوان « التشريح الاجتماعي لأحد المجتمعات المحلية الزراعية Social Anatomy of an Agrarian Community » ومع أن جالبن لم يستخدم في هذا الكتاب كلمة (ايكولوجيا) صراحة الا أنه في دراسته للعائلات القروية التي تعيش ذلك المجتمع المحلي الزراعي (الذي يقع في إحدى مقاطعات أمريكا) اهتم بتبيين العلاقات المتبادلة بين افراد المجتمع ومكونات البيئة الطبيعية السائدة هناك . وافلح في أن يكشف عن مختلف أنواع النشاط وعوامل توزيعها . وقد كان الهدف الاول من دراسة جالبن هي أن يدل على أنه يوجد في كل مجتمع من المجتمعات الانسانية « مناطق طبيعية Natural areas » تظهر تلقائيا نتيجة لتوفر ظروف ايكولوجية معينة ، كما أنه يوجد في كل منطقة من هذه المناطق أنواع معينة من النشاط الاقتصادي والاجتماعي ، بل وأيضا التنظيم السياسي التي تتلاءم مع هذه الظروف . ولم يلبث هذا الاتجاه أن انتشر في كتابات علماء الاجتماع الآخرين في أمريكا من أمثال دوبرت بارك Robert Park و بيرجيس Burgess ، ففي عام ١٩١٥ أيضا حاول بارك أن يدل على أن المدينة ظاهرة طبيعية تنشأ نتيجة لتوفر عوامل



وهذا اتجاه ينظر اليه الكثير من العلماء بغير قليل من الحذر والشك والتخوف على ما اشرنا من قبل ، لانه قد يفقد هذه العلاقات الايكولوجية جانباً من معناها الانساني ، وان كان اصحاب هذا الاتجاه انفسهم يرون أن تطبيق المناهج الرياضية سوف يدفع البحوث الايكولوجية الى اعاق علمية جديدة ويحقق لها مستوى لا يتوفر لها الآن باستخدام الاساليب الوصفية البحتة . وعلى أي حال فإن التحليل الكمي للانسان الايكولوجية لا يزال في بداية الطريق . كما ان النتائج التي امكن الوصول اليها غير مقنعة تماما . والامر لا يزال في حاجة على أية حال الى كثير من المثابرة والجهد حتى يمكن - حسب قو موريسون - فهم اعمق ايكولوجيا المجتمع بنفس الطريقة التي يفهم بها الآن الشفرة الوراثية

Genetic Code مثلا (انظر مقال موريسون المشار اليه في Daedalus op. cit., p. 1210)

Hamilton, L.S., "Education for the Changing Field of Cousevation", Science Education
Vo. 51, No. 2.

أزمة البيئة

طبيعية لا يمكن التحكم فيها ، وأن لكل مدينة من المدن تنظيمها الخاص الذى تنقسم بمقتضاه الى مناطق مختلفة لكل منها نشاطها الخاص ، سواء كان ذلك النشاط نشاطا صناعيا أو تجاريا أو سكنيا ، بل أن لكل منطقة خصائصها الاجتماعية والثقافية التى تطبع حياة أهلها بطابع خاص . أما بيرجس فقد حاول أن يكشف عن درجة التناظر بين المناطق الطبيعية فى المدينة والظواهر الاجتماعية والثقافية ، فالمناطق المتخلفة فى المدينة مثلا هى بطبيعتها مثوى للجريمة والذيلة والأمراض والفساد والتفكك العائلى وغير ذلك من السلوك الانحرافى . (٨)

ومع ذلك فإنه يمكن القول أن الاهتمام الحقيقى بدراسة النسق الإيكولوجى (وبخاصة فى العلوم الاجتماعية والانسانية) لم يبدأ إلا فى الربع الثانى من هذا القرن للدرجة أنه يمكن الكلام عن « المدرسة الإيكولوجية » . وليس معنى هذا أن الاهتمام بدراسة الظروف الإيكولوجية كان معدوما لدى هؤلاء العلماء ، ولكن كل ما نقصده هو أن الدراسات الإيكولوجية ، وبخاصة ابتداء من الثلاثينيات من هذا القرن بدأت تهتم بأسوأ أخرى غير مجرد وصف الظواهر الاجتماعية فى حدود والفاظ التوزيع المكاني، وبدأت تولي عنايتها بوجه خاص الى علاقات التكافل التى تقوم بين أفراد المجتمع وموارد الثروة الطبيعية التى يشتمل عليها ذلك المجتمع .

ولقد ثار خلاف كبير بين العلماء حول ما إذا كان يمكن اعتبار « النسق الإيكولوجى » نسقا قائما بذاته ومتميزا عن غيره من الانساق كل التميز ، أو أنه يدخل مع غيره من الانساق الاجتماعية فى تكوين النسق الاجتماعى العام أو البناء الاجتماعى Social Structure وكان أنصار تمايز النسق الإيكولوجى واستقلالها عن بقية البناء الاجتماعى يقيمون حججهم على أن النسق الإيكولوجى يهتم فى المحل الأول بدراسة العلاقات بين الإنسان والطبيعة بعكس أنساق البناء الاجتماعى التى تهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية المستمرة التى تقوم بين الجماعات البشرية بعضها وبعض ، وليس بين الناس والظواهر الانسانية . ولقد نشأ هذا التمييز الذى لا يخلو من كثير من التعسف والافتعال من الاتجاه الذى اعتنقه بعض علماء الإيكولوجيا البشرية فى الثلاثينات عن التمييز بين التفاعل الإيكولوجى Ecological Interaction والتفاعل الاجتماعى Social Interaction بينما الميل السائد الآن - على ما ذكرنا فى أكثر من موضع من هذا المقال - هو أن ينظر الى العلاقة بين الإنسان والبيئة نظرة عامة شاملة وتكاملية ، وأن كان هذا لا يمنع من اختلافات التخصص والنظرة وتغليب جانب على جانب فى الدراسة والتحليل .

(٨) راجع فى ذلك كتابنا من : البناء الاجتماعى - الجزء الثانى (الإنسان) صفحات ١١ وما بعدها . كذلك

راجع

Park, R.E., (ed); The City, Chicago

V.P. 1925; Burgess, E.W., The Growth of the City; Hollinshead, A.B., "Human Ecology", in Lee; Principles of Sociology, Barnes and Noble, N.Y. 1955.

والذى لا شك فيه أن التوكيد على تكامل الانسان والبيئة هو الطريق الذى يميل الكثيرون الآن اليه لحل مشكلات البيئة على أسس علمية سليمة ، وهو موقف يعطى للانسان والمجتمع الانسانى من الاهمية ما يعطيه للبيئة التى يعيش فيها الاثنان ، على اعتبار أن الاثنين طرفان فى ذلك الكل المتكامل الذى يؤلف وحدة تخفى تحتها كثيرا من العناصر والمكونات المتباينة المتشابكة . ومثل هذه النظرة التكاملية الى علاقة الانسان بالبيئة تقتضى من الباحث ، وبالتالى من المشتغلين بتطهير البيئة ، معالجة عدد من الموضوعات يمكن أن تشير هنا الى بعضها للتدليل على مدى تعقد الموضوع والجهود التى يتطلبها تحليل الموقف :-

أولا : عناصر ومكونات النسق الايكولوجى موضوع الدراسة ، والمقصود هنا هو بالطبع المكونات الفيزيائية مثل الهواء أو الماء . (ومثل هذا ينطبق على الانساق الاخرى كلها كالكائن العضوى الحى والنسق الشمسى أو نسق الكواكب السيارة وغيرها .

ثانيا : البناء أو الهيكل المادى (المورفولوجيا Morphology) - والمقصود به دراسة تنظيم الاجزاء المختلفة بما فى ذلك التنظيم الاجتماعى داخل افراد النوع الواحد أو المجموعة الواحدة أو بين الانواع أو حتى المجموعات المختلفة . وهذا ايضا يصدق على بناء المجتمع الانسانى كما يصدق على بقية الابنية النباتية أو الحيوانية .

ثالثا : الوظائف والعمليات ، والمقصود بذلك فسيولوجيا النسق بما فى ذلك العمليات التى تتحكم فى سير وسلوك وتصرفات كل الانساق الحية بصرف النظر عن مستوى التنظيم الذى يسود فى كل نسق من هذه الانساق .

رابعا : التوزع فى الزمان وما يرتبط بذلك من تغيرات تطرا على النسق خلال الزمن .

خامسا : التوزع فى المكان ، والمقصود بذلك انتشار الانسان أو الحيوان أو النبات فى مختلف المناطق واسباب ذلك التوزع .

سادسا : العلاقة بالبيئة - والمقصود بذلك دراسة التأثيرات المتبادلة بين البيئة ومكوناتها من الكائنات العضوية المختلفة .

سابعا : اخيرا مشكلات التصنيف - ويشمل ذلك تصنيف النباتات والحيوانات ، بل والناس ايضا ، داخل النسق الايكولوجى تبعاً للخصائص الذاتية لكل فئة من هذه الفئات . (٩)

(٩) Dillon Ripley and Helmut K. Buechner; „Ecosystem Science as a Point of Synthesis” in Daedalus, op. cit; PP. 1194 - 95.

أزمة البيئة

وكل هذه النقاط أثرت في الأصل في كتابات علماء الأيكولوجيا النباتية والحيوانية ، ولكنها تصدق بكل دقائقتها وتفصيلاتها على مستوى العلاقات القائمة بين الإنسان والمجتمع والبيئة ، بحيث أن أى عملية تبدأ في أى طرف من هذه الأطراف الثلاثة لا تلبث أن تنتقل إلى الطرفين الآخرين ، بحيث تؤثر ، آخر الأمر ، في ذلك الكل المتكامل أو الوحدة المتكاملة المتميزة (وحدة الإنسان - المجتمع - البيئة) . وأبسط مثل لذلك هو حركة جزئيات الـ DDT من النبات أو الحيوانات ومنها تلك التي تقتات على تلك النباتات ، إلى الإنسان الذي كان هو السبب الأول في نشر هذا التلوث . واكتمال هذه الدورة هو الذي يبين مدى التكامل القائم داخل النسق الأيكولوجي . وتتم فكرة التكامل حين تأخذ في الاعتبار أن حركة هذه الجزئيات الفيزيائية أو المادية D.D.T. تدفع الإنسان إلى التفكير في هذا الوضع القائم ، والعمل على التغلب على الأخطار الناشئة عن هذا الوضع .

ولقد ظل الإنسان منذ نشأته الأولى المبكرة يعمل على تغيير البيئة التي يعيش فيها بحيث تتلاءم مع احتياجاته ومتطلباته ورغباته ، ولكن الغريب في الأمر هو أن هذا التعديل أو التغيير كان يحمل دائما في طياته كثيرا من المساوئ والشروء التي انعكست على حياة الإنسان نفسه . فكانه يمكن القول أن الإنسان كان يعمل دائما ، ومن حيث لا يدري ، على تغيير البيئة بما يتعارض مع صالحه . ولقد كان هذا هو الحال خلال الخمسة آلاف سنة الماضية . - على الأقل - منذ ظهور الحضارات الأولى باستقرار الإنسان في الأرض ، وإن اتخذ هذا التعديل والتغيير اشكالا مختلفة باختلاف العصر والمكان ودرجة التقدم ونمط الحياة والظروف العامة التي يعيش فيها المجتمع . فمنذ هذه الفترة المبكرة ، وقبلها بكثير بغير شك ، عمل الإنسان على استغلال الموارد الطبيعية بطريقة أدت إلى نتائج عكسية في كثير من الأحيان تمثلت في استنزاف خصوبة مساحات كبيرة من الأرض (كما حدث في أراضي ما بين النهرين) والقضاء على كثير من مناطق الغابات (كما حدث مثلا في بلاد اليونان القديمة وفي إيران) والقضاء على مساحات واسعة من المراعى في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا بحيث تحولت إلى أرض صحراوية مجدبة أخذت تتسع وتمتد بدورها على حساب الأراضي الخصبة القابلة للزراعة . كذلك ساعد الإنسان خلال كل هذه الفترة على تلويث الهواء بأحراقه الغابات وحشائش السافانا على أمل أن يزرع الأرض بعد أن (يطهرها) من غطائها الأخضر الطبيعي . ثم أسهمت التكنولوجيا الحديثة آخر الأمر في تدمير البيئة بسرعة وإلى حد كان يصعب تصور حدوثه منذ سنوات قليلة فقط . وهذا خليق بأن يجعلنا نعطي نصيبا أكبر من الاهتمام للدور الذي لعبته التكنولوجيا الحديثة في خلق الأزمة الأيكولوجية التي نعاني منها الآن ، والتي تتمثل في اختلال التوازن الدقيق بين عناصر البيئة وتخلخل ذلك التكامل الذي أشرنا إليه .

(٤)

ولسنا نقصد بالتكنولوجيا هنا مجرد الأشياء المادية أو الأدوات التي نستخدمها في حياتنا اليومية لانجاز الأعمال الصعبة أو لزيادة الانتاج ، وإنما المقصود هنا كل ما من شأنه أن يساعد على مد سيطرة الإنسان على البيئة الطبيعية ، وبذلك يمكن أن ندخل ليس فقط الآلات والأجهزة التي نستعين بها في العمل والانتقال وانجاز الأعمال المنزلية وقضاء وقت الراحة والترفيه فحسب ، بل وأيضا جميع العوامل التي تساعد في اتمام هذه الأنشطة ، مثل الطرق والمطارات والسدود والخزانات ومحطات توليد القوى وما الى ذلك ، وهي كلها تشغل حيزا كبيرا من البيئة الطبيعية وتؤثر فيها . والواقع أن كل ما تفعله التكنولوجيا بهذا المعنى يمكن تلخيصه في استخراج المواد الخام من البيئة واستخدامها بالاستعانة بأحد أشكال أو صور الطاقة ، ثم رد هذه المواد بعد ذلك الى البيئة مرة أخرى ، ولكن بعد أن تكون قد اتخذت شكلا جديدا تماما . (١٠) ومع أن بعض هذه المواد الخام تستخدم في صورتها الطبيعية مثل الخشب والحجارة والطين ، إلا أن الغالبية العظمى تخضع لكثير من التغييرات والعمليات الطويلة المعقدة التي تفقدها خصائصها الأولى . ولقد كان الإنسان المبكر يكتفى في الأغلب باستخدام المواد الخام كما يجدها ، ولم يكن ذلك يتطلب منه سوى بلل قدر ضئيل من الطاقة هي تلك التي يستمدّها من قواه العضلية وحدها . ولقد تمكن بذلك ، وعن طريق استخدام هذه المواد الخام في صورتها الطبيعية الأولية في صنع أسلحته وأوانيه الفخارية وما إليها ، أن يصمد أمام الطبيعة القاسية ويقاومها . ولقد زودت هذه الأدوات الإنسان خلال كل مراحل تاريخه وتطوره بميزات كثيرة لم تكن متاحة لبقية الكائنات الحية الأخرى التي دخل الإنسان معها في صراع طويل وعنيف . ولقد تطورت قوى الإنسان وازدادت خلال تلك القرون الطويلة كما أصبحت الأدوات والآلات التي يستخدمها أكثر تعقيدا وتقدما ، كما أصبح الإنسان يستعين بمواد أخرى كيميائية أو يقوم بعمليات فيزيائية معقدة لتنقية هذه المواد الخام الطبيعية أو تحويلها الى مواد أخرى يستخدمها في حياته العملية كما هو الحال في صنع الصلب من خام الحديد بعد أن ينقيه من كل الشوائب ، ثم استخدام الصلب بعد ذلك في صنع كثير من الأدوات . وهذا يصدق على أشياء أخرى كثيرة . وحين يضيق الإنسان بهذه الأدوات والمصنوعات فإنه (لا يلقي بها بعيدا) في حقيقة الأمر ، أو (ينبذها) تماما ، وإنما تعود هذه الأدوات والمصنوعات الى البيئة لتصبح جزءا منها مرة أخرى . فالحديد حين يصدأ يعود الى الأرض ، والبلاستيك حين يستغنى عنه الإنسان ويلقيه فإنه إما أن يدفن في الأرض أو أنه يحرق لكي يتحول الى حرارة وغازات تتصاعد في الهواء ، وهكذا . والمادة قد تتحول الى طاقة كما هو الحال حين يحرق الوقود ولا تلبث أن تمتصها (البيئة) بشكل ما . فكأن البيئة تسترد في آخر الأمر وبشكل ما كل ما تأخذه منها مثلما تسترد نائحين أيضا ، على ما يقول هاملتون (صفحة ٢٠) .

أزمة البيئة

والهم هو أن التكنولوجيا تساعد الإنسان على البقاء والصمود في صراعه الابدى مع الطبيعة. فلكي يتمكن الإنسان من الحصول على الطعام والدفع والمأوى (أو المأكل والملبس والسكن) فانه يتعين عليه أن (يرتب) بيئته بما يتفق مع أهدافه وحاجاته ومتطلباته وبذلك يدخل في صراع وتعارض مع البيئة ومع الطبيعة التي تعمل على هدم ما قام بترتيبه واعداده وصنعه، بل والقضاء عليه تماما . ولقد خسر الإنسان كثيرا خلال هذا الصراع الطويل ، وان كان التقدم التكنولوجي الحديث والآلات والادوات المعقدة قد أعطته - كما قلنا - مزيدا من القوة التي لم يكن يتمتع بها من قبل . ويبدو أن هذه القوة قد بلغت درجة عالية من الخطورة على البيئة كلها . وصحيح أن البيئة الطبيعية كانت معرضة دائما لكثير من التغيرات التلقائية منذ وجد الكون ، ولكن الإنسان اضاف الى هذه التغيرات بتدخله في سير الطبيعة ، كما أن الذي يهم هنا هو سرعة وحجم هذه التغيرات التي أحدثها الإنسان وبخاصة تلك التي لا يمكن الرجوع عنها أو علاجها . وليس من شك في أنه كلما تطورت التكنولوجيا وتعقدت وتقدمت زادت هذه التغيرات عمقا وخطورة . وربما كان أخطر هذه التغيرات هي تلك التي تطرأ على الهواء نتيجة لتلوثه ، وعلى الماء نتيجة لافراق نفايات المصانع في البحر (١١) . والخطر من ذلك هو أن موارد المواد الخام لا يمكن أن تظل الى الابد ، بل أن بعضها بدأ يعاني بالفعل من النقص الشديد نتيجة لمفالة الإنسان في استخراجها من باطن الأرض ، وهناك من العلماء من يقدر أن كثيرا من هذه الموارد سوف تنضب تماما حوالي عام ٢٠٠٠ مما يعنى أن المجتمع الانساني سوف يجد نفسه في مأزق شديد نتيجة لهذه الأزمة الايكولوجية المتوقعة .

ولكن اذا كانت التكنولوجيا تحتاج بالضرورة الى توفر الطاقة فان النتائج المترتبة على استخدام الطاقة أصبحت تثير كثيرا من القلق ، وهو الامر الذي لم يكن الإنسان يتوقعه في بداية الثورة الصناعية او حتى في بداية برنامج استخدام القوى النووية . ويجد الإنسان نفسه أنه في موقف صعب لا يكاد يجد لنفسه مخرجا منه ، على الاقل في الوقت الحالى . ذلك أن الاستمرار في احراق الوقود لتوفير الطاقة اللازمة وبنفس الطريقة التي ننبعها الآن يؤدي الى مزيد من ذلك التلوث الخطير بالإضافة الى استنزاف موارد الوقود ذاتها بسرعة ، كما أن هناك من العلماء من يرون أن الحرارة المنطلقة من حرق هذه الكميات الهائلة من الوقود قد تؤدي الى ارتفاع درجة حرارة الأرض بشكل غير متوقع ، كما قد يؤدي الى حدوث اضطرابات شديدة في المناخ ذاته . واذا

(١١) من أهم ما يشغل بال كثير من العلماء الآن مشكلة الحصول على اشكال من الطاقة لا ينجم عنها الا تلوث البيئة . فكل اشكال الطاقة المعروفة الآن تؤدي الى التلوث ولكن بدرجات مختلفة ، وربما كان الفحم أكثرها سوءا في هذا الصدد . وربما كان أهم مصادر الطاقة التي لا يتولد عنها تلوث البيئة هي الشمس التي تعتبر المصدر الاصلى لعظم اشكال الطاقة الموجودة في الأرض كما أنها هي الطاقة الأساسية التي تحفظ الحياة بكل صورها واشكالها . والملاحظ هو أن استهلاك الطاقة يزداد باطراد نتيجة لزيادة السكان وارتفاع مستوى المعيشة وتعقد التكنولوجيا واعتماد الحياة اليومية عليها اعتمادا متزايدا . وتبلغ معدلات الزيادة السنوية في استخدام الطاقة الأولية ٥ ٪ بالنسبة للفحم والبتروال والفاز عن السنة السابقة عليها بينما ترتفع هذه المعدلات بنسبة ٨ ٪ في استهلاك الكهرباء . ومن المشكوك فيه ان هذه الزيادة يمكن ان تستمر بغير توقف .

حدد الإنسان من الناحية الأخرى استخدامه للوقود لكي يحافظ على مصادر الطاقة ويقلل من درجة التلوث فسوف يعجز عن تحقيق التقدم التكنولوجي الذي يبدو أنه أصبح سمة من سمات العصر الحديث والمجتمع المعاصر ، وهذا سوف يؤدي بالضرورة الى انخفاض مستوى المعيشة انخفاضاً شديداً عما هو عليه الآن . وليس هناك من يستطيع أن يتنبأ بمصير المجتمع ان حدث ذلك أو حتى يجزؤ على مجرد التفكير فيه ، أو أن يتصور المستويات الدنيا التي سوف تنزلق اليها الحضارة الحديثة التي بدأت بالثورة الصناعية ، أو التفريعات الهائلة التي سوف تطرا على حياة الناس . فهل يهجر الناس مثلاً المناطق الشمالية الباردة في العالم الى المناطق الاستوائية والمدارية الأكثر دفئاً ؟ وهل تتفكك المجتمعات الحضرية والصناعية وتختفى المدن الكبرى بعد أن تتوقف الصناعة وتحول التجمعات البشرية الهائلة التي ترتبط بهذا التنظيم الحضري الصناعي الحديث الى مجموعات بشرية صغيرة ومتناثرة كما كان عليه حال المجتمع خلال الفترة الأطول من تاريخه ؟ وهذه كلها ليست مجرد تخيلات أو افتراضات لا تستند الى دليل وإنما هي احتمالات يمكن أن تتحقق اذا زال الأساس التكنولوجي الذي تقوم عليه كل حياتنا المعاصرة . الا أننا نجد في الوقت نفسه ان الدول الصناعية المتقدمة تنفق الآن على البحث العلمي الذي يهدف الى تحقيق مزيد من التقدم التكنولوجي مبالغ هائلة لا يمكن أن تقارن بها تلك المبالغ الضئيلة نسبياً التي تخصص للبحث في المجالات التي تتصل بالحاجات الأساسية للإنسان ، مثل العلوم الاجتماعية ومشكلات التخطيط وأفضل الطرق لاستخدام الأرض وتطوير الزراعة وإنتاج الطعام . وهذه التفرقة الواضحة في الاهتمامات وفي الانفاق تعني ضمناً ان الجنس البشري أكثر اهتماماً بما قد يودي به وبالمجتمع وبالعالم كله بدلاً من أن يعطي المزيد من العناية بما قد يساعد على بقاء الحياة واستمرارها . ولكن الظاهر أن هناك من العلماء من يحاولون إعادة النظر في الموقف ، أو على الأقل تنبيه الأذهان الى ما ينطوي عليه من أخطار (١٢) ، خاصة وأن الأوضاع في كثير من أنحاء العالم

(١٢) ينظر كثير من الكتاب الى الأمر نظرة ملؤها التشاؤم وبخاصة فيما يتعلق بمستقبل العلاقة بين الإنسان والبيئة وتفاقم الأزمة البيئية . فلي فقره طويلة بعنوان « الإنسان عدو نفسه ” Man his own enemy “ يقول ديفيد هاملتون - الذي كان حتى وقت قريب رئيس تحرير مجلة New Scientist - في كتابه الذي سبقته الإشارة اليه ، أن الإنسان لن يستطيع أن ينقل نفسه من نفسه حتى ولو أفلح في التخلص من الآثار السيئة التي تنتج من التكنولوجيا . ذلك أن الإنسان في رأيه سوف يظل ينجب ويتزايد في العدد مما سيؤدي بالجنس البشري الى الغناء من الجوع ، أو أنه قد يضطر الى أن يحشر كل هذا العدد المتزايد باطراد في بيئة الأرض المحدودة مما سيؤدي بهم الى الصراع والقتال من أجل البقاء وهذا سيؤدي بهم في آخر الأمر الى النتيجة ذاتها . ولقد كان منطق الطبيعة دائماً أن تقوم بتحديد عدد أي جنس من الأجناس تبعاً لمساحة الأرض المتاحة وكمية الطعام الوفيرة ، وأن زيادة في العدد كان مصيرها دائماً الغناء بسبب نقص الطعام أو التنافس الطبيعي أو نتيجة لتدخل إحدى قوى البيئة الأخرى ، ومع أن الإنسان يعرف ذلك تماماً الا أنه يتزايد بطريقة ستؤدي الى استنزاف كثير من الموارد الطبيعية في القريب ، ولكنه يفضل تقديمه التكنولوجي استطاع أن يغير البيئة وأن يحفر في الأرض الى أعماق بعيدة جداً بحثاً عن مزيد من الموارد ولكن هذا كله لا يعني شيئاً سوى تأجيل النهاية المحتومة لبعض الوقت فقط . وسوف يدمرهم خطر لغز الطعام في وقت قريب . بل ←

ازمة البيئة

تستدعى ضرورة الاسراع الى اتخاذ الاجراءات بحفظ حياة الانسان وحياة المجتمع وحياة البيئة على السواء . وقد يكفي أن نذكر هنا أنه مع بداية القرن الحادى والعشرين سوف يعيش ثلاثة من كل أربعة أشخاص من سكان العالم فى تجمعات سكنية كبرى (المدن) ، وسيكون الجزء الاكبر من هذه المدن عبارة عن مناطق سكنية متخلفة Slum areas يقيم فيها المهاجرون - والناحون من القرى والأرياف ، وبذلك يضعون اعباء جديدة وثقيلة على البيئة الحضرية . وفى الوقت الحاضر مثلا نجد أن ثلاثة أرباع السكان فى مدينة كبرى مثل كلكتا يعيشون فى اكواخ واكشاك تنقصها كل اسباب الراحة الاساسية او الاولى (المياه والمجارى ، وحين تهب الرياح الموسمية بما تجلبه من امطار غزيرة وترتفع المياه فى الشوارع والطرق تجد الناس انفسهم مضطرين حين يريدون الانتقال من مكان لآخر الى خوض هذه المياه التى تطفو عليها فضلاتهم وفضلات بهائمهم وكل انواع البقايا والنفايات والقاذورات . وليس حال المناطق السكنية المتخلفة فى مدن الشرق الاوسط افضل حالا من هذا . وليس من شك فى أن أى محاولة لتغيير هذه الاوضاع التى ينجم عنها تلوث البيئة الحضرية سوف تؤدي الى ادخال تغييرات جوهرية جديدة فى هذه البيئة ذاتها .

ومهما يكن الامر ، فهناك عدد من المبادئ التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار دائما حين تدرس الانساق الايكولوجية وما تتعرض له البيئة الطبيعية من تغيرات على يد الانسان فى محاولته تسخير هذه البيئة لصالحه ، أو حين تحاول أن تفهم طبيعة المأزق الذى وضع الانسان نفسه فيه كما وضع البيئة ذاتها فيه .

ولعل أول مبدأ من هذه المبادئ هو تعقد العلاقات بين الانسان والبيئة وتشابكها الى ابعاد الحدود . ويزيد من هذا التعقد تعرض هذه العلاقات دائما للتغيير والتعديل والتحويل نتيجة للتقدم الثقافى والتكنولوجى الذى يحرضه المجتمع . فليس من شك فى أن مثل هذا التقدم التكنولوجى بالذات يساعد مساعدة فعالة واكيدة على تحكم الانسان فى البيئة الطبيعية بعد أن يكون



أن الجنس البشرى يمتلئ الآن فعلا من نقص الطعام ، وسوف يعانى قريبا من النقص فى اشيء اخرى مثل الماء الصالح للشرب والسكن بل والأرض التى يمكنه أن يسكنها فى الوقت العالى يشغل كل خمسة عشر شخصا فى المتوسط كيلو مترا مربعا واحدا من سطح الأرض ، يرتفع العدد بعد جيل واحد الى أكثر من ثلاثين شخصا لكل كيلو متر مربع . ولقد اوقف التقدم فى مجال الطب عمل الطبيعة التى كانت تقضى على افراد الجنس البشرى غير الصالحين - كالمزمنى والمجنونة - فأطال الطب الحديث حياتهم لئلا يزعموا الأرض ويأحوموا الآخرين ويسهموا فى استنزاف الموارد الطبيعية وبالتالي فى تفاقم الازمة الايكولوجية .

والعروف على أى حال أن سكان الأرض يتضاعفون كل ثلاثين سنة تقريبا بحيث يتوقع أن يصل عددهم الى سبعة الاف مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ، وأن معظم الزيادة ستكون فى الدول المتخلفة التى هى اقل قدرة على استيعاب اعداد كبيرة من الناس . والظاهر أنه لن يكون أمام الجنس البشرى الا أن يختار بين العمل على ضبط النسل بكل الطرق بما فيها اباحة الاجهاض (كما يقول) أو يموت جوعا (صفحات ٢٧٤ - ٢٧٩) .

خاضعا لها . وخلق يمثل هذا التحكم ان يؤدي الى تغيرات جوهرية في البناء الاجتماعى الكلى وليس في البيئة الطبيعية وحدها (انظر كتابنا عن الانساق ، صفحة ٨٥) .

والمبدأ الثانى ، وهو امتداد للمبدأ الاول ، يقوم على اعتبار كل التغييرات التى يحدثها الانسان فى كوكب الأرض الذى يعيش عليه هى ظواهر ايكولوجية لا يمكن فهمها فهما صحيحا الا فى ضوء العلاقة الثلاثية القوية التى تقوم بين الانسان والمجتمع والبيئة ، او « المجتمع الانسانى » **ثالثا** عليه البيئة « كما اصطلح كثير من العلماء على تسمية هذه العلاقة . ومع التسليم بقوة العلاقات بين تلك الاطراف الثلاثة التى تؤلف النسق الايكولوجى فان اثر البيئة الفيزيائية يكون اوضح فى المجتمعات البسيطة والاقل تطورا منه فى المجتمعات الراقية المتقدمة ، نظرا لاعتماد الناس فى الفئة الاولى من المجتمعات بشكل مباشر وبطريقة واضحة على ما تقدمه البيئة لهم من امكانيات يفيدون منها فى صورتها الاولى . فالتأخر التكنولوجى يقف عقبة فى وجه الجهود التى قد يبذلها الناس فى هذه المجتمعات لتشكيل موارد الثروة الطبيعية وتحويلها بنفس الدرجة التى نجدها فى المجتمعات الصناعية . ومن هنا كان تغييرهم للبيئة الطبيعية محدودا نظرا لانخفاض المستوى التكنولوجى السائد عندهم .

والمبدأ الثالث هو ان ندرك دائما فى دراستنا للانساق الايكولوجية ان الانسان يوجد دائما فى الطبيعة كجزء منها ، وانه ليس (خلقا) خاصا يوجد ويعيش بعيدا ومنعزلا عن الانساق الايكولوجية بحيث يؤثر فيها من الخارج دون ان يتأثر بها او يتفاعل معها . بل ان تأثير (الانسان) على الانساق الفيزيائية انما يتم عن طريق المجتمع ومن خلاله . وليس المجتمع بعد كل شئ الا وحدة معقدة ومتكاملة لها خصائصها المميزة التى تظهر من خلال التفاعل القائم بين اعضاء ذلك المجتمع ، كما ان اى سلوك جماعى يصدر عن اعضاء المجتمع ككل يختلف فى الاغلب اختلافا جوهريا عن السلوك الذى يصدر من اى عضو من هؤلاء الاعضاء على حدة وانفراد . ومع انه يمكن عزل المجتمع (كفكرة) عن النسق الايكولوجى الطبيعى وان ندرسه فى حد ذاته بعيدا عن ذلك النسق فان ذلك يحتاج الى كثير من التجريد ، بينما الواقع يختلف عن ذلك كل الاختلاف . فليس هناك مجتمع يعيش فى فراغ ، وانما لكل مجتمع اقليم خاص يرتبط به ويشغل رقعة محددة من الارض وتحيط به ظروف جغرافية وبيئية معينة تؤثر بطريق مباشر او غير مباشر فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فيه وتطبعها بطابع مميز . وليس من شك فى ان دراسة المجتمع فى ضوء النقاط السبع التى سبق ذكرها والتى حددها ريبلى Ripley وبوشنر Buechner تلقى كثيرا من الاضواء على الدور الذى يقوم به المتخصصون فى العلوم الاجتماعية والانسانية لفهم النسق العام الذى يضم الانسان والمجتمع والبيئة .

والمبدأ الرابع هو انه على الرغم من التسليم باثر البيئة فى الحياة الاجتماعية فى كل المستويات الثقافية والاجتماعية فان من الخطأ الزعم بان هذا التأثير يصل الى حد تشكيل حياة الناس كلها

أزمة البيئة

وتوجيهها بطريقة معينة بالدات وفي اتجاه مرسوم بالذات أيضا . وكل ما تفعله البيئة هنا هو أنها تقدم امكانيات عديدة للحياة الاجتماعية في أى مجتمع من المجتمعات – أيا ما تكون درجة بساطة هذا المجتمع أو بداءته وتخلفه – بحيث يستطيع الناس ان يختاروا في الاغلب من بين هذه الامكانيات ما يتفق مع ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعى . وليس أدل على ذلك من أننا نجد كثيرا من طرائق الحياة المختلفة في البيئات المتماثلة من ناحية ، كما نجد مثل هذا الاختلاف في أساليب العيش في البيئة الواحدة ، ولكن في الاوقات والفصول المختلفة من الناحية الثانية ، دون أن يكون هناك ضغط شامل من البيئة لتقليل هذه الاختلافات أو محوها . ففى معظم المجتمعات الافريقية مثلا يوجد كثير من أنماط الحياة جنباً الى جنب بحيث يمارس الاهالى الجمع والالتقاط الذى يعتبر فى نظر كثير من العلماء أول مرحلة من مراحل الحياة الاقتصادية واكثرها تأخرا ، كما يمارسون فى الوقت ذاته الزراعة بل وأيضا استخراج المعادن والصناعة في بعض الاحيان . كذلك نجد فى المجتمع الواحد أن الاوروبيين المستوطنين يمارسون أنواعا من النشاط التى تختلف اختلافا تاما عن تلك التى يقوم بها الافريقيون ، على الرغم من أنهم يعيشون معهم في نفس المجتمع ويخضعون لمؤثرات طبيعية وبيئية واحدة . وهذا كله معناه أننا يجب الا نأخذ البيئة الطبيعية أو الظروف الايكولوجية على انها عامل مسبب Causal Factor بقدر ما نعتبرها مجموعة من الظروف أو الشروط الشاملة التى تتلائم على قيام نمط معين من أنماط الحياة الاجتماعية . (راجع كتاب : الانساق ، المرجع السابق ذكره ، صفحات ٨٥ ، ٨٦) .

والمبدأ الخامس والأخير ، هو انه ضرورة التعرف على تأثير العوامل البيئية على التنظيم الاجتماعى ، وبالتالي على البناء الاجتماعى الكلى ، وعملية التكيف التى تحدث طيلة الوقت فى المجتمع سواء اتخذت هذه العملية شكل الاكتفاء باستغلال ما تقدمه البيئة من ثروة ، أو شكل التحكم فى الظروف البيئية والجغرافية والسيطرة عليها واكتشاف مصادر وموارد الثروة الدفينة وتشكيلها فى صور وأشكال جديدة ، فلا بد للعلم من أن يعطى جانبا كبيرا من الاهتمام الى الآثار السيئة التى يخلفها تحكم الانسان فى هذه الظروف والاضاع البيئية . اذ ليس يكفى ان ننظر الى علاقة الانسان بالبيئة بما يحققه الانسان عن طريق ذلك التحكم من تقدم للمجتمع والحضارة ، وانما لا بد من ان تكشف عن الجوانب السلبية لهذه العلاقة ولهذا التقدم ، وهى الجوانب التى تتمثل فى تلوث البيئة واستنزاف مواردها الطبيعية وما يترتب على ذلك من مرض أو متاعب ومشكلات اقتصادية قد يعانى منها المجتمع فى المستقبل ان لم يكن يعانى منها أو من بعضها الآن بالفعل . ودراسة هذه الجوانب السلبية هى التى تكشف لنا عن أزمة البيئة والابعاد التى وصلت اليها ، كما قد تحفز المشتغلين بالتخطيط – فى مختلف فروعه – بالعمل على تلافى استفحال هذه الأزمة أو استحكامها بشكل يهدد حياة الانسان فوق هذه الارض .

اهم المراجع

- Avril, R.; **Man and Environment**, Penguin, 1967.
- Buchanan, R.A.; **Technology and Social Progress**, Pergamon, Oxford 1966.
- Carson, Rachel, **Silent Spring**, Penguin, 1965.
- Drucker, P.F.; **The Age of Discontinuity**, Heineman, London, 1969.
- Galbraith, J.K.; **The Affluent Society**, Pelican, London, 1970.
- Hamilton, D.; **Technology, Man and Environment**, Faber, London 1943.
- Mumford, Lewis, **The City in History**, Pelican, 1966.
- Roszak, T., **The Making of a Counter-Culture**, Faber, London, 1940.
- Shanks, M.; **The Innovators**, Penguin, 1967.
- Sterland, E. G.; **Energy into Power**, aldus Books, London, 1967.
- Wagner, R.H.; **Environment and Man**, Norton, N.Y. 1971.
- Watt, K.F.; **Ecology and Resoutcie Management**, N.Y. 1969.

وذلك بالإضافة الى المقالات العديدة القيمة التي يضمها عدد خاص من مجلة Daedalus (وهي المجلة التي تصدرها
الأكاديمية الامريكية للفنون والعلوم عن America's Changing Environment خريف عام ١٩٦٧ .

★ ★ ★

محمود احمد الشربيني

الإنسان بين العلم والبيئة

الجو ملئ بالاشعاعات تأتينا من عل ، وكان السماء تفرغ علينا ابدا اشعاعات من يوم بدء الخليقة ولكننا لا نأبه لها ولا نتتبع أثرها ، ولعل أثرها حتم في تطور البشرية .

ومن يدري ، ربما كانت الجرعة من الاشعاعات التي تأخذها أجسامنا يوميا تؤثر علينا في نسلنا ، وهى تؤثر على آلات القياس في معاملنا فتدق في كل دقيقة جملة دقات .

ولحكمة الهية قل تصادمها مع أجسامنا . يحدث التصادم بين الحين والحين ، وتخطئنا الاشعاعات وتصيب الجو المحيط ، فتجعل بعضا من الهواء مشعا ، ويصبح على وجه التحديد بعض ازوت الجو كربونا مشعا ، وهذا الكربون المشع جزء مما نأكل ومما نشرب ومما نستنشق ، ويمكن معرفة مقداره في أجسامنا ، وما أكثر الكربون في أجسامنا . ولكن نسبة المشع منه الى غير المشع نسبة ضئيلة ثابتة مدى الحياة ، ويعزى ثبات نسبتها الى تعويضنا ما نفقده منها ما دمنا نأكل ونشرب وفيما نفس يتردد ، ولكن بعد الموت نعجز عن تعويض ما يفقد فيخمد مع الزمن وتقل نسبته ...

فكان كل جسم حي في الوجود يحمل معه ساعة دقاقة تدق دائما دون أن يتحرك عقرباها ، ولكنهما يبدآن في التحرك ساعة الوفاة . ويدل مقدار النقص في عدد الدقات على مضى الوقت بعد مفارقة الحياة ، وإذا اقتلعت شجرة من أرضها فقد فارقت الحياة ، وإذا انتزعت زهرة من غصنها فقد فارقت الحياة ، وهناك أكثر من سؤال يجول بالخطر أرجئها جميعا حتى نتعرف على الاشعاعات التي تفسر الجو المحيط .

الاشعة الكونية :

يأتى الينا وابل من الاشعاعات اللرية بطاقات عالية وسرعات تقارب سرعة الضوء ، يأتى الينا من كل فج عميق . لا يحاى اتجاهها دون اتجاه ، فجميع الاتجاهات عنده سواء ، ولا يستريح أبدا فهو دائم التدفق في كل زمان وعلى كل مكان ، ولا يتأثر باختلاف الليل والنهار أو الصيف والشتاء .

يقيس سكان الكرة الأرضية جميعا ، وهم أشتات ، رؤوس نصفهم تتجه الى شمال ورؤوس النصف الباقي تتجه الى جنوب ، واقدامهم جميعا تتجه الى مركز الكرة الأرضية يقيسون ويتفقون على سرعات هذه الاشعاعات وطاقتها وكل ما لها من آثار كما وكيفا ، ويطلقون عليها اسم الاشعة الكونية .

والرأى السائد انها تأتى الينا من أعماق الكون من بين السدم والمجرات ، ثم تصل الى الجو المحيط تزيج ما يعترض سبيلها . وفي عملية الازاحة تكون هناك ضحايا فتظهر اشعاعات ثانوية ، هذا او جاز ان نسمى الاشعاعات قبل التصادم مع ذرات الجو المحيط بالاشعاعات الابتدائية - وربما يصل الينا من وقت لآخر بعض من الاشعاعات الابتدائية ، ولكن يصل الينا في الواقع كثير من الاشعاعات الثانوية .

وقد اجمع العلماء على ان الاشعاعات الابتدائية هي ذرات السحب السالبة التي تغلف نواة كل ذرة ، فهي ذرات كاملة التأين ، والذرة بغير إلكتروناتها نواة ، والنواة موجبة الشكهرب .

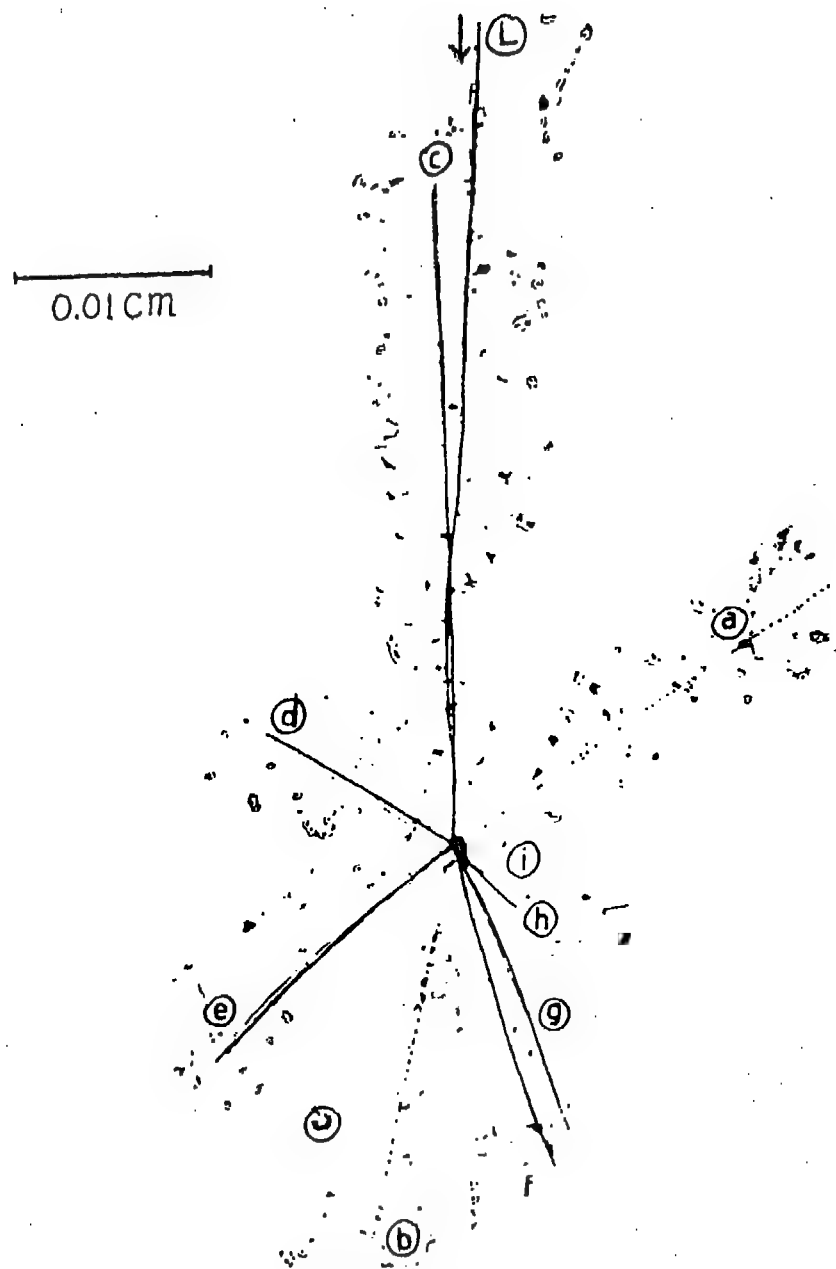
وأجمعوا على انها نوى الايدروجين والهليوم ، ونوى ذرات أخرى خفيفة وثقيلة ، ولعل أثقلها نوى الحديد ، أجمعوا على ذلك ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم عند تعيين نسب كل من هذه المكونات ، وان كان الاجماع على أن النصيب الأكبر لنوى الايدروجين ، او ما يسمى البروتونات ، فقد اختلفوا ، وقال فريق ان تسعين في المائة من المكونات هي البروتونات ، وقال فريق آخر انها اقل من هذا ، ولكن لم يقل أحد أبدا انها اقل من سبعين في المائة من المكونات . واجمعوا أيضا على احتلال الهليوم المكان الثانى بعد الايدروجين ، فتراوحت نسبة نوى الهليوم أو ما يسمى بجسيمات ألفا بين تسعة وعشرين في المائة وتسعة في المائة ، اما الثقيل من النوى ككل فهو أقل من واحد في المائة .

كشفنا عن هذه الاشعاعات بطرق بدائية ، ثم تقدم بنا العلم ، فاستحدثنا طرقا متطورة ، اذكر منها المستحلبات الفوتوغرافية لبحث مكونات الاشعة . اذا اخترق جسيم مشحون مستحلبا

فوتوغرافيا نرى أثر مسار الجسيم بعد التحميص والتثبيت ، اذ نجد خطا من النقاط السوداء تشي بمسار الجسيم في المستحلب ، حيث يمكن فحص هذا الخط بمجهر أى ميكروسكوب. واستحدثت مستحلبات لهذا الغرض متراكمة وغير متراكمة ، ولكنها تظهر لنا المسارات والتفاعلات النووية داخل المستحلب (شكل ١) .

استحدثت طرق كثيرة قصد الكشف ، وقد بحثت خصائص الجسيمات المشحونة ، وتنفرد كل طريقة بخاصية واحدة يصطدم الجسيم الذرى المشحون بذرات متعادلة لغاز ما ، فتتأين ذرات الغاز ، اعنى يفصل من الذرة الكترون فتصبح أيونا ، وهذا بدوره يؤين ذرة اخرى ، وهكذا يحدث تفريغ كهربائي ، وهذه خاصية تستخدم في الكشف والقياس . والجهاز هو اسطوانة معدنية من النحاس ، ولكل اسطوانة قاعدتان ، ومادة القاعدة في حالتنا ليست نحاسا ولكنها مادة عازلة لا تسمح بالاتصال الكهربائي بين جسم الاسطوانة النحاسى وسلك من التنجسن مشدود على امتداد محور الاسطوانة ينفذ من القاعدة . تسمى الاسطوانة المقفلة بسلكها وغازها وضغطه عشر ضغط جوى ، تسمى « عداد جيجر وميلر » وعندما يعمل العداد يكون السلك موجب التكهرب بالنسبة للاسطوانة ، ويوصل العداد بصمامات مختلفة لتسجيل عدد النبضات الناتجة عن دخول الجسيمات الذرية في العداد ، ولكل جسيم عند دخوله نبضة (شكل ٢) يستخدم أيضا في الكشف خاصة اخرى ، حيث لا يسمح الجو الرطب بتكوين ضباب عندما يخلو الجو من جزيئات يتكاثف عليها الضباب ، ولكن اذا مر جسيم ذرى مشحون في هذا الجو المهيأ لتكوين ضباب تكاثف الضباب على الجسيم بفضل شحنته رغم صغر حجمه ، فنرى خطا من الضباب المتكاثف يحدد مسار الجسيم . بل نرى مسارات الجسيمات المتفاعلة مع الجسم الساقط نراها رؤية العين . واذا اردنا تسجيلها أخذنا صوراً فوتوغرافية (شكل ١٣ ، ب) والجهاز الذى يستخدم هذه الخاصية يسمى « غرفة ولسن السحابية » وهو عبارة عن اسطوانة زجاجية قاعدتها السفلى قابلة للحركة ، تتحرك فجأة لاستحداث جو مهيأ لتكوين ضباب ، وفي داخل الاسطوانة بخار يحوى مخلوطا بهواء أو بغاز الأرجون ، فاذا حركنا القاعدة الى اسفل فجأة كبر حجم المخلوط وانخفضت درجة حرارته ، وبقليل من المران يمكن التحكم في سرعة الحركة حتى تؤدي الغرفة وظيفتها ، ونرى المسارات المختلفة للجسيمات الذرية . وتختلف كثافة مسار عن مسار تبعالاختلاف سرعة الجسيم وشحنته ، ويمكن وضع الغرفة في مجال مغنطيسى لينحرف الجسيم وبذلك نتعرف عليه وعلى بعض من خصائصه .

بحثت الاشعاعات الثانوية ووجد أنها عبارة عن بروتونات ونيوترونات والكترونات وبوزوترونات ، وهى الالكترونات الموجبة ، وفوتونات وهى جسيمات ضوئية ، وميزونات اغلبها جسيمات وسط اقل من الالكترون واخف من البروتون ، وأشعة جاما ، كل هذا نتاج تصادم الاشعاعات الابتدائية بما في الجو المحيط من ذرات وجزيئات ، ويتفاعل الناتج أيضا بما في الجو المحيط ، وتحول النيوترونات التى تصطدم بالازوت في الجو تحوله الى كربون مشع والذي سبق ان تحدثنا عنه .

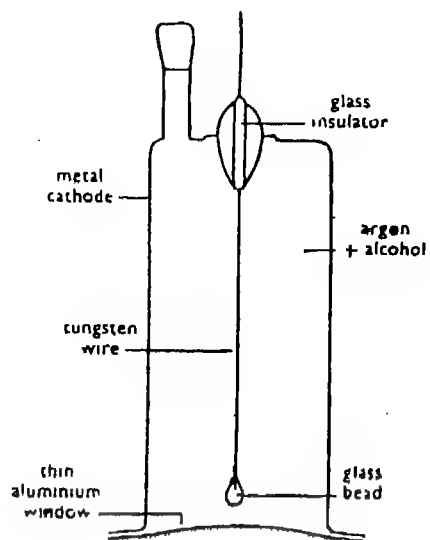


شكل (١)

صورة ما ظهر على مستحلب بعد تعرضه للأشعاعات الذرية
الخط a ، b مسار ميزونات باي ، والخط c مسار
بروتون .

٩١١

الانسان بين العلم والبيئة



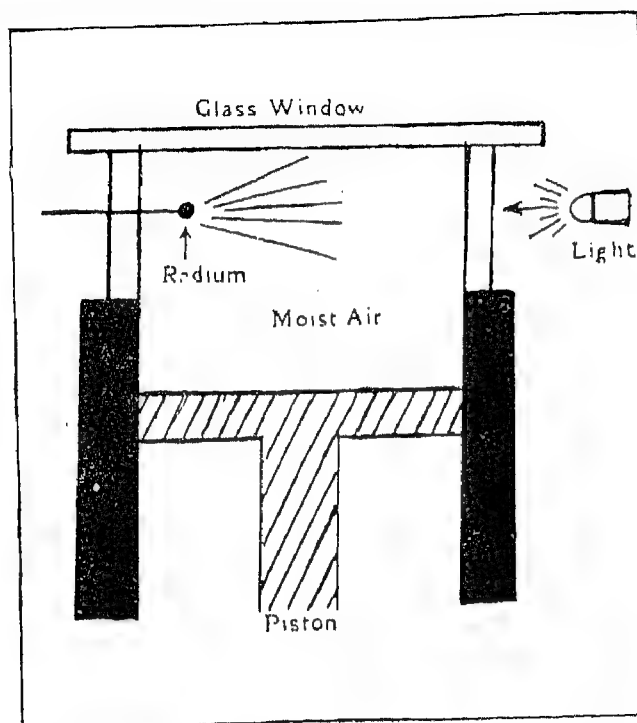
شكل (٢)

انواع مختلفة من عدادات « جيجر وميلر » تملح
لاستعمالات مختلفة لقياس الاشعاعات



شكل (٣ ب)

صورة فوتوغرافية لمسارات الالكترونات في غرفة مثيلة لغرفة ولسن والغرفة موضوعة في مجال مغنطيسي .



شكل (١٣)

صورة توضيحية لغرفة ولسن السحابية .

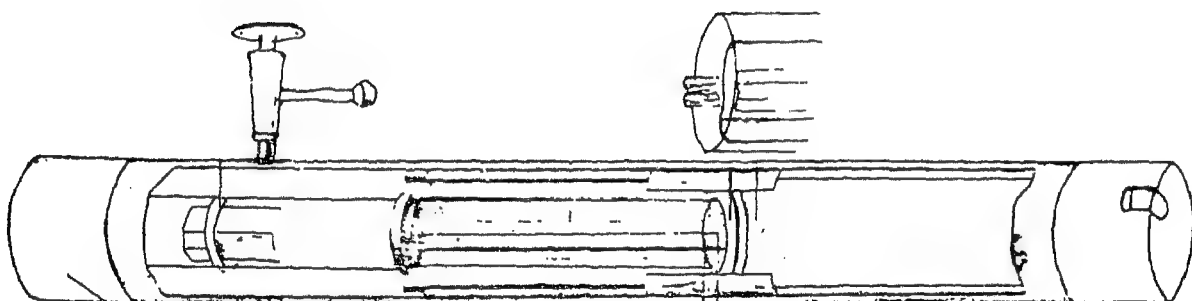
التاريخ والكربون المشع :

لسنا في حاجة الى تبيان اهمية معرفة طريقة لتأريخ الآثار القديمة لمن يحاول دراسة الانسان وبيئته في عصور ما قبل التاريخ . ولعل أقدم طريقة لجأ اليها العلماء هي البحث عن الصخور التي بها يورانيوم ، واليورانيوم مادة مشعة تشع وتحلل حتى تخمد وتصبح رصاصا خامدا ، وتؤدي معرفة نسبة الرصاص الخامد الى اليورانيوم في جزء من الصخور الى تعيين عمر الصخور. وتستخدم هذه الطريقة لتحديد الاعمار التي تربو على مائة الف سنة ، اما بخصوص الامعار التي تقل عن هذه الفترة فيحسن استخدام نسبة الكربون المشع الى الكربون غير المشع ، واعدود فأقول ان جميع المواد الحية بها كميات ضئيلة من الكربون المشع (كربون ١٤) . وأن هذه الكمية المشعة من الكربون ، والكمية غير المشعة منه تحافظان على نسبة ثابتة بينهما ، وذلك في الاجسام الحية ، ويتولد هذا الكربون المشع من تصادم يقع في الطبقات العليا من الجو المحيط بين نيوترونات الاشعة الكونية والازوت في الجو .

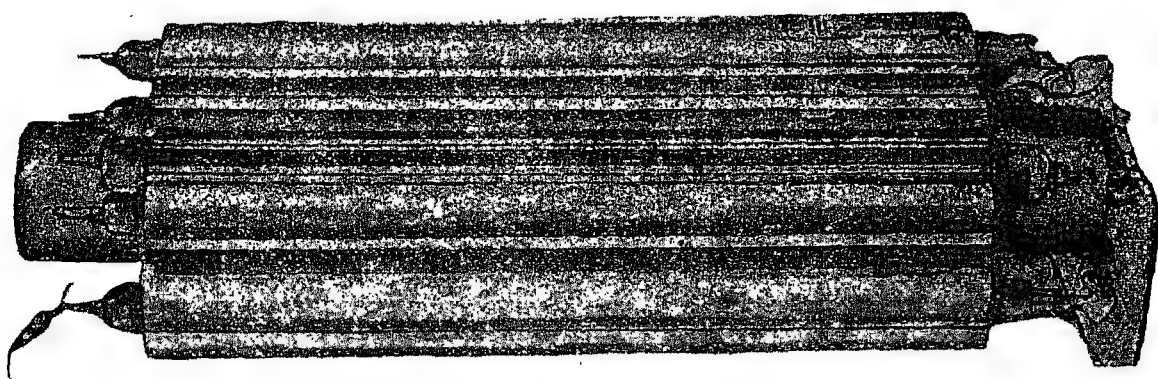
لا يختلف كربون ١٤ من الوجة الكيميائية عن الكربون العادي ، فاذا امكننا استخلاص الكربون الموجود في مادة حية كالنبات مثلا نجد انه يشع اشعاعا ضئيلا نتيجة لوجود كميات ضئيلة من كربون ١٤ مخلوطة به ، ونسبة هذه الكمية دائما نسبة ثابتة في جميع المواد الحية . وتخد نصف كمية الكربون المشع في ٥٦٠٠ عام وتسمى هذه الاعوام بعمر النصف ، وتحتاج البقية الباقية الى ٥٦٠٠ عام اخرى ليخد نصفها ، اي نصف المتبقى ، وهكذا يكون التأريخ من بدء مفارقة الحياة ، اذ تبدأ عملية استنزاف للكربون المشع دون تعويض ، اذ ان الحياة قد توقفت ، واصبح الجسم يعطى ولا يأخذ ، وتبدأ نسبة الكربون المشع الى الكربون العادي تتضاءل ولا تحافظ على ثباتها . واذا وصلت النسبة الى نصف قيمتها الاصلية وقت الحياة فمعنى ذلك ان الحياة قد توقفت منذ ٥٦٠٠ عام مضت .

ان النسبة الثابتة او نسبة الحياة ان جاز هذا التعبير ، تجعل آلات القياس تدق ١٥ دقة في الدقيقة لكل جرام من الكربون ، ومعنى هذا ان ١٥ ذرة مشعة تخمد نهائيا كل دقيقة في جرام واحد من الكربون .

واذا ارجعت هذه الطريقة عمر اثر من الآرا القديمة الى ٤٠٠٠ عام فانا نقول ان آلة القياس تدق ١٥ دقة كل مائة دقيقة . لذا كانت عملية القياس دقيقة جدا وتحتاج الى عناية وحرص شديدين ، والبعده عما يشوب التجربة وعما ينأى بها عن الطريق الصحيح . لذا نرى العداد الذي يحوى العينة المطلوب بحثها يحاط بدرع من عدادات متلامسة مع بعضها (شكل ١٤ ، ب) وتوضع كلها في صندوق من الصلب سمك جدرانه ٢٠ سم ، ويصبح الصندوق درعا آخر يمنع اختراق الاشعة الكونية ، فيما عدا النوع النفاذ ، وهو الميزونات او المركبة القاسية ، ويمكن حساب اثرها باستبعاد جميع الدقات التي يسجلها عداد العينة عندما تتفق الدقة مع دقة عداد من العدادات المحيطة ، ومعنى تزامن العدان المتسبب في العد جاء من خارج عداد العينة وليس من العينة ذاتها ، وقد استبعدت في احدى التجارب ٥٠٠ دقة ، واستبقيت خمس دقات في الدقيقة ، لذا رؤى أن يستمر العد لعدة ساعات حتى تكون النتيجة مطمئنة .



(شكل ١٤)



(شكل ٤ ب)

(١) عداد يستعمل لقياس عينة بها كربون مشع .

(ب) العدادات المتلازمة التي تحوط العداد الذي يحوى عينة مراد قياس الكربون المشع بها .

واستخدمت هذه الطريقة لمعرفة التغيرات المناخية والجيولوجية والبشرية في العشرين ألف سنة الماضية ، ومن الطريف أن التاريخ أثبت بواسطة الكربون المشع أن بدء الحياة الانسانية في أمريكا الشمالية معاصر لبدئها في إنجلترا والدانمارك ، وذلك حوالى عشرة آلاف عام مضت وهذا يدل على أن هذه المناطق كانت مغمورة بالثلوج ، وإن نهاية عصر الثلوج منذ عشرة آلاف عام مضت ، إذ أن الإنسان أقدم من هذا التاريخ بكثير ، ولكن عصر الجليد قد محا أى أثر للإنسان من قبل ، بدليل أنه عثر على بقايا فحم في أحد الكهوف في فرنسا وبحث مابه من كربون مشع ، وانتهى الى أن الإنسان كان موجودا في تلك المنطقة قبل عصر الجليد الأخير بنحو خمسة آلاف سنة ، وكذلك ثبت أن الإنسان قد ظهر حول حوض البحر الأبيض المتوسط قبل عصر الجليد بكثير .

نخرج من كل هذا أنك تنزع شجرة فتدق الساعة ويموت الحيوان ، فتدق الساعة وتقف دقائق قلب الإنسان ، فتبدأ الساعة في الدق ، هذه هي ساعة تدق بعد الوفاة تصاحبك وتصاحبني وتصاحب كل حي من نبات وحيوان وتبدأ حيث تنتهي الحياة . لو وجدت جثة محنطة سمعت دقائق الساعة التي تحملها وتعلم منها متى مات صاحب هذه الجثة . ولو عثرت على حفريات لشجرة ، وانصت الى دقائق الساعة التي تحملها قطعة منها لعلمت متى قطعت الشجرة التي فيها القطعة ، ولكنك تعجز عن معرفة كم من السنين عاشت حية .

ولكن السؤال المتبادر الى الذهن لو أعدنا هذه التجارب هل نصل الى هذه النتائج وقد حدثت تفجيرات نووية وامتلا الجو بالاشعاعات ؟ أكثر تشغيل الافران الدرية او ما يسمى بالمفاعلات النووية مما نتج عنه احزمة مشعة حول الارض لم يسبر غور اثرها حتى الآن ، ومهما كانت هذه الاحزمة موقوتة يحسن التحدث عن مسببات زيادة الاشعاعات في الجو ، أي تلوث الجو بالاشعاعات وهي من مسببات تغير البيئة .

حزام الاشعة :

اطلقت الاقمار الصناعية وبدأخلها آلات قياس منها عدادات « جيجر وميللر » ودقت العدادات بما يدل على أن الاشعة الكونية قد عملت عملها ، ولكن لو تتبعنا مسيرة القمر الأمريكي (المستكشف ١) وهو يدور في مدار حول الارض وكان أبعد ارتفاع اليه هو ٢٥٥٥ كم وأقرب ارتفاع من الارض هو ٣٥٢ كم لاحظنا أمرا غريبا اثناء دوران القمر بين الارتفاعين المذكورين ، وعلى وجه التحديد عندما جاوز الارتفاع ٧٠٠ كم ، إذ صمتت العدادات وتوقفت عن العد ، وعندما عاد القمر مرة أخرى الى مسافة ٧٠٠ كم انخفضت العدادات وبدأت العد .

ذهب فان ألن الى أن الصمت ناتج عن اختناق ، فقد اختنقت العدادات لأنها مرت في منطقة اشعة مكثفة تعجز العدادات عن متابعة مرور الذرات بها فتختنق عجزا عن المتابعة ، ولكنها تعود سيرتها في العد عندما تتعدى هذه المنطقة انخفاضاً ، لذا صم « فان ألن » عدادات

خاصة تصلح لهذه الأشعة المكثفة ويمكنها المتابعة ومسايرتها عدا ثم وضعها في القمر الصناعي « الرائد III » بمساره الأهليجي ، حيث كان أكبر ارتفاع له عن الأرض ١٠٧٠٠٠ كم . لوحظ ان القمر اخترق ذهابا وإيابا منطقتين حول الأرض بهما اشعاعات مكثفة ، وتمتد المنطقة البعيدة عنا مسافة تقدر بعدد من الاطوال ، والطول هنا هونصف قطر الكرة الأرضية . واخيرا حقق صحة هذا الامر ما أرسل من اقمار روسية وأمريكية فيما بعد . عند ذلك سميت المنطقتان **بحزامي فان الن** .

وقد وجد ان الحزام الداخلي والحزام الخارجي مكونان من جسيمات ، أغلبها موجبة من البروتونات ، وبطاقات عالية للحزام الخارجي ، وبطاقات أقل للحزام الداخلي . قلت أغلبها بروتونات اذ أن القلة من الالكترونات السالبة . وينسب بقاء وجود الحزامين الى المغنطيسية الأرضية . وهناك خطورة من وجود هذين الحزامين على رواد الفضاء ، لذا تختار مسارات الاقمار لتتفادى المرور بهما حتى لا يتعرض الرواد لهذه الاخطار الاشعاعية ، وقد احدثت التفجيرات النووية أحزمة اشعاعية ، وكان سمك الحزام ٤٠ كم ، وبقي بعضها ابضعة ايام وبقي البعض الآخر لعدة أسابيع .

وعلى كل فقد ثبت نظريا ان المغنطيسية الأرضية هي السجان المسئول عن وجود الجسيمات المشحونة في حزامي « فان الن » .

التفجيرات النووية :

القنبلة التقليدية هي قنبلة كيميائية مليئة بالكيماويات المتفجرة التي هي جزيئات ذراتها قلقة غير مستقرة ، وتزداد قلقة وعدم استقرارها هزتها الحرارة العالية ، حتى انها لا تلبث ان تعيد ترتيب نفسها وتتخذ نظاما ما بتشكيلات جديدة مثيرة زوبعة من الحرارة خلفها ، وتمتد هذه الحرارة الى جزيئات أخرى تزيد ذراتها زعزعة لتستقر في وضع غير وضعها ، محدثة زوبعة من الحرارة اكبر . وهكذا يزحف التفاعل زحفا سريعا خاطفا حتى يأتي على المادة باجمعها ، فتصبح قطعة من غاز ملتهب يستعر حرارة فيزداد ضغطه وينتشر متمددا . وناقوس الخطر هو شرارة كهربائية من فتيل أو قذح زناد يشعل مادة سريعة الاستجابة ثم يتسلسل التفاعل .

اما القنبلة الذرية فهي قنبلة محطمة تحطم الذرة ولا ترتبها كسابقتها ، وان قلت الذرة ، فانا أقصد نواة اليورانيوم المتوسط على وجه التحديد ، اذ بلغت من التعقيد مبلغا جعلها غير مستقرة ، بل على استعداد اذا تصاعدت معها قذيفة غير مكهربة « نيوترون » ان تنشط الى شطرين يطير كل شطر بقوة كبيرة ، ومن غريب الامر توالد القذائف غير المكهربة اثناء الانشطار ، وكأنني بها تخرج من صلبها ما يزيد بها اشتعالا فيزداد الانشطار ويزداد التوالد . واذا بها كرة غازية من السعير حرارة وضغطا ، وتعمل حرقا وهدما وتدميرا . وهذا السعير نشأ من الوميض الناتج عن تحطيم نوى كبير الى نوى صغير .

ولكن كيف تنشطر النواة ؟ والنواة على ما نعلم كرية الشكل او هي الكرة اقرب منها الى هيئة اخرى متماسكة ، بها قوى تجاذب وقوى تنافر ، وتربو قوى التجاذب على قوى التنافر حتى لا تتناثر .

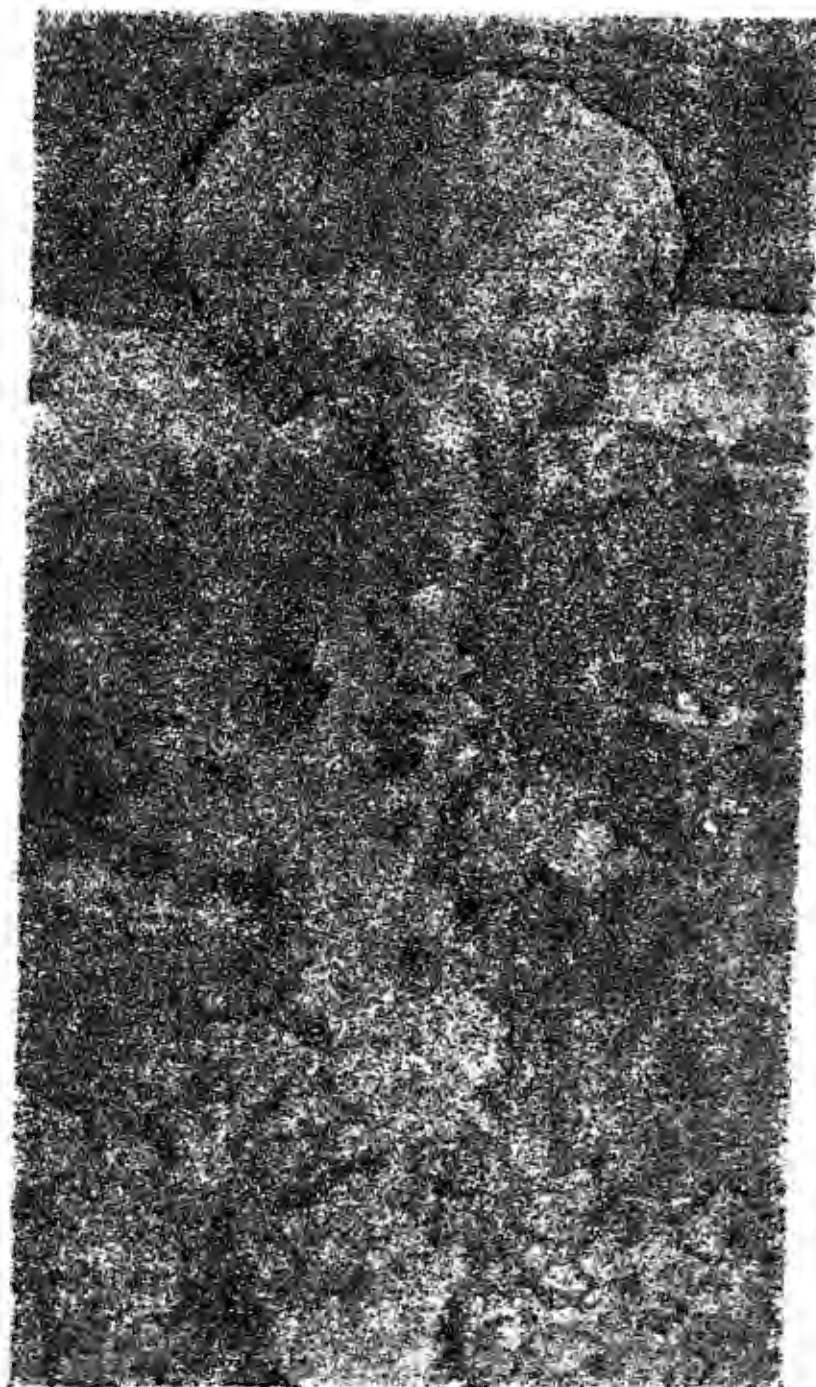
ولو كان في النية ان نجبر النواة لتنشطر وجب ان نجعلها تسطيل ، وان يدق منتصفها حتى تصبح اشبه بكرتين في طرفي عاتق . وفي هذه الحالة تكون قوى التنافر قدر قوى التجاذب، وتكاد تكون هذه النواة غير مستقرة او هي في استقرار حرج في انتظار الضغط الذي يقسم ظهرها . فاذا هيجت النواة ضعفت قوى التجاذب وفعلت قوى التنافر فعلها وتطايرت النواة الى شقين يكادان يكونان متساويين .

وقد كفتنا الطبيعة مؤونة البحث عن طريقة لاستطالة النواة ، اذ وجدت نواة مستطيلة فعلا هي اشبه بكرتين في طرفي عاتق . وهذه النواة هي نواة اليورانيوم ، بل ان شئت دقة فهو نظير من نظائر اليورانيوم ، ولليورانيوم نظائر مختلفة ، والنواة التي نقصدها هي النواة التي يبلغ وزنها الذري ٢٣٥ ويعز هذا النوع عن زملائه من النظائر ، اذ يندر وجوده ندرة كبيرة . واذا اردنا ان نخرجه عن استقراره الحرج وجب ان نهيجه بقدر ، وهذا المقدار هو اقل درجة يمكن ان تهيج بها النواة ، اذ النواة تهيج في درجات . وقد وجدنا من خصائص خلط بعض من مادة اليورانيوم مع بعض من مادة البيريليوم ان يبعث من المخلوط نيوترونات يمسك البطيء منها بنوى اليورانيوم ٢٣٥ فتهتاج بالمقدار الصحيح ، وتخرج عن اتزانها ، فاذا بها شقان مشعان ينطلقان بطاقة حركة كبيرة .

وقد بحث الشقان ووجد في بعض الاحايين ان احدهما باريوم والآخر كريبتون، وهما مشعان تنطلق منهما اشعة جاما واشعة بيتا ، وتنطلق ايضا اثناء الانشطار نيوترونات ، وبذلك يضاعف البطيء منها الاثر ثم يتضاعف مرة اخرى بهذا التضاعف ، وهذه العملية عملية متسلسلة ، ومثل المخلوط (الراديوم والبيريليوم) مثل عود الثقاب بدا واشعل وللنار ان ترعى وتفذي بعضها ، وكلما ازدادات سريانا ازدادات اشتعالا ، والقنبلة الذرية ، كما وصفها تقرير الحكومة البريطانية يوم ان القيت على هيروشيما : كرة من النار قطرها اكثر من مائة متر ، يخرج منها وميض خاطف من الضوء وسعير من الحرارة وقطع متناثرة في جميع الجهات من المواد المشعة، ويتبعها امواج من لفحات هوائية ودوي اصوات .

يصل الضوء والحرارة الى ارض الهدف ، ومن بعد تصل في بضع ثوان لفحات الهواء ودوي الاصوات ثم المواد المشعة الناتجة عن مخلفات المواد الانشطارية في القنبلة .

تفقد الكرة بريقها سريعا وترتفع في الهواء الفازات الساخنة الناتجة عن الانفجار في شكل عمود متعدد الالوان أولا ، ثم يأخذ لونه في البياض، ويرتفع العمود في هيئة دوامة من الفازات والجسيمات ، يرتفع عدة آلاف من الامتار ، واثناء ارتفاعه ينتشر كأنه مظلة مفتوحة او زهرة تقف على ساقها ، وفي اسفل العمود عند الارض سحب متكاثفة من الدخان والفبار (شكل ٥) .



شكل (٥)

عمود من الغازات والجسيمات يرتفع على هيئة مظلة مفتوحة ، ارتفاع العمود حوالي ٢٠ كم في الجو . أخذت الصورة للعمود عندما سقطت القنبلة الذرية على الميناء الياباني والركز الصنّاعي المسمى ناجازاكي .

نعود ونسأل عن أثر الانفجار في أطواره المختلفة فنجد ان تقرير الحكومة البريطانية يخبرنا ان الحرارة تسري بسرعة الضوء ، اعني بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ، وتبلغ حرارة الاجسام التي تحت الكرة النارية مباشرة عدة آلاف من الدرجات المئوية ، ولتقدير ذلك يقول ان الانسان يحس الحرارة على بعد سبعة كيلو مترات ، وتستمر الحرارة مدة ثانية من الزمان او ثانيتين ، لذلك تحدث الحرائق وتبدأ بالمواد القابلة للاشتعال ، ولقد حدثت حرائق على بعد ثلاثة كيلو مترات من مركز التخريب ، وبدأ الحريق بالابواب والنوافذ حيث تدخل المفحة الحرارية وتحرق الخشب الجاف والاوراق والملابس السوداء ، وقد رؤي الاسمنت المسلح على بعد كيلو متر ونصف وقد احمر لونه ، وانايب غاز قد انفجرت، واسلاك كهربائية وقد انصهرت، واصيب بحروق شديدة كل من كان في العراء وفي دائرة قطرها كيلو متر ونصف واصيب بحروق أقل شدة كل من كان على بعد أربعة كيلو مترات ، ويقل الخطر عند التواجد في مأوى حصين مع ارتداء ملابس غير قائمة اللون وفضفاضة .

وليت الامر يقتصر على الحرائق بل هناك المواد المشعة ، اذ تهب عند الانفجار رياح محملة بجسيمات نفاذة هي التيونات ومعهما أشعة جاما ومعهما المواد الانشطارية التي هي مادة القنبلة ذاتها .

وتنبعث اشعة جاما بسرعة الضوء وتستطاري الجو وتنتشر في جميع الجهات فور الانفجار ، او في الثواني الاولى منه ، وتقل شدتها مع الزمن، وذلك بارتفاع عمود الجسيمات والغازات نحو السماء ، وينعدم خطر اشعة جاما بعد دقيقة من الزمان ، وكانت في الثواني الاولى شديدة الخطورة على كل من كان في منطقة مركزها مكان الانفجار وقطرها كيلو متر ونصف او أكثر ، ولا يقلل من خطورتها انها لا تكسب الاجسام والمباني التي تخترقها خاصية الاشعاع ، فقد لقي جميع من في المنطقة التي قطرها ثلاثة ارباع الكيلو متر حتفهم ، اذ كان من نصيبهم جرعة مميتة من اشعة جاما .

ومن لم يمت باشعة جاما مات بالنيوترونات. والنيوترونات اشعاعات نفاذة خطيرة يبدأ خطرها وقت الانفجار ، فهي جسيمات صغيرة تنبعث من المواد الانشطارية المحدث للانفجار ، وتحرك بسرعة في جميع الجهات وسرعتها أقل من سرعة الضوء ، وهي أقل أثرا على الاجسام من اشعة جاما ، ورغم قلة اثرها فهي أكثر خطورة ، اذ تجعل الاجسام عند الاصطدام بها مشعة اشعاعات اصطناعية ، فخطرها مؤجل غير ناجز يأتي الانسان من مآمنه . وأخطر من كل هذا المواد الانشطارية فهي تملأ مساحة كبيرة من الارض ، وتساعد على انتشارها الاحوال الجوية ، اذ تحمل مع العمود وتوزع على مساحات كبيرة بفضل الامطار الساقطة ، وتصبح مساحة كبيرة ملوثة ومصدر خطر ينبعث منها اشعة جاما ، وتحرم على الاحياء حتى ينقضي عمرها الاشعاعي ، او بعبارة أدق أعمارها الاشعاعية، فالعمر وعمر النصف يختلفان باختلاف المواد . ولكثرة المواد المختلفة كان من الصعب التنبؤ بموعد زوال الخطر والسماح للارض بأن تعمر ، ويزيد الامر خطورة ان الاشعاعات لا تشم ولا ترى ولا تحس الا بالآلات خاصة وعدادات معينة ، وكثيرا ما ينسب الاختلال الوظيفي لاجزاء الجسم الى غير مسبباته الحقيقية .

واخيرا ليس المجال مجال التحدث عن افعلة الهواء الناتجة عن القنبلة الذرية ، ولكني اقول ان هناك اجماعا من جميع العلماء والمختصين على وجوب تحريم تجارب التفجيرات النووية للآثار الضارة الناتجة عن القبار الذري ، سواء في مكان الانفجار او في الاماكن المجاورة او في نطاق خط عرض الانفجار ، وما يتبع ذلك من زيادة كمية الاشعاعات في جو الكرة الارضية جميعها مما يزيد في مقدار الجرعة التي اعتاد الكائن الحي ان يتجرعها في حياته الدنيا . لا اريد ان اذكر تفاصيل علمية عن تأثير الاشعاعات ذات الكمية فوق المعتادة على الكائن الحي . فهي تقلل من مقاومته للأمراض ، وتجعله هدفا لمختلف انواع السرطان ، سرطان الدم وسرطان العظام . بل تؤثر في النسل والحرث ، فتقصر العمر وتسرع بالشيخوخة ، وتلف الاعصاب ، ويورث الآباء الابناء والاحفاد الشذوذ والجنون .

وظني ان العلماء قد بدأوا يفزعون من خطر الاشعاعات اذ رايناها ينقصون الى النصف مقدار اكبر جرعة مسموح بأخذها دون حذر على الاجسام . وكان ذلك في المؤتمر السادس للعلماء الراديولوجي سنة ١٩٥٠ اذ انقصت الجرعة الى نصف ما كان متفقا عليه عام ١٩٢٥ . كل هذه الظواهر أدلة على خطر زيادة الاشعاعات في الجو المحيط .

وكما ان القنبلة الذرية رمز الفناء فهي احيانا رمز البناء ، فقد استخدمت في شق القنوات وانشاء الطرق وغيرها ، وكأننا جعلنا من الهلاك نفعا ومن النار زرعا ، بل جعلنا القنابل الذرية مستأنسة نحرك بها فرنا ذريا او ما يسمى بالفاعل النووي للاستعمالات السلمية ، من استحداث كهرباء الى تحلية ماء الى ري ارض لا يصلها الماء ، الى غير ذلك من امور نحتاجها في بناء المدينة والحضارة .

الفاعل النووي :

المفاعلات النووية او الافران الذرية عبارة عن تكوين لقوالب من الجرافيت كما هو حاصل فعلا عند بناء هرم من اللبانات (قمينة الطوب) لطبخها لتأخذ خواص الفخار (طوب احمر) .

ترص قوالب فوق بعضها في طبقات ، ولكنه في حالتنا ترص طبقة من قوالب الجرافيت بصناديق من الألومنيوم ملأى باليورانيوم ، والصندوق على هيئة اسطوانة او على هيئة قرص توضع في شكل هندسي ، وعلى ابعاد متساوية من بعضها ، وتسمى هذه الطبقة بالطبقة الحية ، وبين طبقة حية واخرى طبقات من قوالب الجرافيت غير المرصع ، فهي طبقات خالية من اليورانيوم ، اعني طبقات غير حية ، واليورانيوم في جملته يأخذ شكلا هندسيا مجسما يوافق ما يقرره البحوث النظريون . واليورانيوم هو المادة الحية او الوقود الذي بانشطاره يعمل الفرق ، والجرافيت هو المهديء ، وهو الذي يقلل من سرعة النيوترونات حتى تصبح سرعتها قدر سرعة جزيئات الفساز في درجة الحرارة العادية وربما يكون المهديء غير الجرافيت ، ليكون الماء الثقيل ، وهنا يوضع اليورانيوم على هيئة قضبان مغطاة بالألومنيوم وتغمس في الماء الثقيل . ويمتاز الماء الثقيل بأنه يهديء النيوترونات بعد ٢٥ خبطة مع نواة

الانسان بين العلم والبيئة

الايدروجين الثقيل ، في حين ان الجرافيت يهدى بعد ١١٤ خبطة مع نواة الكربون ، فضلا عن ان قدرة الماء الثقيل على امتصاص النيوترونات اقل بكثير من قدرة الكربون ، وعليه نحتاج الى حجم اقل في حالة الماء الثقيل منه في حالة الجرافيت . ويسمى الفرن في هاتين الحالتين فرنا غير متجانس ، لان الوقود والمهدى يحافظ كل على كيانه ، اي لكل كيان مستقل ، وأحيانا نجعل الوقود والمهدى في امتزاج تام ، بمعنى ان يكون الوقود ملحا من املاح اليورانيوم غنيا في النظير ٢٣٥ فيكون الملح على هيئة كبريتات او ازوتات مذابة في ماء عادي ، والماء هنا هو المهدى ، ولا يصلح الماء العادي مهدئا لو استعملنا اليورانيوم الطبيعي غير الفني بالنظير ٢٣٥ ، ويسمى الفرن في حالة ملح اليورانيوم المذاب بالفرن المتجانس . واذا نشط الفرن يمكن اخماده بادخال قضبان تمتص النيوترونات بشراهة كالسيوم او البورون ، بل يمكن التحكم في التفاعل بادخال اطوال مختلفة من القضبان ، لذا سميت القضبان بالقضبان الحاكمة . ان الاخمد بواسطة القضبان في حالة الفرن الجرافيتي أسرع منه في حالة فرن الماء الثقيل ، اذ عند اخمد فرن الماء الثقيل يستمر نتاج الانشطار في ارسال اشعة جاما التي تولد نيوترونات من الماء الثقيل ، وهذا يؤخر الوصول الى الاخمد التام .

ولا يصح ان نسمح بتسرب النيوترونات الا بقدر ، لذا وجب ان نبحث العلاقة بين السطح والحجم ، فالتوالد يكون في الحجم والتسرب يكون من السطح ، ونبحث ايضا تغليف الفرن بغلاف عاكس . اليورانيوم هو الوقود الذي وقود مركز يشغل حيزا صغيرا وينتج من الحرارة الشئ الكثير . تخرج من الوقود الحرارة بعد الاشتعال ، ويشعل الفحم والبتروك والكبريت او بشرارة كهربائية ، وعود الكبريت للوقود الذي هو النيوترون احد مكونات المادة . فالنواة مكونة من بروتونات بشحنات موجبة ونيوترونات بغير شحنات ، وهذه النيوترونات موجودة في الجو المحيط ، ولا يتعدى عمرها عشرين دقيقة ويمكن تحضير فيض منها ، كما سبق ان ذكرنا ، وذلك بخلط الراديوم بمادة البريليوم . وهذه النيوترونات سريعة يمكن ان تهدى من سرعتها بالماء او الجرافيت ، لان النيوترون البطيء هو الكبريت لليورانيوم ٢٣٥ ، واذا التصق نيوترون بطيء باليورانيوم ٢٣٥ احتاج اليورانيوم وانقسم على نفسه وتناثر ، كما سبق ان شرحنا عند الحديث عن القنبلة الذرية ، ولكن القضبان الحاكمة تجعلنا نتحكم في التفاعل ونسيطر عليه .

ومن رحمة الله ان بسط المادة وعقدها . فمنها البسيط ومنها المعقد ، وأودع العالم الحياة والحركة ، فالبسيط يستريح اذا تعقد ، والمعقد يحاول ان يتحرر الى أبسط ، فالايديوجين بسيط لا مانع ان يتعقد ، واليورانيوم معقدا لا مانع ان يتحرر ، وهذا في تعقده وذاك في تحرره يعملان عملا ويحدثان طاقة ، وهى ما نسميها بالطاقة الذرية .

فالطاقة الذرية تظهر عندما تحاول نواة الذرة ان تأخذ مكانا وسطا بين الثقيل والخفيف ، وتظهر الطاقة الذرية حرارة واشعاعا فتستخدم الحرارة وتمنع الاشعاع ، وسأصف مفاعلا بالماء

الثقيل انشئ قصد الابحاث العلمية ، وتخيز المواد فيه لتخرج مواد مشعة اصطناعيا ، ثم اصف مفاعلا بالماء العادى انشئ قصد توليد الكهرباء لاستخدامها صناعيا .

فرن ذرى بمائه الثقيل :

يمتاز الفرن التجريبي الذى رأيت به بوجود ٢٥٠ عمود من اليورانيوم تبلغ زنتها ٢٢ طنا ، وقطر العمود ٢٢ سم وطوله ١٦ مترا ، والعمود مقلد بغلاف من الالمنيوم سمكه مليمتر واحد ، وبحركة بسيطة لفتح مثبت فى لوحة التوزيع تأخذ الاعمدة شكلا هندسيا معينا ، ويتغير الشكل بتغير بسيط لحركة المفتاح . وبلغت الدقة درجة جعلت التحكم فى مواضع الاعمدة تاما ، فالرحضة تصل الى ٠.١ مم .

تغمس الاعمدة فى الماء الثقيل البالغ قدره ٢٤٥ سم والماء فى وعاء من الالمنيوم مقفل ومزدوج الجدران ، ويفرغ ما بينهما ويلو الماء الثقيل فى الاناء غاز الهليوم تحت ضغط ١١ جو .

وهناك قناة تنفذ فى الاناء من قمته وتتجه الى قاعه قطرها ١٠ سم وتسمى قناة التجريب حيث توضع المواد لتخيز أى لَتَشَعُعْ وتصبح مادة مشعة ، وأقرب عمود يبعد ٦ سم من الحافة الجانبية لهذه القناة ، ولكن بحركة بسيطة لمفتاح معين مثبت فى لوحة التوزيع ، يمكن تحريك أى عمود دون الاخلال باوضاع الاعمدة الاخرى .

وهناك أربعة قضبان حاكمة ، وهى مادة البورون وقضيبا امان من الكاديوم ، قطر كل منهما ٣ سم وطول كل منها ١٥ متر ، يتحركان تلقائيا ، لو زاد الاشعاع الى درجة يخشى عندها حدوث انفجار . اما قضيب التجريب الحرارى ، وهو الذى يعترض النيوترونات السريعة ويجعلها تأخذ طريقا وتتركه فى النهاية مسلووبة الطاقة لا تملك منها غير ما يملكه الغاز فى درجات الحرارة العادية ، فطوله الخارج من الفرن متران ونصف ويسمح عند نهايته الخارجية بفيض من النيوترونات مقداره عشرة آلاف نيوترون ، وقد كان الفيض فى بدايته او فى الفرن بليون ، أى مليون مليون نيوترون .

اكبر درجة حرارة للماء الثقيل ٧٠ م ، كما ان مقدار ما يفقد منه فى ٢٤ ساعة من التشغيل ٨ سم ، ودرجة حرارة اليورانيوم فى المنتصف ١٤٠ م ، كما أن قدرة الفرن ٥٠٠ كيلوواط ، ويحاط الفرن بتمر من الجرافيت كماكس ، ويوضع اعلاه طبقة من الكوبلت الرصاصى والبرافين الرصاصى .

وفى دائرة الفرن أربع مضخات . المضخة الاولى لتفريغ الهواء بين جدارى الاناء المزدوج . والمضخة الثانية لارجاع الهليوم مرة أخرى الى الوعاء ، اذ أن الهليوم يمر فى دائرة مقفلة تبدأ من الفرن الى غرفة حيث يمر الهليوم مع ما تحلل من الماء الثقيل ، أعني مع غاز الاكسجين والايديروجين الثقيل فوق لوح من البلاديوم ليتحد الاكسجين والايديروجين الثقيل مرة ثانية ليصباح ماء ثقيل ، ويعود الماء مع الهليوم الى الفرن مرة ثانية . اما المضخة الثالثة فهي لسحب الماء الثقيل

من الفرن بنية تبريده ثم ارجاعه الى الفرن مرة ثانية في دائرة مقفلة ، ويبرد بامراره على متبادل حرارى ينقل حرارته الى دائرة اخرى بها ماء بارد متحرك في دائرة اخرى بواسطة المضخة الاخيرة والدائرة الاخيرة غير مقفلة اذ يقذف ماؤها الى غير عودة وتسحب هذه المضخة ٢٥٠ م ٣ من الماء في الساعة (شكل ٦)

يستخدم هذا المفاعل للبحث والتجريب لمعرفة اثر الاشعاعات على المواد ولاستحداث نظائر مشعة للعلاج الطبي ، ولشئون الصناعة .

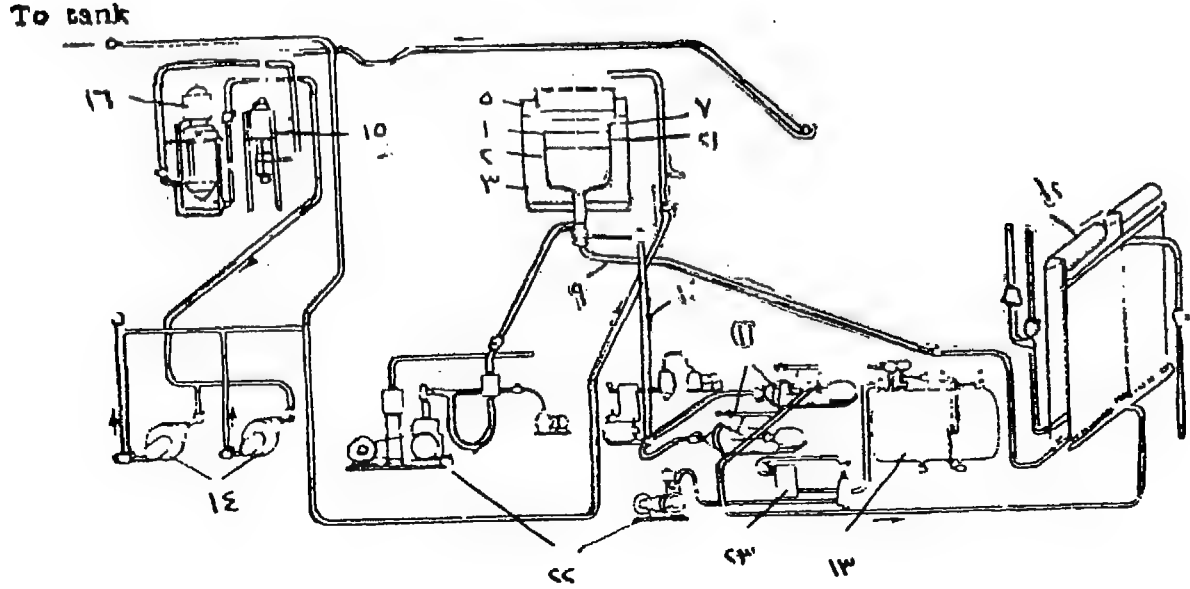
محطة الكهرباء الذرية :

يتلخص عمل هذه المحطة الذرية في توليد حرارة نتيجة للانشطار المتسلسل لقوى اليورانيوم . وتستخدم هذه الحرارة لتحويل الماء بخارا ، ويعمل البخار في ادارة تربين يحرك بدوره آلات توليد الكهرباء ، والفرق بين المحطة الذرية والمحطة التقليدية التي تستخدم الفحم وقودا هو طريقة توليد الحرارة ، اذ تولد في حالتنا من الوقود الذرى . لذا نرى المحطة من ثلاثة اقسام : القسم الاول هو الفرن الذرى لتوليد الحرارة ، والقسم الثاني هو المتبادل الحرارى حيث يتكون البخار المضغوط . اما القسم الاخير فهو التوربين التقليدى الذى يحرك آلات توليد الكهرباء .

سأكتفى بوصف الفرن الذرى ، اذ ان المتبادل الحرارى والتربين لا يختلفان عن مثيلهما في المحطات التقليدية .

الفرن الذرى :

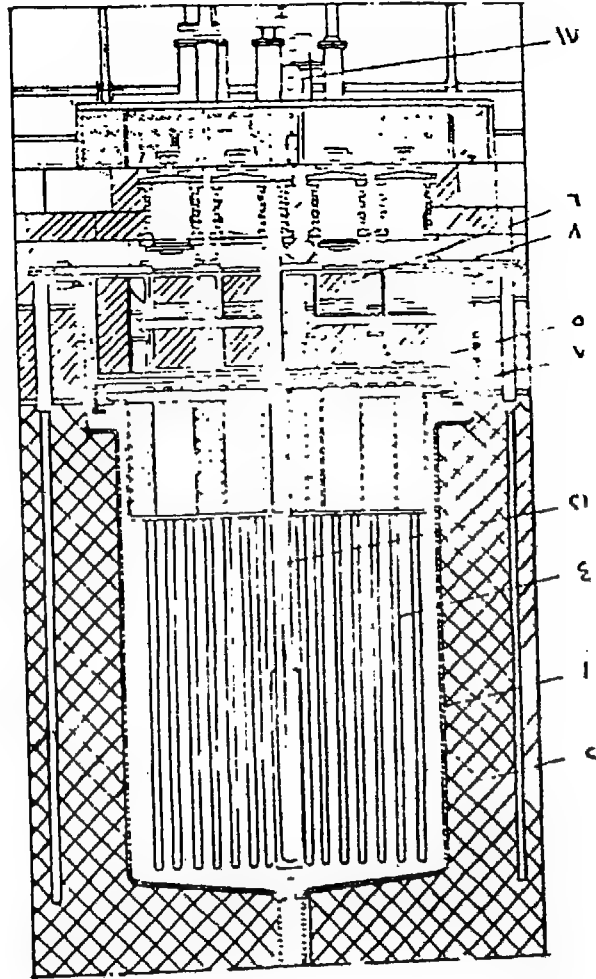
انابيب مصنوعة من اليورانيوم مغلقة من الداخل والخارج بمعدن الصلب الذى لا يصدأ . يدخل الماء من أعلى الى جوف الانابيب ، حيث يخرج من أسفلها ليغمرها من الخارج من أسفل الى أعلى ليملا الوعاء الخارجى لانابيب اليورانيوم وعددها ١٣٠ انبوبة . وهذا الوعاء من الصلب الذى لا يصدأ ، وارتفاعه ٦٥ م محاط بمتر من الماء يليه ثلاثة امتار من الخرسانة المسلحة ، وكل انبوبة يورانيوم عبارة عن اقراص مثقوبة عند منتصفها من اليورانيوم الفنى بالنظر ٢٣٥ بنسبة ٥ ٪ وتوضع الاقراص فوق بعضها لتكون انبوبة اشبه بالانبوبة الشعرية من اليورانيوم طولها ٢٥ م وقطرها الخارجى ١٢ سم . ويزن اليورانيوم باكملة نصف طن . نسيت ان اقول ان كل انبوبة من انابيب اليورانيوم توضع داخل انبوبة من الجرافيت قطرها الداخلى ١٦ سم وقطرها الخارجى ٦٥ سم ، ويفطى سطحها الخارجى بالصلب الذى لا يصدأ ، ويترك السطح الداخلى عاريا ، أى جرافيت غير مغطى ، ويدخل الماء تحت ضغط ١٠٠ جو ، ويمر في داخل الوعاء ويغمر الانابيب جميعها من الداخل والخارج ، ثم يخرج حيث المتبادل الحرارى ، ويصله بدرجة حرارة قدرها ٢٧٠ م ٥ ويتركه في درجة حرارة قدرها ١٩٠ م ٥ . ويأتي الماء مضغوطا من بالون من الصلب على ارتفاع ٥٠ م عن الفرن ، ويحوى البالون انابيب طول كل منها ٥٥ م وقطرها الداخلى ٢٠ سم ، ويملا الربع الاعلى للانبوبة هواء تحت ضغط ١٠٠ جو ، ويفصل الماء عن الهواء غشاء من الصلب ، ويرشح الماء مرتين قبل وصوله الى الفرن ، ثم يمر منه الى المتبادل الحرارى حيث يعود مرة اخرى في دائرة مقفلة .



شكل (٦)

رسم توضيحي لفرن بما تقييل :

- ١ - صهرج
- ٢ - عاكس من الجرافيت
- ٣ - صهرج خارجي من الصلب
- ٤ - اعمدة من اليورانيوم
- ٥ - غطاء واق من الرصاص
- ٦ - فضاء
- ٧ - لوح دوار
- ٨ - غلاف من صلب لا يصدا
- ٩ - انبوبة ضغط
- ١٠ - انبوبة صرف
- ١١ - مضخة
- ١٢ - متبادل حراري
- ١٣ - صهرج تخزين
- ١٤ - ضاغط غاز الهليوم
- ١٥ - مكثف
- ١٦ - جهاز ادماج (عكس التحليل)
- ١٧ - سحاب للقضبان الحاكمة
- ١٨ - درع جانبي
- ١٩ - قناة جانبية للتجارب
- ٢٠ - عمود حراري من الجرافيت
- ٢١ - قناة راسية للتجارب
- ٢٢ - مضخات تفريغ
- ٢٣ - مصيدة ازوت سائل



الإنسان بين العلم والبيئة

يتبخّر ماء في دائرة أخرى تحت ضغط ١٢٥ جو ، وذلك عند المتبادل الحراري ، بفضل الحرارة التي يحملها ماء الدائرة الأولى . وقد وجد أن البخار خلّو من الإشعاعات . ويذهب البخار إلى تربين من النوع التقليدي ليعمل عمله ، ثم يتكاثف ماء يسحب إلى المتبادل الحراري مرة أخرى ليعود سيرته الأولى بخاراً لبدأ دورته من جديد . وحركة الماء في الدائرة الأولى ٣٠٠ طن كل ساعة ، وحركة البخار في الدائرة الثانية ٤٢ طن في الساعة ويستعمل في دائرة الماء مضختان تصرف كل منهما ١٥٠ طن في الساعة ، ويديرها الفرن ذاته ، وتعمل المضخة ثلاثية آلاف دورة في الدقيقة .

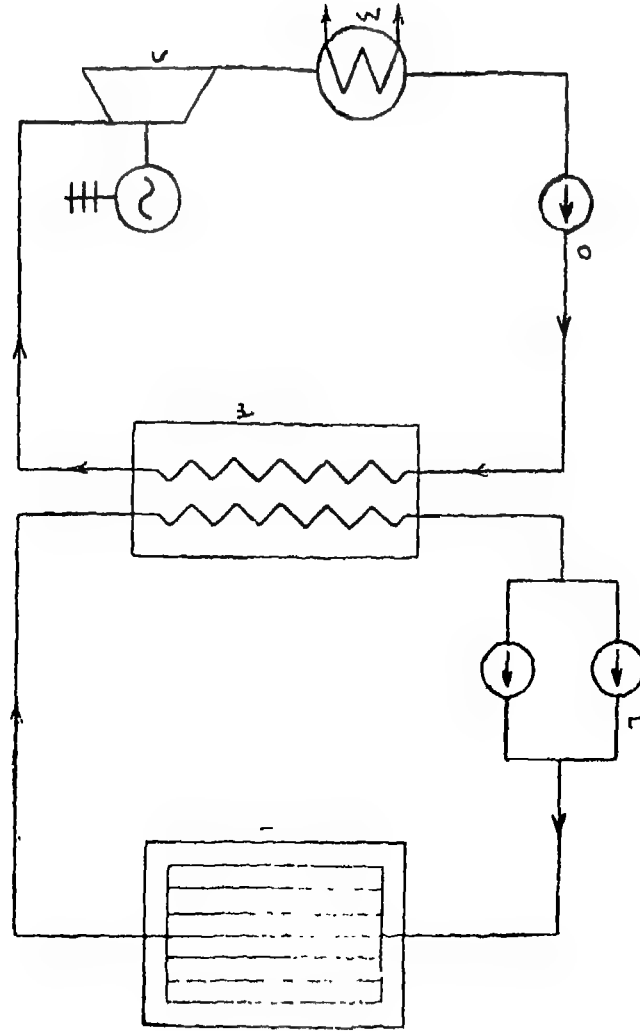
ويضبط الماء الداخل في كل أنبوبة بمعرفة درجة حرارته عند خروجه من الفرن ، وتتساوى درجات الحرارة في جميع الأنابيب ، وتضبط كل أنبوبة على حدة ومقدار ما تأخذ الأنبوبة من الماء في الساعة هو ٣٠٠ ، والتهوية لازمة لاختلاف الهواء في الحجرة وحجمها مائة متر مكعب خمسا وعشرين مرة في الساعة ، والقضبان الحاكمة في الفرن من كبريتيد البورون وكذلك قضيبا الأمان من نفس المادة ، ومقدار الطاقة الحرارية له ٣٠ مليون واط ، ومقدار طاقته الكهربائية خمسة ملايين واط بكفاية قدرها ١٧٪

وهكذا استحدثت الكهرباء أول ما استحدثت من الدرة (شكل ٧) .

التسمم والخلفات :

يتلقى اليورانيوم في الفرن الذري ضربات كثيرة من النيوترونات التي تمرق خلال الألومنيوم الذي يلف اليورانيوم ، وينشط نوى اليورانيوم ٢٣٥ إلى شطرين ، والنوى المتولدة نتيجة التصادم هو نوى يأخذ مكانا وسطا بين العناصر ، وهو الباريوم والكريبتون والسترونشيوم والاكزينون وغيرها . تتكون هذه العناصر في أنابيب اليورانيوم فتقل كفايتها مع التصادم حتى تعجز عن أداء رسالتها ، ويقال للأنابيب أنها تسممت ، لذا كان واجبا حتى لا يتعطل عمل الفرن أن تخزن مجموعة من الأنابيب الاحتياطية السليمة لكي توضع مكان مجموعة مسممة جزئيا بعد بضع شهور من التشغيل ، ولا أقول لتفلسل الأناسب شبه المسمومة وتعود سيرتها الأولى ، بل أقول لتعالج كيميائيا وتفصل المواد المفسدة أو ماتسمى بالخلفات الإشعاعية ، إذ هي مواد نشطة نشاطا إشعاعيا ، أقول هذا ولا ادخل في الاعتبار احتمال حدوث خلل مفاجيء لغلّاف الألومنيوم لأنبوبة أو أكثر ، وبذلك يتلوّث ماء الفرن بالمواد الإشعاعية ، وهنا الأشكال الأكبر في كيفية التخلص منها ، هل نقدفها في أعماق البحار وقد أصاب الفزع الأسباب عندما اشيع أن غواصة ذرية غرقت بجوار شواطئها ؟ أم ندفنها في أعماق رمال الصحراء ؟ أم نبني لها حصنا سميكا من الاسمنت المسلح ؟ ... هناك حلول كثيرة ، وخوف أكبر من تلوث البيئة والجو بالإشعاعات ، وقد استأنسنا التفجيرات الذرية ، ولكن من يدري ربما تكون وبالا علينا ... ورحم الله الأعرابي الذي استأنس ذنبا وبعد أن اطمان إليه أكل الشاة الوحيدة التي يملكها فخطبته قائلا « ومن أنباك أن أباك ذيب » ؟

أقول هذا لأبين أن الخير في استخدام الطاقة الذرية في الأغراض السلمية ليس خيرا كله ، بل يحمل بين طياته احتمال شر يجب السهر على تلافيه والعمل على عدم إيقاظه ، وقانا الله ووقاك ووقى البيئة شره .



شكل (٧)

رسم توضيحي لمطلة كهربائية لدرية :

٤ - المكثف حيث يتحول البخار الى ماء .

١ - المغاغل

٥ - مفسخة للدائرة الثانية .

٢ - التربين

٦ - مفسختان للدائرة الاولى .

٣ - المتبادل الحرارى حيث يتولد البخار .

العلم والبيئة :

لم يكن علم الانسان في بداية وجوده على الارض شيئا مذكورا ، وكانت خبرته بما حوله رغم ما حباه الله من عقل وتدبير لا تختلف كثيرا ما ياتي به الحيوان بغيرته . ولعل اكبر دليل على مستوى التفكير الانساني في ذلك الوقت حيرة ابن آدم وهو يحاول ان يوازي سواة اخيه وقد امتدت يده الى اخيه ليقتله ، فلم يهتد الى مواراته حتى رأى غرابا يهيل التراب على اخيه الغراب . . .

فلا غرابة ان يحاول الانسان ان يقتات مما حوله ويعدل في طبيعة البيئة التي ولد فيها ينزع الاشجار من الغابات ويسوى الارض . . . ولعل افلاطون هو الذى نسب المساحات الجرداء حول مدينة « اثينا » في ذلك الوقت الى عدم دراية الانسان الاول بالزراعة . . . ولكن مع تقدم العلم تحولت الاراضي الجرداء الى اراض زراعية ، وتغيرت البيئة تغيرا كاملا ، غيرها العلم . . . ثم جاءت الحشرات ترى ، واتى الجراد على الاخضر واليابس ، والديدان على شجر القطن تلتهمه ، واذا بالعلم يخرج علينا بالمبيدات الحشرية والاشعاعات الذرية والمخصبات الكيماوية ، واكتسبت الحشرات مع الزمن مناعة وتدهورت صحة الانسان من تعامله مع المبيدات ومن تعرضه للاشعاعات ، ورغم ذلك فالانسان يتكيف بالبيئة ويوائم حياته مع التغير الطارئ ، ولكن هذا التغير يحتاج الى الوقت والعلم ، وقد طور المواصلات ، وجعل الدنيا صغيرة الحجم يطوف ارجاءها الانسان في ساعات قليلة ، لذا كان العلم حريصا ان يطور التقنية لاستحداث بيئة محلية حتى لا يشعر الانسان بالتغير المفاجيء ، فالحجرات المكيفة الهواء محاولة من هذا النوع ، وانى أشعر ان البيئة التي تقاس على الانسان تتنافى والفطرة ، فطرة الله التي فطر الانسان عليها . حقيقة لابد مما ليس منه بد ، فشخص يتنقل في الفضاء الخارجي بين الكواكب والاقمار لابد ان يعد للرحلة لبوسها ليؤمن الاشعاعات ومخاطر الطريق ، ورجل يريد ان يغوص في البحر لابد له ان يعد العدة ليتقى الضغوط العالية مع اتصاله بالجو المحيط ليتنفس بحرية ، ولكن هذه رحلات موقوته بزمن محدد . اما الحياة ، الحياة الطبيعية ، الحياة على كوكب الارض تحتاج الى وقفة تأمل . . . ونتساءل هل يمكن لرجال الاسكيمو العيش في الجو الحار ؟ . . . وهل يمكن لرجال المناطق الاستوائية العيش في المناطق القطبية ؟ . . . اعدت حجرات لتمثل هذه المناطق ، وأجريت التجارب للوصول الى نتائج محددة يعتد بها ، وانتهى بعضها الى ان الانسان حيوان استوائي وبيئته استوائية يحملها معه أينما ذهب . وان بقاء الاسكيمو واستمرارهم في الحياة هو بسبب معرفتهم كيف يتجنبون البرد اكثر من كيف يصمدون له ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وبان أيضا ان الاسكيمو لا يأكلون اكثر مما يأكل غيرهم . . . ولكن العمل الشاق هو الذى يتطلب كميات اكبر من الطعام . . . وبان أيضا ان الزيوت والدهون ليست أساس طعامهم ، فلو أتيح لهم طعام آخر لاكلوه ، ولكن المتحكم هو ما في تناول اليد من طعام . . .

هناك حالات تأقلمت مع تغيرات تناسب والتأقلم .

ومن رحمة الله أن سوّى الإنسان حسب بيئته ، اذ نلاحظ خفة وزن انسان المنطقة الاستوائية واستقامة جسمه وكثرة عرقه الذى يصل الى نصف لتر في ساعة من الزمان ، وبذلك وقاه الله شر ضربة شمس مميته ، وجعل النسبة بين مساحة جلده الى وزنه اكبر ، فنحن نرى ان لو جئنا بقطعتين قابلتين للتشكيل وزنهما واحد وشكلنا احدهما على هيئة كرة والاخرى على هيئة اسطوانة رفيعة طويلة لوجدنا ان مساحة سطح الاسطوانة الرقيقة الطويلة اكبر فتعرضها للجو أكثر ، وفقدتها للحرارة اكبر ، وتبخر العرق منها أكثر ، فكان الرجل الاستوائي على تحمل الحرارة اقدر .

ورغم كل هذا فقد نجح العلم في تكوين البيئة المناسبة ويعتز بها الانسان ولا يصبر عليها طويلا ، فهو دائم الصراع بين العلم والبيئة يطلب العلم فتتغير البيئة او يحاول ان يوائم بين نفسه والبيئة ويضيق بهذا وذلك ويظل في صراع ، وسيظل في صراع ابدى حتى يحدث الله امرا كان مفعولا .

الانسان والعلم :

لعل تجاوزت المعنى بقولي ان الانسان في صراع بين العلم والبيئة فما كان العلم والبيئة على طرفي نقيض . فالعلم يبنى ، ومع البناء نفايات وغبار وعفار وبها تتلوث البيئة ولنجا مرة اخرى الى العلم لمحاولة منع التلوث او ازالة آثاره حتى تصلح البيئة للحياة السليمة من كل ما يفسدها . فالصراع بالعلم يقدم لنا نتاجا نظيفا لاغبار عليه .

ومن قدم رأى العلم ان الطاقة لا تفنى ولا تستحدث ولكنها تتشكل باشكال مختلفة . بل تتلون كما تتلون في اثوابها الفول . فاذا اختفت طاقة حرارة مثلا ظهرت طاقة اخرى ، ولتكن طاقة ميكانيكية ، والطاقة المختفية قدر الطاقة المستحدثة ، والفارق بينهما كالفارق بين اختفاء دينار وظهور ما يعادله من القروش . فالنقد والمختفية قدر النقود المستحدثة وان اختلفتا عددا وما الاختلاف الا اختلافا شكليا ناتجا عن اختلاف الوحدات ، فلو وحدنا الوحدات لاتحدت في الكم والعدد ايضا . واسهل انواع الطاقة الحرارية اسهلها حدوثا . تحدث باشعال مادة قابلة للاحتراق ، وهذا التلوث نراه في مداخن المصانع وافران الخبز ، وفي عادم السيارات وفي غيرها من امور نحتاج اليها عند استعمال الفحم والكوك والبترول وما اشبه . والطاقة الحرارية أيضا ابخل انواع الطاقة عند تحويلها الى طاقة اخرى . اذ تتحول الى طاقة اخرى بمقدار وعلى شروط . فالالات الميكانيكية التي تعمل بالطاقة الحرارية لها مصدر تأخذ منه الحرارة ، ولا يتحول كل ما تأخذه الآلة من حرارة المصدر الى طاقة ميكانيكية ولكنها تحول جزءا منه وتقدف بالاجزاء الباقية الى مستودع ، ولا تعمل الآلة دائما دون شروط ، ولكنها تعمل عندما تستوفى شرطا ، وشرط عمل الآلة ان تقل درجة حرارة المستودع عن درجة حرارة المصدر ، ولا تعمل الآلة اذا تساوت درجتا الحرارة - درجة حرارة المصدر ودرجة حرارة المستودع . لذا يستحيل على هذه الآلة بدون استعانة خارجية اعادة الحرارة المقدوفة الى المستودع اعادتها الى المصدر مرة اخرى ، ويستحيل عليها أيضا اعادة ما فقدته المصدر تلوثا من دخان وجسيمات وغازات . ولكن تعاد ويزال تلوثها باستخدام آلة مضافة .

وهنا يأتي دور العلم الذى انتج الآلة التي أفادت البيئة ربا وزرعا وحصادا ، أو غزلا ونسجا ولبسا، يأتي دورة في صيانتها من العبث بالبيئة التي التي عاش لها يرعاها ويكلأها بعنايته . وخلاصة القول تظهر قيمة العلم الذى أنشأ الآلات التي أفادت في تعمير الأرض باستحداث أدوات الحضارة التي يستخدمها ساكن هذه البيئة تظهر قيمته بأن يصبح همه المحافظة على صحة الساكن والقيام على بقاء نوعه فيعدل ويبدل ويضيف الى الآلات أجهزة لمنع تلوث الجو الذى يستنشقه هواءه وأجهزة لمنع تلوث الأرض حيث يشرب ماؤها ويؤكل زرعها ويقتات على لحم حيوانها .

ولحكمة نحصد خيرا كثيرا عند إزالة التلوث ، اذ استخرجت بعض المعادن النادرة من الدخان الذى يخرج من المداخل فنرى قبل تنقيته لينتشر في الجو نظيفا ، وكذلك جرت عملية التنقية على عادم حافلات الطريق ليخرج ما يخرج منهما من غير سوء لا يثير انفا ولا يؤذى صدرا .

السيارات والتلوث :

بحثت أضرار عادم السيارات في « لوس انجلوس » إحدى مدن الولايات المتحدة الأمريكية ووجد ان في المدينة وقتذاك ٣٥ مليون سيارة تستهلك في المتوسط ٧ ملايين جالون من البنزين يوميا ، وهي عبارة عن ٢١٥٠٠ طن من البنزين ، وينتج عن الاستهلاك استهلاك هذه الكمية من البنزين يوميا ينتج ١٨٠٠ طن من الكربوهيدرات غير تامة الاحتراق ، وكذلك ٥٠٠ طن من أكاسيد الأزوت بالإضافة الى ٩٠٠٠ طن من أول أكسيد الكربون . تتولد هذه الكميات يوميا وتلوث جو مدينة « لوس انجلوس » . ولكن ما اثر كل هذا على الانسان . أجريت أبحاث ووجد ان العين تتأثر ، ويشكو سكان المدينة من التهابات في العين اذا وصل تلوث الهواء من المؤكسدات ١٥٠ جزء من مليون جزء من هواء المدينة ، ويتعدى الاثر الضار الى التربة فنرى النبات وقد أصابه الذبول .

واذا عدنا مرة أخرى الى الانسان وحلله نلاحظه على وجه التحديد نجد ان خمسة في المائة من هوموجلوبين دم كل فرد خمل وفقد نشاطه ، وذلك عندما يصل أول أكسيد الكربون في جو المدينة الى ٣٠ جزءا من مليون جزء من هواء المدينة وبقي الأكسيد في الجو ثماني ساعات ، لذا كان حتما واجبا ان يحاول الباحث التخلص من التلوث كلية أو أزالته جزئيا الى حد لا يخشى معه الضرر وكان هذا موضع اهتمام القائمين على صناعة السيارات ، وقد لاحظوا ان أكثر من ثلثي العادم يخرج من أنبوبة العادم الخلفية يخرج نتيجة عدم كمال الاحتراق ، ويكون الاحتراق كاملا عندما تكون نسبة الوقود الى الهواء واحد الى ١٥ ، ولكن تصمم السيارات بنسبة الوقود الى الهواء أعلى من ذلك لتصبح السيارة على الحركة أقدر ، ولكن النتيجة ان يخرج العادم غير كامل الاحتراق ، لذا رؤى لعلاج هذا الامر بقاء النسبة عالية ومنع التلوث أو تقليله ، ان يعاد احتراق العادم قبل خروجه الى الجو المحيط حيث الهواء الطلق . والعادم عبارة عن غازات الأزوت والأكسجين وثنائي أكسيد الكربون وبخار الماء وأول أكسيد الكربون وكربوهيدرات وأكسيد الأزوت وأكسيد الكبريت .

وهناك طرق مختلفة استحدثت لمعالجة العادم . اذكر منها طريقة الاحتراق المباشر ، وذلك بواسطة شمعة اشعال وينطق شكل (٨) عن نفسه ولا يحتاج الى شرح ، والشئ بالشئ يذكر ، لذا اشير الى طريقة اخرى يستعمل فيها عامل مساعد لتحترق الغازات غير كاملة الاحتراق في درجة حرارة اقل منها في الطريقة الاولى ، وذلك بجعل العادم يحترق مع وجود عامل مساعد . ونظرة الى شكل (٨ ب) تفيننا عن الشرح .

معييار انتلوث :

ترتاح النفس العالة الى الدقة في القياس ، ولن يكون قياس بغير معيار ، ولقد اطمأن الباحث الى ثلاثة مناسيب عيارية للتلوث : منسوب استعداد ومنسوب انذار ومنسوب اخطار . ولكل منسوب علاماته ، فعلامة منسوب الاستعداد التهاب الحواس وحدوث ضرر للخضروات ، وعلامة منسوب الانذار حدوث تغير في وظائف اعضاء الجسم . يؤدي الى مرض مزمن ، وعلامة منسوب الاخطار هي الموت او مرض مفاجيء حاد . ولواردنا دقة في القياس وعبرنا عن المناسيب باجزاء من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) .

المادة	منسوب استعداد	منسوب انذار	منسوب اخطار
اول اكسيد الكربون	—	١٢٠	٢٤٠
اثيلين	٠.٥	—	—
كبريتيد الهيدروجين	٠.١	٥	—
ثاني اكسيد الكبريت	١٠	٥	١٠
الكاربوهيدرات	٠.١٥	—	—
ثاني اكسيد الازوت	٠.١٥	—	—
مؤكسد	٠.١٥	—	—
اوزون	٠.١٥	—	—
دخان	٠.١٥	—	—

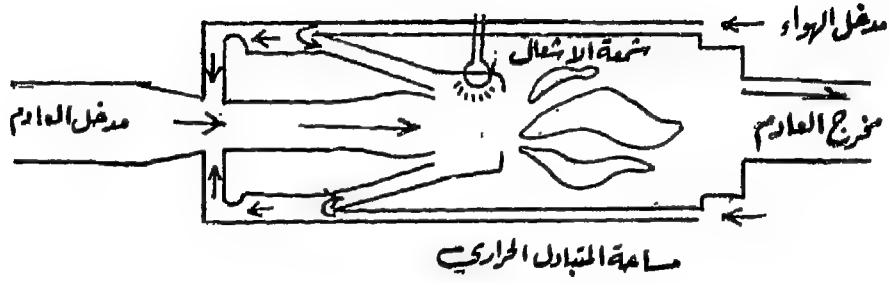
من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) . على ان يستمر لمدة ساعة من الزمان ، وعشر جزء لو كان التلوث من غاز كبريتيد الهيدروجين ، ومنسوب الاستعداد في حالة الكاربوهيدرات هو عشر جزء ونصف العشر . وقد حرصنا ان لا نرصد رقما في الجدول (١) حيث لا اتفاق بين الباحث على رقم بعينه لذا جاء الجدول ادردا كاستنسان العجز .

ثاني اكسيد الكبريت

يظهر ثاني اكسيد الكبريت في دخان المصانع ومحطات القوى ، وتخلص منه بتحويله الى ثالث اكسيد الكبريت ، ثم تحويل ثالث اكسيد الكبريت الى حامض كبريتيك ، حيث يمكن تخزينه والاستفادة منه .

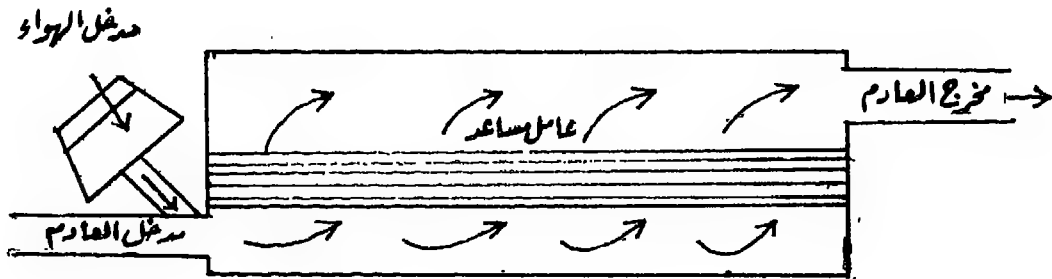
٩٣١

الانسان بين العلم والبيئة



شكل (١٨)

جهاز يضاف الى السيارة لاعادة احتراق غير المحترق من الغازات بالاستعانة بشمعة الاشعال .



شكل (٨ ب)

جهاز يضاف الى السيارة به عامل مساعد لاحتراق غير المحترق من الغازات عند درجة حرارة اقل من الدرجة بالشمعة في شكل (١) .

استحدثت طريقتان . نشأت احدهما وترعرت عند تشييد المصنع ، اذ رأى القائمون عليه ان يتخلصوا من ثاني اكسيد الكبريت في مراحل عمل المصنع فيكون جهاز الازالة جزءا من المصنع اثناء تسييده ، ويؤخذ الغاز الملوث مباشرة من الفلاية شكل (١٩) اذ نرى وحدة التسخين للغاز الملوث جزءا من المحطة فيسخن الموقد ماء الفلاية وفي الوقت نفسه يسخن الغاز المطلوب تحويل ما به من ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ثم الى حامض كبريتيك .

ونجد في الطريقة الثانية شكل (٩ ب) ماخذ الغاز من المدخنة مباشرة ، فالعملية الثانية هي اضافة لما هو قائم من مصنع لتنقية ما هو خارج من ثاني اكسيد الكبريت ، ويلاحظ ان وحدة تسخين مستقلة وضعت لاعادة تسخين الغاز الخارج .

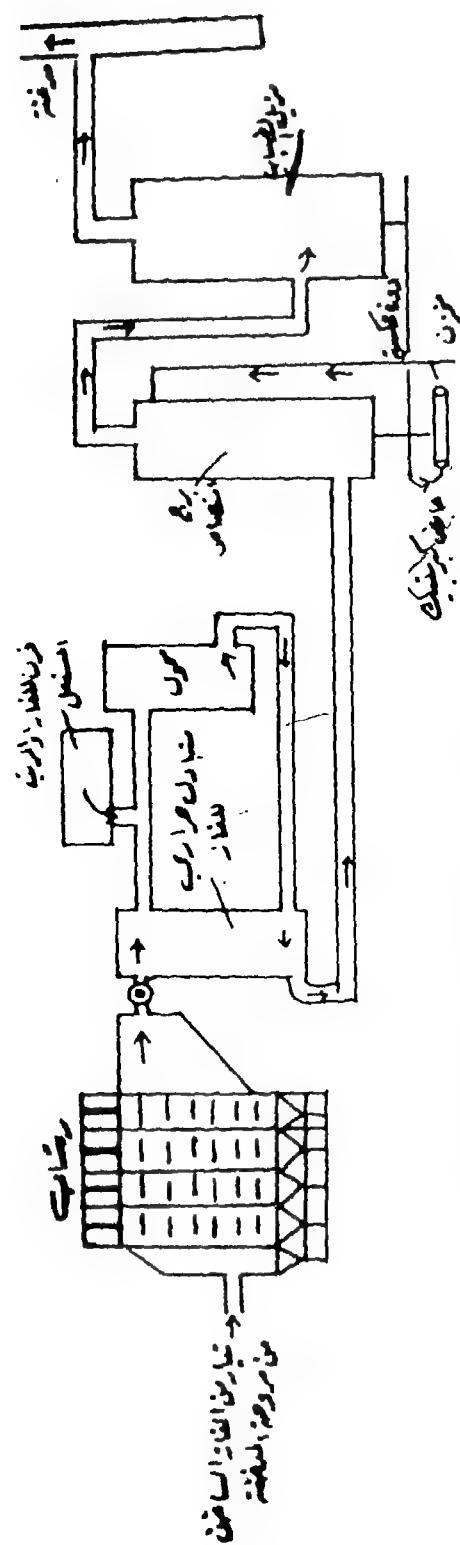
ووجد ان الطريقة الاولى تزيل ٩٠٪ من ثاني اكسيد الكبريت في حين ان الطريقة الثانية حيث وحدة تسخين اضافية مستقلة تؤدي الى ازالة في حدود ٨٥٪ .

وفصل في كلتا الحالتين في الطريقة الاولى والطريقة الثانية يفصل الرماد والحبيبات شكل (١٠) أولا بواسطة عملية الفصل الميكانيكي ثم الترسيب الالكتروستاتيكي ثم يمر تيار الغاز بعد التخلص من الرماد بالمحول في شكلي (١٣ ، ١٤ ب) حيث يوجد خامس اكسيد الفانديوم ، وهو عامل مساعد صلب يساعد في رفع اكسدة ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ، الذي يتحد بدوره مع بخار الماء ليصبح بخار حامض كبريتيك ، حيث يبرد في برج الامتصاص ويخرج سائلا هو حامض كبريتيك ، اما وظيفة مزيل الضباب فهي ازالة ما بقي من بخار حامض الكبريتيك ويحواله الى سائل .

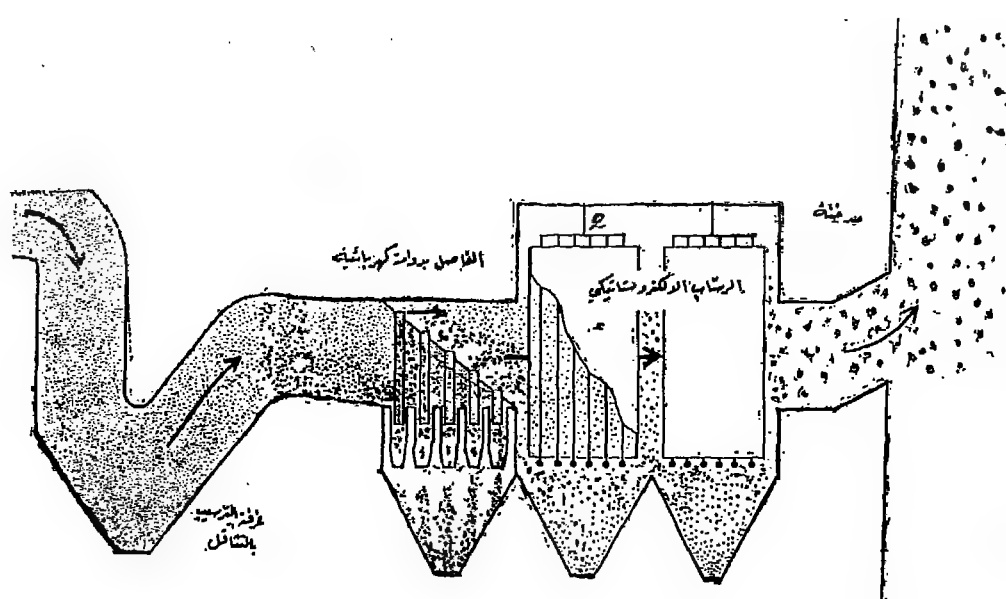
الانسان المتهم

غريب امر الانسان يلقي التهمة على الآلة وهو المتهم الاول المتسبب في التلوث فقد خلق مصدرا متحركا للتلوث فهو يلوث البيئة التي يعيشها حتى لو كان قعيدا لا يبرح فراشه من الهد الى اللحد .

دع عنك افرازاته ، تراه يأخذ من الاكسجين ٣٥٠ سم ٣ شهيقا في كل دقيقة من الزمان ويطرد بدلا عنه ٢٠٠ سم ٣ من ثاني اكسيد الكربون . ولحكمة يعلمها الله اسكن الانسان الارض وابقى على نوعه وحفظ قدر الاكسجين الذي يحتاجه متنفسا ليعيش ويعيش ابناؤه واحفاده واحفاد احفاده الى يوم الدين ، اذ جعل النبات يزدهر نهارا باستهلاكه ثاني اكسيد الكربون من الجو في عملية تسمى التمثيل الضوئي ، وهي عملية عكسية لتنفس الانسان فحصول العملية ظهور مادة محبة للحياة هي الاكسجين الذي يخرج الى الجو المحيط بدلا عن ثاني اكسيد الكربون الذي اخذه النبات ، فكان النبات ينظف ما لوثه الانسان اثناء تنفسه فهو مسئول أولا واخيرا عن بقاء الانسان الى يومنا هذا دون اختناق ، ولكن لا يزال يعترينا بعض الخوف ، فنحن نلمس الانفجار السكاني وبالتالي انكماش الرقعة الخضراء من الارض ، ثم التقدم الصناعي وما تنفثه مداخنه من ثاني اكسيد الكربون . لذا كان هم الباحث في التلوث هو ضبط المقدار وتقنين ما يسمح به ،



شكل (٩ - ب) جهاز التسخين من شافي أكسيد الكبريت يصفان للمرضية



شكل (١٠)

طريقة لازالة الحبيبات من الغازات بعد خروج العادم من الافران وتناين لرات الغاز وتلتصق بالحبيبات ويتخلص منها

والانسان طرف في هذا الموضوع بحكم مولده وعمله وخبرته ، ومن الطريف أن بعض الابحاث تتحدث عن كفاية العمال وتقول انها تقل وبسوء الاداء كلما كثر التلوث في الجو ، ويضيفون الى الملوثات المعروفة الاصوات المزعجة ، وعلى كل ليس هذا موضعه ونقول يخدع الانسان نفسه ويظن انه يتنفس هواء نقياً ، ولكن لو راجعنا التاريخ نجد ان ملك انجلترا ادوارد الاول حرم استعمال الفحم في لندن لانه اعتبر وبحق الدخان غير صحي فهو نوع من انواع التلوث وكان ذلك عام ١٣٠٤ ميلادية .

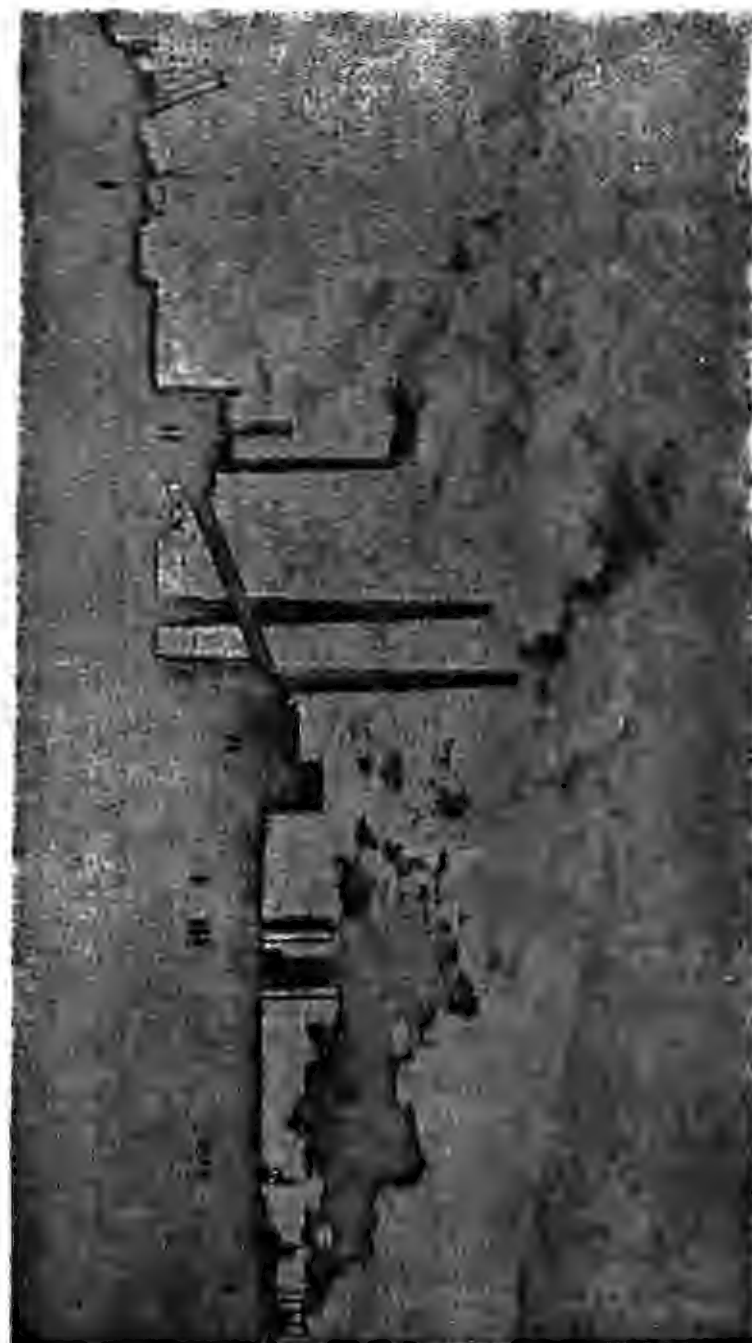
انواع التلوث

قسم التلوث الجوي الى نوعين . نوع يسمى فصيلة « لندن » وتتكون غالبته من مركبات الكبريت الناتج عن احتراق الفحم . والنوع الثاني يسمى فصيلة « لوس انجلوس » ويتكون غالبا من احتراق البنزين ويسمى تجاوزا فصيلة « الكربوهيدرات » .

ولعل نوع « لندن » هو اخطر النوعين واذكر ان آلافا من سكان لندن قد ماتوا عام ١٩٥٢ نتيجة اختلاط اكسيد الكبريت بالضباب . واني اترك الامر لاحساس القارئ وهو ينظر الى شكل (١١) حيث يرى المداخن وما يخرج منها ، ومن جهة أخرى لو نظرنا الى اثر حركة مرور السيارات في مدينة لوس انجلوس بامريكا شكل (١٢) نرى فعل الكربوهيدرات واكاسيد الازوت في الجو مع حركة تيارات الهواء (ب) ومع الضباب (ج) ثم نرى الفعل المضاد لاشعة الشمس (١) ولكنني ساكتفي بالتحدث عن بعض خصائص فصيلة لندن من التلوث وهي اخطر الفصيلتين .

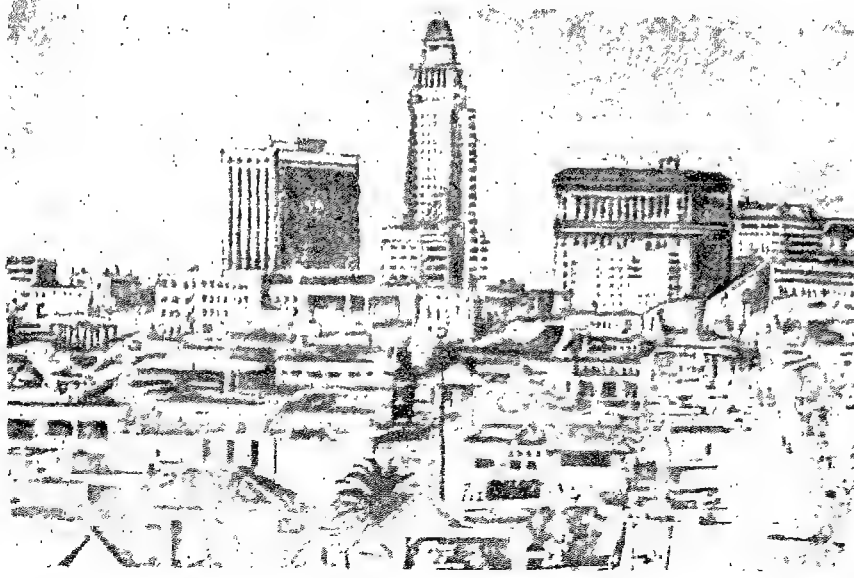
لندن والتلوث

اثبت علماء الانكليز ان التخلص من ثاني اكسيد الكبريت وغيره من ملوثات الجو هام لانقاذ الثروة القومية ، اذ اظهرت الاحصائيات ان انجلترا خسرت في عام واحد نتيجة تلوث الجو اكثر من ٢٥ مليون يوم عمل وذلك بسبب مرض العمال لاصابتهم بالتهاب في الشعب الهوائية ، وقد صنف علماء انجلترا التلوث في جوها الى ثلاثة اصناف : **جزيئات غاز وجسيمات دقيقة جدا وجسيمات مرئية** ويبين جدول (٢) خصائص هذه الاصناف الثلاثة ، ومهما كانت العوامل الجوية التي تساعد على تخفيف تلوث الجو فان مقداره يحسب حسابه اذ يزن الهواء الجوي ٧٠٥ x ١٠ طن ويصل مقدار التلوث الى ١٠ ٨ طن . ولعلماء الانجليز طريقة في التعبير عن هذا التلوث سواء كان التلوث غازا او سائلا او جامدا اذ يقدر بالميكروجرام لكل متر مكعب - (١٠ - ٦ جم م - ٣) ويبين جدول (٣) مقارنة بين التلوث في لندن في ثلاث سنوات وهي ١٩٣٨ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٨ وعناصر التلوث في هذا الجدول (جدول ٣) هي الدخان وثاني اكسيد الكبريت ، ولكن مقارنة التلوث من القبار والحبيبات الخشنة في السنوات الثلاث السابقة الذكر تظهر في جدول (٤) .

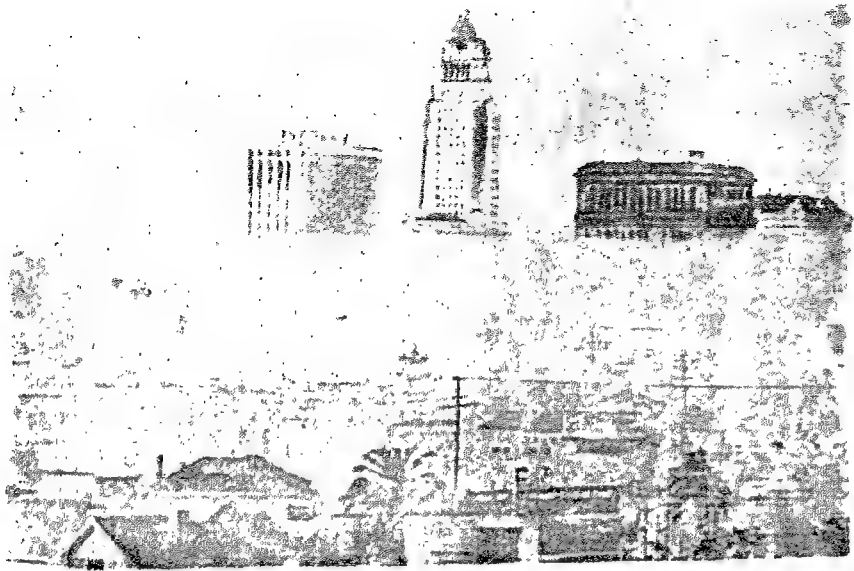


(شكل ١١١)

منظر عام لمداخل المصانع وهي مصدر من مصادر التلوث .



(شكل ١١٢)



(شكل ١٢ ب)

يظهر صورة مدينة نوس انجلوس .

(أ) في يوم لا غبار فيه ولا تلوث .

(ب) في يوم حار ترتفع في الغازات الملونة الى اعلى .

٩٣٩

الانسان بين العلم والبيئة



(شكل ١٢ ح)

(ج) في يوم فيه ضباب مكثف .

ويرينا جدول (٥) التلوث من أول أكسيد الكربون عام ١٩٦٨ ويعطينا جدول (٦) بعض البيانات من حافلات الطريق . وهناك مقارنة بين التلوث في العالم ككل والتلوث في المناطق الأكثر تقدماً ، وهي بين خطي عرض ٣٠ ، ٤٠ ، ٦٠ ° نراه في جدول (٧) ونلاحظ من هذا الجدول ان التلوث من ثاني أكسيد الكبريت من صنع الانسان ولا دخل للطبيعة فيه فهي بريئة منه براءة الدئب من دم ابن يعقوب .

جدول (٢)

أصناف التلوث	جزئيات الغاز	جسيمات دقيقة جدا	جسيمات مرئية
الملوثات المنتشرة في انجلترا البعد النموذجي خواص	ثاني أكسيد الكبريت تقاس يوميا ١٠ - ٧ سم تختلط مع الهواء غير مرئية أكالة	دخان تقاس يوميا ١٠ - ٤ سم تطفو في الهواء لا ترى بالعين المجردة تلوث جميع السطوح	غبار وجسيمات خشنة تقاس شهريا ١٠ - ٢ سم ترسب في الهواء ترى تلوث مكان سقوطها
الصحة	مهيج سام اذا كان مركزا	يصل الى الرئتين عند الاستنشاق	يحس في الانف والقصة الهوائية
المصدر	الوقود كل انواع الاستخدامات	الاحتراق غير التام خاصة الاستخدامات المنزلية	كل ما يفضي الى رماد غبار الوقود سناج خاصة الاستخدامات الصناعية
ملوثات أخرى لها أهمية محلية	أكاسيد الأزوت أول أكسيد الكربون في تراكيزات راکدة المروور	رذاذ حامض كبريتيك ضباب دخان الديزل الابخرة في الصناعة	الأتربة في الصناعة من المصنوعات من التخزين

٩٤١

الإنسان بين العلم والبيئة

جدول (٣)

دخان وثاني اكسيد الكبريت في ٦١٠ طن

السنة	←		
دخان	من الفحم	١٩٢٨	١٩٦٠
	منزل	١٧٤	١٢١
	قطارات	٢٦	٧
	صناعات وغيرها	٧٥	١٩
	مجموع	٢٧٥	١٤٧
ثاني اكسيد الكبريت	من الفحم	١٩٢٨	١٩٦٠
	منزل	٢٣	١٢
	محطات قوى كهربائية	٤١	٥٦
	قطارات	٣٧	٢٦
	نقلات فحم المناجم	٣٢	١٤
	صناعات وغيرها	٣٥	٢٢
	افران كوك	٧	١١
	صناعات الفاز	١٤	١٦
	مجموع	٣٨٩	٤٣٧
	من الزيت	١٩٢٨	١٩٦٠
	منزل	٥	ضئيلة
	صناعات وسوق التجارة	١	١٧
	طرق وقاطرات	١	٥
	بواخر داخلية	-	٤
	مجموع	٦	٢٦
	من الكوك	١٩٢٨	١٩٦٠
	منزل ووقود بغير دخان	٦	١٠
	صناعات	١٨	٢٦
	مجموع	٢٤	٣٦
المجموع	الكل لثاني اكسيد الكبريت	٤١٩	٥٩٩

جدول (٤)

الفبار والحبيبات الخشنة في ٦١٠ طن

السنة	١٩٣٨	١٩٦٠	١٩٦٨
مواقد منزلية	٠.١٤٥	٠.١	٠.١٠
محطات قوى	٠.١٤٥	٠.٤	٠.٣٢
قطارات	٠.١٤٥	٠.١	—
فحم وكوك يستعمل فى الصناعة	٢١٥	٠.٢	٠.١
المجموع	٠.٦٥٠	٠.٨	٠.٦٠
عمليات صناعية مختلفة	٠.٥	٠.٥	٠.٥
المجموع الكلى	١١٥	١٣	١١

جدول (٥)

اول اكسيد الكربون فى ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

من الصناعة	٦٠
المنازل	٥٠
آلات بترولية	٦١
آلات ديزل	١٠
المجموع	١٧٢

٩٤٣

الانسان بين العلم والبيئة

جدول (٦)

التلوث من حاقلات الطرق في ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

نوع الآلة	آلات بالبنزين	آلات بالديزل
أول أكسيد الكربون	٦١	٠١٠
كاربوهيدرات	٠٣٠	٠١٨
الدهايد	٠٠١	٠٠٣
أكاسيد الأزوت	٠٢١	٠٠٥
ثاني أكسيد الكبريت	٠٠٢	٠٠٣
المجموع	٦٦٤	٣٦٣

جدول (٧)

التلوث الكلي في ٦١٠ طن

التلوث	طبيعي	صنع الانسان	العالم	مناطق متقدمة بين خطي عرض ٥٣٠ ٥٦٠
ثاني أكسيد الكربون	٥١٠ × ٢	٤١٠ × ٢	العالم	_____
أول أكسيد الكربون	٢١٠ × ٢	٢٢٠ × ٢	العالم	_____
ثاني أكسيد الكبريت	مهم	٢١٠ × ١	_____	مناطق متقدمة
أكاسيد الأزوت	٢١٠ × ٢	٥٠	_____	مناطق متقدمة
كاربوهيدرات	٢١٠ × ٣	٩٠	العالم	_____
جسيمات	٢١٠	٢١٠	_____	مناطق متقدمة

التلوث في الميزان

تضاربت الآراء واصبحنا في احتياج الى المزيد من الابحاث حتى نصل الى رأي حاسم عن مدى اثر التلوث على الصحة ، اذ يرى دكتور باتريك لوثر مدير وحدة تلوث الهواء في مجلس الابحاث الطبية بانجلترا ان مقدار ما يحويه دم الذين يدخنون السجائر بطريقة معتدلة وبغير افراط من اول اكسيد الكربون اكثر مما يحويه دم المعرضين لحركة المرور في لندن ولعدة ساعات .

ومن الغريب اني قرأت تقريراً لرابطة المستهلكين بانجلترا يعلن عن ابحاث اجريت في نوفمبر سنة ١٩٧٠ تقرر نقص الاداء الدهنسي لاربعة من الشبان أثناء استنشاقهم هواء على علو ٣٧٥ سم من رصيف الشارع ولم يفصح التقرير عن التجربة وكيفية اجرائها .

وكذلك اختلفت آراء الباحثين ، اذ يرى فريق ان جملة جرعات صغيرة من اول اكسيد الكربون على فترات متباعدة لا تحدث تسماً ، لان اثر الغاز لا يتراكم مع الزمن . ويرى فريق آخر غير هذا الرأي ، وتسرب الشك ايضا الى ثاني اكسيد الكبريت ، وبدأ اليقين يهتز في سبب موت آلاف في لندن سنة ١٩٥٢ وقد نسب السبب حينذاك الى الضباب المكثرت - لو جاز هذا التعبير - وذلك لان الظاهرة تكررت سنة ١٩٦٢ وكان عدد الضحايا ٧٠٠ فقط رغم تشابه الاجواء والاحوال .

ويحسن ان نثبت هنا انه قد صدر قانون انجليزي يعرف بقرار الهواء النقي عام ١٩٥٦ وهو عام يقع بين عامي ١٩٥٢ ، ١٩٦٢ ونفذ القرار وكان من نتائجه تقليل الدخان القاتم ، حتى ادعى البعض ان لندن بلا دخان ، ورغم اختلاف الآراء فهناك اجماع على ان ثاني اكسيد الكبريت غير مقبول عند التنفس ، وان اول اكسيد الكربون سام ، وان البيئة تأثرت تماماً بالتلوث . وان انس لا أنسى رؤيتي من سنين مضت العديد من الاسماك الميتة الطافية على مساحة كبيرة في ميناء بيريه باليونان . .

وعلى كل فالابحاث لا زالت جارية في اغلب بلاد العالم ، بل أصبحت ابحاث تلوث البيئة عالمية ترعاها الامم المتحدة ، ونتمنى التوفيق للجميع لصالح الانسان والبشرية .



حسن صّادق المرصفاوي

البَيئة والجَرِمة

تشغل الجريمة في عصرنا الراهن - كما شغلت دوما في الازمنة السالفة - بال الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، لما تكشفت خطورتها وتفاقت جسامتها وزاد انتشارها بين أفراد عديدين من مختلف الجماعات ، مهما تبانت اتجاهاتها أو اختلفت درجتها في التقدم والرقى . والجريمة موجودة دائما وان تغيرت صورتها ومظاهرها ، ويكفى للتدليل على هذا ان ينظر الانسان من حوله ، ويمد بصره الى فترة سابقة من الزمان عاشها ، ليتبين صورا من الجريمة خلقت مع الايام وليدة ظروف معينة، يستوى في هذا الدول المتقدمة والآخرى النامية، لأن الحال لا يتعلق بالتقدم أو التخلف ، فأثر هذا يقتصر على تنوع الجريمة التي تختلف من مجتمع الى غيره . والتطور في ذاته يؤدي الى صور جديدة من الاجرام ، لا سيما حين يكون التغيير بخطى سريعة قد لا تستطيع الافكار والتقاليد السائدة مسايرته ، فتختل القيم وتضطرب الموازين في المجتمع ، مما يسفر عن صعوبة الاهتداء الى السبيل القويم فترتكب الجرائم . واذا اردنا ان نستقى من واقع الحياة دليلا لوجدناه في الجرائم التي برزت حديثا بشكل ملموس - لا سيما في اعقاب الحرب العالمية الثانية- وهي التي تمس الجوانب الاقتصادية من الحياة.

ولا تعتبر الجريمة وليدة المجتمعات الراهنة أو أنها قاصرة عليها ، بل ان الجريمة قديمة قدم اجتماع الانسان بغيره من الافراد ، وكل ما في الامر ان الجريمة تختلف في مفهومها وفي مدى انتشارها وفقا لتقاليد ونواميس جماعة معينة في وقت معين وفي مكان معين . والعدوان هو الاساس في الجريمة ، بل هو الاساس في كل الافعال التي تلحق بالغير ضرا وتستوجب فعل هذا الضرر . والعدوان منشؤه بعض الفرائز التي قضت حكمة الله سبحانه وتعالى ايجادها في الانسان ، تلك الفرائز التي لن تزول الا بفناء الانسان وتحركه نحو كل ما من شأنه ان يحافظ على وجوده ، ومن هنا ينشأ تضارب المصالح . وفي سبيل البقاء ينشب العدوان الذي هو اساس كل نزاع ، عدوان مرجعه الفريزة . واذا اردنا تقصى اسباب الجريمة والبواعث عليها لانتهينا معها الى الفرائز البدائية في الانسان . ولهذا فمن الملاحظ انه كلما تهذب غرائز الانسان قل عدوانه ، وتبعاً لهذا انكمش نطاق الاجرام دون ان ينعدم .

واذا كانت الفرائز هي المحركة لكل عدوان فهي ايضا المحركة لكل دفاع في مواجهة العدوان ، ففريزة البقاء التي تدفع بالانسان الى السعى نحو المحافظة على كيانه مهما كان في تصرفه من مساس بغيره هي بذاتها التي تحرك هذا الغير الى دفع الاعتداء محافظة على بقائه ، ولو كان في هذا مساس بالمعتدى . وهذا هو الاصل في نظرية الدفاع الشرعى ، التي تقرها التشريعات جميعا على اساس ان المحرك للدفاع المتمثل في اعتداء هو الفريزة التي خلقها الله سبحانه وتعالى في الانسان . ومتى كان الامر كذلك فالجريمة مرتبطة بالانسان وجودا وعدما . فالجريمة والانسان كلمتان متلازمتان وجدتا سويا وتنتهيان سويا ، وبهذا فان تصور قيام مجتمع بغير جريمة - على اية صورة كانت - غير مقبول .

والعدوان في الصورة التي عرضناها ، هو الذى يقع من فرد ، والدفاع الموجه نحو العدوان يصدر عن فرد ، ولكن الفرد المنعزل عن غيره انعزالا كاملا لا وجود له ، بل ان من علماء الاجتماع من يرى ان الانسان وجد دائما في مجتمع خلال كل فترات التطور التاريخي التي مرت بها الانسانية . وعلى كل حال فان صور العدوان - مع تطور المجتمعات - بدأت تتغير ، واثرها لم يعد قاصرا على من وجهت اليه افعاله ، بل اصبحت الجماعة ذاتها كوحدة متكاملة تحس بالعدوان ولو بصورة غير مباشرة ، وشعرت بان عليها واجبا ازاء ذلك العدوان . فالجماعة لها كيان ذاتي مستقل ، ومنذ وجودها خلقت فيها فريزة المحافظة على بقائها - وهي ذات الفريزة التي دفعت الانسان للمحافظة على نفسه - ووجهتها نحو طريق رد كل عدوان ، سواء وجهه اليها بطريق مباشر ام وجهه الى احد افرادها فلحق بها بسبيل غير مباشر .

وبحثنا يتناول البيئة والجريمة ، الامر الذى يثير كثيرا من التساؤلات ، اولها تحديد مفهوم كل من الجريمة والبيئة في هذا النطاق . وغاية البحث هي تعرف مدى العلاقة بين البيئة والجريمة وتأثير كل منهما في الآخر ، وقد مر ما تمثله البيئة في السلوك الاجرامي باعتبارها عاملا

من عوامله . فاذا أمكن التوصل الى هذه العناصر سهلت معرفة الطريق المؤدى الى مكافحة الجريمة (١) .

الجريمة في موطن هذا البحث :

الانسان منذ مولده حتى نهاية حياته لا يكف عن الحركة، سواء في ذلك بإرادته، كالأكل والشرب والكلام ، أو كانت الحركة مبعثها طبيعة خلقه دون أن يكون لإرادته دخل في ذلك ، كنبضات القلب أو تردد التنفس . ولا يعنينا في هذا المقام النوع الأخير ولكن يهمنا بالدرجة الاولى النوع الاول ، وهو ما يشمل التصرفات ذات الاثر في المحيط الخارجي والتي قد تؤثر في الجماعة المنتمى اليها الفرد بوجه من الوجوه .

وتصرفات الانسان المنبثقة عن حركته الدائمة كثيرة ومتنوعة ، وهي تمثل استجابة لحاجات أو رغبات له ، يستوى في ذلك الظاهرة منها للعيان والمفهوم أمرها ، أم الخافية الناشئة عن انفعالات أو خلجات قد يعسر فهمها وتحتاج الى تعمق في شأنها للوصول الى غورها وتفسيرها . وإذا كان الانسان فردا في مجتمع فمما لا شك فيه أن تصرفاته تنعكس على المجتمع ، وقد يتأثر بها أو يؤثر فيها . فالمجتمع قد يتأثر بها لما تحدثه في نوااميسه وقواعده من تغيرات على أية صورة كان التغير ، كما أن المجتمع قد يؤثر فيها نتيجة لرد فعل ذلك التصرف سواء كان بالرضا عنها عند مواعمتها لطبيعة تكوينه أو عدم الرضاء عند الاختلاف والمعارضة .

ونقسم تصرفات الانسان تقسيما بسيطا يرتبط بموقف المجتمع منها الى اقسام ثلاثة، تصرفات لا تعنى الجماعة بأمرها كثيرا ، وتصرفات تتقبلها الجماعة بالرضى وتشجع عليها ، وأخيرا تصرفات تستهجنها الجماعة وتنفر منها . والنوع الاول من التصرفات ينطوى تحته فريق يتم دون ارادة من الشخص - والقول بأنه تصرف فيه نوع من التجاوز - وهو الناشئ عن التكوين العضوى لجسم الانسان . والفريق الآخر من التصرفات لإرادة الانسان دخل فيه ، وهو الذى يقتضي بحث موقف الجماعة بصدده . والاصل في هذه التصرفات قاعدة عامة أن يقف المجتمع منها موقفا سلبيا ، بمعنى أنه لا يتدخل في أمرها مادامت تتم في حدود النوااميس والقواعد والنظم التي تحكم المجتمع . والنوع الثانى من التصرفات هو ما يتفق مع النوااميس والقواعد والنظم، التي تضعها الجماعة ولا يقف منها المجتمع موقفا سلبيا، بل انه يمتدحها ويشجع عليها لما تؤدي اليه من بقائه والعمل على تقدمه ، ومن هذا قيام الانسان بالواجبات التي تفرضها عليه طرق العيش الذى يرتزق منه ، فالسعى الى الرزق واجب على الفرد وهو من العمد الاساسية في بناء الجماعة . وهناك نوع آخر من التصرفات ترضى عنه الجماعة لما فيه من معنى التآلف والتآخى بين أفرادها ، والتعاون المثمر الذى ينعكس اثره على أمر المجتمع وهدوئه ، ومن هذا القبيل التعاون على دفع الكوارث ومساعدة الغير واعانة المحتاج .

(١) يرى بعض الباحثين ان الاهتمام بظاهرة زيادة السلوك الاجرامي يوجب العناية التامة باظهار الحقائق ، وببدا من الاندفاع في سياسة عقابية يمين النظر بعقوبة الى طبيعة المجتمع للتحرى عما اذا كانت هناك قوى ذات صبغة اجتماعية وبيئية مؤثرة في السلوك يكون من الافضل الكشف عنها (جون مايز ص ٩) .

والنوع الأخير من التصرفات يتعارض مع النوااميس والقواعد والنظم التى تقررها وتسير عليها الجماعة وتؤدى الى رد فعل مضاد من الجماعة متنوع النوع والمقدار دفعا منها عن كيانها ، وعملا على استقرار الأمن والهدوء فيها . فالمجتمع كالانسان خلق كل منهما وفيه غريزة البقاء التى تتحرك تلقائيا وتدفع عنه كل ما يهدد كيانها . فاذا كان الفرد العادى يرفع يده فى حركة غريزية لا ارادية ليتقى خطرا على وشك الوقوع به بهتده ، فالشأن كذلك بالنسبة الى المجتمع يتحرك غريزيا محافظة منه على كيانها لدرك كل مامن شأنه أن يؤثر فى بقاءه واستمراره . واذا كان رد الفعل الغريزى لدى الانسان ازاء أى خطر يهدده يختلف من وقت الى آخر ومن موقف الى آخر حسب ظروف ذلك الخطر ، بمعنى أن تصرفه الغريزى ليس مطلقا من كل القيود وانما تحده اعتبارات عديدة - لعل أخصها درجة العدوان وكيفية مقاومته والظروف التى يقع فيها كل من الخطر ودرته - اذا كان الأمر كذلك بالنسبة للانسان فهو الحال أيضا بالنسبة الى المجتمع . فمتى كان كل خروج على نوااميسه وقواعده ونظمه يستوجب رد فعل معه ، فان تحديد هذا الأثر يختلف من حالة الى أخرى وفقا لقدرة العدوان وظروفه ومدى المساس الذى يلحق الجماعة من جرائه .

ويمكن القول بصفة عامة انه لا يوجد تطابق كامل لتصرف وآخر من ناحية نوعه ومداه وأثره ، ومع هذا فانه تقريبا للأمور يمكن ضم بعض التصرفات الى بعضها الآخر فى مجموعات تحوى نماذج يوجد بينها نوع من التناقض والتقارب الذى لا يصل الى حد التطابق . وتمشيا مع الفكرة أنفة البيان يمكن تقسيم تصرفات الفرد التى لا تلقى رضاء من المجتمع الى عدة اقسام استنادا الى درجة رد الفعل الذى يقابل به المجتمع تلك التصرفات ، وهو ما يتدرج فيبدأ بمجرد الاستهجان ، ثم قد يصاحب هذا الاستهجان جزاء تأديبى ، او قد يصل التصرف الى درجة الخطورة التى تستوجب فضلا عن استهجان المجتمع للتصرف توقيع جزاء جنائى على مرتكبه ، وبهذا تتفاوت درجات عدم رضاء المجتمع ورد فعله عن التصرف الذى يقع مخالفا لنوااميسه وقواعده ونظمه . فاذا وقفرد الفعل عند مجرد الاستهجان اعتبر التصرف جريمة تأديبية ، أما ان وصل الحد الى أحد الجزاءات المنصوص عليها فى قانون العقوبات كانت الجريمة جنائية ، ومن هذا يتضح شمول مصطلح الجريمة لكل التصرفات التى تقع منافية للمجتمع .

وبهنا بالمقام الأول الجريمة الجنائية ، وهى النشاط الذى يصدر من الشخص ايجابا كان او سلبا يقرده القانون عقوبة من بين العقوبات المقررة بقانون العقوبات . فالمجتمع قد يرى فى بعض التصرفات التى تصدر من الفرد ما من شأنه أن يخل بأمنه ونظامه ، يستوى فى هذا أن ترتب تلك التصرفات ضررا لفرد معين ، أم أن اثرها يصيب المجتمع باعتباره شخصية قائمة بذاتها تدفع عنها كل ما يهدد كيانها . وهو فى هذا السبيل ينلر بالعقاب كل من تسول له نفسه مقارفة مثل تلك الأمور ، فان أى الفرد واحدا منها ، رغم تحذير القانون ، وقع تحت طائلة العقوبات المقررة فى هذا الشأن - بالتصرف الذى يشكل جريمة جنائية مستهجنة من المجتمع ، ويتفق فى هذا مع الجريمة الدينية والخلقية والتأديبية ، بيد أن خطورة التصرف تجعل المشرع يتدخل بتقرير

البيئة والجريمة

أحدى العقوبات الجنائية . وبهذا أيضا يتضح الفرق بين الجريمة الجنائية وغيرها من الجرائم، ويتمثل هذا في التزام المشرع الجنائي والقاضي من بعده بقاعدة أن لا جريمة ولا عقوبة بغير نص في القانون . ومعنى هذا أنه ان انتفى وجود نص القانون الذى يعد نشاطا معيناً فعلاً معاقباً عليه بأحدى العقوبات الجنائية ، فلا محل لمؤاخذة الشخص جنائياً .

وليس بالضرورة أن تنطوى دائرة الجرائم الجنائية داخل دائرة الجرائم الدينية أو الخلقية، لأن هناك من الأفعال ما يثير النقاش حول مخالفتها لقواعد الدين أو الأخلاق من عدمه رغم تدخل المشرع واعتبارها من الجرائم الجنائية ، ومن هذا القبيل كثير من المخالفات والجرائم المسماة بالجرائم المادية . ولهذا قيل بأن الجريمة قد تكون من خلق الجماعة السياسية في الدولة في وقت ما وظروف معينة ، فان تغيرت الجماعة الحاكمة أو تبدلت الظروف التي استوجبت تجريم فعل معين فان هذا قد يترتب عليه رفع صفة الجريمة عن النشاط ، بل يمكن القول بأن سياسة التجريم في ذاتها مصدرها سلطان الحكومة . على أن هذا القول ، وإن كان فيه جزء من الصحة فإنه لا يخلو من المبالغة ، فلا ينكر أحد أن هناك من التصرفات ما تعدها الهيئة السياسية الحاكمة جريمة حماية منها لمكانتها وتثبيتاً لأركانها أو تحقيقاً لسياسة معينة تنشدها . وهناك أيضاً من الأفعال ما يعد جريمة تقتضيها مصلحة المجتمع وإن كان قد يفتقر بعض الأفراد الفاية من التحريم، كالجرائم التموينية أو جرائم الضرائب . ولكن إلى جوار هذا يوجد من الأفعال ما قد يكاد يجمع على تجريمه لما له من مساس بالمجتمع فضلاً عن المساس بالأفراد، ومن هذا القبيل القتل والسرقة وخيانة الأمانة والزنا ، وإن كان من بينها ما لا يعد جريمة أحياناً في قليل من المجتمعات . وهذه الجرائم الأخيرة تنطوى داخل دائرة الجرائم الأخلاقية لأن نواحي المجتمع وتقاليد تباها . بل لقد ذهب البعض إلى اعتبار مثل هذه الأمثلة جرائم طبيعية لأنها تأتي ضد الطبيعة الموجودة في المجتمعات ولا تتغير بالزمان ولا بالمكان . وهذا القول بدوره أثار الانتقاد لما يتسم به من طابع المبالغة ، إذ هناك من المجتمعات ما لا يعد القتل جريمة ، بل واجباً اجتماعياً ، وغيرها لا يرى في فعل الزنا جريمة ، بل يراه تصرفاً من جانب الفرد في حريته الشخصية .

ويعني في بحثنا الجريمة الجنائية ، ويمكن القول بأن أضفاء صفة الجريمة على نشاط معين أمر نسبي يتوقف على ظروف الزمان والمكان ، فهو يختلف من وقت إلى آخر ومن مكان إلى غيره . فمن المسلم به أن هناك من الأفعال ما يعد جريمة في دولة ما في حين أنه من الأفعال المباحة في دولة أخرى ، بل إنه في الدولة الواحدة قد يعد النشاط جريمة ثم يعدل المشرع في سياسته وينقله إلى قائمة الأفعال التي لا يلحقها العقاب ولا يمنع من هذا من بعد أن يعود إلى الجريمة مرة أخرى .

وتختلف التشريعات في تقسيمها للجرائم من حيث جسامتها ، فمنها ما يأخذ بالتقسيم الثنائي فالجريمة تكون على نوع من اثنين إما جنائية أو جنحة ، ومن القوانين ما يأخذ بالتقسيم الثلاثي للجرائم - الجنائية والجنحة والمخالفة - ومن بينها التشريع المصري . وكخطوة أولى نستبعد من نطاق البحث الجرائم المعدودة من المخالفات لأنها من البساطة بمكان ، وهي تصرفات يمكن أن تقع

من كل فرد يكتفى القانون في الغالب بوقوعها لتقرير العقاب دون اشتراط توافر القصد الجنائي في مرتكبها ، أى أنه لا يتمثل فيه أو فيما وقع منه خطورة شديدة على المجتمع .

أما الجنايات والجنح فانه وان كانت خطورة الجنايات ظاهرة وكانت الجنح أقل منها في هذا المقام ، إلا أن هذا لا ينفي أن اهتمامات البحث في عوامل الجريمة لا تسير دوما وراء تقدير المشرع لخطورتها . فجريمة تسليم بعض الأسرار الحربية الى دولة معادية أشد خطورة في نظر المشرع من جريمة قتل ترتكب اخذا بالثأر مثلا ، ومع هذا فان الباحث في عوامل الجريمة تعنيه بالدرجة الأولى الجريمة الأخيرة وحدها . وإذا كانت الجنايات والجنح لا تتساوى في أهميتها فان هناك من الجرائم مهما كان وصف القانون لها تخرج عن البحث ، وذلك لما لها من طبيعة خاصة تجعل لها صفة الجرائم الاصطناعية ، ونسوق على سبيل المثال الجرائم الضريبية التى لا يشعر مقارنفا أحيانا بتأثير الاجرام حين يأتى أحد الأفعال المكونة لها بسبب عدم ادراكه للفائدة التى يراد للمجتمع الوصول اليها بتحصيل الضريبة ، ولا يأخذ في اعتباره الا القدر من المال الذى يدفعه الى الدولة ولا يتقاضى عنه مقابلا محددا واضحا ، وكذلك الحال بالنسبة الى شعور الجمهور .

والغاية من الدراسة هي التى تحدد الجريمة التى تكون محلا للبحث ، ولا شك في أن الجريمة التى تثير الاهتمام تكون قد وصلت في المجتمع الى درجة من الكثرة تكشف عن أن لها من العوامل ما يمتد جذوره في الجماعة بما يمكن من متابعتها والاهتمام اليها، أى أن يكون من شأن تلك العوامل تهيئة المناخ الصالح لوقوع الجريمة ، وكأن الجريمة المعنية أصبحت آفة المجتمع يستحق الجرى وراءها للقضاء عليها . ولذا فان بعضا من الجرائم التى ترتكب بصفة عارضة تخرج عن البحث ، ومن هذا القبيل جرائم الضرب البسيط والسب فهى جرائم - قلت أم كثرت - ليست لها سمة الثبات والتكرار ، تقع نتيجة لظروف طارئة من أى فرد وفي أى وقت دون أن يجمعها ضابط معين يمكن الاهتمام به او البحث عن اسبابها للعمل على مكافحتها .

وإذا كانت التشريعات تعبر عن انعكاسات لمشاعر المجتمع ، وكانت الأبحاث المختلفة وليدة حاجاته، فان تحديد الجريمة يهتدى فيه بالدرجة التى وصلت اليها والتى تقاس باستنكار المجتمع لها - كله تقريبا وفي كل وقت - واحساسه أنها قد بلغت من كثرتها مرحلة يخشى منها على المجتمع ذاته . وليست المجتمعات كلها على نسق واحد، والمقياس آنف البيان يوصل بالضرورة الى أن تكون الجريمة المعنية موجودة في كل الدول ، بل هي قد توجد في دولة ولا تتوافر في غيرها . وعلى سبيل المثال اذا أردنا تطبيق المقياس السابق على الجريمة في مصر لوجدنا أن أخطرها جريمة القتل، لا سيما ما كان منها متصلا بالثأر. ويزداد الاهتمام حاليا بجرائم الاختلاس والرشوة التى تنتشر في المجتمع بصورة مذهلة ، حتى حركت كثيرا من الأجهزة الباحثة وراءها . ولا تخلو جرائم التشرد والتسول بدورها من الأهمية ، كما لا يشك أحد في خطورة جرائم المواد المخدرة . وأخيرا تأخذ الجرائم التى تقع من الأحداث مكانا خاصا بين الجرائم التى تكون محلا للبحث ، لأنه كما يقال **حدث اليوم هو رجل الغد** ، ورعايته وتنويره حفظ للبلاد برجال المستقبل .

البيئة في موطن هذا البحث :

الجريمة ظاهرة مادية نتيجة لعمليات متعددة ومعقدة ، وتضر بالمجتمع ، وهو لا يقف منها عاجزا وانما حماية لنفسه يوقع الجزاء على مرتكبها وحتى يكون عنوانا يردع الغير عن الاقتداء به . ورد فعل المجتمع على هذه الصورة يقف عند الأثر الظاهر لتصرف الانسان - أى الجريمة - ولا شك في أنه من الأفضل العمل على منع الجريمة قبل وقوعها ، وهو ما يقتضى البحث عن أسبابها لعل في معرفتها ما يمكن من علاجها ودرء خطر الاجرام .

ولما كانت الجريمة نتيجة لعمليات بشرية واجتماعية ونفسية فان البحث في أمر مسبباتها شغل فريقا من العلماء مختلفى التخصصات . فلقد شارك في الدراسة والأبحاث فلاسفة وأطباء ورجال قانون وباحثون اجتماعيون وغيرهم ، ونظر كل فريق الى الجريمة من وجهة نظر تخصصه وتبعاً لذلك تعددت الآراء واختلفت النظريات . . بل لقد تأثر كل عالم بالمنهج الخاص الذى يتبعه في أبحاثه التخصصية ، وعلى سبيل المثال أرجع لومبروزو - الذى كان يعمل طبيباً - عامل الاجرام أساسا الى التكوين العضوى للفرد . وفضلا عن هذا فان اختيار الانسان لطريق معين في بحثه يتوقف على امكانيات الأدوات التى تيسر له الاستعانة بها ، وأقرب الأدوات اليه هو ما تمده به حياته العملية (٢) .

واذا كان الانسان فردا في مجتمع ، وكانت الجريمة ظاهرة انسانية فقد لزم البحث عما اذا كانت هناك علاقة بين الجريمة ذاتها والمجتمع من عدمه . ويعتبر توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) (٣) من أوائل من نظروا الى الجريمة في ارتباطها بالمجتمع ، وبين أن عواملها تكمن في المجتمع نفسه ، وكان ذلك في قصته الشهيرة (Wopia) وهي مستوحاة من المدينة الفاضلة لأفلاطون . ووصف توماس مور الظروف التى كانت تعيش فيها إنجلترا آنذاك وانتشار الاجرام وقسوة القانون ، وأشار الى وجوب تعرف عوامل الجريمة والتخلص منها بتوفير امكانية العيش للناس . ومن صور عوامل الاجرام ذكر الحروب المستمرة التى أسفرت عن المحاربين العاطلين . وقال أن العامل الأساسى يكمن في ظروف الحالة الزراعية ، ذلك أنه بعد إنتاج المصنوعات الصوفية حول كثير من اصحاب الاراضى الزراعية املاكهم الى مراعى للفنم ، وترتب على هذا تعطل آلاف من المزارعين الذين رحلوا واستقروا حول المدن وكانوا فريسة سهلة للوقوع في هذه الاجرام ، وفضلا عن هذا ظهر الشراء الفاحش الذى سرعان ما يزول ويؤدى بدوره الى طريق الجريمة .

ومن كتابات قادة الفكر خلال القرن الثامن عشر نجد إشارة الى الجريمة والظروف الاجتماعية المحيطة بها (٤) . فقد ذكر منتسكيو أن المشرع الناجح هو الذى يكافح الجريمة لمنع وقوعها أكثر منه بالعقاب عليها . وكتب روسو أن الفقر هو أهم الجرائم الكبيرة ، وأن المجرمين قلة في ولاية

(٢) راجع الدراسات الاولى لعلم الاجرام ، بيناتل ، ص ٢٠ وما بعدها .

(٣) بونجر ، ص ٢٨ .

(٤) بونجر ، ص ٣١ وما بعدها .

منظمة تنظيمًا حسنًا . كما ذكر بكاربا أن السرقة هي عادة جريمة الفقراء . وفي كتابات بنتام نظرة اجتماعية عميقة لأسباب الاجرام ، وهو يرجو أن تمنع الجريمة لا أن يعاقب عليها . وعدد صوراً من العوامل الموصلة الى الجريمة ومنها الخمور التي اعتبرها من الاسباب الهامة . وفي صدد الجرائم الاقتصادية يحث على معاونة الافراد الذين ليست لديهم موارد كافية والا أصبحوا مجرمين ، ولن يقعدهم عن هذا الطريق أى تهديد بالعقاب .

وبعد أن أرست الدراسات الاحصائية على قواعد ثابتة استخدمت كأداة في الدراسات الاجتماعية ، وفي ضوءها درست الجريمة باعتبارها ظاهرة في الجماعة بطريقة علمية . وقد أوجد أندريه جيري في فرنسا (١٨٠٢ - ١٨٦٦) ما يسمي بالاحصاء الاخلاقي ، حيث تناول الرابطة بين الجنس والسن من ناحية ، والاجرام من ناحية أخرى . كما عنى بجغرافية الجريمة في فرنسا التي انضح منها أن بالمناطق الفنية أكبر عدد من الجرائم ضد المال ، واستنتج عدم عدالة توزيع الثروة ، حيث الى جوار الثراء الفاحش هناك فقر مدقع . وصاغ قانون الحرارة للظاهرة الاجرامية - والذي أيده فرى - حيث أكد أن الجرائم ضد الاشخاص تغلب في الاقاليم الجنوبية خلال أوقات الحر ، وأن الجرائم ضد المال تغلب في الاقاليم الشمالية اثناء فترات البرد (٥) .

وأبان أودلف كاتليه (١٧٩٦ - ١٨٧٤) ثبات أية جريمة من عام الى آخر حتى في تفاصيلها . أو طريقة ارتكابها ، وبين ذلك بجدول احصائي عن الجرائم التي وقعت في فرنسا . وقال ان الارقام لا تتغير وهي ثابتة بشكل مطرد في كل ما يتصل بالجريمة حتى بالنسبة للجرائم غير المتوقعة للتقدير العادي ، كالقتل الذي يحدث فجأة وبلاية بواعث مسبقة . وقال ان المجتمع يحوى بداخله بذور الجرائم المستقبلية ، وكل نظام اجتماعي يعد الظروف لعدد من الجرائم التي تنتج بالضرورة من تنظيمه . ويضيف بأن على كل مجتمع أن يعد نفسه على أساس وجود الظاهرة الاجرامية ، كما يعد نفسه لظاهرة طبيعية ، وهو ما يستنتج من قوله ان كفاح الجريمة تمكن تحقيقه بتغيير ظروف الحياة الانسانية . وبحث كاتليه أيضاً بعض البواعث التي تؤثر على الاتجاهات العامة في الجريمة كالتعليم والمهنة والفقر والجو وتغير الفصول .

وربطت المدرسة الاشتراكية (٦) الظاهرة الاجرامية بالظروف الاقتصادية معتبرة ان الجريمة حصيلة فرعية للظروف الاقتصادية ، فعدم المساواة الاقتصادية هو العامل الاساسي في الجريمة التي تمثل رد الفعل لانعدام العدالة الاجتماعية ، وقامت الفكرة على أساس دراسات واقعية مبنية على الطرق الاحصائية التي اوضحت تغير معدل الجريمة ومدى ارتباطه بالظروف

(٥) ستيغانيه وآخرون ص ٨٠ بند ٨٨ ، وأشار الى معارضة البعض لهذا الرأي حيث أن الجو يرتبط بظروف اجتماعية . ففي بعض البلاد حيث يطول النهار تمتد تبعاً لهذا الحياة الاجتماعية وتكفى لزيادة فرص الاجرام ضد الاشخاص ، في حين أن الظلام في ليالي الشتاء الطويلة يساعد على زيادة الجرائم ضد المال . راجع أيضاً بوذا وبناتل ص ٨٩ وما بعدها .

(٦) بونجر ص ٨١ وما بعدها .

البيئة والجريمة

الاقتصادية ، وانتهت الى أنه لن تكون هناك جريمة في المجتمع الاشتراكي ، ولن تكون الافعال التي تقع ضد رفاهية الجماعة الا نتيجة لحالة مرضية . وقد عكس التطور الاقتصادي صداه على تطور الجريمة ، بالانتقال من الاقتصاد الزراعي الى الاقتصاد الصناعي خلال القرن التاسع عشر ، صحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الذكاء . وعدم الاستقرار الاقتصادي الناشئ عن عدم استقرار الاثمان والاجور والاسواق والنقود كان له اثره في الاجرام الذي يقصد منه الكسب ، ويؤدي تحسن الظروف الاقتصادية الى نقص الجرائم ضد المال وسوء هذه الظروف يؤدي الى زيادة تلك الجرائم .

ومن اشهر المدارس في بحث عوامل الجريمة المدرسة الايطالية (٧) وتقوم وجهة نظرها على ان الظواهر الاجتماعية - شأنها شأن الظواهر الطبيعية - تنشأ وتتتابع وفقا لقواعد تحكمها وترتبط بينها بعلاقة السببية الموصلة الى آثارها ، ولكن تحديد هذه القوانين من الدقة بمكان بسبب الظروف العديدة التي تتدخل في هذه الظواهر . وفي تقدير الظاهرة الاجرامية ينبغي الاعتداد بعنصرين الفرد والوسط . ويجمع علماء هذه المدرسة على ضرورة وجود شذوذ عضوي لوقوع الجريمة ، ثم اختلفوا بعد هذا في عديد من النقاط .

فلقد اعتد لومبروزو ابتداء بالمميزات العضوية في الانسان المسببة للجريمة ، ولكنه بعد ذلك وتحت تأثير النقد الشديد اعتد بالظروف الاجتماعية ، وقال ان لكل جريمة أسبابا عديدة ، ولما كانت تلك الاسباب تختلط ببعضها في الغالب فيجب ألا يؤخذ كل سبب فيها على انفراد ، ومن بعد هذا اعتد لومبروزو بالاسباب الاجتماعية وقال ان المدينة لم تقلل من عدد الجرائم وان اتسمت بطابع خاص اقل شراسة ، وتميزت بأنواع معينة ناشئة عن الروابط الاجتماعية والاسرية ، وكان للحالة الاقتصادية في نظره اثر محدد على الاجرام .

واعتمد فرى بالعوامل البيولوجية وأضاف اليها العوامل الطبيعية والعوامل الاجتماعية ، وعلى وجه الخصوص العوامل الاقتصادية . ويختلف اثر العوامل البيولوجية والاجتماعية وفقا لاشخاص المجرمين وأنواع الجرائم المرتكبة ، وقسم المجرمين الى خمسة أنواع ، المجرم بفطرته والمجرم المجنون ، والمجرم بالمعاطفة ، والمجرم بالصدفة ، والمجرم المعتاد . والفكرة الاساسية لدى فرى مبناها تساؤل هو انه اذا كانت العوامل الجغرافية والاجتماعية تكون مصدرا للجرائم فما يزال السؤال باقيا لمعرفة ما يدعو عدة افراد يسرون في طريق الجريمة بينما لا يفسر غيرهم فيه ، والجميع يخضعون لمؤثرات واحدة . وفي رايه ان الجريمة ظاهرة ذات أساس معقد بين عضوي ونفسي واجتماعي ، ولها اشكال ودرجات تتغير حسب الظروف المختلفة للاشخاص والاشياء والوقت والمكان . وقد قسم فرى عوامل الاجرام الى ثلاثة أنواع انثروبولوجية وطبيعية واجتماعية . والآخر هو الظروف الاجتماعية للجريمة الناشئة عن الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه المجرم ، أي السكان والافكار العامة والمعتقدات الدينية والانتاج الصناعي والمنظمات

الاقتصادية والسياسية . ولقد صاغ قانون التشبع الاجرامى اى أنه فى وسط اجتماعى معين اذا وجدت ظروف شخصية وطبيعية معينة فانها تنتج قدرا من الجرائم لا يزيد ولا ينقص وبشكل منتظم .

ويرى جاروفالوان الجريمة نتاج عيب شخصي يسبق الفعل الضار ، والجريمة هي الطبيعية لا تلك التي يخلقها المشرع ، وهي تتكون من الانتهاك الضار للشعور الاخلاقى العام الذي اتصل بالشعوب على مدى تاريخ الانسانية . ومن رايه ان من الافضل قبول الظاهرة الاجرامية على علاتها كما تحدث دون محاولة لتفسيرها ، وان كان لم ينكر دور العوامل الخارجية فى احداث الجريمة ، فعرض للعوامل الاقتصادية وكذلك للمدنية التي لم ير فى تقدمها شيئا لازدياد الاجرام، بل انها تحصره فى انواع خاصة .

وخلاصة اتجاه المدرسة الايطالية انها حصرت اسباب الاجرام فى نوعين **اولهما** الاسباب الداخلية التي تتصل بشخص المجرم من الناحية الجسمية والعقلية والنفسية والميول والطباع ، **وثانيهما** اسباب خارجية تتصل بالوسط والبيئة التي يعيش فيها وما بها من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية .

ويهمنا فى هذا المقام مدرسة الوسط الاجتماعى التي تقوم على اساس أن الجريمة وليدة الوسط الاجتماعى الذي توجد فيه ، فالسلوك الاجرامى ينتج من مظاهر السلوك والعمليات الاجتماعية الاخرى . ولم تنكر المدرسة العامل الشخصى ، ولكنها مع اعتدادها به جعلته جزءا من الوسط الاجتماعى الذي يعيش فيه المجرم وهو محدود الاثر . فالوسط الاجتماعى هو تربة زراعة الجريمة ، ومكروها هو المجرم الذي ليست له أهمية الا من اليوم الذى يجد فيه التربة الصالحة لانياته ، والاسباب الاجتماعية للجريمة عديدة ومختلطة ليس من العسير وضع تقسيم يحدد معالمها .

ومن اقطاب هذه المدرسة لاكاساني (٨) الذي قال عبارته الشهيرة « ليس للجماعة الا المجرمين الذين تستحقهم » . وقد عرض لاسباب كثيرة للجريمة . وعلى سبيل المثال يرى ان حرارة الجو تؤدي الى ازدياد الجرائم ضد الاشخاص وتصل الى مداها فى الصيف ، فى حين ان الشتاء يؤدي الى زيادة الجرائم ضد المال بسبب البرد وطول الليل واستهلاك كميات كبيرة من الخمر . ويختلف اجرام الريف عن اجرام الحضر ، فالجرائم فى الريف ذات اتصال بالاصل الفريرى فى الانسان كالانتقام والطمع ، أما جرائم المدن فتتسم بالطابع غير الاخلاقي كالاغتصاب وهتك العرض والضرب الشديد .

ويرى جابرييل تارد (٩) أن المجرم وليد الظروف الاجتماعية ، وانه وان كانت تتدخل فى انتاج الجريمة اسباب فسيولوجية وطبيعية واجتماعية، الا أن الأخيرة هي الغالبة وذات الاثر الفعال فى

(٨) بونجر ص ٧٨

(٩) بونجر ص ٨٠

البينة والجريمة

وجود الجريمة . فالجريمة لا تقع من مجرد الانسان الحي وانما من شخصية الانسان التي خلقتها الجماعة وشكلت صورتها . وقد وضع تارد نظريته في أن الجريمة مفتاح التقليد ، فلا شك في أن الاجرام كالشأن في كل نشاط اجتماعي يفترض وجود ظروف فسيولوجية وطبيعية ، ولكنه يفسر قبل هذا بالقوانين العامة في التقليد ، وذلك في صور الصفة الخاصة بالصيغة المحلية لكل وقت والتوزيع الجغرافي والتحول التاريخي وتنوع الدوافع وغير ذلك . وهذا التقليد يمتد من الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا ، وقديما كان يجري تقليد الطبقة الارستقراطية ، أما الآن فالملاحظ سير التقليد من العاصمة الى الريف . فكل الوقائع الاجتماعية تحدث تحت سلطان يحتل به . ويذهب تارد الى أن الفقر لا يؤدي وحده الى الجريمة ، وانما عدم الرضا وعدم الشبع هو الذي يولده ، وهذا وذلك كما قد يوجد عند الفقير فانه قد يتوافر لدى الغنى .

ولا يختلف دوركهايم عن غيره من علماء مدرسة الوسط الاجتماعي في اعتبار الجريمة وليدة الظروف الاجتماعية واليها ترجع أسبابها . على أنه يرفض اعتبار الجريمة ظاهرة غير عادية في المجتمع ، بل انه يؤكد صفتها الاجتماعية العادية ، فهي موجودة في كل مجتمع انساني ، وهي علامة من علامات صحته ، ولا يوجد مجتمع لا تحدث فيه يوما انتهاكات لآخلاقه . ويؤدي رايه الى انه لما كانت الجريمة ظاهرة عادية فهي لا تنشأ عن أسباب استثنائية ولكن من ذات الهيكل الثقافي الذي تنتمي اليه . وانه لما كانت الجريمة ناتجة عن التيارات الاجتماعية الكبيرة في الجماعة فان وجودها وعلاقتها بالهيكل الاجتماعي يحملان لها صفة الاستمرار والعمومية . وعلى هذا فانه لا يجب تفسير الجريمة ولا تحليلها الا بالثقافة الغالبة في وقت ومكان محددين .

ويرى سدرلاند (١٠) - وهو من المدرسة الاجتماعية في الولايات المتحدة الامريكية - ان السلوك الاجرامي هو سلوك انساني يشترك في الكثير مع السلوك غير الاجرامي . ويضع سدرلاند نظرية تكوينية للسلوك الاجرامي ، مبينا كيف تتم العملية التي تؤدي بشخص معين الى السلوك الاجرامي . وتتلخص في أن السلوك الاجرامي يتعلم ولا يورث ، وذلك بالتداخل مع أشخاص آخرين في عملية اتصال ، وهو يحدث في نطاق جماعات الأشخاص ذات العلاقة الودية الوثيقة ، وتعليم السلوك الاجرامي يتضمن فن ارتكاب الجريمة ، وينحرف الشخص حين ترجع له كفة الآراء التي تحبذ انتهاك القوانين على كفة الآراء التي لا تجيز انتهاكها ، وهذا هو مبدأ العلاقة التفاضلية . وحينما يصبح الأشخاص مجرمين فهم يقبلون هذا لاتصالهم بنماذج اجرامية من جهة ، وبسبب عزلهم عن النماذج التي تقاوم الاجرام من جهة أخرى ، وأي فرد يتشرب حتما الثقافة المحيطة به الا اذا وجد حوله نماذج أخرى في صراع معها . والاسبقية هنا هامة بمعنى أن السلوك القويم الذي يكتشف في الطفولة المبكرة قد يستمر طول الحياة ، كما أن السلوك المنحرف الذي يكتشف في الطفولة المبكرة قد يستمر بدور طول الحياة . وتبدو أهمية الاسبقية من خلال تأثيرها على الشخص عندما يقف موقف الاختبار .

والنظرة الحديثة الى الجريمة هي اعتبارها مسألة اجتماعية، وتبدى الاهتمام بكل من العامليتين البشرى والبيئى ، وهو ما يبدو من الأبحاث الأخيرة التى تقرر بأنه لفهم الفرد يحتاج الأمر لفهم طباعه وظروفه وقت ارتكاب الجريمة وكذلك الوسط الذى نشأ فيه والعوامل التى كان لها الأثر فى بناء شخصيته (١١) . ويتوافر عامل الجريمة فى النظام الكامل المعتاد للفرد فى مجتمعه الخاص . فربط الجريمة بعامل واحد يفتح الباب للنقد من أساسه ، فإذا قيل ان التعطل سبب الجريمة لصح القول بأن التعطل يؤدى الى الحياة على نفقة الأقارب ، أو قبول الاعانة العامة ، أو احترام التسول أو التشدد أو السرقة أو الانتحار . فالعامل الاقتصادى قد يثير كل هذه الاحتمالات . فلماذا يختار الفرد المتعطل طريقادون الآخر ؟ والجواب على هذا انه فى كل حالة على حدة يوجد طريق معتاد للحياة يجعل ايا من هذه العوامل يظهر عندما تحين له الفرصة . فالتعطل بديله ليس هو ارتكاب الجريمة وانما العامل الكامن فى طرق الحياة المحيطة بالفرد (١٢) .

ولقد اردنا بما سلف ذكره بيان أن محاولة اسناد السلوك الاجرامى الى عامل واحد ليس من السهل قبوله ، لأن الانسان منذ مولده حتى وفاته تحيط به عوامل عديدة مختلفة الانواع هي التى تشكل سلوكه فى الحياة . حقيقة قد يكون لأحد هذه العوامل اثر اكبر من غيره ، ولكن لن يتأنى منفردا حتى يؤدى قطعا الى سلوك معين . فإذا قلنا أن المنزل المتصدع من العوامل المؤدية للاجرام فمما لا جدال فيه أن بعضا ممن نشأ فى منازل متصدعة لم يرتكب جريمة . وكل عامل من العوامل التى يتناولها العلماء بالبحث يمكن النظر اليه من وجهتى نظر مختلفتين ، أى باعتباره مؤثرا فى السلوك الاجرامى أو بغير اثر عليه . وإذا كان السلوك الاجرامى ينشأ عن تفاعل عوامل عديدة مع بعضها فقد حاول بعض العلماء وضع تقسيم لتلك العوامل بناء على أسس اتخذوها قاعدة للتقسيم . على أنه لما كان من الصعب وضع ضوابط فاصلة بين مختلف عوامل السلوك الاجرامى، فكذلك الشأن بالنسبة الى التقسيمات، وعلى سبيل المثال اذا قلنا أن السلالة عامل يفصل بشخص الفاعل فلا شك أيضا أنه يمكن ادراجها ضمن الظروف الاجتماعية اذا نظر اليها من ناحية تقاليدها .

ويوصل بنا كل ما تقدم الى السؤال التالى: ما هو المقصود بالبيئة (١٣) فى نطاق بحث علاقتها بالجريمة ؟ وهل يراد بها معنى واسع أم نطاقا ضيقا ؟ أى هل يقصد بها المجتمع كله الذى يعيش فيه الفرد ، أو المحيط العام الذى تجرى فيه حياته أم الوسط الخاص الصغير الذى ينشأ

(١١) نوردد ايسٲ ص ٢١٩ .

(١٢) تشوم ص ٢١٦ ، وقد ذكر حالة امرأة من مشجان حكم عليها بالحبس لمدة شهر وبدلا من تحمل الحبس كتلت أطفالها الثلاثة واقتحرت ، وهذه الاستجابة تحققت بسبب تحديدها لمعنى الشرف والمهانة وقيمة الحياة . فإذا كانت نأمن بأن الانتحار سوف يدمر روحها ودوح أولادها لما كان الانتحار بدلا من المهانة . فالظروف الاجتماعية لوسيلة الحياة هي التى حددت الطريقة .

(١٣) وقد استمر علم البيئة أساسا من علم الأحياء حيث لفت الانتباه الى حقيقة أن مختلف أنواع اللبائنات تنج نتجوا كنموها . كالفشان بالنسبة للمجتمعات البشرية سولها بداية مؤقتة ثم تتغير نتيجة للتطورات حتى تصل الى صورتها النهائية (يرنس ص ٢٥) .

البيئة والجريمة

فيه ويتصل به ؟ وفي عبارة أخرى هل يراد بالبيئة الدولة أو جزء منها أم المنطقة التي يعيش فيها أم وسط ضيق سواء تمثل في أسرة أو مدرسة أو عمل ؟ ومما ينبغى التنويه اليه ابتداء من جميع الاتجاهات التي حاولت أن ترد الجريمة الى عوامل محددة لم تفعل وجود مساحة من أثر الجماعة أو الظروف الاجتماعية على أى من تلك العوامل . فالعامل الجغرافي سواء تعلق بالشتاء أو الصيف لا يمكن نزعها عن المجتمع الذى يعمل أثره فيه . وقد ينتهي بنا هذا الى دراسة جميع عوامل الجريمة اما باعتبارها نتاج البيئة بوجه عام أو أن البيئة تؤثر فيه بشكل أو آخر . مع اننا في مجال هذه الدراسة تقتصر على عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة بالبيئة .

وقد حاول بعض العلماء تقسيم البيئة الى بيئة جغرافية وأخرى اجتماعية وكذلك الى بيئة عامة وأخرى خاصة . والبيئة الجغرافية هي التي يعيش فيها الانسان وتتلصق بالجو والفصول والرياح ، وأن أثرها بالنسبة الى الانسان ثانوى، إلا أنه لا يمكن فصلها عن البيئة الاجتماعية . والبيئة الاجتماعية يقصد بها التعمق في الظروف المدرسية والثقافية والاقتصادية . وهذه البيئة قد تكون عامة ، أى تشمل الظروف العامة لوسط معين له تأثير على كل الأفراد في هذا الوسط ، وقد تكون بيئة خاصة يبين أثرها الواضح على الفرد بذاته بصورة جلية . والبيئة الخاصة يمكن تقسيمها الى اقسام ثلاثة (١٤) ، **الأول** بيئة لا خيار الفرد منها وهي التي تتصل بالأسرة ، فالطفل يتبع المكان الذى يوجد فيه . **والقسم الثانى** هو البيئة العارضة ومثالها المدرسة والمصنع وأداء الخدمة العسكرية والمؤسسة حين ادانة الشخص ، فحياة الانسان عبارة عن خطوات لا يستطيع التخلص منها كقاعدة عامة ، وتلك الخطوات تترك بصماتها على الفرد . **وأخيرا الوسط المختار** أو المقبول حيث يختارها الفرد في فترة المراهقة والبلوغ ويرضى عنها حيث يقيم بها . ويدخل في هذا ايضا الأصدقاء الذين يختارهم الشخص وقد يكون لهم أثرهم في السلوك الاجرامى وعلى وجه الخصوص تكوين العصابات (١٥) .

وفي سبيل دراسة البيئة والجريمة يتعين علينا تحديد غاية هذه الدراسة والفكرة التي تقوم عليها . فالانسان بطبيعة الحال أينما كان لابد وأن يوجد في جماعة معينة يعيش معها أو يعايشها ، على أن ظروف الحياة قد تقتضيه التنقل من ذلك المكان ، ولكنه غالبا ما يعود اليه ، ومن هنا كان المكان أكثرها التصاقا بشخصه ، وهو يتأثر به ويؤثر فيه . ولما كان السلوك الاجرامى يعتبر نتيجة لعمليات اسانية ونفسية داخل الفرد فلا بد أن يكون لها جذورها في حياته السابقة ، وهذه

(١٤) راجع في هذا الصدد ستيغاني وآخرين ص ٩٤ وما بعدها ، وكذلك بناتل ص ٧ وما بعدها وهو يقول ان البيئة في المعنى الدارج تفيد الوسط الخارجي المحيط بالشخص ولكن التخصيص يؤكدون في تحديد البيئة على الدور الإيجابي الذي يلعبه الوسط في صدد كل كائن يتحرك تحت سلطاته، وقد ادخل علم الاجتماع الحديث في تعريفه للوسط عنصرا جديدا يقتصر على الانسان دون غيره من الكائنات ، ويلهب ارنست سيلج (ص ٦ و ١٨٦) الى أن الاسباب المباشرة للجريمة تتركز في عنصرين الاول البيئة والآخر شخصية الجاني ، والبيئة تعني الظروف القائمة وقت ارتكاب الجريمة وتؤدي الى الفعل وتعمل تنفيذه ممكنا او يمتنع عن التنفيذ ، أما شخصية الجاني حين ارتكاب الجريمة فانها تتألف من مكونات شخصيته في الحياة .

(١٥) ستيغاني بند ١٠٠ .

الجلود تستوحى من المكان الذى يعيش فيه ، فهو يعرف عنه ما لا يعرفه عن مكان آخر ويتجاوب معه عاطفيا بما لا يحدث له في غيره . ويلزم أن يكون هناك نوع من الاتصال المستقر الثابت الذى يعطى فرصة كافية للقيم أو النماذج السلوكية لترسخ في نفس الفرد . وهذه القيم والنماذج السلوكية هي التى تحدد الطريق الذى يختاره الفرد في حياته . وعند تحديد معالم المكان الذى يكون له ذلك الأثر في الإنسان فإنه يعتبر بيئة له . على أن هذا لا يعنى أن تكون البيئة هي المكان الذى يقيم فيه الشخص دوما فلا يبرحه ، بل على العكس أن مقياسها هو درجة ما تتركه بصماتها على السلوك طالت مدة وجوده به أم قصرت . وعلى سبيل المثال يمكن اعتبار فترة الدراسة في إحدى مراحل التعليم بيئة للفرد خلال جزء من حياته لما تتركه من آثار في نفسه تنعكس على سلوكه .

وتمشيا مع سر الأمور الطبيعي في الحياة يمكن أن ينطوى تحت مصطلح البيئة ، الأسرة والمدرسة والعمل والطريق والحي الذى يوجد فيه الشخص والريف والحضر ، وجغرافية المنطقة من ناحية الجو وما يتبعه من مواسم زراعية أو تضاريس اليا بس والماء ذاتها ، لأن كلا من هذه العناصر قد يترك بصمته بصورة أو بأخرى على سلوك الفرد بصفة عامة ، والذي قد يكون اجراميا .

وإذا أردنا أن تكون لهذه الدراسة صورة واقعية ، فإننا نستعين بالأدوات المتاحة لذلك وهي الإحصائيات الجنائية التى ترسم حقيقة الجريمة وحجمها ، وعن طريقها يمكن الوصول إلى العوامل المتصلة بالبيئة ، وفي معرفتها ما قد يسهل البحث بعد ذلك في كيفية مقاومتها للتغلب عليها ، وبذا يكون الإقلال من حجم الجريمة . هذا مع التنويه بما يوجه إلى الإحصائيات الجنائية من نقد ، حيث تعتبر أرقامها تقريبية وتعطى مجرد مؤشر للباحث (١٦) .

ولقد تناولت دراسات الجريمة في البيئة صورتى الريف والحضر مع العناية بتحديد تلك الأماكن من الدولة وبيان صور الأجرام وحجمه وعوامله وخطورته في المدن الصغيرة منها والكبيرة ، مع مقابلة بينهما على أساس من نسبة تعداد السكان .

ومشكلة الجريمة في المدينة الكبيرة أكثر تعقيدا حيث لوحظ وجود مناطق خاصة ذات ثقافة إجرامية عالية لا سيما في أطراف المدن بالقرب من المناطق الصناعية حيث يستقر المهاجرون ، كما تبين تنوع صور الجريمة حسب موقعها من المدينة . وهذه الدراسات تقوم على أساس من البيئة الخاصة التى يختارها الباحث . واهتداء بهذا الاتجاه فإن البيئة العربية سواء في جمهورية مصر العربية أو غيرها تختلف عن البيئة في الدول الأجنبية المتقدمة ، وعلى سبيل المثال فإن مصر ما تزال - رغم تقدم بعض الصناعات - تعتمد أساسا على الثروة الزراعية في حين أن الصناعات متقدمة في الدول الغربية بدرجة مذهلة ، وكان من الطبيعي أن تختلف صورة الجريمة عندنا عن تلك التى تتوافر لديهم .

البيئة والجريمة

ويذهب بعض العلماء الى القول بأن الفوارق بين الاجرام في الريف والاحرام في الحضر سوف تقل بمرور الأيام بسبب تقدم المدنية في الحياة الحديثة ، لسهولة المواصلات بين البلاد وانتشار وسائل الاعلام وأثرها في العلاقات بين الناس وبالتالي في الاجرام . وهذا القول ان كان فيه بعض الحقيقة الا أن هذا التفسير يراد به أن يشتد التقارب بين الريف والحضر ، وهو يحتاج في مصر بالذات الى أجيال عدة. ويرجع هذا الى أن العماد الأساسي لغالبية الشعب في عمله هو الزراعة ، وهذه مسألة خلقتها الطبيعة ولن تغيرها الأيام ، وقد نشأ الفلاحون وتربوا على تقاليد تمتد جذورها الى آلاف السنين ، وليس من اليسير تغييرها مهما امتدت وسائل المدنية الى أقصى القرى ، لأن المطلوب هو تغيير النفس البشرية . وآية ما نذهب اليه هو ما كشفت عنه الاحصائيات الجنائية بوضوح حيث تبين أن الجرائم الدموية التي يعتدى فيها على الأشخاص تمثلت في الريف في العشرينات والثلاثينات والأربعينات والسبعينات ، والجرائم التي يكون موضوعها المال ويراد بها الكسب هي سمة اجرام المدنية .

ويبين الجدول التالي جنایات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٣٨ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٤ ، وذلك وفقا لما وقع منها في محافظات القاهرة والاسكندرية ، ثم محافظات الوجه البحري ومحافظات الوجه القبلي :

السنة	١٩٣٨	١٩٤٨	١٩٥٨	١٩٦٨	١٩٧٤
المكان					
القاهرة والاسكندرية	٢٩٩	٢٦٣	١٩٢	١٧٨	١٢٩
الوجه البحري	١١٣٧	٧٧٩	٨٨٧	٣١٥	٣٥٣
الوجه القبلي	١٨٧٠	١٤٥٨	١٨٣٣	٧٢٩	٧٧١

ويكتشف هذا الجدول عن أنه الى حوالى أربعين عاما مضت زادت جنایات القتل العمد والشروع فيه في الوجه القبلي عنها في الوجه البحري ، رغم تدرجها الى خاصية النزول في كل من الوجهين البحري والقبلي ومحافظتي القاهرة والاسكندرية. هذا مع ملاحظة أن تعداد سكان الوجه البحري يزيد على عدد سكان الوجه القبلي ، ويمكن رد النتيجة التي تبين من الجدول الى عادة الأثر التي ما تزال قائمة بين أهالي البلاد ، ويتضح هذا من الاحصاء الجنائي الذي يوضح الدوافع التي تبرز خلف جرائم القتل . وبمراجعة جدول جنایات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٢٧ حتى ١٩٣٣ في بعض بلاد الحضر والريف - والذي يأتي بيانه - يتضح أن الجزء الأكبر من هذه الجرائم ما زال مسيطرا على المناطق الريفية. وتتناول فيما يلي عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة في البيئة .

عوامل طبيعة البيئة *

نقصد بطبيعة البيئة ما تختص به منطقة معينة من ظروف خلقها الله سبحانه وتعالى ولا دخل لارادة الانسان فيها ، ويمكن اعتبار العوامل الطبيعية في ذات الوقت عوامل جغرافية . ويندرج تحت تلك العوامل جغرافية الارض من ناحية اليابس والماء والسهول والمرتفعات ، وتعاقب الليل والنهار ، وحرارة الجو وبرودته ، والأمطار والجفاف بما يترتب على هذا من المواسم الزراعية.

ولقد استلقت حرارة الجو وبرودته وآثارها على الجريمة أنظار الباحثين ، وقيل أن الجو الحار يساعد على توتر الاعصاب ويضيف تحكم الانسان في ارادته لما يصنعه من ضيق في التنفس، فتكون انعكاسات الظروف التي تتصل بالفرسريعة دون ترو أو تفكير ، وعنيفة تخرج عن التقدير المألوف ، هذا اذا كانت درجة الحرارة في حدود المعقول ، اما اذا زادت عما يتحملة الانسان عادة فان أثرها يكون عكسيا ، اذ يترتب عليها الخمول وقلة الحركة ، وقليل ما يسلك الفرد سلوكا عدوانيا ، وفي الجو البارد تنعكس الآلية فتكون اعصاب الانسان أكثر هدوءا وتصرفاته أكثر اندفاعا ، بل ان البرد في حد ذاته ، اذا زاد عن المألوف ، يدفع الفرد الى الانزواء في الاماكن الدافئة ، ومن ثم يقل اتصاله بالناس ، وتبعاً لذلك يقل الاحتكاك الذي قد يؤدي الى السلوك الاجرامي .

وهذا الذي سقناه انما يخص الجرائم التي تمس سلامة الجسم ، كالقتل والضرب ، وتنعكس الآية بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال ، فهي تقل في الجو الحار وتزيد في الجو البارد ، وبمعنى آخر تقل في شهور الصيف وتزيد في شهور الشتاء، ذلك ان حرارة الجو من شأنها ان تقلل من نوم الافراد ، الامر الذي يجعل الظروف غير مواتية لارتكاب الجرائم ضد المال ، وعلى وجه الخصوص جرائم السرقات . أما برودة الجو في الشتاء فان الليل وانكماش الناس طلباً للدفع يتيح الفرصة للمجرمين - لا سيما اللصوص - لارتكاب جرائمهم .

ومع هذا فانه لا يمكن القطع بأن حرارة الجو أو برودته عامل أساسي في الاجرام ، وانما قد تكون طرفاً مساعداً له يرتبط بغيره من الظروف التي تؤدي الى الجريمة . فاذا كانت بعض الابحاث قد اثبتت زيادة الجرائم ضد الاشخاص في الصيف وزيادة الجرائم ضد الاموال في الشتاء بما يتفق مع اثر الحرارة في خط سير الجريمة ، فهناك من يقول بأن الجرائم تزيد في الصيف لان الناس أكثر اتصالاً في الصيف مع بعضهم ، الامر الذي يدعو لبحث ما اذا كانت للحرارة آثار على البناء الانساني ، ثم يأتي بعد هذا البحث الاكثر اهمية وهو قيام الصعوبة في وسيلة التغلب على هذا التأثير على البناء الانساني (١٧) .

واذا نظرنا الى واقع مصر وجدنا أن جوها بصفة عامة معتدل ، ومع هذا فان جو الصيف بعد حاراً نسبياً في حين أن الشتاء متميز بالبرد نسبياً ، هذا فضلاً عن أن الجو في بلاد الوجهه

البيئة والجريمة

البحري أقل حرارة عن بلاد الوجه القبلي . ولا ينبغي علينا ان نغفل في هذا المقام عادات اهل البلاد من تركهم لدورهم في الصيف والمبيت على أسطحهما مما يترتب عليه سهولة اقتناص الفريسة في جرائم القتل اخذاً بالثأر ، وصعوبة ارتكاب السرقات حيث يصعب على اللص الوصول الى داخل الدار، كل هذا بعكس الشتاء .

ولو اردنا ترجمة أثر حرارة الجو في ارتكاب جريمة القتل العمد على اساس ما يقع بالمحافظات في مصر بالوجهين البحرى والقبلى من جرائم لتبين من الاحصائيات الجنائية أن جنایات القتل والضرب المفضي الى الموت ، والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة غالباً ما تقع في شهور الصيف ، كما أن نسبتها في محافظات الوجه القبلي أعلى منها في محافظات الوجه البحرى ، الا أنه لا يمكن اسناد هذه الظاهرة الى حرارة الجو وحدها ، ذلك أن هناك من الزراعات خلال شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر ما يكون عالياً ويساعد على اقتناص المجني عليه كما يساعد على هروب الجاني ، بعكس باقى شهور السنة ، ولا يجب أن ننسى عواقب الثأر وما يقتضيه من ارتكاب جرائم القتل في المواسم والاعياد الدينية ، وعرف الثأر هو الذى جعل جنایات القتل العمد تزيد في الوجه القبلي عنها في الوجه البحرى . اما بالنسبة الى جرائم المال فلا يمكن أن يستشف من الاحصائيات قاعدة عامة يمكن ربطها بحرارة الجو أو برودته ، ومما يستلفت النظر في الاحصائيات ارتفاع نسبة الجرائم الجنسية في الجو المعتدل .

ولعل أقل عوامل الطبيعة تأثيراً في وقوع الجريمة هو وقت وقوعها ، فهي تحدث في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار . ومع هذا فإن هناك من الجرائم ما يكون اختيار الجاني لوقت ارتكابها ليلاً مما يساعده على اتمامها في الخفاء والافلات من يد العدالة ، فالليل هو وقت الهدوء والنوم للناس بعد عنائهم من العمل ، يعمل فيه المجرمون وهم في مأمن كبير من اعين الرقباء ، وليست الجرائم على درجة واحدة من اختيار الليل لارتكابها وانما يختلف الامر وفقاً لموضوع الجريمة . فالجرائم التى يراد منها الاعتداء على الأشخاص لن يوفر الليل لها ظرفاً خاصاً الا في صور مستثناة أبرزها القتل اخذاً بالثأر أو انتقاماً ، ولهذا يستوى أن يقع في الليل أو في النهار . اما الجرائم التى يكون موضوعها الاعتداء على المال فإن الجاني غالباً ما يتخذ من الليل ستاراً لارتكاب فعلته ، وهو ما حدا بالمشرع الى اعتبار الليل ظرفاً مشدداً في تلك الجرائم .

ويبين من الاحصائيات الجنائية في مصر عن السنوات من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ ان جنایات القتل العمد والخطف تزيد نهاراً عنها ليلاً ، وأن جنایات السرقة وجنایات الحريق وجنح السرقة تزيد ليلاً عنها نهاراً ، وهو أمر ملاحظ بصفة مضطردة خلال الخمس سنوات السابقة . على أن هذا لا يقطع بأثر ظرف الليل على تلك الجرائم ، فلقد كان الأمر مغايراً لما تقدم في الثلاثينات بالنسبة لجرائم القتل العمد ، فلقد بلغ مجموع ما وقع فيها ليلاً في السنوات العشر من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٩ أكثر من ضعف مجموع الجنایات نهاراً ، ثم أنه فضلاً عما تقدم فإن النهار - ونقص به فترة انتشار الضوء - يطول كثيراً بالنسبة الى الليل - أى وقت الاظلام - خلال شهور الصيف ، على العكس من شهور الشتاء ، وهو ما ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار عند حساب عدد الجرائم .

ويعيننا على وجه الخصوص العلاقة بين طبيعة البيئة والجريمة في المواسم الزراعية والطبيعة الجغرافية للأرض .

المواسم الزراعية :

تعتمد مصر في الجانب الأكبر من اقتصادها على الانتاج الزراعى، وغالبية سكانها من الفلاحين الذين يعتمدون في حياتهم على الزراعة ، وتسم الزراعة في مصر في ثلاث دورات رئيسية : الصيف والقبلى والشتوى ، وتعتمد الأراضي الزراعية في ربحها على مياه النيل ، وإذا كان عماد الفلاح في حياته على الزراعة ، وحياة الزراعة متوقفة على الماء ، لتصورنا مدى اثر الزراعة والمياه في حياة الفلاح . والزراعة في مصر قد تكون سببا مباشرا للجريمة ، وهي كذلك ظرف مهيء لارتكاب الجرائم .

فالفلاح المصرى يحرص على زراعته حرصه على حياته، وأى ضرر أو اذى يصيبها انما يصيبه في قوام معيشته ، والعدوان على زراعة الفلاح يتمثل في قطعة الأرض التى يقوم بزراعتها والحياة التى تستخدم في ربحها . والرقعة الزراعية في مصر محدودة ولا تتجاوز ٤ ٪ من مساحة الدولة كلها . ولهذا فان ما يضع الفلاح يده عليها منها يحرص ويتفانى في المحافظة عليه ، وأى مساس بالأرض التى يزرعها يدفع به الى حمايتها بالدرجة ارتكاب أخطر الجرائم : ويتمثل ذلك المساس في صورة من اثنتين الأولى منهما محاولة من جانب المالك أو نحوه رفع يده عن أرضه لأى سبب من الاسباب المشروعة وغير المشروعة ، **والصورة الأخرى** محاولة بعض الجيران الافتئات على الحدود للأراضي الزراعية ، وضم بعض الأرض الى الجزء من الأرض الذى يحوزه .

أما بالنسبة الى مياه الري فانه الى ما قبل اقامة السد العالي كان هناك موسم فيضان النيل . حيث تتوافر المياه فيستطيع كل فلاح رى أرضه في يسر وسهولة ، وهناك الموسم المقابل الذى تقل فيه المياه وتقوم فيه الحكومة بتوزيع مياه الري على البلاد في فترات محددة ، في خلال تلك الفترات التى كثيرا ما تكون قصيرة فيحصل التراحم بين الفلاحين حول أسبقية الري ، ومن الطبيعى أن يحصل الخلاف حول هذا الأمر الحيوى الهام الذى قد يتطور الى معارك تنشأ عنها أخطر الجرائم .

هذا عدا ما يمكن أن يحدث من جرائم لأسباب أخرى ، كالخلاف حول قيمة الإيجار أو المزارعة ، أو طرد مستأجر من أرضه ، أو توقيع حجوزات على المحصولات الزراعية ، أو الخلاف حول استخدام أدوات الزراعة أو أدوات الري كالألات الميكانيكية أو أدوات رفع المياه . وقد تكون الماشية التى تستخدم في الزراعة سببا لبعض الجرائم ، لا سيما عند الخلاف على استعمالها ، بل قد تكون هي بذاتها موضوعا لجريمة ، كالأضرار بها ضررا جسيما أو قتلها .

والمواسم الزراعية هي بدورها عامل مهيء للأجرام، ففي شهور الصيف على وجه الخصوص يكون انتاج بعض المحصولات الزراعية والاعداد لأنواع أخرى من الزراعة . ولهذا فانه اذا كان

البيئة والجريمة

قد سبق القول بأن حرارة الجو في شهور الصيف من عوامل الاجرام فان الظروف الزراعية بدورها تعد من عوامله . ففي شهر مايو يكون حصد القمح ووضعه في الأجران تمهيدا لعملية فصل حبه عن قشه ، وتكون الفرصة مواتية حينئذ لارتكاب جرائم الحريق ، لا سيما ما كان منها انتقاما ، وسرقة المحصولات ، بل والقتل ، حيث يتيسر اقتناص المجنى عليهم بسبب عادة الفلاحين بالمبيت في الأجران اثناء جمع المحاصيل . وفي شهر مايو أيضا تكون شجيرات القطن قد اخذت تكسو الأرض ويكون اشد ما يصيب الفلاح اطلاقها انتقاما . وفي أغسطس وسبتمبر يجنى القطن ويحصد الدرة ، مما يسفر عن ارتكاب اخطر جرائم السرقات بالنسبة الى محصول القطن ، وكثيرا ما تكون مصحوبة بجرائم القتل نتيجة للمقاومة . وفي فترات بلر البذور يكون الخلاف بين الفلاحين ، لا سيما حول الحدود ، بما يؤدي الى اخطر الجرائم ، فيبذر الدرة الشامي في سبتمبر ويبذر القمح والفلو والبرسيم في اكتوبر . ومما يلاحظ أيضا ان الدرة الصيفية خلال يونيو ويوليو وأغسطس تكون متكاثفة الأعواد طويلة السيقان ، ويقابلها في موسم الشتاء زراعة القصب الذي يفرس في مارس وابريل ويحصد في ديسمبر في الوجه القبلى . فالسيقان الطويلة تساعد على ارتكاب جرائم القتل حيث يتيسر للجناة الاختفاء بها والهرب بعد ارتكاب الجريمة ، كما أن هذه الحقول تكون موضوعا لجرائم الحريق .

ويعطى الجدول التالى صورة عن جنايات الحريق العمد خلال السنوات ١٩٧٢ و ١٩٧٣ و ١٩٧٤ (١٨) :

السنة	مجموع الجرائم	وقت الجريمة		الاثام		أعلى شهور السنة مرتبة تنازليا			مكان الحريق تنازليا			محل وقوع الجريمة تنازليا		
		نهارا	ليلا	مجهول	معلوم	١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢	٣
١٩٧٢	٧٨	٣٥	٤٣	٤٦	٣٢	مايو	يونييه	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٣	٦٦	٢٢	٤٤	٤٣	٢٣	مايو	ابريل	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٤	٣٧	١٣	٢٤	٢٥	١٢	مايو	يناير	يونييه	مسكن	شركة	مزارع	أثاث	مدارسية	بضائع

وأعلى نسبة لحرفة المهتمين هي للمستغلين بالأعمال الزراعية والصيد في البحر والبر وأعمال الغابة ومن اليهم ، وبعدهم أصحاب الحرف والصناع والعمال والمستغلين في عملية الانتاج والفلة والعتالين ، والذين لم يصنفوا في مكان آخر .

يتضح من الجدول آنف البيان أن صور جريمة القتل العمد تحتل المزارع بالنسبة الى المكان المركز الثاني أو الثالث ، وأن موضوع الجريمة وكونه محاصيل زراعية يحتل بدوره المركز الثاني ، وأن الجريمة غالبا ما تقع في شهور الصيف ، الأمر الذي يدل على وجود علاقة كبيرة بين المواسم الزراعية وانتاج الحاصلات وجريمة الحريق .

ولا تختلف الصورة بالنسبة الى جنائية اتلاف المزروعات وفق الجدول التالي :

السنة	مجموع الجنائيات	وقت الجريمة	الانتهام		أعلن شهور السنة تنازليا		
			مجهول	معلوم	١	٢	٣
١٩٧٢	٧	٧	-	٦	يوليو	أغسطس	سبتمبر
١٩٧٣	١٧	١٦	١	١٥	يوليو	يوليو	أبريل
١٩٧٤	٧	٦	١	٦	أغسطس	يوليو	مايو

ويتضح من هذا الجدول أن شهور المواسم الزراعية هي التي تقع فيها جرائم اتلاف المزروعات ، وأن المتهمين ان لم يكونوا كلهم من المشتغلين بالاعمال الزراعية فانهم يمثلون الغالبية ، والجزء الاكبر من جنائيات اتلاف المزروعات يتم ليلا ، ولذلك فان الاتهام فيها يكون نادرا أو غالبا ما تحفظ القضايا مؤقتا لعدم معرفة الفاعل .

وضيق رقعة الارض الزراعية ، وما يتركه من اثر في الحياة الاقتصادية ربط بينه وبين نوع من الزراعات طويلة السيقان ، وأفرخ نوعا معيناً من الجرائم هي جرائم الخطف ابتغاء الحصول على فدية من ذوى المجنى عليه . وقد تركزت جنائيات الخطف في مصر في محافظات المنيا واسيوط وسوهاج وقنا بوجه خاص ، حيث تكونت عصابات الخطف المسلحة التي يهدف أفرادها الحصول على المال ، وغالبية المجنى عليهم في تلك الجرائم من البالغين ، وتتراوح الفدية للأفراج عن المخطوف بين مائة و ألف جنيه . وقد ساعدت أنواع معينة من الزراعات ذات السيقان الطويلة على نشأة ما يسمى بالعصابات الموسمية حيث توجد في مواسم زراعية معينة وتنتهي بانتهاء الموسم . ويسهل اختفاء الجناة واخفاء المجنى عليهم في تلك الزراعات ، كزراعات القصب في محافظة قنا وزراعات الدرة في محافظتي أسبوط وسوهاج (١٩) .

والى جوار هذا توجد العصابات المحترفة التي تتكون من بعض الخارجين على القانون وتبقى بصفة دائمة ، يستغلون بدورهم المواسم الزراعية في ارتكاب جرائم الخطف ، ويعتصمون بالجبال حيث يقيمون اقامة دائمة . وهي تتركز في محافظتي أسبوط وسوهاج . ويحول مكان اقامتهم

البيئة والجريمة

دون وصول رجال الشرطة اليهم، بسبب وجود المغارات والدروب التي يجهلونها ، والتي يعتصم بها المجرمون ويقيمون في أعلى الجبال ، حتى تستهلك مطاردتهم جهدا كبيرا من رجال الامن ، ويستطيعون من اماكنهم السيطرة على كل قوة مهاجمة لهم (٢٠) .

جغرافية البيئة :

الانسان هو الشق الاصلى في الظاهرة الاجرامية وهو العامل المحرك للحدث المكون للشق الثانى ، اى الجريمة حسبما وقعت في المحيط الخارجى، والانسان وليد البيئة والظروف المحيطة به، بمعنى أن ظروف البيئة هي التي تهىء السلوك الانسانى على نحو معين ، لدرجة أنه يمكن القول بأن تغير الظروف من شأنه أن يؤدي بدوره الى تغير السلوك الانسانى سواء في هذا اكان سلوكا حميدا أو سلوكا غير قويم . والانسان في هذا الصدد شأنه شأن بذرة النبات فانها ان وضعت في الارض فقد تصادف تربة صالحة تتفاعل معها وتنبت وتستوى نباتا سليما ، أو لا تصادف هذه التربة فتنشأ معتلة ان لم يقدر لها عدم النبت اطلاقا بسبب عدم ملائمة الظروف التي وجدت فيها . وكما يقال ان لكل بيئة أو مجتمع الجريمة التي تتوافق معه .

وامعمال القاعدة آتفة البيان لا بد وان ينتهى بنا الى أن الانسان لو شاء له قدره أن يسلك سبيل الجريمة فان اختيار نوعيتها يكون متوائما مع طبيعة المكان الذى يوجد فيه والظروف المحيطة به . فمثلا اذا كان الفرد يشغل بالأعمال الزراعية فان الجرائم التي يرتكبها تكون في نطاق تلك الاعمال ، ومن هذا القبيل بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال جرائم اتلاف المروعات وطريق المحصولات . واذا كان الشخص عاملا فنيا ذهب جرائمه نحو الاعمال الصناعية التي تتعلق بالمصانع الصغيرة والورش ، واذا كان يعمل بالخدمة لدى الافراد كانت جريمته في غالب الاحيان سرقة مال مخدمه .

ومما يتصل بالبيئة في صدد تحديد السلوك الاجرامى الذى يتخذه الشخص هي الطبيعة الجغرافية للبيئة التي يوجد فيها ونقصد بهذا طبيعة الارض، وما اذا كانت زراعية أم صحراوية أو مسطحات من المياه (٢١) ، وكذلك يراد بذلك الموقع من حدود الدولة لما يساعده من وقوع نوع خاص من الجرائم . ولقد سبق أن اشرنا عند الكلام على جريمة الخطف كيف يتخذ الجناة من البيئة الزراعية السيقان الطويلة لارتكاب الجريمة، ومن الجبال والمغارات اماكن اخفاء المجنى عليهم واختفائهم هم، عن اعين رجال الامن ومقاومة كل من يتصدى لقرهم . وقد لاحظنا أن جريمة الخطف استيفاء اقتضاء فدية تتركز في المحافظات المتاخمة للمناطق الجبلية .

(٢٠) ومن بين تلك العصابات عصابة الخطف في اسبوط سنة ١٩٤٥ ، وعصابة حامد الامى بمحافظة سوهاج سنة ١٩٤٦ ، وعصابة مصطفى هاشم رشيد المصعدي بمحافظة سوهاج سنة ١٩٥٦ الى سنة ١٩٦١ (المرجع السابق ص ٢٩) .

(٢١) فعلى ما سبق القول لمت كاتليه النظر الى جغرافية الجريمة وطريقة الحياة والتفكير العام وانها تختلف في الجبال عنها في السهول الزراعية او المناطق البحرية حيث يوجد جمهور الصيادين (ستيغاني وليفاسير ص ٨٠) .

وإذا كانت غالبية سكان جمهورية مصر العربية يعتمدون في وادى النيل - أى فى الأرض الزراعية على شاطئى النيل - والجرائم التى ترتكب من بعض أفرادها أما أن تتسم بطابع الريف أو تكون من جرائم الحضر ، فإنه الى جوار هذا يوجد فريق من السكان يقيمون فى الصحراء أو هم على حدود المناطق الزراعية ، وكذلك يقيم فريق آخر على شواطئ البحيرات الواقعة فى شمال الجمهورية . وتطبع الطبيعة الجغرافية لتلك المناطق نوعية الجرائم التى ترتكب فيها . وآية هذا دراسة عن سمات الجريمة فى محافظة البحيرة وأخرى لسمات الجريمة فى بحيرة المنزلة .

تتميز محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية (٢٢) بأنها تضم داخل حدودها منطقة ساحلية متصلة بالبحر الأبيض المتوسط ، وأخرى زراعية تتصل بباقي الاراضى الزراعية الدلتا ، وثالثة صحراوية كمدخل للصحراء الغربية ، ولهذه المحافظة خاصية أخرى حيث تعتبر منطقة هجرة داخلية حيث يجرى فيها استصلاح الاراضى القابلة للزراعة ، ويوجد بها بحيرتان متسعتان هما بحيرتا ادكو ومربوط . ومن الطبيعى أن يترتب على هذه الطبيعة المختلفة فى جغرافية الأرض وجود فئات من السكان يختلف عمل البعض منهم عن الآخر ، فكما يوجد الفلاحون يوجد البدو ، وكذلك نجد من يشتغل بأعمال الصناعة المختلفة التى قامت فى هذه المنطقة .

ويعنينا فى محافظة البحيرة الاقليم الصحراوى منها الذى يقطنه نوعان من القبائل ، قبائل مستقرة وقبائل رحل ، وهم جميعا يغلب عليهم الفقر بسبب ضيق مصادر الرزق ، ومن ثم فهم غالبا لا يستقرون فى مكان وان كانوا يتمسكون دوماً بانتسابهم القبلى وخضوعهم لعرف القبيلة وبعدهم عن أجهزة الدولة ، ومن ثم تتسم جرائمهم بالطابع القبلى والمتفق مع جغرافية الصحراء . هذا وقد ظهر من استقرار الحوادث فى تلك البيئة الصحراوية (٢٣) أن جرائم القتل والشروع فيه ترجع دوافعها الى السرقة أو الثأر أو النزاع الطارىء أو النزاع على الأرض، وغالبيتها من نوع الجرائم الانتقامية . وكانت طبيعة هذه المحافظة ومشروعات استصلاح الاراضى الصحراوية وزراعتها مما دعا الى تهجير عديد من الافراد وعمل الترحيل اليها لاسيما بعد حرب ١٩٦٧ ، وادى هذا الى ازدياد مستمر فى معدل جرائم القتل العمد والشروع فيه والضرب المفضى الى الموت والذى ينشأ عنه عاهة مستديمة والسرقات بالاكراه والحريق العمد والاختلاس .

وأبرز الجنايات وضوحا فى جغرافية محافظة البحيرة هي جنايات سرقات الاسلاك والكابلات ، حيث كان عددها ست جنايات عام ١٩٧١ وأصبحت ١٥ جناية عام ١٩٧٢ و ٢٠ جناية عام ١٩٧٣ ثم نقصت الى ٥ جنايات عام ١٩٧٤ . وترجع تلك الجرائم الى اتساع رقعة المحافظة ومتاخمة حدودها لخمس محافظات ، وامتداد الأسلاك التليفونية والكابلات لمسافات طويلة فى مناطق

(٢٢) عبد العزيز محمد القطنى ص ٣٦ .

(٢٣) عبد العزيز محمد القطنى ص ٤١ .

البيئة والجريمة

غير أهلة بالسكان ، ويصعب وضع حراسة عليها بالامكانيات المحلية ، ودخول الكهرباء لبعض قرى المحافظة مما دفع بعض العمال الى سرقة الاسلاك التليفونية واستخدامها في توصيل الكهرباء لمنازل بعض المقيمين بتلك القرى .

ويبدو ان جغرافية المحافظة على وجه خاص في صدد اتصالها بحدود الصحراء الغربية ، حيث تكون هي المدخل لارتكاب جرائم المخدرات لا سيما جلب المواد المخدرة ، وبين هذا بوضوح من مقارنة تقريبية لجنايات المخدرات في محافظات البحيرة والشرقية والاسكندرية لاتصالها بالحدود ، وبين محافظات القليوبية وكفر الشيخ والمنوفية وبنى سويف والمنيا خلال عامي ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ .

السنة	١٩٧٣	١٩٧٤
المحافظة		
البحيرة	١١٤	١١٤
الشرقية	٣٤٤	٢٩٨
الاسكندرية	٤٠٢	٤٠٣
القليوبية	١٢٨	٨٣
كفر الشيخ	٥٣	٣٠
المنوفية	٧٠	٦٦
بنى سويف	٤١	٣٨
المنيا	٨٩	٥٩
قنا	٦١	٦٢

والمثال الثاني لاثار البيئة في السلوك الاجرامى يتضح من دراسة سمات الجريمة في بحيرة المنزلة . فهذه البحيرة التي تزيد مساحتها على ثلاثمائة ألف فدان تم تجفيف جزء صغير منها ، وتدخل في حدود خمس محافظات بمصر الشرقية والدقهلية ودمنياط وبورسعيد والاسماعيلية ، ويوجد داخل البحيرة العديد من الجزر الطينية والرملية . وتنمو النباتات بكثرة في الاراضى المحيطة بالبحيرة في حزام عريض يغطيه الماء على شاطئ البحيرة ومثبتة في القاع فضلا عن نباتات طافية على سطح البحيرة . وهناك عديد من أنواع الطيور المائية وهذه قد تكون من عوامل السلوك الاجرامى بسبب التنافس على صيدها باعتبارها موردا للرزق كالشأن بالنسبة لاسماك البحيرة . ونظرا للطبيعة الخاصة لبحيرة المنزلة كان من الضروري ان تكون سمات الجريمة متوائمة مع تلك البيئة وهو ما يتضح من النقاط التالية .

ترتكب أغلب جرائم القتل على سطح الماء حيث يتم اخفاء الجثة في باطن البحيرة بعد تنفيذ القتل . وتنتشر جرائم الخطف حيث يسهل اخفاء المجنى عليه في الجزر العديدة المنتشرة داخل البحيرة والتي لا يمكن حصرها أو كشفها بسبب حجبها بالحشائش والنباتات المائية ، وتجعل من العسير الوصول اليها . ولذلك السبب يسهل ارتكاب جرائم السرقات وعلى وجه الخصوص اخفاء المسروقات . وكذلك الحال بالنسبة الى الجرائم الخفية حيث يسهل تهئية المكان لها في البحيرة بعيدا عن مراقبة الشرطة ، وكذلك بالنسبة لتعاطي المخدرات ، وأخطر الجرائم التي ترتكب

في البحيرة هي جرائم التهريب سواء كان موضوعها الأسلحة والذخائر أو المخدرات أو المحصولات والسلع التموينية (٢٤) . ومن أبرز الجرائم كذلك ما يخالف أحكام قوانين الصيد وتراخيص الوحدات المائية لجرائم صيد الأسماك بالمخالفة لمواصفات المقاس والطول واستعمال مراكب الصيد بدون ترخيص ، ومزاولة صيد الطيور بدون ترخيص . ومن أهم الجرائم سرقات الماشية بمعرفة عصابت مسلحة حيث تجرى سرقتها من القرى المتاخمة للبحيرة ، ثم اخفائها في الجزر داخل البحيرة حتى لا يسهل الوصول إليها . ويبين هذا من الجدول التالي الذي يبين جنح سرقة المواشي في مركز المنزلة بالنسبة إلى جملة الجنح به خلال المدة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٥ (٢٥) .

السنة	جنح سرقة المواشي	مجموع الجنح عامة
١٩٧١	١٦	٣٦
١٩٧٢	١٢	٤٣
١٩٧٣	٩	٤٠
١٩٧٤	١	٤
١٩٧٥	٩	١٥

والموقع الجغرافي لبحيرة المنزلة أثره في السلوك الإجرامي والحد من قدرة رجال الأمن على مكافحته ، حيث يساعد هذا الموقع على صعوبة الوصول إليها وخاصة في فصل الشتاء نتيجة عدم صلاحية الطرق المؤدية إلى هناك ، وكثرة الأمطار والأحوال التي كثيرا ما تعرقل عمل رجال الحفظ عن مطاردة المجرمين والقيام بالدوريات ، فضلا عن انعدام الوسائل لدى الشرطة للتعامل فوق السطح المائي ، الأمر الذي يشجع المجرمين على ارتكاب الجرائم والاختفاء داخل جزر وأحراش الجزيرة (٢٦) .

وقد أسفر موقع بحيرة المنزلة وطبيعتها الجغرافية عن اعتماد غالبية الأهالي في معيشتهم على الصيد ، وهي مهنة غير ذات مورد ثابت ، وقد لا تفي بالاحتياجات الضرورية للمعيشة ، وقد ارتبط هذا بالجهل الذي لا يقف حائلا أمام النزعات الإجرامية للفرد ، وآية هذا أن غالبية المحكوم عليهم في القضايا من الفقراء المعدمين (٢٧) .

وتركزت عوامل الإجرام في بحيرة المنزلة حول عوامل ساعدت عليها البيئة الجغرافية للمنطقة (٢٨) ، ذلك بسبب سعة مساحة البحيرة التي يقع بها أربع مائة وخمسون جزيرة أهلة

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦ وما بعدها .

(٢٥) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢٦) المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٣ .

البيئة والجريمة

بالسكان ، يتنافس الأهالي فيها على وضع اليد على تلك الجزر واستغلالها استغلالا غير مشروع ، بما يسفر عن ارتكاب جرائم القتل والشروع فيه ، هذا بالإضافة الى التنافس على مناطق الصيد ، وسهولة السطو على المراكب بواسطة العصابات المسلحة واخفاء المروقات واختفاء الأشقياء .

ولا شك في أن الموقع الجغرافي لحدود الدولة يساعد على ارتكاب أنواع معينة من الجرائم ، وعلى سبيل المثال في الجمهورية العربية الليبية تقع محافظة غربان في الجنوب الغربي من الجمهورية ، وتشترك في حدودها مع تونس والجزائر ، وقد ترتب على هذا أن ظهرت فيها جريمة التهريب ودخول البلاد بوجه غير شرعي . فيعمد البعض الى اتخاذ التجارة في السلع المهربة موردا لهم ، خصوصا بالنسبة الى مواد التموين والسلع الكهربائية والملابس الى آخره . وهم يستخدمون في ارتكاب الجرائم السيارات ، بل يستخدمون الدواب في المناطق الجبلية . ومن ناحية أخرى فان توافر فرص العمل وارتفاع الأجور يحمل على مخالفة القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٦٢ ، بشأن دخول البلاد . وبالإضافة الى ما تقدم فان منافذ الخروج أو الدخول الى البلاد تكون محلا لارتكاب نوعيات خاصة من الجرائم تقع جرائم جلب المواد المخدرة عن طريق الموانئ والمطارات (٢٩) .

بيئة الريف والحضر :

قلنا في أكثر من مناسبة ان الانسان كائن حي ينفعل ويتفاعل مع الوسط الذي يوجد فيه والبيئة المحيطة به بما تحويه من كائنات وعوامل طبيعية . ومن المشاهد دائما أن كل مجموعة من الأفراد توجد في مكان ما وترتبط بينها ظروف متقاربة يتسم سلوك أفرادها بقواعد متقاربة نتيجة لما استقر في نفوسهم - ومن قبلهم أصولهم - من مجابهة مختلف شئون الحياة بتصرف معين ، ومن هنا تنشأ لكل بيئة تقاليد خاصة تحكم العلاقة بين أفرادها تلقائيا دون اجتهاد من جانبهم لمعرفة الطريق الذي ينبغي سلوكه . ولا شك في اختلاف كل بيئة عن الأخرى في بعض ظروفها وتبعات طريق سلوكها ، فليس هناك من بيئة تطابق غيرها مطابقة تامة ، على أن هذا لا يمنع من التقارب بين بعض البيئات مادامت تتحد في السمات الأساسية لكل منها .

وأبرز أنواع التفرقة البيئية بمصر هي البيئة الريفية والبيئة الحضرية بما ينعكس أثره على سمات الاجرام في الريف وفي المدن ، بسبب التقاليد الراسخة في الريف والصيغة المادية التي يتسم بها السلوك في المدن (٣٠) . هذا بالإضافة الى وجود البيئة الصحراوية أو البدوية التي تحكمها تقاليد خاصة . وللتفرقة بين القرية والمدينة أثرها في جرائم القتل بوجه خاص وعادة

(٢٩) منصور غيث قنديل ، وقد أورد ان جرائم المخدرات في عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ في طرابلس هي ٧ ، ٢٤ وفي بنغازي هي ٢٤ و ٤٤ على التوالي .

(٣٠) راجع ما سبق لنا ذكره عند الكلام عن المقصود بالبيئة في موطن البحث .

الثار المتأصلة في نفس أهل الريف ، وكذلك فيما يتسم به اجرام المرأة والأحداث في كل من البيئتين .

وتذهب آراء الباحثين في الغرب الى تأييد التفرقة بين اجرام الريف واجرام الحضرساء من ناحية النوعية أو طريقة التنفيذ ، فطابع الاجرام في الريف هو الاعتداء على الأشخاص في حين أن طابع اجرام المدينة هو جرائم المال ، فضلا عن الوسائل المستخدمة في طريقة تنفيذ الجريمة في كل من المنطقتين . ويقف بعض العلماء من هذه النتائج موقف المعارضة ، ومع هذا فليست هناك أدلة علمية قاطعة على ذلك (٢١)

ان الحياة في القرية المصرية تختلف عن الحياة في المدينة اختلافا كليا ويرجع هذا في أساسه الى اختلاف تكوين كل منهما ، ففي القرية المصرية يسيطر على العلاقات بين أفرادها الى اليوم مبدأ التعاون ، وذلك للروابط الوثيقة بين عائلاتها والمصالح المشتركة التي تجمعهم وطبيعة الحياة التي يعيشونها ، ولعلنا نلاحظ هذا في تضايف أبناء القرية نحو أى خطب يقع بواحد منهم . أما في المدينة فالأمر على خلاف ذلك حيث تسيطر النزعة الفردية على العلاقات بين أفرادها وتقل الصلات حتى بين أفراد العائلة الواحدة ، وكلما اتسع العمران وزادت مشاغل الناس في المدينة وهنت العلاقات والاتصالات . هذا من ناحية ، وإلى جوارها يقوم الجهل أو التعليم كعامل هام في التفرقة ، فلا شك أن نسبة الجهل التي تسود مجتمع القرية أكبر بكثير من نسبتها في المدينة، ومن أجل هذا كانت هناك سمات تميز اجرام الريف عن اجرام المدن .

وطبيعة الاجرام في الريف تختلف عنه في المدينة ، فالأول تحركه العلاقات الشخصية في حين تدفع الآخر العوامل المادية . ففي القرية نادرا ما يكون الدافع الى الاجرام هو الكسب المادى ، وذلك بسبب التضامن بين أفرادها مما لا يجعل للحاجة الملحة وجودا، ولأن الفلاح بطبيعته قانع صابر يرضيه أقل القليل . وعلى هذا فإن الاجرام في الريف تدفعه عوامل أخرى تجعل موضوعه دائما الأشخاص كالقتل والضرب ، وهو وان وقع في بعض الأحوال على المال فلا يكون الغرض منه الكسب المادى . وفي المدينة - حيث لا روابط ولا تقاليد - يكون الصراع على كسب العيش ، ولا يجد قوت يومه من لا يعمل ، وان أعوزه المال فقد يلجأ الى الجريمة وهدفه الحصول عليه وتدفعه المفريات الشديدة في المدينة وسائر وسائل المتعة الى طلب المزيد من المال ، ولهذا تكثر الجرائم ضد الآداب .

وإذا كانت عواصم المحافظات في مصر تدخل في حدود المدينة ويطلق عليها البندر أو القسم وكانت البلاد الريفية المحيطة بها يطلق عليها بلاد المركز فإن الإحصائيات التالية تبين لنا سمة طبيعة الاجرام في الريف والمدن .

(٢١) ستيغاني ص ٨١ وما بعدها حيث يعرض لمقاييس التفرقة بين الريف والحضر ، ويشير الى المناطق الريفية المتحضرة ، وضواحي المدينة والمناطق القامدة خارجها ، وتقسيمات المدينة في ذاتها ، والتفرقة بين المدن الكبيرة والمدن الصغيرة . وراجع كذلك بوزا وبناتل ص ٩٢ وما بعدها .

عدد جنايات القتل والشروع فيه في بعض الجهات
من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣٣

السنة	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
اسم الجهة							
بندر طنطا	٨	١٥	٦	٦	٦	٤	٧
مركز طنطا	٤٩	٥١	٥٠	٥٠	٥٣	٥١	٦٣
بندر الفيوم	٨	٤	١٢	٦	٩	٦	٩
مركز الفيوم	٣٦	٣٥	٣٨	٥٣	٤٨	٥١	٥١
بندر أسيوط	٧	٦	١١	٦	١٢	٧	١٠
مركز أسيوط	٣٥	٣٤	٢١	٤١	٣٥	٢٣	٣١

ويبين من هذا الجدول أن جنایات القتل والشروع فيه هي في المراكز دائما - سواء في الوجه البحري أم في الوجه القبلي - وهي أعلى منها في البنادر ، بل أن الحد الأدنى دائما في المراكز أعلى من الحد الأقصى بالنسبة للبنادر . ولم تتغير النتيجة بالنسبة الى الدراسة التي أجريت (٢٢) عن توزيع الجنایات والجنح في المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية سنة ١٩٤٧ .

جدول بيان ما يخص كل مائة ألف نسمة من
السكان في جرائم الجنایات موزعة حسب المناطق
الحضرية وغير الحضرية في مصر عام ١٩٤٧

أنواع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
قتل وشروع فيه	١١٢٨	١٧٥٠
ضرب أفضى الى موت	٩٦	١٦١
ضرب نشأت عنه عاهة	٧٥٠	٨٥٠
سرقة وشروع	٨٨٦	٦٢٠
حريق واتلاف وتسميم	٢٨٤	٥٩٢
مواشي		
فسق وهتك عرض	٣٧٢	٠٦٥
رشوة وتزوير	٩٣٤	١٩٥
عود	٨٧٠	١٤٧

جدول بيان ما يخص كل مائة ألف من السكان
من جرائم الجنح موزعة حسب المناطق الحضرية
وغير الحضرية عام ١٩٤٧

نوع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
تزوير	٣٨٦	٢٨٠
هتك عرض وفعل فاضح	٤٥٦	٠٣٧
سرقة	١٠٤٥٦	١٩٩٠٧
نصب وخيانة أمانة	١٣٩٢٦	٧٠٥٩
تسميم مواشى	٠٥٠	١١١
اتلاف مزروعات	١٩٤	١٧٤٣
تشرد	١٥٤٧٢	١٥٥٨
رشوة	٤٤٦	٠٧٥

وهذا ايضا مبين من بعض الجنايات والجنح في البنادر والمراكز سنة ١٩٧٠ حسب ما ورد في تقرير وزارة العدل .

الجنايات

نوع الجريمة	قتل	اضرب	ضرب	سرقة	حريق	رشوة	فسق وهتك عرض	اختلاس	عود	مخدرات
البنادر والمركز	٦٣	١٦	٦٨	١٣	٣	٩	١٧	٨٠	٢٦	٤٠٥
المراكز	١١٥	٢٧	٨٩	١٩	١٣	٢	٩	١٣	٥	٢٠٠

الجنح

الجريمة	تزوير	هتك عرض وفعل فاضح	سرقة	تسميم مواشى	اتلاف مزروعات	تشرد
البنادر	١١٠	٨٣	٥٢٨٩	١١	٥٢	١٦٧٥
المراكز	٥	١٠	٢٩٤٦	٤	١٨٩	١٨٥

ومما ورد بتقرير الأمن العام بمصر عن سنة ١٩٧١ عن الجنايات في البنادر والمراكز البيان التالي :

الجريمة	قتل وشروع فيه	سرقة وشروع	حريق عمد
البنادر او المركز	١٢٤	١١	٧
المراكز	٤٣	١١	٤

والبيانات آنفة البيان تكشف بجلاء عن أن سمة الاجرام في الريف تغلب عليها جرائم الاعتداء على الاشخاص ، وأن سمة الاجرام في المدن هي المادية برغم مرور السنين .

ومن دراسة عن المحكوم عليهم في سجون طنطا والقاهرة والاسكندرية يوم ١٩٦٠/٨/٣١ تبينت الحقائق التالية (٣٣) : ان نسبة الجرائم للمهاجرين تزيد ١٠٪ عنها للمهاجرين الريفيين . لا اختلاف في متوسط سن مرتكبي الجرائم الحضريين ونظرائهم الريفيين ، ولا علاقة بين السن وبين ارتكاب الجريمة بالنسبة للريفيين والحضريين . نسبة الجنائيات لمجموع الجرائم المرتكبة من أهل الريف ٨٨ ٪ بينما تبلغ هذه النسبة ٨٣ ٪ بالنسبة للحضريين ، كما يتضح ان نسبة الجرح من أهل الريف أقل من هذه النسبة في الحضر . الجرائم ضد الفش وهي الجرائم التي تتسم بطابع العنف تكثر في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري ، فجرائم القتل والضرب المفضي الى موت واحداث العاهات المستديمة تبلغ في الريف ٣٦ ٪ تقريبا من مجموع جرائمه ، بينما لا تزيد هذه النسبة عن ١١ ٪ في القطاع الحضري . ومعنى ذلك أن هناك ارتباطا بين منطقة الجريمة وبين انواع الجرائم المرتكبة ، ففي المجتمع الحضري تقل نسبة الجرائم العنيفة وتتضاءل عدد الجرائم ضد الفش . جريمة هتك العرض تحدث في المناطق الحضرية بنسبة أعلى منها في المناطق الريفية ، ٦٠ ٪ من العينة يقيمون في احياء شعبية . ٢٨٥ ٪ يقيمون في احياء متوسطة ، ١١٥ ٪ فقط هم الذين يقيمون في احياء راقية . ويدخل في هذه النسبة الخدم والسائقون والمكويينة وغيرهم ممن تحتهم عليهم الاقامة في هذه الاحياء . وقد قسمت الاحياء الى شعبية ومتوسطة وراقية على اساس طرق الحياة والمعيشة في هذه الاحياء ومن الواضح ان الامة والفقر وقرب المساكن بعضها بجوار بعض سمات تميز الاحياء الشعبية عن غيرها من الاحياء ، وقد تكون لهذه العوامل مجتمعة علاقة وثيقة بزيادة نسبة مرتكبي الجريمة فيها . أن ٢٨٥ ٪ من مجموع افراد العينة بسجن القاهرة كان محل ميلادهم الحضر بينما كان ٧١ ٪ محل ميلادهم الريف . وقد يرجع ذلك الى أن المولودين في الريف وهاجروا الى المدينة لم يستطيعوا التكيف مع طرق الحياة والمعيشة فيها وقوة العادات والتقاليد وتماسك الاسرة سمات تختلف في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري . ويتبين أن هذا التباين بالاضافة الى اختلافات في القيم والنظم قد أدى الى الصراع بين هذه السمات وتلك مما ترتب عليه أن تكون نسبة مرتكبي الجريمة من المهاجرين الريفيين أعلى منها بالنسبة لمرتكبي الجريمة من الذين ولدوا في الحضر . تبين أن الهجرة ترجع الى عوامل اقتصادية وتعليمية كما ترجع الى اختيار المدينة منطقة الحياة منها بالاضافة الى صعوبات كثيرة في الموطن الاصلى ، وتكون الهجرة اما مع اقارب او مع أسرة المهاجر نفسها . المهاجرون يقيمون عند حضورهم وقت الهجرة في الاحياء الشعبية ، اذ يشير الجدول الى أن ٩٢ ٪ من مجموع مهاجري العينة قد أقاموا

عند هجرتهم في أحياء شعبية ، وتبرير ذلك أن الأحياء الشعبية قد تكون قريبة الشبه لقرية المهاجر من حيث المستوى الاقتصادى ، كما قد يرجع ذلك الى أن الأحياء الشعبية غالبا ما تتسم بالطابع الديني وهي سمة تشترك فيها هذه الأحياء مع مجتمع القرية . وقد يرجع ذلك أيضا الى أن الإقامة في الأحياء الشعبية - حيث يتيسر تأجير الفرفة الواحدة الى عدة أشخاص - أيسر من الإقامة في الأحياء المتوسطة أو الراقية التى لا توجد فيها هذه الظاهرة . أن أسباب ارتكاب الجريمة طبقا للمعلومات التى أدلى بها المجرمون هي قلة الدخل وعدم وجود عمل ، وهما العاملان الرئيسيان لارتكاب الجريمة .

ويبين الجدول التالى ما يتميز به اجرام المدن الكبيرة من الطابع المادى عن غيره من المدن أو الريف . ويتضمن جنايات تزيف المسكوكات وتزوير الأوراق المالية (بنكنوت) والرشوة والاختلاس سنة ١٩٧٤ ، وسوف تضم محافظات الوجه البحرى في مجموعة ومحافظات الوجه القبلى في مجموعة أخرى .

الجريمة	التزيف	تزوير أوراق مالية	الرشوة	الاختلاس
القاهرة	١	—	٣٧	٤٤
الاسكندرية	١	—	٩	٤٣
الوجه البحرى	—	٧	٣٧	٨٠
الوجه القبلى	١	١	١٥	٣٢

هذا وتكشف الاحصائيات بسبب المادية التى تطفى على حياة المدينة والامكانيات المتاحة لذلك عن ازدياد مطرد في جنابات الرشوة والاختلاس . وكذلك الشأن بالنسبة للجرائم التى تتعلق بالآداب العامة ، فالحياة في المدينة الكبيرة بما فيها من مغريات تجعل هذه الجرائم أكثر وقوعا فيها ، أما في الريف فنظرا للتقاليد المرعية يكاد يكون وقوع تلك الجرائم قاصرا على عواصم المحافظات ، وهو في الوجه القبلى أقل عددا منه في الوجه البحرى ، كما يبين من الجدول التالى عن أحصاء الامن العام سنة ١٩٥٢ .

الجرائم	الجنايات	منازل الدعارة السرية	تزيف على الفسق من النساء	معاكسة بالطريق من شبان	التزوير	جرائم فساد ونسبويات	جرائم محال عامة	العاب قمار	مراهقات خيل	مطبوعات مخلة بالآداب	زنا	فصل على ناضح	تسول
القاهرة	١٢٣	٣٧٦	١٢٢٢	٤٩	٨٦	٤٨	١٢٠	٢٣	١١	٢١	٢١	٢١	٢١
الاسكندرية	٣١	١٢٩٦	١	٧	٥٤	١٥	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠
الوجه البحرى	٩	١٦٦	٤	١	٦	٧	٢٢	١٣	١	١	١	١	١
الوجه القبلى	١٦	٥٩	١	١	١	٨	١٣	١٣	١	١	١	١	١

٩٧٥

البيئة والجريمة

ونظرا للتقاليد الاخلاقية الموجودة في الريف نجد ان نسبة قتل الاطفال مجهولي النسب الى مجموع جنایات القتل بكل محافظة مرتفعة في القاهرة والاسكندرية والجيزة ودمياط ومنخفضة في باقي المحافظات . فالنسبة سنة ١٩٧٤ في القاهرة ١٨٪ والاسكندرية ٢٠٪ والجيزة ٢٣٪ والغربية ١٠٪ والدقهلية ٢٤٪ والقليوبية ٣٨٪ واسيوط ٣٪ وقنا ٦٢٪ . وقد لوحظ ان اسوان ١٢٪ ولكن هذا يرجع الى قلة جنایات القتل ذاتها اذ هي ٧ وجنایات قتل الاطفال اثنتان فقط .

ويترتب على التضامن الاسري الموجود في الريف ان هناك بعض الجرائم لا توجد في القرية الا نادرا ، وتتركز في المدينة ، ويتبين هذا من قضايا التشرد ومن قضايا الاحداث ، فالشخص المتشرد قانونا هو من ليست لديه وسيلة مشروعة للعيش . وفي الريف لا تتصور جريمة التشرد الا فيما ندر ، فالاعمال الزراعية كثيرة تستوعب كل الايدي العاملة لاسيما بعد هجرة الكثير منها الى المدينة ، انما التشرد في المدن - لاسيما الكبيرة منها - فهو امر عادي ، وقد يكون هذا نتيجة للهجرة الى المدينة جريا وراء كسب اكبر وعيش افضل ثم مواجهة لصعوبات البحث عن عمل ، فالتعطل فالتشرد ، وآية ما نقول الجدول التالي:

قضايا التشرد عام ١٩٧١

المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا
القاهرة	٢٥٣٧	البحيرة	٥	الفيوم	٥٠
الاسكندرية	٢٠٤٠	الغربية	٨	المنيا	١
دمياط	٢	كفر الشيخ	٢	اسيوط	١
الدقهلية	١٨	الجيزة	٥٨٣	قنا	١١
الشرقية	١	بني سويف	٣٣	اسوان	٢

وكذلك الشأن بالنسبة لاجرام الاحداث ، فالروابط العائلية في الريف يجعل انحراف الحدث وسيره في تيار الجريمة امرا بعيد الاحتمال ، لان شئون الحياة يتولاها الكبار الذين يجعلون تصرفات الصغار تحت اشرافهم . ويبين هذا ايضا من الجدول المقارن التالي :-

بعض جنح الاحداث التي وقعت سنة ١٩٧٤

القسم او المركز الجريمة	سرقة	اتلاف	ضرب
قسم المنصورة	٧٥	٣	٦١
مركز المنصورة	٢	١	١٧
قسم الجيزة	٧٣	٢	٩
مركز الجيزة	١	—	٢
قسم المنيا	٦٦	—	٤
مركز المنيا	٦	—	٤

ومن تقرير الامن العام لسنة ١٩٦٢ عن ظاهرة الاجرام في مصر :

١ - ان محافظات المدن تتميز عن غيرها بانحصار الظواهر الاجرامية في جنائيات التهديد والاختلاس والرشوة وتزوير الاوراق الرسمية وتزييف المسكوكات وتزوير الاوراق المالية وهتك العرض .

٢ - في محافظات الوجه البحري تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها في جنائيات الضرب المحدث عاهة والحريق العمد واتلاف المزروعات ، يضاف اليها جنائيات القتل في محافظتي الشرقية والقليوبية وجنائيات السرقة في محافظة الشرقية وحدها .

٣ - في محافظات الوجه القبلي تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها في جنائيات القتل العمد والضرب المحدث عاهة والخطف . واذا كان تقرير الامن العام لسنة ١٩٦٢ يشير الى خطورة جرائم القتل في الوجه القبلي فالحال لم يتغير ابد الى الان حتى سنة ١٩٧٤ ، وقد كان كذلك في السنوات ١٩٢٧ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ كما يتبين من الجدول التالي ، وهذا من اكبر الادلة على ما يتميز به الاجرام في الريف عنه في المدن ببلادنا ، لما هم ممدون من بسط التقدم الحضاري في بلاد الوجه القبلي والتمسك بالتقاليد .

نسبة جنائيات القتل والشروع فيه لكل

عشرة آلاف نفس في السنوات ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ ،

١٩٣٣ في بعض مديريات مصر

اسم المديرية السنة	١٩٢٧	١٩٣٢	١٩٣٣
القليوبية	٢٠٤	٢٦٠	٢٦٥
البحيرة	١٤٢	١٤٧	١٢٢
الغربية	١٤٨	١٦٨	١٥٩
المنوفية	١٢٣	١٣٥	١٤٦
الشرقية	١٠٧	١٤٠	١٧٧
الدقهلية	٨٧	٨٨	٨٣
بني سويف	٢٦٧	٣٣٤	٢٨٦
الفيوم	٣١٢	٣٦٢	٤٠٢
المنيا	٢٣٨	٢٥٩	٢٥٩
اسيوط	٤٤٣	٣٠٥	٣٥٥
جرجا	١٦٠	٢٠٢	٢٢٢
قنا	٨٨	٧٧	١٤٥

واذا كان اختلاف بيئة القرية عن بيئة المدينة ادى الى تمييز الاولى بالجرائم ضد الاشخاص ، والاخرى بالجرائم التي تكون غايتها الكسب المادي ، فان هناك تفرقة اخرى مترتبة على ذلك هي اختيار الوسيلة المستخدمة في ارتكاب الجريمة . فجرائم القرية يجري تنفيذها بوسائل

البيئة والجريمة

تتسم بالعنف والتسوية وتمثل انعكاسا لفرصة العدوان البدائية . فالقتل يتم بالاسلحة النارية على اختلاف أنواعها ، أو بالآلات الحادة التي يستخدمها الفلاحون أساسا في أعمالهم اليومية كالقاس وما إليها ، وهي أيضا تتم غدرا وغيلة دون أن يتنبه إليها المجنى عليه سلفا ولا يستطيع لها دفعا ، أما الجرائم التي ترتكب في المدينة فللاحتياج الى استخدام العنف وانما وسيلتها ذكاء المجرم الذي يستغل مختلف الظروف للوصول الى المال ، فلا يصدر منه اعتداء على الأشخاص الا اذا أوصلته وقائع الحال الى ذلك ، وتكشف الاحصائيات الجنائية عن أن غالبية جرائم القتل والشروع فيه يستخدم فيها الاسلحة النارية والآلات الحادة ، في حين أن جرائم القتل تنتشر في المدن والاماكن المزدحمة والسرققات من المساكن في غالبيتها جنح وان لا يسبقها بعض الظروف المشددة كالسكر والتسور .

البيئة والتقاليد :

تحرص بعض الجماعات على تقاليد خاصة بين أفرادها وتحترم القواعد الخاصة بها وتقوم مقام القانون المكتوب . وبالإضافة الى هذا هناك مجتمعات صغيرة متماسكة تتخذ من الجريمة حرفة لها حتى أنها لا تشعر بالاثم حين مقارفتها . ومن هذه الظاهرة ما يشاهد في تجارة المخدرات ، حيث يقوم أفراد جماعة معينة - وعلى ما هو معروف - باتخاذ حي معين تمارس فيه تجارتها ويلتزمون فيما بينهم بقواعد سلوكية خاصة يعتبر الخروج عنها جرما في حق الجماعة وتوقع هي العقاب الذي تراه في مواجهته .

على أن أخطر التقاليد الموجودة في البيئة المصرية هو ما كان متعلقا بالثأر (٢٤) . فلقد تبين لنا فيما سبق أن أكثر الجرائم وقوعا في الريف هو ما كان موجها ضد الأشخاص وهي القتل والشروع فيه والضرب المفضى الى الموت والضرب الذي تنشأ عنه عاهة مستديمة . وتأتي بعد هذا جرائم آتلاف المزروعات والحريق ولا تكون مبالغين اذا قلنا أن الجهل هو العامل الاساسي وراء الاجرام في الريف تحت ظله تبقى المعتقدات سائدة وفي قوة العقيدة . فأخذا من الاحصائيات يكاد يكون كل المتهمين من الاميين ، ولا نغنى بهذا أن الجهل يؤدي الى الاجرام ، وانما المراد هو أنه لا يساعد على وجود النماذج المعادية للاجرام ، فالفلاح في الريف يعيش أسيرا للتقاليد والمعتقدات التي أصبحت راسخة في نفسه ولا قوة اعلى من القانون .

وفكرة الثأر تتمثل في أن الاعتداء الذي يقع على فرد في الجماعة يعتبر وكأنه قد وقع على جميع أفرادها ، ولا ينبغي أن يستريح لهم بال الا اذا اقتصوا من المعتدى أو جماعته ، وكانت النتيجة المنطقية لهذا هو عدم الاعتراف بسلطان آخر يجازي الفاعل على جرمه . وكان من الطبيعي كذلك أن تقع إحدى جرائم القتل فيبلغ عنها ولكن دون أن يسند الاتهام الى أحد ، مع العلم

(٢٤) أحمد أبو زيد - الثأر - دراسة انثروبولوجية بأحدى قرى الصعيد ، وقد تناول الموضوع كاملا .

بأن كلا من الطرفين - أهل القتل وأهل القاتل - يدري بتبين من هو مرتكب الجريمة ، وعائلة القتل تتحين الفرصة المواتية للانتقام من الجاني، وعائلة القاتل تحترس من وقوع العدوان عليها ، ولا زلنا الى اليوم نسمع أن الثأر ما يزال متوارثاً في بعض العائلات من عشرات السنين .

وللثأر تقاليد المعروفة من ناحية من يقع عليه عبء واجب الأخذ بالثأر ، بل أن من يكون موضوعاً له يعرف نفسه كما يعرفه الجميع . ولا يجوز أن يكون موضوعاً لها الاطفال ، وما كانت تقام المآتم الا اذا تم الأخذ بالثأر ، ولقد كان هذا التقليد هو الدليل الوحيد في قضية قتل (٢٥) حكم فيه بالادانة ، حيث لم يشاهد القاتل أحد وقت ارتكابه فعلته ، ولكن في اليوم التالي للجريمة أقيم المآتم وانتعل الفاعل حذاءه وغطى رأسه ورفع القناع عن وجهه ، واذا درست المحكمة قانون الثأر وفقاً للتقاليد اقتنعت بارتكاب الجاني لفعله .

ومن بين الاسباب التي ساعدت على تأجيل عادة الثأر قصص البطولة التي تحكى في مختلف المناسبات ، وتصور الأمر على أنه واجب مقدس يعتبر القعود عنه تقصير يتسم بالجبن ، ويبقى واجب الأخذ بالثأر قائماً مهما امتد الوقت ولولعدة سنوات . والاعتقاد السائد أن روح المجنى عليه لا يستقر لها قرار الا اذا أريق دم الجاني ويكون ذلك على يد أهل القتل ، ومن ثم فلا ينبغي للحكومة أن تتدخل في الامر لان الواجب يقع على عائلتهم هم .

وترتب على تمكن عادة الثأر لدى الفلاحين ، أن وجد فريق من المجرمين الذي احترقوا الاجرام الانتقامي وعلى وجه الخصوص جرائم القتل ، فقد لا يوجد من أفراد أسرة القتل من يتمكن من الأخذ بالثأر لصغر السن مثلاً ، فتلجأ الأسرة الى من يقوم عنها بهذا الواجب مقابل مبلغ من المال . وهذا يثير جدالاً أخطر أنواع الاجرام ، ولا شك في أن الجبل هو الذي يوصل الى هذه الحالة حيث أبقي كثيراً من المعتقدات سائدة في أوساط الفلاحين الذين يرون أن القتل لا جزاء له الا القتل أما أحكام المحاكم دون الاعدام - ولو بالاشغال الشاقة المؤبدة - فانها لا ترضى مشاعر أهل المجنى عليه . ومن ناحية أخرى فان استخدام الاشقياء يبعد عن أهل المجنى عليه من فرض الاتهام ، اذ يستطيعون اعداد دفاعهم سلفاً ، كما أن الاشقياء أنفسهم يحترفون اعداد أدلة النفي قبل اعدامهم على ارتكاب الجريمة ، وآية هذا أن نسبة كبيرة من جنایات القتل والشروع فيه ينتهي فيها الامر باصدار قرار بأن لا وجه لاقامة الدعوى .

وقد عنيت الاحصائيات الجنائية ببيان عدد جرائم القتل التي يكون الدافع اليها الثأر ، فمراجعة الجداول الخاصة ببواعث ارتكاب جنایات القتل تبين أن الغالبية منها كما يلي : -

الانتقام والثأر ، رفع العار ، استفزاز ، نزاع على حد أرض . واذا استعرضنا في ذاكرتنا تاريخ القضاء المصري لوجدنا أن هذه البواعث كانت غالباً دائماً . ويؤيد هذا أن جنایات القتل

البيئة والجريمة

التي وقعت مع سبق الاصرار والترصد كانت أعلى مما وقع منها بدون سبق أصرار وترصد ، وهذه الظاهرة توصل بنا الى القول بأنه رغم كل تطوري أساليب الحياة في مصر الا أن التقاليد ما زالت مسيطرة على البيئة في كثير من النواحي . وأكثر من هذا ما زالت الوسائل المستعملة في جريمة القتل على ما هي عليه . الأسلحة النارية الآلات الحادة ، الخنق ، العصا الخ .

جدول خاص بالبواث لجريمة القتل

السنة / الباعث	الثار	الانتقام	الاستفزاز	رفع العار	نزاع على حد ارض
١٩٦٨	٢٩٨	١٩٧	١٤٢	٨٣	٧٨
١٩٧١	٢٤٤	٣١٧	٧٨	٨٢	٧٠
١٩٧٤	٣٠٣	٣٣٦	٦٦	٧٦	٥٤

جدول خاص بالقصد

السنة / القصد	مع سبق الاصرار والترصد	بدون سبق اصرار وترصد
١٩٦٨	١٠٩١	٤٥٤
١٩٧١	٨٥٨	٣٦٢
١٩٧٤	٩٢٦	٣٣٥

هذا مع التنبيه الى احتمال أن يكون الانتقام أحيانا مختلطا بالثار .

وقد قام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر بدراسة لظاهرة الجريمة في قرية طهواي (٢٦) ، حيث تبين أن سكان القرية تتكون من فئتين ، الفلاحين وهم الغالبية ، والفجر وهم بنسبة ٧٪ من مجموع السكان . ويعيش جميع أفراد مجتمع الفجر ذكورا واناثا من احتراف الجرائم خاصة سرقات الماشية ، والسرقه بطريق النشل ، ويتوارثون هذا العمل جيلا عن جيل ، ولا يخرجون من ذكر أنهم يحترفون السرقه ، وهم يحترفون السرقه دون غيرها من الجرائم ، ولا يميلون الى استخدام العنف عند ارتكابها ، ويفضلون اختيار مكان جريمتهم بعيدا عن المنطقة التي يقيمون فيها .

ويرتبط احتراف الفجر للسرقه بالتنشئة الاجتماعية حيث اعترف ٩٥ ٪ بأن ارتكابهم للسرقه كان نتيجة لضغط الأسر عليهم ، وأن ممارستهم لها قد تمت عن طريق المشاركة . وتستفيد الغالبية العظمى منهم (٩٢ ٪) من المسروقات شخصيا أو في نطاق الاسرة ، ويتميل مجتمع الفجر بالترابط والتكامل بين الافراد ، حيث أنهم يتعاونون بعضهم مع البعض اذا ما قبض على أحدهم أو أودع السجن فانهم يقدمون له ولاسرته العون سواء كان في صورة عينية أو مالية .

البيئة واجرام المرأة :

انه وان كان اجرام المرأة لم يلق نفس الدرجة من الاهتمام التى لاجرام الرجل - كما هو واضح فى جلاء من الاحصائيات الجنائية - الا ان علاقة البيئة باجرام المرأة لها مظاهر واضحة تستدعى الدراسة والعناية ، وآية ما تقدم أن كثيرا من نشاط المرأة الذى يشكل جريمة ينتهى الأمر به الى الحفظ نظرا لظروفها فى البيئة المحيطة بها ، وعلى سبيل المثال بعض صور الاجهاض التى يراد منها رفع العار . بل أن طبيعة المرأة ووضعها فى الأسرة العربية يجعل أفعالها ودواما مما يتسم بالجنون والحذر ، ولذا فهو يتم فى خفاء وينتهى الأمر فى كثير من وقائعها الى قيده ضد مجهول .

ووضع المرأة بالنسبة الى البيئة التى تعيش فيها جعلت حجم افعالها أقل بكثير من حجم افعال الرجل ، سواء دلت على ذلك احصائيات محل ثقة أو كان هذا هو الشعور والاحساس العام . وهذا أمر لا يختلف فيه الدول العربية عن غيرها . وعلى سبيل المثال يبين من تقرير الامن العام عن مصر عام ١٩٧٤ أن عدد المتهمين فى الجنايات هو ٤٩٩٠ منهم ٤٨٧٩ من الرجال و ١١١ من النساء .

واذا كان مرجع تلك الظاهرة يتعلق بطبيعة المرأة كأنثى ، الا انه بوجه خاص يتصل بالبيئة التى تعيش فيها ، فالمرأة أقل من الرجل فى قوة جسمها ، حتى لقد قرر بعض الباحثين مداها بنصف قوة الرجل ، ووصل الى أن حجم افعال المرأة لا ينبغى أن يتعدى نصف حجم افعال الرجل ولقد ترتب على هذا الفرق فى القوة الجسمانية أن الجرائم التى ترتكبها المرأة لا تحتاج فى تنفيذها الى العنف . بل أن جريمة القتل غالبا ما يستخدم فيها السم لتنفيذها . ولقد خلق الله سبحانه وتعالى المرأة لتكون أما ، اذ زودتها الطبيعة بعاطفة الحنان والرحمة والشفقة مما يتماشى مع رسالتها، وهو ما يتنافى مع الجريمة ، اذ لا يتوافر لها أى معنى من هذه المعاني، فان هي أقدمت على ارتكاب الجريمة فلا يكون ذلك الا تحت ظروف خاصة ، ومن ثم كان افعالها قليلا .

وفى خصوص المجتمع المصرى بالذات نجد أن الظروف الاجتماعية ومكانة المرأة من الأسرة تحول بينها وبين طريق الاجرام . فتحرص المرأة على سمعتها فى مجتمع تغلب فيه القيم الدينية والخلقية يدفعها الى الابتعاد عن طريق الجريمة تأمينا لمستقبلها .

والمرأة فى الريف تحتل السواد الأغلب من النساء ، وتعتمد فى حياتها على الرجل ، سواء كان أباً أو أخاً أو زوجاً أو أى عائل آخر ، بل أن كثيرا من الرجال يابون نزول نسائهم الى ميدان العمل ، وقد أدى هذا الى بعد المرأة عن الاحتكاك بالناس ، وأصبحت أكثر ميلا للعزلة ، مما يبعدها عن الاسباب التى تدفعها الى الاجرام . والملاحظ فى الريف المصرى أن المرأة تعتمد على الرجل فى حياتها اعتمادا كلياً . أما فى المدينة فانه وإن كانت المرأة قد نزلت الى ميدان العمل ، وزاد احتكاكها بالناس، الا أنها مازالت تحكمها طبيعتها الخاصة التى تنأى بها عن ارتكاب الجريمة ، بل أن الملاحظ هو أن الغالبية العظمى من النساء المجرمات من الأميات . أى أنه كلما تعلمت المرأة

البيئة والجريمة

وتشقت بعدت عن الجريمة . ويتضح من بحث نزيلات السجون المصرية في مايو ١٩٥٩ الذي قام به المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية (٢٧) أن أغلب النزيلات موضوع الدراسة لم يشغلن بأى مهنة أو عمل ، وأن هذا لا يخرج عن كونه انعكاسا للوضع الخارجي في المجتمع الحر حيث لا يزال اقبال النساء على الاشتغال بالمهن المختلفة قليلا .

هذا الوضع الاجتماعى للمرأة فى مصر والبيئة التى تعيش فيها جعل اجرامها متميزا عن اجرام الرجل، وأنه وان كانت تنقصنا الاحصائيات الخاصة بالمرأة فانا نحاول أن نحيط بصورته على قدر الاحصائيات المتوافرة لدينا . والامر الذى تكشف عنه تلك الاحصائيات هو أن نسبة الجنايات التى تقع من المرأة كبيرة وتتركز بوجه خاص فى جرائم الاعتداء على الاشخاص ، أى القتل العمد والضرب المفضي الى الموت والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة . فعلى سبيل المثال ارتكبت المرأة عام ١٩٧٤ (١١١) جناية بينها (٣٥) قتل عمد و (٢٦) ضرب افضى الى الموت ، و (٢٣) ضرب نشأت عنه عاهة مستديمة ، أى أن جملة جرائم الاعتداء على الاشخاص بلغت (٨٤) من مجموع الجنايات . واذا اردنا تحليل هذه الظاهرة لوجدناه فى امرين ، الأول منهما هو أن المرأة فى غالب الاحيان لا تحتاج الى المال لوجودها فى كنف رجل يكفل لها حاجياتها ، أما اجرامها ضد النفس فأساسه الطبيعة البشرية التى تدفع بمواطنها تحت تأثير الانفعالات الى أقصى مدى ويسهل لها خيالها طريق ارتكاب الجريمة معتقدة أن فى هذا راحة لها لا سيما مع الجهل الذى يحيطها . والآخر يتمثل فى باعث المرأة على ارتكاب الجريمة ، وهو غالبا ما يتعلق بحياتها ومستقبلها الذى تتركس له كل جهودها ، فاذا قام فى سبيله عائق فانها تزيحه عن طريقها .

وظروف البيئة التى تعيش فيها المرأة بالريف جعلت أخطر دوافعها للاجرام هو الانتقام الذى يكون منشؤه الفيرة ، ذلك أنها بمجرد أن تنتقل الى منزل الزوجية ترى أنه لا مقام لحياتها الا فى كنف الزوج ، وانها بغير الاعتماد عليه لن تجد من يرعاها ومن ثم فان أى تهديد يمس كيان حياتها يحرك فيها غريزة الدفاع عن نفسها وبقائها وتدفعها الرغبة فى المحافظة على نفسها الى ارتكاب اشد الجرائم خطورة ، وتتحرك غيرة المرأة على منزلها اذا ما اتخذ الرجل له زوجة ثانية لآى سبب من الأسباب ، وهي حينئذ لا تستطيع أن تصب غضبها على زوجها لأنها فى قرارة نفسها تعتقد أنه يستعمل حقاً مشروعا له فضلا عن أنها فى حقيقتها ليس بمقدورها أن توجه اجرامها اليه . ومن ثم فلا يبقى أمامها الا المرأة الدخيلة على حياتها وتبقى صورها ملازمة لخيالها ، ولا ترى سبيلا لاستعادة منزلها الا بالتخلص منها ، وفى صور أخرى قد يكون انصراف زوجها عنها بسبب عدم انجابها ورزقه بولد من الزوجة الثانية فتوجه اجرامها للصغير للتخلص منه ، وأحيانا قد تندفع المرأة الى ارتكاب جريمة قتل الزوج اذا ما أحست أنه قد ينصرف عنها الى الزواج من

أخرى . ويندر في مصر أن ترتكب المرأة جريمة القتل لأسباب عاطفية ، كصورة تخلى الشخص عنها وانصرافه الى غيرها لأن التقاليد ما زالت لا تقر العلاقات الخاصة بين الشباب ، ولهذا نرى أن الأسباب العاطفية ان دفعت الى المساس بالحياة فانما يكون هذا في صورة انتحار .

واذا كنا قد اوضحنا اثر البيئة وتقاليدها في ارتكاب جريمة القتل ثارا فان المرأة لا تختلف من الرجل في هذا الصدد وتعتبره واجبا عليها . ولقد تضمن القضاء المصرى كثيرا من جرائم القتل التى لعبت المرأة فيها دورا هاما تحت تأثير عادة الثأر ، سواء بنفسها أو بتلقينها اياها لأطفالها مهما امتد الاجل وتحرضهم على القتل .

وقد ترتكب المرأة أحيانا الجريمة ضد النفس تجنباً للفضيحة في البيئة كما في حالة جريمتى الاجهاض وقتل المولودة حيث أن الحمل سفاحا يمثل عيبا خطيرا هو في الريف اشد منه في المدن ، حيث تعرف الفتاة أن جزاءها اذا ما كشف أمرها لن يكون الا اذهاق روحها ، لا سيما وأن سبيل اخفاء أمرها ليس بالامر السهل حيث لا توجد اماكن لايواء اللقطاء ، كما هو الحال في المدن - وقد تقارف المرأة الجريمة قتلا دفاعا عن العرض وذلك ان تفريط المرأة في عرضها يمثل مساسا خطيرا بالشرف لا سبيل الى ازالته الا بقتلها ، وقد تأصلت هذه التقاليد في نفوس الكثيرين حتى ثبت من بعض الوقائع أن الأم تتغلب على عاطفة الأمومة وتقتل ابنها دفاعا عن عرضها ، بل قد تقتل الأم أمها أو الأخت اختها لهذا السبب .

اقتصاديات البيئة والجريمة :

ليس من المقبول ونحن في صدد بحث الجريمة وعلاقتها بالبيئة أن نفصل اثر العامل الاقتصادى في هذا الصدد . ذلك لأن البيئة ذاتها تتلون ظروفها وفقا لسلوك أفرادها ووفقا لاقتصادياتها ، وانه وان كان العامل الاقتصادى من أدق وأهم ما تتصل به الظاهرة الاجرامية ، وهو في حاجة لدراسة مستفيضة مستقلة ، الا أننا هنا استكمالا لجوانب البحث نعرض لما يتصل بهذا العامل كمؤثر في البيئة وقتيا في السلوك الاجرامى فلا جدال في أن هناك علاقة وثيقة بين الظروف الاقتصادية والجريمة على الأقل بالنسبة الى الجرائم التى تكون الغاية منها الكسب . وقد عكس التطور الاقتصادى صداه على تطور الجريمة فالانتقال من الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى خلال القرن التاسع عشر صاحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الذكاء ، وعدم الاستقرار الاقتصادى الناشئ عن عدم استقرار الاثمان والاجور والنقود كان له اثره في الاجرام الذى يقصد منه الكسب .

ودراسة العلاقة بين العوامل الاقتصادية والاجرام يثير مشاكل عديدة ليس من السهل إيجاد حل لها . فينبغى تحديد المراد بالعوامل الاقتصادية ، هل ينظر اليها بالنسبة الى الموضوع الذى تتعلق به أو بالنسبة الى وقت حدوثها ، وبمعنى آخر هل ينظر الى العوامل الاقتصادية

البيئة والجريمة

باعتبارها متعلقة بالفرد الذى يجرم ، أم بالنسبة الى الوسط الصغير الذى يعيش فيه ، أم البيئة التى تحويه ، أم بالنسبة الى ظروف الدولة كلها. وكذلك فى تقدير الظروف الاقتصادية هل يعد بوقت ونوع الجريمة أم تقرر خلال فترة طويلة مناسبة . ثم أخيرا هل ينظر الى تلك العوامل والأوقات العادية أم يكون الاعتبار لفترات الازمات وأوقات الرخاء (٢٨) وبالإضافة الى ما تقدم فإن جزءا كبيرا من الجرائم لا يدخل فى الاحصائيات الجنائية والتى تدخل تحت الأرقام المظلمة ، وأخصها جرائم ذوى الياقات البيضاء أو جرائم الخاصة ، وتكاد تكون هذه الجرائم كلها من نوع الجرائم الاقتصادية التى يكون للبيئة فيه دخل كبير فتعكس آثارها عليها .

ولقد أصبح الشائع ربط الجريمة من الناحية الاقتصادية بالفقر (٢٩) ، ولكن هل يؤدي الفقر حقيقة الى الجريمة ؟ ثم ما هو المقصود بالفقر ؟ ونشير ابتداء الى احتمال أن يكون ربط الفقر بالجريمة مرجعه الى أن غالبية المجرمين من الطبقات الفقيرة ، وليس من السهولة وضع تعريف للفقر ، فالمعنى المتعارف عليه هو أن الفقير هو الشخص الذى لا يجد ما يسد به ضرورات العيش ، وهذا المعنى فى رأينا لا مكان له فى مصر ، فيكاد لا يوجد فى المجتمع المصرى من لا يجد قوت يومه ، وذلك بسبب علاقات التعاطف الاجتماعى الموجودة لدى الشعب المصرى ، ولكن الإنسان الفقير فى مفهومنا هو من يرتزق يوما بيوم ، وينطبق هذا بوجه خاص على طبقة العمال . وإذا نظرنا الى سواد الشعب المصرى لوجدناه من الفلاحين وهم فقراء ومع ذلك فهم لا يقعون فى طريق الجريمة ، فإذا قيل بأن الإنسان الفقير هو من لا يوجد لديه ما يفي باحتياجاته لكانت المسألة نسبية تختلف من حالة الى أخرى ، ومن ثم لا يمكن اتخاذ الفقر مقياسا للسلوك الاجرامى . . ولكن مهما كان تحديد معنى الفقر فهل هناك دليل على وجود رابطة بينه وبين الجريمة ؟ فى رأينا أنه من الخطورة بمكان التسليم بهذه النتيجة لأن مؤداها اعتبار جميع الفقراء مجرمين ، وهم وان كانوا لم يدخوا السجن بعد فإنهم فى الطريق اليه ، حقيقة أن بعض المجرمين من الفقراء ولكن كم من غير الفقراء والمجرمين وان لم يدخلوا السجن ؟!

ولقد حاول البعض ربط الفقر بالاجرام فى صلتها بالبيئة التى يوجد فيها الفقير ، اذ من شأن الفقر أن يوصل الى عوامل أخرى كثيرة متداخلة فى التكوين الاجتماعى ، وهي التى تؤدى الى الجريمة ، ولا يقتصر الامر حينئذ على جرائم الاموال وحدها . والفقر تكون له مصاحبات أكثر من الحاجات الاقتصادية التى تؤدى الى السلوك الاجرامى . والفقر فى المدينة الحديثة يعنى عادة انفصال مناطق الايجار المنخفض ، حيث يعزل الناس الى درجة يعتد بها عن النماذج المعادية للاجرام والجيران على الاتصال بكثير من نماذج السلوك الاجرامى . والفقر بوجه عام يعنى مركزا

(٢٨) راجع اثر الازمات الاقتصادية والرواح الاقتصادي- ستيغاني وآخرين ص ٨٧

(٢٩) راجع دراسة حديثة فى هذا الصدد عن الطبقة الاجتماعية والاجرام (جون كلاذ وآخرين ص ٥١ وما بعدها)

اجتماعيا ضئيلا ليس فيه ما يبعث على الاحترام أو ما يخشى عليه من الضياع أما ما يشجع على بذل الجهد لتحقيق حياة أفضل ، وهو بوجه عام كذلك يعني ظروفًا منزلية سيئة وصحية صعبة ومقارنة تثير الحقد بالنسبة الى غيرها من الظروف المالية والصحية ، يعنى أن الوالدين يبعدان عن المنزل خلال أغلب الساعات التي يستيقظ فيها الاطفال ، ويعودان اليه وهما متعبان متوتران . وهو يعنى بوجه عام أيضا أن الطفل يؤخذ من المدرسة في سن مبكرة لا تسمح له الا بالتحاق لعمل لا يتطلب مهارة ، بل غير مسل وغير مجزولا يمنحه فرصة التقدم الاقتصادي . وقد يصحب الفقر في المدينة الصغيرة قليل من المصاحبات .

وبعرض برنس (٤٠) الى أن الدراسات الاجتماعية لفتت النظر الى أنه اذا كانت الجريمة من الناحية النظرية تقع في كل الاوساط الا انها أكبر وقوعا في اوساط الجماعات الضعيفة اقتصاديا واجتماعيا . ويتساءل عن السبب في هذا هل هو النقص في اخلاقيات هؤلاء الافراد ؟ ، هل فرصة الحياة الشريفة أقل لديهم ؟ أو ان هناك جرثومة إجرامية أسهل انتشارا في هذه الاوساط عن الاوساط الاعلى اجتماعيا واقتصاديا وهذه التساؤلات شغلت كثيرا من المفكرين في اوائل القرن العشرين ، وذهبوا الى أن الزيادة في الاجرام تأتي من التعلم من الاصدقاء والجماعات ، وهو رأى مسترد لانه في الجماعات التارفة . وباختصار فان هذا يعنى انه اذا عرض فرد الى مؤثرات أكثر إجرامية من غيرها في الوسط الذي يعيش فيه فان فرص مخالفته القانون تكون أكبر . ويرى برنس (٤١) أن اعتبار الجريمة أكثر وقوعا في الطبقات الدنيا هو تعميم مبالغ فيه ، وهناك حقيقة متفاوتة للجريمة في الطبقات الدنيا ، ومع هذا فالجريمة موجودة في الطبقات كلها ولكن جزءا كبيرا منها غير معروف . وفي دراسة أجريت سنة ١٩٦٧ ثبت أن المذنبين الصغار في لندن كانوا من جميع الطبقات ، وأن الجرائم لم يختلف نوعها من طبقة الى أخرى . ومع هذا فالمتفق عليه بصفة عامة هو انه لا بد من عمل طويل قبل تأكيد ظهور الجريمة ومداهها في مختلف طبقات الجماعة .

والدراسات التي أجريت بالنسبة الى علاقة الفقر كعامل اقتصادي بالجريمة - رغم ما فيها من قصور وما قد يوجه اليها من انتقادات - قد وصلت الى نتائج متضاربة . ففي إحدى الدراسات وجد أن معدل نسبة الانحراف الى مجموعة من الاطفال في مكان يعد منخفضا جدا ، مع أنهم من أسر كانت في فقر اشد من فقر السكان في المناطق المحيطة بهم والذين كان لاطفالهم معدل نسبة كبيرة للاسراف . . . وفي دراسة أخرى اكتشف عدم وجود علاقة وثيقة بين المركز الاقتصادي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاخرى ثابتة . بينما وجدت علاقة واضحة بين التنظيم الاجتماعي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاقتصادية ثابتة .

(٤٠) برنس ص ٣٦ ، وقد اشار الى الدراسات في الولايات المتحدة الامريكية وفي انجلترا عن مناطق الانحراف .

(٤١) برنس ص ٣٩

البيئة والجريمة

في المجتمع المصري - لاسيما المجتمع الريفي - لا يمكن القول بأن الفقر يعد عاملا على ارتكاب الجريمة ، لان البناء الاجتماعي والثقافي يقف عائقا ضد ارتكاب الجريمة في هذه الحالة (٤٢) . وفي اعتقادنا ان تقاليد أهل الريف تمنع من اقتراف الجرائم مهما كانت الحالة الاقتصادية . وذلك سواء بالنسبة الى مصر أو غيرها . ولقد ثبت في دراسة بأمريكا ان سكان المناطق الريفية يقل ميلهم نحو الجريمة مع انهم قد يكونون في فقر مدقع .

ومن الدراسات الحديثة في مجالنا بحث عن حجم مشكلة جنح الاحداث واتجاهاتها وعواملها في مصر اذ جاء به انه من المؤكد ان المستوى الاقتصادي الذي تعيش فيه أسرة الحدث تؤثر بشكل فعال ، بل انه يكاد يسيطر على كل العوامل الاخرى التي تشارك في توجيه الحدث نحو السوك الجانح . فان المستوى الاقتصادي هو الذي يحدد المستوى التعليمي والمهني والمستوى المعيشي للأسرة ، ويحدد كذلك المسكن الذي تتخذ به الأسرة مأوى لها وبالتالي الحي الذي تقطنه ، كما يحدد المستوى الاقتصادي والمستوى الاجتماعي والبيئي الذي تنتمي اليه أسرة الحدث بحكم مقدراته الاقتصادية . وكل هذه العوامل متجمعة هي التي تؤدي الى سلوك الحدث سلوكا جانحا او تكيفه مع المجتمع الذي يعيش فيه . وقد ظهر ذلك من نتائج البحوث التي أجريت في هذا المجال . ففي دراسة عن اثر العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث (٤٣) وضحت الفروق بين متوسط افراد مجموعة الاحداث جامعي الاعقاب والمتشردين ومجموعة الاحداث الاسوياء من الدخل الشهري للأسرة ومن باقي المصروفات المخصصة للحاجيات الضرورية للانفاق على الأسرة . وقد تأكد ان هذه الفروق لها دلالة احصائية ، فقد كان متوسط الانسبة منخفضا في المجموعة الاولى عنها في المجموعة الثانية ، وفي بحث السرقة عند الاحداث (٤٤) الذي اجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ثبت ان الحالة الاقتصادية لاسر الاحداث المتهمين بالسرقة في مستوى منخفض جدا .

ولا بد لنا من التسليم بان للعوامل الاقتصادية اثرها في الظاهرة الاجرامية سواء بطريق مباشر او غير مباشر ، على ان الذي لا يمكن تحديده هو مقدار تأثير سير الاجرام بالعوامل الاقتصادية لصعوبة فصل تلك العوامل وعزلها عن غيرها ولا نهامتشابهة يؤثر بعضها في البعض الاخر ، وليس من السهل وضع ضوابط محددة لها . وعلى هذا فان الظروف الشخصية المحضة قد تؤثر بدورها في العوامل الاقتصادية ، بمعنى انه اذا توافر عامل اقتصادي معين فان هذا لا يعني انه يؤدي بالضرورة الى ارتكاب الجريمة ، وانما يتعين ان تتوافر ظروف أخرى تهبط لتأثيره في ارتكاب الجريمة (٤٥) . فمثلا قد تحلل بالفرد ضائقة مالية ، ومع هذا فانه مهما بلغت شدتها لا يتخذ من الجريمة سبيلا للتغلب عليها ، وهوامر ملحوظ في حياتنا العادية . وقد يكون للجو

(٤٢) سيد عويس ص ١٧٧ وما بعدها

(٤٣) اثر العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث

(٤٤) السرقة عند الاحداث

(٤٥) ستيغاني وآخرون ص ٨٩ ويضيف بان عدم وجود عمل لا يكفي بذاته لان يكون سببا في انتفاء السلوك الاجرامي

او وجوده ، بل هو وجود او عدم وجود العمل المناسب لامكانيات الشخص ويكون متوائما معه .

العام الذي يحيط بالفرد عاملا له على ارتكاب الجريمة ، وعلى سبيل المثال كان من اثر الحرب العالمية الثانية في مصر ان قفزت بعض الثروات في وقت قصير الى ارقام مذهلة مما اغرى البعض وبسر الوصول الى الثراء السريع من اي طريق، وكان سبيله في هذا ارتكاب الجريمة . ولقد ذهب البعض الى القول بان للاحوال الاقتصادية تأثيرا كبيرا في تحويل مجرى الاجرام ، فبينما يدفع الفقر لارتكاب بعض الجرائم كالسرقة ، نرى الثروة - على الاخص الفجائية - تدفع للجريمة ايضا لانها تفسد الاخلاق ، بالانغماس في الشهوات وفي الفلو في جمع المال . فالعوامل الاقتصادية كثيرا ما تكون كالسلاح ذي الحدين فتحدث في كلا الاتجاهين ازديادا في الاجرام . ويقال احيانا ان جرائم التسول تعتبر من مظاهر الضيق الاقتصادي، ولكن البعض ينفي هذه الفكرة ، وان المسألة ترجع الى الاستعداد الشخصي للفرد ، وان المتسولين المحترفين لا يستطيعون الاقلاع عن حرفتهم ولو عرض عليهم عمل شريف يرتزقون منه .

البيئة وجرائم الاحداث :

ان تأثير البيئة في سلوك الحدث بوجه عام ، وسلوكه الاجرامي بوجه خاص امر لا ينازع فيه احد ، والاهتمام بدراسة سلوك الحدث امر مشاهد في كل المجالات سواء على المستوى المحلي لكل دولة او على المستوى العالمي ، فتعد له المؤتمرات والحلقات الدراسية من فترة الى اخرى ، والدافع الى هذا هو ان حدث اليوم هو رجل الغد ، وبقدر تنشئة الحدث تنشئة صالحة يستفيد منه مجتمعه .

وفضلا عن هذا فان الحدث في سنوات عمره المبكرة يخرج الى الحياة المليئة بالمناقضات ، ولا تكون مداركه قد اكتملت بعد ليتبين الطريق الذي يسلكه في مستقبل ايامه ، ومن ثم فهو يختار النماذج السلوكية التي تحيط به ، وهو كالمعجينة اللينة التي يسهل تشكيلها على اية صورة .

وتكشف الاحصائيات الجنائية عن ان اخطر انواع السلوك الاجرامي بالنسبة للحدث يتمثل في جنح السرقة (٤٦) ، وذلك لكثرتها العددية ، لان هذه الجريمة ان بدأت في سن مبكرة وجد احتمال العود الى الاجرام ، ثم ان هذه الجريمة قد يؤدي الحكم فيها الى ايداع الصغير السجن ، حيث يجد مجتمع الجريمة بما لا يقومه وانما يخرج منه اشد اتقانا للاجرام .

وظروف البيئة المصرية توجب التنبيه الى امرين ، الاول ان هناك نوعا من الاجرام له ذاتية خاصة ولم يشكل اية مشكلة بعد ، هو اجرام الاحداث في الريف ، فطبيعة الحياة في القرية المصرية تبعد في غالبية الاحوال الاحداث عن طريق الجريمة نظرا لان ظروف الحياة التي توصل الى الاجرام في المدينة تنتفي في القرية ، نظرا للترابط العائلي بين سكانها . هذا فضلا عن ان الجرائم التي تقع من الاحداث في الريف يجري نظرها وتسوية ضررها وفقا لعادات وتقاليدها مرعية ،

(٤٦) يبين من تقرير الامن العام لسنة ١٩٧١ عن الجنح التي تقع من الاحداث بين سن السابعة والخامسة عشرة مرتبة تنازليا كالآتي : الضرب ، السرقة ، ركوب المواصلات بدون اجرة ، الاتلاف ، القتل والاصابة الخطأ ، ولا شك ان السرقة هي اخطر تلك الجنح .

البيئة والجريمة

ومن ثم لا يدرك شيء من أمر الجريمة . والامر الاخر هو ان الارقام المظلمة في الاحصائيات الجنائية اشد ظهورا بالنسبة الى الاحداث ، فالماحظ في البيئة المصرية بصفة عامة هو السكوت عن البلاغ عن جانب كبير من جرائم الاحداث ، يدفع الى ذلك اسباب عديدة ومن بينها سوء حالة الحدث ورافة المجني عليه ، وقلة الضرر الناشئ عن الجريمة ، وتدخل الجمهور لتخليص الحدث من قبضة المجني عليه . (٤٧)

والبيئة الطبيعية التي ينشأ فيها الحدث ويتفاعل معها هي الاسرة ، وهي اول ما يواجهه الحدث في حياته ومن بعدها المدرسة ، وقد ينتقل بعد المدرسة الى مجتمع العمل او قد يصله مباشرة ، وهو في كل دور قد يؤثر فيه مجتمع الطريق . ولا نستطيع ان نعرض بافاضة لهذه العوامل المختلفة ، لان كلا منها يصلح لان يكون موضوعا لدراسة كاملة ، ومن ثم نعرض لتلك العوامل بالقدر الذي يسمح به مجال البحث .

تلعب الاسرة اخطر الادوار في تنشئة الحدث وتربيته ، حيث يتأثر بها وبنماذجها السلوكية ، سواء اكانت معادية للنماذج الاجرامية او متوائمة معه . فلكل اسرة تقاليدها وعاداتها وانماط سلوكها تسير عليها في مراحلها ، الامر الذي قد تختلف فيه اسرة عن اخرى مهما قربت المسافة بينهما . وهذا من آثار الفردية في المجتمعات الحديثة ، خلافا لما مضى ولما عليه الحال الان في القرى .

واول النماذج السلوكية التي يتلقاها الطفل في حياته هو ما يسير عليه الوالدان ، فبحكم غريزة التقليد الفطرية يقتدي الطفل بالامثلة التي يشاهدها . وعلى هذا اذا كانت النماذج السلوكية للوالدين من المواقف التي تعتبر معادية للاجرام فان الحدث سوف يقتدى بها وتتأصل فيه غالبا الا اذا تدخلت عوامل اخرى تغير السير الطبيعي للامور . ولكن قد تكون المواقف السلوكية للوالدين من غير المواقف الحميدة ، ومن ثم فانها سوف تنطبع في ذاكرة الحدث ، ويعتبرها من التصرفات الطبيعية فيما قد يواجهه من امور الحياة . فالوالد قد يكون سلوكه اجراميا ، أي منغمسا في الجريمة ، ومن ثم فهو قدوة للصغير . وقد يخلق هو السلوك الاجرامي في ولده وان لم يرتكب هو الجريمة ، واخيرا فقد يتخذ الاب موقفا سلبيا ان وقع من الحدث ما يعد سلوكا اجراميا (٤٨) .

(٤٧) راجع في هذا الصدد دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث في الشرق الاوسط ص ١٤ وما بعدها .

(٤٨) دراسة عن اجرام الاحداث في الشرق الاوسط ص ٣٦ . ويذكر جون مايز ان الاب او الام يكافئ الصغير او يعاقبه حسب ما يرى في تصرف الصغير من حسن او سوء وفقا لتقدير أيهما بصرف النظر عن القاييس العامة في المجتمع الخارجي . والطفل يستجيب لها لانه في مراحل عمره الاولى يروم علاقة متينة بينه وبين والديه حيث يبحث عن الحب . وبهذا يمكن ان ينشأ الشخص عدوا للمجتمع ، على ان هذه ليست القاعدة حيث يحتمل ان يبعد الوالدان عن الصغير حقيقة سلوكهما ، فمثلا البغي قد تقوم بتربية صغيرها في وسط يبعد عما هي منه ، وتقرس فيه احترام القانون (ص ١١٩) فلا يمكن دراسة المؤثرات الاجتماعية على السلوك الاجرامي دون دراسة نوع وطبيعة العلاقات العائلية (ص ١٢٠) والاسرة هي اول مؤسسة لصياغة السلوك الاجتماعي ، عن والديه يتلقى القانون الاخلاقي وسلوكه في الحياة ، فاذا كانت القيم والمواقف في المنزل تتواءم مع العالم الخارجي فسلوك الصغير يكون متفقا والقانون وقد يكون العكس صحيحا (ص ١٢٠) .

وللقواعد السلوكية في تربية الصغير أثر عميق في سلوكه واحتمال أو عدم احتمال انحرافه . اننا لو نظرنا الى الاسرة المصرية لوجدنا ان تربية الصغير تكاد تسير على تقاليد يتلقاها الخلف عن السلف ، وهي وان دخل عليها بعض التعديل فهو الذي يقتضيه تطور الحياة المدنية . ويرجع هذا الى قلة الكتب التي تتناول أسلوب معاملة الطفل ثم قلة من يقرأ هذه الكتب ، ثم قدرة من يتبع ما جاء بها ، والتصرف ازاء الصغير يكون دائما من وحي الساعة . ومن أخطر العوامل المؤثرة في سلوك الصغير هو جهل أحد الوالدين بأن من شأن بعض التصرفات ان تكون من عوامل انحراف الحدث . ومن هذا القبيل القوة الشديدة التي لا مبرر لها حين ارتكابه لخطأ وقد يصل الحال الى المروق من سلطة الوالدين ، وتقابل القسوة اللين المتناهي لاي سبب كان ، لان التفاضل عن أخطاء الصغير او التهوين من أمرها قد يكون من أثره استمرار الصغير في سلوك يؤدي الى انحرافه . وقد يكون الإهمال بدوره من عوامل الانحراف ، لان معناه افتقار الصغير للرعاية والتوجيه ويسفر عن انعدام الرقابة على السلوك ، يستوي في هذا ما يجري داخل المنزل او العلم بما يتعلق بحياة الصغير خارجه . وفي بعض الاحيان قد تؤدي التفرقة بين الابناء واختلاف معاملاتهم الى حقد من جانب بعضهم تجاه البعض الآخر ، وهو شعور اذا عززته عوامل أخرى قد يؤدي بالحدث الى الانحراف .

ولقد سبق ان عرضنا للظروف الاقتصادية وعلاقتها بالبيئة ، ولاشك في ان القدرة الاقتصادية للاسرة تكون سعيًا في تحديد كثير من العوامل المؤثرة والتي قد تؤدي الى اجرام الاحداث (٤٩) .

وأول ما يتأثر بالظروف الاقتصادية هو المسكن الذي يقيم فيه الحدث ، ذلك ان رب البيت يتخير المكان في الحي الذي يتماشى مع اقتصادياته وموارده ، وتؤثر القدرة الاقتصادية في تحديد مدى صلاحية المكان للسكن من ناحية أثنائه واتساعه وكونه صحيا من عدمه ، ولهذا اكبر الاثر في استقرار الصغير داخل المسكن او الثورة عليه والهرب منه الى الطريق لا سيما في اوقات الفراغ . ولعلنا نلاحظ هذا في انطلاق الاحداث في كثير من الاحيان الى الشوارع في تجمعات لقتل الوقت وهي في ذاتها قد تكون بؤرة لتكون جرثومة الاجرام . وقد ثبت من البحث الخاص بجرائم السرقة عند الاحداث (٥٠) ان حالة اسر الاحداث المهنية في مستوى منخفض جدا .

والعلاقة بين الأب والأم لها اثرها الكبير في سلوك الطفل ، فالخلاف بين الزوجين قد يميل بالصغير الى جانب آخر ، وقد لا يستطيع الكشف عن مشاعره في صورة صريحة فينعكس هذا في صورة تمثل انحرافا يقود الى الجريمة . وقد يرجع انتفاء الهدوء في المنزل الى ضعف احد الزوجين ازاء الآخر ، على ان أحد الطرفين - لاسيما اذا كان الأب - يعطي امثلة للأولاد فتطبعهم بأحدى الصورتين الضعف او التحكم ، وهو أمر لا تحمد عواقبه . ومن الأمور الملحوظة في حياتنا

(٤٩) دراسة مقارنة عن الاحداث في الشرق الاوسط ص ٢٤

(٥٠) بحث السرقة عند الاحداث .

البيئة والجربة

ان ضرورات الحياة اضطرت كلا من الأب والام الى الانطلاق في سبيل الحياة كسباً للعيش .
ويترتب على هذا ان يفقد الطفل الرعاية الابرية له ، ويترك في بعض الاحيان في مجتمع الطريق
لدى بعض الجيران ، بل انه حتى بعد عودة الوالدين من العمل لا يكون لديهما من الوقت او
الجهد ما يكفي لرعاية الصغير ، ومن المعروف ان ما يؤثر في سلوك الصغير المشاكل التي تنشأ اما
عن وفاة أحد الوالدين أو هما معا أو الانفصال بينهما بالطلاق ، ثم حياة أحد الزوجين مع بديل
للأب أو الام .

وللتعليم اثره العميق في الارتفاع بالمستوى الفكري والثقافي للانسان ويساعد على تكوين
شخصيته المستقلة وعلى حسن تقديره للأمور . وتدل الاحصائيات الجنائية سواء في مصر أم في
الخارج على أن النسبة الغالبة من المجرمين -أحداثا وبالقيين - هي للاميين ولن لا يحسنون
القراءة والكتابة ، ومن شأن التعليم خلق نماذج السلوك المعادي للجرام . والمدرسة من أولى
الجماعات المنظمة التي ينضم اليها الطفل في خارج منزله في السنوات الاولى من حياته ، واذا كان
الصغير يجد في المنزل نماذج سلوكية محدودة ، فان مجتمع المدرسة الجديد يلتقي فيه بنماذج
عديدة متألفة او متنافرة ، وهو في حد ذاته قد يجد نفسه ازاء تلك النماذج ، ولا بد له ان يختار
بعضها سواء بمجرد دافع التقليد أو انسياقاً في تيار الجماعة . ومع هذا قد يعينه غيره في
عملية الاختيار (٥١) . وتأتي اثر هذا اهم مشاكل التربية السلوكية ، وهي تحديد دور كل من البيت
والمدرسة في تربية الصغير ، ويمكن لنا القول بأن قصر الواجب على البيت وحده او على المدرسة
وحدها امر غير مقبول ، وانما الخير في المعاونة بينهما في تعرف عيوب الصغير الذي يحتمل ان
تؤدي الى انحرافه والعمل معا على ابعاده عنها .

وقد ينتقل الصغير من البيت الى العمل مباشرة ، لاسيما في الاسرة التي تحتاج اقتصاديا
الى دخل الصغير ، وقد يمضي الحدث فترة في المدرسة ثم لا يتم تعليمه لسبب أو لآخر ويلتحق
بأحد الاعمال ، وفي العمل يلتقي الحدث بأفراد عديدين لهم نماذج سلوكية معينة . ويختلف
مجتمع العمل عن مجتمع المدرسة ، فالخير يحوي الحسن الى جوار السوء ، واذا كانت المدرسة
تهتم بالناحية السلوكية فان رب العمل لا يعني الا بالناحية النظامية ولا يعنيه من السلوك الا ما
يؤثر في سير العمل . والتجمعات المختلفة التي تفرضها طبيعة مجتمع العمل لها اثر كبير في
النماذج السلوكية التي يتخيرها الفرد ، سواء اكانت اجرامية او معادية للجرام ، وقد تفرض
ظروف العمل على الحدث ان تكون له صلة بأفراد معينين لا خيار لهم في انتقائهم . ومن هذا قد تبدأ
بلدرة الجريمة في الانبات ، ويتصل بها الحدث متأثراً بفرصة الجماعة دون ان توجد نماذج اخرى
معادية للجرام تساعده على مقاومة عوامل الاجرام .

(٥١) فالبيئة المدرسية تمنح وسطا يعمل اما للخير او للشر ، سلوك الفرد (برنس ص ٤٠)

واخيرا فقد يجتمع الاحداث خارج نطاق المنزل او المدرسة او محل العمل ، ويكون هذا فيما يسمى بمجتمع الطريق . ومن هذا القبيل الشارع والسينما والمقاهي والحدائق العامة .

واجتماع الحدث مع غيره من الرفقاء امر تدفع اليه الفريزة ، ويؤدي انطلاق الحدث الى الطريق الى اجتماعه بغيره ، سواء من كان في سنه او يكبره او يصغره ، فتكون الجماعات الصغيرة . ولا شك في ان افراد تلك الجماعات تحوي نماذج سلوكية مختلفة تتقارب حتى لتكاد تتحد مع مرور الوقت ، والحدث في المجموعة يؤثر او يتأثر بها حسب قوة شخصيته ومدى الاستعداد المهيأ له . ولما كان السلوك غير المعادي للاجرام يشجع عليه التجمع فان احتمال انزلاق بعض جماعات مجتمع الطريق الى الجريمة امر متوقع .

البيئة والتغير الحضاري :

يتبادر الى الذهن التساؤل عما اذا كان للتنمية الاجتماعية والاقتصادية من اثر على حجم الجريمة واتجاهاتها ، وبمعنى آخر هل هناك علاقة بين التحضر والجريمة من ناحية ، والتصنيع والجريمة من ناحية اخرى ؟ والاجابة على هذا السؤال ليست من البساطة بمكان ، لانها تقتضي ابتداء تحديد المراد من لفظي التحضر والتصنيع . ولا نستطيع القول بأن هناك ضابطا محددا يمكن معه التفرقة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية ، على انه بالنسبة الى مصر وفقا للاحصاء السنوي الذي تصدره الدولة (٥٢) ، يعتبر مناطق حضرية المحافظات وعواصم المحافظات وبنادر المراكز ، اما غير هذا فيعتبر من المناطق الريفية . واذا كاد مغاد التصنيع هو انقلاب كامل في سياسة الدولة الاقتصادية ، بمعنى ان تعتبر الصناعة العمود الاساسي في اقتصادها الا انه بالنسبة لمصر فان الاساس هو الزراعة ، وسياسة التصنيع ما تزال في بدايتها ، ولا يمكن ان يعتبر المجتمع المصري بالمنشآت الصناعية المستحدثة مجتمعا صناعيا .

ومع هذا فبقدر التحول الموجود في مصر هل يوجد تغير في خط سير الاجرام ؟ ان هناك صعوبة لا يسهل الافلات منها ، وهي ربط الجريمة بالتحول القائم في المجتمع ، بمعنى اعتبار التحول سببا في ظاهرة معينة تتعلق بالجريمة . فالسلوك الاجرامي نتيجة لعوامل عديدة تتفاعل مع بعضها وتوصل اليه . على ان هذا لا يمنع من ملاحظة بعض التغيرات التي تطرأ على الاجرام في المجتمع وتكون مرتبطة بسياسة التحول . ومن ناحية اخرى يفقر الحال الى الاحصائيات التفصيلية الدقيقة التي يعتمد عليها في هذا الصدد . واذا رجعنا الى مختلف بيانات الاحصائيات في مصر لا نجد اي تمييز جوهري قد دخل عليها نتيجة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية ، حتى ان كثيرا من الجرائم المنتشرة والمعروفة حاليا لم تدرج بها . واكثر من هذا تأتي الاحصائيات الحالية

(٥٢) راجع الكتاب السنوي للاحصائيات العامة لمصر الذي يصدره الجهاز المركزي للتعبئة .

البيئة والجريمة

صامته فيما عدا اشارات عابرة عن سير الاجرام في مقدمة تقرير الامن العام ، في حين ان الجداول الاحصائية السابقة كانت تحوي دراسة عنها وتقليلا للنتائج التي توصل اليها ، فضلا عن ان تقارير الامن العام كانت تشمل ملاحظات رجال الامن في كل محافظة عن حالة الاجرام والاقتراحات الخاصة بمكافحة الجريمة .

واذا نظرنا الى الاحصائيات الجنائية - لاسيما الخاصة بتقارير الامن العام - لوجدنا ان الجرائم - وعلى الاخص الخطيرة منها - تتجه نحو النقصان ، وهي نتيجة تلفت النظر لاسيما مع ازدياد تعداد السكان ، وتدعو لدراسة خاصة لمعرفة ما اذا كان هذا النقصان ظاهريا أم يطابق الواقع . وحتى لو ثبتت حقيقة هل يرد هذا الى التحول الذي طرأ على المجتمع او الى تقدم المدنية الطبيعي في كل الدول مع مرور الايام ؟ والدراسة الحققة لاثار التحول يجب ان تبدأ بالريف أولا .

والبحت فيما اذا كانت التنمية الاجتماعية والاقتصادية يؤديان الى ازدياد الاجرام من عدمه لا يقتصر على المجتمع المصري ، بل هو يتناول كل الدول التي تمر بهذه المرحلة من دول العالم الثالث . وقد كان الموضوع من بين ما طرح على المؤتمر الدولي الثاني لمكافحة الجريمة ومعاملة المذنبين الذي عقد في لندن سنة ١٩٦٠ وتبين من المناقشات التي دارت حوله ان الراى لم يستقر على اثر التحول الاجتماعي والنمو الاقتصادي في حجم الاجرام ونوعه . فبينما عرض بعض الاعضاء تجارب بلادهم الفعلية كانت هناك آراء مغايرة لذلك .

وقال المدير العام انه من الواضح انه لا تتوافر لدينا المادة العلمية الكافية للوصول الى نتائج على قدر كاف من الوضوح ، وفي مقدمة هذا النقص عدم دقة الاحصائيات الجنائية المتاحة ، ويبدو هذا جليا في ان الارقام عن الحضر والارقام عن الريف لا يفصل بينهما خط واضح ، اذ ان ما هو حضري وما هو ريفي في ذاته ليس شيئا محددا ، بل حتى ولو كانت الارقام مما يمكن الاعتماد عليه فانها لا تفصح عن المضمون الاجتماعي وراء هذه الارقام ، وهو مضمون شديد الاختلاف من جماعة الى اخرى مما يجعل من الصعب الوصول الى تفسير دقيق لهذه الارقام ، او امكان اتخاذها اساسا للمقارنة من جماعة الى جماعة .

وقد كان من اهم التوصيات التي اقراها المؤتمر ما يأتى (٥٢) :

١ - ليس الاجرام نتيجة لازمة للتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادي في الدول الاقل نموا . فالتغيرات الاجتماعية ، وكذلك النمو الاقتصادي ، كلاهما امر محتم ومقبول ، وقد يؤديان في ظروف مناسبة الى نقص الجريمة . وتعبير الدول الاقل نموا انما يشير الى حالة من النمو الاقتصادي فحسب .

٢ - الاجرام الذى قد ينشأ عن التغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا لا يعتبر الآن من صور السلوك التي لم تكن معروفة من قبل . ولذلك ينبغي تركيز الاهتمام على صلة زيادة الاجرام بوجه عام بالتغيرات الاجتماعية ، لا قصره على صورة خاصة من الاجرام .

٣ - قد ظن خطأ ان الهجرة ، وخاصة الهجرة الداخلية ، التي تقرر عادة بالتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا ، من أسباب الاجرام ، والواقع ان الهجرة فى ذاتها ليست سببا للاجرام ، بل ان عدم الاستقرار الحضارى وضعف الضوابط الاجتماعية التقليدية والتعرض لمستويات متضاربة من السلوك الاجتماعى مما يرتبط بالهجرة ، كل ذلك من شأنه ان يتسبب فى الاجرام . وهذا النظر يصدق أيضا بالنسبة الى ظاهرتي التحضر والتصنيع .

٤ - ويلاحظ انه عند بحث مشكلة الاجرام وعلاقته بالتغير الاجتماعى يتجه النظر بصفة عامة الى المناطق الحضرية ، وهو أمر وان كان من الممكن تبريره الا أن الحكمة تقتضى أيضا ان يوضع موضع النظر والاعتبار أثر التغير الاجتماعى فى المناطق الريفية ذاتها ، اذ ان ذلك قد يكشف عن جذور الجريمة التي تعلن عن نفسها فيما بعد فى المجتمع الحضرى .

وقد قام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايئة بدراسة التحضر والجريمة فى مصر (٥٤) معتمدة على احصائيات وزارة العدل لما توافر فيها من تحديد وتقريب للجرائم المختلفة كما جاءت فى قانون العقوبات ، ومن استمرار نفس التبويب والتصنيف للبيانات المختلفة فى المدة الزمنية المحددة للدراسة ، وهي من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥٧ . واتضح من هذه الدراسة ان جرائم الجنايات والجنىح تزيد بصفة عامة فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنايات تزيد جرائم العنف المرتكبة ضد الاشخاص لاسباب انتقامية ، وجرائم الانتقام بالحرق العمد ، او قلع المزروعات ، او تسميم المواشي فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية . اما جرائم السرقة والرشوة والتزوير والاختلاس والفسق وهتك العرض والقود تزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنىح تزيد الجنىح التالية فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية ، تسميم المواشي واتلاف المزروعات . اما الجنىح الآتية فتزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية : السرقة ، التشرذم ، النصب ، خيانة الامانة ، الضرب ، القتل الخطأ ، الهروب من المراقبة .

وفي محاولة معرفة اتجاه الجريمة في المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية خلال المدة من ١٩٤٧ الى ١٩٥٧ اتضح الاتي :

١ - ان جرائم الجنايات بصفة عامة أخذت في الانخفاض تدريجيا حتى ١٩٥٢ ، وكانت نسبة انخفاض الجنايات في المناطق غير الحضرية أكبر من نسبة انخفاضها في المناطق الحضرية باستثناء عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .

٢ - بدأت جرائم الجنايات بصفة عامة في الزيادة ابتداء من عام ١٩٥٢ الذي زادت فيه بشكل كبير حول الانخفاض التدريجي الى ارتفاع تدريجي .

٣ - كانت جرائم الجنايات بصفة عامة أكثر ميلا للارتفاع بشدة في المناطق الحضرية عنها في المناطق الحضرية ، بينما تميل الى الانخفاض بشدة في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية .

٤ - جرائم الجنح بصفة عامة أخذت في الارتفاع التدريجي عام ١٩٤٦ وانخفضت بشكل كبير عام ١٩٥٧ . وايضا تبين ان الجنح بصفة عامة أكثر ميلا للارتفاع بشدة في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية .

والذي يمكن استخلاصه من هذه الدراسة ان الجرائم التي يمكن ان يطلق عليها الجرائم الانتقامية - لا سيما ما كان منها متعلقا بالاعتداء على الاشخاص - تغلب دائما في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية . وان جرائم الاعتداء على المال، والتي تكون الغاية منها الكسب تغلب في المناطق الحضرية عنها في المناطق غير الحضرية . وقد لوحظ ايضا ان مختلف أنواع الجرائم - الجنايات والجنح - تتجه دائما نحو الارتفاع. هذا وانه وان كانت الدراسة قد تناولت حجم الجريمة منذ عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٧ الا انها لا تكشف عن اثر التحول الذي حدث في المجتمع على سير الاجرام ، لانها اعتمدت على احصائيات وزارة العدل التي لم تتغير جداولها وبياناتها للجرائم خلال هذه الفترة .

وقام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة اخرى عن ظاهرة الجريمة في أسوان (٥٥) وذلك في المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤. وقد جاء في مقدمة هذه الدراسة ان مجتمع أسوان كان - الى حين تنفيذ مشروع السد العالي - مجتمعا محتفظا باصالته الريفية وبالعلاقات الاجتماعية التي تنمو في كل مجتمع زراعي ، وقد ترتب على تنفيذ مشروع السد العالي ورود عدد كبير من العمال والمهندسين والموظفين من جميع انحاء الجمهورية بمنطقة السد

العالي ، وقيام بعض الصناعات التي يحتاجها المشروع : ولما كان هؤلاء العمال والموظفون يرتبطون اساسا بالصناعة ، فقد كانت تسودهم قيم واخلاقيات وعادات اجتماعية تختلف اختلافا كبيرا عن القيم والاخلاقيات والعادات الاجتماعية التي تسود سكان أى مجتمع زراعى .

وانه بشكل عام يمكن القول بأن مجتمع أسوان قد تحول بعد بدء العمل فى مشروع السد العالي الى مجتمع صناعى تتضح فيه كل السمات الأساسية التي يتسم بها هذا النوع من المجتمعات، ومن الظواهر التي تأثرت تأثيرا كبيرا بالتفسير الجدرى الذى حدث فى تلك المنطقة ظاهرة الجريمة .

ويمثل الجدول التالى جرائم الجنايات التي وقعت خلال المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ :

السنة	الجريمة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق	جنايات أخرى	جملة
١٩٥٩	٤	٢	١	٢	٣٤	٤٣	
١٩٦٠	١٠	١	٢	٣	٢٥	٣٩	
١٩٦١	٥	٢	١٠	١	٢٧	٣٤	
١٩٦٢	٥	٢	٣	١	٢٠	٢٧	
١٩٦٣	٤	٢	١	١	٣٩	٤٦	
١٩٦٤	١٤	٣	١	١	١٥	٦٩	

أما جنح السرقة فقد بلغت نسبتها الى مجموع الجنح خلال السنوات ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ على التوالى كما يأتى : ٣١٩٩ ٪ ، ٢٧٢٢ ٪ ، ٢٥٥٥ ٪ ، ٣٢٣٣ ٪ .

واتماما لعقد المقارنة يمكن اضافة الجدول التالى عن جرائم الجنايات :

السنة	الجريمة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق
١٩٣٨	٩	١٢	—	١٧	
١٩٤٨	١١	٨	—	١٣	
١٩٥٨	٦	١٠	١	٨	
١٩٦٨	١٢	٦	—	٢	
١٩٧١	١١	١١	١	١	
١٩٧٤	٧	٤	—	١	

فهل يمكن ان نستنتج من الجدولين السابقين الخاصين بجرائم الجنايات اثر تحول المجتمع فى أسوان على ظاهرة الجريمة ؟ ، فى رأينا انه لم تتوافر بعد البيانات الكافية لاستخلاص نتيجة يعتمد عليها . فالجدول المستخلص من بحث المركز القومى لم يبين النسبة المئوية للجريمة

البيئة والجريمة

بالقياس الى عدد السكان في محافظة اسوان الذي تزايد بدرجة كبيرة بما قد يؤدي الى الانخفاض في نسبة الاجرام لا في زيادته ، لا سيما اذا رجعنا الى الجدول الثاني حيث تكاد تكون جنيات القتل والشروع فيه متقاربة . هذا ومن المسلم به انه لا يمكن تحديد الآثار الناشئة عن تحول المجتمع في سنة محددة اثر سنوات تالية ، وانما يحتاج الامر الى دراسة كل جريمة على حدة . وعلى سبيل المثال اذا كانت جريمة القتل ترتكب للثأر فهل يؤثر التحول الاجتماعي عليها ؟ والامر لا يختلف بالنسبة الى الجنع حيث تكاد تكون نسبة جنح السرقة خلال سنوات الدراسة متقاربة ، والمهم هو مقارنة هذه النسب مع ما كان عليه الحال قبل تطور المجتمع . وخلاصة قولنا ان الامر يحتاج الى مزيد من الأبحاث والدراسات .

ومما يتصل بالتغير الحضاري وله اثر بالغ في سلوك الفرد على أية صورة كان سواء كانت اجرامية او سوية ، هو اثر اجهزة الثقافة والترفيه في الاجرام ، ذلك ان هذه الوسائل تعتبر جزءا من الوسط الذي يعيش فيه الفرد ويتأثر به (٥١). فوسائل الاعلام المختلفة تلعب دورا خطيرا في الحياة الثقافية لافراد الشعب ، فاذا قدمت نماذج صالحة كان لهذا اثره على المستوى السلوكي ، اما ان عرضت لصور من الاجرام بشكل يشير الفرائز الكامنة في الانسان ، فانها بهذا تشجع السلوك الاجرامي . ولقد تناول كثير من الباحثين دور وسائل الاعلام في نشر الجريمة او مكافحتها ، حيث يسعى بعضها الى مجرد الكسب المادي دون نظر الى ما قد يسفر عن ذلك من نتائج ، فتصوير المجرمين في صور البطولة ، وجلب عطف القراء عليهم ، وايضاح سبل ارتكاب الجريمة ، والهرب من ادلتها واعداد نتائجها سلفا ، كل هذا قد يكون من العوامل المساعدة على السلوك الاجرامي .

ونستطيع القول بأن الآثار الخطيرة التي ظهرت لوسائل الاعلام في بعض البلاد الاجنبية لم تصل الينا بعد ، وذلك للصورة المقبولة التي ينشرها عن الجريمة . وان كانت هناك بعض الوقائع التي اعترف فيها المهتمون بانهم رسموا طريقهم في ارتكاب الجريمة وفقا لما شاهدوه في بعض الأفلام ، الا ان تلك الوقائع مازالت فردية لا تمثل خطورة . ولم تستطع نتائج الابحاث التي اجريت قديما وحديثا بيان تأثير ادوات الاعلام في السلوك الاجرامي لا سيما بالنسبة الى الاحداث .

خاتمة :

راينا فيما تقدم ان الجريمة تعتبر احدي الظواهر الاجتماعية ، وانها موجودة دائما منذ خلقت البشرية الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، فلا مجتمع بغير جريمة . والجريمة وان كانت ضرورة فهي في ذات الوقت شر ، يقتضي مداومة البحث عن مختلف السبل للاقلال من ضررها على المجتمع ، واقتضى الامر تحديد الجريمة التي نستحث الباحث على الاهتمام بها

ومتابعاتها وتقصي عواملها وتتبع آثارها ، ثم لزم تبعاً لهذا أن يحدد نطاق البيئة ، وهو أمر من الدقة بمكان ، ذلك لأن أى حدود لمعنى البيئة اتسعت أم ضاقت - لا بد وأن يدخل عليها أو يخرج منها بعض العناصر ، لأنها على أية صورة تتفاعل مع مختلف الظروف والعوامل المحيطة بها . وعلى هذا فقد رأينا أن كل ما يراه العلماء عاملاً من عوامل الاجرام له صلة بالبيئة من قريب أو بعيد ، واقتضانا هذا أن نتناول تلك العوامل واحداً بعد الآخر لنتبين مدى ما يتركه من اثر في السلوك الاجرامى على وجه الخصوص . ولا شك في أن كل عامل من العوامل يمكن تناوله مستقلاً وبالتفصيل ، سواء من الناحية النظرية أو من الناحية التطبيقية ، ولكننا أردنا في هذا البحث أن نلم بتلك العوامل مجتمعة حتى تتضح معالم صورة البيئة كاملة ، ويستطيع من يتناول دراسة عامل معين أن يكون في اعتباره قيام كل أو بعض العوامل الأخرى .



المراجع

أولا - اللغة العربية :

- ١ - احمد ابو زيد - الآثار ، دراسة انثروبولوجية باحدى قرى الصعيد ، من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايية - القاهرة ١٩٦٥ .
المجلة الجنايية القومية ، نوفمبر ١٩٦٢ .
- ٢ - احمد على المجدوب - دراسة لقاهرة الجريمة في قرية طهواى - المجلة الجنايية القومية - يولية ١٩٧٣ .
- ٣ - احمد محمد خييفة - الوقاية من الجريمة الناشئة عن التغير الاجتماعى المصاحب للتنمية الاقتصادية في البلاد الاقل نموا - المجلة الجنايية القومية ، مارس ١٩٦١ .
- ٤ - حسن المرصفاوى - الاجرام والعقاب في مصر - الاسكندرية - ١٩٧٢ .
- ٥ - حسن المرصفاوى ومحمود السباعى - مبادئ علم الاجرام ، مترجم (سترلاندى كريسى) القاهرة ١٩٦٩ .
- ٦ - زكريا طه - جريمة الخطف في جمهورية مصر العربية - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٤ .
- ٧ - سمير الجزورى - النزلات المحكوم عليهن بسجون الاقليم المصرى - المجلة الجنايية القومية نوفمبر ١٩٥٩ .
- ٨ - سيد عويس - حجم مشكلة جناح الاحداث واتجاهاتها وعواملها في الجمهورية العربية المتحدة - المجلة الجنايية القومية - يولية ١٩٦٥ .
- ٩ - سيد عويس ، شهيرة الباز - ظاهرة الجريمة في محافظة أسوان - المجلة الجنايية القومية - يوليو ١٩٦٦ .
- ١٠ - عبد العزيز محمد القطنى - سمات الجريمة في محافظة البحيرة والتخطيط لمكافحتها - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٤ .
- ١١ - محمد الهسابل - الاجرام في مصر - اسبابه وطرق علاجه - القاهرة ١٩٤١
- ١٢ - محمد خيرى محمد على - الريف والحضر وظاهرة الجريمة - القاهرة ١٩٦٥ .
- ١٣ - محمود عبد الرزاق عبد العال - نوعية الجريمة في بحيرة المنزلة - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٥ .
- ١٤ - منصور غيث قنديل - الامن العام في الجمهورية الليبية - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٥ .
- ١٥ - الأمم المتحدة - دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث (الجزء الخاص بالشرق الاوسط) ١٩٦٦ .
- ١٦ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايية - دراسة التحضر والجريمة في الاقليم المصرى - المجلة الجنايية القومية - مارس ١٩٥٩ .
- ١٧ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايية - السرقة عند الاحداث - من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايية .
- ١٨ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايية - العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث ، المجلة الجنايية القومية - نوفمبر ١٩٦٥ .

ثانياً - اللغة الأجنبية :

1. Bonger W. T. : An Introduction to Criminology, 1936.
2. Bouzat Pierre et Jean Pintil : Traité de droit pénal et de criminologie, T. III, 1968.
3. East Norwood : Society and the Criminal, 1951.
4. Kolaly, El-Mohamed : Essai sur les causes de la criminologie actuelle en Egypte, 1929.
5. Mays, John Barron : Crime and Social Structure, 1963.
6. Pinatel, Jean : La Criminologie, 1960.
7. Prins, Hershel : Criminal Behaviour, 1973.
8. Seeling, Ernst : Traité de criminologie, 1956.
9. Stefani, J. & G. Levasseur & R. Jambu Marlin : Criminologie et science penitentiaire 1970.
10. Sutherland, Edwin H. & Donald Cressey : Principes de criminologie, 1966.
11. Tannenbaum Frank : Crime and the Community, 1963.
12. Wolfgang, Marion & Leonard Sairtz & Norman Johnston : The Sociology of Crime and Delinquency, 1970.

★ ★ ★

محمد عبد الرحمن الشرنوبي *

بيئة العصر: بين البقاء والفناء

منذ ملايين السنين وعوامل التعرية الهوائية والمائية والتغيرات المناخية تعمل على تغيير العديد من مظاهر البيئة الطبيعية ، ولم يكن يخطر ببال احد ان جنسا واحدا من اجناس الكائنات الحية العديدة التي تحيا حياة الارض ، يمكن أن يعمل بجد - سواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد - على دمار هذا الكوكب أو تخريبه والعمل على تدهور ظروفه الطبيعية الا منذ ٨٠٠٠ سنة مضت في صورة هذا الانسان الجوال المطارد ، الذي يطوف اجزاء الارض بحثا عن الطعام ، ثم تطور الى فلاح يزرع الارض ، ثم جاءت المدنية فحياة المجتمعات الصناعية التي ضوعفت فتضاعفت المخاطر التي تتعرض لها بيئة هذا الكوكب .

لقد كانت الاسرة البشرية الاولى تعمل بجهد لا يعرف الكلل على جمع طعامها بمطاردة الحيوانات خلال ما يعرف بالعصر الحجري القديم . وكانت في هذا متفاعلة تماما مع

* دكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي ، استاذ الجغرافيا المساعد بكلية الاداب والتربية بجامعة الكويت .

المجتمعات البيولوجية المحيطة بها . ولقد أسهمت الأدوات التي استخدمها الإنسان آنذاك في تكوين أسرة مدربة تدريباً راقياً على مطاردة الحيوانات والإيقاع بها ، ومع ذلك فلم يكن تأثير هذا الإنسان على تلك المجتمعات البيولوجية يختلف حقيقة عن تأثير أى نوع من أنواع الكائنات الأخرى كالحيوانات آكلة اللحوم وآكلة العشب ، ولكن الصورة تغيرت تماماً مع مسيرة التاريخ الإنسانى الطويلة .

لقد جاء أول تغير على العلاقة بين الإنسان والبيئة مع اكتشاف النار . ولقد كان ذلك الحدث الخطير في حد ذاته من أهم الأحداث التي عاصرت خروج الإنسان من أسر الطبيعة من حوله أو من تفاعله الهادئ مع عناصرها . فليس هناك أى كائن آخر يستطيع أن يشعل النار ويستخدمها . وعندما بدأ الإنسان يتحكم في هذه الظاهرة الخطيرة - النار - ازداد استخدامه لها ، فأحدث بذلك الكثير جداً من التأثيرات الإيكولوجية ذات المدى البعيد والخطير . (١)

ولقد مرت علاقات الإنسان بعناصر البيئة من حوله آنذاك بتغيرات هائلة ، ولكنه كان في كل تصرفاته وعلاقاته وتفاعلاته مراعيًا للمبادئ الإيكولوجية ، كما نجح في استمرار بقاء الجسور ممدودة بينه وبين البيئة بعناصرها المختلفة من حوله . كذلك نجح في استغلال هذه العناصر بحكمة متناهية وبصيرة نافذة ، ربما عن غير قصد ، إلا أن إثبات ذلك يعتبر أمراً عسيراً ، وإن كان من الثابت أن ذلك الإنسان لم يكن يميز - كما يفعل إنسان العصر - بين ذاته كإنسان ، وبين العالم الطبيعى المحيط به .

لقد أطلق علماء الأنثروبولوجيا على تلك التغيرات اصطلاح ثورة العصر الحجري الحديث Neolithic Revolution ، رغم أن اصطلاح «ثورة» هنا ربما لا يتلاءم تماماً مع التغيرات التي حدثت على امتداد ملايين السنين ، ولكونها حدثت في أزمنة متباعدة ، وفي تلاحق مستمر ، وفي أجزاء مختلفة من العالم . واستطاع الإنسان آنذاك - رغم اعداده البسيطة - أن يتدخل في بيئته .

ومن خلال ممارسة هذا الإنسان لنشاطاته المختلفة خلال ذلك العصر ، تمكن من تطوير أدوات صيده وأسلوب مطاردته لفريسته . ولقد كان مسرفاً في ذلك إلى حد كبير . (٢) فكان يقود قطعان الحيوانات إلى الشراك المختلفة وإلى الجروف ليسهل القضاء عليها في جماعات . وعلى الرغم من ذلك ، ونتيجة لقلّة أعداد السكان خلال ذلك العصر ودوام حركتهم ، كان تأثير الإنسان في البيئة تأثيراً محلياً ومؤقتاً . فالأرض كانت تعطى الفرصة لاستعادة ما فقدته من غطاء نباتي ، وكان الإنسان يعود إليها ليمارس نشاطه من جديد وكأنها أرض جديدة حل بها .

(١) Marston Bates : „ The Human Ecosystem ”, Firm Resources and Man, by the Committee on Resources and Man of the Division of Earth Sciences, National Academy of Sciences — National Research Council, 1969, and, Ecological Crisis, Edited by G.A. Love & R.M. Love, N.Y., 1970, P. 3 .

(٢) محمد عبد الرحمن الشرنوبى : « جغرافية السكان » القاهرة - مكتبة الانجلو ، ١٩٧٢ ، ص ص ٥٥ - ٥٩ .

بيئة العصر : بين البقاء والبقاء

ولا نملك الدليل حقيقة على ان ثمة ثورة اقتصادية قد حلت مع بداية العصر الحجري الحديث ، فقد ظهرت الزراعة واستئناس الحيوان بالتدريج منذ العصر الحجري الاوسط Mesolithic ، وتجمعت هذه الاتجاهات خلال العصر الحجري الحديث عندما ظهر الانسان بوضوح كحيوان « سيد » شرع في غزو بيئته النباتية والحيوانية واخضاعها ، بدلا من التكيف معها .

وتدخل انسان العصر الحجري الحديث في البيئة عن طريق زراعة المحاصيل واستئناس الحيوانات، ومن ثم عمل على اجتثاث الغابات، مما تسبب في ازالة التربة وتلوث الانهار بالرواسب كما عجل بعمليات التعرية الطبيعية بالتدريج . وكان اعداد الحقول وزراعة المحاصيل والعناية بالحيوانات واعداد المواد الغذائية ومنتجات الحيوانات ، يتطلب حياة جماعية في قرى أكثر من حياة القبائل الرحل . وازداد نظام القرى تعقيدا عندما كانت تحصل قرية ما ، على مورد طيب من الاحجار ، فتصنع قوسها وتطورها ، وكانت الاخرى تلجأ الى الطمي لصناعة الاواني ، وثالثة تلجأ الى الالياف النباتية لعمل السلال . وكانت مثل تلك المنتجات المتنوعة توزع وتنتقل من مكان الى آخر عن طريق التجارة ، الامر الذي استلزم تمهيد بعض الطرق لبتيسر الانتقال .

ولقد كان الامتداد المنطقي لهذه الميول ، هو ما آلت اليه حياة المدن الآن ، ودمار الغابات الطبيعية ، وامتداد الرقعة الصحراوية ، ونظرنا الى الطبيعة الآن على اعتبار انها شيء ينبغي اخضاعه لكافة متطلباتنا في الوقت الحالي ، وليس شيئا ينبغي ان نتعايش معه في وفاق .

وحينما بدأ الانسان يمتلك القدرة على اتخاذ القرار الذي يناسبه ويقرر به مصيره ، استطاع ان يسيطر على كثير من مقدراته ومقدرات بيئته ، وهنا فقط بدأ يحطم كل القواعد الايكولوجية التي سبق ان تعايش معها وفي ظلها ، بل قدسها وعبدتها أحيانا ، (٢) فلقد حطم مسالك تدفق الطاقة ، ومزق نسيج الطعام الطبيعي واخل بسلسله ، وحقق لبعض جماعاته العزلة ، واخل بكثير من التفاعلات الاجتماعية ، ولم يتمكن من تحقيق التوازن بين موارده واعداد جنسه ، وتمادى في استغلال الارض والغابات ومصادد الاسماك في البحار والمحيطات ، ونشر الامراض ، وادخل نظما غريبة للحياة ، في الوقت الذي استأصل فيه النظم الاصلية وغير ملامحها بدرجة خطيرة .

ويرى العالم الانثروبولوجي البريطاني **جوردن تشيلد** Gordon Childe ان ما حدث بعد العصر الحجري الحديث انحصر في حدود ثورتين : الأولى هي الثورة الحضرية Urban Revolution ، والتي اهتمت بنقل وتخزين المواد الغذائية ، مما جعل في الامكان ظهور المدن والتخصص في العمل

(٢) يرى العالم الانثروبولوجي كون Carlton S. Coon ان حضارة العصر الحجري الحديث اكثر بكثير من موضوع بحث علماء ما قبل التاريخ ، وان التباعد عنها ربما يكون من اصعب المشاكل في العالم . (راجع : Marston Bates, O .Cit. (P. 36, 37.

والمعارف . اما الثانية فهي الثورة الصناعية Industrial Revolution ، والتي قامت على أساس استخدام الطاقة بدلا من استخدام عضلات الانسان والحيوان . وإن كان سنو C.P. Snow يضيف ثورة ثالثة اسمها بالثورة العلمية Scientific Revolution وهي تلك الثورة الحديثة المعاصرة التي جاءت عن اتحاد العلم والتكنولوجيا لحل المشكلات العملية المختلفة ، وهي الثورة التي اتاحت للانسان زيادة درامية محزنة في الطاقة خلال هذا القرن بما في ذلك الطاقة النووية الرهيبة، وتطور الأجهزة الالكترونية . وتعتبر هذه الثورة الأخيرة بالذات ، سببا رئيسيا في تلك التفجيرات الايكولوجية على نطاق عالمي أكثر من أي تفجيرات أخرى .



ترابط الغلاف الحيوي :

الغلاف الحيوي Biosphere مصطلح يشتمل على كافة المجتمعات التي ترخر بها بيئة هذا الكوكب في حياة ذات نظم وقوانين محكمة أيماحكام . ولقد انصب اهتمام العلماء لفترة قريبة على « أغلفة » الكرة الأرضية الأخرى دون الاهتمام بالغلاف الحيوي كغلاف يمثل وحدة واحدة مترابطة أثبتت الثورة العلمية المعاصرة ان له تأثيرا بالغا على سائر الأغلفة الأخرى . (٤)

وأهمية هذا الغلاف تتمثل في أن الانسان ، وهو أحد عناصره الرئيسية ، قد أصبح يدرك جيدا الآن أن هناك نوعا من « التكافل » الفردي بين مجتمعاته . وهو يمثل نظاما فريدا مترابطا رغم تنوعه الذي لا حد له . هذا التنوع لا يمكن لأحد أن ينكره ، فالصحراء والغابة على سبيل المثال ، نوعان من الأماكن مختلفان ، رغم أنه من الصعب وضع خط يحدد حدود كل منهما . غير أن الأنواع المختلفة والعديدة للمجموعات البيولوجية التي تتكون الغلاف الحيوي توضح وحدة حقيقية بالفعل . فالحياة في كل موقع منظمة وقائمة على مبادئ أساسية واحدة .

ومن المؤكد علميا أن الأحياء جميعا - من نباتات وحيوانات وكائنات أخرى - والتي تعيش في منطقة ما ، وتكون مجتمعا بيولوجيا مميزا ، مترابط فيما بينها في شبكة من العلاقات المعقدة . ولكل مجموعة من هذا المجتمع دور هام يؤديه لأفراد المجموعات الأخرى . ويميز علماء الأيكولوجيا بين هذه المجموعات ، فهناك الكائنات المنتجة Producers ، والحيوانات التي تتغذى عليها ، وتسمى بالكائنات المستهلكة Consumers ، وهناك الحيوانات التي تحيا مباشرة على النباتات

(٤) أغلفة الأرض تبدأ حول نواة مركزية صلبة يطلق عليها الباريسفير Barysphere يحيط بها الغلاف الصخري Lithosphere ، ثم الغلاف المائي Hydrosphere ممثلا في البحار والمحيطات ، ثم الغلاف الغازي Atmosphere ، وأمكن تمييز ثلاث طبقات جوية فيه أطلق عليها تروبوسفير Troposphere وستراتوسفير Stratosphere وإيونوسفير Inosphere ونلاحظ أن الغلاف الحيوي Biosphere قد سقط من هذه التقسيمات في شتى الدراسات رغم أهميته وارتباطه بالأغلفة الأخرى .

١٠٠٣

بيئة العمر : بين البقاء والفناء

وتسمى بحيوانات الصناعة الرئيسية Key Industry Animals لاعتماد عالم الحيوان كافة عليها ، ثم هناك المحللات Decomposers كالبكتيريا والفطريات لدورها في تحليل الأحيان بعد موتها .

وهذه المكونات البيولوجية متعاونة « مع العناصر الفيزيائية وتكون ما يسميه علماء البيولوجيا بالنظام الايكولوجى Ecosystem . ويؤكد المفهوم الخاص بهذا النظام على العلاقات الوظيفية فيما بين الكائنات الحية فيما يعرف بنسيج الطعام Food Web ، وبين تلك الكائنات وبين البيئة الطبيعية الخاصة بها . وتمثل هذه العلاقات الوظيفية في سلسلة الغذاء التي تتدفق من خلالها الطاقة ، كما تتمثل كذلك في الطرق والمسارات التي تتحرك على امتدادها العناصر الكيميائية الضرورية للحياة في ذلك النظام البيئي أو ذاك .

ولا شك ان الامام بطروف هذه العلاقات والوظائف أمر حيوى للغاية لفهم الآثار التى يحدثها الاخلال بالتوازن البيئي الضرورى من اجل بقاء ذلك « التكافل » بين عالم الأحياء . وإذا كان الاقدمون قد تصرفوا بوعى بيئي عن غير قصد ، فليس اقل من ان نتصرف بنفس المنطق ، ولكن عن قصد . وحتى يعود التوازن الى حالته ينبغي الا نظل على اسرافنا في اتلاف البيئة وتلويثها والعبث بقوانينها الأزلية ، مهما كانت الغاية : استثمارا أو استفلا أو ثراء أو رفاهاً . ان كل ما يلصق بزيادة السكان أو بالثورة التكنولوجية كمعامل ساهمت في تلف البيئة لا بد أن يوضع تحت المجهر ، ولا شك ان الادراك الواعى للانسانية ، والذي لن يتحقق في عالم لا يسوده السلام ، هو وحده السبيل الى اعادة الصداقة اللازمة لبقاء الانسان مع الطرف الآخر . . . البيئة .



انفجار البشرية :

يبلغ عدد سكان العالم الآن حوالى ٣٦ بليون نسمة بزيادة سنوية متوسطها ٧٠ مليون نسمة . الا ان هذه الأعداد الهائلة تكاد تقف على حافة عصر انقراض كامل ، نتيجة لتدهور البيئة المعاصرة . وليست هناك ظاهرة جيولوجية خلال الـ بليون سنة الماضية (مثل ظهور سلاسل الجبال الالتوائية الشاهقة وانخفاض كتل يابسة شبيهة بقارات بأكملها) قد هددت أو عرضت الحياة على سطح الأرض للفناء ، مثلما تفعل الآن ظاهرة الانفجار السكانى الذى نشهده منذ فترة .

وقد يمكن ان نميز بين نمو سكان مجموعة من الدول ونمو سكان مجموعة أخرى ، لكن الحقيقة تقول بعالم واحد . فليست المشكلة في تزايد سكان منطقة بمعدلات كبيرة فتتعرض لمشكلة ما ، وتزايد سكان منطقة أخرى بمعدلات أقل فلا تتعرض لمثل هذه المشكلة .

وليست هناك بيانات تاريخية مدونة ، نستطيع على أساسها ان نقدر عدد السكان الذين عاشوا على وجه الأرض قبل عام ١٦٥٠ . الا انه من المعتقد ان جملة عدد السكان في زمن السيد

المسيح عليه السلام كان يتراوح بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليون نسمة ، وقد ازدادت اعداد السكان حتى بلغت ٥٠٠ مليون نسمة في عام ١٦٥٠ ، ثم بلغت ١٠٠٠ مليون (بليون) نسمة في عام ١٨٤٠ ، ثم تضاعفت اعدادهم فبلغت (٢٠٠٠) مليون في عام ١٩٣٠ . ولقد حدثت عدة مضاعفات سابقة لمضاعفة اعداد السكان من عام ١٨٤٠ الى عام ١٩٣٠ الأخيرة هذه . فقد تضاعف السكان من قبل مرة خلال ١٥٠٠ سنة ، ثم جاء التضاعف الثاني خلال ٢٠٠ سنة ، وكان الثالث خلال ٨٠ سنة ، ولو استمر معدل زيادة السكان ٢٪ (كما كان في عام ١٩٦٨) فسوف يتضاعف عدد السكان خلال ٣٥ سنة فقط . (٥) ويعنى هذا المعدل ان هناك اضافات للسكان كل عام تقدر بحوالى ٢٠ نسمة لكل ألف من السكان . ويلاحظ انه باضافة ٢٠ نسمة لكل ألف من السكان كل عام سيتضاعف السكان خلال ٥٠ سنة . ولكن من المعروف ان تضاعف الزمن اقل بكثير من تضاعف السكان ، ويرجع ذلك الى ان نمو السكان ينمو بنفس طريقة نمو رأس المال عند حساب فوائده بطريقة الربح المركب ، اى كما يربح المال من ذاته ربحا معيناً ، ثم يربح هذا الربح ربحاً آخر ، وهكذا . ومن هنا كان التضاعف المنتظر يستغرق ٣٥ عاماً وليس ٥٠ عاماً . فكل اضافة من السكان ينتج عنها اضافة اخرى ، ومن ثم يختزل الزمن المتوقع ويواجه العالم بان الزيادة التالية ستتم في فترة اقصر (٦) (انظر الشكل رقم ١) .

ولقد كان **توماس مالتوس** اول من اهتم بزيادة السكان عندما نشر مقالته عن السكان في عام (١٧٩٨) اى في الوقت الذى كان فيه عدد سكان العالم اقل من ثلث عدد السكان الآن . ولقد كان مدخل مالتوس مدخلا ايكولوجيا سليماً . فقد اعتقد ان السكان من البشر يمتلكون قدرة حيوية لمضاعفة اعدادهم كل ربع قرن ، في الوقت الذى لا تحقق فيه الموارد المتاحة زيادة مماثلة . ولذا فان السكان ، ما لم يتحكموا في هذه الزيادة ، فان اعدادهم سوف تتجاوز حدود الموارد الغذائية ، وتكون الترجمة المنطقية لما سماه Dismal Thorem هي يؤس الانسان . (٧)

ولقد سخر بعض الناس من هذه النظرية بسبب موجة التفاؤل التى سادت القرن التاسع عشر ، وما زال هناك متفائلون . والحقيقة ان نظرية مالتوس قد ثبتت صحتها أكثر من مرة ، ففي ايرلندا ساعد ادخال زراعة البطاطس وزيادة ورخص الطعام ، على زيادة سكانية كبيرة . ولقد توقفت هذه الزيادة نتيجة لاصابة محصول البطاطس بآفة زراعية تسببت في مجاعة كبيرة عام

(٥) محمد عبد الرحمن الشرنوبى : « المشكلة السكانية في الربع الاخير من القرن العشرين » محاضرات الموسم الثقافي للجمعية الجغرافية الكويتية عام ١٩٧٥ (مجلة الجمعية - العدد الاول - ١٩٧٦ - الكويت) .

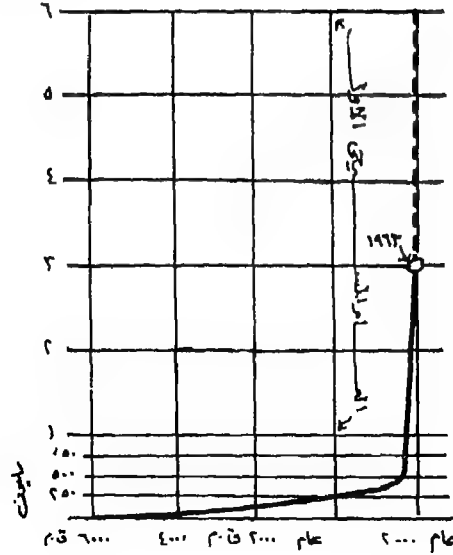
(٦) Ehrlich, P.R. & A.H., : "Population, Resources, Environment," Issues in Human Ecology, San Francisco, 1970, PP. 14-30.

(٧) Warren S. Thompson, : Population Problems, London 1963, PP. 20-23 & 47-54.

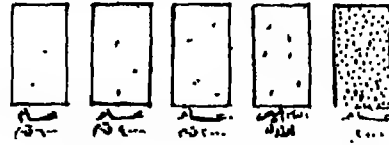
١٠٠٥

بهمة العصر : بين البقاء والغناء

السكان بالبلدين



تضخم السكان (نشر بيرو)



النمو السكاني الخطير

شكل رقم (١)

يمكن تتبع الزيادة التدريجية في أعداد السكان منذ آلاف السنين حتى حدوث الانفجار السكاني الهائل في الوقت الحاضر والمنتظر عام ٢٠٠٠. لو ظلت الزيادة الطبيعية الحالية على ما هي عليه . ففي خلال القرن الماضي تضاعف عدد السكان في العالم ، وفي مدى نصف قرن آخر تضاعف عددهم مرة أخرى حتى وصل إلى تلك الصورة المروعة ، ومع هذا النمو الخطير أصبحت كثافة السكان العامة في العالم ١٢٥ نسمة في الميل المربع مقابل ٦ نسمة في العام المسيحي الأول . والحالة تبعاً لذلك لا تبشر بالخير ، فالأراضي التي يمكن زراعتها على سطح الكرة الأرضية لا تتجاوز ١٠٪ من مساحتها الكلية ، كما أن معظم أراضي الحاصلات الزراعية تقع خارج قارة آسيا التي يتركز فيها نصف سكان العالم .

١٨٤٥ . كما تشير المجاعة الدائمة في الهند في الآونة الأخيرة ، الى عجز البيئة عن مسايرة النمو السكاني هناك ، ولقد بلغ عدد الموتى جوعاً وبسبب سوء التغذية في العالم عشرة آلاف نسمة يوميا . وعلى الرغم من التقدم الزراعي والري واستصلاح الصحارى ، الا انه ما زال اكثر من نصف سكان العالم يعانون من الجوع . (٨) (انظر الصورة رقم ٢)

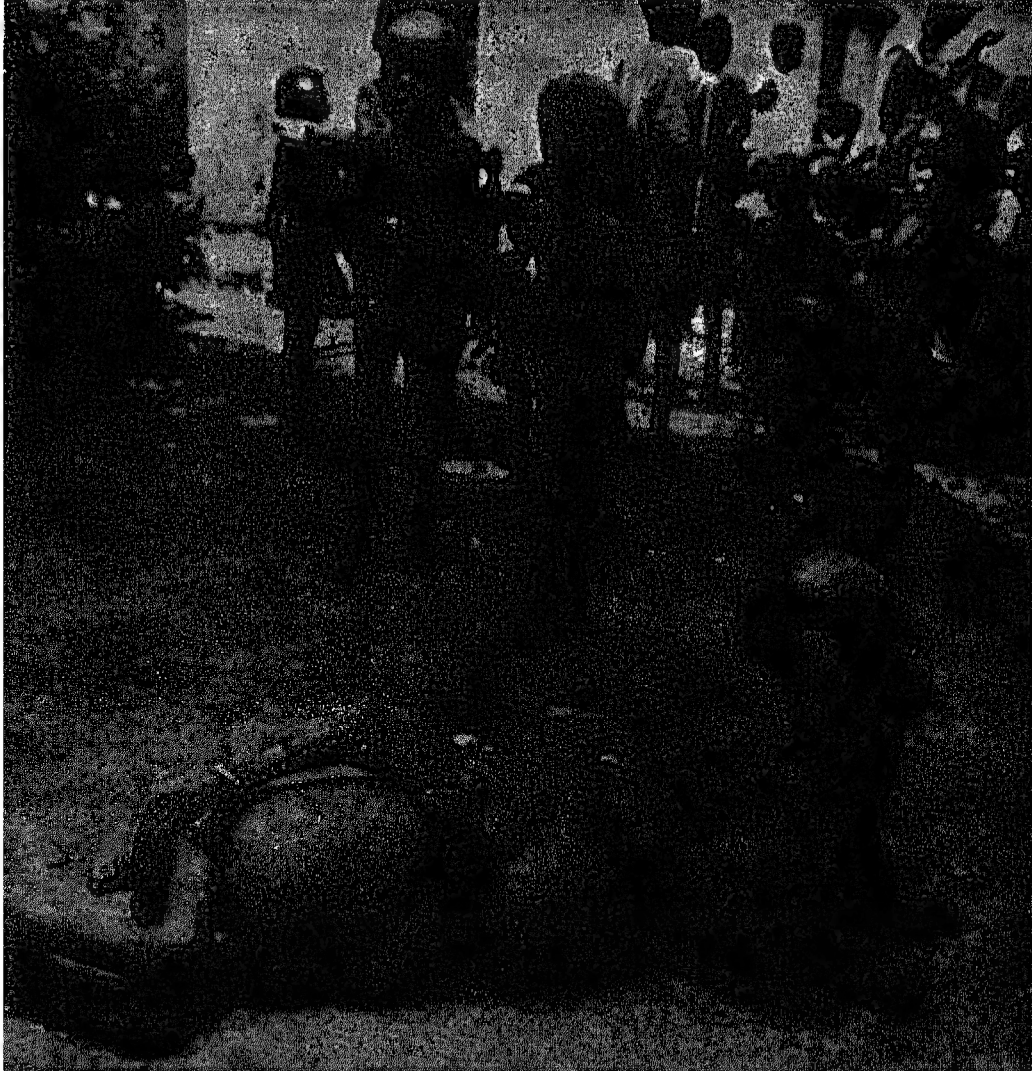
ويمكن القول بان المجتمعات الغربية المتقدمة فقط هي التي استطاعت ان تتخلص من نتائج ما اسماه مالتوس Dismal Thorem على ما يبدو، وربما كان ذلك بسبب وفرة الانتاج الزراعي فيها في الوقت الحاضر . ورغم هذا فان نظرية مالتوس لم ترفض من التكنولوجيين الغربيين . ولقد أصاب الدهول الشعب الأمريكي الذي يقود ويوجه الحضارة والمدنية الحديثة الآن عندما نشر تقرير الكونجرس عن حالة الغذاء في الولايات المتحدة ، فقد اثبت هذا التقرير ان ملايين عديدة من المواطنين ينامون جوعى كل ليلة في قلب الولايات المتحدة الأمريكية .

ان حسم مستقبل سكان البشرية امر لا يزال عسيرا . فلا احد يدري تماما الى اى مدى تستطيع الثورة التكنولوجية زيادة ما يمكن ان نسميه «سعة حمل» Carrying Capacity كوكبنا . كما لا نستطيع التأكد من ان نمو السكان في المستقبل سوف يزيد من التقدم التكنولوجي ذاته .

ومن المعروف ان للنظام الايكولوجي العام حواكم او ضوابط . هذه الحواكم يخضع لها السكان من البشر او من غير البشر من سائر الأحياء الأخرى . فهي في غير الانسان تبدو على شكل منافسة او صراع ناجم عن غريزة حب البقاء ، فهناك جوع ومرض وافتراس . ولكن الانسان يبذل جهدا جهيدا من اجل منع تلك الضوابط الايكولوجية من النيل من أعداد سكانه . ومن هنا كانت معاناة الإنسانية . فهناك محاولة لمنع تفشي الامراض حتى لا تتعرض أعداد السكان الى تقلبات عنيفة كتلك التي حدثت في العصور الوسطى ، عندما أدى مرض الموت الاسود Black Death الى وفاة ربع سكان أوروبا . ولقد تغلب الانسان منذ زمن طويل على افتراس الحيوانات له ، لان ذلك كان يعد عاملا من عوامل التحكم في أعداد البشرية . والانسان يحاول دائما القضاء على المنافسة بين افراد جنسه عن طريق تحريم الحروب او على الأقل الحد منها . كما يعتمد الانسان على التكنولوجيا الحديثة بدرجة كبيرة لامتداد أعداد المتزايدة باستمرار الغذاء . الا ان الفرص المتاحة امام التكنولوجيا، مثل التحكم في الظروف المناخية ، ونمو الطحالب اللازمة للغذاء في البحيرات الصناعية ، وازالة املاح البحر ، لها حدود . وهي على احسن الافتراضات مجرد محاولات ابتدائية ناجحة . . ومجرد أمل نفتدى به الزمن حتى نجد مخرجا للتحكم في أعداد البشرية .

١٠٠٧

بيئة العصر : بين البقاء والفناء



صورة رقم (٢)

بلغ عدد الموتى جوعا أو بسبب سوء التغذية في العالم عشرة آلاف نسمة يوميا ، ان اكثر من نصف سكان العالم اليوم يعانون من الجوع (الصورة من وكالات الانباء من اقليم بيافرا خلال المجاعة التي حلت به اخيرا) .

ان سكان العالم اليوم يعيشون حالة من الفزع امام هذا التزايد الفريد ، وبديهي اننا في ذروة دورة من الدورات السكانية المؤثرة في تاريخ البشرية ، اهم ما يميزها معدلات زيادة سنوية مرتفعة (٩) . ولا شك ان رحلة النمو هذه تتداخل فيها عوامل عديدة بحيث تعطى مردودها بعد تصفية الحساب بين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات . وهذه وتلك مقاييس ديموجرافية ذات ضوابط عديدة متداخلة ، بعضها سيكولوجي والآخر ايكولوجي والثالث تاريخي والرابع حضاري وغيره تاريخي ووراثي وهكذا . وليست هذه العوامل يؤرة بحثنا ، وانما اهتمامنا اساسا بالظواهر الناجمة عن هذه الزيادة والتي انعكست على ذلك التلف الذي اصاب اركان كوكبنا ، وليست هذه الظواهر خبيثة ولا هي خافية .

ان نمو السكان الانفجاري الاخير قد ساهم ، مع ما واكب ذلك من مظاهر حضارية تمثلت في حركة التصنيع ونمو المدن والثورة العلمية الحديثة ، في التدهور العام الذي اصاب العديد من عناصر البيئة . ولا شك ان اساس هذا التدهور كان تدخل الانسان بلا روية في النظم الايكولوجية المحكمة النسيج . وينعكس هذا التدهور على كل شيء في الوجود تقريبا الآن . فقد لوثنا مياهانا وارضا وهواءنا وحياة مدننا وهدوءها . فهل يبقى الانسان حقيقة هو ذلك «الحيوان القلر» (١٠) الذي لوث كل شيء حوله ؟ ونجح في استعلاء الطبيعة ثقة منه في قوته وعلمه ؟ وهل سيمضي في ذلك بغير حساب من الطرف الاخر ؟



مظاهر التلف البيئي :

في القرن التاسع عشر عبر الشاعر الانجليزي **توماس بيدوس Thomas Beddoes** عن مأساة عصره آنذاك بحسه المرفه تعبيرا عن حالة اليأس والاشمئزاز عندما يتأمل في عالمه المحيط به ، والذي غيرته يد الانسان فيقول :

Nature's polluted.
There's man in every secret corner of her,
Doing damned wicked deeds,
Thou Art, old world
A hoary, Atheistic, murdering star.

U.N. : The Determinants and Consequences of Population Trends (A (٩)
Summary of the Findings of Studies on the Relationships between Popul-
ation Changes and Economic and Social Con itions), Population Studies No.
17, N.Y. 1953, P. 240.

(١٠) منذ ست سنوات (عام ١٩٧٠) كتب Jseph L. Myler وهو احد علماء الفضاء والطاقة مقالا بعنوان **The Dirty Animal Man** ونشر بتصريح من United Press International في كتاب **Eco-Crisis** ص (١١٦ - ١٢٢) انظر المرجع .

هكذا . . كانت الطبيعة تتلوث ، لأن الإنسان أصبح يعيث فيها فسادا ، في كل ركن من أركانها ، يقتل بأعماله الشريرة كل نزعات الجمال والفن فيها . أنه مما لا شك فيه أن ذلك كله حقيقى ولا مغالاة فيه أو مبالغة ، ولكن كيف يمكن أن نتصور أبيات ذلك الشاعر الآن لو قدر له أن يعيش حياة الأربع الأخير من القرن العشرين ؟ أننا نعيش الآن عصرا يحاول الإنسان فيه جاهدا أن يقطع تلك العرى الوثيقة بينه وبين العالم الطبيعى من حوله . ولم يكن غريبا أن تتوالى « الصراعات » المخيبة للآمال فى كثير من أركان العالم الغربى المتقدم ، تلك التي انعكست على تصرفات شبابهم وسلوك هذا الشباب وفنونه . انهم يتوقون توقا شديدا الآن الى الماضى البدائى البسيط ، أو يعبرون بشوق عن مظاهر حضارات زائلة أو نائية منزلة ، ما زالت ترتبط فى توافق وثيق بالطبيعة .

ومن هذه الحضارات من يعيش أفرادها فى صداقة قوية بالبيئة حتى الآن . وهناك مذاهب كالذهب البوذى يصون الحيوانات ولا يقدم على إيذاءها بأى صورة من الصور ، لأن « بوذا » كان يحترم كافة أشكال الحياة ولا يسمح بالقسوة عليها . ومن هنا كانت الاراضى المحيطة بأديرة الرهبان البوذيين ، عبارة عن مساحات رائعة من الأرض التى تحتضن فعلا الحياة البرية بعناصرها نباتا أو حيوانا على اختلاف صنوفها . بل أن مذهب اليانية Jainism (١١) يلزم الراهب باحترام كافة أشكال الحياة بما فيها الحشرات ، الى الحد الذى يلتزم فيه بحمل (مكنسة) صغيرة معه دائما لازاحة ما يصادفه من حشرات خشية أن يدهمها صدفة . أن هذه الصلة بعالم الطبيعة ظلت قائمة حتى الآن رغم سخرية البعض منها عندما سخر الغربيون من الهنود الذين تركوا الفئران ترتفع فى المخازن وأصروا على ترك المياه لها لى تشرب منها . (١٢)

وفى هذا المقام يردد العالم الإنسانى الدكتور ألبرت شفايتزر Albert Schweitzer نداءه الى العالم بضرورة تبجيل الحياة الطبيعية وتقديم فروض الاحترام لكافة الكائنات النباتية والحيوانية ، ويذكر أن الخطأ الأكبر الذى ارتكبه كافة علوم الاخلاق اليوم هو اعتقادها بأنها تعالج فقط علاقة الإنسان بالإنسان .

فالى أين ذهب ذلك الإنسان فى تماديه وتحديه للروابط والنظم الايكولوجية التى يعيش حلقة من حلقاتها ؟ ان الحقائق كلها تشير الى أن حالة الإنسان الراهنة فى العالم قد أصبحت خطيرة . ويمكن مراجعة عناوين متزايدة لكتابات ودراسات مثيرة . وقد نشرت خلال الخمس

(١١) « اليانية » مذهب هندي نشأ فى القرن السادس قبل الميلاد ، وتعتمد فلسفة هذا المذهب على تحرير الروح بالعرفه والايمان وحسن السلوك .

Peter Farb, : op. cit. P. 15.

(١٢)

عشرة سنة الماضية ، والتي كتبها العلماء المتخصصون وخبراء الشؤون الانسانية ، ومن هذه العناوين على سبيل المثال لا الحصر :

Road to Survival

The Rap of the Earth

Our Plundered Planet

The Geography of Hunger

The Limits of the Earth

The Prevalence of People

Man Versus Nature

The Dirty Animal Man

لقد غير الانسان بدرجة ملحوظة في البيئة الطبيعية ذاتها - كما تفعل كل الكائنات الحية الاخرى . ولكن بينما تشجع التغييرات التي تحدثها الكائنات الاخرى الحية على التجديد ، فان الانسان في حالات كثيرة مزق فرص التجديد هذه . وعندما كان الانسان جامعا للطعام بدائيا في هذا الجمع ، استطاع ان يحدث تعديلات طفيفة ، ويمكن اعتباره متوافقا مع بيئته ككل آنذاك . وعندما وصل الانسان الى مستوى من الرقى سمح له باستئناس الحيوان والزراعة ، بدأ في تغيير البيئة تغيرا فيزيائيا . فقد جاهد ضد اعادة نمو النباتات الطبيعية ، فمنع المراحل المتتابعة للنبات من الوصول الى الذروة .

وبزراعته للمحاصيل وتربيته للحيوانات جعل هناك انواعا معينة من الكائنات يعتمد عليها في بقائه . فالقمح الآن لا يمكن ان ينتج من تلقاء نفسه ، والبقرة التي تهجر السهول تقع فريسة في وقت قصير للحيوانات المفترسة خارج السهول . ولقد حول الانسان البقرة من حيوان برى قادر على الدفاع عن نفسه وعن صفاره الى مصنع متحرك للالبان .

وعندما وصل الانسان لمستوى اكثر تقدما في عصره الصناعي ، ذهب الى مدى بعيد ، وعمل على خلق نظام ايكولوجي جديد تماما ليحل محل النظام الطبيعي ، ولقد ارتكبت التكنولوجيا الحديثة التي يمتلكها العالم منذ القرن التاسع عشر خطأ فادحا عندما بدأ تطوير الصناعات المختلفة ، والتي كانت سائدة في ذلك الحين ، وخاصة صناعة قطع الاخشاب والتنجيم . وهذا الخطأ يتمثل في نهب موارد الثروة الطبيعية في العالم . ولقد ترتب عليها تغييرات خطيرة في مظاهر الخريطة الطبيعية للعالم . فلقد خلق الانسان صحارى جديدة تماما مثل الصحراء الموجودة في جنوب شرق تينيسى Tennessee بسبب مناجم النحاس ، وصحراء سدبرى Sudbury في انتاريو بسبب دخان النيكل . وفي سعيه لتوفير الكهرباء واعادة توزيع المياه استحدث السدود التي تقام عبر الأنهار ، ففُتِرت نظام الصرف الطبيعي كلية ، فقلب بذلك سطح المياه الباطنية رأسا على عقب ، بالإضافة الى العديد من مظاهر الخلل البيئي الصارخ .

بيئة العمر : بين البقاء والفناء

ولقد وفرت صناعات الانسان الحديثة المواد الرخيصة حقاً ، وساعدت على تكوين مجتمع صناعي حديث ، ولكنها ساعدت على تراكم عبء ضخم لاستنفاد موارد الثروة التي كان ينبغي ان توفر للاجيال القادمة . فنحن الآن « نسرقة » حق الاجيال القادمة ليس فقط في الاخشاب والفحم ، بل ايضا في ضرورياتهم الاساسية في الحياة : الماء والهواء والتربة . ان العالم اليوم في حاجة ماسة لحركة « صيانة » تحفظ للحياة استمرار مسيرتها .



ماذا عن المياه :

لم تنشأ الحضارات وتنمو وتعطى بسخاء الا مع وفرة المياه ، وما توارت عبر سطور التاريخ الا بتأثير الجفاف ، او على الاقل بمساهمة منه ، قلت او كثرت . وكمن حروب طاحنة تصارع الناس من خلالها من اجل المياه في كل اجزاء العالم : غرب امريكا الشمالية في القرن التاسع عشر ، بلاد الرافدين ، مناطق انهار الصين والهند والنيل والاردن ، مياه الينابيع في آلاف الواحات المبعثرة على بحار الرمال تطويها الصحراء المحرقة ، فلا سبيل لحياة بدونها ، ولا محل لاستقرار بعيدا عنها . وحديثا اصبح مستوى المعيشة يقاس بنصيب ما يتوفر للشخص او الدولة من المياه العذبة . ولماذا نذهب بعيدا وهناك ست كلمات قرآنية كريمة تحدد بايجاز واعجاز قدر الماء وقدره : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . فبدونه لا يمكن ان تكون هناك حياة على سطح هذا الكوكب . فهو اكثر اهمية من الاكسوجين الذي يطلق عليه غاز الحياة Gas of Life فبدونه لا يمكن ان تكون هناك نباتات خضراء هي المصدر الاول للاكسوجين في الهواء الذي نحيا به وننفسه .

ويعتقد العلماء ان الحياة على سطح الارض انما نشأت اصلا في البحار القديمة او الاولى Primitive Seas قبل ان يكون هناك اي اثر للاكسوجين في الغلاف الجوي ، ولم يظهر هذا الاخير الا بعد تطور ونمو النباتات . وما زال دم الكائنات الحية بما فيها الانسان - عبارة عن محلول ملحي مشابه الى حد كبير لمياه البحار ، كما ان مياه البحار هي المورد الاساسي للمياه العذبة للارض والاكسوجين في الهواء . ويأتي ٧٠٪ من الاكسوجين كما يقول كول Dr. Lamont Cole من النباتات الدقيقة الخضراء في البحار التي تستهلك - شأنها في ذلك شأن نباتات الارض - غاز ثاني اكسيد الكربون بمساعدة الطاقة الشمسية ، وتقذف بالاكسوجين كناتج أشبه ما يكون بنفاية له . (١٢)

تتوفر للكرة الارضية كمية هائلة من المياه تقدر بحوالي ٣٢٦ مليون ميل مكعب ، منها ٣١٧ مليون ميل مكعب تستقر في احواس البحار والمحيطات التي تغطي ٧١٪ من مساحة الكرة

الارضية ، اما الباقي فيتمثل في المياه المجمدة بصورها المختلفة وتتركز حول القطبين . وتعمل الشمس على تقطير مياه البحار ، فيعمل ذلك الاتون المتقد المسلط عليها على تبخير ٨٠ ألف ميل مكعب تصبح مياهها عذبة كل عام ، بالإضافة الى ١٥ ألف ميل مكعب من المياه المتوفرة على سطح الارض بعيدا عن البحار والمحيطات . ومن ثم تصبح هناك كمية مقدارها ٩٥ ألف ميل مكعب تتحرك منذ الازل في حركة سرمدية رائعة بين السماء والارض فيما يعرف بالدورة الهيدرولوجية .

ولو وزعنا المياه على سكان هذا الكوكب لبلغ نصيب الفرد الواحد ٤٠٠ مليون طن يوميا ، وإذا كانت مياه البحار والمحيطات لا تصلح لمن يدب بأقدامه على سطح الارض عامة او يضرب بجذوره في تربتها ، إلا انه لكائنات أخرى حيوي وهام ، تلك الكائنات هي لنا حيوية كذلك وهامة ، فالبحار والمحيطات كانت وستظل مجالا يحقق للبشرية الكثير من المصالح انتقالا وغذاء ودفاعا . فماذا اعد لها الانسان لكي تبقى نظيفة منتجة ، وماذا فعل بمياه انهار الارض وبحيراتها . لا شك ان الكثير الكثير قد كتب في هذا المجال . فالانسان يضخ من النفايات والملوثات الى مصادر المياه الطبيعية ما لا يتسع المجال للحديث عنه في مقال كهذا . (١٤) ولكن ما أحدثه الانسان لاتلاف وتلويث هذه المصادر تعدد صوره ، فقد وجه الى هذه المصادر مياه البالوعات ومخلفات الاسمدة الكيميائية وروث الحيوانات ، والاحماض والسموم الناتجة عن الصناعة ، والأملاح المتخلفة عن المناجم ، ونفايات الشوارع والمزارع والمصانع ، والمنظفات ومبيدات الاعشاب والمبيدات الحشرية ، بالإضافة الى الملوثات الاشعاعية من المناجم والمصانع الذرية ومولدات الطاقة . ان كل هذا وغيره كثير يؤكد حقيقة ان الاستعمال الرئيسي للمياه الجارية الحرة في الدول الصناعية ليس في الصناعة كما تؤكد الاحصاءات ، وانما تستعمل كصندوق قمامة للتخلص من النفايات ، حتى أصبحت انهار مثل هذه الدول مجرد بالوعات مفتوحة الآن .

ولقد أشار دكتور جلين سيبورج Dr. Glenn T. Seaborg رئيس لجنة الطاقة الذرية الأمريكية ، ان نظم الانهار الاثنى والعشرين في الولايات المتحدة الأمريكية ، سوف تنتهي من الناحية البيولوجية (اى ستموت) في نهاية هذا القرن اذا استمر التلوث على معدلاته الحالية . اذ يتسبب التلف الذي تتعرض له هذه المجاري المائية بتأثير المواد الصناعية المتخلفة ، والتي يلقي بها الى هذه المجاري في توليد بعض الكائنات التي تؤدي الى استنفاد الاكسوجين من المياه والقضاء على الاسماك ، ومن ثم تتحول البحيرات الى مستنقعات ثم الى مناطق جرداء من بعد ..

(١٤) لدراسة الموضوع بتفصيل اكبر يرجع الى :

محمد عبد الرحمن الشرنوبى : « الانسان والبيئة » القاهرة ، مكتبة الانجلو ١٩٧٦ ، ص ٣٢٩ - ٩٣٣ .

بيثة العصر : بين البقاء والفتن

وليس فريبا ان نتحدث عن تلوث المحيطات. فهذا حادث بالفعل : فلقد وجدت مادة ال-D.D.T. بتركيزات مختلفة في الكائنات البحرية في كل مكان. ولو حدث ان تعرضت نباتات المحيطات لخطر التلوث ، فسوف نفقد موردا هاما من موارد الاكسجين كما قدمنا من قبل .

ولقد حدثت عدة كوارث معروفة كحادث سانت بربرة في كاليفورنيا ، وكارثة اصطدام ناقلة البترول « توري كانيون » ببعض الشعاب المرجانية قرب الشواطئ الانجليزية وهي محملة بشحنة من بترول الكويت عام ١٩٦٧ . ولقد تسببت هذه الحادثة في تدفق ١٢٠ ألف طن من البترول الخام نتج عنه تلوث مساحات كبيرة على امتداد ٣٢٠ كيلو مترا على طول الشواطئ الانجليزية الغربية والجنوبية ، ولقد هدد ذلك الحادث كافة مراكز العمران البشري على طول هذا الامتداد ، وتطلب حماية هذه المراكز اتفاق ٢٥ مليون جنيه استرليني انفق معظمها كتكاليف للكميات الهائلة من المذيبات التي اخفت التلوث الظاهر لهذه الكميات الهائلة من البترول ، ولكنها احدثت تلوثا خطيرا للمياه أسفل السطح واعلاه ، واستقرت هذه المذيبات بحجم هائل في قاع المحيط محدثة خلاا بيولوجيا محققا لكونها سموما خائفة وقاتلة لكثير من الاحياء البحرية .

ولقد اخذت شبه جزيرة اسكندينا في انصباب من تلوث المياه ، وبدأت اسراب الاسماك تموت في انهارها وبحيراتها بتأثير القاء النفايات البشرية فيها ، وكذلك قتلت نفايات مصنع مبيد الباراثيون في الدانمرك الاسماك على شواطئ البحر ، وألقت بجثثها على الشاطئ على امتداد عدة كيلو مترات . اما نهر الراين الذي يخترق المانيا حتى يصل الى هولندا فهو اكبر انهار العالم تلوثا ، لدرجة ان الهولنديين اطلقوا عليه في سخرية مريرة عبارتهم المعروفة : انه صندوق قمامة العالم . اما في اليابان فقد ظهرت أعراض ارتخاء في عضلات السكان وفقدان للبصر وتلف في المخ والاعصاب مصحوب بشلل واحيانا بفيبوبة ووفاة، ذلك في خليج « ميناماتا » بتأثير القاء أحد مصانع الرئبق بمخلفاته في ذلك الخليج : مرض ميناماتا!! وفي السويد حرم صيد الاسماك في أربعين نهرا وبحيرة لتركز مركبات الرئبق فيها .. كما يمكن ملاحظة ان الالتهابات الكبدية المعدية قد اخذت تنفسي بدرجة مزعجة حقا في كثير من الدول الأوروبية والأمريكية بسبب ضعف معالجة مياه دورات المياه ، ووصولها ملوثة بفيروسات هذا المرض المعدي الى انابيب مياه الشرب . اما في الوادي الاوسط بكاليفورنيا، فان الأطباء ينصحون دائما بان يشرب الاطفال الماء العذب المغلي فقط . ولقد اضطرت مدينة إلجين Elgin بمنيسوتا ان تبحث عن مصدر آخر جديد لمياه الشرب بعد ان تلوث المياه بالنترات التي تتراكم بتركز شديد في المحصولات الزراعية ، والنترات في حد ذاتها ليست خطيرة ، ولكن عندما توجد انواع معينة من البكتريا في الجهاز الهضمي ، فانها تحول النترات الى نترات (ملح حامض النتري) وهي مادة سامة للغاية ، ولو امتصها الدم لتفاعلت مع المادة الملوثة (الحاملة للاوكسجين) لخلايا الدم الحمراء ، وبالتالي يتكون الميثيموجلوبين الذي لا يستطيع حمل اكسوجين الهيموجلوبين فينتج عن ذلك الإصابة بمرض الميثيموجلوبينيemia ، واهم اعراض التنفس غير الطبيعي ، وكثيرا ما يتعرض المصابون به الى الاختناق .



وماذا عن الهواء : (انظر الشكل رقم ٣)

ان التسليم بحقائق الحركة التي يخضع لها الفلاف الهوائي ، تجعلنا نعمل فكبرا في كيفية الوقوف بحزم امام تلوث الهواء . ونحن في تلك الوقفة لا بد ان نؤمن بأن تلوث الهواء في المناطق الصناعية ليس قصرا عليها ، فالعالم يخضع لظروف وقوانين طبيعية كما كررنا من قبل . ومن تلك القوانين فيما يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوعنا ما يعرف بالدورة الهوائية العامة . فهناك مناطق للضغط المنخفض تتركز حول خط الاستواء وخطي عرض ٦٠ درجة شمالا وجنوبا . كما ان هناك مناطق للضغط المرتفع حول خطي عرض ٣٠ درجة شمال خط الاستواء وجنوبه ، وحول القطبين . والمعروف ان مناطق الضغط المرتفع يخرج منها الهواء الى مناطق الضغط المنخفض في حركة سطحية نحسها ونلمسها ممثلة في الرياح السطحية . كما تغذي مناطق الضغط المنخفض مناطق الضغط المرتفع بالهواء ولكن في نطاق الرياح العلوية . ويتم هذا وذلك في دورة محكمة لا تؤثر فيها الا بعض الظواهر المحلية كسلاسل المرتفعات والمساحات المائية الكبرى ، بالإضافة الى التغييرات الموسمية لموقع الشمس في حركتها السرمدية بين المدارين .

من هنا يمكن القول بأنه لا يوجد حدود أو حواجز يمكن ان تحدد مناطق التلوث لتعزلها عن المناطق « النقية » ان كان ثمة مناطق نقية حقا . ويعتبر تلوث الهواء من اقرب المظاهر التي يمكن ان يحسها الانسان العادي ويلمسها ، فنحن نشعر به عندما يلهب الهواء عيوننا او يهيج رئتنا ، ويشعر سكان المدن - والمدن الصناعية بصفة خاصة - بوطاة ذلك التلوث من خلال حياتهم اليومية ، التي سريعا ما يضيق بها سكان المناطق الاخرى . والامثلة على تلوث الهواء عديدة ، بل ان الكوارث التي تحيق بسكان المدن بتأثير ذلك التلوث تفوق الحصر : نهار ميناء سدني الكئيب المظلم بتأثير سحب الدخان المتحد بالضباب هناك ، كمية ضوء الشمس التي لا تتجاوز ٢٥٪ في نيويورك و ٤٠٪ في شيكاغو ، ٦٦ مليون طن من اول اكسيد الكربون نفتتها الى الهواء ٩٠ مليون سيارة في الولايات المتحدة ، غير ملايين اخرى من اكاسيد الكبريت والهيدروكربون ورابع اثيل الرصاص وغيرها هناك ، الانقلاب الحراري الذي تعرضت له مدينة دونورا عام ١٩٤٨ ولندن عام ١٩٥٢ وما نشأ عنه من كوارث اودت بحياة الآلاف بسبب احتجاز الضباب متحدا بالدخان ، ونفس الظاهرة تكرر في وادي الميز ببلجيكا وبوزاريا في المكسيك ، آلاف التقارير العلنية الرسمية وغير الرسمية مع آلاف أخرى سريّة مرفوعة الى المستويات العليا في الدول المختلفة حول هذه القضية ، عشرات المقالات في الصحف والمجلات العلمية ، وغير ذلك كثير يصعب حصره .. ما هي المشكلات الاساسية . ؟ انها باختصار شديد تتمثل في العطاء السلبسي للصناعة .. وعدم وجود النظرة العقلانية التي ينبغي ان تظل خطوات النهضة الصناعية .

ان تلوث الهواء ياوّل اكسيد الكربون - وهوامر قائم ما بقيت السيارة والطائرة وآلة في اي مصنع و مزرعة - يعمل على اتحاد هذا الغاز بهيموجلوبين الدم فيعمل على طرد الاكسوجين

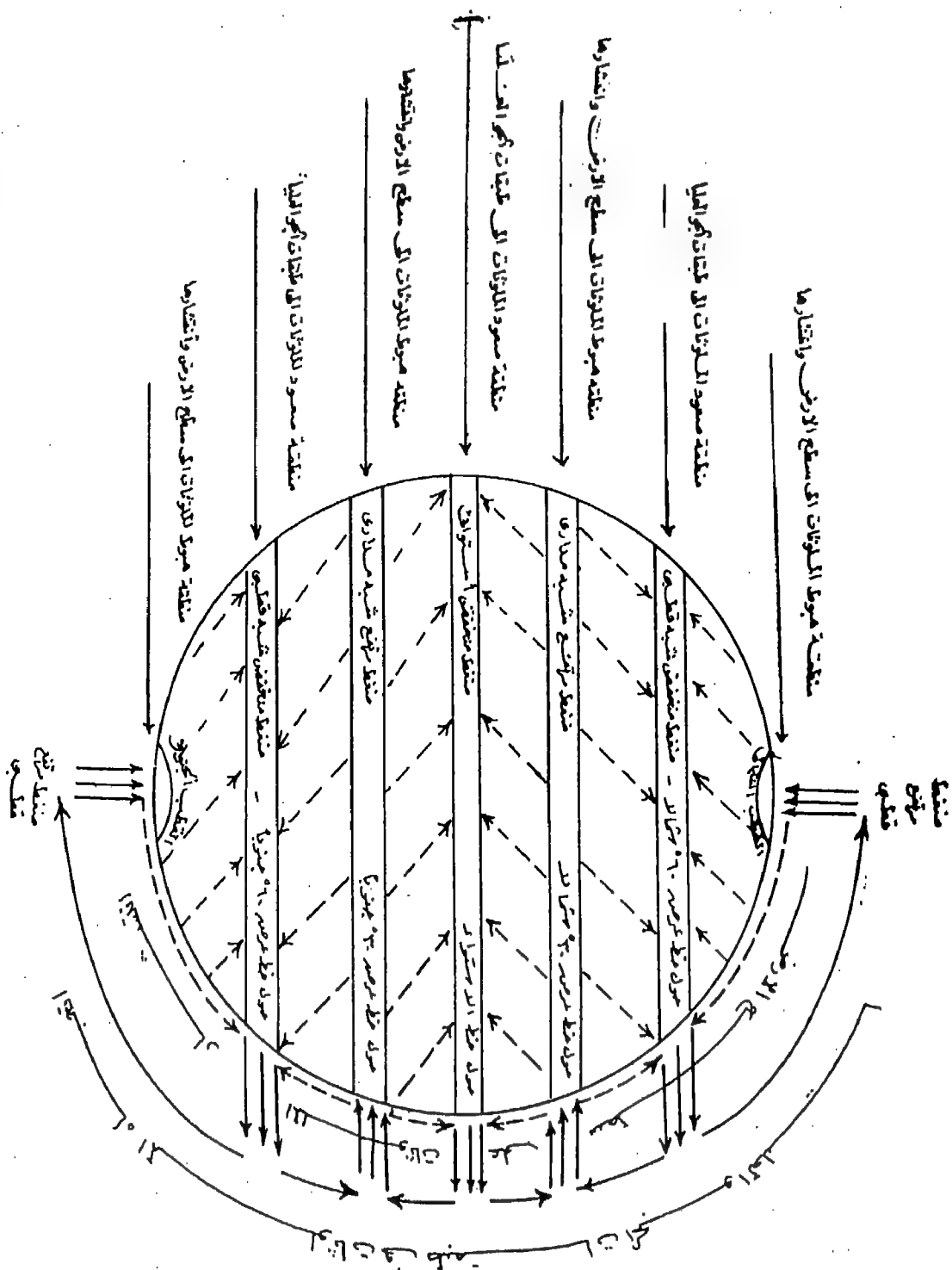
١٠١٥

بيئة مصر: بين البقاء والفتن

تكملة رقم (٣)

أحمد الكناش: حركة الأرض على سطح الأرض وفي خلافا الجغرافيا

دورة الجراح العام



الذي ينقله الهيموجلوبين عادة ، لان اتحاد هذا الغاز بالهيموجلوبين أقوى من اتحاد الاكسوجين . ويسبب اول اكسيد الكربون اختناقاً وتسمماً لانه يحل في جهاز النقل (العالي السرعة) في الكائن البشري ، وهذا الجهاز يضمن التجدد الدائم للاكسوجين لحفظ ما يعرف بالايض (Metabolism) - او مجموعة العمليات الخاصة ببناء البروتوبلازما في الخلايا . وعندما يقل امداد الخلايا بالاكسوجين فان القلب يرفع معدل خفقاته وكذلك الجهاز التنفسي ، ولا شك ان هذا وذلك يتسببان في توترات واجهاد شديد يؤدي الى كثير من امراض القلب والصدر . (شكل رقم ٤) .

وعندما يتعرض الشخص لهواء يتنفسه ويحتوي على ٨٠ جزء في المليون من غاز اول اكسيد الكربون لمدة ٨ ساعات ، فان الجهاز الدوري لحمل الاكسوجين تقل سرعته بنسبة ١٥ ٪ ويتسبب ذلك في ان يفقد الجسم جزءاً من الدم . وعندما تشتد حركة المرور وتزدحم الشوارع بوسائل النقل المختلفة في اوقات الذروة ، فان محتوى الهواء من اول اكسيد الكربون يبلغ ٤٠ جزءاً في المليون . لذلك كثيراً ما يصاب سكان المناطق المزدحمة بالمرور باعراض التسمم الحاد ، والصداع ، وضعف الرؤية ، ونقص في تناسق العضلات ، والغثيان ، وكثير من الآلام الباطنية ، وفي الاحوال الاكثر حدة قد تكون هذه الاعراض مصحوبة بفقدان للوعي ، ووفاة أحياناً .

وهناك غازات اخرى تلوث هواء المدن خاصة مثل ثاني اكسيد الكربون الذي يعتبر مسئولاً عن زيادة معدلات الإصابة بامراض الربو المزمن والالتهاب الرئوي وانتفاخ الرئتين ، أما تلوث الهواء بالمواد الهيدروكربونية فان من اهم مضاعفاته الإصابة بالامراض السرطانية المؤدية الى الوفاة . كما ان هناك غازات اخرى مثل ثاني اكسيد الكبريت واكاسيد النيتروجين وغيرها كثير كثير وهي في تزايد مستمر في الهواء .. ولقد قدرت وزارة الصحة الامريكية على سبيل المثال ان انبعاث غاز ثاني اكسيد الكبريت في الولايات المتحدة الامريكية سوف يرتفع من ٢٠ مليون طن (١٩٦٠) الى ٣٥ مليون طن عام ٢٠٠٠ ، وسترتفع بالنسبة لأكاسيد النيتروجين من ١١ الى ٣٠ مليون طن في نفس الفترة ، وذلك بتأثير مضاعفة اعداد السيارات وما تنفثه من عوادم الى الهواء ، والذي يقدر بأربعة أضعاف خلال الفترة المذكورة .

وملوثات الهواء عديدة ومتنوعة في الواقع (١٥) ولا يزال الكثير منها لم يكتشف بدقة حتى الآن ، كما ان تركيز هذه المواد الملوثة للهواء يختلف اختلافاً جغرافياً ، ولكنه كما سبق ان قدمنا

(١٥) هناك ملوثات اخرى للهواء ولكن لا دخل للإنسان فيها كما ان التحكم فيها صعب ومنها كلوريد الايدروجين المتصاعد من البراكين واكاسيد النيتروجين الناتجة عن التلويغ الكهربائي من السحب الرعدية ، وكبريتيد الايدروجين الناتج عن تسرب الغاز الطبيعي من جوف الارض او بسبب البراكين او تواجد البكتيريا الكبريتية ، وغاز الأوزون المتخلف ضوئياً في الهواء الجوي ، او بسبب التلويغ الكهربائي في السحب ، وتساقل الهباء المتخلف عن احتراق الشهب والنيازك نتيجة لاحتكاكها بطبقات الجو ، والأملاح المنتشرة في الهواء بفعل الرياح والعواصف والأشعاعات الشمسية على المحيطات والبحار والبحيرات الملحة ، والأتربة التي تثيرها الرياح والعواصف او تأتي بها الجبهات الجوية وتيارات الحمل الحرارية من التربة المفككة ، وجسيمات اللقاح والفطريات والبكتيريا المنتشرة في الهواء منبعثة من التربة او لتعفن الهواء والطيور الميتة والقضلات الآدمية ، وأخيراً المواد ذات النشاط الإشعاعي كتلك الموجودة في بعض تربيات وصخور القشرة الأرضية او الناتجة عن بعض الغازات الجوية بفعل الأشعة الكونية ، وكل هذه الملوثات ليست ذات أضرار جسيمة لان معظم ألوان الحياة قد تأقلمت عليها بسبب تواجدها في الهواء منذ بدء الحياة .

١٠١٧

بيئة العصر : بين البقاء والبقاء



شكل رقم (٣)

تلقى الطائرات بمئات الاطنان من الوقود المحترق يلوث الهواء بغازات سامة اهمها اول اكسيد الكربون . فتساهم مع وسائل النقل الاخرى على الارض في تلوث الهواء .

ليس قصرا على مكان ، ولكنه أكثر تركزا في مكان عن مكان آخر . كذلك فان وسائل مراقبة التلوث والكشف عنه لا تزال في كثير من المناطق غير كافية بالمرءة ، كما ان التسجيل لهذه الظواهر ولفترات دورية منتظمة امر غير قائم حتى الآن .

وتعتبر درجات تلوث الهواء ذات ارتباط وثيق بعوامل أخرى تختلف من شخص الى آخر ، فهي تختلف باختلاف درجات التعرض للارهاق على سبيل المثال ، وعلى السكان في مراحل العمر المختلفة حيث يشتد تأثير التلوث على كبار السن والاطفال ، كذلك على الشعوب ومقدار ما تتمتع به من مستوى غذائي معين ، وكل هذه وغيرها من عوامل لا بد من اخضاعها للتحليل العلمي ، كذلك فان البحث العلمي في حد ذاته معقد للغاية في موضوع كهذا ، لان عنصرا واحدا من عناصر التلوث قد لا يعطي مردودا سيئا ، او يسبب مشكلة في حد ذاته لو وضع تحت الاختبار عنصر مستقل ، في حين انه لو ارتبط بعناصر أخرى لاعطى مردودا في غاية الخطورة ، ولهدد حياة الافراد والمنشآت في منطقة ما . لذلك كان عزل تأثير العناصر المختلفة من الملوثات الهوائية امر صعب للغاية ، بل لسنا مبالغين لو قلنا ان العلم لا يزال عاجزا عن علاج مثل هذا الموضوع ، الامر الذي يزيد من المضاعفات السيئة كلما مر مزيد من الوقت .



التلوث بالنواتج الصناعية الثانوية :

من البديهي انه مع تطور الصناعة وتقدمها يكتسب الانسان مزيدا من الكم الحضاري الماضي الذي - من المقروض - ان يعود عليه وعلى مجتمعه بمزيد من الرفه المادي الذي يسر له الحياة بشكل او بآخر . الا انه كلما تقدمت الصناعة القت بالمزيد من النواتج الثانوية ، سواء كانت في شكل غازات او نفايات صلبة او نصف صلبة او سائلة ، الى الهواء او على الارض او في المياه ، لان الصناعة كما نعلم تحول المواد الخام الى منتجات صناعية كاملة او نصف كاملة ، وهي حينما لا تجد في هذه النواتج الثانوية قدرا من النفع على المستوى الاقتصادي ، فانها تلقي بها الى اي مكان . ومن اهم تلك النواتج تلك النفايات الصناعية ، خاصة اذا لم تكن قد عولجت قبل القاؤها خارج المصانع . وليس من المعقول ان تظل هذه النفايات يجوار المصنع بلا حراك لو قدر لها ان تلقى قريبا منه ، فالرياح تحملها او تحمل غازات الى اماكن بعيدة ، ومن هذه الغازات ما هو سام ، كما ان النفايات السائلة التي يلقي بها في الماء ، تحملها المجاري المائية الى مناطق بعيدة فتحمل اليها متاعبها وشروها .

وقد تكون غازات هذه السوائل ملوثات هوائية ، كما قد تكون سوائل هذه النواتج ملوثات مائية او ارضية ، لكن النفايات الصناعية الصلبة والتي تتنوع تنوعا كبيرا بين صناديق مهشمة وآلات معطوبة واوراق ونواتج ثانوية أخرى تتخلف عن المواد المصنعة ، كفضول الفاكهة والخضروات وغير ذلك من مخلفات ، انما تعمل على خلق مرتع خصيب للجراثيم والحشرات

بيئة العمر : بين البقاء والفناء

والامراض ، تنقل البؤس والموت الى الاماكن المزدحمة بالسكان ، كما تشوه جمال القيم الانسانية وتقتل مظاهر الجمال التي تتوق النفس البشرية المتحضرة الى توفرها حيثما كان الانسان . ومن اهم هذه النواتج مساحيق اكاسيد الحديد الحمراء التي تنقلها الرياح الى المناطق المحيطة بالمصنع فتكسوها بفبار احمر كما هو الحال بجوار مصانع حمض الكبريتيك بكفر الزيات ، او بفبار الاسمنت الرمادي اللون الدقيق الذي ياتي على الثبات بالدمار فيقتل خلاياه ويعطي لونا رماديا للمساكن القريبة كما هو الحال بمناطق طره والمصرة بمدينة القاهرة . (انظر الشكل رقم ٥)

اما النفايات الصناعية السائلة فهي ما تلقيه مصانع منتجات الالبان من مواد دهنية وبروتينية ناتجة عن عمليات التصنيع ، ومخلفات تنظيف الاواني ، ومخلفات مصانع التقطير بما فيها من مواد نشوية وخمائر ، ومخلفات مصانع النسيج والصياغة بما تلقيه الى المياه من مواد قلوية واملاح واصباغ ومواد دهنية مستخلصة من بعض الالياف الحيوانية ، وكذلك مخلفات مصانع الدباغة وما يتخلف عنها من مواد حمضية او قلوية ومحاليل التنظيف والصابون ، بالإضافة الى مخلفات مصانع الكيماويات والمطهرات والورق التي تعتبر من اخطر مصادر تلوث المياه .

كما تعتبر المخصبات الزراعية الكيماوية والنيتروجينية التي تصل الى مجاري الصرف ذات تأثير بالغ الخطورة على هذه المياه ، فهي تعمل على زيادة نمو النباتات المائية الخضراء التي تمثل احد مصادر التلوث العضوية للمياه ، كما تسبب في كثير من المشكلات المتعلقة بالملاحة والانتقال في هذه المجاري المائية ، كما ترتفع من نسبة النترات في هذه المياه ، الامر الذي يعيق استخدامها في كثير من الاغراض .

اما تأثير النواتج الثانوية الصناعية الغازية فذات تأثير بالغ الخطورة كذلك على صحة الفرد والجماعة ، وهذا النوع من النفايات ينطلق مباشرة من كثير من العمليات الصناعية ، وربما يتخلف عن النفايات الصلبة او السائلة من نواتج هذه العمليات فتنتقل الى الهواء قبل ان ترسب على الارض او في المياه . ولا تكاد تخلو أي عملية صناعية من عوادم غازية تنطلق منها لتغطي مساحات واسعة حولها .

ولقد أصبحت تعاني كثير من الدول الصناعية مشكلة تراكم هذه النواتج الصلبة فيما يعرف « بالمقالب » المكشوفة ، فتلك المناطق حينما تتعرض للأمطار او تصلها المياه من أي مصدر لفترة طويلة - تعمل - بما يتحلل عنها ويتسرب منها الى التربة - على تلوث المياه الجوفية . وفي دولة كالولايات المتحدة ، يحتاج أمر التخلص من مثل هذه النفايات الى ٥٥ بليون وعاء متوسط الحجم ، و ٢٦ مليون قنينة زجاجية ، و ٦٥ بليون وعاء معدني وبلاستيكي وادوات تعبئة اخرى تبلغ قيمتها نصف بليون دولار هي في حد ذاتها نفايات صلبة ايضا (١١) .



١٠٢٠

عالم الفكر - المجلد السابع - العدد الرابع



شكل رقم (٥)

(من نتائج تلوث الهواء بالتوائج الثانوية للصناعة)

هباء الاسمنت المتصاعد يقتل الحياة في الاشجار على طريق القاهرة - حلوان

(التقطت الصورة عام ١٩٧٥ بواسطة كاتب المقال)

بيئة العصر : بين البقاء والفتناء

أخطار المبيدات الحشرية ومبيدات الأعشاب :

أمدتنا الصناعات الحديثة بقائمة طويلة من المركبات الكيميائية التي أسرفنا في استخدامها أيما اسراف ، حتى أننا أصبحنا نعمل على تدمير ذاتنا بخطى حشيثة كل يوم، فهناك المواد الهيدروكربونية المعالجة بالكور والرصاص والزئبق والفلوريدات، وهذه تصل إلينا في مجموعها كملوثة للبيئة ، ومن هذه المواد تلك المادة التي اصطلح على تسميتها Decloro-dephenyl Trichlorethane ، ولقد عرفت هذه المادة منذ عام ١٨٧٤ ، وشاع تداولها تحت اختصارها وهو الـ D.D.T. وهي اخطر ما حل بالزراعة التقليدية ، ولقد توصل الى مفعولها العالم السويسري بول مولر فنشطت مصانع الضخمة في انتاج العديد من الانواع والمشتقات . ولقد أسرف الانسان في استخدام هذه المنتجات منذ اواخر الحرب العالمية الثانية.

وتوجد هذه المادة على هيئة تركيزات قد تبلغ ١٢ جزءا في المليون في الدهون البشرية ، واكثر من خمسة اجزاء في المليون في لبن الامهات، رغم ان التركيزات العادية تتراوح بين (٠.٥ ر.) جزء في المليون و (٢٦ ر.) جزء في المليون . ويحتوى لبن الامهات في كافة الدول الآن على تركيزات تختلف باختلاف استخدام هذه المادة في المنتجات الزراعية التي تستخدمها (١٦) . كذلى تتركز في البان الابقار لدرجة اصبح معها يصل الى الاطفال منها يزيد عن ضعف المعدل المسموح به حسب تقديرات منظمة الصحة العالمية .

ولا شك ان مجموعة المبيدات الحشرية الآن قد اصبحت دون الحصر ، ومشكلة هذه المواد انها تستخدم وتداول وتخزن بطرق غير سليمة . فالاسراف منها في اباد حشرات الزراعة امر مقبول الى حد ما ، ولكن ان يقوم بعض الجهلاء من اصحاب محال البقالة والفاكهة برش منتجاتهم بالمبيدات الحشرية على الارفف جنباً الى جنب مع المنتجات الغذائية ، فهذا وذاك من الامور الغريبة التي تضاعف من احكام الحصار حولنا بهذه السموم . وبسبب العديد من مشاكل تسرب او تداول هذه المبيدات فقد اصبح من الصعب تقدير مدى التأثير الذى تحدثه هذه الملوثة . (الشكل رقم ٦)

ومن السهل على سكان أى منطقة ان يدركوا آثار ما يمكن ان تحدثه السموم من آثار مباشرة عليهم ، ولكن من العسير عليهم في كثير من الاحيان، ان يدركوا مقدار التفيرات الفسيولوجية الدقيقة والبطيئة التي تحدث نفس الاثر ، ولكن على المدى الطويل ، ولا شك تعطينا الدراسات التي أجريت على الحيوانات ادلة قاطعة على خطورة تأثير تركيزات هذه المواد في جسم الاحياء . فقد دلت الدراسات على ان الجرعات الكبيرة من مادة الـ D.D.T. تتسبب في الاصابة بالسرطان ، خاصة سرطان الكبد لدى الفئران ، وفي حالة وجود نسبة تركيز تبلغ ١٠ اجزاء في المليون يحدث تنشيط

(١٦) هناك مواد اخرى هيدروكربونية مثل الالدرين Aldrin والديلدرين Dieldrin وكلويد البترول السداسى قد وجدت بتركيزات مختلفة في لبن الامهات .

١٠٢٢

عالم الفكر - المجلد السابع - العدد الرابع



شكل رقم (٦)

تفذية الحاصلات الزراعية الفدائية بالسوم هل يحول ذلك الحجاب على الوجه دون الاصابة بخطر المبيدات الحشرية
بعد العودة الى المنزل كتناول الطعام ؟

لانزيمات معينة في الكبد وبنسبة عالية ، الامر الذي يؤخر بل ويعرقل العلاج بكثير من العقاقير ، وكثيرا ما افقدت هذه الانزيمات تلك العقاقير مفعولها . ويذكر ريتشارد ويلك Richard M. Welch أحد علماء العقاقير بمعهد البحوث العلمية الأمريكية ان مادة الـ D.D.T. تسبب في زيادة وزن الرحم وتحفز على انتاج هرمونات الجنس (الايستروجين) لدى الاناث . ولقد ثبت فعلا ان مادة الـ د.د.ت تؤثر في هرمونات الجنس عند الفئران والطيور ، الا اننا لا نعرف تماما اذا كان هناك حث للتغيرات الهرمونية في الانسان ، ومقدار تأثير هذه التغيرات ان وجدت ، وهناك ما يدل من الدراسات الحديثة على ان هذه المادة والمواد الشبيهة مثل الـ D.D.E. و الـ D.D.D. توجد بتركيزات عالية في دهون الانسان وقد تسببت فعلا في وفاة بعض المرضى . ويذكر ستينباخ Alan Steinbach طبيب الامراض العصبية بجامعة كاليفورنيا ان مادة الـ د.د.ت « عبارة عن سم عصبى من المتعذر التخلص منه او شفاء المصاب به » (١٧) .

ان تأثير هذه المبيدات ليس فقط لتركزه في النباتات التي تقاوم آفاتنا من اجل المزيد منها ، بل ينتشر ويتزايد لاستخدام مركباته في مكافحة البعوض ، ولقد اثر ذلك في اختفاء هذه الحشرة فعلا في بحيرة كليز بكاليفورنيا الذي كان يتكاثر فيها لتلوثها بالنفايات ادمية والصناعية ، ولكن ذلك الامر قد تسبب في اختفاء اسراب من الطيور كانت تتغذى على اسماك هذه البحيرات بعد ان ثبت وجود تركيزات شديدة في انسجة الطيور الميته من هذه المبيدات . كما نشرت ادارة الصحة الامريكية بيانا اعلنت فيه ان هذه المبيدات قد ابادت ٣٢٪ من اسماك المياه العذبة في كل الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ . والاكثر خطورة من ذلك ، ان هناك العديد من الحشرات التي اكتسبت مناعة ضده ، حتى اننا اصبحنا في انتظار ان تعطى هذه الحشرات السيادة على كثير من امورنا وبشجعينا . ويقول ايرلش ان الزراعة الحالية تتعرض لهزة عنيفة قد تحول دون استخدامنا للمبيدات مستقبلا ، كما يذكر العالم الايكولوجي فوجت William Vogt في كتابه « الطريق الى البقاء » ان ١٠٪ من النباتات الزراعية في الولايات المتحدة تتلف كل عام ، وان الامل ضعيف في استمرارنا على معدلات ما تلقى به من اطنان المواد المبيدة للحشرات على الاراضي الزراعية ، وان الفدان الواحد من الاراضي القريبة من مستنقعات مصب لونغ آيلاند بالولايات المتحدة والتي تم رشها بمادة الـ د.د.ت منذ ربع قرن ، يتوفر به ٢٣ رطلا من هذه المادة يمكن الحصول عليها من الطبقة السطحية .

وتتدخل هذه المواد المبيدة للحشرات بدرجة خطيرة في مقدرة الطيور على انتاج (البيض) الخاص بالكالسيوم ، ومن ثم تضع بيضها في اغلفة رقيقة للغاية لدرجة لا تتحمل معها وزن الطائر عندما يرقد فوقها تمهيدا للفقس فتكسر . ولقد اجريت التجارب على بيض الطيور الجارحة ووجد انخفاض شديد في سُمك قشر البيض في الفترة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٤٧ وهي الفترة التي

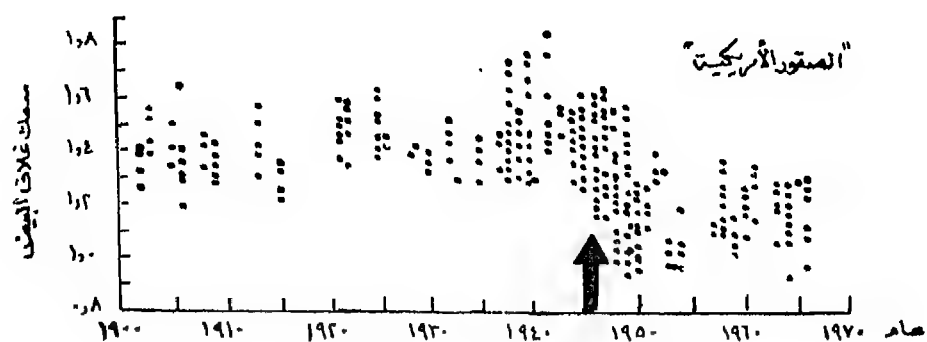
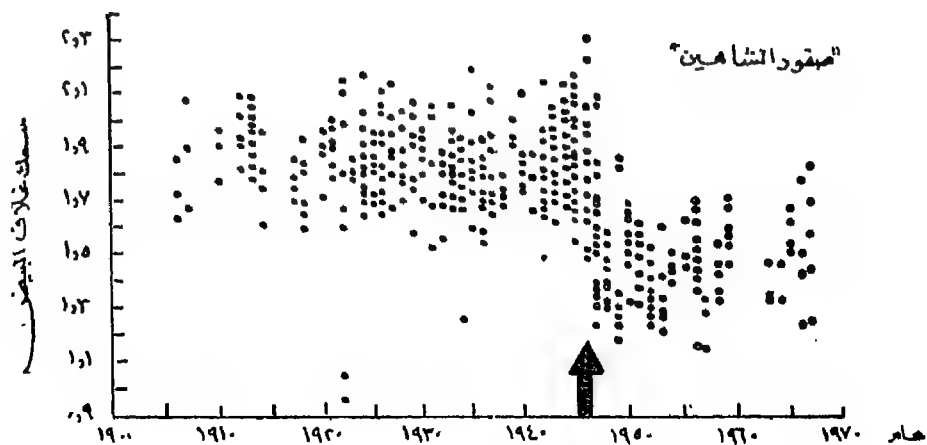
انتشر فيها استخدام مادة الـ D.D.T. كذلك فإن أسماك السلمون في بحيرة متشجن تضع بيضا يحتوى على هذه المادة ، كما وجدت تركيزات منها في عينة أخذت من أسراب هذه الأسماك والتي ماتت بأعداد كبيرة (٧٠٠٠ من صفار السلمون) في عام ١٩٦٨ لامتصاصها هذه المادة . وحدث نفس الشيء لبعض الأسماك البحرية التي تصدر مثل التونا والماكريل والقنديل . لقد عملت هذه المبيدات على حل أو تبسيط النظم البيئية واختزالها ، فلقد حررت الآفات فعلا من القيود الطبيعية . فآلاف أو الحشرة التي تبدو في بادئ الأمر وقد وقعت تحت تأثير هذه المبيدات أو حتى قد ماتت بتأثيرها ، سرعان ما تعود بأعداد أكبر بكثير من ذي قبل . (شكل رقم ٧)

وعلى سبيل المثال فقد ازداد محصول القطن زيادة كبيرة عند رشه بخليط من مادة الـ D.D.T. والـ B.H.C. والتوكسافين في وادي كانيت الساحلى في بيمو عام ١٩٤٩ ، فزاد تبعا لذلك محصول القطن من ٤٩٤ كيلو غراما للهكتار عام ١٩٥٠ الى ٧٢٨ كيلو غراما عام ١٩٥٤ ، ومع فرحة الفلاحين خيّل اليهم ان مزيدا من هذا المبيد يمكن ان يعود عليهم بمزيد من القطن ، ومن ثم استخدموا هذا المركب ليشمل الوادى كله وليس مناطق القطن فقط ، كما قطعت الاشجار لكي يتمكنوا من رش المبيد بالطائرات فماذا حدث ؟ لقد اختفت الطيور بطبيعة الحال من هذه الاشجار حيث كانت تلجأ اليها ، كما اختفت انواع من الكائنات كانت ذات فائدة محققة مثل طفيليات الحشرات ، وكانوا يقومون باستخدام هذا المبيد في فترة مبكرة عن فترة رشه في العام الاسبق نظرا للهجوم المبكر الذى كانت تتعرض له محاصيلهم من الآفات ، وفقدت مادة التوكسافين مفعولها في عام ١٩٥٤ عندما فشلت في القضاء على دودة ورق الطباق . وبلغ البلاء أقصاه من دودة القطن في موسم عام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ عندما ظهرت لأول مرة ستة انواع جديدة من آفات لم تكن معروفة من قبل في هذا الوادى ، بالإضافة الى زيادة في مقاومتها لهذه المبيدات ، فانخفض الانتاج تبعا لذلك في الموسم المشار اليه الى ٣٣٢ كيلو جراما للهكتار رغم الكميات الهائلة التي استخدمت من المبيدات ، وبالتالي حلت كارثة بالوادى في عام ١٩٥٧ . والصورة ذاتها تتكرر عند استخدام السكان لمادة الأزودرين المبيدة لدودة لوزة القطن عندما أعطت نتائج عكسية تماما .

وتحدث هذه المبيدات تأثيرات أخرى على التربة فتزيد من الخلل البيئي وتعرض التوازن البيولوجي المحكم الى مخاطر شديدة ، وتقضى هذه المبيدات على كثير من الكائنات الحية الدقيقة المسؤولة عن تحويل النيتروجين الى صورة ملائمة لتناول النبات له ، وهى مسؤولة عن انتاج اشكال معينة من الفوسفور والكبريت حيوية لازمة للنبات . ولا شك ان الاخلال بمثل هذه النظم يؤكد الخلل او التلف الذى تتعرض له بعض الدورات اللازمة لبقاء الحياة عامة كدورة النيتروجين والفوسفور والكربون في الطبيعة . . انه توازن الحياة كلها والوجود بأسره . . اى خلل يتعرض له ذلك التوازن بتأثير هذه المبيدات . . (انظر الشكل رقم ٨) .

١٠٢٥

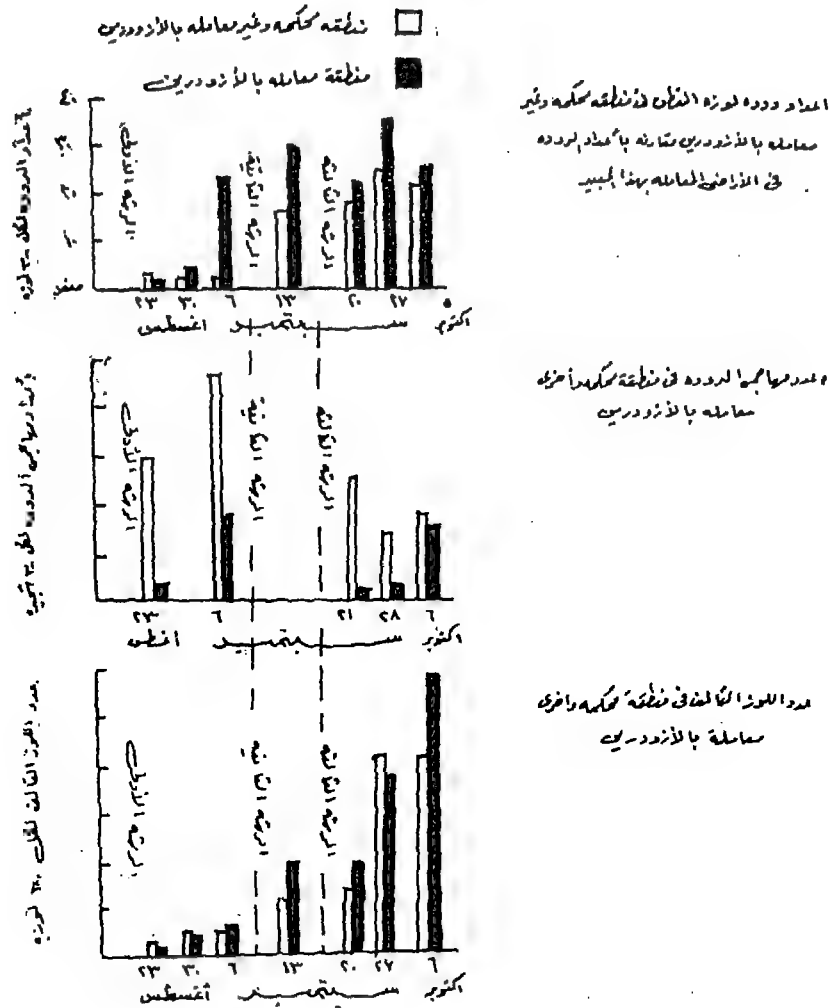
بيئة العمر : بين البقاء والقاء



(ملاحظة: المبيدات على الطيور الجارحة)

المبيدات التي تطرا على سمك أعنقه، يبعد المقود (في بريطانيا) وتتراها سمك السمكة إلى فترة الاستعمار الذوات لاداة الـ و. د. د. ن.

شكل رقم (٧)



شكل رقم (٨)

ماذا حدث في محاولة القضاء على دودة لوزة القطن ؟

تدل نتائج التجارب التي أجريت لاستعمال مائة الأزدودين المبينة لعودة لوزة القطن على أن لهذه المادة فاعلية وتأثير واضح على مهاجمي هذه الدودة أكثر من فاعليتها وتأثيرها على دودة لوزة القطن ذاتها ، ومن ثم فكلما ازداد استعمال الأزدودين كيميائي حشري ازداد تلف الحصول .

بيئة العصر : بين البقاء والفناء

أما مبيدات الأعشاب Herbicides فقد زاد استخدامها في السنوات الأخيرة كبديل للآلات الزراعية الميكانيكية والأيدي العاملة ، وذلك للمحافظة على جوانب الطرق والسكك الحديدية ، وارتفع معدل استخدامها حتى عن معدل استخدام المبيدات الحشرية ، ويتلخص تأثيرها على قتل النباتات إما عن طريق التفريز التي تحدثها في خلال هذه النباتات فتموت وتسقط أوراقها ، أو عن طريق حرمانها من مقومات اتمام حصولها على الطاقة والبناء الضوئي ، ومن ثم تموت أيضا . ومن أهم هذه المبيدات مادة (2-4-D) ومادة (2,4-T) . ولقد استخدمتهما القوات الأمريكية المسلحة في فيتنام لآبادة الأعشاب التي كان يلجأ إليها الوطنيون ، فبدت مساحات هائلة الآن وقد تجردت تماما من أوراقها أو هوى في طريقها الى الموت . وينبغي ان نلاحظ ان ذلك يقضى على التوازن البيئي عندما يعمل على انقراض الحشرات والطيور والزواحف والثدييات المحلية التي تعيش على هذا النمط من الفطانات النباتية .



مدننا : هل هي هادئة آمنة ؟

يتجه العالم اتجاها واضحا وسريعا الى عالم يسوده سكان المدن . ويعرف هذا الاتجاه بعملية التحضر Urbanization ولقد قام كنجزلى ديقز بأجراء عدة دراسات خاصة باتجاهات التحضر واسقاطاته ، وتوصل الى ان نصف سكان العالم سوف يصبحون من سكان المدن مع حلول عام ١٩٨٤ لو استمر معدل نمو الحضر على ما كان عليه عام ١٩٥٠ . اما لو استمر هذا الاتجاه حتى عام ٢٠٢٣ فان سكان العالم كافة سيكونون سكان مدن ، بل ان حوالي نصف سكان العالم سوف يكونون سكان مدن مليونية ، وفي عام ٢٠٤٤ لن تكون هناك مدينة دون الـ ١٨ مليون نسمة ، ومن المتوقع في ضوء هذه التوقعات ان يصبح تعداد أكبر مدينة في العالم ١٤ بليون نسمة . (١٨)

قد تكون هذه الأرقام مزعجة في الواقع ومثيرة . لكن الأكثر إزعاجا واثارة حقا هو تصور بيئة هذه المدن مع هذا المستقبل في ضوء ما هي عليه مدن العالم . لقد فقد سكان المدن كثيرا من مقومات الحياة الرغد في الواقع . ولقد انتشرت في السنوات الأخيرة عدة دراسات حول ما يعرف بالتلوث الضوضائي Noise or Sound Pollution كأحد عناصر تلوث البيئة ، كما سادت الفوضى بعض القيم الأخلاقية التي انحدر بها بعض سكان هذه المدن فأضفت على المدينة ستارا كثيبا من الحياة ، وأصبح السكان في كثير من المدن الكبرى اليوم في حالة قلق دائم ، مع تزايد الجريمة وتشويه حياة المدن بالأصوات المزعجة لوسائل النقل والموسيقى الصاخبة وغيرها ، والتخريب الذي يعم المرافق العامة فيها .

اما عن الضوضاء ، فما أقبح ان يمزق سكون المدينة زئير سيارة على الطريق او هدير طائرة متجهة الى المطار او مغادرة له . من المعروف ان الضوضاء تقاس عادة بالديسيبل Decibel وهو وحدة قياس التفاوت في الشعورين شدة صوتين . ويمثل السكون على هذا المقياس الرقم صفر . ويتراوح الصوت تبعاً لذلك بين صوت التنفس العادي وهو ١٠ ديسيبل ، وصوت نهوض الطائرة النفاثة وهو ١٢٠ ديسيبل أى نفس الدرجة التى يسجلها صوت قذيفة المدفع عندما تكون قريباً منه عند الاطلاق .

وقد يسبب التعرض للضوضاء الشديدة فقداناً مؤقتاً لحدة السمع ، اما عندما تكون مستويات الضوضاء اقل من ٥٥ ديسيبل ، فانها قد تؤخر نوم الانسان ، او تؤدى الى الشعور بالارهاق عند اليقظة . وهناك دليل واضح على ان الضوضاء عند مدى ٩٠ ديسيبل قد تكون الضوضاء عاملاً هاماً من عوامل الاصابة بالامراض الناجمة عن التوتر ، مثل القرحة وضغط الدم ، كذلك فقد اثبتت الدراسات التى أجريت ان المناسيب العالية للصوت لها تأثير ملحوظ على الناحية النفسية للانسان . (انظر الشكل رقم ٩) .

وتزدحم المدن اليوم بأصوات السيارات بشتى أحجامها وأنواعها مختلطة بأصوات الدراجات البخارية واجهزة الانذار البوليسية وصفارات عربات الاسعاف والمطافئ ، مع خليط فريد من اجهزة الراديو او التلفزيون في المحلات العامة ، كل هذا مع مطارق اوناش آلات البناء ، كل هذا خارج المنزل . اما في داخله ، فبالاضافة الى صوت الراديو او التلفزيون هناك العديد من الاجهزة المنزلية الصاخبة التى قد « تيسر » حياة الاسرة ، ومن هذه الاجهزة المكائن الكهربائية والخلاطات والفسالات وماكينات الحلاقة والحياكة والتجفيف وغيرها .

ان تأثير الصوت يختلف من شخص الى آخر ، ويتوقف هذا على مستوى ضغط موجاته وترددتها ، كما تختلف التأثيرات السيكلوجية تبعاً لمغزى الصوت بالنسبة للسامع وظروفه . فصوت محرك الدراجة ربما يكون من الناحية البدنية مرهقا ومدمرا للاذن ، ولكنه في نفس الوقت قد يعطى تأثيراً نفسياً مغموراً بالنشوة والسعادة لسائق الدراجة ، تماماً كما يعتمد الشباب رفع صوت سياراتهم باحداث ثقب في مجرى العادم ، ان ذلك يعطى تأثيراً فريداً عليهم حقيقة .

- اما وسائل النقل الجوية ممثلة في الطائرات ، فان الطائرات النفاثة الاسرع من الصوت تعتبر من اكبر المنفصات لسكان المدن القريبة مساكنهم من الموانئ الجوية التى تستقبلها . ولقد ثبت فعلاً ان الصدمة التى يحدثها صوت اختراق الطائرة لحاجز الصوت ، تعتبر تهديداً مباشراً وخطيراً للاسماع . كما ثبت فعلاً اصابة السكان بالقرب من المطارات بكثير من الاضطرابات النفسية والعصبية ، خاصة في مواسم الطيران الزائد .

وبالاضافة الى هذه المظاهر ، هناك أصوات الوسائط التى تجوب الانهار والبحيرات كاللنشات وغيرها من وسائط النقل الميكانيكية ، ولها تأثير سيئ على السكان القريبين منها ، كما ان أصوات

١٠٣٩

بيئة العمر: بين البقاء والغناء



شكل رقم (٩)

(التلوث الضوضائي بمدن اليوم)

لاشك أن وسائل النقل داخل المدن تجاوزت حدود المعقول في تأثيرها الضوضائي .

موسيقى الجاز الصادرة من أجهزة الصوت المجسم تعتبر هي الأخرى ، وقد بدأت تجذب المزيد من الشباب الى سماعها وقد تصل الى ١٢٥ ديسيبل وهو مستوى مدمر للاذن لو تعرض لها الانسان لفترة طويلة ، وهكذا .. حتى الموسيقى التي هي فن وجمال ، نسي تأثيراتها الضارة مع غمرة البهجة الظاهرية الآتية .

ويؤكد صامويل رذون أحد رواد البحث العلمي في الاصوات ، ان هناك علاقة بين الاجهاد الناجم عن شدة الصوت والاضطرابات القلبية ، وان رد فعل التعرض المستمر للصوت الشديد يؤدي الى تضيق الشرايين وعدم انتظام ضربات القلب ، وتؤثر الضوضاء في الانسان اما عن طريق اصابته بالصمم نتيجة تلف الخلايا الشعرية المجهرية الناقلة للصوت من الاذن الى المخ ، الامر الذي قد يسبب انفجارا مفاجئا فيها، واما يضعف السمع ضعفا مزمنًا . .

وبالإضافة الى هذه الصور المزعجة لحياة الضخب والضوضاء التي تجتاح مدن العالم اليوم هناك العديد من الصور الانسانية الموسعة التي بدأت تضيف مزيدا من التدهور الى بيئة المدن . وتضخ هذه الصور في العيّنات والأحياء الفقيرة حيث يصل معدل الجريمة الى اقصاه . وهناك أكثر من دليل يؤكد ان حياة المدن عامة ، وتلك النماذج المنتشرة لانماط عديدة للجريمة والعادات السيئة في المدن ، انما يؤدي الى عدم تقارب الافراد والإسّر ، وضعف في العلاقات العامة والتعارف بين الافراد ، مما يتسبب في توترات نفسية .

وفي هذا المجال يقول العالم السيكولوجي زيمباردو P. G. Zimbardo ان الضغوط الحضارية في المدن انما تعمل على تحويل الأمريكيين الى جماعات من القتل وسفك الدماء . وقد توصل الى هذا الاستنتاج عن طريق الدراسات التي أجراها حول العلاقة بين ما يعرف بالغفلية Anonymity والاعتداء Aggression ، وعن طريق الدراسات الميدانية لما يعرف بالوندلisme Vandalism وهي التخريب المتعمد للممتلكات والمرافق العامة والخاصة بغير ما سبب واضح . فلقد رصد في الفترة من عام ١٩٦٤ الى عام ١٩٦٩ حوالي ٢٣٠ ثورة عنف اجتاحت المدن ، وذكر ان المخربين قد قاموا في عام ١٩٦٧ بتدمير (٣٦٠٠٠٠) جهاز تليفون عمومي في نيويورك فقط . بالإضافة الى تحطيم (٢٠٢٧١٢) شبكات مدرسة ، واتفوا العديد من المواقف العامة للسيارات . وحدثت اعتداءات على السيارات في نيويورك فقط بلغت ٢٣ اعتداء خلال ثلاثة أيام بلا سبب وامام المارة وفي وضع النهار (١٩) .

ومن دراسات أخرى تبين ان معدلات جرائم العنف ترتبط ارتباطا كبيرا بالكثافات العالية في المدن ، ولقد أوضحت الإحصائيات التي جمعت على مدى ثلاث سنوات من المدن الأمريكية (وهي اعوام ١٩٤٠ ، ١٩٥٠ ، ١٩٦٠) ان جرائم الاعتداء والسرقه والقتل والجنس ذات ارتباط واضح بمناطق الكثافات العالية في هذه المدن . هذا بالإضافة الى ان هناك أعراضا أخرى ذات ارتباط وثيق بالازدحام السكاني في المدن .

بيشة العصر : بين البقاء والبقاء

ففى اواخر الستينات أجريت عدة دراسات فى مانهاتن عن تأثير الازدحام على السكان ، فوجد ان هناك حوالى ١٨ ٪ من السكان يعانون بدرجة أو بأخرى من الاضطرابات العصبية او النفسية ، ولم تشمل هذه الدراسات السكان فى الاحياء الفقيرة او المرضى فى المستشفيات .

ويعتبر الفقر والتمييز العنصرى او الطائفى من أهم العوامل التى تقترب بالاضطرابات النفسية خاصة بين المراهقين . ومن أهم امراض هذه الاضطرابات تعود حالات الطلاق فى المدن ، واساءة معاملة الاطفال ، وحالات الانتحار وغيرها ، هذا بالإضافة الى ما تسببه هذه التوترات من امراض للقرحة والشريان التاجى وارتفاعات ضغط الدم. ويمكن تجنب مثل هذه الظواهر بتشديد منازل واحياء اكثر ابداعا وجمالا وتشجيرا وان كان ذلك يستغرق مالا وجهدا وقتا ليس بالقصير .



البيئة وتهديدات التسلح النووى : (انظر الشكل رقم ١٠)

يشكل السباق النووى الرهيب الذى يجتاح القوى العظمى فى العالم اليوم ، انتهاكا خطيرا للنظم البيئية كافة فى هذا العالم . وتضيف الاشعاعات الناتجة من مفاعلات الطاقة النووية وعن التجارب المختلفة مزيدا من الملوثات التى تترك آثارا مخيبة لكل رجاء فى بيئة نظيفة . ولقد تركت التجارب النووية قبل عام ١٩٦٣ آثارا لا تزال نتائجها تتكشف يوما بعد يوم ، وذلك نتيجة لتلك التجارب على تفجيرات القنابل الهيدروجينية الضخمة (H-Bomb) وما اعقبها من ترسب لسحباتها المحملة بالضخمة على سطح الارض .

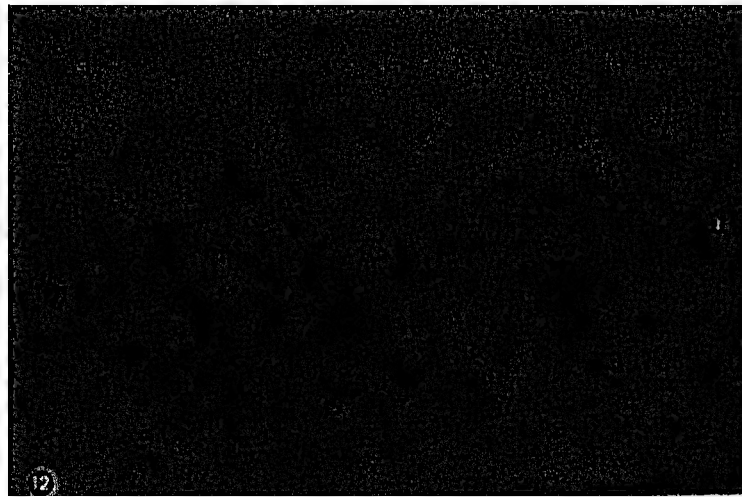
ولقد تركت عملية الانشطار النووى الناتجة عن هذه التجارب انواعا جديدة من الذرات الاشعاعية غير موجودة فى الطبيعة من قبل (٢٠) وتبددت فى الهواء والمياه ومصادر الغذاء واستقرت فى اجسامنا . وتبعها لخواص بعض هذه المواد فقد تركت فى اجزاء حساسة من اجسامنا محدثة فيها تلفا لا يزال العلم عاجزا عن علاجه . فالجرعة الاشعاعية قد ترتفع بنسبة ولو قليلة نتيجة للقيار الدرئ المتساقط عن تجارب القنابل الدرئية ، غير ان التلف البيولوجي الذى تسببه خطير لدرجة غير متكافئة بالمرّة .

وخلال التجارب النووية التى أجرتها الولايات المتحدة الامريكية ، استنكر المتحدون الرسميون عن الحكومة الفيدرالية حظر عنصر معين من عناصر القنابل الدرئ المتساقط عن هذه التجارب وهو الاسترونتيوم - ٩٠ (Strontium-90) الا ان الذى كشف عن خطورة هذا العنصر جهد اساتذة الجامعات هناك فى بحوث مستقلة لهم . ولقد اثبتوا ان لهذا العنصر فاعلية اشعاعية ذات مدى زمنى طويل ، وهو من الناحية الكيميائية يشبه الكالسيوم ، أى انه يتركز فى

(٢٠) يتعرض الانسان عادة ومنذ بدء الحياة السونوع من الاشعاعات الكونية والاشعاعات الناتجة عن الصخور بدرجة طفيفة تألقم معها جسم الانسان والحيوان والنبات .

١٠٣٢

عالم الفكر - المجلد السابع - العدد الرابع



شكل رقم (١٠)

تفجير لقنبلة نووية حديثة ... سحب هائلة من الغبار
الذى سوف تجد طريقها الى سطح الارض ولو بعد حين ...

بيئة العمر : بين البقاء والفناء

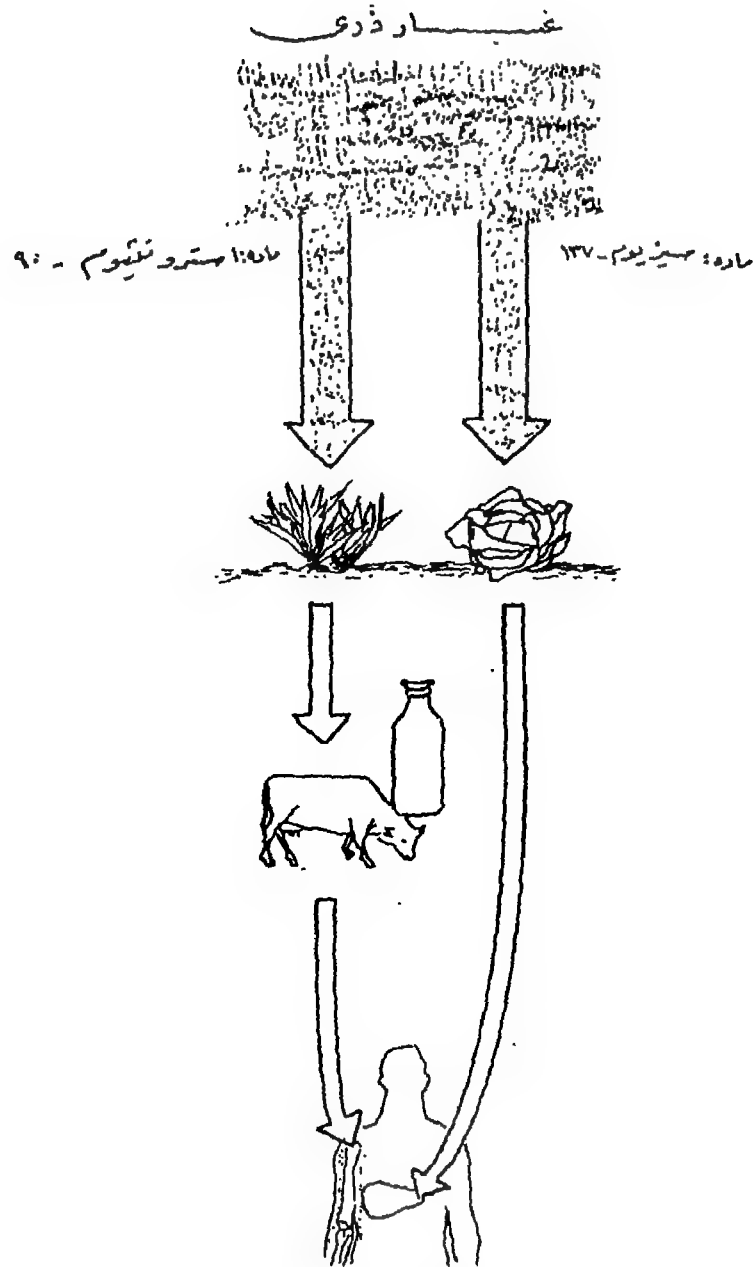
العظام وبالذات في العظام السريعة النمو ، كعظام الأجنة في الارحام والاطفال الصغار ، ويصل الى هذه العظام عن طريق ترسبه في الاعشاب والنباتات التي تغذى عليها الابقار ، وبالتالي يتركز في البانها . وقد يسبب عنصر الاسترونسيوم - ٩٠ هذا مرض اللوكيميا احد انواع الامراض السرطانية ، فهو - اى هذا العنصر - يهاجم الأجنة فيسبب تشوهات خلقية للاطفال عند ميلادهم ، كما يتسبب في وفاتهم أحيانا . ولما كانت مثل هذه الاعراض تحدث نتيجة لاسباب أخرى ، فان تحديد الحالات الناجمة عن هذا العنصر ربما كان صعبا .

وعلى الرغم من صعوبة ملاحظة الفبار للدرى المتساقط ، ورغم تحريم التجارب النووية الجوية ، الا ان من بين التجارب العديدة التي أجرتها الولايات المتحدة الامريكية تحت الارض ١٧ تجربة (من مجموعها وقدره ٢٠٠ تجربة) تسربت منها الفاعلية الاشعاعية ، ومنها تجربتان وصلت هذه الفاعلية لهما الى كندا . (شكل رقم ١١)

ولو فرض وامتنعت هذه التجارب تماما ، فان سباق التسليح النووي سيظل له تأثير خطير على البيئة من خلال تجهيز المواد النووية . فمخلفات مفاعل اليورانيوم ومصانع انما تشكل في حد ذاتها خطرا محليا جسيما . فهي تعرض المواد الخام تحت الارض للتلوث بها بعد ترشيح مياه الامطار لها الى باطن الارض ، ومن ثم تسرب الى مياه الانهار لتلوثها بالاشعاعات .

والاخطر من ذلك تلك العناصر المشعة الجديدة الناتجة عن المنتجات الجانبية للمفاعلات الذرية التي تصنع البلوتونيوم والتريتيوم . وتستمر بعض هذه العناصر لفترات قصيرة ، ولكنها قد تحدث اخطارا اشعاعية مباشرة وكثيفة ، وتكفي في نفس الوقت لخلق اخطار تستمر عشرات السنوات ان لم تكن مئات . فعنصر الاسترونسيوم - ٩٠ والسيزيوم - ١٣٧ يتحلل ٥٠٪ من قيمتها على مدى ثلاثين عاما ، اي ان ١٠٪ من قيمتها سيظل بعد مرور ١٠٠ سنة متبقيا كمادة اشعاعية ذات اخطار جسيمة . (٢١)

ويظل معظم النشاط الاشعاعي الذي ينتج عن المفاعلات النووية داخل عناصر الوقود المعدنية في قلب المفاعل . وبعد سنة أو سنتين يوقف المفاعل مؤقتا ويزال الوقود منه ليوضع غيره ، ويرسل الوقود المستعمل الى مصنع معالجة المواد المعادة لاستخلاص النفايات الاشعاعية منه في محلول حمضي . ويظل هذا المحلول ساخنا ربما الى درجة الغليان - بسبب عملية التحلل الاشعاعي ، لهذا فلا بد من تبريده بصفة مستمرة . وينبغي عدم نفاذ هذه المواد الى البيئة . وتخزن الولايات المتحدة الامريكية مثل هذه المواد في حوالي ٢٠٠ خزان مبني من الخرسانة المسلحة ومدفونة تحت سطح الارض ، ويتسع كل خزان منها لحوالي مليون جالون ، ولو ان ثلاثة جالونات فقط من هذه المواد قد وزعت بالتساوي على كافة سكان الارض لوصلتهم جميعا ، وعرضت اجسامهم الى نقطة الخطر الاشعاعي . ومع هذا فان مائتي مليون جالون منها مخزون في الولايات



شكل رقم (١١)

الى اين يتجه الغبار الذري المتساقط ؟

ان جوهر مشكلة الغبار الذري المتساقط لا تكمن أساسا في الكمية الساقطة بل تكمن بالدرجة الاولى في الطريقة التي تصبح فيها الجزيئات الإشعاعية مركزة في مجرى السلسلة الغذائية ، ومن هنا فان مادة الاسترونشيوم - ٩٠ للنظير الإشعاعي تمتصه الماشية أثناء تغذيتها بالأعشاب الملوثة ، ثم تتجه هذه المادة الى الإنسان من خلال تناوله اللبن والجبن ، ثم يتسبب في إصابة الإنسان بسرطان العظام . اما مادة السيزيوم - ١٣٧ الأقل ذوبانا ، فتنتقل مباشرة من الخضراوات الى الإنسان حيث يتركز في الاعضاء والأنسجة الدقيقة مثل الكبد والغدد التناسلية وفي هذا خطر جسيم على كل المورثات (الجينات) .

بيشة العمر : بين البقاء والفناء

المتحدة فقط تحت حراسة مشددة ودائمة ويقتطع ، بل تحتاج هذه الخزانات لتبديلها بخزانات أفضل مرة كل ٢٠٠ سنة على مر العصور . ولقد حدث من قبل خلل في أحد هذه الخزانات ترتب عليه انسكاب ٦٠ ألف جالون من تلك المادة المهلكة أخذت طريقها المجهول في التربة . (٢٢)

وتحدد وكالة الطاقة الذرية الكمية السنوية التي تتسرب من العناصر الإشعاعية الخطيرة .
وتحدد كذلك الجرعات الإشعاعية المسموح بها للعاملين في المصانع الذرية وللعمامة من الشعب بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهي للفئة الأخيرة لا تتجاوز ١٠٪ من المسموح به للفئة الأولى ، وهو بذلك أقل من مستوى الخطر الإشعاعي . إلا أن الدلائل تشير إلى أنه في حالة استمرار العمامة من الشعب الأمريكي للتعرض لهذا القدر المحدد للغاية من الإشعاعات ، فإن ١٠ آلاف مواطن سوف يموتون سنوياً بسبب السرطان . وإن كان هذا العدد ضئيلاً بالنسبة لسكان الولايات ، إلا أنها نسبة كبيرة لأفراد من الجنس البشري يموتون بسبب تفيرات متعمدة في الظروف البيئية .

أما السكان بالقرب من المفاعلات النووية فإن الأخطار ستظل تهددهم ، كما أن إنتاج المواد النووية مثل البلاتونيوم والترثيوم واليورانيوم تنطوي على إنتاج نفايات إشعاعية تستعمل في إنتاج الطاقة ، والتي تنتهي عادة بتسخين مياه الأنهار والبحيرات بدرجة تؤثر في الحياة المائية . ولا شك أن التخلص من هذه النفايات الإشعاعية إنما يعد من أخطر المشاكل التي تقدمها الطاقة النووية للبيئة .

والواقع أننا لم نتحدث في كل هذا عن أخطار الحرب النووية لو أنها - لا قدر الله - قامت . ويبدو أن المجتمعات الحديثة قد هيأت نفسها لهذا النوع من الصراع . أو هكذا نتوهم . فبالإضافة إلى القتل الفوري للأرواح البشرية ودمار الممتلكات ، فإنها سوف تؤدي إلى كوارث بيئية ووراثية تفوق الخيال .

إن ما يمكن أن يحدث للعالم نتيجة صراع نووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والصين ودول أوروبية نووية أخرى له تأثير خطير على كل أجزاء العالم . سوف تتوقف فورا مساعدات الغذاء والمساعدات التكنولوجية التي تقدمها الدول المتقدمة إلى الدول الأخرى . وسوف تمتنع الأولى عن مد الدول الأخرى بالبذور ذات الإنتاجية العالية والأسمدة والحبوب الغذائية . والجرات وآلات التنقيب على المياه ، وبالتالي سيجد العالم نفسه على شفا كارثة رهيبة لكون العالم اليوم في ترابط محكم من حيث هذا النوع من العلاقات .

وفي حالة نشوب حرب نووية على هذا المستوى سوف تستحيل زراعة المحاصيل في مناطق عديدة ، كما أن اندلاع النيران الهائلة في نصف الكرة الشمالي ، سوف يؤدي إلى إرسال كميات هائلة من الحطام والهباء إلى الغلاف الجوي إلى حد يفوق التلوث البركاني الذي يعقب ثوراناته المفاجئة ، وسوف تحدث تبعاً لذلك تفيرات جلدية للظروف المناخية في سائر أنحاء العالم ، وحيثما توفرت مواد قابلة للاحتراق كنطاقات الغابات الهائلة في عروضها المختلفة

شمالا وجنوبا ، ولتولدت عواصف نيران رهيبه ، تلك العواصف التي عرفها العالم بدرجة محدودة للغاية في مساء يوم ٢٧ يوليو عام ١٩٤٣ . حينما قامت قاذفات القنابل اللانكستر والهاليفاكس من السلاح الجوي الانجليزي بالقاء ٢٤١٧ طنا من القنابل المحرقة شديدة الانفجار على مدينة همبورج . لقد التحمت كافة النيران الانفرادية في عاصفة من اللهب غطت ستة اميال مربعة ، وارتفعت السنة النيران الى ١٥ الف قدم ، وبلغت درجة حرارة المناطق المفطاة بالعاصفة ١٤٥٠ درجة فهرنهايت ، وبلغت سرعة الرياح التي تولدت نتيجة للتيارات الهوائية الصاعدة والتي تهب نحو مركز النيران الى اكثر من ١٥٠ ميلا في الساعة ، وسخن هواء الملاجئ المحفورة تحت الارض لدرجة كانت تشتمل فيها المواد القابلة للاحتراق بمجرد فتح هذه الملاجئ لدخول الاكسوجين وهو امر لازم لها حيث كانت تفتح للتهوية مرة كل عشرة ايام عادة في الظروف العادية .

لا شك ان حربا كهذه سوف تتسبب في احتراق الجزء الاكبر من نصف الكرة الشمالي ، وسوف لا يكون دمار الفطاء النباتي هو الاثر الوحيد لهذه الكارثة ، بل ان التربة سوف تصبح عقيمة عقما جزئيا او كليا ، كما ستعمل الامطار على جرف الطبقة العليا منها . ولنتخيل مثلا تجرد تلال كاليفورنيا من غطاءها النباتي وسقوط الامطار الشتوية عليها . وكذلك الاحمال الهائلة من الطمي والحطام المشع الذي سينجرف من القارات الشمالية الى المياه بعيدا عن الشاطئ . ولنتخيل كذلك مصير الحياة المائية التي سوف تتأثر تماما بتلوث المياه . كما ينبغي ان نفكر في آبار البترول الموجودة في البحار ، لا شك سوف تنفجر وتدمر بتأثير الاحداث على اليابس المجاور ، وسيتدفق فحواها الى مياه المحيطات وسوف يستحيل اغلاقها ، كما لا بد ان نتخيل مقدار التسرب الذي سيحدث للمذيبات والوقود والمواد الكيميائية الاخرى وما ستعرض له انايبب نقل الخامات المختلفة . (٢٢)

اما الاحياء الذين سيقون بعد اي حرب كهذه فسوف يعيشون في بيئة محطمة منهارة فاسدة ، كما ستركزون في نصف الكرة الجنوبي الضيق ، وسوف يتخلفون ثقافيا وحضاريا لاختفاء التكنولوجيا ، وستتحول الجماعات البشرية الى اشقات مبثرة عليها ان تواجه المشكلات الوراثة المعقدة ، لان كلا منها سوف يمتلك جزءا ضئيلا فقط من المتغيرة الوراثة للجنس البشري ، كما انها سوف تتعرض الى نقداكثر لهذه المتغيرة ، ولقد اظهرت الدراسات التي اجريت على بعض سكان اليابان ان هذه المشكلات تؤثر بشكل خطير على معدل وفيات الاطفال وزيادة التلف العضوي للانسان والتشوهات الخلقية التي سوف تصيبهم قبل الميلاد ، باختصار فان تأثير هذه الحرب لن يكون قاصرا على قتل جزء كبير من الجنس البشري ، بل سيظل اثرها باقيا ومدمرا لمن سيبقى على الارض من بعدها .

ان موارد الثروة الطبيعية التي تكونت في احقاب التاريخ الجيولوجي محدودة . وفي خلال الربع قرن الاخير استنفدنا من الوقود الحفري ما يعادل كمية الوقود الذي استنفد في كل التاريخ من قبل (٢٤) ، فنحن فعلا في أزمة طاقة ، تلك الطاقة التي يتضاعف احتياجنا لها مرة كل عشر سنوات . فاذا استطعنا توفير كل جالون من الوقود ، وكل رطل من النحاس واليورانيوم من تلك التي نستهلكها في سباق التسليح النووي حاضرا او مستقبلا ، فسوف نجني ثمار ذلك بالتخطيط لتلك الموارد المنهوبة عمدا في ظل شراة القرن العشرين .

ان كل ما تقدم من حديث عن تلف البيئة المعاصرة او التهديد باتلافها ليس وحده هو الممكن حصره في هذا المجال . فهناك تهديدات أخرى عديدة متشعبة ومتفرعة ، فهناك تلوث ناتج عن مركبات الرصاص بسبب تصاعد ايثيل الرصاص وتعرض له البشرية من خلال المبيدات الحشرية والدهان واللحام وبعض اواني الطبخ وانابيب المياه المصنوعة من الرصاص . وهناك التلوث الجرثومي والبكتيري والفلوريدي Fluoride Pollution حيث يتلوث الهواء من مادة الفلوريد المنبعثة من مصانع الحديد والالمنيوم والفوسفات والزجاج والخزف والطوب ، كل هذا بالإضافة الى الخل الذي يمكن ان يحدث في دورات العناصر الطبيعية كدورة الكربون ودورة النيتروجين ودورة الفوسفات ، يجعل من الصعب طرق كافة جوانب تلك المشكلة البيئية في مقال واحد او لتخصص واحد . (٢٥)

ان اخطار الملوثات المعاصرة غير مدركة بصفة عامة حتى الان خصوصا في الدول غير الصناعية ، ولكن سوف نجد ، وبطريقة غير ملحوظة ، بحيرتنا فاسدة وانهارنا ملوثة واطفالنا وشيوخنا مرضى ، ورغم خطورة التحلل من الهجوم على موارد الثروة الذي حدث في القرن التاسع عشر ، الا اننا لا زلنا ننظر باستخفاف الى ما يجري اليوم ، فهل فشل العلم في ارشادنا عن كيفية استغلالنا للبيئة ، ام ان الزمام قد فلت من ايدي العلماء الذين تقع على عاتقهم المسؤولية لكونهم بمثابة الاوصياء على استقامة ونزاهة هذا العلم ؟ ان السرية حول كثير من الامور العلمية التي تجرى في المعامل والمؤسسات العلمية ، قد اعاققت المناقشات الحرة ، وهناك الكثير من المؤسسات العلمية الهامة قد تحكمت فيها الاهداف القومية المحدودة ، بل في بعض الحالات كان العلماء مرتبطين ارتباط وثيقا بالاهداف السياسية ومن ثم بعدوا عن المناقشات العلمية المفتوحة .

• • •

David R. Inglis, Op.Cit. P. 149, 150.

(٢٤)

See Ehrlich, P.R. & A.H., : Op. Cit. Chaps. 4,5,6.

(٢٥)

نظرة اخلاقية للمشكلة :

يبدو أن العلماء اليوم لا يجدون طريقهم لتقديم الترشيد الدقيق للتكنولوجيا ، وهم مطالبون حقيقة بايجاد طرق جديدة لحماية العلم ذاته من انتهاكات الضغوط السياسية ، وهذه ليست مسألة جديدة ، فكثيرا ما تعرض العلم للهجوم والظقيان عندما يصبح جريئا في المناقشة، نزيها في البحث عن الحق . ولقد كانت القوة الكامنة للعلم وقدرته على فهم الطبيعة تضعف عندما كانت المبادئ الحرة للمناقشة العلمية تتعرض للكبت او الخطر ، وكانت هذه القوة تسترد عندما يكون هناك دفاع عن هذه المبادئ . ولقد تعرض العلم فعلا للقمع والكبت في العصور الوسطى ، كما تعرض لضلال النظريات العنصرية النازية وسخف السرية المضروبة على المعامل العسكرية النووية والجرثومية .

ولقد اعتدنا في الماضي - وخاصة في نظمنا الاخلاقية المنظمة وبخاصة في الدين ان نضرب المثل بمبادئ الحياة الاخلاقية ، وكان ذلك في مصر خلال الحكم الفرعوني ، وفي روما تحت حكم الاباطرة ، وفي الجزيرة العربية في صدر الاسلام ، ومن قبل ذلك من خلال دعوة السيد المسيح عليه السلام . وكانت قيم هذه الاديان تعمل فعلا على تغييرات ملائمة في المجتمع . وحديثا - وللأسف - اصبحت هناك هوة سحيقة بين المبادئ الاخلاقية التقليدية وحقائق الحياة العصرية بدءا من الكنيسة الكاثوليكية والمذاهب الدينية الاخرى ، خاصة في الغرب الذي يمارس الاساليب التكنولوجية على أعلى مستوى ، ولقد أصبح من العسير في هذا العالم ادراك جوهر الموضوعات الاخلاقية في حدود السرقة او الايذاء بحجر ، فالموضوعات الاخلاقية للعالم المعاصر لا بد ان تنحصر في الجوهر المركب للعلم والتكنولوجيا . فممارسة الاخلاق اصبحت الان تتطلب تحديد الحق بين الفلاحين الذين يعملون بمبيداتهم الحشرية على تلويث المياه ، وبين صيادي الاسماك الذين تتوقف حياتهم على تلك المياه ، وهذا نفسه يدعو الى حكم سليم بين مزايا احلال مولد للطاقة غير نووي ينبعث منه الدخان محل مولد نووي خال من الدخان ولكنه ينطوي على كوارث خطيرة .

ان الحرب النووية الرهيبة لا يمكن وصفها الا في الحدود العلمية ، فهي توصف بلغة الروتجينات والمجاطينات ، ويفهمها جيدا من لديهم ادراك بالتنظيم الصناعي ويعلم البيولوجيا البشرية ، ومن لهم ادراك بتعقيدات الايكولوجيا على المستوى العالمي ، فالتدمير الذاتي للحرب النووية ما زال يستتر خلف قناع العلم والتكنولوجيا ، وأن الجريمة الاخلاقية الكبرى في وقتنا هذا اخفاء طبيعة هذه الحرب لان ذلك يحرم البشرية من حقها في تقرير مصيرها .

ان مشاكل العصر تحتاج الى أعمال اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، وسوف يؤثر حل المشكلات المرتبطة بالتلوث البيئي في البناء الاقتصادي الى حد بعيد ، كما ان هذا الحل لا شك سيحتاج الى تغييرات اساسية في تنظيم المدن ، ولكي تقضي على تهديد الكوارث النووية لابد من حل او علاج للصراعات الدولية التي تسبب الحروب المدمرة على مر الاجيال .

١٠٣٩

بيئة العصر : بين البقاء والبقاء

وهكذا نصبح في حاجة لظلة عقلية او غلاف عقلي Noosphere نتفحصه جيدا ،
لانه سوف يعطينا الفرصة للوصول الى حل لمشكلات العصر التي تهدد بقاءنا . الا ان توقف
عقارب الساعة لا يحل المشاكل الايكولوجية ، بل ان ذلك يعتبر غلقا للمصارف او البنوك التي تحل
المشاكل الاقتصادية ، ففي الايكولوجية لا توجد جنات عدن ، ولا المدن الفاضلة ، ولا يمكن ان
نعيد عقارب الساعة الى الوراء للعيش في مجتمع أبسط وحياة أكثر إشراقا ، بل ان طبيعة الانسان
هي التي تدفعه الى التغيير ، وهذا ما دفعه الى الورطة الراهنة حيث اصبح سيدا على الارض
دون معرفة لقواعد السيادة .

اننا في الختام لا نستطيع ان نعبث لفترة طويلة بالقواعد التي تتحكم في نظم البيئة والمجتمع ،
تلك النظم التي هي اساس التوازن في تنوع الحياة من حولنا . وهناك ذلك المبدأ الذي يقف جنبا الى
جنب مع العديد من المبادئ الايكولوجية الاخرى ، المبدأ الاساسي الذي ذكره الفيلسوف فرانسيس
بيكون في القرن السابع عشر عندما ذكر اننا لا نملك حق اصدار الاوامر للطبيعة ، بقدر ما نملك
من تقديم فروض الولاء والطاعة لها .

(٢١) We cannot command nature except by Obeying her.

ان الحكمة التي نحتاج اليها يجب ان تنبثق عن المجتمع بكل افرادة ، ومن الحكومات والاجهزة
التي تصدر التشريعات والقوانين والبرامج اللازمة لتثبيت حجم السكان عند مستويات يمكن اعالمتها
في مستوى معيشي مقبول ، ولتنظيم استعمال موارد الثروة في ضوء احتياجات المستقبل . .
وهذا يعيدنا الى السطور الاولى من هذا المقال لكي ندرك الى اي رقم يمكن ان يصل تعداد سكان
العالم . . فهل يكون الحل في الحد من تزايدنا . . ام في ثراء مداركنا بأبعاد المشكلة الايكولوجية
والنظم البيئية التي تعمل في توازن دقيق ؟

★ ★ ★

أهم المراجع

أولا : مراجع عربية :

- جـوزويـه دى كاسترو « جغرافيه الجوع » ترجمة زكى الرشيدى ، القاهرة (الالف كتاب - رقم ٣٦٦) بدون تاريخ .
- عبد المحسن صالح (دكتور) : « المنية الحديثة ومشكلات التلوث » مجلة عالم الفكر (ديسمبر ١٩٧١) .
- محمد عبد الرحمن الشرنوبى (دكتور) ، « المشكلة السكانية فى الربع الاخير من القرن العشرين » ، مجموعة محاضرات الموسم الثقافى للجمعية الجغرافية الكويتية الكويت (١٩٧٥) .
- « جغرافية السكان » القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية ، (١٩٧٢) .
- « الانسان والبيئة » القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية ، (١٩٧٦) .

ثانيا : مراجع اجنبية :

- Barry commoner : To survive on the Earth, in : Science and Survival, by Commoner, N.Y. 1966.
- Cecil E. Johnson : Eco-Crisis, N.Y. 1970.
- David R. Englis, : " Nuclear Pollution and the Arams Race," in : The Crisis of Survival, N.Y. 1973.
- Ehrlich, P.R. & A.H. : Population, Resources, Environment, San Francisco, 1970.
- Joseph L. Myler : " The Dirty Animal-Man ", in Eco-Crisis, N.Y. 1970.
- Marston Bates, : " The Human Ecosystem," in : Ecological Crisis, N.Y. 1970.
- Peter Farb : ' Man Versus Nature ', in: Eco-Cris, N.Y. 1970.
- Rhoda M. Love & G.A. Love, : Ecological Crisis, Readings for Survival, Chicago, 1970.
- United Nations : " The Determinantseon Consequ nces of Population Trends ", Population Studies No. 1 , N.Y. 1953.
- Warren S. Thompson : Population Problems, London, 1970.

★ ★ ★

آفاق المعرفة

الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق

منصور احمد منصور

ويدور موضوع دوافع العمل Motivation to Work حول دراسة طبيعة الانسان العامل Human Nature وسلوكه او تصرفاته Human Behavior . والفرض من هذا هو التعرف على حاجات الانسان ، ورغباته ، ثم محاولة اشباع هذه الحاجات أو تحقيق تلك الرغبات . والهدف الامثل Ultimate Objective الذي ترمى اليه المنظمات العاملة ، هو

مفهوم دوافع العمل

نادت نظرية العلوم السلوكية ، طبقا لتجارب عملية بضرورة الأخذ بمبدأ دوافع العمل أو الترغيب فيه ، باعتباره أسلوبا انسانيا يحث العامل ويدفعه الى تكريس جهوده، وبذل طاقاته العملية ، والعلمية ، والفنية لتحقيق اهداف المنظمة ! .

* دكتور منصور احمد منصور استاذ مساعد بقسم ادارة الاعمال - كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة الكويت . له العديد من الدراسات والبحوث في الادارة العامة واللقوى العاملة .

١ - تنادى النظرية المذكورة بخمس مبادئ :

- (١) مبدأ اعتبار المنظمة نظاما اجتماعيا ، (٢) مبدأ القيادة ، (٣) مبدأ دوافع العمل (٤) مبدأ الاتصالات (٥) مبدأ تدريب وتنمية قدرات العاملين .

أو معنوية ، في الحال وفي المستقبل ، ومن ثم فإن الإجابة عن السؤال الثاني يرتبط موضوعها بالإجابة عن السؤال الأول ، من وجهة نظر الحوافز التي تحرك دوافع الإنسان نحو الالتحاق بالعمل والاستمرار فيه ، وتكريس جهوده الفكرية والفنية والعملية لتحقيق أهداف المنظمة .

السلوك الإنساني

ان دراسة السلوك الإنساني Human Behavior في العمل تركز أساساً على قدرة الرجل الإداري في فهم طبيعة الإنسان وبغرض توافر هذه القدرة ، فإن فهم طبيعة الإنسان تتطلب أن نعطي المدير قدراً من الوقت أو الزمن . ومن ثم فإن الجهود التي تبذل في اختيار الأفضل من الناس مقدرة وسلوكاً ، لا تكفى في حد ذاتها للتنبؤ بسلوك الإنسان وتصرفاته في الوظيفة . وهذا لا يتأتى إلا بالممارسة الفعلية لواجبات ومسؤوليات الوظيفة من جانب الموظف . ولهذا أخذت الدول عامة بمبدأ تعيين الموظف الجديد تعييناً « تحت الاختبار » (Probationary period) وفي خلال هذه الفترة (من ٣ أشهر إلى سنة) يمكن دراسة سلوك الإنسان وتصرفاته في الوظيفة وخلالها ، يكون للمنظمة أبقاؤه أو إبعاده دون مسئولية في تعويضه أو التزام بقبوله عاملاً .

وتدل التأملات الفكرية ، والدراسات الإنسانية على أن نشاط الإنسان هو تعبير مادي لسلوكه ، ومن ثم فإن السلوك الإنساني يعبر عنه بمجموعة من الأنشطة الإنسانية . وتمثل هذه الأنشطة في طريقة سير الإنسان

تحقيق أهدافها عن طريق إشباع حاجات القوى العاملة ، وتحقيق رغباتها الأمر الذي يدفعها إلى العمل والانتاج Productivity وهذا يعني سد حاجات العاملين ، وتحقيق رغباتهم بالأسلوب الذي يحرك قدراتهم الفنية والعلمية والعملية ووسعها في خدمة الأهداف .

وفد عرف بعض الكتاب مفهوم دوافع العمل، أو ترغيب العامل في العمل والاستمرار فيه بأنه الرغبة الإنسانية Willingness في الاستجابة إلى متطلبات المنظمة ، أي تحقيق رسالتها أو أهدافها (٢) - The Accomplishment of Organizational Missions)

وأحد المفاهيم العالمية المختلفة لدوافع العمل أو ترغيب العاملين في العمل والاستمرار فيه ودراسة هذه المفاهيم وتحليلها فإنها جميعها تدور حول الإجابة على الأسئلة الآتية : -

الأول : ماهي الوسائل الفنية أو العلمية التي تمكن المنظمة بمقتضاها من اختيار وترغيب الانضاء من الناس للاحاق بوظائف المنظمة ؟

الثاني : ماهي الحوافز ، المادية أو المعنوية التي تمكن المنظمة من تطبيقها للابقاء على الكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم في تحقيق الحد الأمثل من الكفاية والانتاجية Productivity ؟

ولاشك أن السؤال الأول يعنى الاهتمام بدراسة السياسة الإدارية الخاصة بتوظيف العاملين الجدد وتعيينهم . على أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين هذه السياسة وبين الحوافز التي تقدمها المنظمة للعاملين لديها . إذ أن اختيار وترغيب الكفاء من الناس ، يقتضى « اغرائهم » بما تقدمه المنظمة من مزايا أو حوافز مادية كانت

الدوافع والخوافز من السلوك

الإنسان بالتعبير عن السبب .
ممل معين ، الأمر الذي يؤمن
حاجاته أو رغباته أو أهدافه
ذلك بالشكل (رقم ١)

من الشكل رقم (١) سبب
الاسباب (whys) الحقيقية
المحركة للأنشطة ، وبها يسر
السلوك ، وتلك الأنشطة .
مرتعا للأبحاث السلوكية
التي ينطلق منها أنواع السلوك
(Mainsprings of action)

ومن ناحية أخرى يرى سبب
أن الرغبة أو الحاجة (Desire)
تمثل الغاية أو الهدف (Target)
يسعى الإنسان الى تحقيقه أو
بالدرجة أو المستوى الذي يراه كإشباع
نفسه منها . ومن ثم يمكن القول
الى اشباع حاجة ، أو تحقيق غرض
المحركة لدوافع الإنسان
وتحديد نشاطه ، الذي قد يجعل
الحاجة أو تحقيق الغاية .

الخوافز

وتطبيقا لما تقدم فإن مودرن الذي
كيفية اختيار «الحافز» أو
التي تحرك دوافع الإنسان
وأدائه لنشاط أو انشطته مع
أو بالأسلوب الذي يحقق له أهدافه أو
وبمعنى آخر يتعين إقامة صلة مباشرة
بين الحافز وتحقيق الهدف أو الرغبة

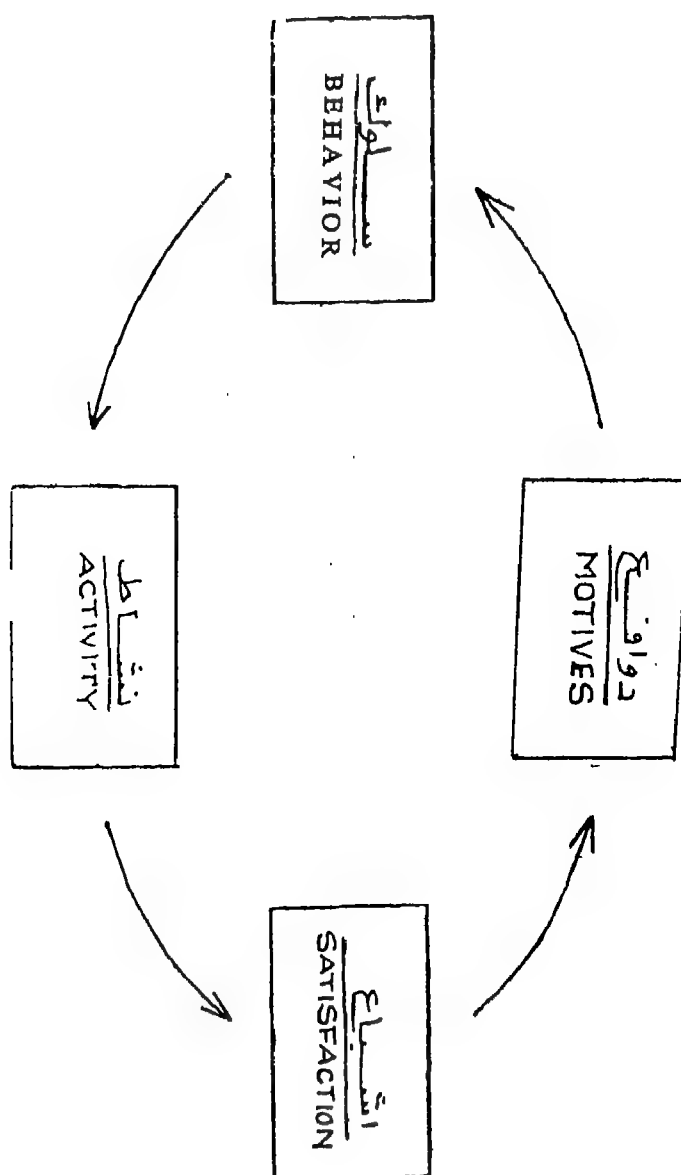
ومن ناحية أخرى فإن سبب
الإنسان العامل أو تحقيق رغباته
المنظمة يقتضى أن يحدد مسرورا

وتعبيره بالحديث وتصرفه مع زملائه في العمل ،
وأسلوبه في أداء الواجبات والمسئوليات
الخاصة بعمله ، وقد يؤدي الإنسان أكثر من
نشاط في وقت واحد ، كالتحدث مع زميل في
العمل أثناء تدوينه بعض البيانات الخاصة
بعمله .

ولا شك ، أن الإنسان له قدرة على أحداث
تغيير مفاجيء في سلوكه ومن ثم في نشاطه ،
كما أنه يستطيع التوقف عن نشاط أو انشطة
معينة وتبديلها بغيرها . . كما أن للإنسان
قدرة على الإبطاء في ممارسة نشاط معين ، أو
تأجيله أو انهائه بصورة أو بأخرى . هذه
الحرية السلوكية تثير تساؤلات هامة منها : ما
هو الدافع أو الدوافع التي تجعل الفرد يقوم بنشاط
معين دون غيره ؟ ما هي الاسباب في تغيير
الإنسان لسلوكه أو تصرفاته ، ومن ثم في نوع
نشاطه أو الأنشطة التي كان يزاولها ؟

وتكون هذه التساؤلات أكثر أهمية ، اذا
ارتكزت على سلوك الإنسان وتصرفاته في
العمل . ومن ثم فإن مناطق الصعوبة ، يتمثل
في ايجاد الوسيلة أو الوسائل التي تمكن
الرجل الإداري من فهم سلوك العاملين تحت
رئاسته أو إشرافه ، وفي قدرته على توجيه هذا
السلوك واخضاعه لمسيرة معينة لتحقيق
أهداف المنظمة ، والطريق الى هذا الفهم ،
وخلق هذه القدرة أو تنميتها لدى المديرين
يتمثل في ضرورة الإلمام بالدوافع أو الحافز أو
الحاجات Motives or Incentives or Needs
البشرية التي تؤدي الى تكوين السلوك المرغوب
فيه في وقت معين .

ولا شك أن هناك صلة وثيقة بين دوافع
الإنسان واشباع رغباته أو حاجاته . فالدوافع
تدفعه الى سلوك أو تصرف معين ، ويقوم



شكل رقم (١١)

إشباع حاجات ورغبات الإنسان

نشاطهم وقدراتهم الفنية والمعمية والعملية في تحقيق أهداف المنظمة (الانتاجية) ،توصلا الى تحقيق رغباتهم وآمالهم الدائمة .

ولهذا فانه قد يكون من الضروري للمنظمات العاملة ، تحديد نوع Kind ، وطبيعة Nature) ، وقوة فاعلية (Intensity) الحوافز التي تقررها للعاملين لديها . كما انه من الضروري اختيار الوقت لادائها ، وارتباطها بأهداف العاملين وتغييرها او تنوعها تبعاً للتغيير في رغبات الافراد . وهذا لا يتأتى الا عن طريق اجراء الابحاث العلمية بصورة مستمرة .

وتدل الدراسات العديدة على انه يتعين توافر شروط محددة في تقرير هذه الحوافز (بالنسبة للاجر مثلا فانه يتعين تحديده وهو احد الحوافز الضرورية) ارتكازا على عوامل ثلاثة ، العدالة ، والمساواة والكفاية . اما الحوافز المساعدة او الاضافية ، فيجب توافرها ما يلي عند اختيارها واقرارها :-

١ - سهولة فهم السياسة التي تقررها المنظمة في تقريرها للحوافز (Easily Understood) .

٢ - عدالة الحوافز وكفايته (Equitable)

٣ - ارتباط الحوافز ارتباطا وثيقا مباشرا بالجهود الذهنية او البدنية او السلوكية التي يبذلها العامل في تحقيق الحد الامثل للانتاجية (Directly related to effort)

٤ - اقرار صرفها او ادائها للعاملين في مواعيد محدودة ومتقاربة (Based on short Payback period)

٥ - ارتكاز الحوافز على اسس ومستويات مقبولة . (Based on relevant standards)

الى تحقيق اهداف المنظمة ، ومن ثم فانه يتعين اقامة صلة اخرى وثيقة بين اهداف المنظمة وأهداف العاملين بها . ومعنى ذلك أن تكون الحوافز المتاحة كافية لخلق الظروف المناسبة والاقتناع الانساني بأن تحقيق اهداف المنظمة ضرورى لتحقيق اهداف الجماعة في المنظمة ويمكن تصوير ذلك بالشكل الاتى رقم (٢) .

يشير الشكل رقم (٢) الى ان اشباع حاجات الانسان العامل وتحقيق رغباته مرهون بتحقيق اهداف المنظمة ، ومرتبطة بها ، بمعنى أن تحقيق الاهداف شرط لازم لامكان اشباع حاجات الانسان ورغباته . واذا اردنا اعادة صياغة هذا في اسلوب اكثر دقة وسهولة، فانه يمكن القول ان الحد الامثل لانتاجية العامل هو الغاية والهدف ، وتحقيقه أمر جوهري في اشباع الحاجة او تحقيق رغبة الانسان العامل .

على ان ما تقدم لا يعنى قيام المنظمة بوقف اشباع الحاجة او تحقيق الرغبة ، حتى يتحقق لها هدفها في الوصول الى الحد الامثل في الانتاجية . بل انه يجب التفرقة بين ما يسمى بالحاجات او الحوافز الضرورية او اللازمة (Primary Incentives) وبين الحوافز

المساعدة (Auxiliary Incentives) . ويتمثل النوع الاول في الاجر المحدد للوظيفة ومشمولاته ، ويتمثل النوع الثاني في كل المزايا او الحوافز ، التي تقررها المنظمة مادية او معنوية بالاضافة الى النوع الاول تشجيعا للعاملين ، وحثا لهم على تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ومن ثم فان النوع الاول من الحوافز ، يمثل حاجات العمل الضرورية التي يتعين اشباعها بصورة منتظمة، ومستمرة الا في الاحوال التي يجوز فيها ، او يتعين معها اتخاذ امر يؤثر على صفة الاستمرار أو الانتظام في ادائها ، اما الحوافز المساعدة ، فهي التي تقررها المنظمة لجميع العاملين او لبعضهم بشروط معينة ، تشجيعا لهم ، لتوجيه

الدول النامية عامة ، والدول المتقدمة خاصة،
تشجيعا للعاملين واستمالة لجهودهم في
تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ليتكامل نجاح
اهداف المنظمة . وقد تمنح هذه المزايا ، الى
جانب الحوافز الاخرى ، بصورة جماعية
(Group Incentives) او بصورة فردية
(Individual Incentives) .

ويصور الجدول (رقم ١) اهم المزايا
الاضافية التي تمنحها المنظمات العاملة في
الدول المتقدمة ويمكن استخدامه كإطار لقطاع
الخدمات في تخطيطها لسياسة الحوافز .

الاستمرار أو الانتظام في

(Continuous rather than Sporadic)

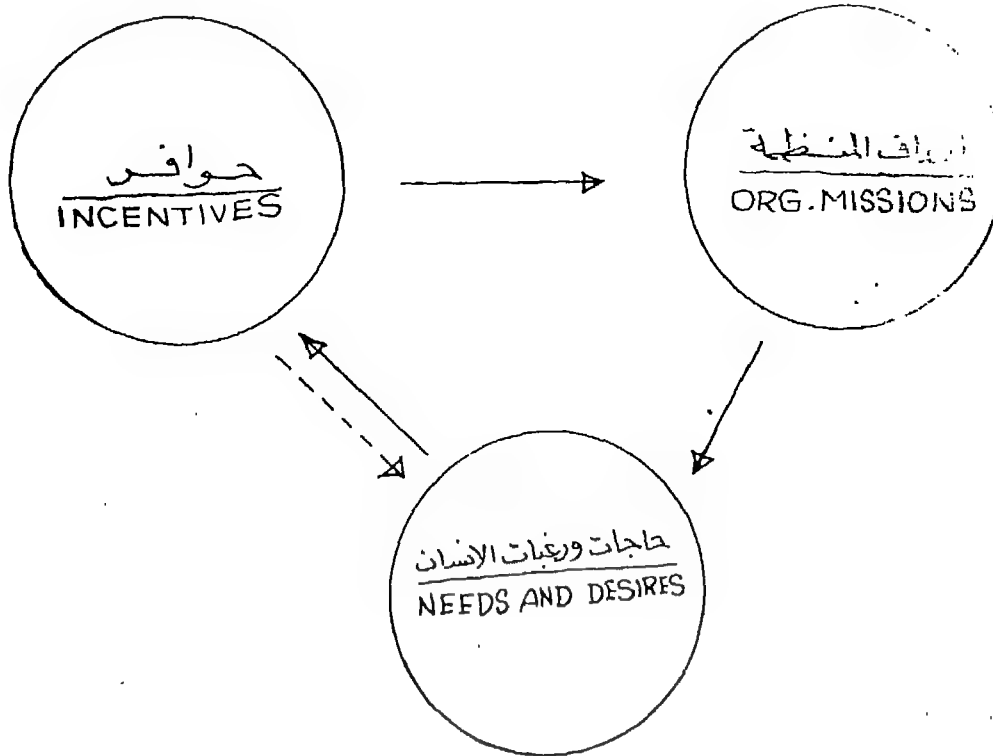
ارتباطا مباشرا ووثيقا برسالة

(Related to Organization's Purpose)

بمخالطة اتصالا مباشرا

Drives (٢) .

مستوى المزايا الاضافية في



شكل رقم (٢)
تحقيق أهداف المنظمة

- Robert A. Sutermeister, *People and Productivity* (New York : McGraw-Hill, Company, 1963), and Billy J. Hodge & Herbert J. Johnson, *Job Evaluation* (New York : McGraw-Hill, Company, 1963).
- David W. Belcher & R. H. Leukert, *Job Evaluation* (Englewood Cliffs : N. J. Prentice Hall, Inc., 1954), pp. 379-514.

١٠٤٧

الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق

جدول رقم (١)
اهم المزايا الاضافية التي تمنحها بعض
المنظمات العاملة

امثلة	نوع المزايا الاضافية	مسلسل
<ul style="list-style-type: none"> - البديل النقدي للاجازات الرسمية - المزايا المالية الاضافية في النوبات الليلية . - المزايا المالية عن عمل وقت اضافي - البديل النقدي للعمل في الاجازة الاسبوعية 	مزايا اضافية مقابل عمل يؤدي	١
	مزايا نقدية غير مرتبطة بالانتاج	٢
	مزايا نقدية غير مرتبطة	٣
<ul style="list-style-type: none"> - مكافآت الاعياد السنويه - مكافآت المواظبة على الحضور - مكافآت الجودة في الانتاج - مكافآت اتباع تعليمات الامن والصيانة - مكافآت الخدمة الممتازة - مكافآت تقديم اقتراحات نداء . - مكافآت نهاية السنة المالية 	مزايا نقدية غير مرتبطة	٣
	بساعات العمل :	
	<ul style="list-style-type: none"> - البديل النقدي للاجازات غير الرسمي - الاجر المدفوع للوقت الذي يقضيه العامل خارج المنظمة باذن مثل الذهاب للادلاء بصوته في الانتخابات او الادلاء بشهادة في الخدمة ... الخ - الاجر المدفوع عن اوقات الراحة اليومي . - الاجر المدفوع عن اوقات تناول الغداء - المزايا المالية المدفوعة في حالات وفاة احد افراد الاسرة . - المزايا المالية المدفوعة للوقت الذي يستغرقه العامل في تغيير ملابسه او الاستعداد للعمل . 	

١٠٤٨

عالم الفكر - المجلد السابع - العدد الرابع

تابع جدول رقم (١)

امثلة	نوع المزايا الاضافية	مستل
<ul style="list-style-type: none"> - اقساط التأمين التي تدفعها المنظمة لصالح العامل . - المزايا المالية الاضافية في حالات العجز . - المزايا المالية الاضافية في حالات الرعاية الصحية ، والعلاجية والجراحية . - اقساط التأمين المدفوع لصالح العامل ضد السرقات . - الضمانات المالية التي تؤديها المنظمة لصالح العامل . 	<u>المزايا الاضافية في نطاق حماية العامل :</u>	٤
	<u>مزايا اضافية للخدمات</u> <ul style="list-style-type: none"> - توفير المطاعم في مكان العمل - توفير الوسائل الرياضية والاجتماعية - توفير المساكن للعاملين - تقديم منح دراسية وتدريبية - تقديم استشارات فنية وقانونية 	٥

الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق

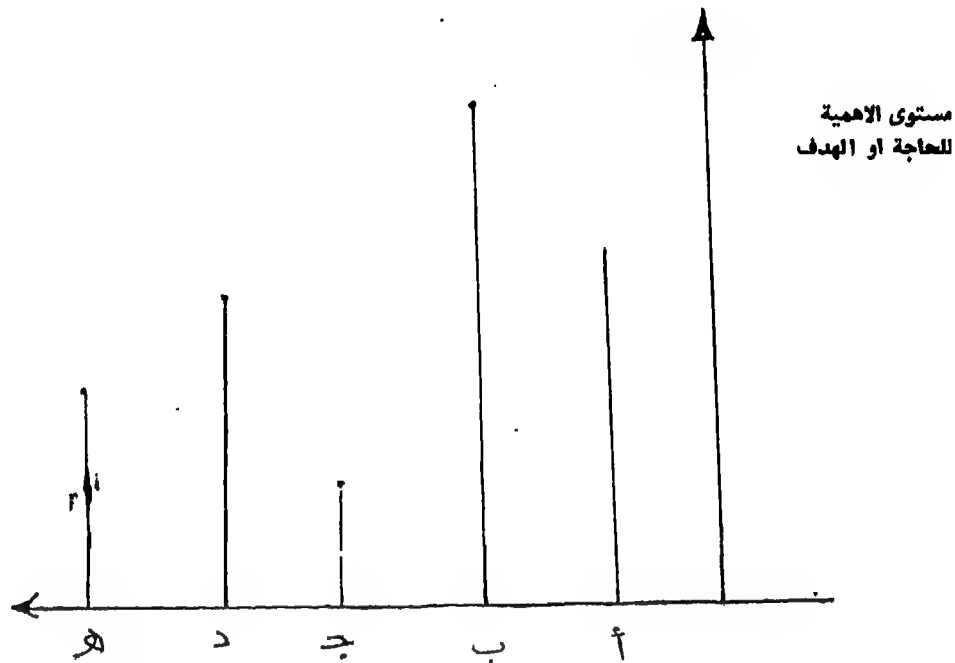
الخطوة الهامة نحو التأثير على سلوك العامل ونشاطه ، بحوافز مناسبة Appropriate Incentives واشباعها في وقت الحاجة اليها .

وقد تثار صعوبة حول ضمان التأثير على سلوك الفرد العامل ، وتوجيه نشاطه في اتجاه تحقيق أهداف المنظمة . وتتمثل هذه الصعوبة في ثلاث نقاط :

الاولى تتمثل في اشباع حاجات العاملين او تحقيق رغباتهم الفردية . ولاشك انه من الصعوبة بمكان الوصول الى هذه النتيجة نظرا لتعدد حاجات الافراد في وقت واحد ، وعلى الاخص بالنسبة للمنظمات التي يعمل بها عدد كبير من الافراد . ولهذا ، فان هناك من الدلائل العلمية ما يشير الى اشباع هذه الحاجات أو تحقيق تلك الرغبات التي تمثل

وموجز القول انه يتعين اختيار الحافز او الحوافز التي تتوافر فيها الشروط السابقة ، وعلى الاخص تلك التي تمثل الحاجة أو الرغبة الملحة والهامة والقوى لدى العاملين . ومعنى ذلك ان حاجات الفرد العامل متعددة . الا ان الرغبة في اشباعها تتفاوت فيما بينها من حيث اهميتها لديه . ومن ثم ، فان على المنظمة ان تختار الحاجة أو الهدف الذي يمثل الدرجة القصوى لدى العاملين في وقت معين .

ويبين من الشكل رقم (٣) ان الحاجة أو الهدف (ب) يمثل أعلى مستوى من الاهمية لدى الانسان في وقت معين ، ومن ثم يكون اشباع هذه الحاجة أو تحقيق هذا الهدف طريقا لتحقيق أهداف المنظمة . ويعني هذا ان معرفة وتحديد حاجات الفرد ورغباته تمثل



شكل رقم (٣)

اهمية الحاجة أو الهدف

أسباب عديدة منها أن هذه الأبحاث تحتاج إلى وقت لوضعها موضع الاختبار العملي في مجالات العمل المختلفة ، وعدم الاهتمام بالأبحاث السلوكية في الدول عامة والنامية خاصة ، وقلة الاعتمادات المخصصة للأبحاث والتجارب في ميدان العلوم السلوكية (٥) .

على أنه مما لا شك فيه أن هذه الأبحاث قد أرسيت مبادئ هامة وأساليب فنية ، وأفكارا تركز على تأملات فكرية ، وفروض علمية ، ونتائج موضوعية في مجال العلوم السلوكية ، هذا فضلا عن أن بعض هذه الأبحاث نجحت حينما وضعت في مجال التجربة ، وما زال الوقت متسعا للمزيد من هذه الأبحاث وتلك التجارب (٦) .

وتعتبر نظرية الحاجات التي بدأها ماسلو (Maslow) من النظريات التي أخذت مسارها في التطبيق وارتكز عليها كثير من المفكرين والكتاب في أبحاثهم وابتكاراتهم في مجال الدوافع والخوافز . ويعتقد ماسلو أن هناك خمس حاجات للإنسان لها أهمية تصاعدية أو هرمية . هذه الحاجات تتمثل في :

(١) الحاجات المادية أو الضرورية

(٢) الحاجة إلى الأمان والضمان

(٣) الحاجات الاجتماعية (٤) الحاجة إلى

التقدير (٥) الحاجة إلى الاحراز أو تحقيق أقصى الآمال أو الطموحات .

آمال وأهداف النسبة الغالبة من الأفراد . وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الأبحاث العلمية في مجال الخوافز .

الثانية تتمثل في ضرورة خلق الشعور العام والطمأنينة لدى الأفراد بتوقع (Expectancy) قيام المنظمة بأشباع هذه الحاجات أو تلك الرغبات وضمان ذلك في المستقبل . ولا شك في أن هذه الصعوبة تقع مسؤولية حلها على الإدارة العليا بالمنظمة .

الثالثة تتمثل في الشعور العام للجماعة أو الأفراد بتوافر إمكانيات المنظمة الكفيلة بالوفاء بالتزاماتها في مجال الخوافز (Availability of Incentives) ولا شك في أن السياسة المعلنة في مجال الخوافز ، والسوابق التاريخية للمنظمة في مجال علاقات العمل من شأنهما خلق هذا الشعور بين العاملين بالمنظمة .

وتدل الدراسات العديدة في مجال سلوك الأفراد في المنظمات العاملة على أن البحث العلمي يمثل المشعل الذي ينير للادارة المعرفة الموضوعية في مجال دراسة طبيعة الإنسان وسلوكه وأهدافه ووسائل تحقيقها

أبحاث الدوافع :

تعددت الأبحاث النظرية والميدانية في مجال الدوافع والخوافز ، لكن القليل منها لا يعتمد على تجارب ناجحة تمنحها الصحة العلمية ، وتعطيها ركيزة الاعتماد عليها في المجالات المختلفة في المنظمات العاملة . وقد يرجع هذا إلى

٥ - د . منصور أحمد منصور ، البحث العلمي وأهميته في مجال الإدارة ، الإدارة ، المجلد الخامس ، العدد الثاني ، أكتوبر ١٩٧٢ (يصدر مجلة الإدارة اتحاد جمعيات التنمية الإدارية بجمهورية مصر العربية) .

٦ - تدل الدراسات على أن أهم نظريات الدوافع والخوافز خمسة هي :

(١) النظرية الكلاسيكية ، (٢) نظرية الحاجات ، (٣) نظرية العلاقات الإنسانية ، (٤) نظرية التفضيل والتوقع ، (٥) نظرية العاملين ، راجع :

د . منصور أحمد منصور ، المبادئ العامة في إدارة القوى العاملة (الكويت : وكالة المطبوعات ١٩٧٣) الباب الخامس ..

١٩٥٧ ، واستمرت هذه الدراسة خمس سنوات اعتبارا من تاريخ التحاق هؤلاء الموظفين بالخدمة ، وأجريت لهم مقابلات شخصية بحضور متخصصين في العلوم النفسية .

وتتلخص أهم النتائج التي توصلت اليها هذه الدراسة فيما يلي :

١ - يتطلع الانسان لاشباع حاجاته ، عند بداية عمله ، بصورة تسلسلية طبقا للنموذج الذي قدمه ماسلو ، بادئا بالحاجات الضرورية (الاجر والامان والطمأنينة في العمل) .

٢ - ليس بالضروري ان يستمر هذا الاتجاه ، اي تسلسل اشباع الحاجات ، عندما تطول مدة خدمة الموظف . فقد يتطلع الموظف لاشباع نوع معين من الحاجات لا تتفق في تسلسلها مع نموذج ماسلو .

٣ - بعد انقضاء مدة خدمة معينة (وهي هنا خمس سنوات) ، يتطلع أولئك الذين حققوا نجاحا في عملهم ، لاشباع المستويات العليا عن الحاجات (الرغبات) تاركين أو غير عابئين بالمستويات الدنيا منها (كالاجر والامان والطمأنينة في العمل) ، وهذا يرجع اساسا الى ان هذه الفئة تضمن بقاءها في الوظيفة ، وتقدمها في التسلسل الاداري ، ما يضمن لها الاجر والامان والطمأنينة في العمل . وينطبق نفس الحكم على المديرين الذين لم يحققوا نجاحا ملموسا في العمل ، الا ان الفرق بينهم وبين الذين حققوا نجاحا ، يتمثل في ان الفئة الاولى تكون اشد حماسا واكثر اهتماما باشباع هذه الحاجات .

٤ - اظهر المديرون (الناجحون منهم والاقل نجاحا) اهتمامهم باشباع الحاجات المتثلة في احترام النفس ، وتحقيق الذات ، والانجاز ، وكانوا اقل اهتماما بالاجر والامان والطمأنينة في العمل مثلما كان الامر عند بداية خدمتهم .

وتدل الشواهد العلمية ، والدراسات الحديثة في الستينات من هذا القرن على ان نظرية ماسلو (نظرية الحاجات) اتخذت نمودجا رائدا في مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه وحاجته ورغباته . ونتيجة لهذا الاتجاه ظهرت دراسات وابحاث بناءة في مجال الدوافع والحوافز ارتكازا على الحاجات الانسانية الخمسة التي جاءت في النموذج الذي قدمه ماسلو نعرض بعضها في ايجاز .

الحاجات المادية : اجري العديد من الابحاث لمعرفة مدى واهمية الحاجات الضرورية أو المادية لحافز أو دافع للعمل . وقد اشارت هذه الدراسات والابحاث الى انه غالبا ما يرتبط اشباع الحاجات المادية (الطعام ، والملبس الخ بوفرة النقود . على ان الافراد لا يهتمون بالنقود في حد ذاتها ولكن نظرا لكونها اداة (Tool) تمكنهم من اشباع مثل هذه الحاجات ، لذا فاشباعها بهذه الوسيلة يكمن في قوة النقود الشرائية (Purchasing Power) . الا انه مما لاشك فيه ان للنقود وظائف اخرى قد تكون اكثر أهمية ، واعظم ضرورة في استعمالها .

وقد دلت الابحاث التي اجريت في مجال النقود كأداة لاشباع الحاجات الضرورية ، انها باعث أو دافع معقد ومتشاكل . كما ان اهميتها قد تتضاءل كلما تقدم الفرد ساعيا لاشباع حاجات اخرى طبقا للنموذج الذي قدمه ماسلو . ومعنى هذا ان النقود تلعب دورا هاما وحيويا في اشباع الحاجات الضرورية ، ثم تأخذ هذه الاهمية في التناقص كلما ارتفعنا في سلم درجات الحاجات .

واجريت دراسة ميدانية في الستينات من هذا القرن بهدف وضع نظرية ماسلو موضع الاختبار . وارتكزت هذه الدراسة على عينة من ٤٩ موظفا عينوا بالادارة المتوسطة Management-Level Employees في شركة التليفونات والتلغرافات الامريكية عام

الحالة الاجتماعية (الانتماء الى الجماعة) :

ذكرنا من قبل ان حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة Affiliation ترتفع الى الهمية القصوى عندما يعتقد الانسان او يشعر انه قد اشبع حاجته المادية وحاجته الى الامان والطمانية ، وعندما تصبح حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة في اهميتها القصوى فان عدم اشباعها قد يؤدي الى مقاومة الفرد (Resistance) للمنظمة التي يعيش فيها ، والى عدائه لها (Antagonistic) والرغبة او التصميم على عدم التعاون معها (Uncooperative) .

وتشير هذه الدراسات الى ان الانسان يسعى لاشباع حاجته الى الانتماء الى الجماعة لا باعتبارها هدفا في حد ذاتها (A Goal In Itself) بل باعتبارها وسيلة لتحقيق رغبات او اهداف اخرى ، فقد يرغب الانسان في الانتماء الى جماعة معينة حتى يستطيع كسب تأييدها ، ومساندتها في مسائل او آراء او معتقدات معينة . ومن ثم فغالبا ما يتجمع الافراد الذين يؤمنون بآراء او معتقدات واحدة ، محاولين استمالة غيرهم ، وتطويع الجماعة للانضمام اليهم تحت ظلال هذه الآراء او تلك المعتقدات . ولاشك ان تكوين هذه الجماعات التي قد تختلف فيما بينها من حيث المبادئ التي تؤمن بها ، ربما يحول المجتمع الى جماعات متنافرة مسببة في خلق مشاكل اجتماعية تعوق المجتمع عن تحقيق اهدافه .

ودلت هذه الدراسات ايضا على ان الافراد الذين يشعرون باليأس أو القلق أو الملل ، يميلون الى صحبة من يشاركهم نفس الشعور، وقد أكد هذا الاتجاه بعض الدراسات الدالة

الحاجة الى الامان : تمثل هذه الحاجة الخطوة او المرحلة الثانية في اهميتها وتسلسلها للانسان بصفة عامة . وتمثل هذه الحاجة في محاولة او رغبة الانسان في ضمان عمل دائم ودخل دائم يعينه على مواجهة التزامات الحياة له ولافراد أسرته . كما تشمل هذه الحاجة الرغبة في حماية الانسان من الاخطار الطبيعية او المهنية او الاقتصادية .

ويعتقد بعض الكتاب ان ميول الانسان واتجاهاته تجاه اشباع الحاجة الى الامان تلعب دورا هاما في اختيار الوظيفة . على ان الاجابة على أهمية حاجة الانسان الى الامان واثرها على اختياره للوظيفة تحتاج الى ابحاث علمية عديدة حتى يمكن التوصل الى نتائج موضوعية وواقعية .

وخلاصة القول ان حاجة الانسان الى الامان والطمانية أمر يرتكز على الواقع وتؤيده الدلائل . ولاشك في ان الدول عامة توفر للانسان العامل اشباع حاجته الى الامان والطمانية . وتمثل وسائل اشباع هذه الحاجة في التأمينات الاجتماعية

(Social Insurances) والمساعدات العامة ؛ وعقود العمل مدى الحياة (كما هو الحال في اليابان) ، وعدم جواز فصل العامل الا بشروط خاصة (كما في بعض الدول الاشتراكية مثل جمهورية مصر العربية) . كما تعمل المنظمات الخاصة ، ومنها النقابات العمالية ، على اشباع مثل هذه الحاجة عن طريق المساومات او المفاوضات الجماعية مع اصحاب الاعمال (كما هو الحال في الدول المتقدمة وعلى الاخص الرأسمالية منها) .

٧ - راجع :

- Saul W. Gellerman, *Motivation and Productivity* (New York : American Management Association, 1963).

في مثل هذه الظروف المشار إليها تبدأ الجماعات غير الرسمية في الظهور والتكوين بالمنظمات ، وتأخذ في النمو . وتكتسب قوة لها تأثيرها على الانتاج . والانتماء الى مثل هذه الجماعات يعتبر اشباعا لحاجة الانتماء (الحاجة الاجتماعية) . والقيود التي تفرضها هذه الجماعات على الانتاج (Restriction of Output) ما هي الا احد الامثلة لنشاطها في مجال الانتاج . على انه ليس بالضروري ان تكون هذه القيود وليدة كراهية أعضاء هذه الجماعات لطبقة المديرين او لادارة المنظمة بل هي وسيلة (Means) للمحافظة على أعضاء الجماعة ، وشخصيتها والوصول الى أهدافها .

وجدير بالملاحظة ان الجماعات غير الرسمية تلفظ من بين أعضائها من لا يلتزم بشروطها وينفذ حدود معدلات انتاجها أو أدائها ، ذلك أن مثل هذا العضو يضعف من قوتها ، ويؤدي الى تحطيم وجودها ، وذهاب طمأنينة أفرادها والاهمية التي يجب ان تكون عليها .

وخفض الانتاج ليس بالضرورة ان يكون نتيجة ظهور الجماعات غير الرسمية . اذ انه يمكن للادارة الواعية ان توجه نشاط هذه الجماعات لصالحها واستخدامها كركيزة تنطلق منها لتحقيق أهدافها ، وذلك اذا استطاعت الادارة فهم وتوجيه مثل هذه الجماعات . ومثال ذلك أنه اذا ساد الشعور لدى أعضاء هذه الجماعات بأن هناك تعارضا بين أهداف المنظمة وأهدافهم الذاتية ، فان انتاجهم تميل الى الانخفاض . اما اذا كان تحقيق أهداف المنظمة سيعمل على تحقيق أهدافهم الشخصية فان انتاجية الجماعة سوف تميل الى الارتفاع . وكنتيجة لهذا فان المنظمة سوف تتمكن من تحقيق أهدافها .

وبهذا يمكن القول بأن ظهور الجماعات غير الرسمية ونموها ، ليس بالضرورة اعتبارا مرضا يؤثر على حركة المنظمة او مسيرتها نحو

على ان تطور الجماعات غير الرسمية (Informal Groups) انما يرجع اساسا الى شعور الجماعة بالسأم (Boredom) واحساس أفرادها بعدم أهميتهم في العمل (Insignificance) وافتقارهم الى الخبرة او المهارات الفنية فتكون لديهم الاعتقاد بأنهم ضحايا المجتمع الذي يعيشون فيه ، او نظام العمل الذين يرتبطون به .

على ان الجماعات غير الرسمية المشار إليها لا تضم جميع الافراد الذين يعملون في المنظمات العاملة . فقد دلت الدراسات على ان هناك من الافراد من لا توجد لديهم الرغبة في الانتماء الى جماعة معينة (Loner) وقد يرجع عدم الرغبة في الانتماء الى الشعور بالشك (Suspicion) في هذه الجماعة او نظرة الفرد نظرة الازدراء حيالها contemptuous او ان يكون على درجة من الكفاءة تسمح له بحماية نفسه ، وتحقيق أهدافه دون حاجة الى الانتماء اليها .

وهناك من الدلائل ما يشير الى ان الادارة في المنظمات العاملة تنظر بعين الشك الى الجماعات غير الرسمية التي تتكون وتنمو في المنظمة . وقد اشارت بعض الدراسات الى ان القيود التي تفرضها تلك الجماعات على الانتاج ما هي الا نتيجة طبيعية لشعورهم بتفاهة أعمالهم ، لاسيما اذا كانت الادارة لم تمنحهم الفرصة للمشاركة في اصدار القرارات الخاصة بهذه الاعمال، ويبدو ان مثل هذا الشعور يبدو واضحا (Materialized) عندما تكون أعمال هذه الجماعة مملة ، او روتينية (Routine) لا تحتاج الى أية مهارات . وقد يزداد تأثير هذه الجملة على الانتاج سواء اذا أحكمت الرقابة عليها ، او حرم أفرادها وسائل الاتصال المناسبة مع ادارة المنظمة .

تحقيق أهدافها ، اذا ما اتجهت الادارة الى فهم طبيعة وسلوك ورغبات أو أهداف هذه الجماعات ، ثم محاولة تحقيق هذه الأهداف وجعلها مرتبطة ومتصلة بأهداف المنظمة .

الحاجة الى التقدير : بعد أن يشبع الانسان حاجته بالانتماء الى الجماعة يتجه محاولا اشباع الحاجة الى التقدير . هذه الحاجة تضم هدفين للانسان :

١ - حاجته الى الاعتزاز بنفسه ، وقيمه واعتباره كعضو في جماعة (Self-esteem) وتشير هذه الحاجة أو الرغبة الى الثقة بالنفس (Self-Competence) واستقلال الشخصية (Autonomy) والكفاءة أو المقدرة الذاتية (Competence) في الانجاز .

٢ - حاجة الانسان الى الشهرة أو السمعة الطيبة أو المكانة المرموقة (One's reputation) وتمثل في احقية الانسان في أن ينال من الجماعة تفضيلاً أو تمييزاً عن غيره لخدمات أداها أو مساهمة قام بها (Recognition) كذلك تشير هذه الحاجة الى رغبة الانسان في تحقيق منزلة معينة أو مرتبة مرموقة لدى الجماعة (Status) أو تقدير معين لنشاطه وانجازاته (Appreciation) .

وموجز القول أن الحاجة الى التقدير تتمثل في رغبة الانسان في أن يرى صورة ما يجول في نفسه ، متمثلة في اعتراف وتقدير الجماعة لها . ويمكن اجمال حاجة الانسان اليها في تحقيق أمرين (١) احترام الجماعة للانسان ، ومكانته لديها لأعمال أداها أو خدمات ساهم في انجازها Prestige (٢) القوة التي يملكها الانسان في شخصيته أو لقدراته العلمية أو الفنية أو العملية (Power)

ويسمى الافراد لاشباع هذه الرغبة أو الحاجة بطرق مختلفة . فقد يسلك الانسان

طريق اداء خدمات مرموقة أو انجازات ذاتية لتكون رمزا ماديا لاجتذاب الآخرين الى احترامه وتقديره ، وقد يحاول آخر تحقيق منجزات فردية (Personal Achievement) كالوصول الى أعلى درجات العلم والمعرفة ، كوسيلة للوصول الى مركز أو مكانة مرموقة في المجتمع الذي يعيش أو يعمل فيه .

ومهما تكن اساليب اشباع الحاجة الى التقدير فإن حاجة الانسان اليها أمر يركز على الواقع ، وتؤيده الدلائل ، مع ملاحظة أن بعض الافراد يميلون الى المبالغة Over-emphasis في تقييم انفسهم . ومن ثم فإنه يمكن القول بوجود ايجاد توازن Balance بين تقييم الفرد لنفسه وتقييم الجماعة له .

ومن نتائج ما تقدم فإن تقييم الفرد لذاته قد يركز على مستويات مقبولة تتفق وأقصى ما يمكن أن يحققه من مكانة أو مركز في المجتمع . وعندما يحقق الفرد ما تطلع اليه طبقاً لهذه المستويات فإنه يحاول جاهداً المحافظة عليها بدلا من التطلع لتحقيق مستويات أعلى . وذلك هو السبب في رضاء بعض الافراد عما حققوه من احترام في المنظمات التي يعملون بها ، على اعتبار أنهم وصلوا أو حققوا ما كانوا يتطلعون اليه في الماضي (Preconceived Level) أما الافراد غير العاديين (Unreasonable Individuals) فقد يتطلعون

لاشباع حاجتهم على المستوى القومي أو العالي غير مراعين لحدود طاقاتهم أو مستويات قدراتهم ، أو الظروف المحيطة بهم ، ولا شك أن نتيجة هذه الحالة هي الخيبة والفشل .

الحاجة الى الانجاز : تدل الدراسات التي تمت على أن هذه الحاجة تمثل صعوبة عند محاولة فهمها أو التعرف عليها أو تحديد آثارها ، بسبب أن الانسان يحاول اشباعها بطرق ووسائل متعددة . وقد ركزت الابحاث الحديثة اهتمامها على نوعين من الغايات

الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق

تمكن الفرد من المواءمة بين قدراته الفنية والعلمية والعملية . ومتطلبات البيئة التي يعيش أو يعمل بها ، وهي مواءمة تأخذ شكل مباراة تتسم بالتحدي والاصرار ، ولا شك في ان الاعمال التي تعطى الانسان الفرصة للدخول في مثل هذه المباراة تسمح له باشباع حاجته الى الكفاءة والتعبير عنها ، هذا بالإضافة الى ما يمكن أن يحصل عليه من حوافز مادية كانت أو أدبية . ولذلك نرى أن الاعمال الروتينية لا تمكن الفرد العامل من الدخول في مجال لظهور براعته الوظيفية أو قدراته العلمية ، وفي هذه الحالة ، يضخى هذا الانسان خاضعا لنظام عمل تظله رقابة اشرافية محكمة .

الحاجة الى الاحراز : واذا وجهنا النظر الى دراسة وفهم الحاجة الى الاحراز (Achievement) فانه يتعين الاشارة الى أنها لاتعنى مجرد جهود علمية أو فنية أو مبتكرة يبذلها الانسان ، بل انها بالإضافة الى ذلك ، تعنى تحقيق ثمرة هذه الجهود ، رغم ما قد يوجد من صعوبات أو عقبات يمكن أن تحول دون احراز هذه الثمرة .

فاذا توافر لدى بعض الافراد الشعور بحاجتهم الى احراز ثمرة معينة فان قوة رغبتهم تدفعهم الى العمل الجاد وبذل الجهود المتواصلة حتى يتحقق لهم اشباعها بدلا من ترك نتائجها للصدفة . وغالبا ما يتميز هؤلاء الافراد بقوة الحاجة مدفوعة بدوافع ايجابية ، وعلى الاخص اذا كان تحقيق الاحراز سيحقق لهم عائدا ماديا أو ادبيا . ومع ذلك فان هدف الافراد في هذه الحالة ، تجسيم اساسا في احراز الثمرة . بغض النظر عن حجم الحافز أو مقداره ، ونتيجة ذلك ان النقود - باعتبارها حافزا - لا تعتبر بالنسبة لهؤلاء الا مقياسا لادائهم ، وتقييما لجهودهم ومابدلوه .

البيئة كمصدر للدوافع (Motivating Environment) : يتضح مما سبق أن حاجات الانسان متعددة ، ووسائل اشباعها متباينة ، والدوافع التي تدفع هذه الحاجات الى الحركة

الانسانية التي تتدرج تحت الحاجة الى الانجاز ، الاول ويتمثل في الشعور أو تحقيق الاحساس بالكفاءة (Competence) والثاني يشير الى محاولة الانسان احراز تقدم ملموس في مجال معين من المجالات .

وتمثل هذه الكفاءة في قدرة الانسان في السيطرة على عوامل البيئة التي يعيش فيها سواء كانت مادية أو اجتماعية . ويبدو أن الافراد الذين يحاولون اشباع هذه الرغبة لا يستطيعون انتظار حدوث عوامل اشباعها ، بل انهم يحاولون تطويع جميع الامكانيات المحيطة بهم لتحقيق هدفهم .

ويتضح مما تقدم أن هناك علاقة وثيقة الصلة بين شعور الفرد بالكفاءة ودرجة توقعة لاشباعها : فنجاح الانسان في ماضيه هو الذي يحدد توقعات نجاحه أو فشله في كفاءته في مستقبله . فيتسم الشعور بالكفاءة بالقوة عندما تكون مجالات نجاحه في الماضي أكثر من مجالات فشله . ومن ثم تصبح نظرة الانسان الى الحياة أكثر ايجابية (Positive outlook toward life) ويرى في كل مشكلة جديدة تحديا ممتعا لكفاءته في التغلب عليها . وبالرغم من أن الحاجة الى الشعور بالكفاءة تظهر وتنمو مبكرا في حياة الانسان ، الا أنه ليس من الضروري أن تصاحبه طوال حياته . فقد دلت بعض الدراسات على أن نجاح الفرد مرة او عدة مرات ، رغم توقعة للفشل ، غالبا ما يدعم شعوره بالكفاءة ، ويدفعه هذا النجاح الى احراز الكثير منها . وعند تكرار ذلك يتحول شعور الانسان الى اعتقاده بامكانية التنبؤ بإمكان نجاحه واشباع حاجته الى الكفاءة ، وغالبا ما يكون عامل السن (Age) ذا اثر على امكانية النجاح . اذ للانسان طاقة معينة ومحددة ، يستطيع معها توقع نجاحه أو فشله في مجالات الحياة المختلفة .

ويعتبر العمل أحد المجالات الرائدة التي

وقد أجريت في إحدى قطاعات الصناعة الأمريكية دراسات حاول الباحثون الرد على السؤال التالي: ماذا يريد العاملون من أعمالهم (What do workers want from their jobs?) في هذه الدراسة طلب من طبقة المشرفين Supervisors أن يضعوا أنفسهم مكان العاملين لديهم (A worker's shoes) ويعدوا كتابة قائمة بالحاجات التي يعتقدون أن العاملين يتطلعون إلى اشباعها من العمل على أن يراعى في ترتيب هذه الحاجات وضعها حسب أهميتها لهم. كما طلب من العاملين أيضا أعداد هذه القائمة، التي تبين الحاجات التي يتطلعون إلى اشباعها من عملهم.

ويصور الجدول الآتي رقم (٢) الحاجات مرتبة حسب أهميتها، مع مراعاة أن الرقم ١ يعنى الأهمية والرقم ١٠ يعنى الأقل أهمية

والاشباع مختلفة، كما أن قوة ودرجة الاشباع تختلف من فرد إلى آخر، والإدارة الناجحة هي تلك التي لها قدرة التنبؤ بدوافع الإنسان، وحاجاته واستخدام الحوافز المناسبة في الوقت المناسب.

ولا شك في أن استخدام الحوافز في العمل إنما يهدف إلى استخدام الطاقات البشرية بالشكل الذي يضمن أن العناصر البشرية تعطى كل ما هي قادرة على إعطائه، إذ أن الدراسات العديدة تعطي الدلائل العلمية الثابتة على أنه كلما ارتفعت كفاءة استخدام الطاقات أو القدرات البشرية، ارتفع الأداء الانساني (Human Performance) كما أن الحوافز مادية كانت أو أدبية، تساعد على استخدام أفضل لهذه الطاقات، عن طريق تحريك دوافع الإنسان واستخدام طاقاته المعطلة أو الكامنة.

جدول رقم (٢) ماذا يريد العاملون من أعمالهم؟

الحاجات	المشرفون	العمال
تقدير الإدارة للعمل الذي يؤدي	٨	١
الشعور أو الاحساس الداخلى للعامل	١٠	٢
التعاطف وفهم المشاكل الشخصية	٩	٣
الامان والطمأنينة في العمل	٢	٤
أجور ممتازة	١	٥
عمل يثير اهتمام العامل	٥	٦
الترقية والتقدم مع نمو المنظمة	٣	٧
ولاء أو اخلاص الإدارة للعاملين	٦	٨
طرق وظروف عمل جيدة	٤	٩
عدالة وحساسية نظام التأديب	٧	١٠

ويمكن إعادة ترتيب الحاجات، بالشكل الذي يبين وجهة نظر المشرف، ووجهة نظر العامل في الجدول الآتي (رقم ٣).

جدول رقم (٣)
ماذا يريد العاملون من أعمالهم ؟

العمال	الحاجة طبقا لاهميتها	المشرفون	الحاجة طبقا لاهميتها
١	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدي	١	أجور ممتازة
٢	الشعور الداخلى للعامل	٢	الامان والطمأنينة فى العمل
٣	التعاطف وفهم مشاكل العاملين	٣	الترقية والتقدم الوظيفى
٤	الامان والطمأنينة فى العمل	٤	طرق وظروف عمل جيدة
٥	أجور ممتازة	٥	عمل يثير اهتمام العامل
٦	عمل يثير الاهتمام	٦	ولاء واخلاص الادارة
٧	الترقية والتقدم الوظيفى	٧	عدالة وحساسية نظام التأديب
٨	ولاء واخلاص الادارة	٨	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدي
٩	طرق وظروف عمل جيدة	٩	التعاطف وفهم مشاكل العاملين
١٠	عدالة وحساسية نظام التأديب	١٠	الشعور الداخلى للعامل

تعتبر من الحاجات أو الرغبات الهامة لدى العامل ولو أنها ادرجت تحت رقم ٤ بدلا من رقم ٢ طبقا لوجهة نظر طبقة المشرفين .

والترقية قد تعني امرين :

الاول انها تضيف امانا اكثر وطمأنينة فى نفس الانسان نحو بقاءه فى الوظيفة .

الثاني انها تعني زيادة فى الاجر أو المرتب ، وفى كلتا الحالتين تعتبر الترقية من الحوافز المادية وان كانت تعطى الانسان الاحساس بأهميته فى المنظمة ، ومن ثم يمكن اعتبارها من الحوافز الادبية .

وقد ادرج العاملون الترقية فى المرتبة السابقة من الاهمية ، وان كانوا قد اعتبروا ان تقدير الادارة لعملهم هو اول ما يتطلعون اليه . ويمكن تفسير ذلك بأن تقدير الادارة لاعمال الانسان ، غالبا ما يؤدي الى ترقيته ومنحه الفرصة للتقدم الوظيفي بالمنظمة .

ويتضح من الجدول السابق رقم (٣) الملاحظات الهامة التالية :

١ - أن طبقة المشرفين غالبا ما تعتبر أن الاجور المرتفعة تمثل الحافز الاول لزيادة انتاجية العامل . فان الدوافع الاساسية للعاملين ، تتمثل فى فرص الكسب الاقتصادى ومن ثم فهم يختارون أفضل الظروف التى تضمن أن يكون الكسب المادى هو النتيجة المباشرة لزيادة انتاجيتهم .

٢ - ان طبقة المشرفين اضافوا الشعور بالطمأنينة والترقية والتقدم الوظيفى باعتبارها عوامل أو حاجات يتطلع العاملون لاشباعها من عملهم فى المنظمات العاملة . ولاشك فى أن الامان والطمأنينة فى العمل (Job Security) اعتبرت فى المرتبة الثانية من الاهمية فى نظرية ماسلو السابق الاشارة اليها . وقد جاء فى الجدول السابق أن هذه الحاجة

٣ - أدرج العاملون تقدير الادارة للعمل ، والشعور الداخلي للعامل تجاه المنظمة ، والتعاطف وفهم مشاكلهم في الامة القصوى بالنسبة لهم . وهذا يفسر اهمة العلاقات الانسانية في العمل .

٤ - يتضح ايضا من الجدول السابق ان الحاجات التي اعتبرها العاملون من اهم متطلباتهم ، ويتطلعون الى اشباعها ، راي المشرفون انها اقل اهمة من غيرها . وهذا يعني ان بعض المديرين ليس لديهم القدرة او الرغبة في فهم الحاجات او الرغبات التي تمثل الامة القصوى للعاملين لديهم . وهذا يؤدي الى اختيار الحافز الخطأ او استخدامه في وقت غير مناسب .

٥ - ما زال بعض او اغلب المديرين يعتقدون ان اشباع الحاجات المادية للعاملين من اهم الحوافز فاعلية لتحقيق الاستخدام الامثل للطاقات البشرية . وهذا ما يخالفه الواقع في النتائج التي توصلت اليها الدراسة المشار اليها . ويبدو ان الحافز المادي ، يكون منتجا في الدول النامية، نظرا لاضالة الاجور وانكماش فرص التقدم .

خلاصة ونتائج

يتمثل الهدف من هذا البحث في شرح ودراسة وتحليل الدوافع والحوافز ، والتطبيقات الميدانية لها والاثار المترتبة على استخدامها في المنظمات العامة بصفة عامة وقطاع الخدمات بصفة خاصة .

واستخدام الدوافع والحوافز يتطلب الاجابة على سؤالي هامين :

الاول يتمثل في الوسائل التي تتمكن المنظمة

بمقتضاها اختيار وترغيب الكفاء من الافراد ، والالتحاق بالوظائف واستمرارهم او بقائهم عاملين بها .

والثاني يدور حول الحوافز المادية والمعنوية التي تتمكن المنظمة من توفيرها للابقاء على الكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم في تحقيق الحد الامثل من الانتاجية .

من خلال الصفحات السابقة نرى انها تؤكد حقائق محددة نوجز اهمها فيما يلي :

(١) ان الانسان طاقة اذا احسن استخدامها تضحي قوة ، واذا وجهت هذه القوة اضحت وسيلة لتحقيق غاية او غايات . لكن الطاقة الكامنة في الانسان لا تصبح قوة الا بتحريكها او استخدامها ، واذا احسن توجيه قوة الانسان نحو هدف ما فانه في الغالب يتحقق .

(٢) ان الانسان يختلف عن الآلة ، ويتمثل اهم هذا الاختلاف في ان الانسان بطبيعته مخلوق متغير وغير مستقر ، ومن ثم يصعب التنبؤ بسلوكه او تصرفاته او اتجاهاته .

(٣) ان هناك صعوبة او استحالة في تواجد تماثل بين انسان وآخر في الطبيعة والسلوك والتصرفات والاتجاهات ، ومن ثم فان ذلك قد ينشئ صعوبة في المنظمات العاملة نحو ايجاد التآلف بين الافراد والتناسق في سلوكهم ، والتقارب بين اتجاهاتهم .

(٤) انه لا توجد حتى الآن وسيلة علمية مؤكدة تتميز بالدقة والسلامة لاستخدامها في امرين :

الاول يتمثل في قياس مساهمة الفرد او

١٠٥٩

الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق

الأفراد تحت إدارة واحدة . وتضحي هذه المهمة أكثر تعقيدا كلما ازداد حجم القوى العاملة التي تعمل في منظمة واحدة أو في مكان واحد . ومن ثم يضحى التوازن حتمي وضروري في تطوير أساليب الإدارة في مجال إدارة الطاقات البشرية عن طريق سياسات تخطيطية تمهد المسيرة نحو تعاون جماعي ، ومساهمة فعالة لضمان تحقيق أهداف المنظمة من خلال تحقيق حاجات الفرد وتطلعاته في المستقبل .

عمق اهتمامه أو مقدار ولائه للمنظمة التي يعمل بها .

والثاني يتمثل في التنبؤ أو في تفسير ما يطرأ على سلوك الإنسان أو تصرفاته أو اتجاهاته من تغير أو تقلب في المستقبل .

وأزاء هذه الحقائق تضحي المهمة شاقة في إدارة الإنسان العامل . وتزداد هذه المهمة صعوبة إذا اجتمع هذا الإنسان مع غيره من

★ ★ ★

المراجع

- د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى العاملة . الكويت - وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣ .
- د . منصور احمد منصور ، الدوافع والحوافز في قطاع الانتاج : دراسة مقارنة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية . ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى الافريقية ، القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية : ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور، تطور مفهوم تخطيط القوى العاملة في الدول المتقدمة (١) القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، ايكولوجية الادارة العامة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، القوى العاملة : تخطيط وظائفها وتقويم ادائها، الكويت : جامعة الكويت ١٩٧٥ . (تحت الطبع)
- د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته في مجال الادارة ، مجلة الادارة ، اكتوبر ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، مفهوم الانتاجية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، ابريل ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور ، الشودة الادارية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، اكتوبر ١٩٧٤ .

عقوبة الاعدام بين الابقاء والالفاء

عبد الرهاب حوسد

من بين المشاكل التي ثار حولها جدل طويل، واصطُرعت فيها الفلسفات والعواطف والمعتقدات، مشكلة عقوبة الاعدام . ولعل اصطدام الفكر بواقع المجتمع ، بما فيه من مركب الخوف على نفسه ان يقع الفرد منه ضحية خنجر من شرير ، او رصاصة من دموى ، يفلل النقاش الهادى بسحب قاتمة ، تجعل البصيرة اقل نفاذاً في بحثها عن الحل الامثل، في مصطرع التناقضات الاجتماعية .

لمن روعتهم الجريمة ، دون ان تنالهم في اشخاصهم ، بان هناك عينا ساهرة على سلامتهم ، هى الدولة ، وسيفها المسلط في يدها على رقاب العابثين باقدارهم العظمى ، يرهب اعداء الله واعداء القانون . .

ومما يزيد في صعوبة اتخاذ قرار ثورى حاسم ، ان البشرية درجت على الرضا بهذه العقوبة ، ومارستها منذ الازل ، وارتاحت اليها ، كوسيلة من وسائل تسكين الحقد الذى يمتلئ في نفوس ذوى المقتول ، وطماننة

وينقل احد المؤلفين المعاصرين (١) عن المؤرخ اليوناني هيرودوت "Herodote"، أن الفرعون "Sabacon" أحد مؤسسي الاسرة الخامسة والعشرين (ما بين ٧١٠ - ٧٠٣ ق. م.) القى عقوبة الاعدام، وابدلها بعقوبة السجن مع تقييد المجرم بالسلاسل، وتشغيله في الاعمال العامة. فاذا صحت هذه الرواية، تكون مصر القديمة، أول نظام منظم، حقق خطوة حاسمة، لا تزال البشرية في حيرة امامها حتى اليوم.

وقد اعيدت هذه العقوبة فيما بعد، واصبحت تطال، في عهد مصر البطلموسية وهي الفترة التي تمتد ما بين الفزو الماكيدوني لمصر عام ٣٣٢ ق.م والفزو الروماني عام ٣٠ ق.م -، كما يتضح من اوراق البردي اليونانية وبعض النقوش، عدد متزايد من الافعال، كارتشاء الموظفين، والتطفيف في الميزان، والتعدي على اموال المعابد...

ولقد اجبرت كليوباترا، بمرسوم اصدرته عام ٥٠ ق.م. التجار الذين يشترون حبوب مصر الوسطى وخضارها، بنقلها الى الاسكندرية وعاقبت مخالف هذا المرسوم بالاعدام.

وفي ظل الحضارة الرائعة التي ازدهرت في بلاد ما بين النهرين، وضعت قوانين متكاملة، من اعظمها، قانون حمورابي عام ١٧٠٠ ق.م، الذي يعكس في مواده الجميلة نضوجا فكريا خصباً... واذا كان هذا التشريع البابلي، يعاقب افعالا كثيرة بالاعدام، كالسرقات الكبرى، واخفاء المسروقات، التي استلبت بواسطة العنف، وازالة الوشم عن وجه العبد لاخفائه عن مالكه، والقتل، وزنا المرأة واغتصابها، والشهادة الزور في جريمة القتل، والبسلاغ الكاذب عن ارتكاب جريمة قتل

ولقد عاقبت البشرية انماطا من المجرمين بالموت، منذ فجر تكوين المجتمعات الاولى، اذا لم اغامر بالقول، منذ تكون المجتمع الاول... ولا يذهب بنا الخيال، الى ان هذه العقوبة كانت قاصرة على القتل، الذين يرهقون ارواح الناس... لانها، في حقيقتها، كانت تطال غير القتل... بل ربما كان اعدام القتل لم ينشر الا بعد مرحلة طويلة من التطور الحضارى.

فقد عاقبت مصر الفرعونية جرائم كثيرة بالاعدام:

عاقبت قتل الحيوانات المقدسة، والسحر، وعدم افشاء مؤامرة ضد الفرعون، والتصريح الكاذب عن الموارد المالية، وعدم اغائة من تعرض لهجوم الاشقياء، في الطريق...

ونوعت طرق تنفيذ هذه العقوبة:

فمن قتل اباه، كان يعدم بفرز قطع حادة من القصب في جسمه ثم يقطع الجلادون من لحمه قطعاً صغيرة بألة خاصة، وبعد ذلك يلقي به على كومة من القش، ويحرق ببطء... وكانوا يحرقون الزانية...

وكان يدخل في سلطة القاضى اختيار طريقتين اعدام المجرمين الآخرين، بين الشنق، او الاغراق او التقطيع، او النار...

ومع الزمن، خفت حدة الفرائز البدائية، فادخلوا في مفهوم المسؤولية الجماعية تقييدا أساسيا، هو ان تنفيذ العقوبة اصبح قاصرا على الفاعل وحده، وان المرأة الزانية، اصبحت تعاقب بجذع الانف، لحرمانها من محاسنها التي كانت تفرى بها الرجال لانتهاك حرمة الرباط الزوجى المقدس...

عقوبة الاعدام بين الإبقاء والالغاء

وقد عرف التشريع اليهودي القديم
المسئولية الجماعية ، ففي سفر التكوين ،
(الاصحاح الرابع والثلاثين ، الآيات ٢٦ - ٢٧) ،

ان Sichem ابن Hémor خطف امرأة تدعى Dina . واغتصبها ، ولكنه اعلن انه يريد ان يتزوجها . غير ان اخوتها قتلوا الخاطف واباه انتقاما لشرف اختهم الملوث ..

وحين قوى ساعد السلطة المركزية ، بدأت
تفرض عدالتها ، محل العدالة الفردية ،
وأصبحت العقوبة تتجه الى الفاعل وحده .
ففي سفر ال Deutéronome ، الاصحاح
الرابع والعشرين الآية ١٦ :

« ولا يعاقب الاولاد بالموت بدلا من آبائهم » ،
« ولا يعاقب بالموت الا من ارتكب خطأ شخصا »

ولكن ولي الدم هو الذى ينفذ العقوبة فى جريمة القتل ... اما فى الجرائم العامة ، فان الاعداد كان سخيا جدا .. فقد كان يعاقب بالاعداد السحرة ، وعبدة الاوثان والمتردون ، والذين يحرقون الرب ، وكان يعاقب بالاعداد كل يهودى يشتغل يوم السبت » لان اليوم السابع سيكون يوم راحة كاملة مكرسة ليهوه »

ويقتل الزاني، والزانية ايضا ، وتعاقب بالاعدام كل فتاة تخفي عن زوجها انها ليست عذراء ، ويعدم مرتكبو الاتصال الجنسي بالمحرمات ، واللواط واتيان الحيوانات ...

ولكن الجرائم الاقتصادية والجرائم الموجهة ضد الملكية لم تكن معاقبة بالأعدام . . ومما يلفت النظر ان تنفيذ الأعدام ، كان يتم بالرجم بالحجارة ، في جميع الجرائم . وكانوا يعطون ذلك ، بأن الحكم يصدر عن القضاة ، ولكن

مكدوبة ، ومحالة التهرب من اداء الخدمة العسكرية ، فانه امتاز بثلاث ميزات مذهشة :-

الأولى : - أنه قلص الجرائم الدينية كثيرا حتى أصبحت قاصرة على جريمتي السحر ، وانحراف الراهبة التي ترتاد الملاهي ..

والثانية : - انه اشترط وجود العمد في القتل ، ليستحق القاتل الاعدام . فقد نص في المادتين ٢٠٧ ، ٢٠٨ على انه : -

« اذا تسبب الضرب بموت الضحية ،
واقسم الفاعل بانى لم اضره عن قصد ، فانه
يدفع ثلاثين مثقالا من الفضة » « Sicles » (٢) ،
اذا كان المقتول مواطنا ، عشرين مثقالا اذا
كان المقتول لا يتمتع بالوطنية mesquin ...

والثالثة : - انه انفى صيغة المائلة ،
(La talion) الا في حالة واحدة ، هي
حينما يأخذ الدائن ولد المدين رهينة لسداد
دينه ، ويعامله معاملة قاسية ، فيموت من
جرائها ، فان ولد هذا الدائن هو الذى بعدم.

وكان الاعداد ينفذ بطرق شتى ، كالسحق والقتل بالسيف ، والاغراق والحرق . يضاف الى ذلك طريقة جديدة ، هي الخانوق ، وكانت المرأة التي تقتل زوجها او تشتبك في قتله تعدم بهذه الطريقة الرهيبة .

وقد تأثرت بهذا التشريع بعض الدول المجاورة ، ويذهب بعض الباحثين الى ان العبرانيين استقوا كثيرا من مبادئه . وليس هذا بغريب ، فقد كان ابراهيم الخليل يعيش في أور ، احدى بلاد تلك الدولة قبل مهاجرته الى العرب ، وحين بدأ التقنين اليهودى بالظهور ، كان التشريع البابلي يحتاز قرنه الثامن .

عبرية ، وهو يؤمن عند العبريين « ١١

Sicle

(٢) في لاروس انسيكلوبيديك ، انه يبدو ان كلمة

غراما وكسور » وعند البابليين ٨٢٤٠ غرامات .

الشعب كله هو الذى ينفذه . وأول من يبدأ بالرجم ، شهود الإثبات ، ثم يليهم الحاضرون حتى الموت ، وبعد ذلك تعلق الجثة على شجرة طيابة النهار ، ولكن يجب دفنها قبل حلول الليل .

ولم تكن طريقة التنفيذ بالنار مطبقة شرعا الا فى حالتين : تعهر ابنة الكاهن ، والاتصال الجنسي بالأم أو الأخت .

وعرف المجتمع العربى الجاهلى عقوبة الاعدام وطبقها ، بطريق العرف الذى كان ينظم علاقات الافراد ، وتوارثوه كابرا عن كابر ، دون ان يكون للتشريع اليهودى او النصرانى اى اثر فى تكوينه او تعديله . ذلك ان اليهود والذين فروا من بلاد الشام ، خوفا من مجازر الروم ، لاجئين الى الجزيرة العربية ، لم يكونوا من الكثرة بحيث يستطيعون ان يؤثروا فى عقلية الناس . وقد اعتمد بعض المستشرقين على دراسة اسماء يهود الحجاز ، وواقعهم الاجتماعى ، وقرروا انها اسماء عربية خالصة ، وان المستوى الاجتماعى لم يكن يختلف عن مستوى سائر سكان الجزيرة ، وانهم كانوا يتزوجون منهم ، ويزوجونهم ، دون تحرج ، واستنتجوا من كل ذلك ، ان غالبية يهود الجزيرة العربية ، هم قبائل عربية ، تهودت (٢) .

وكان للنصرانية مستعمرات مبعثرة على حدود الجزيرة الشمالية ، تسلت اليها من اتصال الحجاز بفلسطين ، كما كان لها بعض الاتباع فى اليمن ، تأثرا بالنصرانية الحبشية .

ولكن العادات والتقاليد العربية الراسخة ، هي التي كانت تحكم الجزيرة وأهلها ، ولم يكن يسير على جماعة غافلة ، مفلقة الابواب والبصائر على التيارات الفكرية الاجنبية ، ان تغير او تبدل من مفاهيمها الازلية .

وقد اشار الى ذلك تعالى بقوله : وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على اثارهم مقتدون

(الزخرف ، الآية ٢٣) .

ولم يكن للعرب دولة موحدة ، تضع لهم القانون ، وتنفلد فيهم العقوبات . . . لانهم كانوا مجموعة من المجتمعات المتوجة ، الفت احكام الطاغوت ، ونهاها الله عنه ، عندما برغ عليها فجر عهد جديد ، جاء ينقدهم من الضلالة الى الهدى فى دنياهم ودينهم ، ويضع لهم قواعد للسلوك القويم ، على اساس من التساند الاجتماعى والتمسك بنظام الشرع ، عقيدة وسلوكا . . فقال تعالى :

« يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد امروا ان يكفروا به » (النساء آية ٦٠)

والطاغوت هذا هو حكم العرف ، الذى كانت العدالة فيه تقوم على الثار على اساس من مسئولية جماعية قبيحة ، وكان للكاهن والعارفة دور كبير فى اقامة البينة وتقرير العقاب . .

والظاهر ان عقوبة الاعدام لم تكن منتشرة عندهم ، لفقدان التنظيم الدولى .

فقد كان من حق الأب ان يقتل اولاده الذكور ، ويثد بناته . . وفى ذلك يقول الله : « قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم » (الانعام ١٤٠) .

ويقول : - « واذا المؤودة سئلت : بآى ذنب قتلت » (التكوين الايتان ٨ و ٩) .

واذا وقع قتل بين اثنين من عشيرة واحدة ، او من عشيرتين مختلفتين ، كان من حق ولي

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف ، وأدام إليه باحسان . »
(البقرة آية ١٧٨)

وفي الحديث : —

« من قتل له قتيلاً ، فهو بخير النظرين ، أما ان يفتدى وأما ان يقتل . »

٢ — الحراية : — وهي قطع الطريق ، قال تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسمون في الأرض فساداً ، ان يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض » . (٤)
(المائدة آية ٢٢) .

٣ — الردة : وهي الخروج من الإسلام بعد أن كان فيه .

والاجماع على ان المرتد يقتل . واختلف الفقهاء في امر المرأة المرتدة . ويرى ابو حنيفة انها لا تقتل ، ولكن تجلس حتى تنوب . ولم يرد في القرآن الكريم نص على قتل المرتد ، فقد قال تعالى : —

« ومن يرتدد منكم عن دينه ، فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . »
(البقرة آية ٢١٧)

ولكن روى عن رسول الله قوله : — من بدل دينه فاقتلوه . . .

الدم ان يثار في الحال ، او في خلال ايام قليلة فان وفق يكون الموضوع قد صفى ، والا تدخل الحكماء لبذل المساعي الحميدة ، وانتهى الامر اما بتسليم القاتل للاقتصاص منه ، او لدفع دية ، وهذا هو الغالب . وكان تسليم القاتل الى اهل المقتول معروفا لدى الرومان ، وكانوا يسمونه « Noxae Diditio » .

ولم تكن السرقات الكبرى معاقبة ، وهي المتمثلة في الفزو ، بل كانت موضع تفاخر وعباءة والدهر قلب فيهم ، والحرب سجال :

فيقوم علينا ، ويوم لنا : ويوم نساء ويوم نسر .

ولكن الجريمة التي كانت ، دون ريب ، معاقبة بالاعدام عندهم ، هي جريمة الزنا ، خوفاً من اختلاط الانساب ، ودفاعاً عن الشرف والسمعة . . .

والى هذا اشار المؤرخ اليوناني سترابون في حديثه عن العرب . . ولكن الاهل هم الذين ينفذونها ، غير انهم لم يكونوا مجبرين على ذلك .

وجاءت الشريعة الاسلامية ، بقواعدها الجديدة ، ونصت على عقوبة الاعدام في بعض الجرائم ، بصورة حصرية ، وهي :

١ — جريمة القتل العمد : —

وعقوبتها الاعدام ، الا اذا عفا ولي الدم . وسند هذه العقوبة ، قوله تعالى :

(٤) اختلف الفقهاء المسلمون في تفسير هذه الآية .

فذهب فريق ، منهم الكاساني في البدائع ج ٧ ص ٩٤ ، الى ان خرف او للتثويب ، وهو مذهب ابن عباس ، اي انهم يقتلون ويصلبون اذا قتلوا وسرقوا المال ، ويقتلون اذا قتلوا ولا يصلبون اذا لم يسرقوا المال .

وذهب فريق آخر الى ان النص يشير القاضي بين احدي العقوبات ويفوض اليه الامر في كل على حدة . وعلى راس الفريق مالك رضي الله عنه .

وقد اخذ قانون معاقبة الزنا الليبي ، الذي صدر مؤخرا ، في المادة الثانية الفقرة الاولى ، بعقوبة الجلد مئة جلدة ، ولم يأخذ بعقوبة الرجم .

وقد عرفت أوروبا القديمة ، منذ اقدم الازمان ، عقوبة الاعدام ، وطبقها بسخاء منقطع النظر ، تارة دفاعا عن المجتمع واخرى عن الملك ، وثالثة عن الدين . وان المرء ليشعر بقشعريرة تخترق جسده وهو يذكر محاكم التفتيش التي ذهب ضحيتها مئات الالوف من المسلمين في الاندلس ، وجنوب فرنسا ، بسبب تمسكهم بعقيدتهم ، في حين انه في ظلال حكمهم السمع جدد ابن ميمون الديانة اليهودية في عاصمة الملك قرطبة ، وفي اروقة جامعاتهم ، تخرج البابوات ورجال الاكليروس والعلماء الذين اصبحوا مصاييح هدى لتبديد ظلمات الفكر المتخلف في اوربا المسيحية .

وكانت طرق تنفيذها تدل على سادية لا مثيل لها ، كالا حراق بالنار ، والتقطيع والرجم ، والدفن حيا في كفن من الشوك . . وقد يمدون للمحكوم عليه ، في حفرته ، انبوبا رفيعا يتنفس منه بصعوبة ، امعانا في تعديبه .

وعلى الرغم من قوافل الملايين من الذين اعدموا ، على مر مئات القرون من السنين ، لا تزال البشرية ، في كثير من بقاع الارض ، تطبق هذه العقوبة . فهل فشلت هذه العقوبة في القضاء على الجريمة ، وردع المجرمين ، بدليل ان جرائم القتل وغيرها من الجرائم الكبرى ، لا تزال تروى مجتمعات اليوم متقدمها ومتخلفها وبالتالي ، فلا مبرر لاستمرارها ؟ ام انها عقوبة لا غنى عنها ، للابقاء على كيان المجتمعات والدفاع عن سلامة الافراد وبدونها يكون الوضع ادهى وامر ؟

وفي الراجح من المذاهب ، ان المرتد يستتاب ثلاثة ايام (ابو حنيفة ومالك واحد قولين للشافعي) .

ويرى علي أن يستتاب شهرا . ولكن ابن حنبل وقولا اخر للشافعي : « انه يقتل دون استتابة » .

٤ - البغي : وهو خروج المسلمين على الامام بتأويل سائغ ، ولهم منعة وشوكة .

والبغاة هم المجرمون السياسيين في الشريعة الاسلامية ، ونقول هم الثوار الذين ثاروا على الامام الجائر فخرجوا عليه يقاتلونه لخلعه .

وقد يكونون مخطئين في اجتهادهم . . لذلك جاز للامام ان يقاتلهم في ارض المعركة ، اذا بداوه ولم يقاتل علي الخوارج ، الا بعد ان قتلوا عبد الله بن خباب ، وامتنعوا عن تسليم قاتله .

فاذا انحسرت المعركة عن فرار البغاة ، فانه لا يجوز قتال المدبر منهم ، ولا من القى سلاحه ولا من اغلق بابه ، ولا يقتل اسيرهم ولا جريحهم وتعاد اليهم اموالهم ، لانها ليست غنائم .

٥ - وتبقى لنا كلمة في جريمة الزنا .

فهل يقتل الزاني والزانية رجما بالحجارة ؟ هذا ما لم يرد عليه نص في القرآن . ولكن رسول الله امر برجم ما عز والفامدية مرة ، ولم يأمر برجم شخص آخر ، جاءه بعد ايام يعترف بالزنا ، فسأله رسول الله هل توضحات وصليت معنا ؟ قال نعم : قال اذهب فقد غفر الله لك . (٥)

عقوبة الاعدام بين الابقاء والالغاء

لدراسة هذه القضية ومن أبرز مظاهرها ، اهتمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فقد قررت في نوفمبر ١٩٥٩ تكليف المجلس الاجتماعي والاقتصادي اتخاذ الاجراءات التي يراها ضرورية لدراسة مسألة عقوبة الاعدام ، ونتائج الفائها . وقد قرر هذا المجلس القيام بدراسة تعرض بعد ذلك على لجنة استشارية خاصة من الخبراء والمختصين في الوقاية من الجريمة ومعاملة المذنبين ، لدى اجتماعها في شهر أبريل سنة ١٩٦٣ .

ومن الذين تقدموا بتقارير هامة حول الموضوع مستشار النقض الفرنسي أنسل "Ancel" الذي قدم تقريره عام ١٩٦٢ (٦) .

والاستاذ نورفال موريس "Norval Morris" مدير مركز الدراسات الجنائية في جامعة شيكاغو ، عام ١٩٦٨ ، (٧) .

ولكن لم يتخذ قرار في الموضوع من جانب الأمم المتحدة ، فهو اذن لا يزال مطروحا للبحث . ولكن المادتين ٤٤ من ميثاق الأمم المتحدة تمنعان بصراحة تطبيق عقوبات قاسية أو وحشية أو محطاة بالكرامة الإنسانية » .

ولكن مجال تفسير هذه الالفاظ واسع . على أنه توجد ظاهرة تستأهل أن أسجلها الآن ، وهي تقهقر عدد الحالات التي تعاقب بالموت :

فقد كان عدد الجرائم التي تعاقب بالموت في إنجلترا منذ قرن ونصف القرن ٢٠٠ جريمة بينها بعض السرقات العادية (٨) وكان عددها في فرنسا في ظل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ،

هذا هو السؤال الصعب الذي انكببت ، للإجابة عليه ، ادمغة كبيرة ، استقرات الوقائع وسبرت اغوار النفس البشرية ، واتخذت لها موقعا محددا من هذه العقوبة . فذهبت جمهرة الى المطالبة بالفائها ، وقال فريق آخر بابقائها . وحارت جماعة بين هذا وتلك ...

والموضوع اليوم مطروح على رجال القانون ، وعلى غيرهم من المفكرين ورجال السياسة وافراد الشعب .. كما هو مطروح على الحكومات ايضا .

ومن الدول التي اهتمت بهذا الموضوع انجلترا التي شكلت « اللجنة الملكية لدراسة عقوبة الموت » عام ١٩٤٩ ، وظلت تعمل خلال اربع سنوات حتى عام ١٩٥٣ ، وتقدمت بتقرير اكتسب شهرة واسعة . وشكلت حكومة المانيا الاتحادية لجنة خاصة لاصلاح التشريع الجزائي كان نصيب الدراسة المخصصة منه لعقوبة الاعدام ، مجلدا ضخما صدر عام ١٩٥٩ . وشكلت كندا والولايات المتحدة لجانا مماثلة وانكب فقهاء الاتحاد السوفيتي بدورهم على دراسة الموضوع ، في اعوام ١٩٥٤ ، ١٩٦٠ ، من خلال العمل على اصلاح التشريع الجزائي . وعقدت في فرنسا عدة مؤتمرات عام ١٩٦١ لتقريب وجهات النظر المتباينة حول هذا الموضوع الخطير ..

وقبل ذلك جرت في فرنسا عدة محاولات لالغاء هذه العقوبة منها عدة مشاريع قوانين تقدم بها نواب في الجمعية الوطنية في اعقاب حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ ، ولكنها كلها بقيت دون نتيجة .

وفي السنوات الاخيرة نشاهد تصعيدا خاصا

(٦) وزع التقرير برقم ST / SOA / S D 19

(٧) وزع التقرير برقم ST / SOA / SD / 10

(٨) انظر Zalaric ص ١٤

الفريقين ، ليستطيع كل منا أن يكون لنفسه عقيدته الخاصة ، مدعمة بالحجج والمنطق ، وليس بمجرد العاطفة التي تستمد كيانها من المألوف ، الذي آن لنا أن نعمل على هزه من سباته .

١ - التيار الإبقيائي :

يقول أنصار الحفاظ على عقوبة الاعدام ، انها ضرورية للحفاظ على سلامة الجماعة وأمنهم ، ويسوقون لدعم رأيهم ، الحجج التالية :

١ - هذه العقوبة ظفرت بتأييد عدد من المفكرين الكبار ، مثل جان جاك روسو ، الذي فلسفها بنظريته الشهيرة عن العقد الاجتماعي . فالفرد الذي قبل ، مختاراً بعقد يبرمه مع المجتمع ، أن يتخلى عن الانتقام الفردي ، مقابل حماية المجتمع له ، يكون قد قبل سلفاً بالتخلي عن حياته ، فيما اذا فصم هذا العقد ، واعتدى على حياة شخص آخر ، وقبلها لمبروز وغارفالو وهما من زعماء المدرسة الوضعية ، لتخليص المجتمع من رجل لمبروز الشهير ، وهو المجرم بالفطرة . ويأتى على رأى قافلة المؤيدين المعاصرين ، كبار أساتذة القانون الجنائي الفرنسي مثل غارو وغارسون ودونديودوفلير .

ب - انها عقوبة تكفيرية ، بمعنى ان الذى قتل آخر فى ظروف فظيعة وحرمه من حياته ، بدون وجه حق ، يجب أن يكفّر بدمه عن خطيئته .

فهى اذن عقوبة عادلة ، يتساوى فيها تماماً ، الاذى الذى أوقعه المجرم بحياة قتيله ، بالأذى الذى تعرضت له حياته هو . وحياتان تتساويان أمام القانون ، وفي مفاهيم الناس ، الذين يقولون : « يداك أوكتا وفوك نفخ » .

١١٥ جريمة ، خفضت الى ٣٢ جريمة فقط بقانون العقوبات الصادر عام ١٧٩١ .

والمدهش ان الجمعية الوطنية المعروفة باسم "La convention" كانت صوتت فى ذلك الوقت على الفاء الاعدام ولكنها حلت ، وظلت العقوبة باقية .

وقد كان أحد القضاة الالمان فى القرن السابع عشر واسمه "Cartzow" يفاخر بأنه أصدر خلال ٤٠ عاماً من توليه القضاء عشرين ألف حكم بالاعدام (٩) .

ولكن الانظمة الدكتاتورية فى النصف الاول من القرن الحالى جاءت كآثرة عظمى على التطور الالفائى .

ونحن اليوم نشهد صراعاً شديداً بين تيارين ، تيار يتمسك بعقوبة الاعدام ويتشبث بها ، لأنها ، فى فلسفته ومفاهيمه ، السلاح الذى يرهّب به المجتمع أعداءه الشريرين من القتل والخونة وخاطفى الاطفال ، وتيار يقابل التيار الاول ، ويقارعه حجة بحجة ، وينتهى الى المطالبة بالفاء هذه العقوبة .

ومن الامانة أن لاحظ أنه لم تقم فى البلاد العربية ، من اقصاها الى اقصاها ، حركة جدية ، تهدف الى تغيير الواقع ، الذى الفناه ، ونمنا على هدهدته ، ووقفنا نرصد الصراع الفكرى ، لدى غيرنا دون أن يتاح لنا أن ندلى بدلونا فى الدلاء ...

أنام ملء جفونى عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم

فما هى حجج الإبقيائيين والالفائيين ؟

انى أود ، فيما يلى ، أن اعرض حجج

للقضاء على شرير خطر ، يهدد المجتمع واهله
بشر مستطير . وكل عقوبة أخرى ، لا يمكن
أن تكون ناجعة حياله .

هل نحكم عليه بالحبس المؤبد ، كمعقوبة
بديلة ؟ حسنا ولكن لم يحدث ، الا نادرا ، أن
يبقى مجرم سجيننا طيلة حياته . . فهو يحلم
تارة بالهرب ، أو بقانون عفو شامل ، أو
مرسوم عفو خاص . . يقصر مدة سجنه ،
ثم يجد نفسه حرا ، خارج القضبان ، يزرع
الدعر والهلع في الناس .

ومن ذكرياتي ، اننى عملت مرة على استبدال
عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة بالاعدام ،
لشقيقتين ، كانا يستحقان في نظري هذا
الابدال ، ولكن لم تمض الا سنوات لم تبلغ
العشر ، حتى كانا طليقتين ينعمان بالحرية . الا
اننى لم أسمع عن معاودتهما مقارفة الاجرام .

ولو فرضنا جدلا ، يقول أصحاب هذا
الرأى ، أن المحكوم عليه بقى في زنازته طيلة
حياته ، فانه سيكون في غاية التعاسة ،
لا ينفعه ان يحسن سلوكه ، أو يبذل جهده

ج - انها عقوبة مخيفة ، يهلع من هولها
قلب من تسول له نفسه هز دعائم المجتمع
الامن ، فليس أمرا بسيطا أن يعرف القاتل
ما ينتظره من حبل يجز عنقه ، ويحرمه من
احبابه وذويه ، كما حرم ضحيته من نعمائها
واحبابها (١٠) .

ثم انها تخيف الآخرين ، الذين يشهدون
تنفيذ الاعدام أو تبلغهم أنباءه . فاذا نفذت
احكام الاعدام على فترات متقاربة ، بقيت
العظة ماثلة في كل نفس . .

د - ولماذا تبنى عقوبة الاعدام ، ولم يقم
دليل قاطع على أن الفاءها قد ساعد على
انخفاض الخط البياني للجرام ، أو حتى على
الاقل ، الحفاظ على مستوى الاجرام ؟

يقول انصارها : هاتوا احصاءاتكم ، فان
كانت مقنعة ، فاننا سننحاز الى رأيكم ، اما
ان نغامر بقذفه في المجهول ، ونعرض كيان
الامة الى اخطار غير متوقعة ، فهذا امر لا يمكن
أن يقبله رأى حصيف .

هـ - هذه العقوبة ، هي الوسيلة الوحيدة

(١٠) نقل الاب Vernet هذه الأقوال عن محكوم عليه بالاعدام :

« لقد طال انتظارى شهورا ، لذلك فاتنا أعيش في جحيم . .

وفي كل صباح أنظر لأرى هل نصبت لي المشقة ام لا ، ولكنى لا أجدها . .

وفي كل صباح يجتاحني قلق أشعر به كأنه يصفى على حنجرتي ويجعلنى ارتجف . .

ان شعورى باننى سوف اعدم يكاد يمزقنى . . .

ومع ذلك ، فان الاوهام تراودنى أحيانا . . .

انى اعترف بأنه لولا الكاهن الى جانبى يعطينى القوة ، لكنت قتلت نفسى لاتخلص من هذه المباحات المشنومة . . .

ونقل عن محكوم آخر قوله :

« بصراحة انى أريد أن اعدم . .

فمنذ احد عشر عاما ، لم ألقى كلمة من والدى ، فهل تراه صلح عنى . . ؟

ووالدى ، حين يحدثونه عنى ، يرفض الاعتراف بى . .

وزوجتى تزوجت . . وبذلك تهدمت الأسرة . .

اليس هذا عقابا كافيا ؟

ان الرغبة في الحياة لا تزال تنقصنى » .

لإعادة تأهيله ، مادام سيظل قابعا في مكانه حتى الموت ... انها حياة عذاب نفسى لا يطاق ، لانها لا يلوح على آفاقها طيف من اطياف الفرج ..

و - ان الراى العام قد ألفها ، واطمان اليها . والبحث في الفائها سيثير أعصابه ، ويجسد له المخاطر . فلماذا نقلب قواعد حياتنا القانونية ، من أجل عدد ضئيل من القتل والاشراخ ؟

ولقد رايت أن احاور طلابى وطلباتى من السنة الرابعة حول هذه العقوبة ، فاستفتيتهن في ابقائها أو الفائها ، فكانت النتيجة مذهلة :

طالب واحد من بين جميع الطلبة قال بالالقاء ، واجمع الآخرون على الابقاء .

اما الطالبات ، فكن ، باجماعهن ، مع الابقاء ...

ز - ويضيفون حجة ذات طابع مالى الى حججهم ، فيقولون : لماذا نحتجز سفانا سنين طويلة ، ويتكبد المجتمع نفقات حراسته وأطعامه ، دون هدف ، كهدف اصلاحه مثلا ؟ ليس من حق دافعى الضرائب ، أن يطالبوا بتوجيه هذا المبلغ ، الى جهة يكون نافعها فيها ؟

ولكنى أود أن أعلق على هذه الحجة ، بأن حياة الفرد تظل دوما ائمن من المال ، ولن يعجز الدولة اطعام عدد قليل من الناس ، دفاعا عن مبادئ عليا ، ويمكنها أن تشغلهم مقابل ذلك .

ح - ولهم ، فوق ذلك ، حجة سياسة . يقولون ، مادام كل نظام سياسى يزعم أنه

نظام ديموقراطى، أى أنه يخضع لحكم الاكثرية، فان من واجب كل مؤمن بالديموقراطية ، أن يستشير الشعب فى قضية حيوية ، ويخضع الى حكمه الذى تصدره اكثرية . وهم قانعون أن الشعوب اذا استفتيت ، فانها ستقف الى جانب عقوبة الاعدام .

ط - لا ريب في أن الفقهاء المسلمين ، سيقولون ، أن عقوبة الاعدام قصاص عن جريمة قتل عمد ، وبعض جرائم غاية فى الخطورة. وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ... » (البقرة آية ١٧٨) .

وقال ، جل من قائل « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » (الاسراء آية ٣٣) . . . وطلب القصاص حق للولى ، ومن حقه أن يعفو ... ويأخذ الدية ..

ولكنه رغب فى العفو بقوله : « وان تعفوا أقرب للتقوى (البقرة آية ٢٣٧) » . . . وقوله « . . . فمن تصدق به فهو كفارة له » . . (المائدة آية ٤٥) .

ومما يلفت النظر ، هذا التضييق الشديد الذى قيد به أبو حنيفة القصاص . فعنده ان القتل بغير المحدد لا يستوجب القصاص ، وانما تؤخذ الدية من القاتل ...

فالقتل بالسّم ، وهو من أفثك وسائل القتل ، والقتل بالحجر ، وربما بالكهرباء أو الغاز ، لا يستحق القصاص عنده ، مستندا الى رواية أبى داود عن النبى عليه الصلاة والسلام : « إلا أن فى قتل خطأ العمد قتل السوط والحجر مئة من الإبل » . .

التنزيل قال تعالى « ولكم في القصاص حياة يا أولى الابواب » (البقرة آية ١٧٩) .

ب - وأنها قاسية على الشخص ، مهما كانت وسيلة تنفيذها ، لانه لا توجد حتى اليوم وسيلة تحقق موتاً فورياً ، ودون ألم . وقد كان اليهود يسكرون المحكوم عليه قبل اعدامه ، حتى يقل شعوره بالألم

وقد نوعت البشرية وسائل الاعدام ، الى ان استقرت اليوم على المشنقة والرصاص ، والجلوتين ، والسيف ، وغرفة الغاز ، والصق بالكهرباء والخنق . وكلها قاسية واليمة .

ج - انها عقوبة غير منطقية ، لانها « قتل منظم » كما يقول بكأريا ، تضفى عليه الدولة الصفة الشرعية . فالمجرم يرتكب جريمة ، ولا يستطيع احد ان يؤكد تحت أى دوافع اندفاعية أو مرضية ارتكبها ، فى حين ان المجتمع يقرر اعدامه ، وينفذه ، وهو بارد العصب ، هادئ النفس . فالدولة حين تعدم شخصاً ، فانها لا تمحو آثار جريمته ، وانما تعاود ارتكاب جريمة القتل بنفسها مرة أخرى ، وكأنها تكرر مع الشاعر قوله « وداوئى » بالى

كانت هى الداء »

د - انها عقوبة غير مفيدة ، خلافاً للزعم القائل بأنها رادعة مانعة .

فلم يثبت ان البلاد التى الفتها قد زادت فيها نسبة الجريمة ، بل ثبت ان دولة النمسا

يضاف الى التضييق آراء عدد من الفقهاء ، بأن القصاص ، لا يقع فى جرائم القتل العمد بين ذوى الارحام ، بشبهة الجزئية ، ولا بين الأزواج ، بشبهة الزوجية ، ولا قتل العبد ، بشبهة التملك (١١) ، ولا القتل الواقع فى اثر الرضا . والقتل بالرضا يسقط القصاص عند الحنابلة وأبى حنيفة والصحابيين . واذا رجع هذا الراى ، فانه يقدم لنا حلاً شرعياً لمسألة القتل بدافع الشفقة وهو المسمى بالاولتانايا

٢ - التيار الالفائى :

يذهب الذين يطالبون بالغاء عقوبة الاعدام ، الى انها عقوبة لم تثبت جدارتها للبقاء ، ولاخير فيها للمجتمع . ويتناولون حجج الفريق الاول ، ويردون عليها ، ويدعمون آراءهم بحجج جديدة ، يرونها كافية لزعة البنيان العقابى القديم وتهديمه . ويأتى فى مقدمة مؤيديهم مدرسة الدفاع الاجتماعى الجديد ، على لسان احد رؤسائها المستشار آنسل (١٢) .

وفيما يلى ما يعرضون من الادلة :

١ - يقولون ، ان الذى منح الحياة هو الله ، فلا يحق لمخلوق ان ينوب عن الخالق فى انتزاع روح مخلوق آخر . فهى مخالفة للمبادئ الفلسفية العامة .

ولكننا رأينا أن الفقهاء المسامحين مجمعون على أن القصاص ورد النص عليه فى محكم

(١١) انظر فى ذلك ، محمد ابو زهرة ، الجريمة والعقوبة فى الفقه الإسلامى ص ٢٨٠ وما يليها .

(١٢) انظر Revue des science criminelle, 1963 P. 404 Ancel الذى كتب يقول : « اننا نود ان نجيب فوراً وبصرامة ، بأن مذهب الدفاع الاجتماعى ضد عقوبة الاعدام ... فهو يرفض اسماها الثلاثة : التكفير expiation ومساواة الخطأ retricution والردع . intimidation

و - وهى عقوبة غير زاجرة ولا رادعة . ولو كانت كذلك ، كما يزعم أنصارها ، لوجب أن تكون الجريمة قد انحسرت عن الحياة الاجتماعية منذ ٢٠٠٠ عام بعيدة . والواقع أن الإنسانية بدأت تطبق اعدام المجرمين منذ فجر تاريخها القديم . فلماذا لا تزال موجودة في القوانين حتى اليوم ، لو كانت حقاً زاجرة ؟

فقد أعدم في إيران ، عام ١٩٧٠ ، على ميبيل المثال ، خمسة وسبعون من مهربي المخدرات ، في سنة واحدة . . . ومع ذلك ، بقيت عمليات التهريب مستمرة ، ولا تزال المشائق فيها ، تجتذب أعداداً متزايدة من قوافل المحكوم عليهم .

واذكر ، بهذه المناسبة ، أنه أعدم في الكويت قاتل منذ سنتين ، ولم تمض أيام ، حتى قرأنا في الصحف عن جنائية قتل ثلاثية ، ارتكبها مجرم آخر كان يشهد عملية الإعدام ، ثم راح يعمل سكينه وناره في صديقه وزوجته وطفلهما . . . فهل حركت رؤية المشنقة شهيته الى أن يكون بطل حفلة مشنومة ، يستقطب فيها انظار الحشود ، وهو التساهل الذي لا يثير ، في الحياة ، انتباه أحد ؟ . . . إذن يكون الإعدام في هذه الحال ، محرضاً لبعض الشواذ المفرمين بحب الظهور ، والسيئى التقدير ، على ارتكاب أفظع الجرائم ، بدلا من أن تكون وسيلة زجر أو ردع ، . . .

ز - لا يستبعد أن يكون لبعض الاعتبارات الاجتماعية دور تمييزى شائن فيها . فالوقائع تدل على أن الغالبية العظمى من المحكوم عليهم بالاعدام من الفقراء البؤساء ، أن لم يكن كلهم . أولا لما تتمتع به طبقة اجتماعية دون أخرى من نفوذ توظفه في صالح أبنائها ، وثانيا لأن

حين أهادتها عام ١٩٣٤ ، لاحظت بصورة مؤكدة أن الاجرام ارتفع فيها كثيرا . قد رأى النائب العام الاميركى رامسى كلارك Ramsey Clark أمام اللجنة الفرعية في مجلس الشيوخ الاميركى يوم ١٩٦٨/٧/٢ ، أن هذه العقوبة « قد فشلت في أن تكون وسيلة وقاية » وهو رأى للاستاذ الكبير Th. Sellin استشهد به . وطالب بجراة بإلغاء عقوبة الإعدام . ومن أبرز سوءات هذه العقوبة في نظره ، أنها تتوقع على مفهوم التكفير ، ولكنها لا تسمح بمحاولة إعادة تأهيل المجرم ، وعنده أنها لا تصلح لمجتمع متمدن ، ارتقت عنده المفاهيم الخلقية والاجتماعية .

هـ - وانها عقوبة ظالمة ، لأن القاضى مهما أوتى من المقدرة العامة لا يستطيع هو ، أو أعوانه من أصحاب الاختصاص ، قياس درجة الخطأ ، لأنها شيء مستقر في أعماق النفس ، لا يستطيع أن يدركه إلا الله سبحانه وتعالى .

والواقع أن التشريعات المعاصرة قد تخلت عن البحث في حرية الإرادة ، واكتفت بفكرة « العادية » ، la normalite ، وهى تقصد بذلك ، أن المرء يعتبر مسئولا عن فعله ، اذا كان يريد ، ويدرك مداه . فالإدراك والإرادة هما ركنتا المسئولية الجزائية . وليس من شك في أنهما من مسائل ما وراء الطبيعة ، metap-hysiques وبهذه الصفة لا يستطيع أحد أن يجزم بالتحقيق من وجودهما سليمين حين ارتكاب الجريمة ، وإن سلامتهما شرط لقيام المسائلة الجزائية .

وهكذا تكون العدالة المطلقة شيئا وهميا لا وجود له ، ويكون الحكم بالاعدام ، من ناحية اقرار المسئولية ، قرارا لا يستند الى سند أخلاقي صحيح ، ينزعه من المطاع .

وفي حلب ، اتهم شخص بقتل ثرى والقائه في بئر ، وتمرست به اكف الصابطة القضائية وعصيتها ، حتى ادلى باعترافات كاملة ... وكاد يصعد الى المشنقة ، لولا أن أحد المسؤولين ، لم يرتج ضميره الى هذه الاعترافات ، فاستجوب زوجة أحد أصدقاء القتل ، وعرف منها أن القاتل هو زوجها ، لانه مدين للقتل بمبلغ كبير ، عجز عن سداذه ، وأنها عاوثته في نقل الجثة الى البئر .

ويقولون أيضا : كثيرا ما تؤيد الجريمة بشهود عيان ، يحررون ضمائرهم ... فهل تريدون أن ندير ظهورنا لشهادة شهود عدول؟

ان الشهادة بينة من البينات العديدة ، ويجوز أن تأتي في المؤخرة من قافلة البينات . . فقد اثبتت الدراسات الجدية الحديثة ، أن كثيرا من الشهادات مضللة ، رغم مظاهر البراءة على أصحابها . . فالشاهد قد يخطئ ، لضعف في الذاكرة أو في حاسة الرؤية أو السمع ، وقد يخطئ لاصابته بمرض عصبي ، يثيره منظر الجريمة ، وقد يكون مدفوعا الى الشهادة بمصلحة شخصية ، فيحرق فيها ما شاء له التحريف ، وبذلك يضل القضاء . . ولعل رجال القانون المدني يعرفون حقيقة قيمة الشهادة في المقود ، لذلك فانهم لا يقبلونها الا لأبناة مبلغ صغير من المال .

واذكر اننى ترافعت مرة عن متهم بقتل شرطى ، قال عدة شهود انهم رأوه بأعينهم وهو واقف امام باب الجامع يطلق النار من مسدسه عيار ٩ مليمتر ، على رجال الشرطة ، فأصاب شرطيا ، بينما كان واقفا امام باب المدرسة فقتله .

الاستعانة بمحاميين مشاهير ، وخبراء ماليين ، ثنقل كاهل الضعيف ، وتأتى نعمة وبركة على المترفين ...

وتؤكد الدراسات في أمريكا ، بوجه خاص ، أن مجتمع الزوج فيها ينال القسط الأكبر من هذه العقوبة ، لأن المجتمع الأبيض مشبع ضدهم بالافتكار السيئة ... وهذا واقع يجب أخذه بعين الاعتبار حين القيام بدراسة جدية . فمئذ عام ١٩٣٠ نقل حكم الاعدام في ٢٠٦٦ اسود و ١٧٥١ أبيض ، مع أن السود لا يتجاوزون ثمن السكان ١٠٠ .

٨ - وانها لعقوبة خطيرة ، اذا وقع فيها خطأ ، فانه غير قابل للتلافى ، في حين أن سائر العقوبات الاخرى ، يمكن أن يتلافى فيها الخطأ . فاذا نفذ حكم الموت في شخص ، ثم ثبت خطؤه فان الفارق يكون قد فرط . وقد ثبت ، فعلا ، وقوع اخطاء قضائية ، من شأنها أن تجرح الضمير الانسانى .

واسباب الاخطاء القضائية عديدة :

يقول البعض ، أن المتهم كثيرا ما يعترف ، والاعتراف شهادة المرء على نفسه ، وأنه سيد البينات . فهل تريدون عدلا أكثر من أن يدن المرء نفسه ؟

نعم ، نريد أكثر من ذلك . فقد عرفنا اعترافات شتى ، انتهت بأصحابها الى المشنقة ، ثم ثبت كذبها . ومن ذلك أن شخصا اتهم بقتل امرأة ، و«عولج» في دائرة الشرطة حتى اعترف بقتلها والقاء جثتها في النهر ، فأعدم وبعد عامين عادت المرأة الى بيتها ، من زيارة قامت بها الى بعض أقاربها في منطقة أخرى .

اكتشف أن مساعد الطبيب المحلل كان ينظف الاواني الزجاجية بالكحول ، وأنه وضع الاحشاء فيها مدة يومين ، فامتصت كمية كبرى منها ، ولذلك ظهرت في التحليل كأنها أداة جريمة وانتقد هذا الاكتشاف المتهم .. ولكنه اكتشف تم بطريق الصدفة .

بل أن تطور الفكر العلمى نفسه ، قد يلعب دورا في تجريم المرء أو تبرئته : فقد صدف أن أتهم صيدلى فرنسى ، اسمه Denval بقتل زوجته بالسم ، واكتشف التشريح وجود بعض مليغرامات من الزرنيخ في جسمها ... فأدانتها المحكمة ، ولكنها لم تحكم عليه بالاعدام ، بل قضت عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة .. وظل المسكين يعلن ، على مدى عشرين عاما وهو في السجن ، أنه برىء .. حتى ثبت علميا عام ١٩٢٣ ، أن جسم الانسان العادى ، يمكن أن يحتوى ، بصورة طبيعية ، على هذه الكمية من الزرنيخ . كذلك اكتشف العلماء مرضا جديدا ، هو النقص ما فوق الكلوى الحاد .

L'insuffisance surrénale ، تبدو أعراضه كأعراض التسمم بالزرنيخ . وتقررت إعادة محاكمته ، فتبرا وعاد الى الحياة شيخا متهدما ، ولكنه مع ذلك على قيد الحياة .. aigue .

ولست في حاجة الى وقفة خاصة عند الاعدامات التى تتم ، في أعقاب الانقلابات العسكرية ، وخاصة الفاشلة منها . ذلك أن المرء ليشعر بالغثيان ، عندما يعلم أن ثلاثة من « الجزائريين » يسوقون الى حمامات الدم ، قوافل خصومهم ، دون شاهد يشهد أو محام يدافع .. ويعلنون في الاذاعة بأن المحكمة أصدرت أحكامها باسم الشعب ...

وكان للمتهم قصة قتل سابقة ، حكم عليه من أجلها ، وقضى مدة عقوبتها . اذن كانت النظرة اليه سيئة ، وكانت القناعة بجرميته مستمدة من ماضيه المشبوه . وجاء الشهود يحملون عن ضمير المحكمة ، عبء اتخاذ قرار حاسم ، بهدف اجتثاث هذه الجريمة . وشاءت ارادة الله ، أن اكون عارفا بالمنطقة ، ورحلت اتجول فيها . فوجدت أنه لم يكن فيها الا جامع واحد ، والا مدرسة واحدة ، وهما متقابلان ، ولكن كان يوجد بينهما بناء ضخم ، يجعل من المستحيل على الرصاصة أن تبلغ حالب الشرطى . فقد كان عليها أن تسير موازية للارض ، ثم ترتفع عمودية الى محاذاة اعلى البناء ثم تغير مسارها ، الى نهاية البناء ، ثم تنخفض الى الارض ، ثم تعدل مسارها على موازاة الارض ، وتنتجه باتجاه الشرطى ، فتصيبه وتقتله ... وحين ثبت للمحكمة كل ذلك ، قررت براءة المتهم . ولم تكن براءته بمهارتى ، وانما لمحض الصدفة المائلة بقيام بناء شاق ، لم ينتبه له الشهود الزور ...

ومن المحقق أن رجال القانون الجزائري يفضلون القرائن والخبرة على وسائل الاثبات الاخرى ، ولكن الاخطاء في قراءتها كثيرة جدا .. هى ايضا . انها حقا لا تخطئ ، ولكن المختص هو الذى يقع في الخطأ ، فيضل القضاء ..

ففى قضية : اتهم زوج بقتل زوجته بالسم المزوج بالحكول ، ولما يمض على زواجهما غير شهرين ، كانا فيهما ، على احسن ما يكون تفاهم بين زوجين .

وارسلت احشاؤها الى التحليل ، فجاء الجواب ، أن كمية الكحول فيها مخيفة .. وطالب النائب العام باعدامه .. ولكن المحامى

عقوبة الاعدام بين الابقاء والالفاء

قللت به عدد الجرائم المعاقبة بالاعدام ، وأصدرت بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٦٥ The Murder Act (قانون القتل العمدا) ، ألغت بموجبها عقوبة الاعدام لمدة خمس سنوات على سبيل التجربة . وفي هذه الفترة وقعت عدة جرائم فظيعة ، ولكنها وقفت في وجه التيار الشعبي وأصدرت قانونا عام ١٩٧٠ ألغت بموجبها عقوبة الاعدام بصورة نهائية .

وحدث حدوها كندا ، فألغت عقوبة الاعدام عام ١٩٦٩ .

وكانت **المانيا الاتحادية** قد سبقتهما ، فنصت في المادة ١٠٢ من دستورها الصادر بتاريخ ٢٤ / مايو ١٩٤٩ على الغائها . وقد شكلت الحكومة الألمانية لجنة من اثني عشر عالما ، بينهم الجزائي وعالم النفس ورجل الدين والفيلسوف والبيولوجي والمحامي والاستاذ الجامعي ، ووضعت دراسة جيدة عام ١٩٦٢ ، انتهت فيها الى ضرورة الابقاء على الفاء هذه العقوبة .

ولم تبق الولايات المتحدة ، رغم تفاقم الاجرام فيها بصورة مخيفة ، مما جعلها بحق عاصمة الاجرام الاولى في العالم ، بمعزل عن هذا التيار : ففي عام ١٩٦٢ ألغت ست ولايات عقوبة الاعدام ، وبعد ذلك تضاعف العدد ..

وفي عام ١٩٧٢ قررت محكمة نيو جيرسي ، بأكثرية ٦ أصوات ضد صوت واحد ، أن الاعدام مخالف للدستور . ومنذ ٢ حزيران ١٩٦٧ لم ينفذ في أمريكا حكم واحد بالاعدام ، وفي ذلك التاريخ أعدم في غرفة الغاز مجرم قتل زوجته وأولاده . واليوم يوجد في سجون الولايات المتحدة ٦٠٠ محكوم بالاعدام يترقبون مصيرهم كل صباح ...

وتحضرني هنا كلمة قالتها **مدام رولان** ، وهي تصعد الى المقصلة في عهد الثورة الفرنسية :

« بريد الشعب الخبز ، فيقدمون له المقصلة » ، وقد صرخ النائب **بودو** في مجلس النواب ذات يوم : « يجب أن نقتل حتى لا نقتل » ... وتبأ لهذه العدالة ، وتبأ لرجالها ...

هذا موجز الكفاح النظري بين تيارين كبيرين . فما هو واقع عقوبة الاعدام في التشريع وفي التطبيق ؟

الامر الذي لا شك فيه ، هو أن عقوبة الاعدام ، فقدت في هذا القرن الاخير كثيرا من مكانتها وهيبتها ! ومن المحتمل جدا ، أنه لولا الاحداث التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، لربما كان وضعها اكثر ضعفا ، وكانت الافكار اكثر تقبلا لالغائها ، أو تقليلها جدا على الاقل .

ففي القرن التاسع عشر ، ألغتها عدة دول من تشريعها ، منها **رومانيا** عام ١٨٦٤ ، و**البرتغال** عام ١٨٦٦ ، و**هولندا** عام ١٨٧٠ ، و**إيطاليا** عام ١٨٩٩ . وفي هذا القرن العشرين ، ألغتها الفاء قانونيا أيضا ، **النرويج** عام ١٩٠٢ ، و**النمسا** عام ١٩١٩ ، و**السويد** عام ١٩٢١ ، و**الأرجنتين** و**الدانمرك** عام ١٩٣٠ ، و**إسبانيا** عام ١٩٣٢ ، وكذلك ألغتها بعض ولايات **أمريكا الشمالية** .

كما أن بعض الدول ألغتها **الفاء واقعيًا** ، أي أنها لم تنفذها رغم وجودها في التشريع . وفي مقدمة هذه الدول ، **بلجيكا** التي لم تنفذ عقوبة اعدام واحدة ، منذ عام ١٨٦٣ .

وفي هذه السنوات الاخيرة ، أصدرت انكلترا عام ١٩٥٧ قانون القتل Homicide Act ،

وقد عرضت ثلاث حالات اعدام على المحكمة العليا للولايات المتحدة ، فقررت « بأنه في هذه الحالات تعتبر عقوبة الاعدام قاسية ولم تعد صالحة للتطبيق ، وهى مخالفة للتعديل الثامن والتعديل الرابع عشر من الدستور » ومعلوم بأن احكام هذه المحكمة نافذة في كل أمريكا ولكن يتضح من حكمها انه خاص بهذه الحالات الثلاث فقط ، ولا يشمل جميع حالات الاعدام .

وعدد قضاة هذه المحكمة تسعة ، صوتت اربعة منهم ضد الالفاء ، ارضاء للرئيس نيكسون الذى عينهم . اما الخمسة الآخرون فقال اثنان منهم صراحة بأنهم مع الالفاء ، واكتفى الثلاثة باصدار حكمهم على هذه الحالات الثلاث فقط ...

وتشير الاحصاءات الى أن الجرائم المعاقبة بالاعدام في هولندا لم يزد عن عددها عام ١٨٧٠ وهو عام الفاء العقوبة . ويستمرى الانتباه بصورة خاصة تطور جرائم القتل في المانيا الغربية ، منذ الفاء عقوبة الاعدام :

فقد كان عدد حالات القتل عام ١٩٤٩ (سنة الفاء العقوبة) : ٥٢١ وانخفض عام ١٩٥٠ الى ٣٠١ ، وأصبح عام ١٩٦٠ ، ٣٥٥ حالة .

على أن الامانة في البحث ، تقتضى أن لاحظ ، بأن عددا من الدول التى ألفتها ، أعادتها بعد تجربتها ، فقد أعادتها إيطاليا عام ١٩٢٥ ثم ألفتها ثم أعادتها عام ١٩٣٠ ، وأعادتها فيلندا الجديدة عام ١٩٥٠ ، ثم

عادت فألفتها عام ١٩٦١ ، وألفاها الاتحاد السوفييتى عام ١٩٤٧ ، ثم أعادها بعد سنتين لجرائم الخيانة والتجسس ، كما أعادها عام ١٩٥٤ من أجل جرائم القتل المرتكب في ظروف مشددة ، وأعادها مرسوم فدرالى صادر عام ١٩٦٢ من أجل جرائم الرشوة والاغتصاب والاعتداء على رجال الشرطة ... وقد جرى في العام الماضى استفتاء في ولاية جورجيا الأمريكية ، صوت فيه ثلثا الناخبين على إعادة عقوبة الاعدام ، فأعيدت تشريعيا ...

وأود أن أسجل لهذه المناقشات والمحاولات أنها أثرت عمليا في واقع عقوبة الاعدام . فالبلاد التى لا تزال تحتفظ بها في تشريعها ، وتطبقها ، لا تفرط كثيرا في تنفيذها .

ففى كندا (قبل الالفاء) نفذ ١٦ حكما بالاعدام من أصل ٥٩ وفى الغرب نفذ ١٥ حكما من أصل ٤٣ وفى لبنان (قبل المأساة) نفذت ٤ أحكام من أصل ٣٠ ، وفى فرنسا لم تصدر المحاكم عام ١٩٦٢ الا ١٠ أحكام بالاعدام ، نفذ منها اثنان فقط . وفى انكلترا ، صدر ما بين ١٩٥٤ - ١٩٥٨ مئة حكم بالاعدام نفذ منها ٢٨ وفى مصر نفذ ٦٦ حكما من أصل ١٠٣ ، وفى تركيا نفذ الحكم في ٣٢ شخصا من أصل ٣٣ ، وفى اليابان نفذ الحكم في ١٢٦ شخصا ، هم جميع المحكوم عليهم (١٣) .

وقد يرد على الدهن سؤال هو :

ماهي الجرائم التى تعاقب في أيامنا هذه بالاعدام ، وأى البلاد تعاقبها ... وقد رأيت اتاما للفائدة ، أن أذكر فيما يلي هذه الحالات ، وألى جانبها البلاد التى تتبناها .

مقوبة الاعدام بين الابقام والالفة

٨ - قتل شرطى او موظف اثناء الخدمة . .

٩ - ضرب او جرح ولد بصورة عنيفة :
فمات ، (فرنسا والمغرب خاصة) .

١٠ - الحريق العمدى الذى نجم عنه موت
أحد . . فرنسا ، مصر ، العراق ، ايران ،
اليابان ، المغرب ، انكلترا ، تركيا ، يوغوسلافيا
وغيرها .

١١ - الاشتراك complicité فى انتحار
ولد او مخدر او مجنون .

السودان ، أركانساس الامريكية ،
الهند ، الصومال .

١٢ - اجهاض امرأة تسبب فى موتها .

١٣ - اغتصاب امرأة بالعنف :

١ - اذا نشأ عنه موت : اليابان وتركيا
والفلبين .

ب - او الاغتصاب العادى : الصين ،
بعض الولايات المتحدة . . .

١٤ - الخصماء الذى يعقبه الموت .

١٥ - المتاجرة بالمخدرات فى بعض حالاته
الخطيرة : تركيا ، ايران ، الصين ، بعض
الولايات المتحدة .

١٦ - خطف القاصر :

١ - بعض البلاد تشترط موت المخطوف :
فرنسا ، المغرب .

٢ - بعضها لا تشترط ، وانما يجب ان
يتم فى شروط خاصة ، كطلب فدية (الشيلى
وبعض الولايات المتحدة) .

الجرائم الموجهة ضد الاشخاص :

١ - القتل مع سبق الاصدار : وهو معاقب
فى الغالبية الساحقة من البلاد التى تحتفظ
بعقوبة الموت ، وفى مقدمتها ، اوسترايا وكندا
والشيلى والصين واسبانيا وبعض ولايات
امريكا ، وفرنسا وغانا واليونان والهند
وايران ، وانكلترا وتشيكوسلوفاكيا وتركيا
والاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا ، وجميع
البلاد العربية .

٢ - القتل العمى : (أى العادى غير المقترن
بالاصرار) ، وهو معاقب بالموت فى بلاد
قليلة ، اكثرها افريقية ، ولكن لاحظت ان
السودان من البلاد العربية وبولونيا من
المسكر الشيوعى ، والباكستان من هذه
الدول القليلة .

٣ - القتل اثناء مبلوذة : وهو مقصور على
عدد من الولايات المتحدة الامريكية .

٤ - جريمة الفش : وهى موجودة ايضا
فى بعض الولايات المتحدة الامريكية .

٥ - التسميم : معاقب بالاعدام فى فرنسا
والعراق واليابان والمغرب ومصر ، وبعض
الجمهوريات الجديدة .

٦ - قتل الاب او الام او الولد : ويعاقب
بالموت فى فرنسا ، وتركيا ولبنان والمغرب
والعراق واليابان وغيرها .

٧ - القتل الذى يرافق او يعاقب ارتكاب
جريمة : وهو معاقب بالموت فى لبنان ومصر
والعراق ، وانكلترا واسبانيا وغيرها (وأكثر
ما يصادف هذا الجرم فى اثناء السرقة ، او
قطع الطريق او القرصنة) .

ج - الجرائم الموجهة ضد الدولة

والنظام العام :

١ - الخيانة : دول كثيرة .

٢ - التجسس : الصين ، اسبانيا ، الولايات المتحدة (القانون الفدرالى) ، فرنسا ، اليونان ، ايران ، المغرب ، بولونيا ، مصر ، تشيكوسلافيا ، تركيا ، روسيا ، يوغوسلافيا .

٣ - الاتصال بالعدو intelligence
أو التعاون معه ... دول عديدة .

د - الاعتداء على سلامة الدولة الداخلية

١ - العصيان المسلح والثورة أو التآمر على الدولة .

٢ - القتل المرتكب اثناء اضطرابات émeute
أو ثورة : بعض ولايات امريكا .

٣ - الاعتداء على سلامة رئيس الدولة :
(وبعض الشخصيات الهامة) .

٤ - النهب pillage والقتل الجماعى massacre والتخريب Devastation
والافغان تعاقب الزنا بالموت .

والآن ، ماهى الحكمة التى يجب أن نستخلصها من هذه الدراسة ، بالنسبة لتكوين رأى فيما يخص الفاء الاعدام أو ابقاءه ؟
هل كانت آراء الإبقائيين مقنعة ؟

أم أن آراء الالفايين ، والتطور الذى حدث عند الامم المتقدمة ، هى الأرجح وزنا ، واكثر ثقلا فى ميزان المقارنة ؟ أنا لاظن أن اية دراسة هادئة ، موزونة ، تستطيع أن تنال

١٧ - الاعتقال التعسفى مع التعذيب الجسدى : الصين ، فرنسا ، ايران ، تشيكوسلافيا .

١٨ - الشهادة الكاذبة التى تسبب فى صدور حكم بالاعدام : بعض الولايات الامريكية وفرنسا والهند والعراق ، والمغرب ومصر والسودان .

١٩ - العدد بعد الحكم بأطول عقوبة مائة للحرية ، أو اجتماع عدة جرائم معاقبة بهذه العقوبة : الشيلي ، الصين ، العراق ، تركيا الصومال ، تركيا وغيرها .

٢٠ - الاضرار الخطيرة التى تسبب للمواصلات (كالقطار وغيره) : بعض الولايات المتحدة .

ب - الجرائم الموجهة ضد الاموال والجنابات الاقتصادية :

١ - السرقات الوصوفة : أو المشددة (وخاصة مع استعمال السلاح) : بعض الولايات المتحدة ، فرنسا ، اليونان ، افريقيا الجنوبية ، التوغو .

٢ - القرصنة مع العنف : او ستراليا ، كندا ، شيلي ، اسبانيا ، جبل طارق ، غواتيمالا ، وغيرها .

٣ - الاحتكار أو رفع الاسعار بصورة غير مشروعة وخطيرة واختلاس اموال الدولة : الصين ، اسبانيا ، يوغوسلافيا .

٤ - تزيف النقد والمضاربة على العملات الصعبة devises : روسيا وبولونيا .

٥ - الاعتداء الخطير على الملكية الاشتراكية : بولونيا ، روسيا ، يوغوسلافيا .

منهن ، وعلى المصابين ببعض من شذوذ في التفكير والمحاكمة ، لا يصل الى درجة منع المسؤولية ... وهذا تعامل ، وليس حقا مقروا . فقد حكمت المحاكم الفرنسية مؤخرا على فتى هاجم عجوزا وقتلها بسبع عشرة طعنة من سكينه ، ليستلب منها ما اقتصدته لايامها الاخيرة ، كما قررت اعدام امرأة تأمرت مع عشيقها على الخلاص من الزوج ، فقتله ، وقطعاه وجعلا جسده سمادا لحديقة البيت ، وراحا يستمتعان بزهورها حين ازهرت، وهما يقطفان ثمرات الحب الحرام ، حتى كشف الله الستر عنهما ، فاسلمت عنقاهما الى الجلاد ... جزاء وفاقا .

ويأتي دور رئيس الدولة ، كملاذ أخير ، باستعماله حق العفو في حالات تركها الدستور الى ضميره ، دون رقيب عليه الا شعوره بالمسؤولية وخوفه من الله . وقد جرت العادة أن يمارس هذا الحق بشيء من السخاء ، وخاصة اذا تصرف القضاء بشيء من الاندفاع ... فعلى سبيل المثال ، أبدلت ٨ احكام بالاعدام في استراليا من اصل ١٠ ، وأبدلت ١٧ حالة في فرنسا من اصل ٣٤ ، و ٣٤ في كندا من اصل ٥٥ (١٤) ...

وقد كان لسورية رئيس جمهورية ، كان يمتنع عن تصديق أي حكم بالاعدام ، خلال رئاستين متواليتين ... ولم يلاحظ أحد أن جبل الامن اضطرب ، أو أن الاجرام ازدادوا . بل كنا نلاحظ أن المشائق تنصب في الساحات العامة ، في الايام الاولى للانتفاضات العسكرية على الدستور، وقلب الحكم ، لارهاب الناس .

ويتعبير اوضح اني أريد لهذه العقوبة أن تظل تظل في التشريع ، لحين الحاجة اليها ،

اجماعا أو شبه اجماع ، في مشكلة شديدة التعقيد ، متصلة بمفاهيم الطبقات المختلفة ، وغرائزها وعواطفها ، لان هذه المشكلة مشكلة انسانية ، قبل كل شيء ، ومن شأنها أن تلامس بقوة اوتار كل نفس ، فتحركها ، في الوضع التي هي عليه . فلا نحاول اذن أن يعمل بعضنا على اقناع الآخر بوجهة نظره ، وليكون كل واحد منا لنفسه قناعته خلال تفكيره ودراساته وملاحظاته الشخصية ...

ولي رأى في الموضوع ، أود أن أعرضه، كونه لنفسى بعد أربعين سنة في رحاب القانون ... ولست أزعج أنه نهائي بالنسبة لي ، فقد أغيره ذات يوم ...

اني أرى ابقاء عقوبة الاعدام في القانون، بالنسبة للجرائم الكبرى العادية ، وخاصة حين يقع ازهاق روح بريئة ... كخطف طفل صغير طلبا للفدية وقتله ، وقتل الضعاف من النساء ، والعجزة ... طمعا في أعراضهن أو أموالهن ...

وأرى أن تتشدد المحاكم في قبول البيّنات حتى لا يبقى ، حقا وصدقا ، أي ظل للشك في نفس القضاة ... والا يكون عليهم أي سلطان في قضائهم لغير القانون ، كما يقول الدستور .. وأن تقف في وجه الرأي العام ، اذا أثارته الصحافة أو الدعاية، حتى تستطيع احقاق الحق ، دون تأثر أو تأثير ...

ولقد جرت عادة المحاكم ، أن تمتنع عن الحكم بالاعدام على الفتيان ، ولو كانت بعض القوانين تعاقبهم به ، كما جرت العادة أن تقلل هذه الاحكام على النساء ، وخاصة الحوامل

وليس لتطبيق باستمرار . ولقد أتيح لى ذات يوم أن أتولى تنفيذ أربعة قرارات جمهورية تقضى باعدام أربعة مجرمين .

أحدهم عيب بزوجة أبيه ، وعاشرها معاشره الزوجة ثم اتفق الاثنان على قتله ، فاحتالا عليه ، وأخذاه الى خارج القرية ، وحطم الولد رأسه بحجر كبير ، ودفنه فى حفرة مهجورة ، وعاد الى فراش خالته ،

وثانيهما ، غريب استضافه محسن فى بيته ، قطع فى زوجته ، فقاومته ، فقتلها وجرح اثنتين هبتا لنجدتها .

الثالث ، قاتل ما جاور ، قبض مبلغا من المال مقابل قتله انسانا لا يعرفه ، ولم يسيء اليه من قبل ...

والرابع ، شخص اتهم ظلما وعدوانا طبيباً انسانيا بأنه يعاون عليه خصومه فتربص به وقتله ، ثم تبين أن المسكين لا يعرف عن موضوع الخلاف شيئا ...

ولقد فكرت وأنا أوقع أوامر التنفيذ ، بالابرياء ، والثكالى والايام ، وهم يذهبون ضحية بعض الاشقياء فى ظروف تدعو الى الرثاء والبكاء . وأمام دموع الصغار الذين لفهم اليتيم ، والنساء اللواتي فجعن ببعولتهن أو ابناهن ، لا يمكن للمشاعر الا أن تتحرك ، وللنقمة الا أن تشتد . وفى مثل هذه الحالات النفسية ، يتخذ الانسان قراره ، متحسسا بعشاعره . وقد قرأت مؤخرا تعليقا على ندوة تلفزيونية عرضت فى فرنسا (١٥) ، استجوب فيها المذيع اشخاصا من مختلف

الاتجاهات ، ولفت نظرى جواب والد طفل صغير ، اختطفه مجرم آثم ، وطالب بالفدية ، ثم خشى أن يعرفه الصغير فخنقه ، ثم اكتشف أمره ، قال : « حين قتل ولدى ، فقد ناداني .. صرخ بابا .. انه وكلنى بالاقتصاص له .. فاذا أفرج عن قاتله ، فانى سأثار لولدى ، وأقيم العدالة بنفسى » ...

ويتروى على رأيي هذا ، أن يمكن المتهم من الدفاع عن نفسه ، بكل حرية وأن يتمتع بكل الضمانات التى يمنحهاها الدستور والقانون وأنه لمن مصلحة المجتمع أن يؤمن له دفاع جيد لا حثيا به ، ولكن زيادة فى الاحتياط ضد مزائق الزلل ، ورغبة فى التشدد فى اقامة عدالة سليمة . وهذا يعنى واجب المحامين الكبار بعدم التهرب من التوكل عن هؤلاء المتهمين ، وعليهم أن يقوموا تجاههم بواجب الدفاع على وجهه الاكمل ، حتى يكون تساو بين كفتى ميزان العدالة ، أى كفة الاتهام وكفة الدفاع . وهذه مسألة نوليها أهمية كبرى . ثم اننا نشجب بقوة ، تعامل بعض محاكم الجنايات ، التي تندب لبعض المتهمين الفقراء محامين متمرنين ، تكلفهم وهم فى قاعة المحاكمة بالتوكل عنهم ، دون أن تضع الملف بين ايديهم قبل مدة كافية ، فيقف المحامى ليقول : لما كانت التهمة غير ثابتة على موكلى ، فانى أطلب له بالبراءة ... هذا التعامل يعنى طعن العدالة فى صميمها ، والاستخفاف بحقوق أشخاص قد يكونون أبرياء ، وتجريدهم من حقوق ضمنها لهم الدستور والقانون ...

وانى لاشعر أن هذا البحث لا يكتمل ، اذا لم أشر الى عقوبة الاعدام فى الجرائم السياسية.

ولو أن الدين حكموا على تلك الزهيرات الحلوة من أصحاب العقيدة الوحشية الصافية بهذه العقوبة الرهيبة ، تربصوا بأنفسهم بضعة أيام ، لكان مقدرا أن تهدأ العواطف ، وتسكن النفس ، ويعود الصفاء الى الأعصاب ، وترتفع راية العدالة ، بعيدا عن التصفيات الجسدية ، ولكن حين تخرج القضاء من يد القضاة ، فإن كل الاحتمالات تكون ممكنة ، ويكون التعصب الدميم ، القانون والسياف .

ويا بلادنا ، التي انهكتها الانتفاضات منذ أكثر من ربع قرن لقد آن لك أن يسود فيك القانون ، ويحترم الإنسان ، وتسان الحريات ... فقد قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم » وأحسن تكريم له أن تسان إنسانيته ، ويزول من قبله شبح الخوف ..

ويرحم الله المعري ، القائل :

ما دامت الخيل والانعام خائفة
فرسا ، فما صح أمر النسك للأسد

انى من حيث المبدأ معارض لهذه العقوبة فيها ، لا أستثنى من ذلك ، الجريمة الخيانية في حالاتها الفظيعة ، لأنها تقطع الصلة بين الخائن ووطنه ، الذى قد يعرضه بخيائته الى التهلكة الجماعية . وتكفى العقوبات الاخرى للجرائم الاخرى . ذلك أن المجرم السياسي ، مجرم عقيدة وفكر ، وطالب اصلاح ، واجرامه يختلف عن اجرام القاتل وهاتك الاعراض . فهو يسعى الى الاصلاح وحرق المراحل للخلاص من التخلف ، وتحقيق مثل أعلى في وحدة قومية ، أو تحقيق مساواة اجتماعية . وقد يكون خطره أشمل من خطر المجرم العادى لشموله وتعريضه نظاما قائما الى هزة عنيفة ، الا أن الذى يشفع لمعاملته بشيء من الرفق ، انه مثالى النزعة ، نزاع الى اقامة مجتمع يحقق آماله في المدينة الفاضلة ...

وانى لاحتفظ من هذه العقوبة ، بذكريات سوداء قاتمة ، فقد شهدت اعدام ٣١ شخصا ، قتلوا رميا بالرصاص ، في ساعات حقد أسود

الراجع

Jean Imbert : La peine de mort.
P.U.F. 1972.

J. Ancel : Rapport publié par les Nations Unies, 1962 : S /SOA/SD/9
— Les doctrines de la défense sociale devant le problème de la peine de mort. in
Revue des sciences criminelles 1963.

J. Graven : Nouvelles reflexions sur la peine de mort, dans :
Recueil d'études en hommage à la mémoire du professeur
Donneoliu de Vabres,
Paris, Cujas 1962.

Norval Morris, Rapport publié par les Nations — Unies, 1968 :
ST/SOA/SD/10

Vouin : La peine de mort,
Revue des sciences criminelles, 1966.

Thorsten Sellin : la peine capitale et le procès pénal, dans :
Problèmes contemporains de Procédure pénale, Paris 1964.

R. Merle, Les aspects théologiques de la peine de mort' dans :
"Travaux du Colloque sur la peine de mort Organisé à
Athenes en 1960.

Oerton : l'abolition de la pene de mort en Grande-Bretagne, dans :
Revue des sciences criminelles, 1966.

Savey = Casard : L'Eglise catholique et la peine de mort,
meme Revue : 1961.

Vernet — Joseph, Enquete prealable a la peine de mort
meme Revue, 1966.

Thierry Lévy, l'znimzl jufivizitr, Pztid, Grasset, 1975.

وبالنسبة لآراء الفقهاء الجزائريين العرب ، تراجع مؤلفاتهم في العلوم الجزائية ، وهي كثيرة .

★ ★ ★

ميخائيل نعيمة ناقداً أدبياً

الدكتور مناف منصور

مفهوم النقد ووظيفته

١ - رسائل يكتبها الى المؤلفين والشعراء الذين أرسلوا اليه نتائجهم فيعرض نعيمة في هذه الرسائل آراءه وانطباعاته . وهي كثيرة : بعضها منشور في الصحف والدوريات ، وبعضها لم ينشر بعد .

٢ - المقدمات التي يكتبها لدواوين ومؤلفات الآخرين .

٣ - الأحكام والآراء والملاحظات في الأدب والنقد يبثها بين الحين والآخر عبر نتاجه الأدبي أو الفلسفي أو السيرة .

ليس النقد الأدبي عند ميخائيل نعيمة إلا وجهاً من نتاجه الأدبي المتنوع ، والذي يشكل ، في النهاية ، نظاماً تفكيرياً واحداً من حيث النوع والمبنى . فالفاعلية الفكرية واحدة . وبما أن كل إنتاج له هو ثمرة الجهد الكبير لتصوير تلك الفاعلية فقد كان من الواجب طرح انتاجه بكامله - على بساط البحث لكي نتعرف بوضوح الى نظامه النقدي في صورته الأكمل . وعندما أردنا أن نبين نتاجه النقدي وجنائه متوزعاً في أربعة مناحر :

٤ - كتاب « الغربال » الذي يضم إحدى وعشرين مقالة توزعت في ثلاثة محاور :

أ - مقالات عن النقد البناء : الغربة ، محور الأدب ، الرواية التمثيلية العربية ، المقاييس الأدبية ، الشعر والشاعر .

ب - هجوم عنيف على الأدب التقليدي والتبحر اللغوي : الجباحب ، نقيق الضفادع ، وهجوم على العروض التقليدي : الزحافات والعلل . وهناك مقال قصير جداً يدعو فيه للترجمة .

ج - النقد التطبيقي : الأرواح الحائرة ، الدرة الشوقية ، القرويات ، الريحاني في عالم الشعر ، السابق ، ابتسامات ودموع ، غاية الحياة ، أغاني الصبا ، النبوغ ، شكسبير ، خليل مطران ، الديوان ، عواصف العواصف ، الفصول .

وهكذا فسمعة تأليفه النقدي ، على الإطلاق ، هي المقالة . وكان أول مقال نقدي له (١٩١٣) يدور حول رواية الأجنحة المتكسرة اذ يقول : قرات الرواية فاستفزني لكتابة مقال فيها دعوته « فجر الأمل بعد ليل اليأس » (١) وارسلت به الى « الفنون » وهو أول مقال نقدي جبرته ، فكان فاتحة حياتي الأدبية . وقد نددت فيه تنديداً مراراً بجمود اللغة

العربية في خلال عصور طويلة ، وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة في داخلهم ومن حولهم الى الشعوذة اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد المميت » (٢) .

وعلى هذا ، لا ينطلق نعيمة في مفهومه للنقد من منظور ضيق أو من أساس فني محدد ، فاذا كان الأديب ضمير الحياة والانسانية ، فان الناقد ضمير الأديب ، والحياة ، في منتهاها ، مجموعة من الأفكار والمشاعر المتحركة حركة ذات غنى وخصوبة ، واذا تكون الحياة مجال النقد وميدان عمله . هكذا ببساطة كلية يرفع نعيمة النقد من أسار القواعد الضيقة - مهما وسعت - ليكون وجه الحياة اذ « الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان » (٣) . فليس هو نشاطاً عرضياً بل (لو شئت أن أحدد النقد بكلمات ثلاث لقلت انه عمل الحياة الدائم) (٤) انه حاجة مستمرة وملحة لكي تبقى الاشياء والحياة في قيمتها المتألقة المنشودة « فنحن مدعوون في كل لحظة من وجودنا الى التفكير والتمييز والاختيار - أي الى النقد » (٥) . فهو دليلها ومؤكدها ، فالحياة هي الانتقاد والتجدد (٦) . انه بحث مستمر عن حقائقها العميقة واكتشاف اسبابها ، فهو اذا شكل الحياة بل سئته من السنن التي تقوم بها الطبيعة والطبيعة أكبر مغربل ... الغربة سئته الطبيعة وسنة البشر الذين هم بعض من الطبيعة (٧) . وهكذا

(١) دمج نعيمة قسماً من هذه المقالة في مقال « الجباحب » المدرج في الغربال (دار صادر بيروت الطبعة الثامنة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٧ - ٦٤ .

(٢) راجع نعيمة : جبران خليل جبران ، ط ١ ، مطبعة لسان الحال ، بيروت ١٩٢٤ ص ١٦٩ . و « سبعون » دار صادر ودار بيروت ١٩٥٩ - ١٩٦٠ (المرحلة الثانية ص ٣٠ .

(٣) الغربال ص ٣٠ .

(٤) راجع مقالة نعيمة « الأديب والناقد » دروب (ط ٣/ دار بيروت ودار صادر ١٩٥١) ص ١٧٠ .

(٥) دروب ص ١٧٢ .

(٦) الغربال ص ٤٢ .

(٧) المصدر نفسه ص ٢١ .

محور الحياة - على حد اشارته - وان قواه هي التي ترينا في دياجير الحياة وميض أنوار تحببها إلينا (١٠) . . . وان « لا قيمة لعمل يأتيه (الإنسان) الا بمقدار ما يدينه ذلك العمل من معرفة نفسه او يقصيه عنها ؟ وسواء أدرك ذلك أم لم يدركه فهو أبدا يقيس كل ما يأتيه بهذا المقياس فيهمل منها مالا يزيد به نفسه معرفة ، ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهرا من مظاهر نفسه (١١) . . . وأما ان الحياة تنقدنا في كل لحظة من وجودنا فلا يمكن الأخذ بهذا أيضا الا على أساس انها مجال نشاطنا ، وإذا نحن سليل تفاعل مع أشياءها وتجاربها وتأثر فاعل ومتبادل، من هنا سبيل الارتقاء والتطور المعروف حيث الإنسان أساسه ومحوره ، اذ لا وجود للأشياء الا بنا . كذلك تقف موقف الحذر من قوله « في حين أننا ننقد الغير وقلما نوجه نقدنا إلى أنفسنا » على أن هذه الظاهرة تبدو صحيحة وواقعة ، للهولة الأولى ، لدرجة انها تكاد تعمى وراءها حقيقة أبعد ، ذلك ان نقد الآخرين انما هو ، عندنا ، شكل من أشكال نقد النفس ، فنحن في العملية النقدية لا يهمنا الناقد والمنقود ، بل الأهم الكشف عن قيم وتجارب ومعطيات إنسانية ، فكل مظهر ذاتي ، بل أي مظهر ذاتي ، انما هو في الحقيقة مظهر إنساني أيضا ، وفي آن . فإذا كان مجال عمل النقاد مكتبة غيرهم وما انتجوه فان مادة هذا المعطى وهذا النتاج انما هي الحياة « ان النقد الحق يأخذ مادته والهامة من الحياة » (هدسن) .

وهذه هي الحلقة الدائرة التي ينهجها النشاط الإبداعي: الحياة الأدب النقد، ليصب

يتحول نعيمة بمسألة النقد ومشكلة تعريفه من قضية فنية الى موقف أخلاقي ، يبين بالتالي خطر مسؤوليته وفداحة مهمته ونتائجها « فالفن أخلاقي ولا بد من أن يكون النقد مثله ضرورة (٨) . . . والناقد - ككل إنسان - مفروض عليه « ان يصحح » ما يراه او يعتقد أنه خطأ ، وعدته في ذلك تفكير نير ، وتمييز مسؤول ليتسنى له أخيرا مجال الاختيار ، فيكون نشاط. النقد التزاما للحياة وأشياءها ، وارتباطا عضويا بها . من هنا بان من الضروري التمييز بين نوعين من النقد يقوم بهما : الحياة والإنسان . . . ان الفرق بين نقد الحياة ونقد الناقدين منا وفيما لفرق شاسع جدا ، فالحياة تنقد ذاتها بذاتها . اذ ليس ماهو خارج عنها لتوجه إليها نقدها . ولأننا بعض من ذاتها فهي تنقدنا كذلك في كل لحظة من وجودنا . في حين اننا ننقد الآخرين وقلما نوجه نقدنا إلى أنفسنا (٩) فيقيم المقارنة على مستوى نوع العمليتين النقديتين ، وهو امر يصدر عن خطأ مبين يغفل التمييز السوي بين النقد الإنساني وما سماه نقد الحياة . فالقول بأن الحياة تنقد ذاتها بذاتها لا يمكن ان يعنى عندنا الا ان الحياة تملك من نفسها وفي نفسها طاقة الحركة فتتجدد وتستمر فاعلة ، غير اننا نرى - في هذه الحال - ان هذه الظاهرة لا يمكن ان تكون الا بواسطة الإنسان ، فهو أولا يعي ذلك ويقدره ، وقيمة الشيء في معرفتك به ، ووعيك له . وثانيا لانعرف كائنا آخر يملك الحس والارادة والتمييز والاختيار غير الإنسان . فالحيانة لا تختار وانما تعرض أشياءها عرضا ، وبقاء الشيء والموجود رهن بحاجة الإنسان وارادته له ، ثم أوليس الإنسان هو

(٨) راجع ستانلي هايمن : النقد الأدبي وممارسه الحديثة ج ١ ص ١٠٠ .

(٩) دروب ص ١٧٧ .

(١٠) راجع الغريبال ص ٢٣ - ٢٥ .

(١١) الغريبال ص ٢٥ .

النقد ، أولا واخيرا ، في الحياة ، اى النفس الانسانية بكل مالها وما عليها ، لانها وحدها قطب هذه الدائرة .

النقد هو التمييز

وعلى هذا يتحصل بان النقد حق للناقد اذا كما للكاتب الحق في الكتابة على حد سواء (١٢) لان « مهمة الناقد الغريبة . وما يدونه قسم من الناس من الافكار والشعور والميول هو ما تعودنا ان ندعوه ادبا . فمهمة الناقد اذا هي غريبة الآثار الادبية لاغربة اصحابها » (١٣) فيكون النقد « ادبا على الأدب » اى ان مادة الناقد الأولى بديل أن تكون من الحياة المشاهدة مباشرة ، فانها الحياة « المؤلفة » والمعبر عنها بالدرجة الأولى من الشاعر او القاص ... وهكذا يرى نعيمة ان لتبيان مكانة النقد بالنسبة للنتاج الأدبي علينا ان نعرف اولا حدود العمل الادبي نفسه ، وحدود الاشكال الثقافية الاخرى والتي تمسه بشكل او بآخر ، وعلى هذاتين وظيفة النقد لاملئ أنها غاية بذاتها بل « القصد من النقد الأدبي هو التمييز بين الصالح والطالح ، بين الجميل والقبيح ، بين الصحيح والفساد » (١٤) فينهج بذلك نهج اليازجي خاصة والنقد العربى عامة ويتفق مع ما تقدم من نظراته تلك . فعلى الناقد مسؤولية كبرى ، عبثا - الى حد ما - انها تقرر نوع المقاييس الادبية والفكرية التى تسود ، فى زمن ما ، على ضوء ذلك التمييز المنشود . ولكن لمن يقرر

الناقد ذلك (او على الاقل يمهّد للتقرير) : للكاتب أم للقارئ ؟ . فاذا كان « لكل منا الحق بان يكون له غرباله يغربل به نفسه كيف شاء (١٥) فان لكل منا أيضا « عواطف وافكارا مشتركة هي نتاج مجهوداتنا الادبية المشتركة . وغريبة هذه هي وظيفة الناقلين » (١٦) ، بدافع الشوق والقلق وكلاهما « يتفاوت عمقا وعنفا ومدى بتفاوت البواعث التى تبعثه ثم بتفاوت القوى التى تعيه وتتأثر به . وهذه القوى هي العقل والوجدان والخيال والدوق والارادة . وهى لا تتساوى ابدا عند اثنين من الناس . فكيف بهنا تتساوى عند جميع الناس . » (١٧)

علاقة النقد بالكاتب :

من هنا تكون علاقة الناقد بالكاتب ، فهو يعبر عن القلق الذى يثيره العمل الادبي فيه ، ثم رغبته فى التخلص من ذلك القلق . فالكاتب والناقد « يعملان بدافع من القلق والشوق . فالكاتب فيما يكتب انما يعبر عن قلق تثيره فيه حواسه الخارجية والباطنية من اوضاع يعينها وعن شوق الى التخلص من ذلك القلق . وباتى الناقد ليعبر عن القلق الذى يثيره فيه عمل الكاتب وعن شوقه الى الانعتاق من ذلك القلق (١٨) . اى ان محور العلاقة بين الكاتب وعمله من جهة ، وبين الناقد وعمل الكاتب من جهة اخرى هي علاقة اثاره . « فمن يريد ان يثير

(١٢) الغريال ص ١٤ .

(١٣) المصدر نفسه ص ١٣ .

(١٤) الغريال ص ١٥ .

(١٥) الغريال ص ٢٢ .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) دروب ص ١٧٥ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

الشخصى والتجربة المباشرة لادراك حقيقة ما ادراكا صحيحا فهو يعتقد اذا مع سالت بوف بان الموهبة الاولى والضرورية للناقد هي ان يشعر على الفور بلا أى اعتبار للقوانين النظرية بجمال العمل الادبي وقيمته (٢٠) عبر هذا ، ولما كان القصد من النقد التمييز لا اطلاق الحكم ، كان يرى ان واجب النقد ان يظهر كيف يعيش الاثر الادبي ، ما هي حقا صورته وبنيته وحياته الاساسية ، وان يوضح ذلك بتبيان خصائص شاهدة ، فالناقد يعنى بكيفية الاثارة اكثر من اعتناؤه باثرها الذى حققته فى نفس القارئ ، على نقىض ما يرى آدموند جويس من أن النقد « هو فن الحكم على صفات الشيء الجميل وقيمته سواء كان ذلك فى الأدب او فى الفنون الاخرى ... ولكن المصطلح (نقد ادبي) قد بدا يحمل معنى ثانويا آخر اكثر تخصيصا ، وهو تحليل لمزايا الاثر الادبي او الفني وتحديد صفاته . (٢١)

غير ان نعيمة يذهب فى علاقة الناقد بالكاتب مذهبا آخر ، فيحكم اواصر ارتباطهما ، بحيث يصبح الناقد عنده تابعا للاديب ، اى ان الاديب الكبير هو الذى يمهّد للناقد الكبير او يخلقه (ما من شك فى ان مستوى النقد يرتفع ويهبط بارتفاع مستوى التناج الادبي وهبوطه فالادباء الكبار يمهّدون الطريق للنقاد الكبار ، ولا عكس فاقول ان النقاد الكبار يمهّدون الطريق للادباء الكبار . فالعقيدة الحقة تشق طريقها بقدرتها لا بما يقوله فيها مسادح او قاذح) (٢٢) . ومن هنا فالنقد لا يقرر او يعطى العمل الادبي قيمة بل هو يكشف عن العمل

مشاعر الآخرين عليه ان يتاثر هو قبل كل شيء » . (راسكين) (١٩) وهكذا تبدو الاثارة مصدرا وجوديا ممتدا للحياة ، دائب الحركة ، يستنفر المواهب للعطاء والابداع ، ومن ثم الاستمتاع ولا ضرورة لان يكون النقد - اثارة على نسق الاثارة المباشرة للطبيعة او الحياة خلقا وابداما . فالناس ليسوا على مستوى شعورى واحد لتبليغ الاثارة لدى الجميع حدا متشابه النوع . من هنا تبدأ مرحلة النقد انطلاقا من الاثارة ، فالكشف عن مقوماتها ، واستمداد عناصرها الفكرية وتعليلها يستنزف معالم الشخصية المنتجة ويمتد الى استخراج عناصره الحية . وعلى هذا يتحصل لدينا ان قلق الناقد اوسع ، بل احد ، ذلك انه وليد : الكيان الادبي نفسه المطروح امامه ثم بما يذكر به هذا العمل الادبي من قلق صاحبه الباعث الاول له . واذا ليس سهلا على الناقد ان يكتنه اثارة الاديب وان يعي ما تضمنته من اغوار ، بحيث تخلص الى ان الاثارة ركيزة كبرى فى النقد ، عند نعيمة ، ولها صح اعتبار الاثر النقدي ادبا وان لم يستمد من الحياة مباشرة ، فعلى مستوى الاثارة وروحها يشيد الناقد بناء النقد فى الكشف عن حسنات النص وسيئاته ، وتقييمه على ضوء مقاييس خاصة وهو بذلك يقترب من اليوت « يقينى ان للنقد غاية : هى توضيح الاثارة الفنية وثقيف الذوق فبصرف النظر عن أية فلسفة ادبية ينطلق منها ، فان أساس النقد الادبي هو التجربة الشخصية مع النص وما يثيره من تأثيرات ، اذ ان كل نقد ادبي لا بد ان يبدأ بالتأثير ، وذلك لانك لا تستطيع ان تستغنى عن الذوق

Walter Thomas : John Ruskin P. 29

(١٩) راجع

(٢٠) راجع فان تيفم : المذاهب الادبية فى فرنسا (منشورات عويدات بيروت ١٩٦٨) ص ٢٣١ .

(٢١) آدموند جويس : دائرة المعارف البريطانية : النقد ،

(٢٢) دروب ص ١٧٩ - ١٨٠ .

العلاقة لا يمكن ان يكون لها نتيجة مفيدة ، لان ذلك معناه تحديد القيمة بقاعدة غير محددة .

الا ان نعمة يفرق تفريقا قاطعا بين النقد والادب ، بينما هو في الواقع « ادب من الادب » : « وحكم النقد لا يختلف عن حكم الادباء في ان بعضهم مبدعون وبعضهم سخفاء : وسيظل فيهم السخفاء والمبدعون . كل ما في الامر ان النقد فرع خاص من فروع الادب ، والنقد لا يبدو ان يكون ادبا يتخذ من الادب نفسه موضوعه (٢٧) وهكذا يظهر لنا ان نعمة لا يقول بان وجود الناقد وعدم وجوده سيان . ولكنه لا يقول ايضا ان النقد دعامة لا يقوم الادب الا بها وعليها . فقد يقول بمهمة النقد القارئ والناظر والسامع والزمان . فان خطأ القارئ والناظر والسامع فلن يخطيء تقدير الزمان في المدى البعيد اذا كان لبعض النقاد من مراتب عالية **كلنانت بوف وتين وراسكين وبيلسكي** فيما في نفوسهم من كنوز الافكار والاحاسيس ما تكتشف الا لدى احتكاكها بكنوز مماثلة ، « فهي ثمينة في ذاتها لا في كونها جاءت تعليقا على هذا الكتاب او ذاك » (٢٨) من هنا كان لنا ان نستنتج ما يلي :

١ - التأكيد بان ليس الناقد وحده ، وبالضرورة ، الذي يقوم بمهمة النقد ، بل هناك الزمان (٢٩) (يلحظ هنا ان نعمة يعدد الاسماء لقوة خفية واحدة هي وحدها تحفظ

قيمتها التي يحملها ، اي ان النقد بطبيعته غير قادر على رفض حقيقة كائن أدبي : ولعله بذلك يذكر بموقف **ورد ذورث** « ليست القدرة على النقد عندي قيمة كبيرة . النقد ملكة من ملكات العقل أحط شأنًا من ملكة الخلق والابتكار » ولو ان الوقت الذي يبذل في نقد الآثار الابدية ينفق في الادب الانشائي من اي نوع كان لكان ذلك خيرا لنا وأجدي (٢٢) (ورد ذورث) ، او بما ينشده **اميل فاجيه** « اننى لا أعتقد بان للنقد ثمة امراً ، ويقدر ما أعمقه اقتنع بأن ليس له أى اثر (٢٤) . فالناقد لاحق بالكاتب ، واذا كان الادب نقد الحياة فالنقد هو نقد له « عمل الناقد هو نقد النقد » ، وهو مدين به الى عمل الكاتب ، فلو لا الكاتب لما كان الناقد ولا يصح العكس ، وذلك هو الفارق الاول والأهم ما بين الاثنين » (٢٥) . فالادب الخالق ينظم تجاربه التي استمدتها من « رأس النبع » في اكثر الاحوال ، اما النقد فينظم تجاربه المستمدة من الادب الخالق ، أى من الحياة ، أى بعد ان نقلها الادب نقلة جديدة . واذا شئت فقل ان كليهما نوع من الشعر ، ولكل واحد منهما حظه في الاستقلال بقدر ما بينهما من اتصال (٢٦) . فالناقد اذا هو الحلقة التي تربط بين العمل الادبي والحياة ، وواجبه ان يحدد هذه العلاقة . وطبيعة القيمة الادبية تعتمد على طبيعة العلاقة بين الفن والحياة في مجموعها . ومحاولة اصدار حكم على الادب قبل الوصول الى تصور نهائى بشأن هذه

(٢٣) راجع الثقافة ١٩٤٣ ع ٢٢ ص ١٦ .

E. Faguet, Propos Littéraire, II P : 5.

(٢٤)

(٢٥) دروب ص ١٧٤ .

(٢٦) ستانلى هايمن : النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ١٧ .

(٢٧) رؤيف خورى ، الآداب ١٩٥٦ ع ١٠ ص ٩ .

(٢٨) دروب ص ١٨١ .

(٢٩) يلحظ هنا تقربه من مؤلف الريحاني في هذا الصدد ، راجع رسائل الريحاني (دار الريحاني ١٩٦٠) ص ١٨٦ .

آثارهم النقدية ما يماثل كنوز الخلق الأدبي .
ومرة يحط من هذا النشاط وأصحابه ، فيكاد
ينكر فضلهم فيجعلهم كالدجاجة التي تقوى
كلما باضت رفيقتها ، ويدعوهم الى الشغل
بانفسهم والى الانتاج الأدبي وترك سواهم
وشأنه . وهنا يتبين لنا انه يميز بين نوعين من
النقاد : نوع يعيش على هامش النقد وحقيقة
عملية فيفهم تناولا للمؤلفين ونتائجهم ،
وهؤلاء يرفضهم نعيمة رفضا قاطعا . ونوع
آخر يجعله قرين المبدعين بل هما من طبيعة
واحدة ، وذات مهمة واحدة ، غير ان نعيمة
لم يكن صريحا وواضحا في هذا التعريف ، بل
كثيرا ما كان يتحدث بصورة عامة فانت لا تكاد
تعرف من يقصد من النوعين ، مما دفع رؤيف
خوري الى ان يأخذ عليه هذه الظاهرة
« فالاستاذ نعيمة حين يميل الى هذا التهوين
من شأن النقد والناقدين انما يعتمد على
فلسفة ليؤذن لي ان اصفها بالمائة . فلسفة
يصر بعض المفكرين على ان يستمدوا منها نتائج
خاطئة بليغة الضرر . تلك هي الفلسفة
« الليبرالية » المحض وأدعوها بالعربية
« الاصطفالية » دهي تستند على ان هذه
القيم التي نسميها الحق والخير والجمال قيم
متحولة متبدلة في العصور ، عدا انها في كل
عصر وبينة تختلف مفاهيمها بل تتضارب نسبة
حتى الى الاشخاص والافراد . وهكذا تكون
النتيجة ان ليس في الواقع من حق ولا خير
ولا جمال ترسم حدودها واضحة معينة
لاشية فيها . وبالتالي ليس في الواقع من نقد
بوسعه ان يدعي انه يصدر عن هذه القيم قيم
الحق والخير والجمال ... (٢١) وتفسيرا لتلك
الظاهرة فهو يصف العلاقة بين الكاتب والناقد
على أساس من الحذر والحقد . فهما مستويان
مختلفان بينهما خصام شديد ، ويريد لو تكون

خلود العمل الأدبي فحينما الحياة ، وحينما
الطبيعة وهنا الزمان ، وهناك القارئ ايضا) .
اذ ليس ثمة ناقد أعلى من الجمهور ، فهو متبصر
بحسب المكان والزمان ولكنه دائما محترم بما
يصيب من احكام سديدة في جميع الانواع ،
فهو يطلقها أولا متفرقة ثم لا تلبث ان تتوحد في
اللغة لتؤلف الرأي العام (٣٠) . وهكذا فالنقد
ليس مجالا اختصاصيا عند نعيمة يتكرس له
أصحاب اختصاصيون ، بل هو امر يتولد
طبعيا عند الناس ، وبالتالي يمكن ان كان
القيام بهذه المهمة ولا خطر مما تستتبع من
مسؤوليات ، فان الصحيح لا يعوز ناقد
يكشف عنه ، بل ان طبيعة الحياة هي التي
تعطى الاثر الأدبي القدرة على البقاء اذا كان
حامل اسبابها .

ب - غير انه ينزع ، من قبيل آخر ، الى
تعليل قيمة بعض النقاد الكبار فتراه يرتفع
بالنقد الى مستوى الخلق وعدم اقتصره على
مجرد الشروح والتعليقات أو الاسفاف لأن
يكون ضربا من المهارات او نوعا من المماحكات ،
انه تأليف تنبع قيمته من ذاته ولا يستعيرها
من المواضيع التي يشغلها . فالناقد الحقيقي
هو خالق كالشاعر ، فينحو بذلك نحو
سانت بوف أو دي غورمون ، ويتبين لنا ان
هذا التأكيد يرافقه شعور بالمرارة لاحساسهم
بالعجز عن ان يكونوا غير ناقدين .

النقد بين الإبداع والأسفاف :

يبدو لنا ان نعيمة حائر في أمر النقد ، وفي
تحديد المكانة التي ينبغي ان يشغلها هذا
النشاط . فمرة يرفع النقد الى مرتبة الخلق ،
ويعظم الناقد حين يذكر تين وسانت بوف
الفرنسيين وبيلسكي الروسي . فيؤكد ان من

فالحديث عن النقد ليس حديثا عن قيمة هذه الآثار على أساس جمالي أو مثالي مطلق . وهو لا يعتمد فنية جمالية بل الحياة مباشرة . ان النقد الحقيقي عنده لا يكون التزاما بقواعد مفروضة ومسبقة بل هو استخراج قيم جديدة باستمرار من النصوص المدروسة . وهكذا يكون الناقد في توتر دائم للخلق والابداع . فاذا كان المؤلف أو الشاعر خالق اثر ما فان الناقد خالق قيمة هذا الاثر امام الجاهلين (٢٤) . فضله انه يقف كترجمان بين الملهمين وغير الملهمين (كارليل) فمن هو هذا الناقد ؟ ما صفاته وما ثقافته ؟ وكيف يقف بين الأثر الأدبي والآخرين ؟ أولا يكون في وقفته هذه سدا ، في الوقت نفسه ، بين القراء والعمل الأدبي ؟



صفات الناقد وثقافته :

ان النقد الأدبي ، في أساسه ، وظيفة فكرية ، مادتها المنتج الأدبي ، باعتبار ان مبرر وجود هذا الاثر نفسه لا يمكن ان يكون الا بالقارئ وله ، فهو الذي يعيد خلق هذا النتاج باستخدامه وممارسته له . واذا الأديب نتيجة لروح وشكل تفاعل تحصل من عوامل كثيرة اجتمعت وانصهرت لتألف في كائن جديد ، يؤكد بأنه ليس عملا من أعمال البنية الانسانية (كالشي والاكل) بل هو شكل أو جزء من النمو الاجتماعي أو الحضاري . فان الاصول والأدوات الجديدة في النقد ، والاتجاهات في البحث ، تعتمد في أكثر احوالها ، على

العلاقة على أساس من الثقة والاطمئنان . الا ان علاقة الكاتب بالناقد هي على الاجمال علاقة قلق وحذر وحرب قد تكون سخنة وقد تكون باردة . وكان من الأخرى ان تكون علاقة اطمئنان وثقة وسلام لو صفت نية الناقد واستقامت موازينه واخلص لنفسه ولعمله (٢٢) . فهو اذا يرد باعثها الى الناقد ويعتبره مسؤولا عن شكلها . ولعل علي أدهم يفسر ، في شكل أو في آخر ، جانباً مما يضمنه قول نعيمة هذا « من الطبيعي ان ينظر الناقد بشيء من الحسد الى الخالقين الموهوبين الذين يعبرون في سر وسهولة عن أحزانهم ومسراتهم ، ويرخون العنان لخيالهم الموجد وعواطفهم الجائشة ، في حين انه محروم من هذه القدرة الخارقة ولا يحسن سوى التحدث عما ينتجه الآخرون ، وشرحه وتفسيره . (٢٣) .

وهو اذ يفهم النقد غريبة لمجهوداتنا الأدبية المشتركة لتمييز جيدها من رديئها ، وهو اذ يرى ان الاثارة أساس الملكة النقدية ، وهو أخيراً ، اذ يفصل في العلاقة بين الكاتب والناقد ، يتأتى لنا بأن بحث نعيمة في المفهوم النقدي لا يقوم على فلسفة فنية معينة ، أو على أساس اتجاه مذهبي محدد ، أو هو يستل من نظام فكري فلسفي مترابط الاجزاء فيكون النقد نتيجة له على غرار المذاهب النقدية الأوروبية ، وهو لا يطرح مشكلة النقد على أساس انه فن هو أو علم . أو هو لا يبين علاقة النقد بالعلوم الانسانية واللسانية الأخرى ، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة . . . وبالتالي لا يبين نوع هذه العلاقة ودرجتها بل في رأيه ، وبعبدا عن أى تعقيد مهمة النقد اكتشاف سر الحياة الذي تكتنفه الآثار الفنية .

(٢٢) دروب ص ١٨٥ .

(٢٣) علي أدهم - على هامش الأدب والنقد (دار الفكر القريبى ، مصر . لا . ث) . ص ١٢٤ .

(٢٤) الغريبال ص ١٧ - ١٨ .

محجة لنذكرها في الغد هو الرائد الذي سنتبعه،
والحادى الذي سنسير على حذوه (٢٦) .

فحين يكون الماضى تراكما يورث الضلل
ويبعث الشوه فى اذواق الناس وملكاتهم وإذا
لا يعود الزمن اكبر مغربل اين منه غرايل
الناس (٢٧) ، يكون وجود الناقد منارا لا لكشف
الفطاء عن ذلك الماضى لتحسس حقائقه ،
وحسب ، بل لا مكان تنبؤه بالفد واطالاته
عليه ، فيكون له السبق فى استشراف القيم
الجديدة ، أى ، هو ، فى حالات خاصة ،
يوقظ جيلا من الشعراء كما فعل **أمرسون** ،
وقد يعين موضوعات للأدباء يكتبونها مثلما فعل
جوركى ، وقد يغير اتجاه الفن أو يحاول ذلك
مترسما خطى **تولستوى** وخطى **بوالو** والنقاد
الرومانسيين . أو قد يمد الفنان بموضوعات
محددة وقواعد وتقنيات علمية ... وإذا يكون
الناقد شبيها بمخرج فنى ، يبين للقارئ
الروح التى يجب ان يستلهمها فى سبر أعماق
الآثر الأدبى فلا يكون (هذا الآثر) ثابتا ونهايا
عند فراغ المؤلف من كتابته ، بل هو ، فى
الحقيقة ، ينتهى مع النقد . وهذا الناقد
القادر على كل ذلك يخلق وفيه ملكة فطرية
لهذا النشاط ، فهي لا تكتسب اكتسابا - كما
ادعى اليازجى - بالمطالعة أو بالدربة والممارسة
أو بأى سبيل آخر ، فهو من طينة النقد أى

فروض (٢٥) أصبحت أساسية فى الفكر الانسانى
الحديث ومميزة له . وإذا القارئ عاجز ، كل
مرة ، عن الاهتداء وحده ، وبسهولة ، الى
المقاصد والابعاد الحقيقية التى يكتنزها الابداع
الأدبى ، كان على الناقد اذا عبء المسك
بالقارئ فى يد ، والمسك بالآثر الأدبى وصاحبه
فى يد أخرى فيساعد القارئ على فهم العمل
الفنى وتذوقه ، ويساعد الفنان على ان يفهم
منه ويقومه ، ويعين على تقدم الفن وتطوره
بتعميم المعايير المطلوبة أو بتحديثها وتجهيزها
فيكون الناقد بالتالى مستقطبا بثلاثة اهتمامات
واضحة : أولها الاديب المبدع والخلفية الفكرية
التي استمد منها مقدماته بل كانت مدار وروح
نتاجه ، وثانيها العمل الأدبى نفسه ككائن
أصبح ما بينه وبين مبدعه مسافة ، فلم يعد ما
أراده الأديب بل يصبح له استقلاله النسبى
وقوانينه التى تحكمه بنفسه ، وثالثها القارئ
الذى هو ، بالنهاية ، مرتكز جميع هذه
المقومات والاهتمامات . فمن هو ، فى رأى
نعيمة ، هذا الناقد الذى هو حاجة ضرورية
فى المجتمع تبلغ مسؤوليته مبلغا دقيقا وخطيرا
اذ اننا فى حاجة الى الناقد لأن اذواق السواد
الأعظم منا مشوهة بخرافات رضعناها من لدى
أمننا ، وترهات اقتبلناها من كف يومنا ،
فالناقد الذى يقدر أن ينتشلنا من خرافات
أمننا ، وترهات يومنا ، والذى يضع لنا اليوم

(٢٥) يعود الفصل فى هذه الفروض ، بالدرجة الاولى ، الى أربعة علماء كبار من مفكرى القرن التاسع عشر وأوائل القرن
العشرين وهم : دارون (منه جاءت الفكرة بان الانسان جزء من الطبيعة وان الحضارة تطورية) وماركس (القائل بان
الأدب هو الذى يعكس ولو بطريقة معقدة ملتوية أحيانا ، العلاقات الاجتماعية ، والانتاجية لهذا العصر أو ذاك) وفرويد
(الذى يرى ان الأدب تعبير مقنع وتحقيق لرغبات مكتوبة - قياسا على الأحلام - وان هذه المقنعات تعمل حسب مبادئ
معروفة ... وفكرته ان هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعى وان بين الرقيب والرغبة فى التعبير صراعا
مستمر) وفريزر صاحب الأفكار عن السحر البدائى والاسطورة والشعائر البدائية ... كلها تكمن فى أساس
أعلى النماذج الأدبية ، يضاف اليها فكرة السلوكيين بان الأدب ليس الا رجلا يكتب ورجلا يقرأ ولا شيء غير ذلك ،
وفكرة العقلانيين بان الأدب قابل للتحليل « ... للتفصيل فى هذا الموضوع راجع ستانلى هايمن : النقد الأدبى ومدارسه
الحديثة ج ١ ص ١٥ وما بعدها .

(٣٦) الفريال ص ١٧ .

(٣٧) راجع « فى مهبط الريح » (ط ٣ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٢) ص ١٦٤ .

لاوجود له على الإطلاق . (٤٠) من هنا كان الناقد شريك الكاتب في طبيعة العمل ومهمته، سبيله أن يبصر الأشياء على حقيقتها ، محاولاً أن لا تسود بين الناس غير روائع الآراء ، صادقاً مع نفسه في ما يذهب إليه ، فعندما يعطى « من وهج روحه مقاييس للحق والخير والجمال » ولا يعيش على حساب غيره كالطفيليات ، عندها يرفع النقد الى مرتبة الفن العالى ويسر الأدب بأن يتبناه ويعتز به . فهو مرشد من مرشديه ومنازة من مناراته وبان من بناته ، وكثيراً ما يكون نقده من قوة الاشعاع والاقناع بحيث يقضي قضاء مبرماً على اتجاه قديم في الأدب ويدفع به في اتجاه جديد . . . انه روح الثورة في الأدب (٤١) ، وإذا قد يفعل النقد ، حيناً ، - في الحركة الفكرية - ما لا يستطيع الأدب وحده ان يقوم به . فهو حديث مباشر مع القراء ، يشرح الأشياء ويكشف عنها الغوامض والأسرار التي اكتنتها عملية الابداع والتوليد . فيكون روح الثورة في الأدب ، أى ان النقد الخلاق هو المصدر وهو السبيل ، معاً ، في التمهيد لمنازع جديدة وفي القضاء على اتجاهات قديمة ، أو قل هو محك الأدب يستظهر منه طاقة الحياة فيه وأسباب الجمود والموت أيضاً ، فلكي يقضي نعيمة على نوع الأدب السائد أثناء ثد (المنازع الى القديم والقائم على براعة الاسلوب والبهلوانيات اللغوية والرياضة الكلامية) لم يجد غير النقد سبيلاً يعتمد عليه للقضاء على ترهات الماضي وللمهيد لأدب جديد ، مغاير (ينزع للانسان) فكان المدمك الأول لبنائه الأدبي على الإطلاق .

هو يكون ناقداً ولا يصبح كذلك ، فيقرر حسب هذه الملكة الطبيعية والأصيلة (وإذا النيرة) مقاييس وقواعد تنبع منها فتكون شكل رؤيتها للحقيقة وكيفية تمثلها لها « هناك خلة لا يكون الناقد ناقداً اذا تجرد منا وهى قوة التمييز الفطرية . تلك القوة التى توجد لنفسها قواعد ولا توجد لها القواعد ، التى تبتدع لنفسها مقاييس وموازين ولا تبتدعها المقاييس والموازين ، فالناقد الذى ينقد « حسب القواعد » التى وضعها سواه لا ينفع نفسه ولا منقوده ولا الأدب بشيء » (٢٨) من هنا التأكيد على شخصية الناقد تأكيداً لا يحد ، وعلى مؤهلاته الطبيعية فيه وأهمها قوة التمييز ، لأن النقد ليس « حكماً » فقط بل هو قبل كل شيء « تمييز » و « تمحيص » و « ترتيب » فى مرحلة أولى . وإذا فدراسة القواعد وتطبيق معطيات النقد وتقنياته لا تطلع ناقداً ، بل فى ذلك خيانة لحقيقة النقد والأدب على حد سواء ، اذ ليس من مهمة الناقد التعليق أو الادلال على المعايير او المحاسن فى النص الأدبى ، وكما تترأى له ، وهو لن ينفعه فى ذلك براعة أسلوب او طابع تهكم وسخرية ، (٢٩) لأن فى ذلك قتلاً للروح المبدعة فيه ، وفهماً سيئاً لوظيفته ، اذ الناقد خلاق ومبدع ولا شيء آخر . يتوسل الى ذلك « بالمعرفة » و « التمييز » و « الاحاطة » « للحق » و « الخير » و « الجمال » . فالناقد الذى يتعرض الى اثر من الآثار الأدبية عليه ان يعرف الحق وان يميز الخير وان يحيط بسائر صفات الجمال ، كيما يحل له ان يصدر حكمه فى ذلك الأثر . الا ان مثل هذا الناقد

(٢٨) الفريال ص ١٧ .

(٢٩) دروب ص ١٨٢ .

(٤٠) المرجع نفسه ص ١٧٢ .

(٤١) المرجع نفسه ص ١٨٢ .

الذات هي الاصل

وعلى هذا يكون الناقد الخالق مقاييسه من نفسه والقادر على حمل القارئ والكاتب معا على احترامها والايمان بها ، انقى بصيرة وأوسع افقا وأسلم ذوقا وأصدق نية وأمضى مزما واشد ثقة بنفسه وبمقاييسه من قارئه ومن منقوده (٤٢) وهنا يفوق الناقد الكاتب في درجة الملكات او مستواها ، فلكي يستطيع ان يدخل ، غير الاثر ، في تواصل مع الكاتب عليه ان يكون أولا من طينة الكاتب « من حيث ملكة الابداع ، ومن ثم مايملك هو من ملكة اخرى مهمتها محاوره الكاتب ، وبالتالي فالناقد قادر ان يكون ادبيا ايضا من حيث الشعور بالحالة المولدة الواحدة ، لا من حيث طبيعة النوع الفني الذي يختلف باختلاف نشاطات ومجالات التعبير . « فلكي تكون ناقدًا ممتازًا يجب عليك ان تكون مؤلفًا جيدًا ، فالموهبة تسمح بتلمس نظرات جديدة وتدفع بالناقد قديمًا لتبين مقاييس في الجمال لم توجد بعد . (٤٣)

الناقد مبدع ايضا

لا يقتصر عمل الناقد على ملاحظة ما هو امامه وتمحيصه ، وتثمينه وترتيبه (٤٤) فهو

مبدع ومولد ومرشد مثلما هو محقق ومثمن ومرتب . فالنقد ، في النهاية ، حالة خاصة من المعرفة بحيث ان الناقد الاصيل هو الذي يجعلها شكلًا من الحس ، يحولها الى نمط من الشعور خاص به « فهو مبدع عندما يرفع النقاب في اثر ينقده عن جوهر لم يهتد اليه احد حتى صاحب الاثر نفسه (٤٥) . واذا يعتبر أولا ان الانتاج الادبي ليس وليد خلفية فكرية يلتزمها الاديب ويسعى الى اثباتها وتحققها ، بكل وعى وارادة فيكون بالتالي عارفا بجميع ابعاده وبنائه وخفاياه ، وانما يقدر انه يصدر عفويا عن نفس صاحبه مع شعور بالغربة عنه ، اى الاديب ، قد لا يعرف جميع اسرار مولوده الادبي . « ما اكثر ما تناولت قلمي وفي نيتي ان اكتب كيت وكيت واذا بهي اكتب غير مانويت كتابته ، حتى ليبدو لي احيانا ان يدي ليست وحدها التي تقود قلمي . او ان قلمي ليس وحدي » (٤٦) واذا هو في موقف شبيه بموقف القارئ ويعتبر ثانيا ان مع الناقد ، وهنا ، يتكامل الانتاج الادبي من حيث ولادته وتلقوه . فالنقد « اكتشاف » (٤٧) للموهبة وكشف عن ماهيتها . من هنا فان روح الخلق الادبي وروح النقد الادبي من نوع واحد « وفي اعتقادي ان الروح التي تتمكن من اللحاق بروح كبيرة

(٤٢) المرجع نفسه ص ١٧٨ .

(٤٣) Villemain (1870—1870) = Discours sur les avantages et les inconvenients de la critique.

(٤٤) يرى فردينان بروتيير (١٨٤٩ - ١٩٠٦) في مقالته من النقد في « دائرة المعارف » ان غرض النقد : التمهيص والتصنيف والحكم . ويفهم الشرح والتمهيص على انه تحديد علاقات الاثر بالتاريخ العام للادب ، وبالمبادئ الخاصة لنوعه الفني ، وبالمكان الذي طلع فيه ، واخيرا بصاحبه ، ويكون شرح الاثر يعني تحديد موقعه من الحركة الادبية وتطورها وليست دراسة الظروف الجغرافية والاجتماعية غير معين لان المهم هو تحديد موقع الاثر في « الزمن الادبي » . والتصنيف والحكم هما عمل موضوعي غير شخصي اذا تطلبنا اعتبار « الروح الادبي » من جهة ودور وظيفة النقد من جهة اخرى .

(٤٥) الفريال ص ١٨ .

(٤٦) سبعون (الرحلة الثالثة) ص ٢١٠ .

(٤٧) الفريال ص ١٩ .

ان الناقد هو محور العمل النقدي ، دائما ، كما الأديب محور الأدب (٥١) ، فلا قيمة لشيء الا بالنسبة للانسان ، بالنسبة لرؤيته ومقاييسه الخاصة به التي هي « بنات ساعات جهاده الروحي ورصيد حساباته الدائمة مع نفسه تجاه الحياة ومعانيها . وهي اذا تسامت ثم دعمت من الناقد بالاخلاص والحماسة والفيرة ومقدرة البيان سطت بقوة خفية على جماهير قرائه فأعطتهم وجهة جديدة وإيمانا جديدا (٥٢) وهكذا فحركة تكاملية يصبح الناقد ، بدوره ، كاتباً لا ادعاء بذلك المرتقى ، بل رغبة في أن يكون كذلك ، اذ الكاتب لا يمكن ان يحدد بمقاييس الدور او القيمة ولكن بالنسبة « لضمير » الأدب وحده . فعلاقة الناقد بالآثر الأدبي هي علاقة الشكل بمعناه ، والناقد لا يمكن ان يزعم ترجمة الآثر الأدبي وتفسيره وتوضيحه اذ ليس أكثر وضوحا من الآثر الأدبي نفسه ، ومن ثم ما قيمة نص أدبي بحاجة الى شرح وتفسير ؟ . منا يمكنه هو ان يلتمس اتجاهها يشقه من شكل هو الآثر نفسه . وبالتالي فالناقد يثير امام النص الاسباب نفسها التي يثيرها الأديب امام العالم وأشيائه.

غير أن هذا المنطلق التأثري العامل بمنطق الذوق واحكامه انما هو امتداد طبيعي للقلق المتوئب عنده باستمرار ، فنقل افكاره عن الحق والخير والجمال من الموضوع الى الذات والنكران لهذه المجردات وجودا مطلقا او ملتصقا بجوهر الأشياء والافعال ، مؤكدا ان وجود هذا المثلث (من كيان الحياة) هو في ذهن الانسان وحده (لا في خارجه) مصدر

في كل نزعاتها وتجوالها فتسلك مسالكها وتستوحى موحياتها وتصعد وتهبط صعودها وهبوطها هي روح كبيرة مثلها (٤٨) . وهكذا فالتفريق الاصيل بين الناقلين والمبدعين في الأدب لا يملك اي معنى او قيمة ، او هو لا يمكن ان يكون الا مع الناقد من الدرجة الثانية . وليست هذه الفكرة جديدة في تاريخ النقد ، بل لها أسياها وخاصة في النقد الفرنسي انطلاقا من سانت بوف (١٨٠٤ - ١٨٦٩) وارتقاء بمارسيل بروس (١٨٧١ - ١٩٤٥) وانغريه سوياريس (١٨٦٨ - ١٩٣٩) و (اميل شارتييه) الآن (١٨٦٨ - ١٩٥١) فلا يعود النقد حكما ، بل هو فهم الآثر واعادة خلقه ، اي ان الناقد قادر على اثاره العواطف والمشاعر المختلفة وان يعيش من جديد التجارب نفسها . يقول دويو : ان طريق النقد المثالي هي طريق الابداع ولكن بأن يسلكها الناقد باتجاه معاكس . فهو يبدأ من حيث ينتهي المؤلف لينتهي من جديد حيث بدأ المؤلف ايضا . . . ذلك انه من النادر ان تبدو لى حقيقة متميزة عن صانحها . . . ان كل شيء يبدو لى حقيقيا بالنسبة للقوة التي ابدعته ، فعلاقة التعبير الفكرى والاصالة التي تختفي وراءه تبدو في عيني علاقة مشابهة ومماثلة (٤٩) وهكذا يكون الناقد ايضا مولدا « لانه في ما ينقد ليس في الواقع الا كاشفا نفسه ، فهو اذا استحسن امرا لا يستحسنه لانه حسن في ذاته بل لانه ينطبق على آرائه في الحسن ، وكذلك اذا استهجن امرا فلعدم انطباق ذلك الامر على مقاييسه الفنية (٥٠) اي

(٤٨) المرجع نفسه .

(٤٩)

Du Bos, Journal (24 Novembre) 191 .

(٥٠) الغريال ص ١٩ .

(٥١) الغريال مقالة « محور الأدب » ص ٢٣ - ٢٨ .

(٥٢) الغريال ص ١٩ .

الاطلاع على النصوص ان تؤكد باستمرار ما نحب وما نكره ، لأن في ذلك ، بالنهاية ، انطواء نفسيا ووجدانيا لا يقود الى أى ارتقاء ، أو الى ادراك ما فى القيم من تنوع لا ينفد . وعندنا ، ان نعيمة حينما دعا الى اقامة الحد الفاصل ما بين شخصية الكاتب وما يكتبه لكى يسهل فهم الغربة الادبية والقصد منها (كما سنرى فى المقاييس النقدية عند نعيمة) انما كان يتحول الى اقامة علاقة شخصية أخرى ولكن ما بين الناقد والنص الادبي ، هذه المرة ، وبالتالي ، فالنقد كالفلسفة والتاريخ ، نوع من القصة فى متناول نخبة تلاحظ وتهتم ، وكل قصة نمط من السيرة الذاتية ، والناقد الحاذق هو الذى يكشف نفسه عبر روائع الاثر ، فاذا كان الشاعر يتلمس المجال الذى تفتح فيه موهبته وتحيا فان الناقد يتلمس غريزته وما تنص عليه موهبته (٥٣) فيبعد النقد عن ان يكون علما بالمعنى الدقيق والشامل ، بل هو تفتق فني . من هنا يتبدى من جانب ، نوع العلاقة بين الناقد والكاتب ، انه من ثم مرشد « لانه كثيرا ما يرد كاتباً مغرورا الى صوابه ، أو يهدى شاعرا ضالا الى سبيله (٥٤) ولكن ليس كل ناقد كذلك (مر معنا آنفا ان لافضل للناقد على الكاتب) . غير ان خاصة الارشاد هنا تأتى نتيجة حتمية وطبيعية لخاصتى الابداع والتوليد فى الناقد . ولكن كيف تتم هذه الوظيفة وما مداها فى التجربة النقدية ؟

الناقد مرشد :

كثيرا منا يكون الأدب ، غير موفق فى اختيار مجال نشاطه ، أى يكون ضالا سبيله . (هنا تعارض مع موقف آخر أصيل ودائم عند نعيمة يقول بان الادب ولادة فطرية فى نفس صاحبه ،

الاحكام على الاشياء والافعال . وهكذا ففي مثل هذا الجو من الذاتية لم يعد للناقد مجال الكلام على مقاييس واضحة للادب فلم يبق امامه الا الشعور يعتمد فى احكامه . فنقد الادب كثيرا ما يكون ، عنده ، عملا شخصيا كالتأليف الأدبي سواء بسواء . غير ان شعور الناقد او القارئ (رضاه او نفوره) عما يقرأ ، ناشيء فى الحقيقة ، من انه وجد ما يحبه وما يعيل اليه او ما يبغضه وينكره . وهذا شيء من خواص نفسه وميوله الذاتية . أى كأنه وجد نفسه فيما يقرأ لا نفس الكاتب ، واعجب بميوله الكاتب وآرائه ، وهكذا ترتفع قيمة الأديب او تتلاشى بمقدار ما يعبر عما يدور فى خلد الناقد (او القارئ) **فنعيمة يقيم شأنا عظيما للانطباعات الشخصية** . الا ان النقد لا يحتاج الى مثل هذه التعبيرات عن هذه الانطباعات وتعليلها ، لأنها ليست فى حقيقة امرها ، الا انعكاسا مباشرا بشكل او بآخر ، لاهوائنا فيقع الناقد فى خطأ مبين ، اذ لا يعود يرى الاشياء بقدر ما يرى نفسه . ذلك ان تحكيم مستوى ذوقى معين - مهما بلغ نضج هذا المستوى - انما يصدر عن موقف سيئ : فهو يسلب الآخرين حريتهم (الأديب والقارئ) ، بل لشدة التصاقه بالنص الأدبي لا يمكنه ان يراه بوضوح . أوليس البعد عن الاثر الأدبي بعدا معقولا ومقبولا يسمح من تقديره قدرا أوفى ؟ بل ان هذا التحكم الدوقى هو شكل من اشكال الانصراف عن حقيقة التفهم لانه لون من الانانية والاسراف فى تأكيد اهتمامات معينة لا تبقى الحياة أسيرتها ، بل تتسع لها ولغيرها . فكان على نعيمة ، بدل ان يعكف على ترديد صوت نفسه وقيمها دون ملل ، ان يتوجه الى ارساء أصول الفهم ودراسة مفاعلاته ، اذ ليس الغرض من

فنية وفكرية ، جديدة ، هي امتداد لقيمه او مغايرة لها . فمن التماس معها والاحتكاك بهذا الكشف تتولد امكانات جديدة باستمرار .

وعلى جميع ماتقدم من خصائص الناقد ، نستنتج ان للناقد ، عند نعيمة ، شأنا في ذاته، ينبع من شأن موافقة نفسها وليس من قوة أخرى . فهو يد اب في تأكيد ما يذهب اليه لا بواسطة قواعد او اصول او موارد خارجة عنه ، لان ما ذهب اليه ايضا ليس من منطلق خارج عنه ، بل سبيل تدعيم موافقة واثباتها يعود الى نفسه والى قوته بالذات « ولا قوة تدعمها (المقاييس والموازين التى تكون لكل ناقد) وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة للناقد نفسه . وقيمة الناقد هي ما يبطن به سطره ، من الاخلاص فى النية والمحبة لمهنته ، والفيرة على موضوعه ، ودقة الذوق ، ورقة الشعور وتيقظ الفكر ، وما أوتي به بعد ذلك من مقدرة البيان لتنفيذ ما يقوله الى عقل القارئ وقلبه (٥٧) موقف يذكر بما يراه أنا تول فرانسى فى « أن النقد لا يقدر الا تبعا لشخصية صاحبه ، والاكثر ذاتية منه هو الاكثر فائدة وأهمية (٥٨) .

بواعث النقد

البواعث التى تعطى النقد مركز التقدير هي نفسها البواعث التى تعطى العمل الأدبى وجوده وكيانه :

١ - اخلاص فى النية ، اى اصالة متمكنة لاتحيد عن الحق والحقيقة رافضة ان تقيم اى

واذا لا يصدر عن الفطرة والعفوية الا مايمسها وما يخصها ، فاية فطرة هذه صادقة تنتج فى مجال ما فاذا نتاجها فى مجال آخر . . . هذا الكلام لا يصدر عن موقف سليم وصادق فى مفهوم الادب وابداعه : فاما ان يكون الاديب لهذا المجال من نفسه وبها ، او لا يكون اديبا . الم يقل « من كان معدا للادب كان فى غنى عن يدله على طريقه ، ففي داخله ومن خارجه حوافز لا تتركه يستريح حتى يتم التزاوج ما بين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والمداد والقرطاس (٥٥) . فيأتى الناقد ليهدى هذا الاديب الى فرعه ويدله بالتالى الى المجال الذى يصلح فيه » . رعدنا ، ان قيمة هذا الامر ضئيلة من حيث المتوخى من هذا الاديب بالذات . اما ان يكون الناقد مرشدا من حيث انه يكشف عن مواهب الكاتب الثمينة ووداعة النفيسة التى ضلها القراء فاذا بسخرهم من الاديب ينقلب تهليلا وتكريما له ، فهو امر واقع بل هو جانب من أهم جوانب المهمة النقدية . فمثل هذا الكاتب والشاعر هما هدية الناقد الى الامة والبشرية (٥٦) واذا هو مرشدا للقراء (ليس الناقد غير رجل يعرف كيف يقرأ ويعلم الآخرين كيف يجيدون القراءة (سانت بوف) . وما يريد أن يعلمه للآخرين هو الحس الجيد والقياس الصحيح دونما فرض لاية قواعد حاجزة او احكام مسبقة . وهو مرشد للمؤلفين ، ولكن لا من حيث هديهم الى النوع الفنى الملائم والمناسب للمكاثم الابداعية (الملكة وحدها تقرر نوعها الفنى » لان النوع الفنى عندنا هو شكل هذه الملكة اى لا يمكن ان توجد وتظهر الا به) بل من حيث الكشف ، على طريق الفنان ، عن قيم

(٥٥) فى مهب الريح ص ١٧٢ .

(٥٦) الغريال ص ٢٠ .

(٥٧) الغريال ص ١٦ .

(٥٨)

الناقد يتنوق ليخلق

غير أن القول بهذه البواض والعناصر ، لايعنى ، فى نهاية الأمر ، بأن يكون الناقد هو الأديب . أو انه لايجوز ولا صلاحية لناقد فن من الفنون الأدبية الا اذا كان هو نفسه من ابناء ذلك الفن . وهذا مذهب قيل باخلاص وصدق عند العرب ، اذ المشكلة قائمة قديما فى النقد العربى ، وذهب النقاد العرب فيها لمذاهب شتى ، ولعل ابن رشيق يلخص طابع مذهبهم ذاك حين يقول بأن « أهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما اشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات ، وكيف وان قاربوهم أو كانوا منهم بسبب ! (وقد كان أبو عمرو بن العلاء واصحابه لايجرون مع خلف الاحمر فى حلبة هذه الصناعة ، اعنى النقد ، ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها وحذقه بها واجارته لها) . (١١) »

اى ان الناقد الشاعر أبصر عنده من الناقد غير الشاعر . ولكنه يقبل أيضا وبجماس بأنه ليس من الضروري على ناقد فن ما بأن يكون هو أولا من ابناء ذلك الفن المنتجين له « وقد يميز الشعر من لايقوله كالجزاز يميز من الثياب مالم ينسجه ، والصيرفي يخبر من الدنانير مالم يسكبه ولا ضربه ، حتى انه ليعرف مقدار مافيه من الفس وغيره فينتقص قيمته ... (١٢) وهو عين ما يذهب اليه نعيمة حين يرد على ذلك الادعاء بقوله مستشهدا بجواب أحدهم وقد سمع هذا الاعتراض عينه « أعلني أن أبيض البيضة اذا لأعرف ما اذا كانت صالحة أو فاسدة ؟ » (١٣) ولعل ذلك

شأن لما هو خارج عن عملية النقد (كالعلاقات الشخصية بين الناقد والمنقود فينحاز النقد الى التهليل أو الى التحقير تبعاً لنوع العلاقة على غرار ما رأينا فى الفصل الاول من هذه الدراسة) .

ب - يستتبع هذا جبه لمهنته وغيرته على موضوعه ، فحيث لاحب لا حق ولا جمال ولا عطاء . فسمه النقد السلبى ، افتقاده لعنصر الحب هذا (٥٩) اذ يورث فيه التزام عمله النقدي الصافي فيكون همه ، وبالتالي لايقبل فيه الزيف ، لانه يصدر عن دقة فى الذوق ورقة فى الشعور وتيقظ فى الفكر . فيتأتى لنا انه يريد أن يجعل من النقد عملاً صعباً ، يعلم الجمهور ظواهر الأثر الأدبي الجميلة والمختلفة وان يصل عبرها بين مختلف العبقريات (سانت بوف) . وهو اذ يقيم لهذه الأمور الوزن الأكبر فلا يغفل الحديث على ملكة التعبير عند الناقد وطريقتها وقوتها ، لانها متممة للعناصر الأولى ، وهو اذ يضعها فى درجة ثانية لا لشيء الا ردة فعل لما ذهب النقاد قبله من اعتبار النقد سبيل رياضة لغوية قبل كل شيء . فما اشبه الحالة التى يصدر عنها هتا بحالة فلوير حين كتب (١٨٦٩) الى جورج سانند عن موضوع الناقدين فقال « كان الناقدون فى زمن لاهارب نحويين ، وفى أيام سانت بوف وتين مؤرخين فمتى يصبحون فنانيين حقاً وصدقاً (٦٠) . فعند نعيمة اعتبار كبير لطريقة العرض النقدي ، اذ انه يؤمن بان كثيراً من الناس يملكون الحقيقة ولكنهم سرعان مايفقدونها من طريقة عرضهم لها .

Ernest Hello, L'Homme (la vie, la science, l'art) 1872.

(٥٩)

(٦٠) ستانلى هايمن ج ١ ص ٢٧ .

(٦١) ابن رشيق ، العمدة ج ١ ص ٧٥ .

(٦٢) المرجع نفسه .

(٦٣) الفريال ص ٢٠ - ٢١ .

(النفسى) وهو فى كل هذا انما يصدر عن موقف أدبى واحد اذ يعتبر الانسان محور المنتج الأدبى ، وان سلطان الادب فى انه أبداً يجول فى اقطار النفس باحثاً عن مسالكها مستطلعا آثارها بصرف النظر عن شكله ، فليس هو معرضاً للآراء اللغوية والبهرجة العروضية (٦٥) فاذا معه يتحول النقد الى وسيلة للتحليل النفسى بديل الاقتصار على الكشف عن الاخطاء اللغوية او تبيان المعايير والمساوىء كما تحول فن النقد مع سانت بوف « من فن مساعد للتاريخ الى آلة حقيقية للتحليل والتفتيش واكتشاف أسرار النفوس » (٦٦) فدراسة الآنا التلقائية ، اى الشخصية الطبيعية والخام ، هى احدى وظائف الناقد الهامة . بل وظيفته الأولى على الإطلاق عند نعيمة . فالسر الحقيقى عند مؤلف لا يمكن أن يكون الا فى نفسه ، لذا كان من الأحرى على الناقد امام كل نص أو اى نص ، ان يسأل نفسه : الى اى مدى وبأى مقياس استطاع المؤلف ان يكشف عن نفسه الحميمة فيكشف ، فى آن ، عن حقيقة الكون ومجراه (٦٧) ؟ ان ناقداً كمثله هذا الناقد يمتاز بخصائص وصفات طبيعية فيه من نفسية متأصلة « الاخلاص ، الطهارة ، الجرأة ، الدوق ، الشعور ... » وفكرية متيقظة و طاقة تعبيرية نافذة يكون رائداً لا يعدم اناساً ينضوون تحت لوائه ويعملون بمشئته ، فيستحبون ما يحب ويستقبحون ما يستقبح ، فيصبح وهو وراء منضدته ، سلطاناً تامر بأمره وتتمذهب بمذهبه وتحلى بحلاه وتتذوق بدوقه ألوف من الناس . اذا طرق سبيلاً سلوكه ، واذا صب نغمته على صنم حطموه ،

يعود الى بعض المفارقات البديهية مابين النقد والادب ، فالادب يعتمد ملكة الخلق بينما النقد يعتمد ملكة التمييز . اى ان الاديب يخلق الاشياء ليتذوقها ، اما الناقد فيتذوق ليجلج . فهما شريكان ، لا فى نمط التأليف ، بل فى القدرة على الشعور بالحالة نفسها وبالتجربة ذاتها اللتين صدر عنهما العمل الأدبى « غير ان من الناس من لا يدركون ان من لا ينظم القصيدة قد يقرأ فيها أكثر مما أودعها ناظمها . فرب ناقد لم ينظم فى حياته بيتاً ولا عرف مافى النظم من مشقة الأوزان والقوافى ولا من لذة الفوز بها ، غير ان ذلك لا يعوقه عن ادراك مافى الافصاح من عوامل النفس من لذة روحانية ، ولا يعميه عن تموجات الالوان فى الرسوم الكلامية ولا يصمه عن رنة الالحان فى مقاطع الألفاظ والعبارات . والا لا يكون ناقداً . واذا تيسر له ذلك ففي امكانه الدخول الى مستودع روح الشاعر وتفقد مخبأته الى أن تتولد فيه حالة نفسية كالتى تمخضت فى الشاعر بتلك القصيدة . فيصبح الناقد كأنه الشاعر وكأن القصيدة من وضعه . واذا ذاك لاحاجة به ان يكون عالماً بكل دقائق العروض ليفهم الشاعر ويقدر نتائج قريحته (٦٨) فيكون دون الشاعر ان ينقل الحالة كما هى لياتى الناقد ويعيش هذه الحالة نفسها ، يعيد خلقها من جديد ليحلل خباياها وكنوزها . وان يعيق الناقد شكل النتاج الأدبى اذ همه مناجمل هذا النتاج من عوامل النفس ، فهو لا ينظر الى كيف قال الشاعر بقدر ما ينظر الى نوع ما قاله ، فغرضه تحليل الحالات النفسية للفرد وللوسط اللذين اطلعاه ، اى ان الناقد يتجه فى بحثه اتجاهاً يعتبر النص كصورة صاحبه المنتج له (التحليل

(٦٤) (الغريال ص ١٧ - ٢١ .

(٦٥) (الغريال ص ٢٧ .

(٦٦) (راجع قسطنطى الحمصى ، منهل الوارد فى علم الانتقاد ، ج ١ ص ٩٠ .

(٦٧) (هنا ما يقول به P. Valéry P. 135-145. M. Bémol, la méthode critique de P. Valéry

تسليطها على النقد الأدبي ، أى لن يبقى للناقد الا وقت قليل للتعرف على الأدب نفسه . وإذا دعا للتعرف على مآثر الآخرين ونادى بالترجمة » فلنترجم ولنجل مقام المترجم لأنه واسطة تعارف بيننا وبين العائلة البشرية العظمى ، ولأنه بكشفه لنا أسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسترنا عنا غوامض اللغة يرفعنا من محيط صغير محدود ... الى محيط نرى فيه العالم الأوسع فنعيش بأفكار هذا العالم وآماله وأفراحه وأحزانه . فلنترجم (٦٩) فدعوته هذه لا تحدد - وعلى سبيل المثال - (تفكير نعيمة يكره التحديد فهو يتجه دائما اتجاهات عامة) حاجة الناقد الى علوم كعلم النفس والفلسفة والتاريخ ، وأية ضرورة تقتضيه على ذلك ، وليس مرد النقد قبل وبعد كل شيء الى اللوق والبصيرة ؟ وليس الناقد أيضا كالشاعر يولد ولا يصنع ؟ ولكن هل يصيب الذوق وحده في كل مرة ؟ فلطالما أحسن نعيمة بهذا الهاجس الذى كان يقلقه ، باستمرار ، فتراه في كل مرة يسارع الى الطرف الآخر من الجدر والاحتمال ولا يجزم في الموقف الواحد جزما قاطعا فيستدرك « غير ان الناقد ين طبقات . كما ان الشعراء والكتاب طبقات . فما يصح ان يقال في الواحد منهم لا يصح ان يقال في كلهم (٧٠) . وهكذا فان نعيمة هنا ينزع الى تقسيم (٧١) النقد والشعراء الى طبقات منزع النقد القدامى أنفسهم في تصور الشعراء على أنهم طبقات (ابن قتيبة : الشعر والشعراء) فيهتمون بالمفاضلة اهتماما ينافس التحليل والكشف . غير انه لا يبين لنا أيضا

وأذا أقام لهم الها عبوده وبخروا له وسبحوه (٦٨) لأنه انما يصدر في ذلك لا عن فردية خاصة به (وهنا يكون الاختلاف والتفاوت بين الناس) وانما يصدر - في تلك الخصائص المذكورة - عن الطابع العام والمناخ الطبيعي الذى يحدده اطار عوامل كثيرة : الزمان ، المكان ، ومستوى الشعب الثقافي والفكري العام فيهما . فالناقد خير من يتمثلها جميعا ويصهرها في بوتقة واحدة ، فهو في عمله انما يعبر عن الراى العام لمحيطه فاذا قال به لا يكون غريبا . فالناقد يعبر بالفعل عما في نفوس قرائه من استعداد فطرى للتذوق بالقوة . وهكذا لا يكون الناقد مقتلعا من الارض التى أطلعت به بل هو واحد من وسط ، يختلف عنهم درجة لا نوعا ، فلهذه قسط من الحساسية الحية أكثر من سائر الناس ، ومعرفة أشمل بطبيعة الخلق الأدبي ، وروح أوسع احاطة بالنفاذ الى حقائق الاشياء . وهو في كل هذا انما يصدر عن حقيقة لا ترد ، وهى ان شيئا لا يمكن ان يكون من لا شيء .

النقاد طبقات

الا أن نعيمة لا يشير الى نوع الثقافة التى يجب على الناقد اكتسابها والى نمط المعرفة التى عليه العمل بنورها . فاذا كان ازدهار النقد يفترض ثقافة واسعة أكثر مما تتطلبه الأشكال الأدبية الأخرى ، فان نعيمة ، على ما يبدو ، لا يقول بالناقد المتخصص والمطبق لقوانين ونظريات العلوم الأخرى . فالعلوم تنمو نموا كبيرا مع الأيام ، حتى أن دراسة فرع واحد منها تستنزف العمر كله اذا أريد

(٦٨) الغريال ص ١٦ .

(٦٩) الغريال ص ١٢٦ .

(٧٠) الغريال ص ١٧ .

(٧١) طالما ترددت هذه النزعة الى التقسيم عنده ، فهي تصدر عن ايمان بان « الناس من حيث قواهم الجسدية والعقلية والروحية ليسوا سواسية » راجع نعيمة : رسالة رضوان الشهبان .

الأزمة والأمكنة . فالحياة عنده خبرة شعورية وفكرية . ثم ليس من يقين مطلق في الحياة ، فما هو خطأ الآن قد يبدو صحيحا في لحظة أخرى وتحت عوامل وظروف أخرى ، وما يبدو جميلا في حالة قد يفقد شيئا من جماله في حالة أخرى . من هنا كانت تخف وطاة زلة النقاد وينعدم خطرهما الفادح . « فلنحاسب الناقلين بنياتهم أولا ، فان اخلصوا النية فزلاتهم مغفورة لهم (٧٢) فالهم ان تكون النية سليمة » أى طبيعة نفس الناقد وأصالته ، خالية ، من أية شائبة ، عندها لا قيمة لخطاه ، لأن جوهره الانساني صاف فيستطيع ان يعوض تلك الهفوة ، خاصة اذا كانت مقياسه محكمة متناسقة وأجاد استعمالها فذاك حد ما يحق لنا مطالبة به (٧٤) - ليس لنا ان نسأل الناقد لماذا يقف هذا الموقف من هذه المسألة . له ان يذهب في ذلك مع ما ترتضيه نفسه . انه حر . المهم ان ينبثق عن نفسه ، كالأديب . واذا لا يمكن درسه على أساس ما قال ، بل على أساس ما يرتبط بالنفس وما يكشف عنها في عرض مترابط منظم منسق الأجزاء والكليات . وعندنا أن الأمر ينطلق من موقف واحد من الأدب والفن عند نعيمة ، اذ لا يعتبر الأديب أو الناقد من غير طينة البشر (وهنا رد عنيف وقاس على اصحاب النظرة المميزة للأديب عن سائر الناس والقائلة بتفوقه النوعي على البشر) بل هو يتهم من الأديب الذى خال انه جليل من غير جليل الناس ، فراح يلبس غير ما يلبسون ، ومن ذلك قوله بلسان ميشلين موجه كلامه اللاذع لجبران ذلك العهد « انت خلقت للشعر والفن وأنت تعتقد أن الشعر والفن رزق من السماء . وانا - كما قلت لى مرة - من التراب والتراب . وقد كنت اظن في بساطة قلبي ان التراب الذى

على أى اساس يجرى هذا التقسيم الطبقي ؟ وانما كل ما نعرفه ان الناقد كلما ملك من قوة التمييز الفطرية كان ناقدا اكبر . وبمقدار ما يسبر غور الأديب ويعرف كنهه ويحاول المبدعين الكبار بمقدار ما يكون ناقدا : « فظاهرة النقاد الكبار الامعجاب بالشعراء » (هوغو) .

الناقد بنياته :

وكان طبيعيا ان يصل به هذا الحذر الى النهاية الحتمية فيستنتج بأن « ... الناقد لا ينجو من زلة أو هفوة . فقد يرى القبيح جميلا ، أو يحسب الصحيح فاسدا وما ذاك الا لأنه بشر والعصمة ليست لبنى البشر (٧٢) . وليس في هذا القول ثمة تعارض مع ما قدمه من أن « الناقد مرشد » او انه حاجة ضرورية في المجتمع لانتشال الناس من الخرافات والترهات . وربما يصدر هذا الراى عن ايمان عميق عنده ، بمبدأ الصدقة ، أى ان النقاد - كذلك الكتاب - نتيجة لعوامل معلومة ، يكتبون ما تمليه عليهم ملكاتهم المبدعة ، وما صدف أن حمل من طاقة الحياة وامكاناتها يستطيع البقاء ويكون سليما صائبا ، والا فلا وعلى هذا يمكن التفسير الوحيد لكثرة طلبه بان الحياة هي خير غربال وافضل ناقد . لان المسألة برمتها عند نعيمة ، انما هي مسألة نسبية ، فما هو صحيح او خطأ وما هو جميل او قبيح هو كذلك بالنسبة للحياة ، فهي القوة الخفية التى تحفظ للأشياء بقاءها أو تحرمها اياه . ويجب أن تأخذ معنى الحياة هنا لا على أنها مجرى العيش اليومي - وهو جزء منها - بل هى الحاجات والمقاييس المشتركة بين بنى البشر ، والتى تخاطب جوهر الانسان الحميم والذى لم يتغير عبر

(٧٢) الغربال ص ١٥ - ١٦ .

(٧٣) الغربال ص ١٦ .

(٧٤) المرجع نفسه .

وظيفة هي من أهم وظائف الحياة (٧٧) .
وهكذا يبقى الاخلاص في النية المعيار الأوفى في
الحكم على كفاءة النقاد ومقدرتهم وصلاح
مذاهبهم .

وعلى هذا يسير الناقد الأدبي موازياً
للأديب : له نظرة يتدبرها خاصة به ، تكونت
بطريقة عفوية طبيعية ، فيصبح بالتالي صاحب
دعوة أدبية جمالية من خلال نقده فيضع النص
الأدبي باعتباره مجالا متحركا . فليست
وظيفته اصدار احكام اخلاقية مقنعة خلف
مظاهر الاستحسان او الاستقباح الجمالي
فحسب ، بل هي وظيفة تشريحية أيضا تفتش
عن « نسمة الحياة » وعن « المدى » بناء على
مقاييس واضحة ، وأصول تنبع من نفس
النقاد ، لأن النقد يدور حول الفهم والتذوق
بالدرجة الأولى . غير ان هذا لا يعنى أبدا ان
الفهم شيء والتذوق شيء آخر ، أى ان الاول
يخضع للعقل والآخر ، يوضحه . ان الناقد
يقوم بمهمة النقد لأنه انسان (لا مجرد آلة)
له اهتماماته ومبادئه ومعتقداته ، ومر بتجارب
أدبية وغير أدبية ! فيهتم بتحويل تجاربه
وخواطره وانفعالاته الى مفاهيم .



المقاييس النقدية :

من الطبيعي أن مفهوم الأدب هو الذى
يحدد ، في شكل أو في آخر ، مفهوم النقد
واتجاهاتهم ، ويصدق هذا أكثر حينما يكون
الناقد نفسه أديبا ، فيصدر عن خلفية وجودية
هي روح نظراته وجوهرها على تعدد مناحيها
واشكالها ، والمقاييس النقدية هي كل مفهوم
للقد ، وكمثل الأدب ، هي محصول نوعي

ينبت القمح الغذى والزنبقة الطاهرة والوردة
الجميلة يصلح كذلك تربة للشعر والفن (٧٥) .
فهو اذا لا ينم عن منظور ارسطراطي في فهم
وظيفة الأدب والنقد ، وانما يريد ان يرى
الاشياء والجمال والقوالب ... عبر حقيقة
النفس والحياة ، لأن لا شيء فوق النفس
والحياة اللتين تعطيان الوجود قيمته (الوجود
قيمة روحية : سنفصل هذا عند الحديث عن
المقاييس النقدية) من هنا اذا لم يكن للناقد
من فضل سوى فضل رد الأمور الى مصادرها
وتسميتها باسمائها لكفاه ذاك ثوبا (٧٦) لأن
أساس العملية النقدية السعى الى اكتشاف
ومعرفة حقائق الأمور والاشياء . المهم ان يبقى
منارا ضابطا لمعالم القيم ، فالسواد الأعظم من
الناس لا يمكن ان يحافظوا أو ان يبقوا
باستمرار ، ودون « مرشدين » ، في كل مرة ،
ضمن الاطار الروحي والحي السبيل الوحيد
لادراك الموجودات وجوهرها . فليس عند
جميع الناس القدرة على النفاذ الى لب
الأمور ، بل كثيرا ما يتناولونها عرضا ، فليس
عندهم دائما همّ التحرى والسبر في الاعماق .
من هنا كان الناقد ضرورة يتعامل مع اذواقهم
وطبائعهم وملكاتهم ، يحاول ان ينظفها من
الشوائب عن طريق الهدى فهم منضوون تحت
لوائه . ولكن التعامل مع الناس صعب وشائك :
فعدا كون النقد عملية معقدة ، فان طبائع
الناس ايضا (والنقد في سبيلهم بالدرجة
الأولى ولاجلهم) مختلفة ومتعددة . من هنا
صعوبة التحدث الى جميعهم بالرضى والقبول
فيكون حظه منهم قليلا لأن النقاد « لا يرضون
فريقا من الناس الا باغضاب فريق آخر ، غير
ان القوى بينهم — والقوى من اخلاص النية —
لا يحفل بمن يرضى وبمن يفضب لأنه يخدم
غاية أكبر من رضى الناس وسخطهم ، ويتم

(٧٥) نعيمة ، كتاب « جبران خليل جبران » ص ١٢٤ .

(٧٦) القربال ص ١٨ .

(٧٧) القربال ص ٢١ .

ليس ثمة الا حالة نفسية ، الا شكل خاص من التفكير لانتاج هذا أو ذاك من الآثار ، ويجب تبعا لذلك اعتماد الحالة النفسية أيضا في تدقيقها وتقديرها حق قدرها أن كل عمل فني يمثل حالة خاصة ويجب ان يحكم عليه باعتباره حالة خاصة . ان التصنيف العلمي وأى شكل اتخذه ، لا يمكن ان يحيط بالانتاج الأدبي ، لأن الأدب ، في النهاية ، « مفارقات » والناقد يتذوق وفقا لطبيعته (أى السليقة) ويصدر احكامه نتيجة لذلك (أى للتأثير الذى أحدثه الانتاج الأدبي في نفسه) بالجودة أو الرداءة في صورة عفوية وان كان لها في واقع الأمر أساسها الجمالى الدفين في نفسه ، فيقول سانت بوف « ان النقد لا يمكن ان يصبح علما وضعيا ، وسيبقى دائما فنا دقيقا في يد من يحاولون استخدامه وان يكن قد أخذ يستفيد واستفاد بالفعل من كل ما انتهى اليه العلم أو كشف عنه التاريخ من حقائق (٨١) (سانت بوف) . فالمسألة اذا مسألة احساس فردى (ذاتى) فبقدر ما تحب الأثر وتنقل فيه يكون لحكمك قيمة (الحب هنا يكون شخصا أصيلا ونابعا من الذات نتيجة الاحتكاك المباشر بالنتاج الأدبي ، ولا يعنى ذلك الحب المتولد عند الآخرين من مجرد قولك لهم بأن هذا النتاج جيد) ومع ذلك « فالنقد مذهبيا كان أو غير ذلك ، ومهما تكن أهدافه ، لا يصل الا الى ان يحدد الأثر الذى يخلقه في نفوسنا في وقت ما هذا الكتاب أو ذاك ، وقد دون فيه

لناقد له صفات وخصائص أصيلة فيه ، ومرتبطة أيا ارتباط بطبيعة موقفه من الأشياء والوجود عامة . ولما كان النقد قراءة متعمقة للآثار لاكتشاف ما فيها من أبعاد فكرية (لا تؤخذ كلمة فكر هنا بمعناها التجريدى بل من حيث هى تصدر أو تشحن بطاقة وجدانية وشعورية نافذة) ولما كان هذا الاكتشاف مرتبطا بقدرة الناقد (٧٨) وملكاتة (بحيث انه لا يمكن تصور العملية النقدية بلا ناقد يقوم بها) كان النقد ، تبعا لذلك ، عملا فنيا فرديا ، يختلف باختلاف النقاد ومنازعهم ، ولما كانت الحقيقة نسبية (لا تظهر الحقيقة الا من خلال منظور معين ولا يمكن ان « نراها » كما هى (٧٩) أى هى لا تكون الا بنا وتبعا لمداركنا لها) كانت المقاييس التى تبني عليها نسبية أيضا وبالتأكيد .

من هنا كان النقد عند نعيمة ، فى أساسه ، عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمى تماما كإى نشاط آخر » والعمل الفنى عملية معقدة لانه عمل نفساني ، وليس حديثنا عن تكوينه ونموه فى نفس الفنان ، ثم عن ولادته ، غير ضرب من الرجم بالغيث . فكيف بتذوقه وتفهمه من قبل الذين لم يجعلوا به ولم يلدوه ؟ انه لأمر يعود فى النهاية الى فطرة المتذوق والمتفهم ، والى مزاجه وميله وثقافته ومجمل تركيبه الجسدانى والعقلانى والروحانى . لذلك لم يخضع تقدير الفن ولن يخضع لقياسات « علمية » وسيبقى عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمى (٨٠) ففى الواقع

(٧٨) يرى نعيمة دائما انه « لابد لكل مذهب جديد ، ان فى الأدب أو فى سواه ، من شخصية قوية توجه خطاه وعبقريته فذة تتمتع بموهبة نعيمة : وولت هنتمان او الشعر المنسرح : الأدب ص ١ (١٩٣٥) ع ٤ ص ٩ .

(٧٩) يرى رولان بارت ان ما يطلب الى الناقد ان يصدر عن خلفية لا ترى الحقيقة بل تحاول ان تكونها ، بحيث يحق لنا ان ندعيه لا بان يجعلنا نعتقد بما يقول ، بل يجعلنا نؤمن بما قرر قوله ، وهو يستعين فى ذلك بقول « كافكا » الشاعر ان كل العالم لا يمكنه رؤية الحقيقة بل يمكنه ان يكونها

Roland Barthes, critique et vérité, P. 75.

(٨٠) نعيمة : من رسالة الى رضوان الشهبان بمناسبة كتابه « فى الشعر والفن والجمال » ، « و أبو الطيب المتنبي » بسكنتا فى ١٠ كانون الثانى ١٩٦٢ .

(٨١) راجع محمد مندور : فى الأدب والنقد ص ٦٥ .

النقد بمقتضى المقياس الذاتى الصرف . « والحق ان لكل جيل نمطا من التذوق الفنى ، والاجيال فى ذلك كالافراد من الناس لكل طريقته ومذاقه ومطالبه وأغراضه الفنية الخاصة . والتذوق الفنى الخالص حين لا يكون مجرد حكم مصطنع انما هو فى رأى مثال أعلى ، ويجب ان يظل كذلك ما دامت عملية التذوق قضية اناس يطوون الحياة وهم مقيدون فى وجودهم بحدود الزمان والمكان (ايليوث) فتكون السمة الاولى للدراسة الادبية هى العناية بالعواطف والمشاعر ، ومعرفة ما اذا كانت متكلفة وعاجزة او صادقة ومؤثرة . ولعل مبعث هذا الاهتمام ، عند نعيمة ، بالعاطفة والتأثير انما يرجع عندنا الى ظواهر طبيعية كان لها الفعل الاكبر فى توجيهه الى ذلك نذكر منها :

١ - ردة فعل لما ورث نعيمة فى مستهل هذا القرن من شعر ردىء نوعا ومستوى .

٢ - اعتبار اللغة ، قبله ، غاية الابداع ومنتهاه وهو فى الحقيقة امتداد لوظيفة الشاعر العربى - بفعل عوامل ساعدت على انحرافه عن مبدئه الاول - فى العصور المتقدمة اذ كان النقد العربى القديم نفسه يكرس جانبا عظيما للحديث عن الشعراء الذين يسحرون الناس بالفاظهم .

المؤلف نفسه الاثر الذى تلقاه هو الآخر من العالم الخارجى فى وقت ما (جول لوميتير) ، وعلى هذا يبني نعيمة اساس عمله النقدى الذى يصدر عن نفسه وذوقه وثقافته التى تبتدع لنفسها المقاييس والموازين « فلو كان لنا « قواعد » ثابتة لتمييز الجميل من الشنيع ، والصحيح من الفاسد ، لما كان من حاجة بنا الى النقد والناقدين . بل كان من السهل على كل قارئ ان يأخذ تلك « القواعد » ويطبق عليها ما يقرؤه (٨٢) من هنا ، ومن جميع ما تقدم ، يتأتى لنا بان نعيمة ، فى مذهبه ، ناقد تأثرى يعتبر الذوق (٨٣) السبيل الوحيد للقيام بمهمة النقد والادب « والتذوق الفنى هو الذى يدل الشاعر على الكنوز الشعرية فى الموضوع الذى ينتقيه ، ثم يهديه الى الطريقة المثلى لعرض تلك الكنوز وابرار ما فيها من روعة وجمال وتناسق ومعان . فلا يكثر الطلاء حيث يكفى القليل . ولا يصرح حيث يكفى التلميح . ولا يسهب حيث الاجاز اوفى بالغرض وأوقع فى النفس . ولا يعظ حيث الوعظ بلادة . ولا يغالى حيث المغالاة تصنع وتكلف وتدجيل ، وتعفير خد وجبين ، وتسخير كرامة ووجدان ، واهانة للفن الذى يجب ان يتسامى ابدا عن التملق والذل والامتهان (٨٤) . فهو يعتقد على نحو ما يعتقد برك (٨٥) ويصر بان يكون الحكم على الشعر بحسب تأثيره (٨٦) فى العاطفة ، أى

(٨٢) الغربال ص ٦٧ .

(٨٣) بدا النقاد - فى الادب الانجليزى - يعتبرون اهمية « الذوق » ووجوب توفره فى الناقد البصير منذ اواخر القرن الثامن عشر : « والذوق هنا معناه الادراك الغريزى لخصائص العمل الفنى ، او الحدس بطبيعة النتائج وبقيته . ولاشك ان الناقد حينما يعتمد على الذوق بهذا المعنى لا يلجأ الى القواعد المثلثة ولا يكتفى بتطبيقها تطبيقا آليا . كما ان اعتبار الذوق المعيار الاخير فى تقييم الادب يعنى احلال العنصر الشخصى او الفردى ، أى شخصية القارئ محل القاعدة العامة التى كان يطبقها الناقد تطبيقا موضوعيا من قبل .

(٨٤) نعيمة : خليل مطران فاتح عهد وخاتم عهد ، الرسالة ١٩٥٧ ع ٥ ص ٢ .

(٨٥) يصر برك على ذلك فى رسالة موضوعها « بحث فلسفى عن منشأ آرائنا فى الجلال والجمال ظهرت عام ١٧٥٦ فكان اصراره هذا اول مناداة بطوق المذهب الحر فى النقد الادبى . راجع فى ذلك : لاسل أبركرمبى : قواعد النقد الادبى (ترجمة محمد عوض محمد) ص ١٧٥ .

(٨٦) يلحظ هنا ان دعوى نعيمة هذه ليست جديدة بل ظهرت تباشرها واسبابها منذ مستهل هذا القرن مع سليمان البستاني ومصطفى لطفى النفلوطى قبل هذه الرحلة .

٣ - لقد وصلت دراسات الأدب في القرون الوسطى الى جمود ، وعناية بالشكل ، واستفراق في التقسيمات والتفريعات ، مما قتل روح الجمال الأدبي وخرج تذوق النصوص من طبيعتها الفنية الى طبيعة البحث المنطقي او الرياضي ، فأصبحت همة الدارسين منصرفة الى بيان ما في النصوص من تشبيه واستعارة وإيجاز أو اطناب ، وجناس أو طباق ، وأصبح الناشئون لا يتذوقون من روائع الآثار الأدبية الا معرفة اجزاء الاستعارة أو تقرير الكناية ، أو تمييز هذه الناحية أو تلك من المحسنات البديعية (٨٧) .

غير أن هذا التجديد ، عند نعيمة وأمثاله ، في تشييد دعائم التأثرية في النقد العربي الحديث ، هو ، بشكل أو آخر ، من قبيل « الاحياء » للنزعة النقدية العربية القديمة . أى ان لهذا التجديد منطلقا في القديم . ولقد ما استفحل أمر النزعة التأثرية في النقد العربي ، قديما ، عم شيء من الفوضى النقدية حاول المرزوقي تصويرها « وزعمت » . . . فأنك مع طول مجالستك لجهاذة الشعر والعلماء بمعانيه ، والمبرزين في انتقاده ، لم تقف من جهتهم على حد يؤدبك الى المعرفة بجيده ومتوسطه ورديته . حتى تجرد الشهادة في شيء منه ، وثبت الحكم عليه أو له ، آمنا من المجاذبين والمدافعين ، بل تعتقد أن كثيرا مما يستجده زيد يجوز الا يوافقه عليه عمرو ، وأنه قد يستحسن البيت ويثنى عليه ثم يستهجن نظيره في الشبه لفظا ومعنى حتى لا

يخالفه ، فيعرض عنه اذ كان ذلك موقوفا على استحلاء المستحلي واجتواء المجتوى (٨٨) . فاذا بالحكم النقدي العنام يصبح ، في أساسه ، طبعاً واستعداداً متمكنين في النفس وقادرين على التمييز والابداع . ويؤيد هذا المنحى ويسلكه القاضي الجرجاني اذ يقول « وملاك الامر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست اعنى بهذا كل طبع ، بل المذهب الذي قد صقله الأدب ، وشحذته الروية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصوير أمثلة الحسن والقبح (٨٩) . ومع ذلك يبقى النقد مهمة لا تقتصر على تحليل استحساناتنا ، بل تندفع ايضا الى معرفة طبائع الاشياء من منظور مقبول عند الطبائع السليمة الاخرى ، على غرار ما نحا الامدى (٩٠) اذ يقسم الذوق الى ثلاثة اقسام : الطبع والحدق ثم جماع الاثنين أى الفطنة . من هنا فان « التذوق نفسه يستطيع ان يكون ذا معايير يقيس بها صحته ورسائته ، ولا بد لكى يكون مكتملا من أن يدل على فهم « دائم » لفاية هى النتيجة الضرورية ، بل هى الغمرة الصحيحة لما فيه من صحة ورسانة (بلا كمور) .

اما المعايير أو المقاييس الاخرى (والنسب) اساسها الذوق دائما (التى يعتمد عليها نعيمة في النقد فينبغي ، تسهيلات للدرس والبحث ، ان نقسمها الى قسمين : واحد يتناول فن النقد

(٨٧) محمد خلف الله : من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ص ١٢٤ .

(٨٨) المرزوقي : مقدمة شرح ديوان الحماسة (القاهرة ١٩٥١) ص ٤ .

(٨٩) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه (ط صبيح ١٩٤٨) ص ١٩ .

(٩٠) « ويبقى ما لم يمكن اخراجه الى البيان ولا اظهاره الى احتياج وهو علة ما لا يعرف الا بالدرية ودائم التجربة وطول الملائسة وبهذا يفضل اهل الحظافة بكل علم وصناعة من سواهم ، ممن نقصت قريحته وقلت دريته ، بعد ان يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطبائع وامتزاج ، والا لا يتم ذلك ، واكثر بعد ذلك الى اختياره وما تقضى عليه فطنته وتمييزه فينبغي ان تتم النظر فيما يرد عليك ولن ينتفع بالنظر الا من يحسن ان يتأمل ، ومن اذا تأمل علم ومن اذا علم انصف » راجع الامدى : الموازنة (ط المعارف الاولى ج ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤) .

اللاحياسية ... ويقول ريتشاردز « علينا ان نتجنب الحكم على العازفين على البيانو بشعرهم » (٩٢) فقول نعيمة اذاً على ايجازه على جانب كبير من الأهمية للوصول الى الحكم الصحيح ، ولابداء الراى بحرية وشجاعة ، وللسمو بالنقد الى المرتبة الخليقة به . واذاً على الناقد ان يفتش عن الفكرة التى تسكن المؤلف فجعلته « اداتها » فيكون النقد تحليلاً وخلقاً أكثر منه صوغ احكام واطلاقها « فكما يخلق الكاتب نفسه فى ما يكتب يخلق الناقد نفسه فيما ينقد . وما الأثر الذى ينقده غير الحافز والمشحذ . اما النور الذى يلقه على ذلك الأثر فنوره (٩٤) اذ الناقد الجيد من يروى مغامرات نفسه وروحه غير الأثر المنقود (اناتول فرانس) . من هنا كان الأثر الخالد هو ما فيه بعض من الروح الخالدة (٩٥) . والروح الخالدة هى ، فى نظره ، قوة الفن الذى مهما تسامى فى نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الأهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشيط بهم من علاقات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التى لاتحد من الانسان فى الله ، الى الله فى الانسان (٩٦) انه ، فى النهاية ، وبكلمة واحدة « هو الحياة والحياة هو (٩٧) لذا كان على الناقد ان يفهم الجمال ، والألوان المبهجة لاتصنع الضعف فلا الكلام الجميل يرفع الشناعة الى مستوى الجمال ، والألوان المبهجة لا تصنع الضعف قوة ، وقولك ان الحب هو الله لا يجعل الشهوة

بعمامة ، وواحد يتناول العمل النقدي بذاته ويستخرج من خلال النقد التطبيقي عنده ، على ان كلا القسمين واحد فى روحه وشكله ، ويؤلف فى النهاية أصول مذهبه فى النقد .

انه يرى أولاً ان لكل ناقد موازينه ومقاييسه الخاصة به (٩١) . وهذا ينطلق من اعتباره النقد ذاتياً لا موضوعياً . وقوله بقوة التمييز الفطرية قبل الموازين فصحيح ، لأن فقدانها لا تعوضه المقاييس والقواعد (وهو هنا يتفق مع ايليوت فيما ذكرناه آنفاً فى ان كل جيل يختلف عن الجيل الآخر فى فهم الأدب ، ولذلك يأتى بمعايير خاصة ، والدوق الفنى المطلق مثل أعلى ...) . ويدعو ثانياً الى التمييز باصرار ما بين شخصية المنقود وآثاره الكتابية والا « فلا يكون الناقد من حاملى الغربال أو الدائنين بدينه » (٩٢) ولشد ما يشبه هنا André Suarès فى اعتباره ان اهتمام الناقد يتعلق بالنتاج الأدبى وليس باعتبارات شخصية تخص صاحبه . وعيبه ان يجعل من المؤلف هدفاً له عبر النتاج نفسه ، عندما ينال من صاحبه سواء بالهزء به أو يشتمه . ولقد اسهب فى شرح هذا المبدأ الناقد المعاصر Richards لأهميته ، ولكن نعيمة المبح إلىه بايجاز ، ورأى ريتشاردز ان على الناقد ان ينحو جميع العوامل التى تفسد عليه حكمه كالاختلاف فى المذهب والاتفاق فيه أو وجود استجابات جاهزة فيكون الانفعال من مخزون القارئ لا من القصيدة نفسها أو دقة الحس أو

(٩١) الغريال ص ١٦ .

(٩٢) الغريال ص ١٣ .

(٩٣) راجع اسحق موسى الحسيني : النقد الادبي المعاصر فى الربع الاول من القرن العشرين ص ٩٨ .

(٩٤) نعيمة : النقد والكلمة : الآداب ص ٩ (١٩٦١) ع ١ ص ٤ .

(٩٥) الغريال ص ٢٦ .

(٩٦) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٧ .

(٩٧) الرجوع لنفسه ص ١١٧ .

فالحياة والفن والانسان ثلاثة اشكال لوجود واحد : النفس الكلية او الروح الخالدة كما سماها آتفا . فاذا توقف النقد عند اديب ما او عند اى اثر ما ، فلا يعنى ذلك اعاده تأليفه في قيمة ما بقدر مايرمى الى اعطائه المحل المناسب له بين الموجودات .

الفردية والحرية :

سمة النقد النعيمي ، الفردية والحرية . وهما مفتاح جميع عمله النقدي وظاهرته الاصيلية (لقد تأثر المهجريون بالأدب الغربى ولا سيما بالأدب الرومنتيكي الذى يعزز النزعة الفردية والتعبير عن الذات وخلجات النفس فى بأسها ورجائها وحزنها وفرحها وصحتها ومرضاها وفقرها وغناها وآمالها وآلامها : فنزعوا الى الشعور الوجدانى الداتى وكرهوا الأدب التقليدى الذى لا يصدر عن شعور واحساس) . وهذه هى الخلفية الفكرية التى يصدر عنها نظامه النقدي . وهى نفسها التى يصدر عنها نظامه الادبى . من هنا ترابط نظراته ، احيانا ، الى حد ما ، بحيث لم تعد للمات او مجرد آراء مفككة بل يبقى النقد عند نعيمة (اى المقاييس) خواطر انما تصدر عن منظور واحد لا يتغير (اولم يقل بعد نحو من اربعين عاما من صدور الغربال » فى الكتاب نظريات وآراء وتوجيهات لو سئلت فيها اليوم لتبينتها دونما تردد » (١٠٠) .

ولنا ان نستنتج بسرعة ان نعيمة ، على مايلدو ، يريد ان يجعلنا نرى العمل الادبى بعينه لابعيونا وان نفهم منه مايفهمه هو نحكم عليه بحكمه . وفى هذا امكان ان يكون النقد اذا عقبه بيننا وبين العمل الادبى بديل ان يقربه البنا .

الجسدية الها ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة (٩٨) فليس هم نعيمة فى النقد ابراز قيمة الآثار الضئيلة ، بل رد الموضوع المنقود الى حقائقه العقلية والاخلاقية والعاطفية فيتعرف الى هذه الحقائق كمجموعات متصلة محاولا ابرازها بايضاح الانطباعات دون تنسيق او مبالغة . على اننا نفهم بالانطباعات هنا لا كونها ردة فعل امام الآثار الأدبية وحسب ،

بل هى تمتد الى الحالات النفسية ذاتها التى تتأنى أمام الطبيعة والاشياء . واذا ليس النقد مجرد قراءة او تطبيق قواعد . انه قبل كل شيء « تجربة » تلتزم الكيان الحي ، بأسره فى ظواهره الفردية وظواهره الجمالية على حد سواء . فعنده بقدر مايكون الاثر الادبي كبيرا يكون شخصا (هاجس الناقد التأثرى أن لا يكون له هدف غير التحدث عن نفسه) لان فى امكان الذاتية الفنية والنافذة وحدها ان تستنبش من ضمير الجماعة رؤيتها الى العالم وموقفها منه ، فالحقائق لا يمكن ان تكون الا فردية ، اى لا يمكن اكتشاف ابعاد الكون الا بالسير فى أعماق الشيء والنفس (فى كل شيء ينطوى العالم الاكبر) . ومن هذا المنطلق الصوفي كان منطلقه النقدي ، اذ الفن عنده - كما مر معنا - لا يعلمنا ان نرى فقط بل ان نكون ايضا . انه يؤمن بان التواصل الحقيقي الوحيد ، والممكن ، مع الآخرين ، هو بالخلق (الابداع) الصادر عن جميع الانسان : فكره وقلبه وجسده . وهكذا فنعيمة لا يكتب ليشتهر بل ليحدد علاقته الخاصة مع العالم . من هنا لا تكون الثورة الادبية فى أسلوب التعبير بل فى الانسان مصدر كل تعبير . والبحث عن النفس الانسانية (اننا فى كل مانفعل وكل مانقول وكل مانكتب انما نفتش عن انفسنا (٩٩) والعالم هو جوهر نظامه الفكرى والادبى :

(٩٨) المرجع نفسه ص ١٢٥ .

(٩٩) الغربال ص ٢٥ .

(١٠٠) راجع نعيمة : سبعون (المرحلة الثانية) ص ٢٠١ .

بين الذوق والموهبة

المقاييس نفسها بقدر ما يرجع ذلك الى حسن استخدامها وممارستها أو العكس . فيبقى الانسان ، باستمرار محور العمل الادبي والنقدى . واذا كان الادب العربى اثنائى فى فقر أو نقص ، ليعنى ذلك انه فى حاجة الى مقاييس ثابتة . فهى متوفرة (١٠٣) (لعل هذا الوجه من رؤيته يفسر لنا مبعث أخذه عن النقاد العرب الذين سبقوه أو عاصروه وعن نقاد الغرب والكبار ، بحيث يفقد الاقتباس خطورته وفداحته التى صرح عنها مرة فى الهلال « ان الشرق لفى غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية ، اذ ليس الاقتباس الا تقليدا . وكل من يقلد سواه لا يكون مخلصا لنفسه (١٠٤) اذا عيب التقليد لا فى الاخذ عن آراء الآخرين ومواقفهم بل فى ان تنهج منج الآخرين انفسهم وتسير فى مسالكهم نفسها فتفقد بذلك « ذاتيتك » « وحریتك ») واذا كيف تزهو آدابنا وتثمر مادامت مقاييسها فى ايد لا تعرف من الادب كوعه من بوعه (١٠٥) (يقصد الجرائد والمجلات التى تقيس الادب بعدد مشتركها ومتاصريها واعمدتها . . .) وخاصة فى تلك المرحلة اذ هى دور انتقال (وهو من اصعب الادوار فى الحركات الادبية) غرضه تهديم روح قديم والتمهيد لبناء روح جديد . فبقدر - ما ينجح فى هذا التمهيد ستكون مرحلة البناء التالية ، نوعا ومدى ، ذات شأن .

وعلى ضوء هذا المفهوم يبين الموازين التى يقيس بها الآثار المنقودة وخاصة الشعرية منها بعد ان يؤكد « ان لكل قارئ مقاييس عديدة

فاتجاه نعيمة فى النقد لم يعتمد على التراث النقدى العربى القديم ، كما انه لم يعتمد التراث الغربى ايضا ، وحسب ، بل هو اتجاه يهضم جميع هذه المكونات لتمثل فى شكل او فى آخر ، فى محاولات ذاتية ، تعول على الموهبة وما تستعينه فى استحضار نفسها . ولا تعارض بين الذوق والموهبة . الذوق هو حالة خاصة من الاحساس ، والموهبة تحتقر الصنعة والتعمل لتترجم انطلاق النفس ووثبتها بالافعال المعبرة « والموهوب هو الذى يخلق بيئته ولا تخلقه البيئة » (١٠١) اى ان العمل الادبى لا يقتصر على مجرد التعلق بسلسلة من الافعال والعواطف ، بل بقيمتها ، بوقعها وبنتيجتها (وما يمكن ان نسميه « ماهيتها ») . من هنا كانت مقاييس نقده التطبيقى صادرة عن هذه المبادئ العامة بالتأكيد ، ففي حديثه عن « اغانى الدرويش » لايهمه ان يحاسب الشاعر لم يختار هذا الموضوع دون ذلك ، اولم يفتى هذا النوع من العواطف دون غيره ، فكل مجال النقد وميدانه ان يقول هل احسن الشاعر فى اثره ام اساء . المهم فى الخلق ، عنده ، كيفية التوقيع لانوعه « لينصعد وشيد أيوب من الزفرات ماشاء وليبك مادام فى مقلتيه دموع . فلا شأن لي معه فى ذلك . تلك هى اوتاره ، وذلك هو أسلوبه فى التوقيع عليها . والذى يهمنى هو انه يحسن التوقيع (١٠٢) . ولعله ينطوى على موقف من النقد والادب عامة ، ابعد واعمق ، فىرى ان ازدهار الادب او تقهقره لا يعودان الى طبيعة

(١٠١) نعيمة : راجع جورج صيدح : ادبنا وادبنا فى المهاجر الامريكية ص ٢٨ (ط القاهرة ١٩٥٦) .

(١٠٢) نعيمة : مقدمة ديوان « اغانى الدرويش » لرشيد أيوب ص ٧ (صدر الديوان ١٩٢٨) .

(١٠٣) الغربال ص ٧٣ - ٧٤ .

(١٠٤) نعيمة : الهلال نوفمبر ١٩٢٢ (ص ٢١) ج ٢ ص ١٢٨ .

(١٠٥) الغربال ص ٧٣ - ٧٤ .

عما وجدنا نحن من قبل ، وكأننا جميعا أدباء بالقوة ، ومزية الشاعر وفقا لهذا التفكير ايجاد العبارة التي اعوزتنا (هذا ما يراه التأثريون) فاذا قوى احساس المرء بعمل او قصيدة خيل اليه انه عانى ما يشبهه من قبل . ولطالما تطلب نعمة هذا المقياس في جميع نقده فطبقه في «الارواح الحائرة» (الغريال ص ٢٧) والدرة الشوقية (الغريال ص ١٤٥) والقروينات (الغريال ص ١٥٥) والريحاني في عالم الشعر (الغريال ص ١٦٣) وكثير من رسائله . . . فيكون جميع نقده مسكونا بهذه الظاهرة نظرا وعملا . ونحن نقره هنا على ضرورة (نسمة الحياة) مقياسا للشعر ، غير اننا نخالفه في مفهومه لها . اذ لا يمكن قصر الشعر او الادب على اثاره العواطف فقط . فمرة واحدة لم تكن قوة الشعور وحدها ، وفي ذاتها من الاسباب الهامة في بقاء الادب ، فكثير جدا من الناس اقوياء الشعور غير انهم ليسوا فنانين « وليس الشعر كله محتاجا الى العواطف القوية ولكنه محتاج الى ان يكون خلقا خياليا ، فالخلق الخيالي صفته الاولى (١٠٨) غير انه اذ يقول في ذلك فانما يصدر عما كرره من مفهومه للحياة وعلاقة الانسان بها ، ولعل ما يقوله هذه المرة يلخص ما ذهب اليه هنا وهناك فيعتبر ان انفسنا « لا تستفيق . . . الا اذا شعرت برعشة الحياة في داخلها ، لان الحياة فينا وليست خارجا عنا ، وما التأثيرات التي تحدثها فينا الطبيعة او الحياة الخارجية الا منبه لما كمن في داخلنا من العواطف والافكار ، فلولا عواطفنا ولولا افكارنا لكان ما ندعوه « الطبيعة » صحيفة بيضاء . ان الحياة ارث مشترك ، ولي فيها مالك . غير ان ما ينتفع به كلانا من هذا الارث يتوقف على ما تنبه فيه من

يقيس بها الشعر والشعراء لست لآخذها منه ولا لأبدلها بمقاييس ، فما انا الا عارض عليه ما عندي ، فلينبذه اذا شاء او ليقلبه اذا شاء (١٠٦) . هكذا تتولد المواقف من بعضها ، عند نعمة ، فشرط المحافظة على حريته وذاتيته الذي تطلبه باستمرار ، كان شرطا عليه ايضا في المحافظة على حرية القراء ومنازعهم . فمهمته ان يعرض ، بلا فرض ، على الناس ما يذهب اليه ، فما يجدونه ملائما لهم ولحاجاتهم اخذوا به ، وما لا يروق لهم نبذوه وهجروه . بكلمة اخرى ان اى تفاعل ادبي يكون مستحيلا بلا القراء ، والاديب هو ، في شكل او في آخر ، مبدع ضمن اطار ايدولوجي لوسطه وجماعته، فيمكن ان يقبلوها او ان يمدلوا فيها ، ان يرفضوها كلية او جزئية ، غير انه لا يمكنهم التنصل او الفرار منها . ولهذا ايضا كان القراء بحاجة الى الناقد وغرضه : فاذا بقوا وحدهم مستفردين يظنون خارج نظام الحقائق الاصيل وينخدعون .

البحث عن نسمة الحياة لا عن النوع الادبي

وهو اذا اراد ان يبدأ عمله النقدي ، « فأول ما أبحث عنه في كل ما يقع تحت نظري باسم الشعر هو نسمة الحياة . والذي اعنيه بنسمة الحياة ليس الا انعكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظور الذي اطالعه . فان عثرت فيه على تلك النسمة أيقنت انه شعر والاعرفته جمادا . واذذاك ليس ليخدعني بأوزانه المحكمة ومفرداته المنمقة وقوافيه المترججة (١٠٧) . فبقدر ما يظهر الشعر من الاحاسيس يكون شعرا . وبعبارة أخرى ، فان منطلق هذا المقياس هو ان الشاعر يعبر

(١٠٦) الغريال ص ١٢٩ .

(١٠٧) المرجع نفسه .

(١٠٨) راجع مصطفى ناصف : دراسة الادب العربي ص ٥١ .

في مجمل نقده (١١٣) . اذ يقدر كالمقادير ان الشاعر يمتاز على سواه « بقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء (١١٤) فما الذي يعطى الايات كيانها الشعري غير الرسم الجديد والفكر المبتكر والعاطفة الحية والمتطورة ارتقاء دائما (١١٥) . من هنا كان مقياس الصدق والاخلاص اساس النقد ، لانه المقياس الذي يكشف عن حقيقة ارتباط الاثر بصاحبه بل يعين في تلمس مناخيه واعماقه بصرف النظر عن قلبه والسبيل الذي اعتمده صاحبه في اظهاره « وانا حيثما اطل على الصدق والاخلاص في اى عمل ادبي قلت : انه لعمل مبارك . ولا شأن لى من بعد ذلك مع الناثر او الناظم اذا هو خاطبني بهذه الطريقة او تلك واذا هو اختار ان يبت افكاره واحاسيسه في قوالب بيانية قد تبعد كل البعد عن القوالب التي فيها اسكب افكارى واحاسيسى . فلست من الجهل وضيق الصدر بحيث انكر على غيري حقا اعده من اقدس حقوقى . وهو ان اعبر عن ذاتيتى بالاسلوب الذى يرتضيه ذوقى وبطمن الى وجداني (١١٦) . فنعيمة لا يعير الاثر الادبي اى انتباه فنى ، ولا ينطلق من اية فلسفة فنية جمالية في ذلك ، ولعل السبب يعود الى ان الظروف الزمنية التي راح نعيمة يطلق فيها آراء النقدية ونتاجه الادبي لم تكن لتسمح بالاتجاه اتجاها فنيا كبيرا . ذلك ان المناخ العربى السائد حينئذ لا ينم عن نضج راق في

العواطف والافكار (١٠٩) من هنا تكون قيمة النص الشعري او الادبي بقدر ما يحمل من الحياة والانسان لا بما يحمل من اساليب بيانية او مفردات منمقة ، وليس الوزن هو الذى يعطى الشعر شيئا من قيمته الحقيقية . بل اكثر من ذلك ليست قيمة الشعر في ذاته (في انه شعر) اذ ان نعيمة لا يقيم كبير شأن للنوع الادبي ، لانه يعتبر النوع الادبي شكلا يتوسله الشاعر او الاديب لفرض آخر ، يبرر وجوده ، الا وهو ، « الافصاح عن الحياة اى عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية . (١١٠) ولا ضير في اى اسلوب او مظهر اتخذته هذه الحاجة . فما ابواب الادب الا اساليب (راجع «الريحاني في عالم الشعر » : الفريال) حيث يؤكد ان ليس من آفة في ان يتنقل الكاتب من هذا الباب الى ذلك من ابواب الادب ، وليس ما يمنع كاتب المقالات من ان يؤلف الروايات ، ولا مؤلف الروايات من ان يزاول الدراما ، ولا كاتب الدراما من ان يفرض الشعر (١١١) . فلا تمييز لنوع فني على آخر ، اى ليست القصة ارقى من المسرح ، او ان الشعر يفضلهما لاعتبارات فنية تقنية .

ومتى يوقن ان فيما يطالعه شعرا يعتبر العنصر الثانى في تمييز الاثر الادبي من غيره « باتساع مداه ، بعمقه وعلوه وانفراج ارجائه (١١٢) في الافكار والخيال والعاطفة . وهو مقياس لا حق بسابقه ومنه يمتد . ولطالما راعاه

(١٠٩) الفريال ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(١١٠) الرجوع نفسه ص ٧٠ .

(١١١) الرجوع نفسه ص ١٦٣ .

(١١٢) الفريال ص ١٢٩ - (مقالة الارواح الحائرة) .

(١١٣) راجع الفريال تبينا لذلك ص ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، وراجع مقدمة الجداول لابي ماضي .

(١١٤) الفريال ص ٢١٢ .

(١١٥) الفريال ص ١٥٠ .

(١١٦) نعيمة : رسالة الى نقولا فريال .

القيمة للقدرة على الاتصال بالناس عن طريق القلب والفكر ، بصرف النظر عن أى اعتبار مادي آخر كالجنس ، أو المذهب أو غيرهما لقد جمع (عمر فاخوري) الى سلامة اللفظة سعة الاطلاع واستقامة التفكير وبراعة التعبير وحسن الذوق . ولكن هذه كلها ليست بذات بال مالم يترجمها صاحبها الى عواطف انسانية تصل قلبه وفكره بقلوب الناس وأفكارهم اينما كانوا ، ومن أيما جنس أو ملة كانوا (١١٨) . ومن المعروف ان هذا الناقد الذى يعتبر هذه المقاييس فى استكشاف الادب وتقدير مدى الصحة والعمق فيه ، هو ولا شك الناقد الحصيف الذى تكونت عنده قوة التمييز الفطرية .

قضية الشكل

اما العنصر الثالث فهو ثوب الاثر الادبى الخارجى ، أى دقة تركيبه وحلاوة رنته» وبعد ذلك فحصت عن سرواله الخارجى ، عن دقة تركيبه وحلاوة رنته وطلاوة لوانه وما أشبه (١١٩) وطبيعى موقفه هذا لان « الازياء البيانية ظلال لا تستقر على حال ، والمستقر هو الانسان وحاجته الى التعبير عن كيانه (١٢٠) . فالكاتب اثناء الكتابة لا ينصرف الى التفتن فى صناعة التعبير ، بل يعتمد الاسلوب السهل والقريب لافراغ التفتن الابداعى الذى يتوتر ، كالنهر ، ولا يعود مرة اخرى . ثم ان الكاتب كما أشرنا همه الانسان لانه وحده يستحق كل جهد وكل قيمة . غير ان نعيمة فى هذا لا يقصد اهمال الاسلوب التعبيرى ، وانما يفهم الجمال والفن بقالبهما ، كما يفهمهما بجوهرهما ،

المبحث الفني الاستطيقى الجمالى ، ثم ان احداث العصر نفسها وقضاياها لم تكن لتنجو بالادب غير ذلك المنحى . من هنا فان ما يميز الخلق الادبى الكبير ، عنده ، هو هذه الهالة السحرية التى تمتد فى فكر القارئ ووجدانه اثناء التعرّف عليه . أى ان خير مقياس لنجاح الاثر الادبى انما هو فى الفعل الذى يحدثه فى النفس التى تستطلعه . فكما فى الادب كذلك فى النقد . سره وقيمته فى مدى صدق الناقد واخلاصه المتفانيين لانهما « سر الابتكار والابداع عند الأديب » (١١٧) وهكذا لم يعد النقد ، مع نعيمة ، تصنيفا للآثار على أساس مطلق ومجرد ، بل على اعتبار العلاقة الحميمة بين النتاج وصاحبه من جهة ، وبين النتاج نفسه ونتائج قبله سبقتة ، ولا بأس اذا كانت للكاتب نفسه او لغيره ، فيؤول النقد نمطا من دراسة العلاقات القائمة والتى يمكن ان توصل فى النهاية الى الحكم الصحيح . ان السؤال عن المدى هو ، عندنا ، فى غاية من الاهمية ، اذ ينم عن ارتقاء فى المفهوم النقدي عهدئذ ، بل هو فتح من جملة ما أعطاه نعيمة فى هذا المضمار . انه يعنى انتقالا من الجانب الوصفى الى الجانب التقييمى ، أى ان الناقد تحول من جو التأمل النظرى - خاصة بعد ما يسوق فى طريقة من المقارنات والمفارقات والتوضيحات وضرب التحليل والتمثيل - الى هجير حلبة الصراع فى الممارسة الادبية العملية . فكان اذا ثمة تدرج منطقى وطبيعى فى منهجه ، فتطلب المدى بعد تبينه نسمة الحياة عن طريق التأمل فى النص ، كما ورد معنا . فلا سلامة اللفظة ، ولا سعة الاطلاع ، ولا براعة التعبير ، ولا حسن الذوق هى المنشودة لذاتها ، بل

(١١٧) نعيمة : المراحل (ط ٢ بيروت) ص ٥٩ .

(١١٨) نعيمة : عمر فاخوري أديب وانسان : الطريق ، ١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٩ .

(١١٩) القربال ص ١٢٩ .

(١٢٠) نعيمة : رسالة الى يوسف الخال .

القراءة الروحية :

معنى كل هذا ان التحولات في الموقف النقدي ، عند نعيمة ، كانت تخرج من المفهوم العام لا لتسير في خط مستقيم ولكن لتدور حول نفسها فتنتهي حيث تبدأ ، كل مرة ، وامام اي ظاهرة ، فاقترعت محاولة احياء الروح في العمل الادبي بكثرة تطلب عنصرى الشعور والحرية . انه لا يقدر فنا ولا ادبا الا بقدر ما يرفع من نفسه ويفتح عليه من الآفاق الجديدة ، وهو لا يرضى بالفن المحلق دون الفنان ، ولا بالخيال الطائر بغير الشاعر الطائر ، يريد المثل الأعلى وصاحبه في آن (١٢٣) . من هنا كان آخر ما يعيره انتباها في نقد الأثر الشعري هو الأوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوية ... فالشعر الذى ينزل بفكره الى اغوار تحتها اغوار ، ويعلو بهذا الفكر الى سماوات تلوح من ورائها سماوات ، ويفتح لخياله آفاقا خلفها آفاق ، ويفسح لعاطفته مدى يجرها الى امداء ، هو الشعر الذى تستأنس به روحه وتنتفتح له براعم الحياة فى داخله (١٢٤) . وهكذا فان نعيمة حين يقف امام الأثر الأدبى - وخاصة الشعري - يقيس نفسه به حيناً ، فاذا بالشعر يكتسب قيمة من الشخصية التي يوجه لها عهد كان يكتسب قيمته من الشخصية التي صدر عنها . وهو في كل هذا يعرف ظاهرة « الانحداد الفني » حيث تفنى الذات في الموضوع ، فاذا به يقترب كلياً من ابن قتيبة في حكمه النقدي « أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه » (١٢٥) فالمطلوب من الشاعر ان

ويفهم القالب على انه « لا ينحصر في تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والالوان ، بل ما يفرغ فيه الكلام من بعد التنميق ، والخطوط والالوان من بعد التنسيق ، والفنان يعنى بقواله عنايته بما يسكب فيها من روحه لعلمه ان جمال القالب يزيد في جمال ما يسكب فيه (١٢٦) ذلك لانه باعتبار منطلقه الفلسفي والادبي كما بينا يعتبر بوحدة واحدة في الجمال والكون . فكيف لا يعتبر في النتاج الادبي ومقياسه وحدة واحدة ايضا . فلا شكل بلا محتوى ، او ان اى محتوى لابد له من شكل يتجسد به . الفرق في الموقف اذا : بدليل ان يعطى الشكل قيمة المحتوى (كما في النقد القديم) فان الشكل ، عند نعيمة ، انما يزيد في جمال المحتوى . يضى على ماهو موجود شيئاً ما فيكتمل . ولا بأس بالاستعانة بالفنون الاخرى وطبيعتها الخلاقة ، لان لاتناقض فيما بينها ، بل هي في الحقيقة ، اساليب متنوعة للابداع الانساني الواحد . ويقرب هنا كثيراً من نظرية تولستوى في الفن التي تقول بان الفن فعل انفعالات انسان ما بغية ان يشاركه الآخرون اياها ، وذلك عن طريق الحركات والخطوط والالوان والاصوات والاشكال المعبر عنها بالكلمات . اى لابد ان تكون هناك فكرة جديدة تهم الانسانية ويكون التعبير عنها بوضوح ليفهمه جميع الناس . واخيراً ان يكون دافع المؤلف الى انتاجه هو الحاجة الداخلية ، فالمضمون هو الذى يعطى العمل الفني قيمته (الخير) والتعبير يعطيه قيمته من حيث هو عمل جميل (الجمال) ، اما علاقة الفنان بعمله فيعطيه قيمته من حيث هو عمل حق . (١٢٧)

(١٢١) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٢٤١ .

(١٢٢) راجع مجلة الآداب ١٩٥٤ ص ٨٨١ .

(١٢٣) راجع فاتحة كتاب « جبران خليل جبران » .

(١٢٤) راجع الفريال ص ١٢٩ .

(١٢٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٠ .

السامع والناظر . ولاحداث هذا التأثير كان لا بد من التأكيد على أمرين :

أ - اذا كانت الرواية مشهدا حيا من مشاهد الحياة الحقيقية .

ب - اذا كان الممثل قادرا على فهم أفكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الأفكار وتأدية تلك الغاية الى السامع بواسطة الصوت والحركات (١٢٠) . فالرواية عنده ، تكتب لتمثل ، لا لشيء آخر ، فكثيرا ما يتوكل الكاتب على الممثل والممثل على الكاتب . الا ان قيمة ما كتبه نعيمة في هذا الباب كبيرة نظرا لما كان النقد عليه من عدم اعارتهم اى انتباه لهذا الفن . فافرد نعيمة له فصلا كاملا « الرواية التمثيلية العربية » في كتاب القربال (وهى نفسها مقدمة مسرحيته « الآباء والبنون ») كذلك كان يلوح بين الحين والآخر فيما نقد من روايات مترجمة (شكسبير خليل مطران) أو قصص موضوعة (العواطف لجبران) ... وهو بذلك يتقدم على سابقيه أو معاصريه من النقاد . لأن مجمل تلك المقاييس التى حاولوا ان يؤكدوها (العقاد ، المازنى ...) انها تهتم بالشعر بل لا تنصرف الا الى فن محدد منه هو الشعر الغنائى المتوارث من القديم « وأخذ نقادنا ومفكرونا يقتتلون حوله خلال الربع الأول من هذا القرن بل الى سنوات بعد ذلك ، مغفلين فنونا أخرى أخذت تظهر فى أدبنا المعاصر مثل فن المسرحية الشعرية ، وفن القصة والافصوصة وفن السيرة وفن المقالة ، فهذه كلها فنون لا تكاد نعثر على آراء فيها وفى

يجعلك تعيش فى شعره فتكون أنت هذا الشعر . انه يسعى باستمرار وراء « القرابة الروحية » (١٢٦) بينه وبين الشاعر .

آراؤه فى فن الرواية :

الا اننا نشير أخيرا ، الى أن هذه المقاييس النقدية عند نعيمة ، وإن اقتصر فى معظم الاحيان على الشعر دون غيره من الفنون ، فقد تطاولت ايضا الى فن الرواية فرأى انها تحتاج « عدا الفكر المعلن والمحلل الى يد المتفنن لإبراز أشخاصها الى الحياة ولتطبيق مشاهدتها على فكرتها الأساسية (١٢٧) . فتتطلب ، بالتالى ، خبرة فنية تقدر على الملاءمة ومراعاة أصول هذا الفن . فالروائى الفنان اذا ما خلق شخصين أو أكثر نوع الأغراض التى يرمى اليها من وراء كل منهم (١٢٨) . أى أن التأليف الروائى ليس كتابة مقال ثم يأتى للمؤلف ليوزع كلامه على عدد معين من الأبطال ، بل لكل بطل حضور خاص فاعل فى سير الرواية ، وله غرض يساعد على نمو الاحداث وتطورها . « فالشخص فى يد الروائى كالحجر فى يد المثال يخلق منه ما يشاء ، والمثال الماهر ليس كالمرائين الذين يحسبون - كما قال فيهم يسوع - ان بكثرة صلواتهم يستجاب لهم . فهو قد يبرز معنى بارعا بضربة أزميل مثلما قد يخلق المصور العبقري آية من الحسن بلمسة ريشة ، والكاتب الفنان أفقا من الجمال بشطحة قلم (١٢٩) ومنتهى ذلك ، عنده ، ان مقياس جودة الرواية هو فى القدرة على التأثير (كما فى الشعر وسائر الفنون الأدبية) فى

(١٢٦) نعيمة : مقدمة ديوان الجداول لابي ماضي (٢١ حزيران ١٩٢٧) .

(١٢٧) القربال ص ١٦٥ .

(١٢٨) نعيمة : رسالة الى كرم ملحم كرم عن روايته « المصدور » .

(١٢٩) المصدر نفسه .

(١٣٠) القربال ص ٣٢ .

واحد : هو الانسان محور الاشياء والوجود .
ولكم يذكر حكمه هذا بقول ايسن « اذا اردت
الكتابة فانك تستدعى نفسك الى محكمة انت
قاضها » .



المنهج الانطباعي :

مهما كان المنحى الذى يسلكه النقد الانطباعي
أو الموضوعي أو العقائدي أو اللغوي أو
الجامعي ... واما كانت مقاييسه الذاتية أو
العلمية أو التاريخية أو الفنية .. يبقى له
منهجية ، تنطلق من هذه المفاهيم وتحتويها ،
أى هو يعتمد اصولا معينة في فهم الأدب ، وفي
بيان القيم النفسية والفكرية والجمالية . غير
ان هذا لا يعنى اخضاع كل عمل أدبي ، الى
مقاييس ثابتة جامدة ، فتتجمد بذلك شخصية
الناقد ، وتتعطل عنده حساسية التذوق
الذاتية ، القدرة على اكتشاف القيم الخاصة
في كل اثر أدبي بذاته . من هنا كان من الخير
للأدب أن تتمدد مناهجه ووظائفه فلا يعمل
الكتاب كلهم عملا واحدا . فبناء الحياة الذى
هو شغل الأدب لا يختلف من هذا القبيل عن
أى بناء (١٢٥) . أو ليس كل اثر هو نتاج
شخصيا فريدا قائما بذاته (التجربة الواحدة
لا تتكرر عند فنانين بل هي لا تكرر نفسها في
نتاجين لفنان واحد) وإذا فمنهج تقديره
والبحث فيه لا يصدران عن مناهج سابقة
لأنهما لا يحملان احكاما سابقة مستقاة من آثار
أخرى . وعلى هذا يكون المنهج النقدي ، عند
ناقد معين ، صادرا من نوع مقاييسه ؛ بل هو
كيفية عرض لها .

مناهج نقدها عند نقاد الجيل السابق ، وإذا
كان نعيمة يمس بعضها حيناً ، فانما كان ذلك
من قريب ، حيث انك لا تجد تحرياً لوضع
اصول مترابطة في هذه الفنون ، بل خطوات
تتولد من جراء التعليق على قصة أو التمهيد
لرواية ...

هذه هي أهم المقاييس التى اعتمدها نعيمة
في نقده ، وهو يرى أن الأمة المتيقظة بحاجة الى
« تقويم » مفهوماتها الأدبية ، وتعديل مقاييسها
وموازينها الروحية باستمرار (١٢٦) ان النقد
في تحد مستمر لأنه في نبض مستمر . فعمل
الناقد لا ينتهى ، انه عمل يبدأ من جديد في كل
مرة ، لأنه على استعداد دائم لمواجهة الاشياء
والحقائق لتبنيها . ولكل حقيقة نمط تظهر
به . وإذا كان يؤكد بأن للزمان غربالا ابن منه
غرابيل الناس ، أو ان الحياة للحياة وحدها
القول الفصل والحكم الاخير (١٢٧) لا يعنى
ذلك ، عندنا ، الا ان الحياة والزمان يعطيان
الناقد « خبرة نقدية » و « تجربة معرفة »
تسيران بالناقد أو بالمبدع الى النضج (للزمان
فعل كبير في تطوير الملكة الشعرية عند
الشاعر (١٢٨) لان المقاييس النقدية ، بالتالى ،
غير منفصلة عن الحياة أو هي من خارج الحياة .
من هنا كان الشاعر في حاجة الى غربال ، لكنه
يجب ان يكون هو الغربال والمغربل معا (١٢٩) .
على هذا تألف جميع الظواهر : الأدب
(الأديب) - النقد (الناقد) - المقاييس
النقدية (الحياة) . فلا تمييز ولا تفريق بين
الابداع والنقد والمقاييس النقدية ، بل كلها
في الحقيقة وجوه متعددة - مظهرا - لشيء

(١٣١) الغريال ص ٢٠٨ .

(١٣٢) نعيمة : دروب ص ١٨٩ .

(١٣٣) راجع الغريال ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(١٣٤) الغريال ص ١٦١ .

(١٣٥) دروب ص ٥٤ .

ونعيمة ، قبل كل شيء ، يصدر في نقده النظري والتطبيقي على حد سواء ، عن مقصد واحد هو الاقناع (التأثير) لا الفرض . ولا يكون الاقناع الا بالحجة (١٢٦) . والسييل الى ذلك يتحصل عن ضبط البحث وتصميمه ودقة تأليفه ومثانة ترابطه بعضه ببعض ، فهو مقدمة فشرح فاستنتاج ، وكان هذه العناصر حلقات في سلسلة واحدة (١٢٧) تقوم على التبسيط والوضوح الى اقصى حد ، فهو عندما يخاطب القارئ تراه ينتقل به خطوة خطوة ، بكل بساطة ، وهذا ضروري عهدئذ زيادة في سبيل تأكيد الاقناع وفعله في العقلية المتحجرة السائدة ، فيعرض ويشرح ثم يستنتج مكثفا ما يرمى اليه (١٢٨) .

وهو من منطلق الاقناع أو التأثير هذا ، وعبر مقالته « القريلة » يتبين لنا ان منهجه في النقد منهج تأثري ذاتي (لكل ناقد غرباله ... ولا قوة تدعم مقاييسه غير قوة التمييز الفطرية ...) أي هو منهج لا يقوم على التفسير والتقييم ، بل ينتهي الى خلق أدبي مبتكر . « اجل ان كل ما يفعله الناقد في نقده هو أن يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام عن غيره » . فقد يقلقه اشد القلق أن يقع في كتاب ما على مجرور بحرف اللام بدلا من الباء فيثور ثائر ولا يهدأ باله ، حتى يعلن على الملأ انه أوسخ قدمنا في علم

« انتهيت الساعة (من « منشود ») ويسرني ان اتقل اليك بغير إبطاء بعض ما تركته هذه الرواية من طيب الأثر في نفسي فقد راقني تصويرك للأشخاص... مثلما راقني ما أجرته على السنتهم ... » (١٤٣) .

واذا هو منهج انطباعي تأثري ذوقي ، ينقل مباشرة عند الفراغ من قراءة النتاج ردة الفعل التي تكونت لديه . وهذا هو مادة نقده ، أولا وأخيرا ، فاذا لم تتوفر لا يمكن كتابة أي نقد ، عنده . ثم يبدأ كتابة البحث النقدي بالتعريف

وهو من منطلق الاقناع أو التأثير هذا ، وعبر مقالته « القريلة » يتبين لنا ان منهجه في النقد منهج تأثري ذاتي (لكل ناقد غرباله ... ولا قوة تدعم مقاييسه غير قوة التمييز الفطرية ...) أي هو منهج لا يقوم على التفسير والتقييم ، بل ينتهي الى خلق أدبي مبتكر . « اجل ان كل ما يفعله الناقد في نقده هو أن يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام عن غيره » . فقد يقلقه اشد القلق أن يقع في كتاب ما على مجرور بحرف اللام بدلا من الباء فيثور ثائر ولا يهدأ باله ، حتى يعلن على الملأ انه أوسخ قدمنا في علم

(١٣٦) القريلال ص ١٨٦ .

(١٣٧) انظر القريلال ص ١٨٨ .

(١٣٨) هذا هو النهج الذي اتبعه بوضوح كبير في مقالته « القريلة » راجع القريلال ص ١٢ - ٢٢ .

(١٣٩) دروب ص ١٧٩ .

(١٤٠) القريلال ص ١٢٩ .

(١٤١) المرجع نفسه ص ٤٠ .

(١٤٢) المرجع نفسه ص ٤١ .

(١٤٣) نعيمة : « منشور كما يراه نعيمة » راجع الحكمة ص ١٩٥٥ ، ج ٥ ص ٥ .

العمل الأدبي بسيرة الكاتب وبالعصر الذي عاش فيه (١٤٦) . ولعل نعيمة يحذو في ذلك حذو سانت بوف ، الناقد الرومنسي الكبير ، في منهجه الذي يتلخص بالعناية بالكاتب ودرسه قبل نقد مؤلفاته ، واعتبار شخصية المؤلف أساساً لفهم ما يكتب ولنقده « ليس الأدب - أى الإنتاج الأدبي - منفصلاً في نظري عن الإنسان ، فباستطاعتي أن أذوق مؤلفاً أدبياً ، ولكن من الصعب أن أحكم عليه دون معرفة للكاتب نفسه ، وذلك لأنه كما تكون الشجرة يكون ثمرها ، وهكذا تقودني الدراسة الأدبية إلى الدراسة الإنسانية قيادية طبيعية (١٤٧) . وقد بلغ به هذا الاتجاه أن راح يتطلبه ليس في الدراسات النقدية البحتة وحسب بل حتى في كتب « المنتخبات » أو ما نحت نحوها . فاسمعه يعاتب أحدهم لعدم ذكر ترجمة عن حياة كل شاعر ذكر له قصيدة في كتابه ، ويقول « تمنيت لو أنك أوردت فذلك عن حياة كل شاعر ترجمت منه . ففي ذلك نفع للقارئ العربي الذي لا يعرف شيئاً عن أولئك الشعراء والذي يطل عليهم لأول مرة من خلال كتابك » (١٤٨) لأن النقد الحق (يتكون - كما أجده - من دراسة كل شخص ، أعني كل مؤلف ، أعني كل ذى موهبة ، حسب أحواله الطبيعية لكي نقيم له وصفاً حيويًا حافلاً ، حتى يمكن أن ينزل - فيما بعد - في موضعه الصحيح عن سلم الفن » (١٤٩) .

بالأثر المنقود ، وذكر موضوعاته ومحتوياته ووصفه (١٤٤) . وهو يهتم كثيراً بعرض جانب الحياة الخاصة والوسط اللذين يعيشهما الشاعر أو الكاتب المنقود ، بكل تفاصيلها ودقائقها ، حتى تكتمل ، في رأيه ، صورة المنقود ، في أكمل وجه ، ثم يتحدث من ثقافته وتعلمه ذاكرة أول اطلاقاته الأدبية (أين ومتى) ثم ينتقل إلى القسم الثاني وهو دراسة مؤلفات (أو مؤلف واحد بعد ذكرها جميعاً) (١٤٥) . أى بإمكاننا تذوق النتاج الأدبي دون معرفة صاحبه ، ولكنه لا يمكننا فهمه وتقديره حق قدره ، وبالتالي ، فإن نعيمة يحاول أن يلم ، في طريقة للفهم ، بكلية الأديب في شكل مؤلف . فما يهمه من النتاج ، أولاً وأخيراً ، هو اكتشاف الإنسان وراء الأديب أكثر من اهتمامه بالفنان . أن الأثر الأدبي وحده ، منفصلاً عن صاحبه ، ومعتبراً لذاته ، ليس هو غرض نعيمة في البحث . وهكذا ينتهي إلى النقد الأخلاقي الذي عرف في أوروبا منذ القرن التاسع عشر وقصاره « أن جمال الأثر الفني يجب أن لا يواجه بصورة مجردة ومستقلة عن الوسط الذي نتج فيه رينان : مستقبل العلم) . أى ليس للأدب قيمة أو جمال إلا باعتباره شهادة للإنسان . فلا قوانين مجردة ، ولا قواعد مطلقة . فلا يمكن الإعجاب بالنتاج الأدبي إلا على أساس معرفة صاحبه وزمانه ومكانه معرفة حققة وسليمة . وكان Villemain (١٧٩٠ - ١٨٧٠) أول من أراد أن يشرح

(١٤٤) انظر الفريال ص ١٨٩ ومجمل رسائله النقدية .

(١٤٥) انظر رسالة نعيمة (تولستوى عملاق الروح والقلم) بوسائله غوركى من القاع ، إلى القمة أيار ١٩٥٨) ومقالة (عمر فاخوري الفنان) المنشورة في الرسالة ١٩٥٦ ج ١ ص ١ ، ومجمل رسائله الأخرى .

(١٤٦) راجع فان تيلم « المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا » ص ٢٢٠ .

(١٤٧) سانت يوف : أحاديث الاثنين الجديدة ج ٣ : مقال عن شاتوبريان .

(١٤٨) رسالة نعيمة إلى صاحب « قصائد من الأدب الأجنبي » توفيق اليانجي ، الأدب ١٩٦٢ ج ٨ ص ٥٧ .

(١٤٩) راجع ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

المحتوى والشكل :

إذا انتقل الى القسم الثانى ، وهو دراسة الأثر المنقود نفسه ، فتراه يشرع فى عرض مقاييسه « قلت فى مقدمة الكلام ان أول ما اتطلبه من الشاعر هو المدى - مدى الفكر والعاطفة والبيان . ومن ثم اتفحص قوالب شعره الخارجية . اما المدى فليس من ينكره فى شعر (نسيب عريضة) وأما قوالبه . . . (١٥٠) . وتراه فى معظم الأحيان يهيج فى أحكامه نهجاً فحواه « ضربة على الحافر وضربة على المسمار » ، فكلنا ذكر الردىء ذكر الى جانبه الجيد فى آن ، وعن قصد ، ويكفى ان نتمثل هنا ببعض ما جاء فى نقده « للدرة الشرقية أمثال كثيرة من . . . الوصف السطحي الذى لا يحرك فكراً فى رأس ولا يرسم صورة فى مخيلة ، ولا يهيج عاطفة فى قلب . غير ان فيها من الوصف الشعري ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم يكن ضائعا بين آيات جاءت حشوا ، فبان كضمة من الزهر فى حقل من العوسج » (١٥١) ولشد ما كان يزعجه الأثر السيء التأليف (بدليل ظاهرة التكلف والتفكك فى القصيدة ، وانعدام الوحدة العضوية فيها ، ثم تقلب الشاعر السريع فى بنائها) كل ذلك يبعث عنده شعوراً بالحيرة ، فلا يعود يملك أمره او يتدبر عمله النقدى ، متى تقلب الشاعر التقلب السريع بين مطلع القصيدة وختامها ولم يترك فى النفس سوى رنة القافية المتتابعة ، حار فى أمره الناقد وسدت فى وجهه السبل . فلا حول ولا « (١٥٢) ، لذا يتأتى لنا ان بحث نعيمة النقدى يقوم على التنظيم ودقة

التصميم ، والمنهجية ، وليس هو مجرد خطرات متباعدة أو متناثرة ، اساسه التحرى النفسى . وهو ، بعد كل ذلك ، يعتمد فى منهج البحث ظاهرة « الربط » بين مجمل نتاج الشاعر فيتأتى له باخلاص وأمانة وسلامة ، كيفية تطور الشاعر أو الكاتب فى خبراته الأدبية وتجاربه الحياتية . وهذا ما يتفق مع منزهة التأثير ، بكل تأكيد ، اذ « تقول التأثيرية على « الربط » فإذا عرضت قصيدة انتقل متلقيها . . . الى اشيء ترتبط بها . . . وقد يأخذ الربط شكلا خاصا نسميه التشخيص ، ويحكى المتلقى فى وصف العمل الفني مؤثرات نفسية (١٥٣) وبيولوجية ويخضع المتلقى لسلطان الذاكرة واحكام التداعى (١٥٤) . واذا يعتمد المقابلة بين مختلف مؤلفات الاديب الواحد لينتهى الى الحكم الصحيح على النشاط الخاص به (١٥٥) . ذلك ان « المقابلة » والتحليل هما فى رأى ايلييسوت ، عدنا الناقد الاساسيتان ، ويقومان على تشريح المنقود وتفسيره تفسيراً مستمدا دائماً من عند الناقد يكمل به نواقص الأثر فيفسد بعض الخلل الواضح فيه . الا ان اعتماد المقابلة هذه سبيلاً فى النقد لا يعنى ، عند نعيمة ، الانتهاء الى تحديد مراتب الكتاب وطبقاتهم ، فاذا كان للناقلين ولع بتحديد مراتب الكتاب والشعراء والمقابلة بين واحد منهم والآخر وتفضيل هذا على ذاك أو ذاك على ذلك - وقد يكون فى مقابلاتهم وتفاضيلهم نفع لهم أو لقارئهم « اما انا فان عثرت على كاتب له قلب يخبر وعقل يفكر وقلم يسطر شكرت ربي ألف مرة ومرة . وتركت

(١٥٠) راجع الفريال ص ١٤٢ .

(١٥١) المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .

(١٥٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

(١٥٣) راجع مقالة « الأرواح الحائرة » فى الفريال ص ١٢٤ .

(١٥٤) مصطفى ناصف : دراسة الادب العربي ص ٢٦ .

(١٥٥) الفريال ص ١٦٤ .

يحكم بأن هذا البيت من الشعر أو ذلك هو خير بيت قيل في هذا المعنى أو ذلك أو أن هذا الشاعر هو أحسن شاعر في هذا الفرض أو غيره) . ولعل تفسير هذا عندنا يعود الى اعتبار نعيمة أن العمل النقدي استنفاد لقوى الناقد « هذا حد مداركنا وغاية ما بلغت قوة التمييز فينا (١٦١) فيصدر الأحكام داعمها بكل تأييده .

التهكم والسخرية :

من سمات منهجه في النقد ، أيضا ، روح التهكم والسخرية اللاذعين . وكثيرا ما استعانها في مجمل أبحاثه النقدية النظرية والعملية . فكانني به ، قد تحول بظاهرة التهديد والتجريح والانتقام من شخصية المنقود الى ظاهرة تهكم موضوعي على النظرة والعقلية في فهم الادب وتقديره . وهذا وجه أرقى . وأكثر مواضع هذه الظاهرة بروزاً عنده في مقالاته «الحجاب» (الغريال ص ٣٧) والدرة الشوقية (الغريال ص ١٤٦) وابتسامات ودموع (الغريال ص ١٨٣) ومستهل «اغاني الصبا» (الغريال ص ١٨٩) . وأماكن أخرى . ولكم كان موفقا في سلك هذا المسلك ، فتأتي سخريته تدمر حيث تبدو وكأنها تتحاشى أن تمس مسنا . فهو هنا لا يقل جودة وفنا عنه في رصائنه واتزانه . فيصقل تأليفه لتشف منه خواطره الحية . وارانى مضطرا لنقل هذه الاسطر لتبيان هذا الملح عنده ، فيقول في « الدرة الشوقية » (قصيدة

للقارئ المقارنة بينه وبين سواه ومحاسبته بالخطأ والصواب والحلال والحرام والنفع والضرر . فتقدير الكاتب منوط بما تقرأ من نفسك وعنهما في سطره وبين سطره لا بما يقرؤه سواك (١٥٦) . ولكنه في رفضه لظاهرة تحديد المراتب وتقسيم الشعراء الى طبقات الا يتعارض مع ما قال به في موضع آخر من هذا البحث حين صرح بوضوح بأن الكتاب طبقات وكمثلهم النقاد ، وما يصح أن يقال في الواحد منهم لا يصح أن يقال في كلهم » كما أن الشعراء والكتاب طبقات » (١٥٧) .

ومن جانب آخر ، كان أحيانا ، بنتيجة هذه المقابلة أو المقارنة ، يجد نفسه على غرار النقاد القدامى في موقف يطلق فيه « الاحكام المطلقة » عن الاندفاع الشعوري التحمس . فبعد أن يسود فقرة من مقول المنقود يردف بسرعة حكمه التالي وكأنه ضرورة حتمية في السياق النقدي عنده : « فهل قرأت ارق وادق وأبدع من هذا الوصف (١٥٨) . أو يكثر في حديث آخر من « صيغ » التفضيل كمثل « ما اظن فنانا من أبرع الفنانين كان يستطيع أن يرسم .. صورة أوقع في النفس ... و « ابلغ من تهكمه ... » و « الغاية في الإبداع .. » في مقال يمتد الى صفحتين تشغل الاستشهادات قسما كبيرا منهما (١٥٩) . أو تراه في موضع آخر يطلق لنفسه العنان ليحكم في بيت واحد من الشعر على أنه « أجمل بيت وصفي في ديوان الشاعر على وجه الإطلاق ... » (١٦٠) . كل هذا يصدر عن منهج تأثري ذوقي (وهذه هي عادة القدماء في النقد كما هو معروف ، ذلك أن الناقد كان

(١٥٦) الغريال ص ٢٤٥ .

(١٥٧) الغريال ص ١٧ .

(١٥٨) نعيمة - عمر فاخوري اديب وانسان ، راجع الطريق ١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٨ .

(١٥٩) راجع مقالة نعيمة : عمر فاخوري الفنان ، الرسالة ١٩٥٦ ع ١ ص ٦ .

(١٦٠) انظر مقالة نعيمة « القرويات » في الغريال ص ١٦٠ .

(١٦١) الغريال ص ١٢٧ .

ولكن هذا التهكم لا تجد له اثرا في هذا الكتاب (كتاب جبران) وانما هو النقد الجاد الصارم ، الذي يمتزج بالحياة الجادة ، فهو يبح ويبيك . ولا يتهمك ، واذا تهكم فلا يبتسم (١٦٢) .

ان عملية الهدم ، عند نعيمة ، وعملية البناء وحدة متكاملة تتجسد في عملية الخلق ، التي لا تكون الا مع الانسان ، الذي هو أعظم من الزمان والمكان (١٦٤) . انها الروح الخالدة التي تمتد وراء الحدود والاصطلاحات . اى ان الادب والنقد استثمار للاشياء ومصالحاتها ، وبالتالي ابتعاد عن التسليم وانصراف الى التأمل - من هنا لم يعتمد نعيمة ، المنظور اللغوى ، لينتهى الى الذوق الادبي (١٦٥) ، بل اتخذ ، في نقده ، منهجا روحيا يبدأ بالنظر الفكرى والروحى الى الاشياء والكائنات (الآثار الادبية) لينتهى الى الذوق الادبي ، فالنظر اللغوى . ذلك لان النقد ينفر من الهياكل الجاهزة والقواعد المحددة . انه تفتق شعورى وفنى .

لاحمد شوقي كان قد نشرها في الهلال (مرتفعا بالهزء في تصاعد مستمر مبطن » لقد سمعت » بدر » شعرية كثيرة ولما عملت فيها طرف المبرد وجدتها صدفا لما . . . ولولا ما للهلال عندى من الاعتبار والثقة بحسن ذوق صاحبه الفنى والادبي لما اقبلت على مطالعة » الدرة الشوقية » . لكن للهلال في عيني منزلة خاصة به بين سائر المجلات والجرائد العربية : فقد تعودت منذ ايامى المدرسية ان اصدق مايقوله الهلال وان اعتبر من يعتبره ، واحتقر من يحتقره ، لذلك عندما رأته يقدم لي درة قلت لاشك في انها درة . . . ووقفت قليلا لاثأكد مما اذا كنت اطالع قصيدة جاهلية ام عصرية . . . (١٦٢) . غير ان نعيمة لم يجر على ذلك في جميع منتوجه النقدى ، فهو في كتابه « جبران خليل جبران » انصرف الى النقد البانى ، يحلل ويدقق في اصول فنية متكاملة ، مما دفع خليل هنداوى الى التعليق على ذلك بان قال « لصاحب القربال روح كانت تظهر بتهكم لاذع ، تسلك به السبيل الذى تريد ،



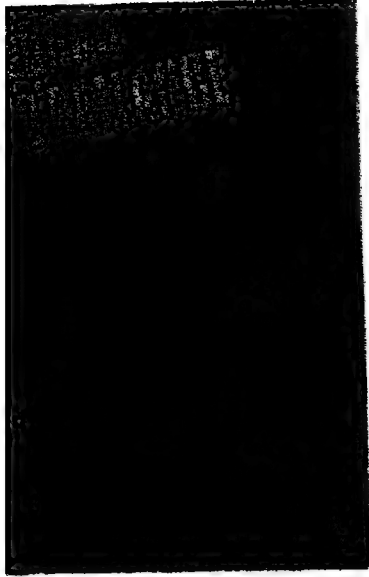
(١٦٢) القربال ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(١٦٣) خليل هنداوى : التصوير والنقد والفن عند ميخائيل نعيمة في كتاب جبران خليل جبران ، صوت الاحرار ، ه كانون الثانى ١٩٣٦ ص ٦ .

(١٦٤) راجع نعيمة في فصل « خراب ماهول » من كتاب هوامش (بيروت دار صادر ١٩٦٥) .

(١٦٥) هذا هو المنهج الفهمي في النقد وقد اتبعه فيما بعد محمد منور : راجع كتابه « في الميزان الجديد » ص ٦٩ .

عرض الكتب



عرض وتحليل ونقد لكتاب :

قوة الفدائيين العرب ١٩٦٧-١٩٧٢

عرض وتحليل: الدكتور أسعد عبد الرحمن

كتب (آخرها هذه الدراسة) عن حركات مسلحة وثورات وحروب وقعت في الوطن العربي ، سواء في شمال العراق أو الجزائر أو فلسطين أو اليمن ، زيادة على كتبه الخاصة بالحروب العربية - الاسرائيلية الثلاث الاولى .

وتمتاز دراسة « أوبالانس » :

أولا : بتسلسل منطقي وزماني وتقسيم جغرافي يجعل محتوياتها تنساب الى ذهن القارئ عبر أحد عشر فصلا دونما أي تشويش . وستظهر معالم هذا التسلسل وذلك التنسيق عندما نعرض للمادة المتضمنة في الدراسة . وفي هذا المجال ، سيشكل استعراضنا لمحتويات الكتاب الجانب الرئيسي الأول في هذه المراجعة .

ثانيا : تتمتع الدراسة بمادة ومعلومات غزيرة تشهد على اطلاع المؤلف واتصالاته وعلى

تمثل هذه الدراسة التي وضعها الميجر « ادجار أوبالانس » بعنوان « قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ - ١٩٧٢ » . حلقة في سلسلة تقع في خمسة عشر كتابا نشرها المؤلف في ربع القرن الأخير . وتختص هذه المؤلفات بمعالجة مواضيع عسكرية الطابع ، تشمل أبحاثا محددة عن جيوش معينة أو عن حروب اقليمية أو أهلية ، تغطي شريطا عريضا من البلدان المختلفة على امتداد رقعة واسعة من الكرة الأرضية . فقد كتب « أوبالانس » عن « الحرب الهندية الصينية : ١٩٤٥ - ١٩٥٤ » وعن « كوريا : ١٩٥٠ - ١٩٥٣ » وعن الملايو : حرب العصيان الشيوعي بين ١٩٤٨ - ١٩٦٠ » وعن « الجيش الاحمر الروسى » و« الجيش الاحمر الصينى » كلا على حدة ، وعن « الحرب الاهلية اليونانية : ١٩٤٢ - ١٩٤٩ » وعن « حرب العصابات » بشكل عام . وعن « حكاية الفرق الاجنبية الفرنسية » بالإضافة الى سبعة

(٢٠ - ٢١) . الا أن هذا التوقف في الهجمات والفارات لم يمنع فكرة العمل الفدائي من التفاعل في العقل الفلسطيني . ومع نهاية الخمسينات ومطلع الستينات بدأت الفكرة بالخروج الى حيز العمل فبرزت عدة تنظيمات فلسطينية تدعو جميعها الى اعتماد الكفاح المسلح أسلوبا أساسيا من أجل تحرير فلسطين . وبالرغم من انشاء « منظمة التحرير الفلسطينية » في العام ١٩٦٤ ، فان الانظار اتجهت الى « حركة التحرير الوطني الفلسطيني - فتح » اثر مباشرتها النضال المسلح في مطلع العام ١٩٦٥ (٢٣ - ٢٦) . وهنا يتابع المؤلف حديثه محاولا تأريخ حركة فتح مستعرضا ، دونما توفيق كبير ، جذورها وردود الفعل الاسرائيلية والعربية ازاء اعمالها ، مشيرا الى ازدياد شعبية عملها في الاشهر التي سبقت حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧ - (٢٩ - ٣٤) .

في الفصل الثاني « السمكة والبحر » ، يوضح « أوبالانس » الترابط ما بين موقف الرفض العربي كما تجلى في لاءات مؤتمر الخرطوم الشهيرة وبدء موجة العمل الفدائي (٣٦) . وبعد أن يستعرض المؤلف سقوط قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وصعود فتح عبر المقاومة وعبر تجميع السلاح من سيناء (٣٨) وتشكيل خلايا سرية داخل المناطق المحتلة (٣٩) و (٤٢) « يقرر » فشل العمل الفدائي في تطبيق منطق السمكة (الفدائيون) والبحر (الجماهير الفلسطينية داخل الاراضي المحتلة) مما دفع المنظمات الى اقامة قواعدها شبه الثابتة على الحدود وبدء حرب استنزاف ضد اسرائيل (٤٢ - ٤٣) . وقد تمثلت قمة الفارات الاسرائيلية الانتقامية في « معركة الكرامة » التي منيت بها الفطرسية الاسرائيلية بضربة موجعة ، في حين شكلت تلك المعركة بداية الزخم الفلسطيني الجديد في العمل الفدائي الفلسطيني

المامة ، وبالتالي ، وفي كثير من الاحيان ، بأدق التفاصيل . على أن ذلك لا يعنى أن الدراسة خالية من الأخطاء الفادحة أحيانا ، على مستوى المعلومات . وسيشكل تعدادنا لأبرز هذه الأخطاء الجانب الرئيسى **الثانى** في هذه المراجعة .

ثالثا : « تفاخر » الدراسة بأنها نجحت في معالجة الموضوع بقدر من الموضوعية يجعلها أقل تحيزا من غيرها لصالح وجهة النظر الاسرائيلية - الصهيونية - الغربية المناهضة لوجهة النظر العربية . وستشكل اشارتنا الى بعض أوضاع المغالطات حول هذه المسألة الجانب الرئيسى **الثالث** في هذه المراجعة .

الجانب الاول : المحتويات

يخصص المؤلف **الفصل الاول** ، « عبادة الفدائيين » The Cult of Fedayeen لاستعراض جذور النشاطات الفدائية الفلسطينية من نقطة زمنية تبدأ مع اسدال الستار على أحداث الحرب العربية - الاسرائيلية الاولى في العام ١٩٤٨ . فيشير « أوبالانس » الى أن غارات العرب بشكل عام ، والفلسطينيين بشكل خاص ، كانت في مطلع الخمسينات ، غارات فردية لم تحركها دوما الاعتبارات الوطنية (ص ١٦) ، وبقي الحال كذلك الى أن بدأت الجبهة المصرية - الاسرائيلية بالالتهاب في العام ١٩٥٤/١٩٥٥ مما أدى الى هجمات فدائية منظمة ومنسقة ومدعومة من النظام المصرى الجديد . وقد تبلور رد الفعل الاسرائيلى في غارات انتقامية كبيرة وقع العديد من العسكريين والمدنيين المصريين والفلسطينيين ضحية لها (ص ١٩) . وبقي الحال على ما هو عليه على الجبهة المصرية حتى ازداد تصاعدها فشمط الجبهة الاردنية وأدى بالتالى ، الى حرب السويس (الحرب العربية - الاسرائيلية الثانية) في العام ١٩٥٦ . ومع انتهاء تلك الحرب خيم على تلك الحدود هدوء نسبي

« الحمة » بعد تحريرها لمدة بضع ساعات (٧٧) . كما يشير المؤلف الى تضارب مصالح ونشاطات بعض فصائل المقاومة (الجبهة الشعبية بالذات) مع مصالح بعض الدول العربية ، خاصة بعد أن نسفت الجبهة جزءا من خط أنابيب التابلاين (٧٨ - ٧٩) . هذا وقد حرص « أوبالانس » على رصد ردود الفعل الاسرائيلية (غارات خارج المناطق المحتلة واللجوء الى أعنف الوسائل داخل تلك المناطق) ازاء الهجمات الفدائية . كما يتحدث « أوبالانس » عن ردود الفعل على حرق المسجد الاقصى في ٢١/٨/١٩٦٩ (٨٢ - ٨٣) وعن ازدياد حدة التناقض بين الفدائيين والسلطات الاردنية (٨٤ - ٨٥) . وأخيرا لا يفوت المؤلف الإشارة الى التوترات بين الاطراف المشاركة في « الجبهة الشرقية » والى التعارضات بين فصائل المقاومة وبخاصة « حرب الدعاية » التي اندلعت فيما بينها (٨٨ - ٨٩) .

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى لبنان فيشرح في الفصل الخامس « أرض فتح » العوامل التي أدت الى بدء تركر العمل الفدائي في بعض مناطق جنوبي الجمهورية اللبنانية (٩١ - ٩٤) ويربط « أوبالانس » بين هذا التطور والأزمات التي حكمت العلاقات الفلسطينية - اللبنانية (٩٤ - ٩٦) والتي أدت الى « تحرير » المخيمات من السلطات اللبنانية والى سلسلة من الاقتتالات (٩٨ - ٩٩) كان أبرزها صدامات تشرين الاول - اكتوبر ١٩٦٩ . تلك الصدامات التي انتهت - عبر الوساطة المصرية - الى عقد اتفاقية عرفت باسم « اتفاقية القاهرة » (٩٩ - ١٠٢) . كما ويستعرض المؤلف التوترات والصدامات التي وقعت بين الفدائيين وبعض الفئات اللبنانية مثل حادثة الكحالة (١٠٩) ويتضمن العرض وصفا لما اشتهر فيما بعد باسم معركة العرقوب (١١٠ - ١١١) التي واجه فيها الفدائيون الفلسطينيون القوات الصهيونية ، وما تلا ذلك من التهاب في الجبهة السورية - الاسرائيلية (١١٤ - ١١٥) .

(٤٦ - ٤٧) ليس في مواجهة اسرائيل فحسب بل وفي مواجهة السلطات الاردنية ايضا (٤٨) .

يركز المؤلف في الفصل الثالث « توسع الفدائيين » ، على معالجة ما يمكن تسميته بالمرحلة الاولى من العمل الفدائي العلني (٥١) ، شارحا التزايد المستمر في اعداد رجال المقاومة وكيف مكنهم ذلك الوضع من فرض وجودهم العلني وتحسين أحوالهم المالية (٤٩) . كما يستعرض « أوبالانس » نشأة المنظمات الفدائية الاخرى (٥٠) (٥٢ - ٥٣) ، محاولا - بدون نجاح كبير - شرح موقف الاتحاد السوفياتي من العمل الفدائي في تلك الفترة (٥٦ - ٥٧) ومثبتا ازدياد مكانة المنظمات في الاوساط الشعبية والرسمية العربية وسيطرة حركة فتح وباقي المنظمات على منظمة التحرير (٥٤ - ٥٥) . كما واستعرض المؤلف الازمة الرئيسية الاولى بين منظمات المقاومة والسلطات الاردنية في شهر تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٨ (٦٢ - ٦٥) . وينتهي هذا الفصل مع سرده لبداية العمليات الخارجية التي ابتكرتها « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وما تلا ذلك من ردود فعل اسرائيلية كان أبرزها الهجوم الاسرائيلي الشهير على مطار بيروت (٦٨ - ٦٩) .

أما الفصل الرابع « تعاظم الفدائيين » فانه يتضمن تثبيتا لحقيقة كون العمل الفدائي قد وصل ذروته في العام ١٩٦٩ ، وذلك بسيطرته الكاملة على منظمة التحرير (٧٠ - ٧١) وتحقيق بدايات في الوحدة الوطنية الفلسطينية (٧٥) على الرغم من معاناة احد اكبر التنظيمات الفدائية (الجبهة الشعبية) من سلسلة انشقاقات من جهة (٧١ - ٧٢) ، وعلى الرغم من عدم تبلور موقف ايجابي - حسب اعتقاد المؤلف - من قبل الاتحاد السوفيتي من جهة ثانية (٧٦ - ٧٧) . وقد شهد ذلك العام تطورا نوعيا في عمل حركة المقاومة ، اذ تمكنت « فتح » من رفع العلم الفلسطيني في بلدة

لواجهة بات وقوعها امرا متوقعا ووشيكا
(١٣٥ - ١٣٦) .

وفي الفصل السابع يستعرض المؤلف
التصاعد المتسارع في التوتر بين السلطات
الاردنية والفلسطينية وصولا الى انفجار
« الحرب الاهلية في ايلول - سبتمبر من العام
١٩٧٠ » . وقد بدأ هذا التسارع مع خطاب
الملك حسين الذي أعلن فيه موافقته على بادرة
روجرز (١٣٧) . وفي تلك الاثناء ، قامت
« الجبهة الشعبية » بتنفيذ سلسلة من العمليات
التي استهدفت خطف طائرات عدد من البلدان
المعادية واجبرتها على الهبوط فيما عرف
باسم « مطار الثورة » (مطار داوسون المهجور)
باستثناء طائرة الجمبو التابعة للبنان أميركان
والتي نسفها فدائيو « الجبهة » على ارض
مطار القاهرة (١٣٨ - ١٤٠) . هذا في الوقت
الذي بدأت فيه الاشتباكات المحدودة بين
الفدائيين والسلطات الاردنية تزداد قوة
وانتشارا حتى شملت معظم مدن المملكة وحتى
بلغت قممها بانفجار الحرب الاهلية يوم ١٧
ايلول - سبتمبر ١٩٧٠ (١٤٣ - ١٤٥) .
وقد خصص « أوبالانس » الصفحات التالية
(١٤٥ - ١٦٠) لشرح أدق « التفاصيل عن
معارك ايلول بما في ذلك الدعم السوري
للفدائيين ، وتمحور الوضع الدولي بين مؤيد
لهذا الفريق ومؤيد لذلك (١٥٠ - ١٥٣) .
وبقى الحال كذلك على الرغم من انعقاد المؤتمر
الطارئ للرؤساء والملوك العرب ، والذي مثل
الاردن فيه البريجادير محمد داوود ، الذي عين في
وقت سابق رئيسا للحكومة العسكرية التي
أنيطت بها مهمة القضاء على الفدائيين (١٥٣) .
وفي مرحلة لاحقة ، واثرا لايقاد مؤتمر القمة
الرئيس السوداني (جعفر النميري) الى عمان
نجح المؤتمر في اعلان « اتفاق القاهرة » بين
عرفات والملك حسين الذين كانا قد وصلا الى
العاصمة المصرية أثناء احتدام المعارك في الاردن
(١٥٤ - ١٥٥) هذا وقد أعقب ذلك اتفاقية

وفي الفصول الثلاثة التالية يعود المؤلف
بالقارئ الى الساحة الاردنية ، فيشرح عبر
تتابع زمني الاحداث التي شكلت « مدخلا الى
الحرب الاهلية » (الفصل السادس) مركزاً
في الفصل الذي يلي (السابع) على وقائع
« الحرب الاهلية في الاردن » ومنتهاها (في
الفصل الثامن) الى « هزيمة الفدائيين في
الاردن » .

وتتضمن صفحات الفصل السادس عرضا
وافيا بسلسلة العمليات التي قامت بها
« الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » في أكثر
من مكان خارج الشرق الاوسط ، والتي
تضمنت بالاساس ، خطفا لطائرات متنوعة
الجنسيات ، وهجوما على أكثر من مطار في
أوروبا ، ونسفا لعدد من الطائرات (١١٧ -
١٢١) . وفي تلك الاثناء كانت العلاقات الاردنية
الفلسطينية تزداد تشنجا واقترابا من درجة
الصدام الحاسم ، الا أن الملك حسين عرف -
أكثر من مرة - كيف يحنى رأسه للرياح
الفدائية الشديدة فحافظ على « شعرة معاوية
بينه وبين الفدائيين وكان ذلك كله مدعاة
لاستياء القبائل البدوية ومعظم قطاعات
الجيش (١٢١ - ١٢٢) و (١٢٧ - ١٢٩) . وفي
هذه الاثناء ، قام عرفات بعدة زيارات شملت
الاتحاد السوفياتي والصين وفيتنام (١٢٣ -
١٢٤) في حين كانت الهجمات على اسرائيل
متصلة وكذلك الفارات الانتقامية الاسرائيلية
(١٢٥ - ١٢٦) . وقد ازداد التوتر بين أطراف
الصدام الثلاثي الجوانب (الفدائيون -
اسرائيل - الاردن) بعد اعلان وليم روجرز ،
وزير الخارجية الاميركية ، عن مبادرته للسلام
والتي وافق عليها عدد من الرؤساء العرب
كان في طبيعتهم الرئيس جمال عبدالناصر والملك
حسين (١٣١ - ١٣٣) . وكانت الحصيلة أن
ساءت علاقات الثورة الفلسطينية ليس بالاردن
فحسب ، بل ومع الجمهورية المتحدة أيضا ،
وبدا كل من الفدائيين والملك حسين يعد نفسه

وجودهم على الاراضى الاردنية في حين استشهد أبو على اياد ، أحد أبرز قادة فتح (١٧٩ - ١٨٣) واثناء انعقاد مؤتمر الدفاع العربى المشترك في مقر جامعة الدول العربية في القاهرة قام بعض انصار أبو على اياد باغتيال وصفى التل الذى كان يمثل الاردن في ذلك المؤتمر بوصفه رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ، وقد أعلن الفدائيون انتماءهم الى منظمة جديدة حملت اسم « ايلول الاسود » (١٨٥ - ١٨٦) . اثناء ذلك ، كان الوجود الفدائي في لبنان يتعزز يوميا بمن يفد اليه من الساحة الاردنية (١٨٩) في حين كانت اسرائيل توجه ضربات قاسية لبعض الخلايا الفدائية في المناطق المحتلة . وعندئذ لم يكن قد بقي في الساحة الفلسطينية أية نقطة ضوء متوهجة سوى غزة (١٩٠) .

والفصل التاسع برمته مخصص للحديث عن صمود وتمائز غزة ، ذلك الصمود الذى منع اسرائيل من تحقيق مخططاتها بالنسبة للقطاع ، وذلك التمايز الذى جعل غزة مختلفة عن باقى المناطق من زاوية حدة مقاومتها للاحتلال الاسرائيلى . ويذكر « أوبالانس » ان البداية في النضال الحقيقى جاءت مع نجاح كل من فتح والجهبة الشعبية في الوصول الى غزة والانتشار فيها بدءا من العام ١٩٦٩ (١٩١) . وقد ترافق العمل العسكرى مع انتفاضات طلابية ونسوية (١٩٣) على الرغم من لجوء اسرائيل الى أسنف الوسائل (المطاردة والقتل ، نفس المنازل ، حظر التجول ..) استمرت العمليات الفدائية ليس ضد قوات الاحتلال فحسب ، بل وضد كل الافراد الذين تعاونوا مع اسرائيل . وعندما لم تؤثر مجازر ايلول - سبتمبر على تصاعد العمليات في القطاع ، قرر موشيه دايان ، وزير الحرب الاسرائيلى آنذاك ، اأقيام بتنفيذ

اخرى عرفت باسم « اتفاقية عمان » ينسحب الفدائيون بموجبها خارج المدن ليعتزلوا عند الحدود مع اسرائيل (١٥٩) . وما كاد الاقتتال يتوقف حتى قام الملك حسين بتعيين وصفى التل (١٩٧٠ / ١٠ / ٢٨) رئيسا للوزراء (١٦٠) .

اما الفصل الثامن « هزيمة الفدائيين في الاردن » فيستعرض شريط الاحداث التي اادت الى اخراج الفدائيين من المدن وتسليم أسلحة الميليشيا في المخيمات ، بالإضافة الى محاصرة الفدائيين المتمركزين في احراش جرش وعجلون الى خارج الاراضى الاردنية وكل ذلك تحت سمع وامام ابصار لجنة المراقبة العربية (١٦١ - ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦) . ويعتقد المؤلف ان ما كشفته « هزيمة » الفدائيين في الاردن يتلخص في افتقارهم للاستراتيجية الواضحة ، وفقدان الوحدة ، وتعدد وجهات النظر ، وعجز القيادة (١٦٢) . ومع ذلك يشير الكاتب الى نجاح المنظمات الفدائية في تقليص عددها من أحد عشر تنظيما الى أربعة أو خمسة تنظيمات ، وذلك عبر سلسلة اندماجات في حركة فتح (١٦٣) ، الا أن موجات النقد والنقد الذاتى ملأت الساحة الفلسطينية واستمرت « الجبهة الشعبية » في موقفها المتصلب الرافض تسليم أسلحة الميليشيا واى صيغة للتعاون مع نظام الملك حسين (١٦٩) . ومع بدء الربيع بات واضحا أن الصدام واقع لا محال ، وان اسرائيل - عبر ما أعلنه مسؤولوها - ستكون جاهزة ومستعدة للتدخل اذا ما بادر اى طرف (المقصود سورية والعراق أساسا) لمساعدة الفدائيين (١٧٥) . هذا وقد تعاضل القتال في شهرى أيار - مايو وحزيران - يونيو وبلغ قمته في تموز - يوليو حيث دارت معارك عنيفة في جرش وعجلون ، خسر الفدائيون نتيجتها

وأخيرا يلخص المؤلف في الفصل الحادى عشر (عودة الى الوراء ونظرة الى المستقبل » الافكار الرئيسية الواردة فى الدراسة مستنتجا أن العمل الفدائي « فشل فى تحقيق » هدفه فشلا كليا » (٢٢٩) اذ أن اسرائيل لا تزال تسيطر على جميع المناطق التى احتلتها فى العام - ١٩٦٧ . ويعزو «أوبالانس» ذلك « الفشل » الى : عدم فهم الفدائيين العرب لاصول الحرب الثورية ، تعدد فصائل المقاومة وتعارضها ، وعدم ظهور زعامة وقيادة حقيقية قادرة ، وعدم قدرتهم « على فهم حقيقة مؤداها ان ليس من دولة » والحال ينطبق على الدول العربية - يمكن ان تسمح بوجود « دولة » أخرى « غير مسؤولة » ضمن حدودها (٢٢٩ - ٢٣٢) .

الجانب الثانى : أبرز الأخطاء

تعانى الدراسة ، على الرغم من سعة اطلاع الكاتب ، من التشويش فى المعلومات ، ومن أخطاء عديدة تتضمنها صفحات الكتاب . ومن الامثلة على هذا التشويش وتلك الأخطاء ما ورد فى (صفحة ١٧) من أن الملك عبد الله ابن الحسين قد اغتيل فى العام ١٩٤٩ مع ان اغتياله كان يوم ٢٠ تموز - يوليو ١٩٥١ ، كذلك قوله بأن حركة فتح تأسست فى المانيا الغربية معددا أسماء ياسر عرفات وهانى الحسن و خليل الوزير على أنهم كانوا الطلبة الذين أسسوها (٢٦) !! وفداحة الخطأ فى المعلومات هنا لا تحتاج الى أكثر من مجرد الإشارة ، اذ أن منشأ فتح وأسماء مؤسسيها لم يعودوا خافين على ذوى المستوى العادى من الاطلاع . ثم ان « أوبالانس » يخلط بين « فرقة عبد القادر » وهى إحدى الوحدات التابعة « لجهة التحرير الفلسطينية » وبين كونها تنظيما قائما بحد ذاته (٣٢) .

حملة واسعة للقضاء على « الارهاب » وذلك مع مطلع العام ١٩٧٠ (١٩٤ - ١٩٥) . وقد تضمنت الحملة الاسرائيلية ترحيل النازحين من مخيماتهم الى أماكن أخرى لتقليل كثافة السكان والتقليل من امكانية اختفاء الفدائيين بينهم (١٩٨ - ١٩٩) . ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن العلاقات بين قوات الاحتلال من جهة ورؤساء البلدية العرب من جهة ثانية (١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣) .

ويختار المؤلف للفصل العاشر عنوانا له مفزاه الكبير : « الجمر يخبو » وكأنه يقول ان العمل الفدائي أصبح يعانى حشرات الموت ! فالفدائيون طوردوا الى خارج الاراضى الاردنية ، وقيدوا فى سورية ، وهم فى طريقهم لان يحاصروا فى لبنان . هذا الوضع الصعب جعلهم يلجأون الى طرق واساليب جديدة : مزيد من خطف الطائرات (٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩) مزيد من « قتل الرهائن والاعتقال » (٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩) ، وبدء لحملة الرسائل الملقومة المتبادلة (٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥) ، ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن الهجوم الاسرائيلى الكبير الذى تعرضت له الاراضى اللبنانية ، طوال أربعة أيام فى شباط - فبراير ١٩٧٢ م ذلك الهجوم الذى اختتم بدخول الجيش اللبنانى الى المناطق التى كانت القوات الاسرائيلية قد احتلتها ، والتى كان الفدائيون قد انسحبوا عنها اثناء المعركة (٢٠٦ ، ٢٠٧) .

ويخصص « أوبالانس » الصفحات التالية للحديث عن العلاقات اللبنانية - الفلسطينية ، وعن الازمات التى مرت بها تلك العلاقات ، والاتفاق الذى « جمعد » الفدائيون بموجبه نشاطاتهم عبر الحدود اللبنانية بشكل مؤقت (٢٠٩ - ٢١٢ ، ٢٢١ - ٢٢٢) .

أن أحدهم ينتمى إلى فتح في حين ينتمى الآخرون إلى « الجبهة الشعبية » . مع العلم أن القيايين المشار إليهم هم صلاح خلف (أبو اياد) وهو أحد زعماء فتح ، وإبراهيم بكر وهو قائد فلسطين مستقل ، وفاروق قدومي وهو قائد في فتح . وفي الصفحة (٢٠٨) يقدم « أوبالانس » أكثر من دليل على نقص معلوماته عن « الجبهة الشعبية » وجذورها . فهو يقول ، مثلاً ، أن الدكتور حبش قد طرد من « حركة القوميين العرب » في العام ١٩٧٠ ، مع أن الحركة كانت قد اضمحلت قبل ذلك . أم تراه « يقصد حزب العمل العربي الاشتراكي » الذي شكل نوعاً من الامتداد التنظيمي للحركة ؟ كما أنه يقول أن الجبهة « تخلت » عن عمليات خطف الطائرات في العام ١٩٧٠ مع أنها « جمدت » تلك العمليات ولم تتخل نهائياً عنها . ومن أندح الأخطاء في هذا المجال اعتباره الدكتور وديع حداد « قائداً في قطاع غزة » مع أن عمل الدكتور حداد - كما أثبتت العمليات الإرهابية الإسرائيلية التي استهدفت حياته بالصواريخ الموجهة في بيروت منذ العام ١٩٦٩ - لم يكن في غزة فحسب ، بل وليس له أية علاقة نضالية مباشرة بغزة . والشئ ذاته ينطبق على « اتهام » المؤلف للدكتور أنيس صايغ ، وهو شخصية فلسطينية مستقلة ويعمل مديراً لمركز الأبحاث في بيروت ، بالانتماء إلى الجبهة الشعبية . ثم يعود أوبالانس فيقول بأن وديع حداد ، الذي سبق وأن صنّفه « كقائد في غزة » (٢٠٨) هو نائب زعيم « الجبهة الشعبية » وأنه التجأ « طلباً للامان » إلى أوروبا الشرقية (٢١٣) !!! كما أنه في مكان آخر (٢١٨) يقف ، بدون داع ، محتاراً إزاء الجهة التي قادت الهجوم الانتحاري الياباني على مطار اللد . هذا مع العلم أن « الجبهة

ومن الأمثلة الأخرى على الأخطاء المتفشية في الكتاب قول المؤلف في « ص ٥٣ » بأن حزب البعث في العراق قد قام باعتقال الدكتور جورج حبش في العام ١٩٦٦ و « معلومات » كهذه لا أساس لها من الصحة ، إذ لم يعتقل الدكتور حبش في العراق لا في العام ١٩٦٦ ولا في أي عام آخر . ولا يضاهاى هذا الخطأ في المعلومات سوى قول المؤلف بأن « الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين » تبنت الدعوة إلى إقامة « دولة مزدوجة القومية في فلسطين » (٧١) ، وقوله بأن أحمد جبريل الأمين العام « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » هو رئيس « جبهة النضال الشعبي الفلسطيني » (٧٢) ثم يقع المؤلف في تناقض فادح عندما يقول أن علاقات « الجبهة الشعبية » كانت علاقات خاصة وجيدة مع الحكومة السورية (٧٦) وأغلب الظن أنه يخلط هنا ما بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وبين « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » . ولعل أوسع الفجوات في معلومات المؤلف هي تلك التي جعلته يقول بأن « الجبهة الشعبية » اتصلت بشكل مباشر بالملك فيصل ، عاهل السعودية ، طالبة منه دعمها مالياً (٧٨ ، ٧٩) وغنى عن الذكر أن علاقات « الجبهة » مع الملكة السعودية كانت دوماً علاقات قطيعة كاملة . هذا وتكرر الشواهد على تشوش « أوبالانس » وعدم تمييزه بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التي يتزعمها الدكتور جورج حبش وبين « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » التي يرأسها أحمد جبريل في الصفحة (١١٨) .

ولا تتوقف الأخطاء عند هذا الحد . ففي الصفحة (١٥١) يشير المؤلف إلى اعتقال السلطات الأردنية لثلاثة من زعماء الفدائيين أثناء مجازر أيلول - سبتمبر ١٩٧٠ مشيراً إلى

ويبدو أن المثل القائل : « يعرف الكتاب من عنوانه » فيه كل الصحة أحيانا . فإن يجعل المؤلف عنوان كتابه « قوة الفدائيين العرب » مسألة لا يجوز أن تمر ببساطة ويجب أن تفهم ، ضمن سياق المغالطات التي يمتلئ بها الكتاب ، على أنها محاولة اطمس الهوية الفلسطينية في أكثر المواضع حساسية من الزاوية الاعلامية . ثم ان توقف المؤلف في عرضه عند العام ١٩٧٢ ، وعند هجوم ميونخ على وجه أكثر تحديدا ، ان هذا التوقف عند هذه النقطة الزمنية بالذات كأنما يقصد به ان يترسخ في ذهن القارئ ذلك الحدث الدموي الذي دفع اليه الفدائيون دفعا . وهو في تبريره لتوقفه عند هذا الحدث يقول أنه - أي الحدث - مثل - « بداية جديدة » في العمل الفدائي . وينسى « أوبالانس » أو يتناسى ، ان يقول لنا كيف تشكل كارثة ميونخ بداية جديدة ، وما هي معالم هذه المرحلة الجديدة التي يشير اليها (١٢) .

ثم ان المؤلف يحرص على ان تكون النتيجة الرئيسية التي يصل اليها واضحة : الحركة الفدائية الفلسطينية « لا استراتيجية لها » و « فشلت كليا » وبدأت مرحلة « انحدارها » (١٢ ، ٢٢٩) . وهو بهذا يقع في تناقض مع نفسه عندما يذكر في مكان آخر بأن المستقبل وحده هو الذي سيقدر فيما اذا كان العمل الفدائي « ظاهرة مؤقتة » أو « بداية لبقعة عربية » جديدة (١٢ ، ٢٣٣ - ٢٣٤) .

كذلك يقرر « أوبالانس » - ولا ندرى ان كان ذلك ناجما عن سلاجة كلية أو تساذجا

الشعبية « والجيش الاحمر الياباني » أعلننا أكثر من مرة مسؤوليتهما المشتركة عن تلك العملية .

الجانب الثالث : أبرز المغالطات

على الرغم من أن كاتباً عربياً واحداً على الأقل يعتبر « ادجار أوبالانس » من أشهر المؤرخين المعاصرين المعروفين بالدقة والامانة ورجاحة الرأي العسكري « (١) فاننا نبدي تحفظنا الشديد على تقييم كهذا . وقول الاستاذ كيالي في ختام مراجعته للكتاب ، « ان بعض الملاحظات والآراء الشخصية للمؤلف وان كانت قليلة ، قد تضلل القارئ لاسيما الغربى ، ففيها احكام جائرة وغير صحيحة » (٢) ان هذا القول في رأينا هو اضعف ما يمكن ان يوصف به تحيز « أوبالانس » . وليس معنى قولنا هذا ، ان المؤلف قد استخدم ، بالمقارنة مع غيره من الكتاب الغربيين ، أقذع العبارات وأشدّها للهجوم على العرب ، دائماً قصدنا القول بأن كتباً مثل كتاب أوبالانس ، واسلوباً مثل أسلوبه المستخدم في هذه الدراسة يشكل خطراً أكثر من غيره على القضية العربية ، ويمثل بالتالى تحيزاً افدح من زاوية قدرته على الاضرار بوجهة النظر العربية . فالهجوم غير المباشر ، و« تمرير » المغالطات بشكل هادئ ، والدس من خلال التظاهر بالسذاجة والبراءة ، هذه كلها تساعد على « بيع » افكار الكاتب « الشخصية » والتي هي احكام جائرة وغير صحيحة للقارئ لاسيما الغربى « - كما ذكر اعلاه .

(١) انظر مراجعة الاستاذ ماهر كيالي للكتاب ، شؤون فلسطينية ، عدد ٤٣ ، آذار - مارس ١٩٧٥ ص ١٥٣

(٢) كيالي ، المصدر ذاته ، ص ١٥٩

للحظة في مصداقية البيانات الاسرائيلية (١١٧) ، كذلك تتحول السياسة الاسرائيلية - بقدرة قلم المؤلف - الى سياسة « شجاعة » لانها « تحول اللاجئين الى عمال » (١٩٨ ، ٢٠٣) . اما استشهاد غسان كنفاني فأمر يحيط به - وفقا لأمانة « المؤلف - غموض كبير لا يعرف معه ان كانت اسرائيل وراءه ام « الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين » (٢١٢) واخيرا لا يفوت المؤلف ان « يقرر » بأن العربي انسان لا يهتم الا « حبه الفردى للحياة وتحسين وضعه المالى » وان العرب يشتهرون تقليديا بصفات « البلادة او اللامبالاة » (٢٣٠) .



وبعد ،

ثمة فجوة كبيرة بين ما يتصوره وما يقوله الناشر في معرض وصفه للمسائل الرئيسية التي يعالجها الكتاب ، وبين ما يقوله الكاتب ذاته عن طبيعة محتويات الكتاب . فالناشر ، في سعيه لتشويق القارئ ، لاسباب معروفة ، لمطالعة الكتاب ، يسارع - وعلى الصفحة الداخلية للغلاف الخارجى للدراسة - الى الادعاء بان المحتويات تجيب على الاسئلة المركزية التالية :

١ - ما الذي جعل الفدائيين يخطئون في تقدير الوضع ؟

٢ - ما هي التقديرات الخاطئة التي أدت الى اصطدامهم الكارثوى مع الجيش الاردني ؟

٣ - كيف تم دفعهم خارج « أرض فتح » في لبنان ؟

متخابثا - ان « الفرور والتقدير السيء » (من جانب الفدائيين) هو الذي أدى الى الحرب الاهلية (في الاردن) والقتال في لبنان (١١) . اى ان المؤلف - هكذا وبكل بساطة - يتجاهل دور أعداء العرب والعرب الاعداء في التحضير لتلك المجزرة وتنفيذها . كذلك فان عدم ذوبان النازحين الفلسطينيين في المجتمع العربي يتحول - في نظر « أوبالانس » الى « اهمال » من العرب للفلسطينيين (١٥) . أيضا قوله ان « نصف لبنان عربي ونصفه مسيحي » كأنما يقصد القول بان العربي هو فقط المسلم من ابناء العروبة ، او كأنما المسيحي بالضرورة غير عربي (١٦) . كذلك فان الغمز والمغالطة واضحان في قوله بأن الفدائيين لم يكونوا « محبوبين بشكل عام » في لبنان (١١٣) . ثم هو يتحدث عن اطلاق السوريين نيرانهم بشكل مستمر على « العمال الاسرائيليين » من فوق الهضبة السورية قبل ١٩٦٧ ، دونما اية اشارة الى ان احتلال اسرائيل للاراضى المنزوعة السلاح هو الذي أدى الى ذلك الموقف الوطني من جانب سورية . أيضا فان الكاتب حريص على وصف ما تقوم به اسرائيل بكلمة « قتل » في حين ينعت ما يقوم به الفلسطينيون والعرب بكلمات من نوع « اجرام » وعدوانية و « ارهاب » (الصفحات ١٩ ، ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٣١ على سبيل المثال لا الحصر) . ولا يفوت « أوبالانس » اغتنام كل فرصة للتشكيك في موقف الاتحاد السوفياتي من الثورة الفلسطينية بشكل يحس معه القارئ بضحالة التحليل الذي يقدمه المؤلف (٧٦ ، ١٢٣ ، ٢١٢) . ثم ان الكذب - حسبما يقول « أوبالانس » - يكاد يكون صفة ثانية للفدائيين عندما يكتبون بياناتهم ، دون ان يسمح لنفسه بالشك ، ولو

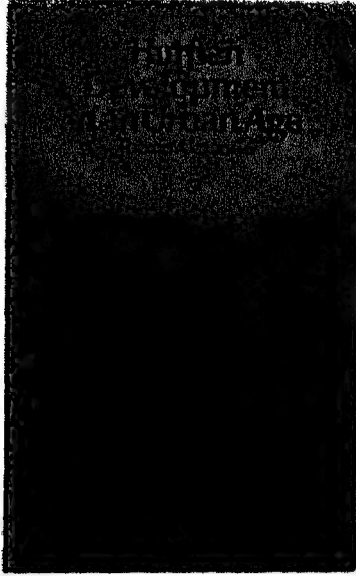
أي عبارة موجزة : يعدنا الناشر بدراسة تحليلية .

وعلى سعيد آخر ، يصف المؤلف كتابه - بتواضع يعكس الحقيقة - بأنه « سرد » للوقائع (ص ١٢) وهو فعلا ، سرد ، يتمتع بالالمام بالتفاصيل من جهة ، ويعاني - كما رأينا - من كثير من الأخطاء والمغالطات ، من جهة ثانية .

٤ - ولماذا كانت الحركات الفدائية غير قادرة على تحقيق وحدة فعالة فيما بينها ؟ .

٥ - وكذلك - والكلام للناشر - يوضح الكاتب « المسائل التي تهم العالم العربي ، يحلل الشخصيات المنغمسة في العمل ، ويستقرئ الماضي ، ويصف الحاضر ، ويعالج المستقبل » .

★ ★ ★



التنمؤ الإنسانى فى عصر التحضر

للدكتور : ثيرون الكساندر

عرض وتحليل: الدكتور سميح يعقوب القطب

الكتاب : يعتبر الكتاب من المؤلفات الحديثة، اذ صدر عام ١٩٧٣ من قبل دار النشر برنتس هول فى بلدة انجلود كليفس بولاية نيوجيرزى بالولايات المتحدة ، وقد سجل فى مكتبة الكونجرس الأمريكى . ويقع الكتاب فى ٣٢٣ صفحة بما فى ذلك الرسوم والجداول . بلغ مجموع المراجع التى استخدمت فى فصوله الثلاثة عشر ٥٩٧ مرجعا أى بمعدل ٤٦ مرجعا للفصل الواحد ، وقد تكررت بعض المراجع بين الفصل والآخر ، وتنوعت ميادينها بحيث اشتملت على مختلف قروع علم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والتربية .

وقد قسم الكتاب الى خمسة أجزاء ، تضمن كل جزء عددا من الفصول يتراوح بين فصلين وثلاثة ، يبلغ متوسط عدد صفحات

المؤلف : الدكتور ثيرون الكساندر عضو هيئة تدريس بجامعة تمبول بولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الامريكية . وقبل أن يبدأ بتأليف هذا الكتاب فقد قام بعدة نشاطات خاصة فى البحوث والدراسات التى تدور حول مشاكل المعوزين والفقراء من الاطفال والشباب . وقد تأثر فى نظريته الى التطور الانسانى من دراساته فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية فى جامعة شيكاغو ، ومن خلال خبراته كعضو هيئة تدريس فى كليات الآداب والطب والتربية فى الولايات المتحدة . وقد استغرق العمل فى اعداد هذا الكتاب مدة أربع سنوات كاملة اقتنع خلالها بضرورة ايجاد منظور آخر لسيكولوجية النمو فى الآونة الحالية . وقد ازداد اهتمام المؤلف فى الجمع بين مبادئ النمو والاضاع الاجتماعية فى فى المجتمع المعاصر .

Theron Alexander, Human Development in an Urban Age. Prentice- Hall, inc: N.J 1973.

الفصل الواحد حوالي ٢٥ صفحة بما في ذلك المراجع .

يتناول الجزء الاول بيئة الانسان ونمو المدن وقطرة الانسان على تطوير بيئته . وفي الجزء الثاني يناقش المؤلف اعداد الفرد للحياة في مجتمع المدينة الذي يتميز باختلافات في الثقافة وانماط الحياة في هذا العصر . ويعالج الجزء الثالث النمو الانساني في مجالات الذكاء واللغة والابداع ، ويتطرق الى المؤثرات الثقافية والوراثية . ويتناول الجزء الرابع النظريات ونتائج البحوث والدراسات في مسائل التعلم، والحوافز والاحاسيس عند الانسان . اما في الجزء الخامس والاخير فينحو المؤلف منحى جديدا في دراسة النمو الانساني ، بحيث يناقش موضوعات وقضايا تدور حول ضبط السلوك ، وعدم قناعة الشباب بالمجتمع المعاصر ومشاكل السلطة والحرية الذاتية .

ويختلف الكتاب عن غيره من الكتب التي تناولت مثل هذه القضايا والموضوعات في ثلاثة اشياء : الاول ، ينظر المؤلف الى نمو الانسان من خلال حيز الحياة وكجزء من النظام الايكولوجي للكرة الارضية . والثاني ، تربط النمو الانساني الى اوضاع مجتمع المدينة في الوقت الحاضر وتؤكد على عواقب التغير الاجتماعي . وثالثا ، ترود القارئ باتجاه جديد مفاده أن مبادئ النمو يجب ان تفهم من خلال علاقتها المباشرة للاوضاع الاجتماعية المحيطة بها . وبعبارة اخرى فالكتاب يركز على تحقيق الهدف النهائي وهو الخبرات التي يكتسبها الانسان في النمو والتنشئة الاجتماعية ، وبالتالي يتحدد دوره في المجتمع المعاصر . ويعتبر هذا الكتاب مساهمة علمية جادة في ميدان سيكولوجية النمو ، اذ يعالج مراحل التعلم من حيث

علاقتها بالبيئة ، وتأثر الانسان بها وتأثيره فيها . اى ان المؤلف يحاول التوصل الى قواعد وافتراسات مشتقة من اطر سيكولوجية النمو وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا .

البيئة والانسان :

ان دراسة النمو الانساني لا تقتصر فقط على عملية التعلم وكيف يستجيب أو يتغير خلال سنوات نموه ، بل أيضا على تأثير المعطيات البيئية التي تتم عملية التعلم من خلالها . وهذه المعطيات تشمل الخصائص الكونية والطبيعية ، مثل الارض والجبال والوديان والانهار ، وكذلك البيئة الاصطناعية من مدن ومنشآت . هذا بالإضافة الى خصائص التركيب الاجتماعي الذي يسهم في النمو .

واذا حاولنا تناول الانسان وبيئته نجد أن لمثل هذه الدراسة عدة مداخل تتخللها عدة وجهات نظر ، والانسان كأي عضو آخر هو جسم في الفضاء يتفاعل مع المثيرات من حوله ، ويتعلم كيف يستجيب لهذه المثيرات ويتكيف معها ، اى أن البيئة تتكون من الاشياء التي يدركها الفرد . واستجابة الفرد للبيئة تتأثر بالخبرات والجزئات والمكافئات والتحييزات والتعميمات التي تنجم عن الاستجابة للمثيرات المختلفة . وتختلف الآراء في الاطار النظري للبيئة والانسان .

يربط كيرت ليفين (Kurt Lewin) علاقة الانسان بالبيئة في مجال مدى توفر الفرص للانسان في تلبية احتياجاته الاساسية . أما بياجيه (Piaget) فيرى علاقة الانسان بالبيئة تدريجية تبدأ بالتعمق مع نمو الطفل وادراكه لما حوله للوصول الى حالة توازن من خلال عمليتين أساسيتين وهما التكيف والتمثيل . وسيجموند فرويد (S. Freud)

والمحافظة على هوية المجتمع وبقائه واستمراره .
ويشرح مقومات وخصائص النظام والعلاقات
الاسرية في المجتمع المعاصر ، وذكر أن المكانة
الاجتماعية للأسرة لا تزال مرتبطة الى حد كبير
بمهنة الأب . أما بالنسبة الى النظام التربوي
الذي أخذ يتصل بالإنسان في السنوات المبكرة
من حياته والسنوات المتأخرة (التعلم مدى
الحياة) ويواجه النظام التربوي العديد من
المشاكل المتعلقة بالمنهج والأسلوب والاختيار
والتنظيم والإدارة وحرية التعليم وغير ذلك
من المشاكل . وفيما يتعلق بنظام السلطة الذي
يتكون من الجانب التشريعي والجانب التنفيذي
فانه يتميز بالبيروقراطية والمركزية في اتخاذ
القرارات على كافة المستويات ، وتزداد
مشكلات السلطة تعقيدا مع التقدم والتحضر .
وبالنسبة الى النظام الاقتصادي فان التغيرات
التي طرأت في عمليات الإنتاج والتسويق
والاستهلاك والاستثمار كان لها آثار نفسية
 واجتماعية واسعة النطاق . وأما بالنسبة الى
النظام الديني فانه يواجه مراحل تغير الى
مواجهة تحديات العصر بالنسبة الى الوظائف
الروحية والنفسية والاجتماعية التي تؤديها
المؤسسات الدينية .

ثم تطرق المؤلف الى موضوع التنظيم الطبقي
والحرك والتغير الاجتماعي ولاحظ انه طرأ
تغيرات جوهرية في العلاقات الاجتماعية وقلت
المسافة بين الطبقات بسبب عوامل متعددة
منها نفسية واقتصادية ، ذاتية وجماعية .
وميز المؤلف بين التغير البطيء والتغير الثوري
الشامل والسريع ، وحذر من نتائج التغير
السريع في تفكك العلاقات والبناء والتنظيم
الاجتماعي .

ويخلص المؤلف الى أن الأبحاث والتغيرات
الاجتماعية هي مسئولة في خبرات التنشئة
التي تؤثر في التغير في عملية النمو الانساني .

يرى أن الخبرات السارة في تفاعل الإنسان مع
البيئة تظهر في الإدراك الواعي ، أما الخبرات
غير السارة فتدفن في الشعور اللا ارادي ،
وكلاهما يؤثر في تكوين شخصية الإنسان .
والاتجاه النظري الثالث يتصل بنظرية المثير
(Stimulus) والاستجابة (Response)
للعالم السلوكي جون واطسون (J. Watson) .
الذي يرى أن البيئة يمكن أن تصقل وتهذب
استجابات الإنسان ، خاصة عندما يكون
الثواب على السلوك متوافرا .

وقد أشار المؤلف الى أساسيات التفاعل
مع البيئة ، فأشار الى استخدام الفضاء أو
رقعة الأرض التي يتواجد عليها كعوامل
أساسية في التأثير على سلوك الإنسان ، مثل
الماوى ونوع المسكن وملائمته للتقلبات الجوية
من حرارة ورطوبة وانخفاض في درجة الحرارة .
ان هناك علاقة بين الخصائص المناخية
والوظائف العضوية والاجتماعية للإنسان .
وقد قسم المؤلف ، حسب وجهة نظر مخططي
المدن أن مساحة المدينة يمكن تقسيمها الى
ست تصنيفات منها : (١) قطاع المدينة العام
(Urban Public) ، (٢) وقطاع المدينة شبه
العام (Semi Public) ، (٣) قطاع الجماعة
— العام (Group Public) ، (٤) القطاع
الجماعي الخاص (Group Private) ،
(٥) القطاع العائلي الخاص (Family Private)
واخيرا القطاع الفردي الخاص
(Individual Private) ، كما يرتبط
استخدام مساحات المدن بعدة عوامل
اجتماعية مثل الطبقة المتقفة ومفهومها في
الافادة من المساحة ، ثم طبقة العمال ورجال
الصناعة ورجال التجارة ، أي أن لكل جماعة
اتجاه في استخدام بيئة المدينة .

ثم يستعرض المؤلف بناء المجتمع ونظمه
والعوامل التي تؤثر في ضبط وتوجيه السلوك

التنشئة الاجتماعية

كان ينظر الى التنشئة الاجتماعية من خلال نمو الخصائص الفردية للسلوك الاجتماعي ، ولم يقتصر المؤلف في مناقشته لموضوع التنشئة على المهارات الاجتماعية أو على عملية اكتساب السلوك المتعارف عليه ، بل يتطرق الى الحديث عن تأثيرات البيئة التي تشمل الجوانب الطبيعية، النظم الاجتماعية وما تتضمنه القيم والمعطيات الثقافية .

وفي هذا المجال يتعرض المؤلف الى عدد من القضايا ذات الصلة بنظرية النمو والبحوث الخاصة بها وهي : (١) أهمية خبرات الطفولة المبكرة وأنماط الاستجابات في مراحل الطفولة المتأخرة .

(٢) أهمية الدوافع أثناء سنوات النمو المبكرة وفي الأدوار السلوكية في مرحلة المراهقة .

(٣) منشأ العقبات التي يواجهها الأطفال أثناء نموهم في الاطر البيئية التي تختلف عن الاطر الطبيعية للثقافة الأمريكية مثل الذين ينشأون في المناطق المتخلفة في المدن (Slums) .

(٤) دور مكانة ووظائف المؤسسات الاجتماعية في تنشئة الأطفال .

(٥) علاقة العمل ووقت الفراغ في المجتمع المعاصر .

ان هذه القضايا تضع الاساس لفهم ضوابط السلوك الاستقلالي الشخصي ، الصراع الاجتماعي والسلطة . ويضيف المؤلف ان الثقافات تتفاوت من بيئة الى أخرى من حيث المضمون وما يتوارثه الاجيال . وأهم الخصائص الثقافية التي تؤثر في السلوك الانساني هي نماذج السلوك المعيار ، حيث ان هذا السلوك متعارف عليه وينتقل من جيل الى آخر . اما في حالة المجتمعات المعقدة المعاصرة فانه يصعب النقل للعناصر الثقافية في وحدات

متكاملة بسبب التغيرات الاجتماعية السريعة . وغالبا ما تسبب عملية النقل الثقافي الاحباط ، وهذا بالتالي يؤثر في الحافز الفردي لتطوير نماذج من السلوك المقبول أو المعياري . ويضرب المؤلف مثلا ارفض الشباب العديد من أساليب المعيشة التي يسير بموجبها المجتمع ، وبالرغم من ان هذا الرفض يمثل وجود الحاجة الى التغير فان مؤسسات المجتمع لم تبدأ استجابات واقعية لهذه المطالب .

ويتناول المؤلف موضوع التفاوت الثقافي الاجتماعي في أنماط الاستجابات ويؤكد ان مكان ولادة الفرد ، ومدى مشاركة أسرته في النشاط الاجتماعي ، ومكانة والديه في النظام الطبقي في المجتمع ، ومدى نجاحهم في اكتساب معايير سلوكية يؤثر في مكانته في المجتمع .

الدكاء واللفة والإبداع :

يتوقف الرضاء في التفاعل الاجتماعي للفرد والمجتمع على قدرة الفرد للاستجابة بكفاءة وبسلوك خلاق . وتنمو القدرات بفعل الخصائص البيولوجية والمعلومات وفرص التعلم والخبرات المكتسبة في اطار البيئة . كما يتكون ادراك الفرد بفعل قدرته على الاستيعاب والتذكر وفهم الرموز وتطوير المفاهيم ، الامر الذي ينطبق على خصائص الفرد الذي يتفاعل مع الطبيعة . وتعتبر اللفة عنصرا أساسيا في تيسير التفاعل مع البيئة والنمو الإدراكي . والقدرة على استخدام اللفة عن طريق النطق من العناصر الهامة في الدكاء ، اذ ان عدم اللياقة في استخدام اللفة هو في حد ذاته سببا ونتيجة للتخلف العقلي . كما تهم اللفة أولئك الذين يعنون بالحرمان الثقافي للأطفال في المناطق المنحلة من المدن الكبيرة . والأطفال من المناطق المتخلفة هذه عندما يدخلون المدارس بالمستوى النطقي الضعيف يواجهون الصعوبة الكبيرة في استيعاب المناهج الدراسية ، كما ان اللفة تعتبر أساسية أيضا للأطفال في عملية الحراك الاجتماعي .

العديد من الاحداث تقع عندما يتم ادراك موقف مثير ومعقد مثل حركة الدم وضغطه ، ونبضات القلب ، وتغيرات في النشاط الهرموني ، وهناك التفسير الفرويدي للمواظف وارتباطها بمواقف « الاناهو » « الانا » و « الانا الاعلى » وكذلك النظرية الفيزيولوجية العصبية التي تنص على ان الخبرة العاطفية تحرك وتتقاطع مع الوضع العصبي الطبيعي .

اما بالنسبة الى الدوافع فان السبب الذي يعمل الانسان بجديّة ، متحملاً المشاق والتعب في سبيل الوصول الى مركز ما لا ينحصر في الخصائص الذاتية للانسان والتنشئة الاسرية فقط بل أيضا في المجتمع والثقافة والبيئة . وحيث ان طبيعة الانسان مرتبطة بضوابط البيئة وعناصرها فان المجتمع السريع التغير يعمل كسبب ونتيجة للتغير في سلوك الافراد . وعندما يتغير نمط الافراد واهدافهم ، فان هذا التغير يؤثر في المجتمع .

ويتقدم المؤلف بعدة افتراضات حول القوى التي تغير الاتجاهات نحو العمل منها :

(١) تشعب الادوار للوظائف المختلفة .

(٢) الاتجاه الحديث نحو المال والنقود .

(٣) النواحي التنظيمية نحو الانجازات

(٤) وجود الانتاج التجميعي .

(٥) التنظيم الصناعي .

(٦) نمط جديد من المثالية .

(٧) تأثير الحكومة المتزايد على مصير

الانسان .

ويعد تحليل هذه العوامل وعلاقتها بالدوافع يتطرق المؤلف الى مناقشة التركيب الاجتماعي وعلاقته بالدوافع ، ويذكر بشكل

ان السلوك الابداعي والخلق المتمشي مع قدرة عقلية فائقة يعتبر ذات قيمة في التوصل الى الرضاء في الحياة العصرية . وقد يعتقد البعض ان الابداع والدكاء هما قدرتان منفصلتان ، غير انه قد تمت ملاحظة حالات عديدة حيث تواجد الابداع في الاشخاص ذوي الدكاء العالي ، وكذلك حالات عديدة لا تتمتع بدكاء منخفض قلما يمكن تسمية السلوك عندها « خلاقا » .

ويضيف المؤلف ان البحث عن « نوع الحياة » هو هدف للعديد من الناس في المجتمع المعاصر ويعتمد على المنهج الابتكاري الذي يمارسه الفرد ، ولتحقيق ذلك لا بد من توفير المجال ، في مراحل النمو المختلفة ، لاكتساب الخبرات والفرصة لاكتشاف البيئة بأقل توجيه من الآخرين . ان الخبرات التي يكتسبها الاطفال في النظام المدرسي المعاصر تفتقد بدرجة كبيرة الى مثل هذا الانفتاح والتفاعل بين الفرد والبيئة من حوله . ويعتمد نوع « نمط الحياة » المرص في المجتمع المعاصر بدرجة كبيرة على قدرة الفرد لايجاد حلول للعديد من المشكلات .

المواظف والدوافع والتعلم

ان النظريات ونتائج البحوث المتضاربة تؤكد عدم التوصل الى تعريف دقيق للمواظف والدوافع بالرغم من التقدم في هذه البحوث ، الا ان الكثير غير معروف بعد .

وفيما يتعلق بالمواظف فقد تطرق المؤلف الى بعض النظريات مثل نظرية جيمس لانج James Lang التي تشير الى ان العاطفة تتبع الحالة العضوية . اما النظرية السلوكية عند جيمز واتسون James Watson فتحدد العاطفة على اساس الامتداد والسرور والالم . وبالنسبة الى نظرية كانون - بارد Canon - Bard فانها ترسي مسؤولية المواظف على الجهاز العصبي ، على اساس ان

اكتشاف الحياة وكما ينمو الطفل باحاسيسه
وادراكاته واستجاباته فان البيئة من حوله
تنمو ايضا ، وعلى الوالدين والمسؤولين في
المدرسة مساعدة الطفل في كل مرحلة تغيير في
حياته عند دخوله المدرسة ، عند وصول سن
البلوغ ، وعند وصوله المراحل التي يواجه
فيها حياته .

واذا نظرنا الى بيئة المدينة فنجد أن هناك
العديد من الاوضاع التي تسبب السلوك
الانحرافي والاحباط والمضايقات مما يؤدي احيانا
الى انزواء الفرد وتقليل اتصالاته مع الآخرين
وتجنب الازدحام والاماكن العامة . وعدم
التفاعل الايجابي يؤدي الى عدم الالتزام
بالقواعد الاجتماعية ويطور السلوك الانحرافي
الفردى (الدائى) الذى يتخذ مظاهر متنوعة .

وللحد من السلوك الانحرافي وتدعيم التنشئة
السليمة يتطرق المؤلف الى الضبط الداخلى
والخارجي متضمنا العقاب الجسمى والمعنوى
بدرجات متفاوتة حسب درجة ونوع المخالفة ،
ويؤكد أهمية الضبط الذى يستخدم العقاب
المعنوى لمزاياه العديدة . اما كيف يمكن للفرد
استيعاب السلوك المعيارى وتطبيقه فانه في
التدريب المبكر وفق قواعد تأخذ بعين الاعتبار
اسس التعلم الحديثة والخصائص البيئية
والثقافية والتغيرات التى تحصل فى المجتمع
وادخال التغيرات فى أساليب التنشئة حتى
تستجيب للمثيرات المستجدة فى الحياة
المعاصرة .

ويستعرض المؤلف بعض القضايا الاجتماعية
فى مجتمع المدينة فى أمريكا خاصة أن المعارضة
التي يبديها الشباب ترتبط بالتطور التاريخي
للكيان الاجتماعي لمجتمع المدينة ، وأهم الأحداث
التي ساهمت فى ابراز المعارضة بعد الحرب
العالمية الثانية أولا - مقامه مارتن لوتر كينج
ومطالبته بتطبيق الحقوق المدنية ، ثانيا -
المعارضة الشديدة لحرب فيتنام ، ثالثا -

خاص تأثير الاسرة على التحصيل وتدعيم
مستوى الطموح عند الفرد ، كما اشار الى
دور المدرسة والمناهج والنشاط المدرسي فى
عملية التحصيل ، وكذلك النظام الطبقي فى
المجتمع ، والحراك الاجتماعي والاهداف الفردية
فى المجتمع الحضري . ويمتاز المجتمع الحضري
المعاصر بالمرونة والحرية النسبية ، والاتجاهات
والثقافات المتباينة التي تؤثر فى الدوافع ،
وبالتالى فى سلوك الانسان .

الفرد والمجتمع - المراهقة ومرحلة الكبار المبكرة

ماهي مواطن النجاح والفشل فى عملية
التنشئة ؟ وماهي بعض الاوضاع فى المجتمع
التي تساعد او تثبط مصير الانسان فى المجتمع
المعاصر ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي يطرحها
المؤلف فى الجزء الاخير من كتابه ، وقد اخذ
بعض الاعتبار عند السرد على هذه التساؤلات
بعض القضايا الاساسية المتضمنة فى السلطة ،
الاستقلالية ، القوة والصراع فى المرحلة
الحضارية المعاصرة .

بالنسبة الى التنشئة فان السؤال المطروح
هو كيف يمكن للفرد أن يتعلم استيعاب قواعد
المجتمع بحيث يراعى القيم الاجتماعية ويحقق
السلوك الاجتماعى دون أن يكون هذا السلوك
مبنيا على الخوف ؟ وبالتالي كيف يمكن
لضمون ما يستوعبه الفرد أن يتغير تدريجيا
وبصورة منتظمة للوصول الى التغير الاجتماعى
بدون تضحيات من قبل الفرد غير لازمة ، او
تفتيت النظام الاجتماعى .

ويقترح المؤلف ان مبادئ التعلم يمكن
استخدامها فى فهم عملية الاستيعاب ، ويحدد
الأوضاع التى تتم بموجبها العملية . مثلا -
فى حالة الطفولة المبكرة حيث تبدأ مرحلة

التي يواجهها الفرد في مجتمع المدينة الصعوبة في تحديد الهدف والمعنى لحياته ، حتى ان البعض يواجه صعوبة في الانتساب الى الضاحية او المجتمع السكنى الذى يتواجد فيه .

وحتى يتمكن الفرد من تلبية احتياجات الدور المتوقع منه في المجتمع الحضري لا بد أن يتعلم الاشياء التالية خلال سنوات نموه : أن يعمل بجد ولوقت طويل ، دون توقع مكافأة ، ومواصلة العمل بعد الجهد الضائع ، ضبط الحواس والشعور حول متطلبات العمل المعقد والطويل ، الاهتمام والمتابعة للتعليمات للمواقف السلوكية المعقدة ، استيعاب الحقائق والمناهج والاساليب لتنفيذ العمل ، التفاعل والاتصال مع الآخرين .

ويتناول المؤلف في الفصل الاخير موضوع القوة الاجتماعية والتعلم الاجتماعى في المجتمع الديموقراطي ، ويطرح التساؤل التالى : هل يحصل الفرد على الرضاء بصورة اوفر في المجتمع الديموقراطي ؟ واذا كان الامر كذلك فما هى الخصائص النظرية والعلمية للديموقراطية ؟ وبالتالي لماذا يبدو ان بعض افراد المجتمع يحصلون على رضاء اكثر من الآخرين .

بالنسبة للديموقراطية فهناك النظرية الكلاسيكية والعقائى التنظيمية ، وحسب النظرية الكلاسيكية يؤثر الافراد في السياسات عن طريق ممثلين يعكس اتجاهاتهم ورغباتهم . ويعتبر التنافس اساسا للتنظيم ، والقيادة تسعى جادة لمرأاة رأى واتجاه الاغلبية .

وتحدد قدرة الفرد على التفاعل مع القوة والضبط في المجتمع المعاصر بموجب الخبرات التي يكتسبها في مراحل نموه . ويجب ان يكون التعليم عن القوة والسلطة والقدرة الذاتية

الاقضاء والابتعاد عن المجتمع مثل تعاطي المخدرات وفقدان المعايير السلوكية الجنسية .. الخ .

والراديكالية الجديدة في المجتمع المعاصر لها ، في حد ذاتها ، مقومات شخصية واجتماعية ، ولمواجهة هذه الراديكالية عند الشباب فان على المؤسسات الاجتماعية ، مثل الجامعة ، دورا كبيرا في تقديم المثل الأعلى لتوجيه السلوك وتعميق الخبرات العلمية والعملية التى تتمشى مع معطيات التغير الحضارى . كما ان على الجمعيات والاندية والمنظمات التى ينتمى اليها الفرد بقصد اشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية دورا هاما في توفير المناخ الصحى واتاحة الفرصة لبناء علاقات وقيم اجتماعية معاصرة لتساعد الفرد على مسيرة التغير واستيعابه في حياته وقيمه ومبادئه .

واما فيما يتعلق باستقلالية الفرد في مجتمع المدينة فيقول المؤلف ان ليس هناك ما يسمى استقلالية كاملة . والاستقلالية هي شىء محدود ونسبى ومتغير خلال فترة الحياة ، لأنها تتوقف على الاوضاع الاجتماعية من ناحية ، ولأن الفرد لا يستغنى عن اعتماده على الآخرين من ناحية أخرى .

وحيث أن النشاط الاجتماعى والاقتصادى والأسرى والسياسى يحتاج الى الاتجاه التخصصى فان متطلبات التخصص والتدريب والاعداد للدور المحددة يتطلب من الفرد التعرض لمواقف نفسية واجتماعية معقدة وجديدة ، كما ان البيروقراطية في المنظمات والعمل تشكل العلاقات المهنية والاجتماعية الجديدة ، كما تعرض الفرد للمواقف والضغوط والانفعالات التي يجب ان يتكيف لها ويتأقلم مع البيئة والمعطيات الجديدة . ومن المواقف

الا أن المؤلف في مناقشته للابعد المشار إليها لم يتوصل في النتيجة الى نظرية أو قاعدة يمكن تجربتها بالبحوث الميدانية ، واكتفى بإبراز مختلف جوانب العلاقة بين الفرد والبيئة، مشيراً الى النظريات القديمة والمتطورة فيما يتعلق بالنمو والتشئة والدكاء والتعلم .

والعبرة اتى يمكن استخلاصها من هذا الكتاب ، ان الفرد في بيئة المدينة في المجتمع الأمريكي المعاصر تتجاذبه عدة اتجاهات متضاربة في التركيب الاجتماعى والسلطة والتنظيمات السياسية والاقتصادية ، وتؤثر عليه وتعمق في سلوكه اتجاهات سلبية مثل ما يحصل حالياً في ثورات الشباب والمواقف السلوكية السلبية .

واذا ما تساءلنا عن مدى الافادة من هذه الدراسات والخبرات التي تعرض لها المؤلف وعرضها بين صفحات هذا الكتاب في واقع مجتمعنا العربي الذي يمر في مرحلة تغيرات سريعة وواسعة ، لها تأثيرات متفاوتة على سلوك الفرد وعملية التشئة الاجتماعية ، وتقييم الوضع الراهن والسياسات والمفاهيم التي تستخدم في التوجيه الاسرى والمنظمات التربوية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ؟ كما أن هناك حاجة ماسة الى اجراء المزيد من الدراسات حول كيف الفرد مع البيئة في المجتمعات العربية الحضرية .

هذا وقد اكتفى المؤلف في عرض المشكلة وتشخيص مثل السلوك الانحرافى والانعزالى، كما أنه اكتفى بالتنويه عن دور الاسرة والمدرسة في تكوين الاتجاهات لدى الفرد ، ولكن لم يتطرق الكتاب الى اقتراح بعض الحلول والوسائل التي تحقق التوافق والتماثل بين الفرد والنمو الاجتماعى في المجتمعات الحضرية.

للتأثير فيها أو تحقيقها جزءاً من عملية التشئة . وإذا كان الشباب اليوم يرفضون جميع السلطة والقوة ، فهم بحاجة الى دراية ومعرفة عن النتائج المترتبة على هذا الرفض . ويمكن تحقيق مثل هذا التعلم من خلال المؤسسات الاسرية والتربية . ويجب أن نقر بأن الخبرات التي يكتسبها الشباب اليوم لم تساعدهم في مواجهة مشكلة ايجاد المكانة المناسبة لهم في المجتمع . وإذا اردنا مساعدة الشباب في الوصول الى حالة الرضاء عندما يقومون بادوار الكبار فلا بد من أن ندرك مزايا وقيم ونواقص التنظيمات والمنظمات الاجتماعية . وإذا اردنا تحقيق التغير الاجتماعى والمجتمع الافضل فيجب علينا أن نغير الاهتمام الكافي للوسائل والاساليب والطرق المناسبة لتحقيق التغيرات المرغوبة . والخبرات التي يكتسبها الفرد في نموه لا يمكن أن تكون ميداناً للبحث بصورة منفصلة عن المجتمع والثقافة التي تتم من خلالها عملية النمو ذاتها .



يعتبر هذا الكتاب من المؤلفات الحديثة التي تناولت موضوع النمو الانسانى في بيئة المدن في المجتمعات المعاصرة ومصير الانسان وعملية التشئة الاجتماعية والدكاء واللفة والابتكار والعواطف والدوافع والتعلم، وكذلك المؤثرات في مراحل النمو في فترة المراهقة وما بعدها .

وقد تمكن المؤلف من اضافة منهج جديد في دراسة النمو الانسانى ، وهى ربط النمو بالبيئة الاجتماعية والطبيعية ، وقدم الدراسات التي تبين مثل هذا الربط ودعا الى المزيد من البحوث في مختلف ميادين النمو النفسى والاجتماعى والبيولوجي .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الاعداد القادمة

1. Bottomore, Tom, Marxist Sociology,
Macmillan Press, 1975.
2. Devlin, D. D., Jane Austen and Education,
Macmillan Press, 1975.
3. Hudson, Donald W., Wittgenstein and Religious Belief,
Macmillan Press, 1975.
4. Hudson, Kenneth, A Social History of Museums,
Macmillan Press, 1975.
5. John Lewis, Max Weber and Value-Free Sociology, Lawrence & Wishart, London,
1975.



العدد التالي من المجلة

العدد الاول - المجلد الثامن

ابريل - مايو - يونية - ١٩٧٧

قسم خاص عن

التراث

بالاضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال	٣	ليرة
السعودية	٥	ريال	٢٥٠	ملياً
البحرين	٤٠٠	فلوس	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلوس	٣٥	قرشاً
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	٤٠٠	بابك
العراق	٣٠٠	فلوس	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلوساً	٥	دراهم
سوريا				
المتاهرة				
النودان				
لتيبيا				
ميسقط				
الجزائر				
تونس				
المغرب				

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

التمت
٢٥٠
فلوساً

